الإحاطة
في أخبار غرناطة

لذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب

حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه

محمد عبد الله عنان

المجلد الثالث

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

الطبعة الرابعة

١٤٢١ هـ = ٢٠٠١ م

رقم الإيداع : ٢٠٠١/٣٧٣٤

الترقيم الدولى : 2 - 91 - 5046 - 977

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

: ٣٣٨٢٤٠ - ٣٣٨٢٤٢ - ٠١١/٣٣٨٢٤٤

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا هو المجلد الثالث من كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » . نقدمه إلى القراء والباحثين ، فى كثير من الغبطة والحمد والرضى .

ولقد استوعبنا فى مراجعة المجلدين ، الأول والثانى ، من هذه الموسوعة الأندلسية الجليلة ، سائر المخطوطات التى نوهنا بها فى مواطنها ، فى مقدمة كل من هذين المجلدين . والآن ينحصر مدى المراجعة بالنسبة لهذا المجلد الثالث من « الإحاطة » فى أصلين مخطوطين .

الأول ــ مخطوط « المكتبة الزيدانية » ، المحفوظ بمكتبة دير سان لورنزو بالإسكوريال ، برقم ١٦٨٨ الغزيرى ورقم ١٦٧٣ ديرنبور .

الثانى ــ مخطوط جامع الزيتونة بتونس ، المحفوظ الآن بدار الكتب الوطنية التونسية ، الجزآن الثانى والثالث ، ويحملان رقمى 8135 و 8136

واعتمدنا فى المراجعة والتحقيق إلى جانب هذين الأصلين المخطوطين ، على عدد من المراجع والموسوعات الأدبية والتاريخية ، مثل «نفح الطيب» ، و «أزهار الرياض » للمقرى ، و « الذيل والتكملة » ، للقاضى ابن عبد الملك المراكشى ، «وصلة الصلة» لأبى جعفر بن الزبير ، «وجذوة الاقتباس» لابن القاضى ، وغيرها مما سبق أن ذكرناه فى ثبت المراجع فى نهاية المجلد الأول .

ويبدأ هذا المجلد الثالث من « الإحاطة » بترجمة محمد بن يحيى بن عبد الله ابن محمد بن أحمد العزفى ، وينتهى بترجمة عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين العكى ، ويشغل من مخطوط الإسكوريال المشار إليه مائة وثمان وتسعين

لوحة ، من اللوحة ٨٥ إلى اللوحة ٢٨٣ ،ويستغرق بقية السفر الثامن من«الإحاطة» ثم السفر التاسع بأكمله ، وجزءا من السفر العاشر :

ويختلف هذا المجلد الثالث من « الإحاطة » عن سابقيه في عدة أمور ، أولها توخى الإيجاز فى كثير من التراجم . ويبدو ذلك من مقارنة عدد التراجم التى يحتويها هذا المجلد، بما يحتويه منها كل من المجلدين الأول والثانى . فبينما يحتوى المجلد الأول على ست وتسعين ترجمة ، ويحتوى المجلد الثانى على اثنين وثمانين ترجمة ، إذا بالمجلد الثالث يحتوى على مائة وأربع وتسعين ترجمة . وفى اعتقادنا أن ذلك يرجع بالأخص إلى سببين ، الأول توخى ابن الخطيب الإيجاز فى كثير من التراجم الملوكية والخلافية الأندلسية، مثل تراجم عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) ، والمطرف بن عبد الله بن محمد ، وعبد الرحمن الناصر، والخليفة المرتضى بالله وغيرهم ، وذلك لأنه تناول أخبارهم مفصلة فى كتابه « « إعمال الأعلام » . هذا بينما يفيض ابن الخطيب ، إفاضة ظاهرة فى المجلدين الأول والثانى ، فى تراجم سلاطين الدولة النصرية ، ولاسيما سلطانه محمد الغنى بالله . الذى تشغل ترجمته ، وما يتبعها من رسائل ، ثمانين صفحة من المجلد الثانى . والسبب الثانى هو تصرف ناسخ مخطوط المكتبة الزيدانية : بالاختصار المخل فى كثير من تراجم النصف الثانى من هذا المخطوط ، وحذفه معظم أبواب « المشيخة »،ومعظم القصائد والرسائل النثرية ، الملحقة بكثير من التراجم ، أو الاقتصار على اليسير منها .

على أن المجلد الثالث من « الإحاطة » يحتوى مع ذلك على كثير من التراجم الهامة ، والتراجم المطولة ، كما يحتوى على مجموعة من التراجم الملوكية . ونستطيع أن نذكر من التراجم الهامة التى وردت فى هذا المجلد ، من العلماء ورجال التفكير والأدب ، تراجم محمد بن يحيى بن أحمد العزفى ، ومحمد بن أحمد بن مرزوق العجيسى ، ومحمد بن عبد المنعم الصنهاجى الحميرى ، وأبى جعفر بن الزبير ، ومحمد بن يحيى بن عباد النفزى ، ومحمد بن يوسف بن خلصون ، وصالح بن شريف الرندى ، وعبد الله بن إبراهيم بن وزمر الحجارى ، وعبد الله بن

يوسف بن رضوان النجارى ، وعبد الرحمن بن خلدون الحضرمى ، وعبد الرحمن ابن يخلفتن الفازازى ، وعبد الملك بن حبيب ، وابن أبى السداد الباهلى ؛ وعبد الحق بن محمد بن عطية المحاربى ، وعبد الملك بن سعيد بن خلف العنسى ، وعبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن الحضرمى ، وعبد الحق بن إبراهيم بن سبعين العكى وغيرهم . ومن تراجم الزعماء والأمراء والملوك : منذر بن يحيى التجيبى ، وأبو حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن ، والسلطان أبو الجيوش نصر بن يوسف ابن نصر الأنصارى ، والصميل بن حاتم ، وعبد الله بن بلقين بن باديس ، وعبد الرحمن الداخل ، وعبد الرحمن الناصر ، وغيرهم .

وقد اتبعنا فى هذا المجلد ، نفس ماسبق أن اتبعناه فى المجلدين السابقين ، من مقارنة النصوص المخطوطة ، والتعريف بالأعلام الجغرافية والتاريخية . ومن الواضح أن التعريف بهذه الأعلام قد جرى فى هذا المجلد على نطاق محدود نظرا لما سبق التعريف به فى المجلدين السابقين من الأعلام الكثيرة . الواردة فى كتاب « الإحاطة » . ومن ثم فقد جرينا بالنسبة للأعلام المكررة فى هذا المجلد ، على الإحالة على المجلدين السابقين .

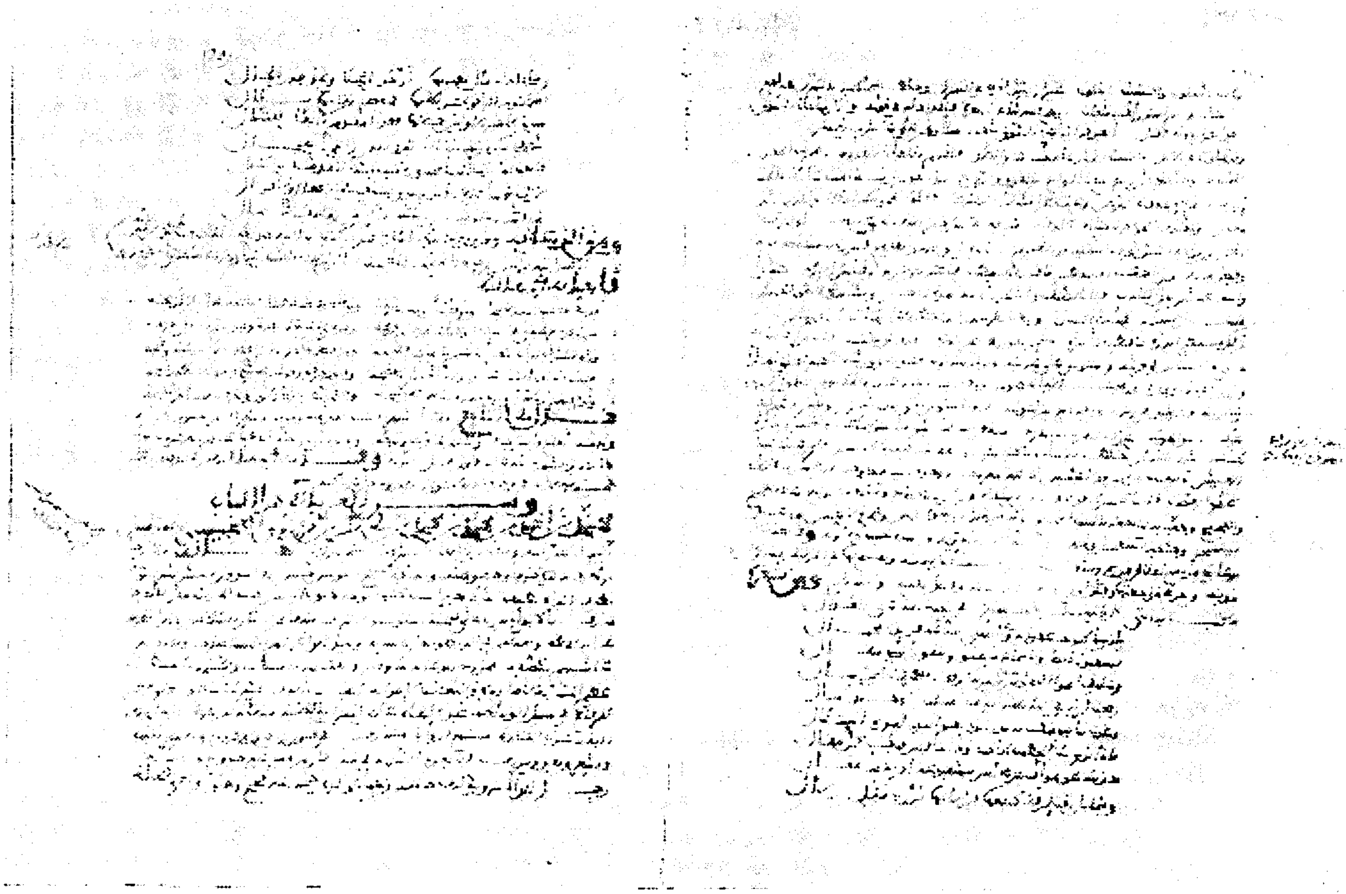
ونود أن نستدرك هنا سهوا وقع فى وصف « السفر الثانى » (الجزء الثانى) من مخطوط «الإحاطة» ، وهو مخطوط المكتبة الزيدانية المحفوظ بمكتبة الإسكوريال برقم ١٦٨٨ الغزيرى ، ورقم ١٦٧٣ ديرنبور ، فقد ذكرنا فى مقدمة المجلد الأول من الإحاطة أنه مكتوب بخط أندلسى (ص ١٣) . والحقيقة أنه مكتوب بخط مغربى . وقد أشرنا إلى ما ذكر فى نهاية هذا المخطوط من أنه قد تم نسخه بغرناطة فى أوائل شهر ربيع الأول من عام خمسة وتسعين وثمانمائة (ص ١٤) . وهذا يقصد به بالطبع المخطوط الأندلسى الأصلى ، الذى تم نسخه بغرناطة فى هذا التاريخ . ومن الواضح أن مخطوط المكتبة الزيدانية قد نقل عن المخطوط الأصلى ، وأدمجت فيه هذه الإشارة التى وردت فى خاتمته ، ونقل بالخط المغربى ، إما بغرناطة ذاتها قبل السقوط ، أو بالمغرب من نسخة منه كانت قد نقلت إليه ، واستطاع السلطان مولاى زيدان أن يحصل عليها ، وأن يضمها إلى مكتبته النفيسة .

هذا ، وقد بقى علينا بعد إخراج هذا المجلد الثالث من « الإحاطة » أن نخرج المجلد الرابع ، ثم السفر الثانى عشر منه ، وهو المتضمن لترجمة ابن الخطيب لنفسه . ويشتمل هذا المجلد الرابع والأخير من « الإحاطة » على بقية تراجم حروف العين ، والغين ، فالفاء ، فالسين ، فالهاء ، فالياء ، ويحتوى على مائة وإحدى وعشرين ترجمة ، تليها ترجمة ابن الخطيب لنفسه . وهى ترجمة مستفيضة تشغل نحو مجلد بأسره . وبإخراج هذين القسمين الأخيرين ، نختتم ، بعون الله وتوفيقه ، هذه الموسوعة الأندلسية الكبرى .

القاهرة فى غرة رمضان سنة ١٣٩٥ هـ

الموافق ٦ سبتمبر سنة ١٩٧٥ م

محمد عبد الله عنان



صفحتان من مخطوط الإيضاح – مخطوط المكتبة الزيدانية المحفوظة بمكتبة الإسكوريال برقم ١٠٧٣ عربي

رموز المخطوطات

رجعنا فى تحقيق هذا المجلد الثالث من « الإحاطة » حسبما تقدم إلى المخطوطين الآتيين ، ونرمز لكل منهما فى حواشى الكتاب على النحو الآتى :

١ – مخطوط مكتبة دير الإسكوريال المحفوظ بها برقم ١٦٨٨ الغزيرى ورقم ١٦٧٣ ديرنبور ، ونرمز له بكلمة « الإسكوريال » .

٢ – الجزآن الثانى والثالث من مخطوط جامع الزيتونة بتونس ، المحفوظان الآن بدار الكتب الوطنية التونسية برقمى 8135 و 8136 ونرمز لهما ، بكلمة « الزيتونة » .

الإحاطة
فى أخبار غرناطة

المجلد الثالث

محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن أحمد العَزَفى

من أهل سَبْتة ، أبو القاسم بن أبى زكريا بن أبى طالب[(١)]

حـالـه

من أهل الظَّرف والبراعة ، والطبع المَعين ، والذكاء ، ربِيس سَبْتة ، [وابن رؤسائها][(٢)] ، وانتقل الى غرناطة عند خلعه ، وانصرافه عن بلده . أقام بها ، تحت رَعْيٍ حسن الرُّوا ، مألَّفًا للظرفاء ، واشتهر بها أدبه ، ونظر فى الطِّب ، ودوَّن فيه ، وبرع فى التَّوْشِيح . ثم انتقل إلى العُدْوة ، انتقال غِبْطَة وأَثَرَة ، فاستُعْمِلَ بها فى [خُطط نبيهة][(٣)] ، وكتب عن ملوكها ، وهو الآن بالحالة الموصوفة .

وجَرَى ذكرُه فى « الإكليل » بما نصَّه : فرع تأَوَّد[(٤)] من الرياسة فى دَوْحة ، وتردَّد بين غَدْوةٍ فى المجد ورَوْحة ، نشأ والرياسة العَزَفِيَّة ، تَعِله

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (أبو القاسم بن أبى يحيى) .

(٢) هذه الزيادة واردة فى الزيتونة . ونود أن نذكر بهذه المناسبة أن رياسة آل العزفى لسبتة بدأت فى سنة ٦٤٧ هـ ، حينما قالت بها الثورة ضد الموحدين ، وانتهت باختيار قاضيها وكبير علمائها أبى القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن الحسين اللخمى العزفى رئيسا لها . واستمرت رياسة أبى القاسم لسبتة (وأحيانا لطنجة وأحوازها) حتى وفاته فى سنة ٦٧٧ هـ ، وهو الذى أكمل كتاب أبيه العلامة الورع الزاهد أبى العباس العزفى (الدر المنظم فى مولد النبى المعظم) . وخلفه فى إمارة سبتة ولده عبد الله أبو طالب واستمرت رياسته حتى استولى بنو مرين على سبتة فى سنة ٧٠٥ هـ . وتوفى مخلوعا بفاس سنة ٧١٣ هـ وتولى بعض أفراد الأسرة بعد ذلك رياسة سبتة من قبل بنى مرين ، فتولى يحيى والد المترجم له رياستها حتى وفاته فى سبتة سنة ٧١٩ هـ ، ثم تولى ولده المترجم له الرياسة عقب وفاته ، وخلع فى صفر سنة ٧٢٠ هـ ، وانتقل إلى غرناطة . وكان آل العزفى من أعرق أسر سبتة جاها وعلما وفضلا .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الخطط النبيهة) .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال ، والنفح ؛ وفى الزيتونة (يتأود) .

وتَنهله ، والدَّهْر [١] يُيَسِّر أمله الأقصى ويسهِّله ، حتى اتَّسَقَت أسباب سعده ، وانتهت إليه رياسة سَلَفه من بعده ، فألْقَت إليه رِحالها وحَطَّتْ ، ومتَّعته بقربها بعدما شطَّت . ثمَّ كَلَح له الدهر بعد ما تبسَّم ، وعاد زَعْزَعًا نسيمه الذى كان يَتَنسَّم ، وعاقَ هلاله عن تِمِّه ، ما كان من تغلُّب ابن عده ، واستقَرَّ بهذه البلاد ، نائى [٢] الدار بحكم الأقدار ، وإن كان نبيه المكانة والمقدار ، وجرت عليه جِرَايةٌ واسعة ، ورعاية مُتتابعة ، وله أدبٌ كالرَّوض باكَرَته الغمايم ، والزَّهْر تفتَّحت عنه الكمايم ، رَفَعَ منهُ رايةً خافقة ، وأقام له سوقًا نافقة . وعلى تدفُّق أنهاره ، وكثرة نظمه واشتِهاره ، فلم أظفر منه إلا باليسير التافه بعد انصرافه .

شــــعره

قال : أفديك يا رِيح الصَّبا عوجى على تلك الرُّبا
واحْدِ النَّعامى سَحرا تُرسل غماما صَبــا
على رُبَى غَرْناطـــة لكى تقضى ماربــا
ثم أبلغى يا ريح عن صبٍّ ســـلاما طيِّبا

ومن منظومه أيضًا فى بعض القضاة الفاسِيِّين ، وهو من البديع ، وورَّى فيه ببابين من أبواب المدينة :

وُلِّيتَ بفــاس أمور القضــا فأحدثت فيها أُمورًا شنيعة [٣]

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح ، وفى الزيتونة (والزمن) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (نازح) .
(٣) هكذا ورد هذا البيت فى الإسكوريال «والزيتونة» . وورد فى « جذوة الإقتباس » لابن القاضى كالآتى :
(أقاضى فاس لقد شنتها واحدثت فيها أموراً شنيعة)
(طبعة الرباط ١٩٧٣ – ص ٣٠٠)

فتحْتَ لنفسك باب الفتوح — وَعَلَقْت للناس باب الشّريعة
فبَادَرَ مولى الورى فـــارس — بعَزْلك عنها قُبيل الذَّريعة(١)

وقال :

دع عنك قول عواذل ووشاة — وأدِر كؤوسك يا أخا اللَّذات
واخلع عِذارك لاهياً فى شُرْبِها — واقطع زمانك بين هاك وهاتِ
خذها إليك بكف ساقٍ أغْيَد — لين المعاطف فاتِر الحركات
قد قام من ألحاظه إنسانها — مُثبتا فى فتـرة اللحظـات
يُسقيكَها حمراءَ يسطع نورها — فى الكاس كالمصباح فى المِشْكات
رُقت وراقت فى الزُّجاجة مَنظَرا — لما عدت تُجلى على الرَّاحات
لا تمزِجَنَّها فى الأبارق إنهـا — تَبْدُو محاسنُها لدى الكاسات
عجبًا لها كالشمس تغْرُب فى — فمٍ لاكنّ مطَالِعَها من الوَجَنات
نلنا بها ما نشْتهِيه مِن المُنـا — فى جنَّة تُزْهى على الجنَّات
رَفَتْ عليها كلُّ طلٍّ سَجْسَج — من كل غضٍّ يانع الثمرات
ما بين خَضِر حدايق وخمايل — وجداول تُفضى إلى دَوْحات
سَرَى النسيم بها يصافح زهره — فيهبُّ وهو مُورَّج النفحات
وشدا لنـا فيها مُغَنٍّ شـادن — حاز المدا سَبْقًا إلى الغايات
طَرِبت له القُضُب اللِّدان وبادرت رجعا له تختال فى الحَبَرات
مرت عليه ركَّعًا لاكنهـا — جعلت تحيَّتها لدى الرّكعات
قصرت صلاة الخوف منه فقرَّبت — قُرْبانها وحفَّته بالزَّهرات
والعُودُ مَثْناهُ يُطَابقُ زيَّهَـا — فى رِدانات على رنَّـات
إن جُس مثلثه بان بغُنَّة — فى اليمِّ منه ثقيلة النَّغمات
فكان ما غنَّت عليه الوُرْقُ من — ألحانها ألقـاه للقِينـات

---

(١) هذه الأبيات الثلاثة هى التى وردت فقط من شعر العزنى فى مخطوط الزيتونة .

عَكَفَت على ألحانها تَشْأُو لنا   خلف السَّتاير باختلاف لُغَات
فكأنها عُجْم توارت بالحجاب   وردَّدت سوراً من التَّورات
نطقت بأفصح نَغَمَة فى شدوها   تتلو علينَا هذه الآيات

ومما أنشده ليلة ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إذَا لَمْ أُطِق نَحْو نَجْدٍ وصولاَ   بعثْتُ الفُؤَاد إلَيْها رَسُولا
وكم حَلَّ قَلْبِي رهِينًا بها   غداة نَوَى الرَّكْبُ فيها النزولا
محل بها فى الحِلال التى ضُحىً   أصبح القوم فيها حلُولا
وكم بتُّ فيها غداة النَّوى   أَسحُّ من الْعَيْنِ دَمْعًا همُولا
على شَمْس حُسْن سما ناظرِى   إليها وعَنِّى تَوَارَت أُفُولا
وَقَفْتُ بوادى الغَضا ساعة   لعَلِّى أَنْدُبُ فيها الطُّلُولا
وفى البان من أيْكِه ساجع   يرجِّع بالقضبِ منها الهديلا
بحقِّ الهوَى يا حمام الْحِمَى   ترفَّق بقلْبِي المُعَنَّى قَلِيلا
فَقَدْ هِجْت تالله أَشواقه   بذكرك إلفا ثانى أو خَلِيلا
أَلَمْ تَدْر أن ادّكارى الهوَى   يُذِيب ويُعنى الفُؤاد العَلِيلا
رعى الله تلكَ المطايا الَّتى   إلى الحجّ وَخْدًا سَرَت أو ذميلا
ويا عجبا كيف خفَّت بهم   وحمَّلت القَلْب حملا ثَقِيلا
وَوَدَّعنى الصبر إذ ودَّعُوا   فما أنْ وجدت إليه سبيلاَ
وآثَرْتُ ياويح نفسى المقام   وآثَرَ أَهْل الوِداد الرَّحِيلا
وجادوا رَجا الرِّضا بالنفوس   وكنْتُ بنَفْسِي ضنِينًا بخِيلا
نَدِمْتُ عَلَى السَّيْر إذْ فاتنى   ولازمتْ حُزْنِي دهرا طويلا
وفاز المخفُّون إذْ يمَّمُوا   منازِلَ آثارُها لن تزولا
وحجُّوا وزاروا نبيَّ الهدى   محمدا الهاشمى الرسولا

وفازوا بإدْرَاك ما أَمّلُــوا ونالُوا لَدَيْهِ الرِّضا والْقَبُولا
وَلو كنت فى عزمهم مثلهم إذًا لانْصرفت إليه عَجُولا
ولاكننى أَثْقَلَتْنِى الذنوب وما كنت للثُّقْل منهـا حَمُولا
ركبت مطيَّة جهل الصِّبـا وكانت أوان التَّصابى ذَلُولا
ومالت بى النَّفْس لحو الهوى وقدْ وجَدَتْنى غُـرًّا جَهُـولا
فَطُوبى لمنْ حَلَّ فى طيبـةٍ وعَرَّس بالسَّفح منها الحمُولا
ونال المُنَى فى مِنًى عند مـا نوَى بالمَنـازل منها نُـزولا
وأَصْفى الضمايرَ نحْو الصَّفا يُؤْمل للْوَصْل فيه الوصُولا
وجاء إلى البيت مستبشِـرا ليطهِّر بالأَمن فيـه دخـولا
وطاف ولَبَّى بذاك الحِمـا ونالَ من الحجر قصْدًا وسولا
بلاد بهـا حلَّ خَيْرُ الـوَرَى فطوبى لمن نال فيها الحُلولا
نَبِيٌّ كريمٌ سما رِفْعةً وقَـــدرًا جليلا ومجدا أصيلا
وكان لأُمتـهِ رحمـة بفضــل الشفاعة فيهم كفيــلا
وكَانَ رَؤوفـاً رحيـمًا لهـم عطوفا شفيعا عليهم وُصولا
لَهُ يَفْزعُون إذا ما رأَوا لدى الحشر خسفا وأمراً مهولا
وإن جـاءَ فى ذنبهم شـافعا بدى الرَّحْبُ من ربِّهِ والقَبُولا
له معجزات إذا عُدِّدت تفــوت النُّهى وتُكِلُّ العقــولا
ولن يبلغ القول معشـارها وإن كان الوَصْف فِيها مُطيـلا
وقُسّ البيـان وسَحْبانه يرى ذهنـه فى مداهـا كليلا
تَخَيَّرد الله فى خلقـــه فـكان الخَطِيـر لديـه المثيلا
ولم يُر فى النَّـاس نِدًّا له ولا فى الخلايـقِ مِنـه بديـلا
وأَبقى له الحُكم فى أرضه فكان الأَمينَ عليهـا الوكيلا

وكل ظلام وظُلْم بها على الفَوْر لمَّا أتى قَد أُزيلا
وكانت كنار لظًى فتنةً فعادت من الأَمن ظِلاًّ ظَلِيلا

وقد زان حسْنُ الدُّجَا جيله ... إذا ذكر الدهر جِيلا فجِيلا
وأيّامه غرر قد بدت بوجه ... الدُّنا والليالى حجولا
رَسُول كريم إذا جِئته ... ويمَّمْت مَغْناه تَلْقى القَبولا
بمولده فى زمان الربيع ... ربيعٌ أتانا يَجرُّ الذُّيولا
فأهلا به الآن من زايرٍ ... أَتانا بفضل يفوق الفضولا
وقام الإمام به المرْتَضَى ... فنال ثوابا وأجرا جزيلا
هو المسْتَعين أبو سالِمٍ مليك ... ترفَّع قدرًا جليلا
وحاز مِن الصِّيت ذِكْرًا أثِيرًا ... ومن كرم الخيم مجْدًا أثِيلا
سليل علىّ غَمام النَّدى ... ألا أيَّد الله ذاك السَّليلا
فَتًى أوْسَع النَّاسَ من جوده ... عطًا جزِيلاً وبِرًّا حفيلا
حلاَّهُ الوقار ولاقيه إذا ... ارتاح للجُود يلفى عجولا
وقد شاع عنه جميل الثَّنا ... وعمَّ البسيطة عرضاً وطولا
وما من بالوعد إلاَّ وَفَى ... فلمْ يَكُ بالوعْد يومًا مَطُولا
ولا فى عُلاه مُغالٍ لمن ... يكثر فى الملك قالاً وقِيلا
تفرَّد بالفضل فى عصره ... وكان بعُرْف الأَيادى كفِيلا
أطاعت له حين وافى البلاد ... رضًى عند ماحلَّ فيها حلولا
وجا لطاعته أَهلها سُراعا ... يرومُون فيها الدُّخُولا
فنبُه قدرُ المُوالى بها ... وأكْسَف فيها الْمُعادى خمولا

ومهَّد بالأَمن أفكارها وأَمَّن بالعدل فيها السبيلا
وكفَّ أكُفَّ التعدِّى بها فلا يُظلم الناس فيها فَتيلا

وعصر الكروب الذى قد مضى　　زمــانُ المسرّات منــه أُديــلا
أتانا الى الغرب فى شوكةٍ　　بها عاد جَمْع الأَعــادى قليلا
وفوق رؤوس الطغاة انتضى　　حُسامًا ليُسْمِع فيها صليــلا
وجــرَّد من عــزمه مرهــفًا　　لحسم أُمور المنـــاوى صقيلا
وكل كَفُــور مُعَـــادٍ لَهُ　　سيأخذه الله أَخْذًا وَبِيـــلا
أعـــزَّ الخلايـقَ لما وَلِى　　ونوَّه من كان منهم ذليــلا
وراعى لمن جاءه داخلا حِمـــــاه من القاصدين الدَّخِيــلا
فكان بأَفعــاله قصــده إلى　　مَنْهَج الفضل قصداً جميلا
وصحَّ انتعاش المعـــالى به　　وقد كان شخصُ المعـالى عليلا
وشيَّد مبنى العُــلا بالنَّــدى　　ووثَّقه خِشْيــة أَن يميــلا
يُنيــل ويُعطى جزيــل العطـا　　فما زال أُخرى الليـالى مُنِيلا
ودام مدى الدَّهر فى رفعـــةٍ　　تغير من الحاسدين الغليـــلا
ولا بَرِح السعد فى بـــابه　　يؤمُّ به مَرْبعاً أَو مَقِيـــلا (١)

محمد المَــكُودى

من أهل فاس يكنى أبا عبد الله

حـــاله

من « الإكليل » : شاعر لا يتعاطى (٢) ميدانه . ومرعى (٣) بيان وَرَف

(١) لم يذكر لنا ابن الخطيب كعادته مولد المترجم له ولا تاريخ وفاته . ونحن نتولى ذلك فنقول إن أبا القاسم العزفى ولد بسبتة فى شوال عام ٦٩٩ هـ ، وتوفى بفاس كاتبا للمملكة المرينية وذلك فى ١١ صفر سنة ٧٦٨ هـ (راجع أزهار الرياض — ج٢ ص ٣٧٨) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (يتقاضى) .

(٣) هكذا فى النفح . وفى الإسكوريال . (مرمى) .

عضله[١] ، وأينع سَعْدانه ، يدعو الكلام فيهطع لداعيه ، ويسعى فى اجتلاب المعانى فتنجح مساعيه . غير أنه أفرط فى الانهماك ، وهوى إلى السَّكة من أَوْج السِّماك . وقدم على هذه البلاد مُفلتاً من رَهَق تلمسان حين الحصار ، صفر اليمين ، واليسار من اليسار ، ملىءُ[٢] هوى أنحى على طَريفه وتِلاده ، وأخرجه من بلاده . ولما [جدّ به][٣] البين ، وحلَّ هذه البلاد [بحال تقبحها العين][٤] والسيف بهزّته ، لا بحسن بزّته ، دعوته إلى مجلس ، أعاره البدرُ هالته ، وخلع عليه الأَصيل غِلالته ، وروْض تفتّح كِمامه ، وهَما عليه غَمامه ، وكاس أُنْس تدور ، فتتلقى نجُومَها البُدور . فلمَّا ذَهَبت المؤانسة بخجَلِه ، وتذكر هواه ، ويومَ نَواه ، حتَّى خِفْنا حُلول أجله ، جَذَبنا للمُؤَانسة زمامه ، واسْتَقَينا منها غَمَامه ، فأَمْتَع وأَحْسَب ، ونظر ونَسَب ، وتكلَّم فى المسائل ، وحضر بطُرَف الأَبيات ، وعيون الرسايل ، حتى نشر الصباح رايته ، وأَطلع النهار آيته .

ومما أَنشدنا ونسب لنفسه :

غرامى فيكِ جلَّ عن القياس ... وقد أَسْقَيتنيه بكل كاس
ولا أنسى هواك ولو جَفانى ... عليك أَقاربى طُرًّا ونَاسِى
ولا أَدرى لنفسى من كمالٍ سوى ... أَنِّى لعهدك غيْرُ نَاسِ

وقال فى غرض معروف :

بعثْتَ بخَمْرٍ فيه ماءٍ وإنما ... بعثتَ بما فيه رايحة الخمْر
فَقُلْ عليه الشكر إذْ قَلَّ سكرُنا ... فنحن بلا سُكر وأنت بلا شُكر

---

(١) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح (عضاهه) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (بل) . والتصويب من النفح .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى النفح (جذبه) . والأولى أرجح .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى النفح ، ومكانها فى الإسكوريال (محل العين) ، والأولى أكثر اتساقا مع المعنى والسياق .

ومما خاطبنى به :

رَحْماك بى فلقد خلَّدت فى خَلَدى ... هوىً أكابد منه حـرَّةَ[١] الكبد
حللتَ عِقد سلوى فى[٢] فؤادى ... إذ حَلَلت منه محلَّ الروح فى جسد
مَرآك بدرى وذِكراك التِذاذُ فمى ... ودين حُبِّك أَضْمارى ومُعتقدى
ومن جمالك نورٌ لاح فى بَصَرى ... ومن ودادك روحٌ حلَّ فى خَلَدى
لا تحسبنَّ فؤادى عنكَ مُصْطبـر ... فقَبْلَ حُبِّك كان الصبر طَوْع يدى
وهاك جسمى قد أودى النُّحول به ... فلو طلبتَ وجودًا منه لم تجد
بما بطرفك من غَنَج ومن حَـــورَ ... وما بثَغْرك مِن درٍّ ومن بَرَد
كن بين طرفى وقلبى منصفا فلقد حابيت بَعْضَهما فاعدِل ولا تجِد
فقال لى قد جعلتُ القلب لى وطنا ... وقد قضيت على الأَجفان بالسُّهد
وكيف تطلب عدلا والهوى حَكَمٌ ... وحكمه قط لم يعدل على أَحد
من لى بأَغْيَد لا يَرْثى إلى شَجَــن ... وليس يعرف ما يلقاه ذُو كمَد
ما كنتُ من قبل إذعانى لصولته ... أخال أَن الرَّشا يسطو على الأَسد
إن جاد بالوعد لم تَصْدُق مواعدُه ... فإن قَنَعْت بزور الوعد لم يَعد
شكوته عِلَّتِى منه فقال الأَمر للطبيب فما بُــرْءُ الضنَـــا بيدى
فقلت إن شئت بُرئى أو شِفا أَلمى ... فبارتشاف لِماك الكوثرى جُــدِ
وإن بَخِلت فلى مولىً يجودُ على ... ضعفى ويُبرى ما أَضْنَيْت من جسد

وخرج إلى المدح فأَطال[٣]

---

(١) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح (حرقة) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (عن) .
(٣) لم يذكر لنا ابن الخطيب تاريخ وفاة المترجم له . وقد توفى محمد المكودى بفاس سنة ٧٥٣هـ (جذوة الاقتباس – ١٩٧٣ – ص ٢٢٩) .

المقرئون والعلماء — الأصليون منهم

محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن جُزَىّ الكلبي

يكنى أبا القاسم من أهل غرناطة وذوى الأصالة والنباهة فيها ، شيخنا رحمة الله عليه

أَوَّلِيَّتـه

أَصل سلفه من ولة[١] من حصون البراجلة : نزل بها أَولهم عند الفتح صحبة قريبهم أَبى الخطار حُسام بن ضِرار الكلبى ، وعند خَلْع دعوة المرابطين ، وكانت لجدهم بجيَّان رياسة وانفراد بالتدبير .

حـــاله

كان رحمه الله ، على طريقة مُثْلى من العُكوف على العلم . والاقتصاد على الاقتيات من حُرِّ النَّشَب ، والاشتغال بالنَّظر ، والتَّقييد والتَّدوين[٢] ، فقيها حافظاً ، قائماً على التدريس ، مشاركاً فى فنون [من][٣] العربية ، والفقه ، والأُصول ، والقراءات ، والحديث ، والأَدب ، حفظةً[٤] للتفسير مستوعباً للأَقوال ، جمّاعة للكتب ، مُلوكى الخِزانة ، حسن المجلس ،

---

(١) هكذا ورد هذا الاسم فى الإسكوريال والزيتونة . وورد فى النفح (ولبه) . وهنا يحيق الغموض بصحة اسم هذا المكان ، لأن حصون البراجلة تقع فى منطقة البشرات الجبلية ، فى جنوب غرناطة . وثغر (ولبه) يقع فى ولاية الغرب الأندلسية جنوب غربى إشبيلية .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح وفى الزيتونة (التدبير) .

(٣) زائدة فى « الزيتونة » والنفح .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح . وفى الزيتونة (حافظا) .

ممتع المحاضرة ، قريب الغَور ، صحيح الباطن . تقدَّمَ خَطِيبا بالمسجدِ الأعظم من بلده على حداثة سنِّهِ ، فاتُّفِقَ على فضله ، وجرى على سنن أَصالته .

مشيخته

قرأ على الأُستاذ أَبي جعفر بن الزبير ، وأَخذ عنه العربية والفقه والحديث والقرآن . وروى عن أَبي الحسن بن مَسْتَقُور[1] . وقرأ القرآن على الأُستاذ المقرى الرَّاوية المُكْثر أَبي عبد الله بن الكَمّاد ، ولازم الخطيب أَبا عبد الله بن رُشَيد ، وسمع على الشَّيخ الوزير أَبي محمد عبد الله بن أَحمد ابن المؤذن ، و على الراوية المُسِن أَبي الوليد الحضرمى . يَرْوى عن سهل بن مالك وطَبَقَتِه . وروى عن الشيخ الرَّاوية أَبي زكريا البُرْشانى ، وعن[2] الرَّاوية الخطيب أَبي عبد الله محمَّد بن محمَّد بن على الأَنصارى ، والقاضى أَبي المجد بن أَبي على بن أَبي الأَحوص ، والقاضى أَبي عبد الله بن بُرْطال ، والشيخ الوزير ابن أَبي عامِر بن ربيع ، والخطِيب الولى أَبي عبد الله الطَّنجالى ، والأُستاذ النظَّار المُتَفَنِّن أَبي القاسِم قاسم بن عبد الله بن الشّاط . وأَلَّف الكثير فى فنون شتى .

تواليفه

منها كتاب « وسيلة المُسْلِم فى تهذيب صحيح مُسْلِم » وكتاب « الأَنوار السَّنية فى الكلمات السُّنيِّة » وكتاب «الدَّعوات والأَذكار المُخْرجة من صحيح الأَخبار » وكتاب «القوانين الفقهية فى تلخيص[3] مذهب المالكية» ، «والتنبيه على مذهب الشافعية والحنفية والحنْبَليَّة » وكتاب « تقريب الوصول إلى

(١) وردت فى الإسكوريال (مسفمور) وفى الزيتونه (مسمور) وهو تحريف .
(٢) وردت فى المخطوطين (على) . والتصويب أرجح .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى « الزيتونة » (تخليص) .

علم الأُصول » وكتاب « النُّور المبين فى قواعد عقايد الدين » وكتاب « المختصر البارع فى قراءة نافع » وكتاب « أَصول القُرَّاء الستة غير نافع » وكتاب « الفوايد العامة فى لحن العامَّة »،إلى غير ذلك مما قيده فى التفسير والقراءات وغير ذلك . وله فِهْرِسة كبيرة ، اشتملَتْ على جملة من أهل المشرق والمغرب .

شـــــعره

قال فى الأَبيات الغينيَّة ذاهِبًا مذهب الجماعة كأَبى العلاء المعرِّى ، والرييس أَبى المظفر ، وأَبى الطاهِر السِّلَفى ، وأَبى الحجاج بن الشيخ ، وأَبى الربيع بن سالم ، وأَبى على بن أَبى الأَحوص ، وغيرهم ، كلهم نظم فى ذلك :

لكل بنى الدنيا مُراد ومَقْصِد　　وإنَّ مُرادى صحَّةٌ وفَراغ
لأَبلُغَ فى عِلم الشَّريعة مبلَغًا　　يكُون به لى للجِنان بـــلاغ
وفى مثل هذا فلينافس أُولو النهى　　وحَسْبى من الدنيا الغَرُور بلاغ
فما الفوْزُ إلاَّ فى نَعِيمٍ مؤبَّد　　به العيشُ رَغْدٌ والشَّرابُ يُسَاغ

وقال فى الجناب النَّبَوى :

أَروم امتداح المصطفى ويردُّنى　　قُصُورى عن إدراك تلك المناقِب
ومَنْ لى بحصر البحر والبحرُ زاخِر　　ومن لى بإحْصا الحَصا والكواكِب
ولو أَن أَعضائى غدتْ أَلْسُنًا إذًا　　لما بلغت فى المدح بعض مآرب
ولو أَن كلَّ العالمين تَأَلَّفوا على[1]　　مدحه لم يبلغوا بعض واجب
فأَمسكتُ عنه هَيْبةً وتَأَدُّبــاً　　وخوفًا[2] وإعظاماً لأَرفَع جانب

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تسابقوا إلى) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (وعجزا) .

وَرُبَّ سكوت كان فيه بلاغةٌ ورُبَّ كلام فيه عَتْب لعَاتِب

وقال رحمه الله مُشْفِقًا من ذنبه :

يارَبِّ إنَّ ذنُوبِي اليَوْم قد كثُرت فما أُطيقُ لها حصرًا ولا عددَا

وليس لى بعذاب النَّار من قِبَل ولا أُطِيق لها صبرا ولا جـلدَا

فانظر إلَهى إلى ضَعْفى ومَسْكَنَتِى ولاَ تُذِيقَنِى حرَّ الجحِيم غَدا

وقال فى مذهب الفخر :

وكم من صفحة كالشمسِ تبدو فيُسْلِى[1] حسنُها قلب الحزين

غضضتُ الطَّرفَ عن نَظَرى إليها محـافظةً على عِـرْضِى ودِينِى

وفـــاته

فُقِد وهو يُشحذ الناس ويُحرِّضَهم ، ويُثَبِّت بصايرهم ، يوم الكاينة بطَرِيف[2] ، ضحوة يوم الإثنين السابع لجمادى الأُولى عام أَحد وأَربعِين وسبعماية ؛ تقبَّل الله شهادته . وعقِبُه ظاهر بين القضاء والكتابة .

محمد بن أحمد بن فتُّوح بن شُقْرال اللخمى

شرقى الأَصل من سكان غرناطة ، يكنى أَبا عبد الله ، ويعرف بالطُّرسونى

حــــاله

نقلتُ من خطِّ شيْخنا أَبى البركات بن الحاج ، أَمتع الله به كنَّى نفسه أَبا عبد الرحمن[3] ، ودُعى بها وقتًا ، وكُوتب بها . وكان له ابن سمَّاه

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (فيسبى) .

(٢) سبق التعريف بهذه الموقعة (راجع المجلد الثانى من الإحاطة ص ١٨٠ – حاشية) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى « الزيتونة » (أبا عبد الله) .

عبد الرحيم ، فقلنا له سمّه عبد الرحمن ، ليعضّد لك الكُنية التى اخترتَ ، فأَبى . كان هذا الرجل قيِّمًا على النحو والقراءات واللغة(١) ، مجيدًا فى ذلك ، مُحْكمًا لما يأخذ فيه منه ، وكانت لديْهِ مشارَكَةٌ فى الأَصْلَيْن والمنطِق ، طَمَح إليهما بفضل نباهته وذكايه ، وشعوره بمراتب العلوم ، دون شيخ أَرشده إلى ذلك . يجمع إلى ما ذكر خطًّا بارعًا ، وظَرْفًا وفُكاهةً ، وسَخَا نفس ، وجميل مشاركة لأَصحابه . بأَقصى ما يستطيع . وكان صَنَّاع اليديْن يرسم بالذَّهب ، ويُسفِّرُ ، ويُحكم عمل التَّراكيب الطِّبِّيةِ . و على الجملة فالرجل من أَجلِّ نبلاء عصره ، الذين قلَّ أَمثالهم.

مشيخته

أخذ القراءات عن الشيخ الأُستاذ [أَبى الحسن](٢) ابن أَبى العيش ، وبه تفقّه ببلده أَلمريَّة . وقرأَ على الأُستاذ أَبى جعفر بن الزبير ، والخطيب أَبى جعفر بن الزيات ، والرَّاوية أَبى الحسن بن مَسْتَقُور ، والولى أَبى عبد الله الطَّنجالى ، وصِهْره الخطيب أَبى تمام غالب بن حسن بن سَيْدبُونه ، والخطيب أَبى الحسن القِيجاطى ، والخطيب المحدث أَبى عبد الله بن رُشَيْد وغيرهم .

شــعره

من شعره قوله :

إذا قَذَفتْ بى حينما شاءَت النَّوى ... فنى كل شِعْبٍ(٣) لى إليْك طريق

وإن أَنا لم أُبْصِر مُحَيَّاك باسمًا ... فإنسانُ عَيْنى فى الدموع غريق

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الفقه) .

(٢) ساقطة فى الإسكوريال .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (صعب) والأولى أرجح .

فإنْ لم تَصِل كفّ بكفّك وافِيًا   [فأَسْمال أحبابى لدّى فُتوق][1]

محنتــــه

أَحْظاه وزيرُ الدَّولة أبو عبد الله ابن المحروق[2] ، واختصَّه ، ورتَّب له بالحمراء جرايةً ، وقلَّد نظره خِزانة الكتب السلطانية . ثم فَسَد ما بينهما ، فاتَّهمه ببراءات كانت تُطرح بمذَامِّه[3] بمسجد البَيَّازين[4] ، وتُرصد ما فيها ، فزعم أنه هو الذى طَرَحها بمحراب المسجد ، فقُبض عليه واعتقل ثمَّ جلاَّه إلى إفريقية .

وفـــاته

ولما بلغته بإفريقيه وفاة مُخيفه ، كرَّ راجعاً إلى الأندلس ، فتوفى فى طريقه ببونه[5] ، من بلاد العِنَّاب أو بأَحوازها فى أواخر عام ثلاثين ، أَو أَقرب من الأَواخر وسبعماية .

---

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال ووردت فى الزيتونة » كالآتى (باسمان أجفانى ملوق فتوق) .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد المحروق . تولى الوزارة للسلطان أبى عبدالله بن اسماعيل الذى تولى الملك سنة ٧٢٥ هـ ، فاستبد بالأمور ، واستأثر بالسلطة ، فحقد عليه السلطان ، وبطش به فقتل بأمره فى المحرم سنة ٧٢٩ هـ (١٣٢٨ م) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بحرامة المسجد) والأولى أرجع .

(٤) كان جامع البيازين أحد مسجدين كبيرين يقعان فى حى البيازين أشهر أحياء غرناطة الإسلامية وكذلك أشهر أحياء غرناطة المعاصرة ، وقد حول بعد سقوط غرناطة إلى كنيسة ، وبنيت فوق موقعه كنيسة سان سلبادور San Salvador . ومازالت تقوم إلى جانبها حتى اليوم بقية من أسوار الجامع وعدة من بوانكه ، وجزء من صحنه .

(٥) هى ثغر من ثغور مملكة إفريقية (تونس) ، تقع على شاطىء البحر المتوسط شمال غربى تونس فى منتصف المسافة بينها وبين بجاية . وهى اليوم من ثغور جمهورية الجزائر الجديدة وتسمى عنابة أى بلد العناب .

محمد بن جابر بن يحيى بن محمد بن ذى النُّون التَّغلبى

ويعرف بابن الرمّالية[١] ، من أهل غرناطة ، ويعرف خلفه الآن ، ببنى مَرْزَبَّة[٢] ، ولهم أصالة وقِدَم وجِدَة .

حـــاله

فقيه ، نبيه ، نبيل ، ذكى ، عنده معرفة بالفقه والأدب والعربية ، حسن المشاركة والمحاضرة ، حاضر الذهن ، ذاكرٌ لما قرأه .

مشيخته

روى عن الإمام أبى بكر بن العربى . قال أبو القاسم الملاّحى[٣] ؛ وحدَّثنى سنة أربع وستماية ، قال حدَّثنى الإمام أبو بكر بن العربى رضى الله عنه ، قال حدَّثنى محمد بن عبد الملك السَّبْتى ، قال خرجت مع أبى الفضل الجَزِيرى مشيِّعين لقافلة الحاجّ من بغداد ، ومودِّعين لها من الغَد ، وحين أصبحنا أُثيرت الجمال ، وفرض الناس الرِّحال ، ونحن بموضع يعرف بجُبٍّ عميرة ، إذا بفتىً شاحبِ اللَّون ، حسن الوجه ، يُشيِّع الرَّواحل ، راحلةً بعد أُخرى ، حتى فنيت ، ومشى الحاجُّ ، وهو يقول فى أثناء تردُّده ونظره إليها :

أَحجَّاج بيْتِ الله فى أىِّ هوْدج ... وفى أىِّ بيْتٍ من بيوتكم حبى
أأَبقى رهينَ القلب[٤] فى أرض غُرْبــةٍ ... وحاديكم يحدُو فؤادى مع الرَّكب

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (النماله)

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بنى مرزقة) .

(٣) سبق التعريف به (راجع المجلد الثانى من « الإحاطة » ص ١٣٣ حاشية) . وسوف يترجم له ابن الخطيب فيما بعد .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى « الزيتونة » (الحب) .

فوا أسفا لم أَقضِ منكم لُبانتى ولم أَتمتع بالسلام وبالقرب
وفرَّق بينى بالرَّحيل وبينكم فها أَنذا أَقْضِى على إِثْرِكم نَحْبى
يقولون هذا آخرُ العهدِ منكم فقلتُ وهذا آخر العهد من قَلْب

قال ، فلما كَمَل الحاجُّ المشى ، وانقطع رجاؤه ، وجعل يخطو هايماً ، وهو ينشد ، ثمَّ رمىَ بنفسه إِلى الأَرْض وقال :

خلِّ دمع العين يَنْهمل بان من تَهواه وارْتَحَل
أَىُّ دمع صانه كِلفٌ فهو يوم البَيْن يَنْهمل

قال ، ثم مال على الأَرض . فبادرنا إِليه فوجدناهُ ميِّتًا ، فحفرنا له لَحْدًا ، وغسَّلناه وكفَّنَّاهُ فى رِدَاءٍ وصَلَّينا عليهِ . ودفنَّاه .

وفاة المترجم به سنة خمسين وستماية

محمد بن محمد بن محمد بن بيبش العبدرى

من أَهل غرناطة ، يكنى أَبا عبد الله ، ويعرف بابن بيبش [١]

حـــاله

كان خيِّرًا ، مُنْقَبضا ، عفًّا ، مُتَصاونا ، مشتغلا بما يَعْنِيه ، مضطَّلِعا بالعربية ، عاكفا عُمْره على تحقيق اللُّغَة [٢] ، مشاركا فى الطِّب ، مُتَعَيِّشا من التِّجارة فى الْكُتب . أَثْرَى منها ، وحَسُنت حاله . وانتقل إِلى سُكْنى سَبْتَة ، إِلى أَن حَطَطْتُ بها رسولاً فى عام اثنتينِ وخمسين وسبعماية ،فاستدعيته ونقلتهُ إِلى بلده ، فقعد للإِقراءِ به إِلى أَن توفى .

(١) هذا الاسم ما زال دائما حتى اليوم فى اسبانيا ، ويعرف بصورته الإسبانية Vives

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . فى « الزيتونة » (الفقه) . والأولى أكثر تمشياً مع السياق .

وجرى ذكره فى بعض الموضوعات الأدبية بما نصه : مُعَلِّم مُدَرِّبٌ ، مُسَهِّل مُقَرِّب ، له فى صَنْعة العربية باع مديد ، وفى هَدَفِها سَهْم سديد ، ومشاركة فى الأدب ، لا يفارقها تَسْديد ، خاصيٌّ المنازع ، مختصرُها ، مُرتَّب الأحوال ، مقرِّرُها ، تميَّز لأول وقته بالتِّجارة فى الكتب ، فسلُّطت عليها منه أَرَضَة آكِلة ، وسهمٌ أَصاب من رَمْيتها شاكلة (١) ، أَتْرَب بسببها وأَثرى ، وأَغنى جهةً ، وأَفقر أُخرى ، وانتقل لهذا العهد الأَخير إلى سُكْنَى غرناطة مسقط رأسِهِ ، ومَنْبِت غَرْسه ، وجَرَت عليه جرايةٌ من أَحباسها ، ووقع عليه قَبُول من ناسها ، وبها تلاحق به الحِمام ، فكان من تُرابها البداية وإليه التمام . وله شعر لم يَقْصُر فيه عن المدا ، وأَدب توشَّح بالإِجادة وارتدى

مشيخته

قرأَ على شيخ الجماعة ببلده أَبى جعفر بن الزبير ، وعلى الخطيب أَبى عبد الله بن رُشَيْد ، والوزير أَبى محمد بن المؤذن المُرادى ، والأُستاذ عبد الله بن الكمَّاد ، وسمع على الوزير المُسنِّ أَبى محمد عبد المنعم بن سِماك. وقرأَ بسَبْتَة على الأُستاذ أَبى إسحٰق الغافقى

شــعره

أَنشدنى بدار الصِّناعة السلطانية من سَبْتَة تاسع جمادى الأُولى من عام اثنين وخمسين المذكور ، عند توجُّهى فى غرض الرسالة إلى السلطان ملك المغرب ، قوله يجيب عن الأَبيات المشهورة ، التى أَكثر فيها الناس وهى :

يا ساكنا قـلبى المُعَنَّى ـــ وليس فيه سواك ثـانِ
لأَىِّ معنًى كسرتَ قلبى ـــ وما الْتَقَى فيه ساكنانِ

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (الشاكلة) .

فقال :

نَحلتَنى طـايعًا فؤاداً فصـار إذ حُزته مكان
لا غَزْو إذ كان لى مُضافًا إنّى على الكَسْر فيه بانِ

وقال يخاطب أبا العباس عميد سبتة ، أعزّه الله ، وهى مما أنْشَدَنيه فى التاريخِ المذكور ، وقَد أهدى إليه أقلاما :

أَنا مِلك الغُرّ التى سِيب جودُها يفيض كفيْض المُزْن بالصيِّب القطِر
أَتَتْنى منها تُحفة مثل عدّها إذَا انتُضِيت كانت كمُرْهَفة السُّمر
هى الصِّفر لاكن تعلم البيضُ انها مُحكمة فيها على النَّفع والضَّرّ
مُهذَّبة الأَوصال مَمْشُوقةٌ كمـا تُصاغُ سهام الرَّمىْ من خالص التِّبر
فقبَّلتُهـا عَشْرًا ومثَّلتُ أنـنى ظَفِرْت بِلَثْمٍ فى أنا ملك العشر

وأنشدنى فى التاريخ المذكور فى ترتيب حروف الصحاح قوله :

أَساجعة بالواديـين تبـوّئى ثمـارًا جَنَتْهـا حاليـات خَوَاضِب
دعى ذكر روض زاره (١) سَىّ شِربه صباح ضُحى [طير طما] (٢) عصايب
غرامٌ فؤادى قاذفٌ كل ليلـة متى ما نأَى وَهْنًا هـواه يُراقب

ومن مطولاته ما رفعه على يدى السلطان وهو قوله :

ديارٌ خطَّها مجدٌ قـديم وشاد بنـاءها شرفٌ صميم
وحلّ جنابهـا الأَعلى عُـلاً يَقْصُر عنـه رَضْوى أَو شميم
سقى نجدًا بها وهضابَ نجد عمـاد ثـرَّة وحياً تميم
ولا عدِمت رُبـاه رباب مُزْن يُغادى رَوْضهُنّ ويسْـتَدِيم

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى النفح (زانه) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى النفح (طى ظباء)

فيصبح زهرُهـا يحكى شذاه ... فتيتَ المسْك يُذكيه النَّسيم
وتنثره الصَّبا فتريك درًّا ... نثيراً خانه عِقدٌ نَظيم
وظلَّت فى طِلال الأَيك تشدو ... مُطَرَّقـة لها صوت رخيم
تُرجِّع فى الغصون فنون سَجْع ... بأَلحـان لها يَصْبَو الحليم
أَهِيم بملتقى الـوادى تجـد ... وليس سواه فى واد أهيم
وكنت صرفْتُ عنه النفس كَرْهًا ... وما بَرِحت على نَجْدٍ تحـوم
وما ينفكُّ لى ولها نـزاع ... إلى مَغْنًى بـه ملكٌ كـريم
له بيْتٌ سما فوق الثريَّـا ... وعـزٌّ لا يخيم ولا يـريم
تبوَّأَ من بنى نَصْـر عُلاها ... وأَنصـار للنبى له أَروم
أَفاض على الورى نَيْلاً وعدْلاً ... سواءٌ فيه مُثْرٍ أَو عـدِيم
ملاذٌ للملوك إذا أَلَمَّـت ... صروف الدهر أَو خَطْب جَسيم
تُؤَمِّلـه فتـامن فى ذُراه ... وتدنـو من عُـلاه فيستقيم
ويبدو فى نَدَى المُلْك بَـدْراً ... تحفُّ بـه الملوك وهم نجوم
بوجهٍ يُوسِفِى الحُسْن طلـقٌ ... يضِى بنـوره اللَّيْـلَ البَهِيم
وتلقاه للعفـاة له ابتسـام ... ومنه لِلْعِدى أَخذ للّيِيم (١)
فيا شرفَ الملوك لكَ انقطاعى ... وإنِّى فى محلِّكم خَـدِيم
وآمالى أَملَت لِمَليك حـتَّى ... وردْن على نَداك وهنَّ هِـيم
فللظَّما ورودُك خيْـر ورد ... نَميـر ماؤه عذبٌ جَمِيم
ولا أُضحى وفى مَغْنـاك ظلٌّ ... ظَليل حين تحتدم السَّموم
ركبتُ البحر نحوك والمطايا ... تسير لها ذَمِيل أَو رسـيم
وإنَّ عُـلاك إن عطفت باحظٍ ... علىَّ فذلك العـزُّ المقـيم

(١) وردت فى الإسكوريال (اللم) والتصويب أرجح .

فوأَسفى على عُمْرٍ تقضَّى　　بدارٍ ليس لى فيها حَميم
سوى ثمرٍ للفؤاد ذهبتُ عنه　　وبين جوانحى منه كُلوم
ودُون لقاها عَرْض الفيافى　　ونجدٌ موجهُ طودٌ عظيم
لعل اللهَ يُنعم باجتماع　　ويَنْظم شَمْلَنَا البرُّ الرحيم
بقيتَ بغبطةٍ وقرارِ عين　　بمُلْك سعدُه أبدًا يدوم
كما دامت حُلى الأَنصار تُتلى　　يُشيد بذكرها الذكر الحكيم
عليك تحية عَطِرٌ شذاها　　تُعَرِّف الرَّوض جادَتْهُ الغُيوم

مولده بغرناطة فى رجب[1] ثمانين وستماية[2] . وتوفى عام ثلاثة وخمسين وسبعماية ، ودفن بباب إلبيرة [3] ، وتبعه من الناس ثناءٌ حسن ، رحمه الله .

محمد بن محمد النُّمرى الضَّرير

من أهل غرناطة ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بنَسَبه

حـاله

من عايد الصلة : كان حافظاً للقرآن ، طيب النَّغَمَة به ، طِرْفًا فى ذلك . من أهل المشاركة فى العلم ، واعظاً بليغاً ، أُستاذاً يقُوم على العربية قيام تحقيق ، ويستحضر الشَّواهِد من كتاب الله ، وخُطَب العرب وأشعارها ،

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . فى الزيتونة (حدود) .

(٢) وردت فى الإسكوريال عن مولده هذه العبارة (توفى بغرناطة فى رجب ثمانين وستمائة ، بل مولده) . وقد رأينا أن نصحح النص مباشرة على النحو الذى أوردناه .

(٣) باب إلبيرة أحد أبواب غرناطة الإسلامية ما زال قائماً حتى اليوم . وقد سبق التعريف به (أنظر المجلد الأول من الإحاطة ص ١٠٧ حاشية . والمجلد الثانى ص ٢٤٩ حاشية) .

بعيدُ التمرين فى ذلك ، آخذاً فى الأَدب ، حَفَظَةٌ للأَناشيد والمطَوَّلات ، بقيَّة حسنة ممتعة .

مشيخته

قرأ على الأُستاذ أَبى عبد الله بن الفخَّار الأَرْكُشى [١] وبه تأَدَّب ، ولازمه كثيراً ، فانتفع به .

شـــعره

مما صدّر به رسالةً لزوجه وهو نازح عنها ببعض البلاد . فقال :

سلام كرشف الطَّل فى مَبْسِمِ الورد — وسيلُ نسيم الريح بالقُضب المُلْد
سلام كما ارتاح المُشوق مبشِّرًا — برويا من يهواه من دون ما وَعْد
سلام كما يُرضى المحبُّ حبيبه من — الجدِّ فى الإِخلاص والصِّدق فى الوعد
سلام وتكريم وبرٌّ ورحمة — بقدر مزيد الشوق أَو منتهى الوُدِّ
على ظَبْية فى الأُنْس مرتعُها الحشا — فتاوِى إِليْه لا لِشيح ولا رُنْد
ومن أَطْلَع البدر التَّمام جبينُها يُرى — تحت ليلٍ من دُجا الشعر مُسْوَد
وثغـرُ أَقـاحٍ زانه سِمْط لؤلؤ — يُحَبُّ به المرجان فى أَحْكَم النَّضد
يجول به سِلسال راحٍ معتَّـــق — حَمَتْهُ ظُبا الأَلحاظ صَوْنًا عن الوِردُ
فللَّه عينًا من رأَى بدر أَسْـــعُدِ — وروضةَ أَزهار عَلَتْ غُصن القَدِّ
وبُشرى لصبٍّ فاز منها بلمحـــة — من القُرْب بُشْراه بمسْتَكمل السَّعد
وأَضحى هواها كامناً بين أَضلعى — كمزن خفىٍّ النار فى باطن الزَّند
وراحتْ فراح الروح إِثْر رَحْلها — وودَّعت صبرى حين ودَّعها كَبِدِ

---

(١) نسبة إلى بلدة أركش الأندلسية ، وقد سبق التعريف بها (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ٤٦٧ حاشية) .

وصارت لى الأَيَّام تبدو لياليـاً   وقد كان ليلُ الوصل صُبحًا بها يبدُ
فساعاتُها كالدهر طولا وطالمـا   حكى الدهر ساعاتٍ بها قِصَرًا عِندى

ومنها :

تُرَى قلبُها هلْ هام منى بمثل ما   بِقَلْبى من الحُبِّ الملازم والوَجْد
وهل ترعى ذمَّتى ومودَّتى كما   أَنا أَرعاها على القُرب والبُعْد
إِلَيْكَ خطابى والحَديث لغايب   كَنيتُ بلفظى عن مغيبك بالعَمْد
عليك سلامى إننى متشوِّقٌ   للقياك لى أَو مِن جوابك بالرَّد

توفى بغرناطة تحت جراية من أُمرَايها،لاختصاصه بقراءة القرآن على قبورهم ، فى التاسع عشر من شعبان عام ستة وثلاثين وسبعماية .

محمد بن عبد الولى الرُّعينى

من أَهل غرناطة ، يكنى أَبا عبد الله ، ويعرف بالعوَّاد [(١)]

حـــالـه

من « عايد الصلة » : الشيخ المُكَتِّب ، الأُستاذ الصالح ، سابق الميدان وعَلَم أَعلام القرآن ، فى إتقان تجويده ، والمعرفة بطرق روايته ، والاضطِّلاع بفنونه ، لا يُشَق غباره ، ولا يتعاطى طلقه [(٢)] ، ولا تأْتى الأَيَّام بمثله ، تُستقصر بين يديه مدارك الأَعلام ، وتظهر سَقَطات الأَئمة ، مهتدياً إلى مكان الحجج على المسايل ، مصروفُ عِنان الأَشغال إليه ، مستندًا إلى نَغَمة

(١) ورد فى هامش المخطوط ما يأتى (الأستاذ العواد الرعينى) . ووردت فى « الزيتونة » (ويعرف بابن العواد) . ووردت فى النفح (الأستاذ ابن العواد ج ٣ ص ١٩٦) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة .

رخيمة ، وإتقان غير مُتَكلَّف ، وحِفْظ غزير ، وطُلِب إلى التَّصدُّر لِلإقراءِ ، فأبى لشدَّة انقِباضه ، فنبَّهتُ [(١)] بالباب السلطانى على وجوب [(٢)] نَصْبِه للناس ، فكان [ذلك] [(٣)] فى شهر شعبان من عام وفاته ، فانتُفِع به ، وكان أدْأَبَ الناس على سُنَّة ، وألزمَهم لميقات وِرْد . يجعل جيرانهُ حركَته إلى ذلك ليلا ، ميقاتاً لا يختلف ولا يكذب ، فى ترحيل الليل . [شديد الطرب] مليح الترتيب . لا تمر به ساعة ضَياعًا ، إلا وقد عَمَرَها بشأن دينى ، أو دنياوى ، ضرورى مما يسوِّغه الورع ، يلازم المكتب . ناصحَ التعليم ، مسوِّيًا بين أبناء النِّعَم ، وحُلَفاءِ الحاجة ، شامخ الأَنف على أهل الدُّنيا ، تُغضُّ السِّكك عند تَرَنُّمه بالقرآن ، مساوقاً لتلاوة التجويد ، ومباشرًا أيام الأَخمِسَة والأَثانين ، العمل فى مَوْيل كان له ، على طريقة القدماء من الإِخْشِيشان عند المِهن ونَقْل آلة الخدمة ، غير مفارق للظَّرف والخصوصية . ويقرأُ أيام الجمعات ، كتب الوعظ والرَّقايق على أهله ، فيُصغى إليه الجيران ، عداة لا تختلف . وكان له لكل عمل ثوبٌ ، ولكل مهنة زِيٌّ ، ما رأيت أحسن ترتيبًا منه . وهو أُستاذى وجارى الأَلصَق ، لم أَتعلَّم الكتاب العزيز إلا فى مكتبه . رحمة الله عليه .

مشيخته

قرأ على بَقِيَّة المقريين الأُستاذ أبى جعفر بن الزبير ، ولازمه وانتفع به ، وعلى الأُستاذ أبى جعفر الجَزيرى الضرير ، وأخذ عن الخطيب المحدِّث أبى عبد الله بن رُشَيْد .

---

(١) الكلام هنا لابن الخطيب .

(٢) وردت المخطوطين (وجوه) . ونعتقد أن التصويب أرجح .

(٣) هذه الزيادة من الزيتونة .

مولده : فى حدود عام ثمانين وستماية .

وفاته : توفى رحمة الله عليه فى ......[1] الموفى ثلاثين لذى قعدة من عام خمسين وسبعماية .

محمد بن على بن أحمد الخَوْلانى

يكنى أبا عبد الله أصله من مجلقر [2] ويعرف بابن الفخّار وبالبيرى ، شيخنا رحمه الله

حـــاله

من « عايد الصلة » : أُستاذ الجماعة ، وعَلَم الصناعة ، وسيبويه العصر ، وآخر الطبقة من أهل هذا الفن . كان رحمه الله فاضلاً ، تقيًّا ، مُنْقَبِضًا ، عاكفا على العلم ، ملازِمًا للتدريس ، إمام الأَيـمَّة من غير مُدافع ، مبرِّزًا أمام أعلام الْبَصْريِّين من النُّحاة ، منتشرُ الذكر ، بعيدُ الصِّيت ، عظِيم الشهرة ، مُسْتَبحِر الحفظ ، يتفجَّر بالعربية تفجُّر البحر ، ويسترسل استرسال القَطْر ، قد خالطت دمَهُ ولَحْمه ، لا يُشْكِل عليه منها مُشكِل ، ولا يعوزُه توجيه ، ولا تَشُذُّ عنه حجَّة . جدَّد بالأَندلس ما كان قد دَرَس من لسان العرب ، من لدُن وفاة أَبى على الشلوبين[3] ، مُقيم السوق على

---

(١) اسم اليوم ساقط فى كلا المخطوطين .

(٢) لم نجد هذا الاسم بين قرى غرناطة التى أوردها ابن الخطيب فى المجلد الأول من الإحاطة (ص ١٢٦ – ١٣٢) ولكن وردت منها أسماء مشابهة مثل قلنقر ، وقولجر ، وقولر . وربما كان هذا الاسم الوارد فى المخطوط (مجلقر) تحريفا للاسم الصحيح .

(٣) هو عمر بن محمد بن عمر الأزدى المعروف بالشلوبين من أهل إشبيلية . كان إماما بارعا فى علم العربية . ويوصف أحيانا بأنه آخر الأيمة فى هذا الشأن بالمشرق والمغرب . ولد سنة ٥٦٢ ﻫ ، وتوفى سنة ٦٤٥ ﻫ (١٢٤٧ م) .

عهده . وكانت له مشاركة فى غير صناعة العربية من قراءات وفقه ، وعَروض ، وتفسير . وتقدم خطيبًا بالجامع الأعظم ، وقعد للتدريس بالمدرسة النَّصرية(١) ، وقلَّ فى الأندلس من لم يأخذ عنه من الطَّلبة . واستُعمل فى السِّفارة إلى العُدْوة ، مع مثله من الفقهاء ، فكانت له حيث حلَّ الشُّهرة وعليه الازدحام والغاشية ، وخرَّج ، ودرَّب ، وأقْرأ ، وأجاز ، لا يأخُذ على ذلك [أجرًا] (٢) وخصوصاً فيما [دون](٢) البداية ، إلا الجراية المعروفة ، مقتصدًا فى أحواله ، وقوراً ، مُفرط الطُّول ، نحيفًا ، سريع الخَطْو ، قليل الالتفات والتعريج ، متوسط الزِّى ، متبذلاً فى معالجة ما يتملَّكه بخارج البلد ، قليل الدَّهاء والتَّصنُّع ، غريب النَّزْعَة ، جامعًا بين الحِرص والقناعة .

مشيخته

قرأ بسَبْتة على الشيخ الإمام أبى إسحق الغافقى ، ولازمه كثيراً ، وأخذ عنه ، وأكثر عليه . وقرأ على الإمام الصالح أبى عبد الله بن حُريث ، والمقْرى الشريف الفاضل أبى العبَّاس الحسنى ، والشيخ الأُستاذ النظَّار أبى القاسم بن الشَّاط . وأخذ عن الخطيب المحدث أبى عبد الله بن رُشَيْد . والقاضى أبى عبد الله بن القرطبي وغيرهم . وهو أُستاذى ، قرأت عليه القرآن ، وكتابَىْ الجُمل والإيضاح ، وحضرتُ عليه دولا من الكتاب ، ولازمته مدة ، وعاشرتُه ، وتوجَّه صحبتى فى الرسالة إلى المغرب .

---

(١) المدرسة النصرية أو جامعة غرناطة ، أنشأها السلطان يوسف أبو الحجاج (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ) ، واشتهر ذكرها فى ظل بنى الأحمر أو بنى نصر سلاطين غرناطة ، وأمها الطلاب من الأندلس والمغرب وأوربا . وما زال مكانها معروفا إلى اليوم بغرناطة ، وهو يقع تجاه الكنيسة العظمى التى أنشئت على موقع المسجد الجامع .

(٢) الزيادة من الزيتونة .

وفاته

توفى بغَرناطَة ليلة الإثنين الثانى عشر من رجب عام أربعة وخمسين وسبعماية ، وكانت جنازته حافلة . وخمدت قرايح الآخذين عنه ، ممن يُدْلى دِلو أَدب . فيأتى بماءٍ أو حَمْأة ، على كثرتهم ، تقصيراً عن الحق ، وقَدْحًا فى نسب الوفاء ، إلاَّ ما كان من بعض من تأَخَّر أَخْذه عنه ، وهو محمد بن عبد الله اللَّوشى ، فإنه قال : وعين هذه الأَبيات قرارها :

ويوم نَعى النَّاعى شِهَابَ المحامد   تغيَّرت الدنيا لِمَصْرَع واحد
فلا عُذر للعَيْنَيْن إن لمْ تُسايحا   بدمع يحاكى الوَبْل يُشفى لواجِد
مضى من بنى الفخَّار أفضلُ ماجد   جميل المساعى للعلا جدُّ شاهد
طواه الرَّدى ما كل حىّ يهابه   وما ورده عاراً يشين لوارد
لقد غُيِّبت منه المكارم فى الثَّرى   غداة نَوى وانسدَّ باب الفوايد
فياحاملى أعواده ما علمتم   بسؤْدُدِهِ الجم الكريم المَحاتِد
ويا حُفْرةً خُطَّت له اليوم مضجعا   سقَتْكِ الغوادى الصادقات الرّواعد
إلا يا حَمام الأيك ساعِدنى بالبكا   على عَلَم الدُّنيا وزينِ المشاهد
على أنِّى لو استطعت الفدا فدَيْتهُ   بأَنفس آلٍ من طريف وتالد
محمد ما للنُّعْمَى لموتك غصَّة   تُوقف ولا ماء الحياة ببارد
وكيف وبابُ العلم بعدك مُغْلق   ومَوْردُه المتروك بين الموارد
أَأُستاذَنا كنت الرَّجا لآمل   فأَصْبَحْت مهجور الفِنا لقاصد
فلا تُبْعِدن شيخ المعارف والحِجا   ليس الذى تحت التَّراب بباعِد
لتَبْكِ العلوم بعدك شَجْوَها   ويقفُر لها رَبْعُ العُلا والمعاهد
ليَبْكِ عليك الجودُ والدينُ والتُّقا   وحسبُ البُكا أن صِرْت ملحودَ لاحِدِ
أمولاى من للمشكلات يُبِينُها   فيُجلى عَمَى كلِّ القلوبِ الشَّواهد

ومن ذا يحل المُقْفَلات صعابَهـا ومن ذا الذى يهدى السبيل لحايِد
فياراحلا عنَّا فَزِعنا لفَقْـــده لقد أونِسَت منك القبور بوافد
ويا كوكبا غال النهار ضيـاءه وشيكًا وهل هذا الزمان بخـالد
سأبكيك ما لاحت برُوقٌ لشايم وأرعاك ما كان الغمام بعـابد
عليك سلام الله ما دامت الصَّبا بغُصْـنٍ فى الأَراكة مـايِد

[قلت : العجب من الشيخ ابن الخطيب ، كيف قال ، وخَمَدت قرايح الآخذين عنه ، وهو من أجلٍّ من أخذ عنه ، حسبما قرره آنفاً ، بل أَخصُّ من ذالك ، المعاشرة والسفارة للعُدْوة . وهو مع ذلك أقدرهم على هذا الشأن ، وأَسْخاهم قريحة فى هذا الميدان . وإن أتى غيره بماءٍ أو حَمْأَةٍ ، أتى هو بالبحر الذى لا ساحل له . ولعمرى لو قام هو بما يجب من ذلك ، لزال التمَدْح فى نسب وفاء الغير ، فعَيْنُ ما نسبه من التقصير عن الحق فى ذلك . متوجِّه عليه ، ولاحقٌ له ، ولا يبعد عندد أن يكون وقع بينهما ما أوجب إعراضه مما يقع فى الأزمان ، ولاسيا بين أهل هذا الشان ، فيكون ذلك سببًا فى إعراض الغير مشيًا فى غرضه، ومساعدة له . والله أعلم بحقيقة ذلك كله][1]

محمد بن على بن محمد البَلَنْسى

من أهل غَرْناطة ، يكنى أبا عبد الله

حـاله

طالبٌ هشٌّ ، حسن اللِّقاء ، عفيفُ النشأة ، مكبٌّ على العِلْم ، حريص على استفادته[2] ، مع زَمانَةٍ أصابت يُمْنى يَدَيْه ، نفعه الله . قَيَّد بأُختها

(١) من الواضح أن هذه الفقرة المحصورة بين الحاصرتين إنما هى من كلام ناسخ الكتاب .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى « الزيتونة » (الإستفادة) .

وانتسخ ، قايمٌ على العربية والبيان ، ذاكر الكثير من المسائل ، حافظٌ مُتْقِن ، على نزعة عربية ، من التَّجاذُع فى المشى ، وقِلَّة الالتفات إلا بجملته ، وجَهْوَرِيَّة الصوت ، متحلٍّ بسذاجة ، حسنُ الإلقاء والتقرير ، متَّ للمُتَغلِّب على الدولة بِضَنٍّ ، أَفاده جاها واستعمالا فى خُطَّة السوق ، ثمَّ اصطناعاً فى الرسالة إلى ملك المغرب ، جرَّ عليه آخراً النَّكبة ، وقاد المحنة ، فأَرْصَد له السلطان أبو عبد الله فى أُخرياتها ، رجالاً بعثهم من رُنْدَة ، فأسروه فى طريقه ، وقَدِموا به سَليباً ، قدوم الشُّهرة والمُثْلة ، موقِناً بالقتل . ثم عَطَفَ عليه حَنيناً إلى حُسْن تِلاوته فى محبسه ليلا ، فانتاشه لذلك من هفوة(1) بعيدة ونكبة مُبِيرة . ولما عاد لمُلْكِه ، أعاده للإقراء .

مشيخته

جلّ انتفاعُه بشيخ الجماعة أَبى عبد الله بن الفخَّار ، لازمه وانتفع به ، وأَعادَ دُوَل تدريسه ، وقرأ على غيره . وألّف كتاباً فى تفسير القرآن ، متعَدِّد الأَسفار ، واستَدْرَك على السُّهيلى فى أَعْلام القرآن كتاباً نبيلاً ، رفَعَه على يَدِى للسُّلطان . وهو من فضلاء جنسه ، أَعانَهُ الله وسدَّده .

محمد بن سعد بن محمد بن لُب بن حسن
بن حسن بن عبد الرحمن بن بقِّ

يكنى أَبا عبد الله ، ويعرف باسم جَدِّه

أَوَّليتـــه

كان القاضى العَدْل أبو عبدالله بن هشام ، قاضى الجماعة (2) بالأَندلس

(1) هكذا فى الإسكوريال . وفى « الزيتونة » (غفوة) .

(2) قاضى الجماعة ، هو فى نظام القضاء الأندلسى ، القاضى الأكبر ، وهو يقابل فى

يجلُ سَلَفه ، وبنسبه إلى بَقيّ بن مخلد[1] ، قاضي الخلافة بقرطبة . وابن هشام ممَّن يُحتَج به .

حاله

هذا الرَّجل فاضل ، حسن الخُلُق ، جميل العشرة ، كريم الصحبة ، مَبْذُول المشاركة ، معروف الذكاء والعفّة ، مبسوط الكَنَفَ ، مع الانقباض ، فكهٌ مع الحِشمة ، تَسَعُ الطوائفُ أكْنافَ خُلُقه ، ويُعِمُّ المتضادِّين رَحبُ ذَرْعه . طالِبٌ محصل ، حصيف العقل ، حسن المشاركة فى فنون ، من فقه وقراءات ونحو وغير ذلك . تكلَّم للناس بجامع الرَّبض ثُمَّ بمسجد البكرى المجاور للزاوية والتربة اللتين أقمتُهما بأَخشارش[2] من داخل الحضرة ، وحلَّق به لتعليم العِلْم ، فانْثال عليه المتعلم والمستفيد والسامع ، لإجادة بيانه ، وحسن تَفْهيمه .

مشيخته

قرأ القرآن بحُرْف نافع ، على أبيه ، وعلى الشيخ الخطيب المُكَتْب أَبي عبد الله بن طُرفة ، والخطيب أَبي عبد الله بن عامور . وقرأَ العربية على إمام الجماعة الأَستاذ أَبي عبد الله بن الفخَّار ، وجوّد عليه القرآن ، بالقرءات السبع ، وقرأ على الأُستاذ أَبي سعيد بن لُب[3]

= نظام القضاء المشرق ، قاضي القضاة . وقد كان قاضي الجماعة الأندلسى ، وسائر نوابه من المالكية ، لسيادة المذهب المالكى ، كما هو معروف بالأندلس والمغرب .

(١) بق بن مخلد من أشهر فقهاء الأندلس ، وأغزرهم علما . نشأ فى قرطبة ، ورحل إلى المشرق ، ودرس دراسة مستفيضة ، وبرع بالأخص فى الحديث والرواية . وكان فقيها حر الذهن واسع الأفق . وكانت له حظوة لدى أمير الأندلس محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ، لغزير علمه وفضله وزهده . وقد لبث عصرا عمدة الفقهاء والمحدثين بالأندلس ، وتوفى فى سنة ٢٧٦ ﻫ (٨٨٩ م) .

(٢) يبدو أن هذا الاسم كان يطلق على حى من أحياء غرناطة المخصص للزوايا والمقابر .

(٣) ورد فى هامش المخطوط بقلم الناسخ ما يأتى تعليقا على مشيخة ابن بق : «وروى=

شـــعره[١]

أنشدنى من ذلك قوله بعد الانصراف من مواراة جنازة :

كم أرى مُدْمن لَهْوٍ ودَعــة لستُ أخلى ســاعة من تَبِعــه
كان لى عذر لدى عهد[٢] الصِّبا وأنا آمل فى العُمْــــر سَعَه
أو ما يوقظنا من كَلِّنـــــا أنفاً لقبره قد شــــيّعه
سِيِّما وقد بدا فى مَفْــــرِق ما إخـال الموت قد جاءَ معه
فدعونى ســاعة أبكى عـــلى عُمْــرٍ أمسيت ممَّن ضيَّـــعه

ومن شعره فى النوم ، وهو كثير ما يَطْرقُه :

أَباد البينُ أَجنــاد التَّــلاقى وحالت بيننا خيلُ الفــراق
فجودوا وارحموا وارثوا ورقُّوا على مَنْ جَفْنُه سَكَب المآقى

ومن ذلك ما أنشد فى النَّوْم على لسان رجل من أصحابه :

يا صاحبيَّ قِفــا المطـــايا واشْفِقَا فالعُبَيْد عَبْـــــده
إذا انتهى وانقضى زمـــان [هل يرسل][٣] الله من يردُّه

مولده : فى الثانى عشر لصفر من عام اثنين وعشرين وسبعماية .

محمد بن سعيد بن على بن يوسف الأَنصارى

من أهل غرناطة ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بالطَّرَّاز .

= عن الشيخ الإمام الخطيب ابن مرزوق التلمسانى ،والشيخ الإمام القاضى أبى عبد الله المقرى التلمسانى رحمة الله عليهما . وممن أخذ عنه رحمه الله الشيخ أبو عبد الله المنقطورى وتزوج بابنته أيضاً . والشيخ أبو عبد الله محمد بن مرزوق الحفيد روايتى والله أعلم –كاتبه»

(١) سقط هذا العنوان من الناسخ ، وقد رأينا إثباته لانتظام السياق .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (عصر) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى « الزيتونة » (فيرسل) .

حـــاله

من صلة ابن الزُّبير : كان رحمه الله مُقْرياً جليلا ، ومحدِّثاً حافلا ، به خُتِمَ بالمغرب هذا الباب البتَّة . وكان ضابطاً مُتْقناً ، ومُقَيِّداً حافلاً ، بارع الخطِّ ، حسن الوِراقة ، عارفاً بالأَسانيد والطُّرق والرِّجال ، وطبقاتهم ، مُقْرياً عارفاً بالأَسانيد والْقراءات ، ماهراً فى صناعة التَّجويد ، مشاركاً فى علم العربية والفقه والأُصول وغير ذلك ، كاتباً نبيلاً ، مجموعاً فاضلاً مُتَخَلِّقاً ، ثقةً فيما رَوَى ، عَدْلاً ممن يُرجع إليه فيما قيَّد وضبط ، لإتقانه وحِذْقِه . كتب بخطه كثيراً ، وترك أُمَّهات حديثيَّة ، اعتمدها الناس بعده ، وعوَّلوا عليها . وتجرد آخر عُمْره ، إلى كتاب « مشارق الأنوار » تأْليف القاضى أَبى الفضل عياض ، وكان قد تركه فى مَبُيَّضَة ، فى أَنهى درجات النسخ والإِدماج والإِشكال ، وإِهمال الحروف حتى اخترمت منْفَعَتُها[1] ، حتى استوفى ما نقل منه المؤلف ، وجمع عليها أَصولاً حافِلَةً ، وأُمَّهات جامعة ، من الأَغربة وكتب اللُّغة ، فتخلَّص الكتاب على أَتمِّ وجه وأَحسَنِه ، وكمُل من غير أَن يسقط منه حرف ولا كلمة . والكتاب فى ذاته لم يؤلف مثله .

مشيخته

روى عن القاضى أَبى القاسم بن سَمْحون ، والقاضى ابن الطبَّاع ، [وعن أَبى جعفر بن شُراحيل وأَبى عبد الله بن صاحب الأَحكام والمتكلم ، وأَبى محمد بن عبد الصمد بن أَبى رجا][2] وأَبى القاسم الملاَّحى ، وأَبى محمد

---

(١) يبدو أن هناك بعض كلمات سقطت هنا من الناسخ . والنص متماثل فى المخطوطين

(٢) هذه الزيادة واردة فى « الزيتونة » .

الكوَّاب وغيرهم ، [أخذ عن هؤلاءِ كلهم ببلده] (١) ، وبقرطبة عن جماعة ، وبمالقة كذلك ، وبسَبْتَة . وبإشبِيلية عن أبي الحسن بن زَرْقون ، وابن عبد النور . وبفاس وبمرسية عن جماعة .

قلت : هذه الترجمة في الأَصل المختصر منه هذا طويله ، واختصرتها لطولها .

توفى بغرناطة ثالث شوال عام خمسة وأربعين وستماية ، وكانت جنازته من أحفل جنازة ، إذ كان الله قد وضع له وُدًّا في قلوب المؤمنين .

محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيَّان النَّفزى (٢)

من أهل غرناطة ، يكنى أبا حيان ، ويلقب من الألقاب المشرقية بأثير الدين

حاله

كان نسيج وحده في ثقوب الذهن ، وصحة الإدراك [والحفظ] (١) والاضطِّلاع بعلم العربية ، والتفسير وطريق الرواية ، إمام النُّحاة في زمانه غَيْرَ مُدافِع ، نشأ ببلده غرناطة ، مشاراً إليه في التبريز بميدان الإدراك ، وتغيير السوابق في مِضمار التَّحصيل . ونالته نَبْوَةٌ لحق بسببها بالمشرق ، واستقر بمصر ، فنال ما شاءَ من عزٍّ وشهرة ، وتأثُّلٍ وبَرٍّ وحُظْوةٍ ، وأضحى لمن حلَّ بساحته من المغاربة ، ملجأً وعُدَّة . وكان شديد البَسْط ، مَهيباً ، جَهْوَرِياً ، مع الدُّعابة والغزل ، وطرح السَّمت ، شاعراً مُكْثِراً ، مليح

---

(١) هذه الزيادة في الزيتونة .

(٢) نسبة إلى قبيلة نفزة ، وهى من القبائل المغربية ، التى عبر الكثير من أبنائها إلى الأندلس في فترات مختلفة .

الحديث ، لا يُمِلُّ وإن أطال ، وأسنَّ جداً ، وانتُفع به . قال بعض أصحابنا ، دخلت عليه ، وهو يتوضأُ ، وقد استقرَّ على إحدى رجليه لغسل الأُخرى ، كما تفعل البُرُك والأوزُّ ، فقال لو كنت اليوم جار شُلَّيْر [1] ، ما تركنى لهذا العمل فى هذا السِّن .

مشيخته

قرأ ببلده على الأستاذ حايز الرياسة أبى جعفر بن الزُّبير ولازمه ، وانتسب إليه ، وانتفع به ، وشاد له بالمشرق ذكراً كبيراً . ويقال إنه نادى فى الناس عند ما بلغه نَعْيُه ، وصلّى عليه بالقاهرة ، وله إليه مخاطبات أدبية اختصرتها ، وعلى الأستاذ الخطيب أبى جعفر على بن محمد الرُّعينى الطَّباع ، والخطيب الصالح ولىِّ الله أبى الحسن فضل بن محمد بن على ابن ابراهيم بن فضيلة المعافرى . وروى عن القاضى المحدِّث أبى على الحسين ابن عبد العزير بن أبى الأحوص الفهرى ، والمكتِّب أبى سهل اليُسْر بن عبد الله ابن محمد بن خلف بن اليُسْر القُشيرى ، والأستاذ أبى الحسن بن الصايغ ، والأديب الكاتب أبى محمد عبد الله بن هرون الطائى بتونس ، وعلى المُسْند صفى الدين أبى محمد عبد الوهاب بن حسن بن اسماعيل بن مظفر بن الفُرات الحسنى بالأسكندرية ، والمُسْند الأصولى وجيه الدين أبى عبد الله محمد ابن عبد الرحمن بن أحمد بن عمران الأنصارى بالثغر ، والمحدِّث نجيب الدين [2] أبى عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن المؤيِّد الهَمَدانى بالقاهرة ، وغيرهم ممن يشق إحصارهم ، كالإمام بهاء الدين محمد بن إبراهيم

---

(١) يقصد أنه لو كان بغرناطة على مقربة من جبل شلير أو جبل الثلج (Sierra Nevada) الذى يشرف على غرناطة .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى « الزيتونة » (حباب الدين) .

ابن محمد بن أبي نصر بن النَّحاس الشافعي . قرأ عليه جميع كتاب سيبويه في سنة ثمان وثمانين وستماية ، وقال له عند ختمه ، لم يقرأه على أحد غيره.

توالیفه [١]

وتواليفه كثيرة ، منها شرحه كتاب « تسهيل الفوايد لابن مالك » . وهو بديع ، وقد وقَفْتُ على بعضه بغرناطة في عام سبعة وخمسين وسبعماية. وكتابه في تفسير الكتاب العزيز ، وهو المسمى « بالبحر المحيط » تسمية زعموا موافقة للغرض . وألف كتاباً في نحو اللِّسان التُّركي ، حدَّثنا عنه الجملة الكثيرة من أصحابنا ، كالحاجّ أبي يزيد خالد بن عيسى ، والمقْرى الخطيب أبي جعفر الشَّقُّوري ، والشَّريف أبي عبد الله بن راجح ، وشيخنا الخطيب أبي عبد الله بن مَرْزُوق . وقال حدَّثنا شيخنا أثير الدِّين في الجملة سنة خمس وثلاثين وسبعماية بالمدرسة الصالحية ببَيْن الْقَصْرين بمنزله منها . قال حدثنا الأُستاذ العلاَّمة المتفنن أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن الزُّبير ، سماعاً من لفظه ، وكَتْباً من خطِّهِ بغَرْناطة ، عن الكاتب أبي إسحق بن عامر الهَمَداني الطَّوسي بفتح الطاء ، حدَّثنا أبو عبد الله بن محمد العَنْسي [٢] القرطبي ، وهو آخر من حدَّث عنه ، أخبرنا أبو علي الحسن بن محمد الحافظ الجيَّاني ، نا حكم بن محمد ،نا أبو بكر بن المهندس ،نا عبد الله ابن محمد ،نا طالوت بن عياد بن بصَّال بن جعفر ، سمعت أبا إمامة الباهلي يقول ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أكفلوا لي بيت أهلي لكم في الجنة ، إذا حدَّث أحدكم بلا كذب ، وإذا ايتُمن فلا يخُن ، وإذا

---

(١) ورد في هامش المخطوط ما يأتي : « وذكر عبد القادر المكي في مقدمة شرح التسهيل له ، أن بعضهم ذكر أن تواليف أبي حيان تربو على خمسين تأليفا ، رحمة الله تعالى عليه » .

(٢) هكذا في الإسكوريال . وفي « الزيتونة » (القيسي) .

وعد فلا يُخلف. غضوا أبصاركم ، وكفّوا أيديكم ، واحفظوا فروجكم .

وقال ، أنشدنا الخطيب أبو جعفر الطبَّاع . قال أنشدنا ابن خَلْفُون . قال أنشدنا أبو عبد الله محمد بن سعيد . قال أنشدنا أبو عمران موسى ابن أبي تليد لنفسه :

حالى مع الدهر في تقلُّبه ... كطاير ضم رِجْلَه الشَّرَكُ
فهمُّه في خلاص مُهْجته ... يروم تخليصها فيَشْتَبِك

ومن مُلَحه : قال قدم علينا الشيخ المحدث أبو العلاء محمد بن أبي بكر البخاري الفَرَضى بالقاهرة في طلب الحديث . وكان رجلاً حسناً طيِّب الأخلاق ، لطيف المزاج ، فكنَّا نُسايرد في طلب الحديث ، فإذا رأى صورة حسنة ، قال هذا حديث على شرط البخاري ، فنظمت هذه الأبيات :

بدا كهلال العيد وقت طُلُوعه ... وماس كغُصْن الْخَيْزُران المُنَعَّم
غزالٌ رخِيمُ الدَّلِّ وافى مُواصلا ... موافقةً منه على رغم لُوَّم
مليحٌ غريبُ الْحُسْن أصبح مُعْلِماً ... بخُمْرة خدٍّ بالمحاسن مُعلم
وقالوا على شَرْط البخاري قد أتى ... فقُلْنا على شرط البخاري ومُسْلِم
فقال مولاى أنا البخاري فمن مُسْلمٌ ... فقلت له أنت البخاري وأنا مُسْلم

محنته

حملته حدَّةُ الشبيبة على [التَّعريض للأُستاذ][1] أبي جعفر الطبَّاع ، وقد وقَعَتْ بينه وبين أستاذه ابن الزُّبير الوَحْشَة فنال منه ، وتصدَّى للتآليف في الرَّد عليه ، وتكذيب روايته ، فرفع أمره إلى السلطان ، فامتعض له ،

(١) هكذا وردت هذه العبارة في «الزيتونة» . ووردت في الإسكوريال كالآتي : (التعرض على الأستاذ) . والأولى أفضل .

ونَفَّذ الأمر بتَنْكِيله ، فاختفى ، ثم أجاز البحر مُخْتَفياً ، ولحق بالمشرق يَلْتَفِتُ خَلْفه

شعره

وشعره كثير بحيث يتَّصف بالإجادة وضدِّها . فمن مطوَّلاته رحمه الله قوله :

لا تَعْذِلاه فما ذو الحبِّ معذول ... العقل مُخْتَبل والقلبُ مَتْبول
هزَّت له أَسمراً من خُوط قامتها ... فما انثنى للصَّب إلاَّ وهو مقتول
جميلةٌ فصَّل الحسن البديع لها ... فكم لها جُمَلٌ منه وتفصيل
فالنَّحْر مَرْمَرُهُ والنَّشْر عَنْبَرُهُ ... والثَّغْر جَوْهَرُهُ والرِّيق مَعْسُول
والطَّرْف ذُوغَنَجٍ والعَرْف ذُو أَرَج ... والخَصْر مُخْتَطفٌ والْعُنق مَجْدُول
هيفاءَ يَنْبِس فى الخَصْر الوشاح لها ... رَدْما تُخرس فى الساق الخلاخيل
من اللواتى غَذَّاهُن النَّعِيم فما ... يَشْقين آباؤها الصَّيد البهاليل
نُزر الكلام غَمِيَّات الجواب إذا ... يُسَلْن بعد الصحا خُصُرٌ مكاسيل
من حَلْيِها ومناها مونسٌ وهُدى ... فليس يلحقها ذُعْرٌ وتضْليل
حلَّت بمُنْعَقِد الزَّوراءِ زارةٌ ... شُوسًا غَيارى فَعِقْد الصَّبر محلول
فنْد عن ذِكْر لَيْلى اِنَّ ذِكْرهَا ... على التَّنائِى لتَعْذِيبٌ وتعليلُ
أَتاك منك نذيرٌ فأَنذرن به ... وبادِرْ التَّوْبَ إن التَّوْب مقبول
وأَمل العفر واسْلُك مَهْمهـا ... قَدْفا إلى رضى الله إن العفو مأْمول
إن الجهاد وحجُّ البيْت مُخْتَتَمًا ... بزَوْرَة المصطفى للعَفْو تأمِيل
فشقَّ حَيْزوم هذا الليل مُمْتَطياً ... أَخا خرام به قد يَبْلغ السؤل
أَقَبَّ أعوج يعزى للوجيه له ... وجْهٌ أَغرٌ وفى الرجلين تَحجيْل

جُفْرٌ حوافِره مُعْرٌ قوايمه ... ضُمْرٌ أياطلُهُ وللذَّيْل عثكول
إذا توجَّه أصغى وهو ملتفت ... ساعرٌ اعتقا فيهنَّ تأليل
وإن تُعارض به هَوَجًا هاج له ... جرىٌ يُرى البرقُ عنه وهو مخذول
يحمى حَوْزَة الإسلام مُلْتقياً ... كتايبًا غُصَّ منها العَرْض والطُّول
كتايباً قد عَموا عن كل واضحةٍ ... من الكِتاب وغَرَّتهم أباطيل
فى رماقِطَ ضرب الموتُ الزوام به ... سُرادقاً فعليهم منه تَخييل
هيجا يُشْرِف فيها المُشْرِفى على ... هام العدوّ ويصحب النَّقع تَضْليل
تدير كاس شعوب فى شعوبهم ... فكلُّهم مُنْهل بالموت مَعْلُول
وإذا قَضيتَ غَزاة فالتَفِتْ عملا ... للحج فالحجُّ للإسلام تكميل
واصل بسرٍّ يابن أندلس والطـ ... ـرف أذهم بالأشْطان مغلُول
يُلاطِم الريح منه أبيض نُفق له ... من السحب المُزْبد اكليل
يعلو حَضارة منه شامخٌ جَلَلٌ ... سامٍ طَفَا وهو بالنَّكباء مَحْمُول
كأنَّما هو فى طُخيًا لُجَّتِة أَيْمٌ ... يَعْرو أديم السَّيل شِمليل
مازالت الموج تعليه وتُخفضه ... حتَّى بدا من منار الثَّغر قنديل
وكبَّر الناس أعلاه الرنيم ... وكلُّهم طَرْفُه بالشهد مكحول
وصافحوا البيدَ بعد اليمِّ وابتدروا ... سُبُلاً بها لجناب الله توصيل
على نجايبَ تتلوه أجنابها خَيْلٌ ... بها الخيرُ معقود ومعقول
فى مَوْكِب تزحف الأرض الفضاءُ به ... أضحت ومُوحِشها بالناس مأمول
يطارد الوحشَ منه فيلقٌ لَجِبٌ ... حتَّى لقد ذَعرت فى بيدها الغُول
سيوفُهم طُرُب نحو الحجاز فهم ... ذوو ارتياح على أكوارها ميل
شُعثٌ رؤُسهم يُبس شِفاهُهم ... خُوصٌ عيونهم غُرُبٌ مهازيل
حتى إذا لاح من بيت الإلّه لهم ... نورٌ إذا هم على الغَبْرا أراحيل

يُعَفِّرُون وجوهاً طالمــــا سَمَتْ　　باكين حتى أديمُ الأَرض مَبْلول
حَفُّـوا بكعبــة مولاهم فـكَعْبُهم　　عالٍ بهـا لهم طَوْفٌ وتَقْبيـل
وبالصَّفا وقتُهم صافٍ بسعيهم　　وفى مِنىً لمُنَـاهم كـان تَنْويـل
تعرَّفوا عرفاتٍ واقفين بهـــا　　لهـم إلى الله تكبير وتهليـــل
لما قضينا من الغرَّاءِ مَنْسَكَنَـا　　ثُرنا وكلٌّ بنــار الشوق مشمول
شدَّنا إلى الشَّد قميـات التى سكنت　　أبدانُهـــن وأفناهُـــــنَّ تنقيـــل
إلى الرسول تُزْجى كل تعلمة　　أَجلٌ من نجوة تزْجِى المراسيل
من أُنْزِلَتْ فيــه آيــاتٌ مطهَّرة　　وأُورِثَت فيــه تَوْرتــه وإنجيل
وعُطِّرت من شَذاه كلَّ ناحيــة　　كأَنَّما المِسْك فى الأَرجاءِ محلول
سرٌّ من العــالم العُلْوى ضمَّنه　　جسمٌ من الجوهر الارْضى محمول
نورٌ تَمَثَّل فى أَبصــارنا بَشَرًا　　على الملايك من سِيماه تمثيـل
لقد تَسامى وجبريلٌ مُصاميــهِ　　إلى مقام راخى فيــه جبريـل
أَوحى إليــه الذى أَوحاه من كَثَب　　فالقلب واعٍ بِسرِّ الله مشغـــول
يتلو كتاباً من الرحمن جاءَ بــه　　مطهَّرًا ظاهرٌ منــه وتـأْويـــل
جارٍ على مَنْهج الأَعـراب أَعْجَزهم　　باقٍ مع الدَّهر لا ياتيه تبديل
بلاغةٌ عندها كعَّ البليـغ فلم　　يَنْطق وفى هَدْيه صاحت أضاليل

ومنها :

وطُولبوا أَن يُجيبوا حين رابَهم　　بسُورةٍ مثله فاستَعْجز القِيــل
لاذو بِذَوَبان خطى وبتر ظبــا　　يوم الوغا واعتراهم منه تنكيل
فمونفٌ فى جبال الوَهْد مُنْحَدر　　ومُوثَقٌ فى حبـال الغَـدِ مَكْبُول
مازال بالعَضْب هتَّاكاً سوابِغَهم　　حتى انثنى العضْبُ منهم وهو مَفْلول
وقد تحطَّم فى نَحْر العدا قصدٌ　　أَصمُّ الوشج وخانتها العواميل

من لا يُعَدِّلُهُ القرآن كان لـه من الصِّفاد وبيض البَتْر تعديل
وكم له معجزًا غير القرآن أتى فيه من الحقِّ مَنْقولٌ ومعقول
فللرسول انشِقاقُ البدر نَشْهَدُه كما لمُوسى انْفِلاَق البحر مَنْقول
ونبع ماءٍ فراتٍ من أنامله كالعين ثَرَّت فجا الهتَّان ماءُ النيـل
روَّوا الخميس وهم زُهاء سبع مئٍ مع الركَّاب فَمَشْروب ومَحْمول
ومئٌ عينٌ بكفٍّ جـاءَ يحملها قَتـادةً وله شكوى وتَعْـويل
فكانت أَحْسَن عينيه ولا عجبٌ مسَّت أنامِل فيها اليُمْن مَجْعول
والْجِذْع حنَّ إليه حين فارقه حَنين ولْهَى لهـا للرُّوم مشكـول
وأشبع الكَثْر من قِلِّ الطعام ولم يكن ليعوزه بالكَثْر تقليـل
وفى جراب لى هنَّ عجايب كم يَمْتار منه فَمَبْذول ومأكُول
وفى ارْتواءٍ لى ذَرٍّ بزمزم ما يكفى تبدَّن منـه وهـو مَهْـزول
والعنكبوت بباب الغار قد نُسجت حتى كأنَّ رداءً منـه مسـدول
وفرَّخت فى حِماه الوُرْق ساجعة تبكى وما دمْعُها فى الخَدِّ مطلول
هذا وكم معجزات للرسول أَتَتْ لها من الله أمداد وتَأصيـل
غَدَت من الكثر أَعْداد النجوم فما يُحصى لها عدداً كَتْبٌ ولا قِيل
قد انْقَضَت معجزات الرُّسل منذ قضوا نحباً وأَعْجَم منها ذلك الجيـل
ومعجزات رسول الله باقيـةٌ محفوظةٌ مالها فى الدَّهـر تحويل
تكفَّل الله هذا الذِّكر يحفظـه وهل يَضيع الذى بالله مَكْفول
هدى المفاخرُ لا يَحْظى الملوك بها المُلْك منقطعٌ والوحى مَوْصول(١)

ومن مطولاته فى غرض يظهر منها :

هو العِلْم لا كالعلْم شيءٌ تُراوِدُه لقد فاز باغِيه وأَنجح قاصـده

(١) وردت هذه القصيدة فى الإسكوريال ، ولم ترد فى الزيتونة .

وما فضل الإنســـان إلاّ بعِلْمه ... وما امتاز إلاّ ثاقِبُ الذِّهن واقِدُه
وقد قَصُرت أعمارُنا وعلومنــا ... يطول علينا حَصْرُها ونُكابِده
وفى كلِّها خيرٌ ولكنَّ أصلهـا ... هو النَّحو فاحذر من جَهُول يُعَانِده
به يُعرف القرآن والسُّنَّة التى هما ... أَصلُ دين الله ذو أنت عابده (١)
وناهيك من علمٍ علىٌّ مُشيد ... مبانيه أَعْزِزْ بالذى هو شـايِده
لقد حاز فى الدنيا فخاراً وسودَداً ... أَبو الأَسود الديلى (٢) فللجرِّ سانده
هو استنبط العلم الذى جلَّ قدرُه ... وطار به لِلْعُرْب ذكرٌ نعـاوده
وساد عطا نجله وابن هرمز (٣) ... ويحيِ ونصر ثم ميمون ماهده
وعنْبَسة قد كان أبرعَ صَحبه ... فقد قلَّدت جيدَ المعالى قلايدُه
ومازال هذا العلم تُنْميه سادةٌ ... جهابذةٌ تَبْلى به وتعـاضده
إلى أَن أَتى الدَّهر العقيم بواحد ... من الأَزْد تُنميه إليــه فرايده
إمامُ الورى ذاك الخَليل بن أَحمد ... أَقرَّ له بالسبق فى العلم حاسدُه
وبالبَصرة الغرَّا قد لاح فجرهُ ... فنارت أَدانيه وضاءت أَباعِدُهُ
يـا ذكىَّ الورى ذِهْناً وأَصدق لهجة ... إذا ظنَّ أمراً قلتُ ما هو شاهده
وما أَن يَرْوِى بل جميع علومه (٤) ... بدايةٌ أَعيَت كلَّ حَبْرٍ تُجـالده
هو الواضعُ الثانى الذى فاق أَولا ... ولا ثالثُ فى الناس تصمى قواصده
فقد كان ربَّانىَّ أَهـل زمانــه ... صُوَّمٌ قُوَّمٌ راكِعُ الليل ساجده

---

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة كالآتى (أصل ذا الدين الذى أنت تاباه) .

(٢) الإشارة هنا إلى أبى الأسود الذى يعتبر أول واضع للنحو ، المتوفى سنة ٦٩ هـ .

(٣) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة كالآتى (وتبادر غيظاً نجله وابن حيدر) .

(٤) وردت هذه الشطرة فى الزيتونة كالآتى (وما أن يرى مثل تجمع علومه) .

يقيم منه دهره[١] فى مَشُوبة | وثوقًا بأَنَّ الله حقاً مُواعده
فعامٌ إلى حجّ وعامٌ لغَـزْوة | فيعرفه البيْتُ العتيق ووافِدُهُ
ولم يُثْنه يوماً عن العلم والتُّقى | كواعِبُ حُسْنٍ تَنْثَنى ونواهِدُهُ
وأكثرُ سكناه بقَفْر بحيث لا | تُنَاغيه إلاَّ عَفْرُهُ وأوابدُه
وما قوتُه إلاَّ شَعير يُسيغُه | بماءِ قَراح ليس تَغْشى موارده
عزوباً عن الدنيا وعن زَهْراتها | وشوقاً إلى المولى وما هو واعِدُه
ولما رأى من سيبويه نجابة | وأَيقن أَنَّ الحِين أَدناه باعِدُه
تخيَّره إذ كان وارثَ عِلْمه | ولا طَفَهُ حتَّى كأَنَّ هو والده
وعَلَّمَه شيْئاً فشيْئاً عُلُومه | إلى أن بَدَتْ سيماه واشتدَّ ساعده
فإذْ ذاك وافاهُ من الله وعْدُهُ | وراح وحيدَ العصر إذ جاءَ واحدُه
أتى سيبويه ناشراً لعُلُومه | فلولاه أَضحى للنحو عُطْلاً شواهده
وأبدى كتاباً كان فخراً وجوده | لقحطان إذ كعب بن عمرو مُحاتِده
وجمع فيه ما تفرَّق فى الورى | فطارِفُه يُعْزَى إليه وتالدُه
بعمرو بن عثمان بن قُنْبر الرِّضا | أَطاعت عَواصِيه وتابتْ شَوارِدُه
عليك قرآن النحو نحو ابن قنبر | فآياته مشهودةٌ وشواهده
كتاب أبي بِشْر[٢] فلا تكُ قارياً | سواه فكلُّ ذاهبُ الحُسن فاقدُه
هم خُلُجٌ بالعِلْم مدَّت فعندما | تناءَت غَدَت تُزْهى وليست تُشاهده
ولاَ تُعد عما حازه إنه[٣] الفِرا | وفى جَوْفه كلُّ الذى أَنت صائده
إذا كنت يوماً مُحكماً فى كتابه | فإنَّك فينا نابه القَدْر ماجِدُهْ

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الدهر) .

(٢) أبو بشر ، هو كنية سيبويه ، فهو أبو بشر عمرو بن عثمان .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (فهو) .

ولست تبالى إن فَكَكْتَ رموزه   أَعضَّك دهرٌ أم عَرَتْك ثَرايده
هو العَضْبُ إنْ تَلق الهياج شَهرتَه   وإن لا تُصِب حرباً فإنَّك غامده
تلَقَّاهُ كلٌّ بالقَبُول وبالرِّضى   فذُو الفهم من تَبْدُو إليه مقاصده
ولم يعترض فيه سوى ابن طراوة   وكان طرياً لم تقادم معاهده
وجسَّره طعنُ المُبَرِّد قبلـــه   وإن الثَّمالى [1] باردُ الذِّهن خامده
هُما ماهُماصار امدى [2] الدهر ضِحْكة   يُزيِّف ما قالا وتبدو مفاسـدُه
تكون صحيحَ العقل حتّى إذا ترى   تُبارى أَبا بشرٍ ، إذا أَنت فاسدُه
يقول امرؤٌ قد خامر الكِبْر رأْسه   وقد ظنَّ أَن النحو سهلٌ مقاصده
ولم يشتغل إلاَّ بنَزْرِ مسايلٍ من   الفقه وفى أَوراقه هو راصـده
وقد نال بين الناس جاهاً ورُتْبة   وأَلْهاك عن نيل المعالى ولا بِدِه
وما ذاق للآداب طعمــاً ولم   يَبِت يُعْنَى بمنظُومٍ ونثْرٍ يجاوِدُه
فينكِحُ أبكار المعانى ويَبْتَغِى لها   الكُفْو من لفظ بها هو عاقِدُه
رأَى [3] سيبويه فيه بعض نَكادة   وعُجْمة لفظٍ لا تَحِلُّ معاقدَه
فقلت أَتيت ما أَنت أَهلٌ لفهمه   وما أَنت إلاَّ غايضُ الفِكر راكدُه
لعَمْرُك ما ذو لحيــة وتَسَمُّت   وإطراق رأْس والجهات تساعده [4]
فيمشى على الأَرض الهُوَيْنا كأَنَّما   إلى الملإِ الأَعلى تناهَتْ مراصدُه
وإِيهامُك الجُهَّال أَنَّك عــالِمٌ   وأَنَّك فردٌ فى الوجود وزاهِـدُه
بـأَجلَب للنَّحو الذى أَنت هاجرٌ   من الدَّرس بالليل الذى أَنت هاجِدُه

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (النخالى) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (امد) .
(٣) وردت فى الإسكوريال (أرى) . وفى الزيتونة (روى) . ونعتقد أن التصويب أرجح .
(٤) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (تصاعده) ونعتقد أن الأولى أرجح .

أَصاحِ تجَنَّب من غَوِىٍّ مُخْـذل وخذ فى طريق النَّحو أَنَّك راشده
لك الخَيْرُ فادْأَب ساهراً فى علومه [فلم تُشِمْ]ٌ(١) إلاَّ ساهرالطَّرف ساهدُه
ولا تَرْجُ فى الدنيا ثوابًا فإنمـا لدى الله حقاً أَنت لا شك واجدُه
ذوو النحو فى الدنيا قليلٌ حظوظهم وذو الجهل فيها وافرُ الحظِّ زايده
لهم أُسْوةٌ فيها على لغْدٍ مضى ولم يَلْقَ فى الدنيا صديقاً يساعده
مضى بعده عنها الخليل فلم ينل كفافًا ولم يَعدم حسودًا يناكده
ولاقـى أَبـابشـرٍ سـفيهَهـا غداة تمالت فى ضلال يُمادده(٢)
أَتى نحو هارون(٣) يناظر شيخه فنفحـة حتَّى تبدت منـاكده
فأَطرق شيئاً ثم أَبدى جوابـه بحق ولاكن أَنكر الحق جاحده(٤)
وكاد علىٌّ عمراً إذا صار حاكماً وقَدْ ما علىّ كان عمرو يكايده
سقاه بكاس لم يفق من خِمارها وأَورده الأَمر الذى هو وارده
ولابن زياد شركة فى مراده ولابن رُشَيْد بشَرَكٍ للقلب رابده
همـا جرَّعـا إلى علىٍّ وقُنْبـر أَفاويق(٥) سُمٍّ لم تنجد أَساوده
أَبْكِى على عمرو ولا عَمْر مثلـه إذا مُشْكلٌ أُعيا وأَعْوَز ناقده
قضى نَحْبه شَرْخ الشَّبيبة لم يُرَع بشَيْبٍ ولـمْ تَعْلُق بذامٍّ معاقـده
لقد كان للناس اعتناءٌ بعلمه بشرقٍ وغربٍ تُسْتَنَار فوايـده
والآن فلا شخص على الأَرض قارىءٌ كتاب أَبى بشرٍ ولا هـو رايـده
سوى معشرٍ بالغَرْب فيهم تلَفُّتٌ إليه وشوقٌ ليس يَخْبُو مواقدُه

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (فلا تسافر) .
(٢) وردت فى الإسكوريال (بغادده) والتصويب من الزيتونة .
(٣) هو هارون بن موسى . وكان يهوديا من أهل البصرة ، اعتنق الإسلام واشتغل بالأدب واشتهر بضبط النحو والبراعة فيه .
(٤) وردت فى الإسكوريال (جاهده) . والتصويب من الزيتونة .
(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الزيتونة (أباريق) والأولى أرجح .

وما زال منّا أَهْلُ أَنْدَلسٍ لـه ... جهابذُ تُبدى فضله وتُنـاجده
وإنى فى مصر على ضعف ناصرى ... لناصِرُه ما دمت حيًّا وعاضده
أثار أثيرُ الغَرْب للنحو كامنـاً ... وعالجه حتّى تبدّت قواعـده
وأحيا أبوحيّان مَيْت علـومه ... فأصبح عِلْمُ النحو ينفق كاسده
إذا مَغْرِبى حَطّ بالثغر رَحْلَـه ... تَيَقّن أن النحـو أَخفـاه لاحدُه
مُنينا بقوم صُدِّروا فى مجالس ... لإقراء عِلم ضلّ عنهم مراشدُه
لقد أُخِّر التصدير عن مُسْتحِقِّه ... وقُدِّم غُمْرٌ خامِدُ الذهن جامدُه
وسوف يلاقى مَنْ سَعَى فى جلوسهم ... عُقبَى ما أَكنّت عقـــايدُه
علا عقلَه فيهم هواهُ فما درى ... بأنّ هوى الإنسان للنّار قايدُه
أقمنا بمصر عشرين[1] حجة يُشاهدنا ... ذو أمـرهم ونُشـــــاهده
فلمّا نَنَلْ منهم مدى الدهر طايلا ... ولمّا نجد فيهم صديقاً نُوادده
لنا سلوةٌ[2] فيمن سَرَدْنا حديثهم ... وقد يُتَسَلَّى بالذى قـال سارده
أخِى إنْ تَصِل يوماً وبُلِّغت سالماً ... لغرناطة فانمذ لما أنا عاهده
وقَبِّل ثرَى أرض بها حلّ مَلكنا ... وسُلطاننا الشَّهْمُ الجميلُ عوايده
مُبيد العِدا قتلاً وقد عَمَر شرُّهم ... ومُحيي النَّدا فضلاً وقد رَمّ هامده
أفاض على الإسلام جوداً ونجدةً ... فعزّ مواليه وذُلّ مُعـــانده
وعِمْ بهـا إخواننـا بتحيَّــة ... وخُصَّ بها الأستاذ لا عاش كايده
جزى الله عنا شيخنا وإمامنـا ... وأُستاذنا الْحَبْرَ الذى عَمَّ فايده[3]
لقد أطْلَعَت جيّان أوحد عصره ... فللغرب فخرٌ أعجز الشرق خالده

(١) وردت فى الإسكوريال (نحو) . والتصويب من الزيتونة .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (أسوة) .
(٣) يشير هنا إلى أستاذه أيام دراسته بغرناطة العلامة المحدث المقرى اللغوى أبى جعفر ابن الزبير المتوفى سنة ٧٠٨ هـ ؛ وأصله من مدينة جيان . وقد ترجم له ابن الخطيب فى المجلد الأول من الإحاطة (الطبعة الثانية ص ١٨٨ – ١٩٣) .

مؤرخةٌ نحويةٌ وإمامةٌ مُحَدِّثةٌ ... جَلَّت وصحَّت مسانده
جاهٌ عظيمٌ من ثقيفٍ وإنما به ... استوثقت منه العُرى ومساعده
وما أنْسَ لا أنسى سُهادى ببابه ... بسبقٍ وغيرى نايم الليل راقده
فيجْلُو بنور العلم ظُلمة جَهْلنا ... ويفتح عِلماً مُغْلَقاتٍ رصايده
وإنِّى وإن شطَّت بنا غُرْبة النَّوى ... لشاكرٌ لهُ فى كل وقت وحامده
بغرناطة رُوحى وفى مصر جُثَّتى ... تُرى هل يُثْنى الفَرْدَ من هو فارده
أَبا جعفر خُذْها قوافى من فتىً ... تَتِيه على غُرِّ القوافى قصايده
يسيرُ بلا إذْن إلى الأُذْن حسنَها ... فيرتاح سمّاعٌ لها ومناشده
غريبةُ شكلٍ كم حَوَت من غرايب ... مجيدةُ أَصل أَنْتَجتها أَماجده
فلولاك يامولاى ما فاه مِقْولى ... بمصر ولا حبَّرتُ ما أنا قاصده
لهذَّبتنى حتَّى أَحوك(١) مُفَوِّقاً ... من النظم لا يَبْلى مدى الدهر آبده
وأَذكيتَ فكرى بعد ما كان خامداً ... وقُيِّد شعرى بعد ما نَدَّ شاردُه
جعلتُ ختاماً فيه ذكرك إنه ... هو المسك بل أَعْلى وإن عزَّ ناشده

ومما دُونَ المطولات قوله رحمه الله :

تفرَّدت لمَّا أن جُمعت بذات ... وأُسْكِنت لما أن بَدَت حركات
فلم أَر فى الأَكوان غيراً لأَننى ... أَزَحْتُ عن الأَغيار روح حيات
وقدَّستها عن رتبة لو تعيَّنت ... لها دايماً دامت لها حسرات
فها أَنا قد أَصعدتُها عن حضيضها ... إلى رُتبة تَقْضى لها بثبات
تشاهد مَعْنى روضةٍ أَذْهَب العنا ... وأَيقظنى للحق بعد سِنات
أَقامت زمانا فى حجاب فعندما ... تَزَحْزَح عنها رامَتْ الخلوات
لنقْضى بها ما فات من طيب أُنْسِنَا بها ... وننال الجَمْع بعد شَتات

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى « الزيتونة » (أجود) .

ومن النسيب قوله :

كتَم اللسانُ ومدمعى قد باحــا وثوَى الأَسى عندى وأَسّى راحـا
إنى أُحب طىَّ ما نشر الهــوى نشرا وما زال الهـوى إفصاحـا
ومهجتى من لا أُصرِّح باسمه ومن الإشارة ما يكون صُراحـا
رِيمٌ أَروم حُنـوَّه وجنـوحَه ويروم عنى جَفْوةً وجِماحـا
أَبدى لنـا من شَعْره وجَبينه ضِدَّين ذا ليـلاً وذاك صباحـا
عجبا له يأْسُو الجسوم بطبِّه ولـكم بأَرواحٍ أَثار جِراحـا
فبلَفْظِه بُرءُ الأَخيذ ولحظُـه أَخذ البرىَّ فمـا بُطيق براحـا
ناديته فى ليلة لا ثالث إلا أَخوه البـدر عارفٌ لاحا
يا حُسْنها من ليلة لو انها دامت ومدَّت لتوصـال جِنـاحـا

وقال :

نورٌ بخدِّك أَم توقُّد نــار وضنىً بجَفْنك أَم فتـور عَقار
وشذاً بريقك أم تـأَرُّج مِسكة وسنىً بثغرك أَم شُعاع دُرار
جُمعت معانى الحسن(١) فيك فقد غَدت قَيْدَ القلوب وفتنةَ الأَبصار
مُتصاون خَفِر إذا ناطقتـه أَغضى حياً فى سكون وقـار
فى وجهه زهـرات لفظ تُجتلى من نرجس مع وردة وبهـار
خاف اقتطاف الورد من جَنَباتها فأَدار من أَسر سِيـاج عِذار
وتسلَّلت نملُ العِذار بخـده ليرِدْن شَهدة ريقه المعطـار
وبخدِّه وردٌ حمتها وردُهـا فوقفْن بين الورد والإصـدار
كم ذا أُوارى فى هواه محبَّتى ولقد وَشَى بى فيـه فرط أُوار

ومن نظمه من المقطوعات فى شتى الأَغراض قوله رحمه الله :

أَزحت نفسى من الإيناس بالناس لمّا غَنِيت عن الأَكياس باليـاس

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . ووردت فى الإسكوريال (المسك) والأولى أرجح .

وصرت فى البيت وحدى لا أرى أحداً … بناتُ فكرى وكُتبى هنَّ جُلاَّسى

وقال :

وزهَّدنى فى جَمْعى المال أنه إذا … ما انتهى عند الفتى فارق العُمْرا
فلا رُوحه يوما أراح من العنا … ولم يكتسب حَمْدًا ولم يدَّخر أجرا

وقال :

سَعَتْ حيَّة من شَعره نحو صدغه … وما انفصلت من خدِّه إنَّ ذا عجبُ
وأعجب من ذا أنَّ سلسال ريقه … برودٌ ولاكن شبَّ فى قلبى اللهب

وقال :

راض حبيبى عارضٌ قد بدا … يا حُسْنَه من عارض رابض
وظنَّ قوم أن قلبى سلا … والأصل لا يَعْتَدُّ بالعارض

وقال :

سال فى الخدِّ للحبيب عِذار … وهو لا شك سايلٌ مرحوم
وسألتُ التِثامَه فتجنَّى … فأنا اليوم سايلٌ محروم

وقال :

جُننت بها سوداء لونٍ وناظِر … ويا طالما كان الجنون بسوداء
وجدتُ بها بَرْد النعيم وإنَّ … فؤادى منها فى جحيم ولأْواء

وقال فى فتى يُسمى مظلوم :

وما كنت أدرى أن مالك مُهجتى … يَتَسَمَّى بمظلوم وظُلم جفاوه
إلى أن دعانى للصَّبا[1] فأَجبته … ومن يك مظلوما أُجيب دعاوه

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الصلا) .

وقال :

جُنَّ غيرى بعارض فترجَّى ... أهله أَن يفيق عما قريب
وفؤادى بعارضين مصابٌ ... فهو داءٌ أعيي دواءَ الطبيب

وقال :

شكي الخَصر منه ما يلاقى بردْفه ... وأضعف غصن البان جرٌّ كثيب
إذا كان منه البعضُ يظلم بعضه ... فما حـال شطٍّ المزار غريب

وقال :

وذو شَمَمٍ لَمْيا زُيِّنت بشامة ... من المسك فى رشافها يذهب النُّسك
ظميت إليهـا ريقةً كوثريـة ... بمثل لِقاني ثَغرها يُنظم السِّلك
تعلَّ بمعسول كأَنَّ رُضابـه ... مُدام من الفرد وسرُّ خاتمه مِسك

وقال :

أَجلُّ شفيعٍ ليس يمكن رده ... دراهمُ بيضٌ للجروح مراهم
تُصَيِّر صعب الأَمر(1) أسهل ما ترى ... ويقضى لبانات للفتى وهو نايم

وقال :

نُعيد وُدَّ قريب ضَـلٍّ ... كبير عَتْب قليلٌ عتبـا
كالشمس ظَرْفًا كالمسك عَرفًا ... كالخَشْف طَرفا كالصَّخر قلبا

وقال :

عُداتى لهم فضل علىَّ ومنَّـة ... فلا أَذْهَب الرحمن عنِّى الأَعاديا
هم بحثوا عن زلَّتى فاجتنبتها ... وهم نافَسُونى فاكتسبتُ المعاليا

مولده : ولد بغَرْناطة عام اثنين وخمسين وسمّاية .

---

(1) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (الشيء) .

وفاته : أخبرنى الحاج الخطيب الفاضل أبو جعفر الشَّقورى رحمه الله . قال، توفى عام خمسة وأربعين وسبعماية بمصر ، ودفن بالقرافة . وكانت جنازته حافلة .

ومن الطاريين عليها فى هذا الحرف

محمد بن أحمد بن داود بن موسى بن مالك اللَّخمى اليكِّى [١]

من أهل بَلِّش [٢] يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن الكمّاد

حـــاله

من « عايد الصلة » : كان من جلَّة صدور [الفقهاء] [٣] الفضلاء زهدا وقَناعة وانقباضا ، إلى دَماثة الخلق ، ولين الجانب [وحُسن اللقاء] [٤] والسَّذاجة المُمَوَّهة بالغَفْلة ، والعمل على التقشُّف والعُزلة ، قديم السَّماع والرِّحلة ، إماما مشهورا فى القراءات ، يُرحل إليه ، ويعُول عليه ، إتقانا ومعرفة منها بالأُصول ، كثير المحافظة والضَّبط ، محدِّثا ثَبْتًا ، بليغ التَّحرُّز ، شديد الثقة ، فقيها مُتصرِّفا فى المسايل ، أعرف الناس بعقد الشروط ، ذا حظٍّ من العربية واللغة والأَدب . رحل إلى العُدْوة ، وتجول فى بلاد الأَندلس ، فأَخذ عن كثير من الأَعلام ، وروى وقيَّد وصنَّف وأَفاد ،

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الليكى) .

(٢) بلش اوبلش مالقة وبالإسبانية Velez Malaga هى بلدة أندلسية قديمة تقع على قيد ثلاثين كيلومترا من شرق مالقة وعلى قيد خمسة كيلو مترات من البحر المتوسط ، ويبلغ سكانهـــا اليوم نحو ثلاثين ألف نسمة .

(٣) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة ، وساقطة فى الاسكوريال .

(٤) هذه العبارة واردة فى الاسكوريال ، وساقطة فى الزيتونة .

وتصدَّر للإقراء بغرناطة وبَلِّش وغيرهما ، وتخرَّج بين يديه جملة وافرة من العلماء والطلبة ، وانتفعوا به .

مشيخته (١)

قرأ ببلده مُرْسية على الأستاذ أبي الحسن على بن محمد بن لُب بن أحمد ابن أبي بكر الرَّقُوطى ، والمُقْرى أبي الحسن بن خلف الرُّشاطى ، والمحدِّث الجليل أبي عمرو محمد بن على بن عَيْشُون اللخمى ، وعلى الشيخ الفقيه الكاتب أبي محمد بن عبد الله بن داود بن خطَّاب الغافقى المُرْسى . وممن أجازه الفقيه أبوعثمان سعيد بن عمرو البَطِرنى ، والقاضى أبو على بن أبي الأَحوص ، لقيه ببلِّش مالقة وبَسْطة ، فروى عنه الكثير ، والأُستاذ أبو القاسم بن الأَصهر الحارثى لقيه بألمريَّة . ولقى بغرناطة الأُستاذ أبا جعفر الطَّبَّاع ، والوزير الرَّاوية أبا القاسم محمد بن يحيى بن عبد الرحمن ابن جُزَىّ الكلبى ، روى عنه وأجازه . وكتب له بالإجازة جماعة كبيرة من أهل المشرق والمغرب ، حسبما تضمنه برنامجه .

تواليفه

اختصر كتاب « المُقْنع » فى القراءات اختصارا بديعا وسماه كتاب « الممتع فى تهذيب المقْنع » وغير ذلك .

شعره

من ذلك وقد وقف على أبيات أبي القاسم بن الصَّقر فى فضل الحديث :

(١) وردت للمترجم له فى مخطوط الزيتونة « مشيخة » طويلة من نحو لوحتين .وقد رأى ناسخ الإسكوريال أن يضرب صفحا عنها ، وأن يكتفى بقوله : « قلت له مشيخة فى الأصل طويلة اختصرتها لطولها » . وقد رأينا نحن أن نورد مشيخته مختصرة من الزيتونة، وأن نقتصر فيها على عدد من جلة الأساتذة الذين أخذ عنهم المترجم له .

لقد حاز أَصحابُ الحديث وأَهلُه　　شأواً وتوتيراً ومجداً مُخَلَّدا
وصحَّت لهم بين الأَنام مزيَّـهٌ　　أبانت لهم عزًّا ومجدًا وسوددا
بدعوة خير الخلق افضل مُرْسَل　　محمدٌ المبعوث بالنُّـــور والهُدا
فهم دوَّنوا عِلْم الحديث وأَتقنوا　　ونصُّوا بتبيينٍ صحيحاً ومُسْندا
وجاءُوا بـأَخبار الرَّسول وصَحْبه　　على وجهها لفظاً ورسماً مقيدا
وهم نقلوا الآثار والسُّنن التى　　من أَصْبَح ذا أَخْذ بها فقد اهْتَدا
وما قصَّروا فيها بفِقْهِ ولا ونُوا　　بل التزموا حدًّا وحزمًا مُؤَكَّدا
وهم أَوضحوا من بعدهم باجتهادهم　　وتَبْيينهم سُبُل الهدى لِمن اقْتدَا
جزاهم إلَه العرش عنا بنصحهم　　بـأَحْسَنَ ما جازى نصيحاً ومرشدا
ونَسَلْه سبحانه نَهْج هَـــديهم　　وسعياً إلى التَّقوى سبيلا ومَقْصدا[1]

ومن شعره رحمه الله قوله :

عليك بالصَّبر وكُن راضياً　　بما قضاه الله تلقى النجاح
واسلُك طريق المجد والْهج به　　فهو الذى يرضاه أهل الصلاح

وقد أَلَّف شيخنا أَبو البركات بن الحاج ، جزءًا سماه «شعر من لا شعر له » ، فيه من شعر هذا الرجل الفاضل ومثله كثير

مولده : قبل الأَربعين وسبعمايه . وتوفى ثانى شهر الله المحرم عام اثنى عشر وسبعماية

---

(١) هذه القصيدة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الزيتونة .

« انتهى ما اختُصر من السِّفر السابع من كتاب « الإحاطة فى تاريخ غرناطة » . يتلوه فى السفر الثامن بعده إن شاء الله . ومن السفر الثامن من ترجمة المقريين والعلماء رحمهم الله »[1] .

---

(١) بعد أختتام السفر السابع من كتاب « الإحاطة » على هذا النحو ، أورد الناسخ نبذة طويلة استهلها بقوله أن الأستاذ أباجعفر بن الزبير قيد بخطه « تقييدا حسنا ساير فيه طبقات الأمم لصاعد فنقص منها ، وزاد فى بعض أسماء رجالها حكايات وأخبارا » . ويدور الحديث فى هذه النبذة كلها ، عن فلاسفة اليونان أوحكمائها الخمسة بيرقليس وفيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس ، وعن أخبارهم وآرائهم ، ويتناول بصفة خاصة آراء أرسطاطاليس ومؤلفاته وعلاقته بالأسكندر المقدونى . وقد رأينا نحن أنه لا محل لإيراد هذه النبذة ، لأنه لا علاقة لها بكتاب الإحاطة ، وهى تشغل من مخطوط الإسكوريال (لوحات ١٠٢ إلى ١٠٥) .

ومن السفر الثامن
من ترجمة المقريين والعلماء

محمد بن أحمد بن محمد بن على الغسّانى

من أهل مالقه ، يكنى أبا القاسم ، ويعرف بابن حفيد الأمين

حاله

كان من أهل العلم والفضل والدين المتين ، والدُّؤوب على تدريس كتب الفقه . استظهر كتاب « الجواهر » لابن شاس ، واضطّلع بها ، فكان مجلسه من مجالس الحُفّاظ ، حُفّاظ المذْهَب ، وانتفع به الناس ، وكان معظّماً فيهم ، متبرَّكاً به ، على سُنن الصالحين ، من الزُّهد ، والانقباض ، وعدم المبالاة بالملبس والمطعم . وقال صاحبنا الفقيه أبو الحسن النُّباهى فى تذييله لتاريخ مالقة : كان رجلا ساذجاً ، مُخْشَوْشِنًا ، سُنِّى المنازع ، شديد الإنكار على أهل البِدع . جلس للتّحليق العام بالمسجد الجامع ، وأقرأ به الفِقه والعربية والفرايض .

مشيخته

قال ، منهم أبو على بن أبى الأحوص ، وأبو جعفر بن الزبير ، وأبو محمد بن أبى السَّداد ، والقاضى أبو القاسم ابن السَّكوت . قال ، وأنشد للزاهد أبى اسحق بن قشوم ، قوله :

يروقُكَ يوم العيد حسنُ ملابس ونِعْمةُ أَجسام ولينُ قـــدود
أَجِلِ لحظات الفكر منك فلا ترى سِوى خِرقٍ تُبْلى وطُعْمة دُود

وأنشد لأَبى عمرو الزاهد :

تخْتبرُ الدُّنَير فى مَيْذِقٍ والدِّرهم الزايف إذ يُبْهم
والمرءُ إن رُمْت اختباراً له مَيْذِقُه الدُّنير والدِّرهم
من عفَّ عن هذا وهذا معا فهو التَّقِىُّ الورع المُسْلم

تواليـــفه

له تقييد حسن فى الغرايض ، وجزءٌ فى تفضيل التِّين على التَّمر ، وكلام على نَوازل الفِقه .

وتوفى فى الكائنة العظمى بطريف[1] .

محمد بن أحمد بن على بن قاسم المَذْحِجى

من أهل ملتماس[2] ، يكنى أَبا عبد الله

حـــاله

من « العايد » : كان رحمه الله من سُراة بلده وأَعيانهم ، أُستاذاً مُتَفَنِّناً مُقْرِياً لكتاب الله ، كاتباً بليغاً ، شديد العناية بالكُتُب ، كثير المغالاة فى قِيَمها وأَثمانها ، حتى صار له من أَعْلاقها وذخايرها ، ما عجز عن تحصيله كثير من أهل بلده . كتب بخطِّه ، وقيَّد كثيراً من كتب العلم . وكان

(١) سبق التعريف بهذه الموقعة (راجع المجلد الثانى من « الاحاطة » ص ١٨٠ حاشية) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . ونرجح أنها منتماس Montemas من قرى منطقة بلش ، على نمط أماكن أخرى فى الأندلس الجنوبية مثل مونتيمور Montemayor ومونتى فريو Montefrio وغيرها

مُقْرياً مجوِّداً ، عارفاً بالقراءات ، بصيراً بالعربية ، ثقةً ضابطاً ، مبرِّزاً فى العدالة ، حريصا على العلم استفادةً ثم إفادَةً ، لا يأنف من حَمْله عن أقرانه ، وانتفع به أهل بلده ، والغُرباء أكثر .

مشيخته

أخذ عن طايفة من أهل العلم . منهم الشَّيخان الرُّحْلَتان ، أبو عبد الله ابن الكَمَّاد ، وأبو جعفر بن الزيات عَظِيما بلده ، والخطيب ولى الله أبو عبد الله الطَّنجالى ، والقاضى أبو عبد الله بن بكر . وروى عن الشيخ الوزير أبى عبد الله بن ربيع ، وابنه الرَّاوية أبى عامر ، والخطيب الصالح أبى إسحق بن أبى العاصى . وروى عن الشيخ الرَّاوية الرَّحَّال أبى عبد الله ابن عامر الوادى آشى وغيرهم ، ودخل غرناطة . .

مولده : ولد ببلِّش عام ثمانية وثمانين وستماية

وفاته : توفى ببلِّش عاشر شهر شعبان من عام أربعة وثلاثين وسبعماية .

محمد بن أحمد بن محمد بن على الغسّانى

من أهل مالقة ، يكنى أبا الحكم ، ويعرف بابن حفيد الأمين

حـــــاله

من « العايد »[1] : كان هذا الشيخ من أهل العلم والدِّين المتين ، والْجَرْى على سُنَن الفقهاءِ المتقدِّمين ، عقد الشروط بمالقة مدة طويلة ، فى العدول المبرِّزين ، وجلس للتَّحليق فى المسجد الأعظم من مالقة ، بعد فقد

---

(١) أى كتاب « عايد الصلة » .

أخيه أبى القاسم ، وخطب بمسجد مالقة الأعظم . ثم أُخِّر عن الخطبة لمشاحَنة وقعت بينه وبين بعض الوُلاة ، أثمرت فى إحْنَتِه . ولم يزل على ما كان عليه من الاجتهاد فى العبادة ، والتقييد للعلم ، والاشتغال به ، والعناية بأهله ، إلى أن توفى على خير عمل .

مشـــيخته

قرأ على الأُستاذ الخطيب أبى محمد الباهِلى ، وروى عن جلّة من الشيوخ مثل صِهره الخطيب الولى أبى عبد الله الطَّنجالى ، وشاركه فى أكثر شيوخه ، والأديب الحاج الصالح أبى القاسم القَبْتُورى [1] وغيرهم

مولده : ولد بمالقة عام ثلاثة وسبعين وستماية .

وفاته : توفى بمالقة يوم الأربعاء الثامن عشر لذى حجة من عام تسعة وأربعين وسبعماية . ودخل غَرْناطة غير ما مرّة مع الوفود من أهل بلده ، وفى أغراضه الخاصة

محمد بن أحمد الرَّقوطى [2] المُرْسى

يكنى أبا بكر

حـــاله

كان طِرْفًا فى المعرفة بالفنون القديمة ، المنطق والهندسة والعَدَد والموسيقا

---

(١) نسبة إلى قبتور أو كبتور Captor من بلاد منطقة إشبيلية (أنظر المجلد الأول من الإحاطة ص ٢١٤ حاشية) .

(٢) نسبة إلى رقوطة ، وبالإسبانية Ricate ، وهى بلدة صغيرة فى شرق الأندلس ، تقع على مقربة من شمال غربى مرسية على الضفة الغربية لنهر شقورة R. Segura

والطِّب ، فيلسوفاً ، طبيباً ماهراً ، آيةُ الله فى المعرفة بالألسُن . يُقْرِى الأُمم بألْسِنَتهم ، فُنونَهم التى يرغبون فى تعلمها ، شديد البَاو ، مترفِّعاً ، متعاطياً . عَرَفَ طاغيةُ الروم حقَّه ، لما تغَلَّب على مرسية ، فبنى له مدرسة يُقرى فيها المسلمين والنصارى واليهود ، ولم يزل معظماً عنده . ومما يحكى من مُلَحه معه ، أنه قال له يوماً ، وقد أدنى مَنْزِلَته ، وأشاد بفضله ، لو تنصَّرت وحَصَّلت الكمال ، كان عندى لك كذا وكذا ، وكُنت كذا ، فأجابه بما أَقْنَعه . ولما خرج من عنده ، قال لأصحابه ، أنا الآن أَعْبُدُ واحداً ، وقد عجزتُ عما يجب له ، فكيف حالى لو كنت أعبد ثلاثة كما أراد منى . وطلبه سلطان المسلمين ، ثانى الملوك من بنى نصر[1] ، واستقدمه ، وتلمَّذ له ، وأسْكَنه فى أعدل البُقَع من حضرته . وكان الطلبة يَغْشون منزله المعروف له ، وهو بيدى الآن ، فتُعلِّم عليه الطب والتعاليم وغيرها ، إذ كان لا يُجَارَى فى ذلك . وكان قويَّ العارضة ، مضطَّلعاً بالْجَدَل ، وكان السلطان يجمع بينه وبين مُنْتابى حضرته ، ممن يُقدم مُنْتحلا صناعة أو علماً ، فيظهر عليهم ، لتمكُّنه ودالَّته . حسبما يانى فى إسم أبى الحسن الأُبَّدى ، وأبى القاسم بن خَلصون إن شاءَ الله . وكان يركب إلى باب السلطان ، عظيم التُّودَة ، مُعار البَغْلة ، رايق البِزَّة ، رفيق المشى ، إلى أن توفى بها . سمح الله له.

محمد بن إبراهيم بن المُفَرِّج الأوْسى

المعروف بابن الدبَّاغ الإشبيلى .

---

(١) هو السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف الملقب بالفقيه لعلمه وتقواه . وقد حكم مملكة غرناطة من سنة ٦٧١ – ٧٠١ هـ (١٢٧٢ – ١٣٠٢ م) .

حـــاله

كان واحد عصره فى حفظ مَذْهب مالك ، وفى عَقْد الوثائق ، ومعرفة عِلَلها ، عارفاً بالنحو واللغة والأَدب والكتابة والشعر والتاريخ . وكان كثير البشاشة ، عظيم الانقباض ، طيِّب النفس ، جميل المعاشرة ، كثير المشاركة ، شديد التَّواضع ، صبوراً على المطالعة ، سهل الأَلفاظ فى تعليمه وإقرايه . أَقرأَ بجامع غرناطة لأَكابر عُلَمايها ، الفِقه وأَصُولَه ، وأقرأ به الفُروع والعقايد للعامة مدة . وأَقرأَ بجامع باب الفخَّارين ، وبمسجد ابن عزرة وغيره .

مشـــيخته

قرأَ على والده الأُستاذ أَبى إسحق إبراهيم ، وعلى الأُستاذ أَبى الحسن الدباج ، وعلى القاضى أَبى الوليد محمد بن الحاج التُّجيبى القرطبى ، وعلى القاضى أَبى عبد الله بن عِياض

وفاته : توفى برُنْدة يوم الجمعة أَول يوم من شوال عند انصراف الناس من صلاة الجمعة من عام ثمانية وستين وستماية .

محمد بن إبراهيم بن محمد الأوسى

من أَهل مُرْسية ، نزيل غَرْناطة ، يكنى أَبا عبد الله ، ويعرف بابن الرَّقَّام الشيخ الأُستاذ المتفنن

حـــاله

كان نسيج وحده ، وفريد دهره ، علماً بالحساب والهندسة والطب

والهيئة ، وغير ذلك ، مديدُ الباع ، أَصيل المعرفة ، مضطَّلعاً ، متبحراً لا يُشَق غبارة . أقرأ التعاليم والطب والأُصول بغرناطة لما استقدمه السلطان ثانى الملوك من بنى نصر من مدينة بجاية ، فانتفع الناس به ، وأَوضح المشكلات ، وسُيلَ من الأَقطار النازحة فى الأَوهام العارضة ، ودوَّن فى هذه الفنون كلها ، ولخَّص ، ولم يفتر من تقييد وشرح وتلخيص وتدوين

تواليـــــفه

وتواليفه كثيرة ، منها كتابه الكبير على طريقة كتاب « الشِّفا » ، والزِّيج التقويم الغريب المَرْصد ، المبَنيِّة رسايله على جداول ابن إسحق ، وعدّل مناخ الأَهلَّة ، وعليه كان العمل . وقيد أَبْكار الأَفكار فى الأُصول ، ولخَّص المباحث ، وكتاب الحيوان والخواص . ومقالاته كثيرة جداً ، ودواوينه عديدة .

وفاته : توفى عن سنٍّ عالية بغرناطة فى الحادى والعشرين لصفر من عام خمسة عشر وسبع ماية

محمد بن جعفر بن أحمد بن خلف بن حُميد[1]
ابن مأمون[2] الأنصارى

ونسبه أَبو محمد القرطبي ، أَمَوِيًّا من صَريحهم ، بَلَنْسى الأَصل ، يكنى أَبا عبد الله

(١) وردت فى الإسكوريال إلى جانب هذا الإسم كلمة (مكبرا)

(٢) وردت فى الإسكوريال (ابن مانون) ، ونرجح التصويب .

حـــاله

كان صَدْراً فى مُتْقِنِى القرآن العظيم ، وأَيِمَّة تجويده ، مبرِّزاً فى النحو ، إماماً معتمداً عليه ، بارع الأَدب ، وافر الحظِّ من البلاغة ، والتَّصرُّف البديع فى الكتابة ، طيِّب الإمتاع بما يورده من الفنون ، كريم الأَخلاق ، حَسِن السَّمْت ، كثير البِشْر ، وقوراً ، دِيِّنًا ، عارفًا ، ورعًا ، وافر الحظِّ من رواية الحديث

مشـــيخته

روى عن أَبى إسحق بن صالح ، وأَبى بكر بن أَبى ركب ، وأَبى جعفر ابن ثعبان ، وأَبى الحجاج القفَّال ، وأَبى الحسن شُريح ، وأَبى محمدعبدالحق ابن عطية ، وأَبى الحسن بن ثابت ، وأَبى الحسن بن هُذيل ، وتلا عليه بالسَّبْع ، وأَبو عبد الله بن عبد الرحمن المَذْحِجى الغرناطى ، وابن فرح القيسى ، وأَبى القاسم خلف بن فُرْتُون . ولم يذكُر أَنهم أَجازوا له . وكتب له أَبو بكر(١) عبد العزيز بن سُدَير ، وابن العَرَفى ، وابن قَنْدلة ، فأَبو(١) الحسن طارق بن موسى ، وابن مُوهب ، ويونس بن مُغيث ، وأَبو جعفر بن أَيوب ، وأَبو الحكم عبد الرحمن بن غشيان ، وأَبو عبد الله الجيَّانى المعروف بالبغدادى . وذكر أَبو عبد الله بن يربوع أَن له راوية عن أَبى الحسن بن الطراوة

من روى عنـه

روى عنه أَبو بحر صفوان بن إدريس ، وأَبو بكر بن عتيق الأَزدى وابن قترال ، وأَبو جعفر الجيَّار ، والذَّهبى ، وابن عَميرة الشهيد ،

---

(١) وردت فى الإسكوريال (أبا ثم (فأبا) فاقتضى التصويب .

وأَبو الحسن بن عزمون ، وابن عبد الرزاق ، وأَبو الحسن عبيد الله بن عاصم الدَّارى ، وأَبو الربيع بن سالم ، وأَبو زكريا الجعفرى ، وأَبو سليمان ابن حَوْط الله ، وأَبو عبد الله الأَندَرَشى ، وابن الحسين بن محبر ، وابن ابراهيم الريسى ، وابن صلتان ، وابن عبد الحق التلمسنى ، وابن يربوع ، وأَبو العباس العَزَفى ، وأَبو عثمن سعد الحفَّار ، وأَبو على عمر بن جميع ، وأَبو عمران بن إسحق ، وأَبو القاسم الطيب بن هرقال ، وعبد الرحيم ابن إبراهيم بن قريش الملاَّحى ، وأَبو محمد بن دُلف بن اليُسر ، وأَبو الوليد ابن الحجاج .

تواليـــــفه

له شرح على « إيضاح الفارسى » ، وآخر على « جُمَل الزَّجَّاجى »

مولده : ببلنسية سنة ثلاث عشرة وخمسماية

وفاته : توفى بمرسية إثر صدوره عن غرناطة عشى يوم السبت لثلاث عشرة بقيت من جمادى الأُولى سنة ست وثمانين وخمسماية

محمد بن حَكَم بن محمد بن أحمد بن باق الجذامى

من أَهل سَرَقُسطة . سكن غرناطة ثم فاس ، يكنى أَبا جعفر

حـــاله

كانَ مُقْرياً مجَوِّداً محققاً بعلْم الكلام وأُصول الفِقه ، محصِّلا لهما ، متقدِّماً فى النحو ، حافظاً للغة ، حاضر الذِّكر لأَقوال تلك العلوم ، جيِّد

النظر ، متوقِّد الذهن ، ذكيَّ القلب ، فصيح اللسان . وُلِّى أَحكام فاس وأَفْتَى فيها ، ودرّس بها العربية ، كتاب سيبويه وغير ذلك

مشيخته

روى عن أَبى الأَصْبَغ بن سهل ، وأَبوى الحسن الحضرمى ، وابن سابق ، وأَبى جعفر بن جرَّاح ، وأَبى طالب السَّرَقُسْطى ، الأَديبين ، وأَبوى عبد الله ابن نصر ، وابن يحيى بن هشام المحدِّث ، وأَبى العباس الدلاءِى ، وأَبى عبيد الله البكرى ، وأَبى عُمر أَحمد بن مروان القَيْرُوانى ، وأَبى محمد ابن قورش ، وأَبى مروان بن سِراج . وأَجاز له أَبوالوليد الباجى رحمه الله .

من روى عنه

روى عنه أَبو إسحق بن قرقول ، وأَبو الحسن صالح بن خلف ، وأَبو عبد الله بن حسن السَّبْتى ، وأَبو الحسن الأُبَّدى ، وتوفى قبله ، وابن خلف بن الأَيْسر ، والنَّميرى ، وأَبو العباس بن عبد الرحمن ابن الصَّقر ، وأَبو على حسن بن الجزَّار ، وأَبو الفضل بن هرون الأَزْدى ، وأَبو محمد عبد الحق بن بُونه ، وقاسم بن دَحْمان ، وأَبومروان بن الصُّقيل الوقَّشى (١)

تواليفه

شرح « إيضاح الفارسى » ، وكان قيِّماً على كتابه ، وصنَّف فى الجدل مُصَنَّفَيْن ، كبيراً وصغيراً . وله عقيدة جيدة

وفاته : توفى بفاس ، وقيل بتلمسان سنة ثلاث وثلاثين وخمس مماية (٢)

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى « جذوة الاقتباس » لابن القاضى (الوشقى) نسبة إلى وشقه .

(٢) ورد فى « جذوة الاقتباس » أن وفاته كانت بتلمسان .

محمد بن حسن بن محمد بن عبد الله بن خَلَف بن يوسف ابن خلف الأنصارى

من أهل مالَقة ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن الحاج ، وبابن صاحب الصلاة .

حـــاله

كان مُقْرِياً صَدْراً فى أيمَّة التَّجويد ، محدثاً مُتْقِناً ضابطاً ، نبيل الخَطِّ والتقييد ، ديِّناً ، فاضلا . وصنَّف فى الحديث ، وخطب بجامع بلده . وأَمَّ فى الفريضة زماناً ، واستمرت حاله كذلك ، من نشر العلم وبثه إلى أَنْ كرَّمه الله بالشهادة فى وقيعة العِقاب[1]

دخوله غرناطة ، راوياً عن ابن الفَرَس ، وابن عَرُوس ، وغيرهما

مشـــيخته

روى بالأندلس عن الحجاج ابن الشيخ ، وأبى الحسن بن كوثر ، وأبى خالد يزيد بن رَفاعة ، وأكثر عنه ، وأبوى عبد الله بن عرُوس ، وابن الفخَّار ، وأبى محمد بن حَوْط الله ، وعبد الحق بن بْونَه ، وعبد الصَّمد ابن يَعِيش ، وعبد المنعم بن الفَرَس ، وأجازوا له . وتلا القرآن على أبى عبد الله الإسْتجيِّ . وروى الحديث عن أبى جعفر الحصَّار . وحجّ فى نحو

---

(١) موقعة العقاب وبالإسبانية Las Navas de Tolosa ، نشبت فى شهر صفر سنة ٦٠٩ ، بين الجيوش الإسبانية المتحدة ، وبين الجيوش الموحدية وسبق التعريف بها (راجع المجلد الثانى من الإحاطة ص ٣٢٩ حاشية) .

سنة ثمانين وخمسماية ، وأخذ عن جماعة من أهل المشرق ،كأبى الطَّاهر الخشوعى وغيره

وفاته : توفى شهيداً محرضا صابرا يوم الاثنين منتصف صفر عام تسعة وستماية

محمد بن محمد بن أحمد بن على الأنصارى

يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن قِرال ، من أهل مالَقة

حـــاله

طالبٌ عفيف مجتهد خيِّر . قرأ بغرناطة ، وقام على فنِّ العربية قياماً بالغاً ، وشارك فى غيره ، وانْتَسَخ الكثير من الدَّواوين بخطٍّ بالغ أَقصى مبالغ الإجادة والحُسْن ، وانتقل إلى مالَقة فأَقْرأ بها العربية ، واقتدى بصِهره الصَّالح أبى عبد الله القطَّان ، فكان من أهل الصلاح والفضل . وتوفى فى محرم عام خمسين وسبعماية.

محمد بن محمد بن إدريس بن مالك بن عبد الواحد بن عبد الملك ابن محمد بن سعيد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الله القضاعى

من أهل إسطبونة[١] ، يكنى أبا بكر ، ويعرف بالقللوسى

حـــاله

كان رحمه الله إماماً فى العربية والعَروض والقوافى ، موصوفاً بذلك ،

(١) إسطبونة أو إشتبونه وبالاسبانية Estepona ثغر صغير يقع على شاطىء البحر المتوسط ، جنوبى غربى مالقة ، وشمالى جبل طارق ، على مقربة من ثغر مربلة .

مَنْسُوباً إليه ، يحفظ الكثير من كتاب سيبويه ، ولا يفارقه بَياض يومه ، شديد التعصُّب له ، مع خِفَّةٍ وطيش يحمله على التوغُّل فى ذلك . حدَّثنى شيخنا أَبو الحسن بن الجيَّاب رحمه الله ، قال ، وقف أَبو بكر القللوسى يوما على القاضى أَبى عمرو بن الرَّنْدون ، وكان شديد الوقار ، مَهِيباً ، وتكلم فى مسأَلة من العربية ، نقلها عن سيبويه ، فقال القاضى أَبوعمرو . أَخطأَ سيبويه . فأَصاب أَبا بكر القللوسى قلق كاد يلبط به الأَرض ، ولم يقدر على جوابه بما يَشْفى به صدره لمكان رُتبته ، قال ، فكان يدور بالمسجد ، والدموع تنحدر على وجهه ، وهو يقول أَخطأَ من خطَّأه ، يكرِّرها والقاضى أَبو عمرو يتغافل عنه ، ويزرى عليه . وكان مع ذلك. مشاركاً فى فنون ، من فقه وقراءات . وفرايض ، من أَعلام الحُفَّاظ للغة ، حُجَّة فى العَرُوض والقوافى ، يُخَطط بالقافى عند ذكره فى الكتب . وله فى ذلك تواليف بديعة . ووُلِّىَ الخطابة ببلده مدة ، وقعد للتدريس به ، وانْثال عليه الناس وأَخذوا عنه . ونسخ بيده الكثير وقيد ، وكان بقطره عَلَما من أَعلام الفضل والإِيثار والمشاركة

توالیفــه

نظم رَجَزاً شهيراً فى الفرايض عِلْمًا وعَمَلاً ، ونظم فى العَرُوض والقوافى وأَلَّف كتاب « الدُّرة المكنونة فى محاسن إسطبونة » ، وأَلف تـأْليفاً حسناً فى تَرْحيل الشمس ، وسوسطات الفجر ، ومعرفة الأَوقات ، ونظم أَرجوزة فى شرح ملاحن ابن دُرَيد ، وأَرجوزة فى شرح كتاب « الفصيح » . ورفع للوزير ابن الحكيم كتاباً فى الخواص وصنعة الأَمدَّة والتطبُّع الشاب . غريباً فى معناه

مشيخته

قرأ على الأُستاذ أَبي الحسن بن أَبي الربيع ، ولازمه ، وأَخذ عنه ، وعن أَبي القاسم بن الحصَّار الضرير السَّبْتي ، وعلى الأُستاذ أَبي جعفر بن الزُّبير بغرناطة ، وغيرهم .

شعره

من شعره قوله من قصيدة يمدح ابن الحكيم :

عُلاهُ رياضٌ أَورقت بمحامد ... تُنَوِّر بالْجَدْوى وتُثْمر بالأَمل
تَسِحُّ عليها من نَداه غمامةٌ ... تروى ثرى المعروف بالعَلِّ والنيل
وهل هو إلاّ الشمس نفْساً ورِفعةً ... فيَغْرُب بالجَدْوى ويَبْعُد بالأَمل
تَعُمُّ أَياديه البريَّة كلها فَدانٍ ... وقاصٍ جودُ كفَّيْه قد شَمِل

وهى طويلة . ونقلت من خطٍّ صاحبنا أَبي الحسن النُّباهي . قال يمدح أَبا عبد الله الرُّنداحي :

أَطْلِع بأُفْق الرَّاح كاس الرَّاح ... وصِل الزَّمان مَساءه بصباح
خُذْها على رغم العَذول مُدَامةً ... تَنْفى الهموم وتَـأْتِ بالأَفراح
والأَرض قد لَبِست بُرود أَزاهر ... وَتَمَنْطقت من نهْرها بوِشاح
والجوُّ إذْ يبكى بدمع غمامة ... ضَحِك الربيع له بثَغْر أَقاح
والرَّوض مرقومٌ بوَشْى أَزاهر ... والطَّير يَفْصَح أَيَّما إفصاح
والغُصْن من طَرَبٍ يميل كأَنما ... سقيت بكفِّ الرِّيح كأْسَ الراح
والوردُ مُنتظم على أَغصانه ... يَبْدو فتحسَبُه خدُودَ مِلاح
وكأَنَّ عَرف الريح من زَهر الرُّبى ... عَرْف امتداح القايد الرُّنداح

وفاته : ببلده عصر يوم الجمعة الثامن عشر لرجب الفرد سنة سبع وسبعماية

محمد بن محمد بن محارب الصّريحى

من أهل مالَقة . يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن أبى الجيش

حـــاله و أَوَّليَّتـــه

أَصل سلفه من حصن يُسْر من عمل مُرْسية ، من بيت حَسَبٍ وأَصالة ، ولخؤولته بالجهة التاكرُونيَّة ثورة

وقلت فيه فى « عايد الصلة » : كان من صُدور المُقْريين ، وأعلام المُتَصَدِّرين تفنُّناً واضطّلاعاً ، وإدراكاً ، ونظراً . إماماً فى الفرايض والحساب قايماً على العربية ، مُشاركاً فى الفقه والأُصول ، وكثير من العلوم العقلية .

قعد للإقراء بمالقة ، وخطب بجامع الرَّبَض

مشـــيختـه

قرأ على الأُستاذ القاضى المُتَفَنِّن أَبى عبد الله بن بكر ، ولازمه . ثم ساءَ ما بينهما فى مسأَلة وقَعَت بمالقة ، وهى تجويز الخُلْفِ فى وَعْد الله ، شنَّع فيها على شيخنا المذكور ، ونَسَبه إلى أَن قال ، وعُدْ الله ليس بلازم الصِّدق ، بل يجوز فيه الخُلْف ، إذ الأَشياءُ فى حقه متساوية ، وكتب فى ذلك أَسئلة[1] للعلماء بالمغرب ، فقاطعه وهَجَره . ولمَّا وُلِّىَ القاضى أَبو عبد الله بن بكر القضاءِ ، خافه ، فوجَّه عنه إثر ولايته ، فلم يشك فى

(١) وردت فى الإسكوريال (أسولة) فاقتضى التصويب .

الشر ، فلما دخل عليه ، رحَّبَ به ، وأَظهر له القَبول عليه ، والعفو عنه ، واستانف مودَّته ، فكانت تُعَدُّ فى مآثر القاضى رحمه الله

ورحل المذكور إلى سَبْتة ، فقرأ بها على الأُستاذ أبى إسحق الغافقى ، ومن عاصره ، ثم عاد إلى مالقة ، فالتزم التدريس بها إلى حين وفاته

دخوله غرناطة

دخل غرناطة مرات ، متعلِّماً ، وطالب حاج . ودُعى إلى الإقراء بمدرستها النَّصرية [١] ، عام تسعة وأَربعين وسبع ماية ، فقدم على الباب السُّلطانى ، واعتذر بما قُبل فيه عُذره . وكان قد شرع فى تقييدٍ مفيد على كتاب « التسهيل » [٢] لابن مالك . فى غاية النبل والاستيفاءِ والحَصْر والتَّوجيه ، عاقته المنية عن إتمامه .

وفاته : توفى بمالقة فى كاينة الطاعون الأَعظم [٣] فى أُخريات ربيع الآخر من عام خمسين وسبعماية ، بعد أَن تصدق بمال كثير ، وعهد بربع مُجد لطلبة العلم ، وحبس عليهم كتبه

محمد بن محمد بن لُب الـكِنانى

من أَهل مالقة ، يكنى أَبا عبد الله ، ويعرف بابن لُب

---

(١) المدرسة النصرية أو مدرسة أو جامعة غرناطة ، هى المدرسة الشهيرة التىأنشأها السلطان يوسف أبو الحجاج ، فى سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) . وقد سبق التعريف بها (أنظر ص ٣٦ من هذا المجلد من الإحاطة) .

(٢) هو كتاب « تسهيل الفوايد وتكميل المقاصد » فى النحو للعلامة اللغوى الكبير ابن مالك الطائى ، صاحبة الألفية الشهيرة . المتوفى سنة ٦٧٢ هـ .

(٣) الطاعون الأعظم أو الوباء الجارف هو الوباء العظيم الذى طاف بالمشرق وأوربا والأندلس سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨م) وقد كتب عنه بن الخطيب رسالة « مقنعة السائل عن المرض الهسائل » وقد أشرنا إليها فى المجلد الأول من الإحاطة (ص ٦٨) .

حـــاله

كان ذاكراً للعلوم القديمة ، مُعتنياً بها ، عاكفاً عليها ، مُتَقَدِّماً فى علمها على أَهل وقته ، لم يكن يشاركه أحد فى معرفتها ، من الرياضيَّات والطبيعيَّات والإلاهيَّات ، ذاكراً لمذاهب القُدَماءِ ، ومآخذهم فى ذلك . حافظاً جداً ، ذاكراً لمذاهب المُتَكَلِّمين ، من الأَشْعَريَّة وغيرهم ، إلا أنه يوثر ما غَلَب عليه من مآخذ خصومهم ، وكان نفُوذه فى فهمه ، دون نفوذِه فى حِفْظه ، فكان مُعْتَمده على حفظه فى إيراده ومناظرته ، وكان ذاكراً مع ذلك لأُصول الفِقه وفروعه ، عَجَبًا فى ذلك ، إذا وَرَدت مسأَلة ، أَوْرَد ما للناس فيها من المذاهب . وعزم عليه آخر عمره ، فقعد بجامع مالقة ، يتكلم على الموطَّا ، وما كان من قبل تَهيَّأَ لذلك ، إلاَّ أنه سَتَرَ عليه حفظُه ، وتعظيمُ أَهل بلده له . قال ابن الزُّبير ، وكانت فيه لَوْثَة ، واخْشِيشان ، وكان له أَربٌ فى التَّطْواف ، وخصوصاً بأَرض النصارى [(١)] ، يتكلم مع الأَساقِفة فى الدِّين ، فيظهر عليهم ، وكانت أُموره غريبة ، من امتزاج اليَقَظَة بالغَفْلة ، وخلْط السَّذاجة بالدُّعابة . يحكى عنه أَنه كانت له شجرة تين بداره بمالقة ، فباع ما عليها من أَحد أَهل السَّوق ، فلما همَّ بجمعها ، ذهب ليمهد للتِّين بالورق فى الوعاءِ ، فمنعه من ذلك ، وقال له إنما اشتريت التين ، ولم تُدخل الورق فى البيع ، فتعب ذلك المشترى ما شاءَ الله ، وجَلَب ورقاً من غيرها ، حتى انقضى الأَمر ، وعزم على معاملته فى السنة الثانية ، فأَولُ ما اشترط الورق ، فلما فرغ من الغلَّة ، دعاه فقال له ، احمل ورقك ، فإنه يُوذينى ، فأَصابه من المشقة فى جَمْعه من أَطراف

---

(١) وردت فى الإسكوريال (النصرى) ، وبالتصويب يستقيم المعنى والسياق .

الغصون ما لم يكن يَحْتَسَب ، ولم تات السنة الثالثة ، إلاَّ وللرجل فقيه ، اشترط مقدار الكفاية من الورق ، فسامحه ورَفَق به .

دخل غرناطة وغيرها . وأَخباره عجيبة . قال أَبو جعفر بن الزُّبير : عَرَض لى بمالقة مسايلُ، يرجع بعضها إلى الطريقة البَيَانيَّة ، والمآخذ الأَدبية ؛ وضحت ضرورة إلى الأَخذ معه فيها ، وفى آيات من الكتاب العزيز ، فاستدعيته إلى منزلى ، وكان فيه تخَلُّق ، وحسن ملاقاة . مع خفَّته الطبيعية وتشتُّت منازِعه ، فأَجاب ، وأَخذتُ معه فى ذلك ، فأَلفيتُه صايماً عن ذلك جملة .

وصْمَتُه

قال ، وكان القاضى الجليل ، أَبو القاسم بن ربيع ، وأَخوه أَبو الحسن ينافرانه على الإطلاق ، ويحذران منه ، وهو كان الظاهر من حاله . قال ، واستدعانى فى مرض اشتَدَّ به ، قبل خروجى من مالقة على انفراد ، فتنصَّل لى مما كان يُذَنُّ(١) به ، وأَكثر البكاء ، حتى رَثَيْتُ له .

وفاته : توفى بمالقة ، ووصَّى قبل موته بوصايا من ماله . فى صدقات وأَشباهها ، وحبَس داره وطايفةً من كتُبه على الجامع الكبير بمالقة .

محمد بن محمد البدوى

الخطيب بالرَّبَض من بَلِّش ، يكنى أَبا عبد الله

حـــاله

من « العايد » : كان رحمه الله حسن التِّلاوة لكتاب الله ، ذا قَدَمٍ فى

(١) يذن هنا بمعنى يوصم ويتهم من (الذنن) وهو القذر .

الفقه ، له معرفة بالأصلين ، شاعراً مُجيداً ، بصيراً ، بليغاً فى خُطْبَته ، حسن الوعظ ، سريعَ الدِّمعة . حجَّ ولقى جِلَّةً . وأقرأ ببلِّش زماناً ، وانتُفع به ، ولقى شدايد ، أصلُها الحَسَد .

مشيخته

قرأ الْعِلْم على الشَّيْخَين الْمُقْرِيَين . الحُجَّتَين ، أبى جعفر بن الزَّيَّات ، وأبى عبد الله بن الكَمَّاد ، وقرأ العربية والأَصلَيْن، على الأُستاذ أبى عمرو ابن مَنْظُور ، ولازمه وانتفع به ، وقرأ الفقه على الشيخ القاضى أبى عبد الله ابن عبد السَّلام بمدينة تونس .

شعره

من شعره قوله فى غرض النسيب :

خالٌ على خدِّك أمْ عَنْبَر ... ولُؤلُؤٌ ثَغْـرُك أم جَوْهر
أوْرَيت نار الوَجْد طَيَّ الحشا ... فصارت النَّار به تَسْعَر
لو جُدْت لى منك برَشْف اللَّما ... لقلت خَمْر عَسَلٍ سُكَّر
دعنى فى الحُبِّ أذُبْ حَسْرَةً ... سفكُ دم العاشق لا يُنكر

وقال :

عَيْنَاى تفهم من عَيْنَيْك أسرارا ... وورْدُ خدِّك يُذْكى فى الحشا نارا
ملكتَ قَلبَ مُحِبٍّ فيك مُكْتَئِبٍ ... قد أثَّر الدَّمع فى خدِّيه آثارا
رُضاب ثغرك يروى حرَّ غُلَّته ... يا ليت نفسى تَقْضى منه أوطارا
أنعِم بطَيْف خيالٍ منك ألمحُه ... ماذا عليك بطَيْفٍ منك لو زارا
نَفْسى فداؤك مـن ظَبْى به كَلَفٌ ... يَصْبو له القلب مضطَرا ومُخْتارا

وقال :

أيها الظَّبي تَرَفَّق   بكَئِيب قد هَلَك
أَلِذَنْبٍ تَتَجَنَّى   أَمْ لشَيءٍ يُوصلك
إنَّ رُوحي لكَ مِلكٌ   وكذا قَلْبيَ لَكْ
إنَّما أَنت هِلالٌ   فَلَكَ الْقَلْبُ فَلَكْ

ومن مجموع نظمه ونثره ما خاطبنى به ، وقد طلبتُ من أَدَبه لبعض ما صدر عنى من المجموعات : « يا سيدى أبقاك الله بَهْجَةً للأَعيان الفضلاء، وحُجَّةً لأَعْلام العَلاء ، ولا زلت تسير فوق النِّسر ، وتجرى فى الفضايل على كرم النَّجْر . ذكر لى فلان أنكم أَردتُم أن يَرِد على كمالكم ، بعضُ الهذيان ، الصادر عن مُعَظِّم جلالكم ، فأَكبرتُ ذلك ، ورأيتنى لستُ هنالك ، وعجبتُ أَن يُنْظم مع الدُّر السَّبَج ، أَو يضارع العَمَشُ الدَّعَج . بيد أَنَّ لنَظْم الدُّرِّ صُنَّاع ، والحديث قد يُذاع ، ولا يُضاع ، وحين اعتذرْتُ له فلم يَعْذُرْنى ، وانتظرته فلم ينظُرْنى ، بعد أَن استعفيتُه فأَبى ، واستنهضت جواد الإجابة فكبي ، وسلك غير طريقى ، ولم يُبَلِّغنى ريقى ، وفَّيْتُ الغرض ، وقضيْتُ من إجابته الحَقَّ المُفْتَرض ، ورددت عن تَعْذاله النَّصيح ، وأَثْبَتُّ هنا ما معناهُ صحيح ، ولفظه غير فصيح :

بريتُ من حولى ومن قوَّتى   بحَوْل من لا حَوْل إلاَّ له
وثقتُ بالخالق فهو الذى   يُدَبِّـر الْعَبْـد وأَفعـاله

وقلت بالحرم عند المُلْتَزم من المنظوم فى مثل ذلك :

أَمولاى بالبـاب ذو فاقة   وهذا يحطُّ خطـايا الأُمم
فَجُدْ لى بعفوك عن زلَّتِى   يجُود الكريم بقدر الكَرَم

ومما أعددته للوِفادة على خير من عُقِدت عليه أَلْوِيةُ السِّيادَة :

حَمَدتْ إليكَ مع الصباح سُراها وأَتَتْكَ تطلُب من نَداك قِراها
وسَرَت إليك مع النَّسيم يمينُها شوقًا يسابق فى السُّرى يُسْراها

ولولا العَجَز لوصلتُ ، والعذر لأطلتُ ، لكن ثَنيتُ عنانى لثنايك « لحُسْن اعتنايك ، وقلت معتذراً من الصُّورة لمجدكم ، وتالياً سورة حمدكم :

المجد تخبر عن صِدق مآثره وناظم المجد فى العَلْياء ناثِرُه
والجُود إنْ جَدَّ جَدُّ المرء يُنْجِده وقلَّما ثمَّ فى الأَيَّام ذاكِرُه
من نال ما نِلتَ من مجدٍ ومن شرفٍ فليس فى الناس شخصٌ يُنَاظره
يا سيداً طاب فى العَلْياء مَحْتِده ماجداً رسَخَت فيه أواصرُه
سَرَيْتَ فى الفضل مُسْتَنًّا على سُنَنٍ فى الفضل مارَبُّه حقاًّوسامره
ورِثْتَه عن كبير أَوْحدِ عِلْمٍ كذاك يحمله أيضاً أكابرُه
مُبَارك الْوجه وضَّاحُ الجبين له نورٌ يُنير أغرُّ النُّور باهرُه
مُوَفَّق بكفيلٍ من عنايته مُرَفَّع العُذر سامى الذِّكر طاهرُه
رَعَيْتَ فى الفضل حقَّ الفضل مجتهداً مفهومُ مجدك هذا الحكم ظاهرُه
عَلوْتَ كالشمس إشراقاً ومنزلةً فأَنت كالغيث يُحْيِي الأَرض ماطِرُه
يَنُمُّ بالفضل منك الفضلُ مشتهرا كما يَنُم بزَهْر الرَّوض عاطرُه
دُم وابقَ للمجد كَهْفاً والعُلاَ وَزَراً(١) فإنما المجد شخصٌ أنت ناظرُه
مُؤَمِّلاً منك خيراً أَنت صانِعُهُ وصانعُ الخير عند الله شاكرُه
وما وُلِّيت وما أَوْلَيْت من حسنٍ فللنَّاس والعالم العُلْوى ذاكرُه
بقيتَ تُكسِب من والاك مَكْرَمةً وناصرًا أبدًا من قَلَّ ناصره

(١) الوزر هو الجبل المنيع أو الملجأ والمعتصم .

عذراً لكَ الفضل عما جيت من خطإٍ أَنْ يُخْطِ مثلى يوماً أنت عاذره
ثم السلام على عَلْياكَ من رجل تُهدى الذى يَخْفَى ضمــايره

دخوله غَرْناطة : دخلها غير ما مرَّة ، ولقيتُه بها لتقضِّى بعض أَغراض بباب السلطان ، مما يليق بمثله .

مولده : . . . . . [1]

وفاته : توفى ببلِّش فى أُخريات عام خمسين وسبعماية .

محمد بن عبد الله بن مَيْمون بن إدريس بن محمد ابن عبد الله العبدرى

قرطبى ، استوطن مدينة مرَّاكُش ، يكنى أَبا بكر .

حـــاله

كان عالماً بالقِراءات ، ذاكراً للتفسير ، حافظاً للفقه واللغات والأَدب . شاعراً مُحسِناً ، كاتباً بلِيغاً ، مبرِّزاً فى النحو ، جميلَ العشرة ، حسنَ الخلق ، متواضعاً ، فَكِه المحاضرة ، مليح المُداعبة . وصنَّف فى غيرما فنٍّ من الْعِلْم وكلامه كثير مدوَّن ، نظماً ونثراً .

مشـــيخته

روى عن أَبى بكر بن العربى ، وأَبى الحسن شُريح ، وعبد الرحمن ابن بَقِى ، وابن الباذِش ، ويونس بن مُغيث ، وأَبى عبد الله بن الحاج ، وأَبى محمد بن عتَّاب ، وأَبى الوليد بن رُشد ، ولازمه عشرين سنة . قرأ

---

(١) بياض فى الأصل .

عليهم وسمع ، وأجازوا له ، وسمع أبا بَحْر الأَسدى ، وأبوى بكر عيَّاش ابن عبد الملك ، وابن أَبى ركب ، وأبا جعفر بن سانجة [١] ، وأبا الحسن عبد الجليل ، وأبا عبد الله بن خلف الأَيْسَرى ، وابن المُناصف ، وابن أُخت غانم ، ولم يَذْكر أنهم أجازوا له ، وروى أَيضاً عن أبوى عبد الله مكّى ، وابن المعمر ، وأبى الوليد بن طَريف .

من روى عنه : روى عنه أَبو البقاء يعيش بن القديم ، وأبو الحسن ابن مؤمن ، وأبو زكريا المرجيعى ، وأبو يحيى أبو بكر الضرير واختص به .

تواليــــفه

من مُصَنَّفاته « مَشاحِذ الأَفكار فى مآخذ النظار » وشَرْحاه الكبير والصغير على « جُمل الزجَّاجى » ، وشرح أَبيات الإِيضاح العَضُدى ، « ومقامات الحريرى » ، وشرح مُعشَّراته الغَزَليَّة ، ومُكَفِّراته الزهدية ، إلى غير ذلك ، وهما مما أَبان عن وفُور علمه ، وغَزَارة مادَّته ، واتِّساع معارفه . وحسن تصرفه .

دخل غرناطة راوياً عن الحسن بن الباذِش ومِثله .

محنتــــه

كان يحضر مجلس عبد المؤمن [٢] مع أكابر من يحضره من العلماء ، فيشِفُّ على أكثرهم بما كان لديه من التحقيق بالمعارف ، إلى أن أنشد

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وقد تكون صحتها (شانجه) ، وهو تعريب لاسم ملوك اسبانيا المشهور (سانشو) Sancho . وربما كان هذا العالم من طائفة المولدين (أى مسلمى الإسبان) .

(٢) هو الخليفة عبد المؤمن بن على ، أول خلفاء الدولة الموحدية بعد المهدى ابن تومرت . واستطالت خلافته بعد وفاة المهدى فى سنة ٥٢٤ ﻫ حتى وفاته فى سنة ٥٥٨ ﻫ (١١٦٣ م) وقد أشتهر بمجالسه العلمية التى كانت تضم مئات من طلبة العلم . (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ١٤١ حاشية)

أَبا محمد عبد المؤمن أَبياتاً كان نَظَمها فى أَبى القاسم عبد المنعم بن محمد ابن تسْت وهى :

أَبا قـاسم والهـوى جِنَّـة — وها أنا من مَسِّها لم أُفُـق
تقحَّمت جامح نار الضلوع — كماخضتَبحردموع الحَدَق
أَكُنت الخَليلَ أَكُنتَ الكَليمَ — أَمِنْتَ الحريق أَمِنْتَ الغَرَق

فهجره عبد المؤمن ، ومنعه من الحضور بمجلسه ، وصرف بنيه عن القراءة عليه ، وسَرى ذلك فى أكثر من كان يقرأُ عليه ، ويتردَّد إليه . على أنه كان فى الطبقة العُليا من الطَّهارة والعفاف .

شـعره

قال فى أَبى القاسم المذكور ، وكان أزرَق ، وقد دخل عليه ومعه أبو عبد الله محمد بن أَحمد الشاطبى ، وأَبو عثمان سعيد بن قوسرة . فقال ابن قوسرة :

عابوه بالزُّرْق الذى يَجْفُونه — والماءُ أَزْرَقُ والعينَان كذلكا

فقال أَبو عبد الله الشَّاطبى :

الماءُ يُهدى للنفوس حياتهـا — والرُّمح يُشْرِع للمَنُون مَسَالكا

فقال أَبو بكر بن ميمون المُتَرْجم به :

وكذلك فى أجفانه سَبَبُ الرَّدى — ولاكن أرى طِيب الحياة هُنالكا

ومما استفاض من شعره قوله فى زمن الصِّبا عفا الله عنه :

لا تكترث بفراق أوطان الصِّبا — فعسى تنال بغيرهن سُعُـودا
والدُّر يُنظَم عند فَقْد بحـاره — بجميل أجياد الحِسان عقـودا

ومن مشهور شعره :

توسَّلْتُ يا ربى بأَنّى مؤمــن ... وما قلت أَنّى سَامعٌ ومُطِيعٌ
أَيُصْلى بِحرِّ النار عاصٍ مُوحِّدٌ ... وأَنت كريمٌ والرسول شَفِيعٌ

وقال فى مرضه :

أَيَرتجى العيش من عَلَيه ... دلائلُ للرَّدى جليَّـة
أَوّلُها مُخْبِر بشــانٍ ... ذاك أَمـانٌ وذا مَنيَّـة

وفاته : توفى بمراكش يوم الثلاثاء اثنتى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة سبع وستين وخمسماية ، ودفن بمقبرة تاغزوت داخل مراكش ، وقد قارب السبعين سنة .

محمد بن عبد الله بن عبد العظيم بن أرقم النُّميرى

من أهل وادى آش(١) ، يكنى أَبا عامر .

حــــاله

كان أَحد شيوخ بلده وطَلَبته ، مشاركاً فى فُنون ، من فقه وأَدب وعربية ، وهى أَغلبُ الفنون عليه ، مطرِّح السَّمْت ، مُخَشْوْشِن الزِّى ، قليل المبالاة بنفسه ، مُخْتصراً فى كافة شيونه ، مليح الدُّعابة ، شديد الحمل ، كثير التواضع ، وبيتُه مَعْمُور بالعلماء أُولى الأَصالة والتعيُّن ، تصدر ببلده للفُتْيا والتدريس والإسماع .

---

(١) تقع وادى آش ، وبالإسبانية Guadix شرقى حضرة غرناطة . وإليها ينتسب كثير كثير من الوزراء والعلماء والأدباء ، وقد سبق التعريف بها (أنظر ص ١٠٩ من المجلد الأول من الإحاطة – حاشية) .

مشيخته

قرأ على الأُستاذ القاضى أَبى خالد بن أَرْقم ، والأُستاذ أَبى العبَّاس ابن عبد النُّور . وروى عن أَبيه مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن الوزير العالم أَبى عبد الله بن ربيع ، والقاضى أَبى جعفر بن مسعدة ، والأُستاذ أَبى جعفر بن الزبير ، وولى الله الحسن بن فضيلة .

ورحل إلى العُدْوة ، فأَخذ بسَبْتة عن الأُستاذ أَبى بكر بن عُبيدة ، والإمام الزاهد أَبى عبد الله بن حريث ، وأَبى عبد الله بن الخضار ، وأَبى القاسم ابن الشّاط ، وغيرهم .

شـــعره

وهو من الجزء المسمى «بشعر من لا شعر له» والحمد لله . فمن ذلك قوله يمدح أبا زكريا العزفى بسبتة . ويذكر ظفره بالأُسطول من قصيدة أولها :

أمّا الوصال فإنّه كالعيد　　　عذر المتيّم واضح فى الغيد

وفاته : توفى ببلده عام أربعين وسبعماية . ودخل غرناطة ، راوياً ومتعلماً ، وغير ذلك .

محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن فرج بن الَجدّ الفهرى

الحافظ الجليل يكنى أبا بكر ، جليل إشبيلية ، وزعيم وقته فى الْحِفْظ . لَبْلِى[1] الأَصل ، إشبيلى ، استدعاه السّيد أبو سعيد والى غرناطة ، فأَقام بها

(١) نسبة إلى مدينة لبلة وبالإسبانية Niebla ، وهى أحدى مدن ولاية الغرب الأندلسية Algarve ، وتقع غربى إشبيلية على الضفة اليمنى للنهر الأحمر Rio Tinto ، ومازالت حتى اليوم تحتفظ بأسوارها الموحدية المحيطة بها كاملة . وقد سقطت لبلة فى يد الفونسو العاشر (الحكيم) ملك قشتالة فى سنة ٦٥٥ ﻫ (١٢٥٧ م) .

عنده ، فى جُمْلةٍ من الفضلاء مثله سِنين . ذكر ذلك صاحب كتاب « ثَوْرة المُريدين »[١] .

حـــاله

كان فى حِفْظ الفقه بَحْرًا يَغْرِفُ من مُحِيط . يقال إنه ما طالع[٢] شيئاً من الكتب فَنَسِيَهُ[٣] ، إلى الجلالة والأَصالة ، وبُعْد الصِّيت ، واشتهار السَّحَلّ . وكان مع هذا يتكلَّم عند الملوك ، ويَخْطُب بين يديها ، ويأتى بعُجَاب ، وفى كتاب « الإعلام » شيءٌ من خبره ، قال ابن الزبير .

مشيخته

روى عن أَبى الحسن بن الأَخضر ، أَخذ عنه كتاب سيبويه وغير ذلك ؛ وعن أَبى محمد بن عتَّاب ، وسمع عليه بعض الموَطَّأْ ، وعن أَبى بَحْر الأَسدى ، وأَبى الوليد بن طَريف ، وأَبى القاسم بن منظور القاضى ، وسمع عليه صحيح البخارى كله ، وشُرَيح بن محمد ، وأَبى الوليد بن رُشد ، وناوله كتاب « البيان والتحصيل » . وكتاب « المقَدِّمات » . لقى هؤلاءِ كلهم ، وأَجازوا له عامة . وأَخذ أَيضاً عن مالك بن وهيب .

من حدَّث عنه

أَبو الحسن بن زَرْقون ، وأَبو محمد القرطبي الحافظ ، وإبنا حوط الله ، وغيرهم . وعليه من خُتمت به المائة السادسة كأَبى محمد بن جُمْهور ،

(١) كتاب « ثورة المريدين » من تأليف ابن صاحب الصلاة صاحب كتاب « المن بالإمة » (الخاص بتاريخ الموحدين) . وهو يعالج فيما يبدو مما وصل إلينا من الإشارات تاريخ وفلسفة ابن قسى وزملائه ، زعماء ثورة الغرب فى بداية حكم الموحدين للأندلس . ولم يصل هذا الكتاب الينا .

(٢) وردت فى الإسكوريال (طلع) . والتصويب من الزيتونة .

(٣) وردت فى الإسكوريال (فانسيه) ، والتصويب من الزيتونة .

وأبى العبَّاس بن خليل وإخوته الثلاثة أبى محمد عبد الله ، وأبى زيد عبد الرحمن ، وأبى محمد عبد الحق . قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير : حدَّثنى عنه ابن خليل وأبو القاسم الجيَّانى ، وأبو الحسن بن السَّراج .

مولده : [بلبلة][1] فى ربيع الأول سنة ست وتسعين وأربعماية . وتوفى [بإشبيلية][1] فى شوال سنة ست وثمانين وخمسماية . ذكره ابن الملجوم ، وأبو الربيع بن سالم ، وابن فُرْتون .

محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن على بن محمد ابن أحمد بن الفخَّار الجُذامى

يكنى أبا بكر ، أرْكُشى[2] المولد والمنشا ، مالَقى الاسْتيطَان ، شَرِيشى[3] التدرُّب والقراءة .

حــــالـه

من « عايد الصِّلة » : كان رحمه الله خيِّراً صالحاً ، شديد الانقباض ، مُغْرقاً فى باب الورَع ، سليم الباطن ، كثير العكوف على العلم والمُلازمة ، قليل الرياء والتصنُّع . خرج من بلده أرْكُش عند استيلاء العدو على قصبتها ، وكان يَصِفها ، وينشد فيها من شعر أستاذه الأديب أبى الحسن الكرْمانى :

أكرم بأرْكُش دارا تاهَتْ على البَدْر قَدْرا
يخاطب المجدُ عنها لقلبٍ تَدْنى شُكْرا

---

(١) الزيادة من « جذوة الاقتباس » .

(٢) نسبة إلى مدينة أركش وقد سبق التعريف بها .

(٣) نسبة إلى شريش وبالإسبانية Xerex أو Jerez ، هى مدينة أندلسية تقع على نهر وادى لكه على مقربة من ثغر قادس .

واستوطن مدينة شَرِيش ، وقرأ بها ، وروَّى بها عن علمائها ، وأقرأ بها . ولما استولى العدو عليها لحق بالجزيرة الخضراء ، فدرَّس بها ، ثم عبر البحر إلى سَبْتة . فقرأ بها وروَّى . ثم كرَّ إلى الأندلس ، فقصد غرناطة ، وأخذ عن أهلها . ثم استوطن مالَقة ، وتصدَّر للإقراء بها ، مفيدُ التعليم ، متفَنِّنه ، من فقه وعربية وقراءات وأدب وحديث ، عظيمُ الصبر ، مستغرقُ الوقت . يدرس من لَدُن صلاة الصبح إلى الزَّوال . ثم يُسْنِد ظهره إلى طاق المسجد بعد ذلك ، فيقرى ، وتأتيه النساءُ من خَلْفه للفُتْيا ، فيُفْتِيهنَّ على حال سؤالاتهنَّ إلى نِصْف ما بيْن العصر والعِشاءِ الأُولى . ثم يأتى المسجد الأعظم بعد الغروب ، فيقعُد للفُتيا إلى العِشاءِ الآخرة ، من غير أن يَقْبل من أحد شيئاً . ومن أخذَ منه بعد تَحْكِيم الوَرَع ، أثابه بمثله . ما رئى فى وقته أوْرع منه . وكان يتَّخذ رومِيَّةً مملوكةً ، لا يشتمل منزله على سواها ، فإذا أنِس منها الضَّجر للحصر وتمادى الحجاب ، أَعتقها[1] ، وأَصْحَبها إلى أرضها . ونشأت بينه وبين فقهاءِ بلده خصومةٌ[2] فى أُمور عَلَّوها عليه مما ارتكبها اجتهاده فى مناط الفَتْوى ، وعقد لهم أمير المسلمين بالأندلس ، مجلساً ، أجلى عن ظهوره فيه ، وبقاءِ رسمه ، فكانت محنَة ، وخلَّصه الله منها ، وبلغ من تعظيم الناس إيَّاه ، وانحياشهم إليه مَبْلَغاً لم يَنَلْه مثلُه ، وانتُفع بتعليمه ، واستُفيد منه الأدب ، على نُسْكه وسذاجته .

مشيخته

قرأ ببلده شَرِيش على المُكَتِّب الحاج أبى محمد عبد الله بن أبى بكر ابن داود القيسى ، وعلى الأُستاذ أبى بكر محمد بن محمد بن الرَّباح ، وعلى

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (أطلقها) .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة ، ووردت فى الإسكوريال (مشاحة ، مشاحنة) . والأولى أرجح .

الأُستاذ أَبي الحسن على بن إبراهيم بن حكيم السَّكونى الكَرْمانى . أَخذ عنه العربية والأَدب ، وعلى الحافظ أَبي الحسن على بن عيسى المعروف بابن متيوان ، وعلى الأُصولى الكاتب أبى الحسن هلال بن أَبي سِنان الأَزدى المُرَّاكشى ، وعلى الخطيب أَبي العرب إسمعيل بن إبراهيم الأَنصارى ، وعلى الفقيه أَبي عبد الله الجُنَيدى المعروف بالغزَّاق ؛ وعلى الفقيه العَدَدِى أَبي عبد الله محمد بن على بن يوسف المعروف بابن الكاتب المِكْناسى . وقرأَ بالجزيرة الخضراءِ على الخطيب الصالح أَبي محمد الرَّكبي ، وروى عنه ، وقرأَ بها على الخطيب أَبي عبيد الله بن خميس ، وعلى الأُصولى أَبي أُميَّة . وقرأَ بسَبْتة على الأُستاذ الفَرَضى إمام النحاة أَبي الحسن بن أَبي الربيع ، وعلى أَبي يعقوب المحبسانى ، وعلى المحدِّث أَبي عمرو عثمان بن عبد الله العَبْدَرى ، وعلى الفقيه المالكى الحافظ أَبي الحسن المِتيوى ، والأُصولى أَبي الحسن البَصرى ، والفقيه المُعَمَّر الراوية أَبي عبد الله محمد الأَزْدى ، والمحدث الحافظ أَبي محمد بن الكمَّاد ، وعلى الأُستاذ العَرُوضى الكفيف أَبي الحسن بن الخَضَّار التلمسانى . ولقى بغرناطة قاضى الجماعة أَبا القاسم ابن أَبي عامر بن ربيع ، والأُستاذ أَبا جعفر الطبَّاع ، وأَبا الوليد إسمعيل ابن عيسى بن أَبي الوليد الأُزدى ، والأُستاذ أَبا الحسن بن الصَّايغ . ولقى بمالقة الخطيب الصالح أَبا محمد عبد العظيم بن الشيخ،والرَّاوية أَبا عبد الله محمد بن على بن الحسن الجُذامى السُّهيلى . وسمع على الرَّاوية أَبي عمرو ابن حوْط الله ، وعلى الأُستاذ أَبي عبد الله بن عباس القرطبي

تواليــــفه

كان رحمه الله مُغْرًى بالتـأْليف ، فـأَلَّف نحو الثلاثين تـأْليفاً فى فنون مختلفة ، منها كتاب « تَحْبِير نظم الجُمان فى تفسير أُم القرآن » ،

و « انتفاع الطَّلبة النُّبهاء فى اجتماع السَّبعة القُرَّاء » . و « الأَحاديث الأَربعون بما ينتفع به القارئون والسَّامعون » ، وكتاب « مَنْظُوم الدُّرَر فى شرح كتاب المختصر » ، و « كتاب نصح المقالة فى شرح الرسالة » ، وكتاب « الجواب المختصر المرْوم فى تحريم سكنى المسلمين ببلاد الرُّوم » ، وكتاب « استواءُ النَّهج فى تحريم اللعب بالشطرنج » ، وكتاب « الفيَصْل المنْتَضى المهزوز فى الرَّد على من أنكر صِيام يومِ النَّيْرُوز » ، وكتاب « جواب البيان على مُصارمة أهل الزمان » ، وكتاب تفضيل صلاة الصبح للجماعة فى آخر الوقت المُخْتار على صلاة الصبح للمنفرد فى أول وقتها بالابتدار » ، وكتاب « إرشاد السَّالك فى بيان إسناد زِياد عن مالك » ، وكتاب « الجوابات المُجْتمعة عن السُّؤالات المُنَوَّعة » ، وكتاب « إملا فوايد الدول فى ابتداء مقاصد الجمل » ، وكتاب « أَجوبة الإقناع والإحساب فى مشكلات مسايل الكتاب » ، وكتاب « مَنْهج الضَّوابط المُقَسَّمة فى شرح قوانين المُقَدِّمة » ، وكتاب « التوجيه الأَوضح الأَسما فى حذف التنوين من حديث أَسما » ، وكتاب « التكملة والتَّبْرية فى إعراب البسملة والتَّصْلية » ، وكتاب « سَحُّ مُزْنَة الانتخاب فى شرح خُطْبة الكتاب ». ومنها اللَّايح المعتمد عليه فى الرد على من رفع الخبر بلا إلى سيبويه ، وغير ذلك من مُجيد ومُقصر

شعره

وشعره كثير ، غريب النَّزْعة ، دالٌّ على السَّذاجة ، وعدم الاسْتِرابة والشعور ، والغَفْلة المُعْرِبة عن السَّلامة ، من ارتكاب الحوشى ، واقتحام الضِّرار[1] ، واستعمال الأَلْفاظ المشتركة التى تتشبَّث بها أَطراف الملاحِن

(١) هكذا وردت فى الإسكوزيال ، وفى الزيتونة (الضرابر) .

والمعاريض ، وَلَع كثير من أهل زمانه بالرَّد عليه ، والتَّملُّح بما يصدر عنه ، منهم القاضى أبو عبد الله بن عبد الملك .

ومن منتخب شعره قوله :

أنظر إلى ورد الرِّياض كأنَّه ديباجُ خَدٍّ فى بَنان زَبَرْجَد
قد فَتَّحتُه نضارةٌ فبدا لـه فى القلب رونق صُفْرةٍ كالعَسْجد
حَكَت الجوانب خدَّ حبٍّ ناعم والقلبُ يحكى خدَّ صبٍّ مُكْمَد

حدَّث الفقيه العدل أبو جعفر أحمد بن مُفضل المالقى ، قال ، قال لى يوما الشيخ الأُستاذ أبو بكر بن الفخَّار ، خرجت ذات يوم وأنا شاب من حَلَقة الأُستاذ بشَرِيش ، أعادها الله للاسلام ، فى جملة من الطلبة ، وكان يقابل باب المسجد حانوت سَرَّاج ، وإذا فتىً وسِيمٌ فى الحانوت يَرْقُم جِلْداً كان فى يده ، فقالوا لى لا تجاوز هذا الباب ، حتى تَصْنع لنا شعراً فى هذا الفتى . فقلت :

وربَّ معـذَّر للحبِّ داع (١) يروق بهاءُ مَنْظَره البهيج
وشَى فى وجنتيه الحسنُ وشْياً كَوَشْى يَدَيْهِ فى أَدم السروج

مولده : بحصن أَرْكُش بلده ، وكان لا خَبِر به ، فى ما بين الثلاثين والأَربعين وست ماية .

وفاته : توفى بمالَقة فى عام ثلاثة وعشرين وسبعماية ، وكانت جنازته بمالقة مشهورة

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى « الزيتونة » (دارع) .

محمد بن على بن عمر بن يحيى بن العربى الفستانى

من أهل الحَمَّة من عمل أَلْمَرِيَّة ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن العربى وينتمى فى بنى أسْود من أعيانها .

حــال

من « العايد » : كان رحمه الله من أهل العلم والدين والفضل ، طَلْقُ الوجه ، حسن السَّيْر ، كثير الحياء ، كأَنَّك إذا كلَّمْته تُخاطب البكرَ العَذْراءَ ، لاَ تلْقَاهُ إلاَّ مُبْتَسِماً ، فى حُسْن سَمْت ، وفضل هوىً ، وجميل وقار ، كثير الخشوع ، وخصوصاً عند الدخول فى الصَّلاة ، تلوح عليه بذلك ، عند تِلاوته سِيمَى الحضور ، وحلاوة الإقبال . وكان له تحقُّقٌ بضبط القراءات ، والقيام عليها ، وعناية بعلم العربية ، مع مشاركة فى غير ذلك من الفنون السَّنية ، والعلوم الدينية . انْتَصب للإقراء والتدريس بالحمَّة المذكورة ، فقرَّب النُّجْعَة على أَهل الحصون والقرى الشَّرقية ، فصار مُجْتَمعاً لأَرباب الطَّلب من أَهل تلك الجهات ومُرْتفقاتهم . وكان رجلا صالحا ، مُبارك النيَّة ، حسن التَّعليم ، نفَع الله به من هنالك ، وتخرَّج على يديْهِ جمْعٌ وافر من الطَّلَبة ، عَمَرت بهم سايِرُ الحصُون . وكان له منزِلٌ رحبٌ للقاصدين ، ومُنْتَدًى عذبٌ للواردين . تجول فى آخِرَةٍ بالأَندلس والعُدْوة ، وأَخذ عمن لقى بها من العلماء ، وأَقام مدَّةً بسَبْتة ، مُكبًّا على قراءة القرآن والعربية . وبعد عوده من تَجْواله لزم التصدُّر للإقراء بحيث ذكر ، وقد كانت الحواضر فقيرة لمثله ، غير أَنه آثر الوطن ، واختار الاقتصاد .

مشـــيخته

أخذ بالْمَريَّة عن شيخها أبي الحسن بن أبي العَيْش ، وبغرناطة عن الأُستاذ أَبي جعفر بن الزُّبير ، والعَدل أَبي الحسن بن مَسْتقور . وببلِّش عن الأُستاذ أَبي عبد الله بن الكَمَّاد ، والخطيب أَبي جعفر بن الزيات . وبمالَقة عن الأُستاذ أَبي عبد الله بن الفخَّار ، والشَّيخ أَبي عبد الله محمد بن يحيى بن ربيع الأَشعرى . وبالجزيرة عن خطيبها أَبي العبَّاس بن خَميس . وبسَبْتَة عن الأُستاذ أَبي إسحق العافقى ، والخطيب أَبي عبد الله بن رُشيد ، والإمام الصالح أَبي عبد الله محمد بن محمد بن حُريث ، والقاضى أَبي عبد الله القرطبي ، والزَّاهد أَبي عبد الله بن مُعَلَّى ، والشيخ الخطيب أَبي عبد الله الغِمارى . وبمكناسَة عن القاضى وارياش . وبفاس من الحاج الخطيب أَبي الربيع سليمان بن مِفتاح اللجَّاى ، والأُستاذ أَبي الحسن بن سليمان ، والأُستاذ أَبي عبد الله بن أَجْرُوم الصَّنهاجى ، والحاج أَبي القاسم بن رجا ابن محمد بن على وغيرهم ، وكل من ذُكر أجاز له عامة ، إلاَّ قاضى مكناسة أَبي عبد الله محمد بن على الكلبي الشهير بواورياش .

مولده : فى أول عام اثنين وثمانين وستماية

وفاته : توفى بالحمَّة ليلة الإثنين الثامن عشر لشهر محرَّم عام ثمانية وأربعين وسبعماية .

محمد بن على بن محمد العَبْدرى

من أهل مالَقة ، يكنى أَبا عبد الله ، ويعرف باليَتِيم

حــــاله

كان رحمه الله أحد الظرفاء من أهل بلده ، مليح الشكل ، حسنَ الشَّيبة ،

لَوْ ذَعِياً فى وقار ، رشيقَ النظم والنثر ، غَزِلا مع الصَّون ، كثير الدُّعابة من غير إفْحاش ، غزير الأَدب ، حسنَ الصَّوت ، رايِق الخَطِّ ، بديع الوِراقة ، مَعْسُول الأَلْفاظ ، مُمْتِع المُجالسة ، طَيِّب الْعِشْرة . أَدَّب الصِّبيان مدة ، وعقد الشروط أُخرى ، وكان يقرأُ كتب الحديث والتفسير والرَّقايق للعامة بالمسجد الأَعظم ، بأَعْذَب نَغَمة ، وأَمْثَل طريقة ، مذ أَزيد من ثلاثين سنة ،لم يُخِل منها وقتاً إلا ليلتين : إحداهما بسبب امتساكنا به فى نُزْهة برياض بعض الطلبة . لم يُخلف مثلَه بعده . وخطب بقَصَبة مالقة ، ومال أَخيراً إلى نظر الطِّب، فكان الناس يميلون إليه ، وينتفعون به لسِياغ مشاركته ، وعُموم انقياده ، وبرِّه ، وعمله على التَّودُّد والتَّجمُّل .

وجرى ذكره فى « التَّاج المُحَلَّى » بما نصَّه : مجموع أَدوات حِسان ، من خطٍّ ونَغَمة ولِسان ، أَوراقُه روضٌ تضَوَّع نَسَماته ، وبِشْرُه صبح تتألَّق قَسَماته ، ولا يُخْفى سِماته . يُقَرْطِس أَغراض الدُّعابة ويُصْميها ، ويُفَوِّق سِهام الفُكَاهة إلى مراميها ، فكلَّما صدرت فى عصره قصيدةٌ هازِلة ، أَو أَبياتٌ مُنْحَطَّة عن الإجادة نازِلة ، خَمَّس أَبياتها وذيَّلها ، وصَرَف معانيها وسهَّلها ، وتركها سمَر النُّدمان ، وأُضحوكة الزمان . وهو الآن خطيب المسجد الأَعلى من مالقة ، مُتَحلٍّ بوقار وسكينة ، حال من أَهلها بمكانةٍ مَكِينة ، لسهولة جانبه ، واتِّضاح مقاصِده فى الخَيْر ومذاهبه . ، واشتغل لأَوَّل أَمره بالتَّعلِيم والتَّكْتِيب ، وبلغ الغاية فى الوقار والتَّرتيب ، وللشَّباب لم يَنْصِل خضابه ، ولا شُلَّت للمَشِيب عِضابُه ، ونفسه بالمحاسن كَلِفة ، وشأنه كله هوىً ومحَبَّة ، ولذلك ما خاطبه به بعض أَوُدَّايه ، وكلاهما رمى أَهله بِدايه ، حسبما يأتى خلال هذا المَقُول وفى أَثنايه بحول الله .

شـــعره

كتبتُ إليه أَسأَلمنه ما أُثبتُ فى كتاب « التَّاج » من شعره ، فكتب إلى :

أَما العرام فلم أُخْلل بمَذْهبــه ... فَلِمَ حَرَمْتَ فُؤَادِى نَيْل مَطْلَبه
يا مُعْرضاً عن فؤادٍ لم يزل كَلِفاً ... بحُبِّـه ذا حِذار من تَجَنُّبــه
قطعتَ عنه الذى عوَّدتَه فغـدا ... وحظُّه من رضـاه بَرْق خُلَّبــه
أَيام وَصْلِك مبْذُولٌ وبرُّك بى ... مُجْدِدٌ قد صفا لى عَذْبُ مَشْربــه
وسَمْعُ وُدِّك عن إفْك العَواذل فى ... شُغْلٍ وبدرُ الدُّجى نَاسٍ لمَغْربــه
أَلأَنْت تمنَعنى نَيْل الرِّضا كَرَماً ... ولا فُؤَادى بـوانٍ فى تَطَلُّبــه
لله عَرفك ما أَذكى تَنَسُّمــه ... لو كنتَ تمنَحُنى استنشاق طيِّبــه
أَنت الحبيبُ الذى لم أَتَّخِذ بدلا ... منه وحاشَ لقلـبى منْ تَقَلُّبــه
يا ابن الخطيب الذى قد فُقْتَ كـلَّ سناً أَزال عن ناظرى إظلام غَيْهَبه
محمدٌ الحَسِن فى خَلْقٍ وفى خُلُق ... كَمُلَت باسمك معنى الحُسْن فازْه به
نـأَيْت أَو غِبْتَ مالى عن هواك غِنيً ... لا ينقُصُ البدر حُسْناً فى تَغَيُّبــه
سِيَّان حالُ التَّدانى والبُعاد وهل ... لمُبْصِرِ البَدْرِ نَيْلٌ فى تَرَقُّبــه
يا منْ أُحْسِن ظَنِّى فى رضاهُ وما ... ينْفَكُّ يُبدى قَبِيحاً منْ تَغَضُّبــه
إن كان ذَنْبِى الهوى فالقلب منِّى ... لا يُصْغى لسَمْع ملامٍ منْ مُؤَنِّبــه

فأَجبته بهذه الرسالة ، وهى ظريفة فى معناها :

« يا سيدى ، الذى إذا رُفعت رايةُ ثَنايه تلقَّيتُها باليَدَيْن ، وإذا قُسِّمت سِهام وِدَاده على ذوى اعتِقاده ، كنت صاحبَ الفريضة والدِّين ، دام بقاؤُك لطُرْفَةٍ تُبديها ، وغَريبَةٍ تُرْدِفُها ، بأُخرى تَليها ، وعقيلةِ بيانٍ تُحليها ونفسٍ أَخذ الحُزْنُ بكَظْمِها ، وكَلِف الدَّهر بشتِّ نَظْمها ، تُونِسها وتُسْليها ، لم أَزل أَعزَّك الله ، أَشُدُّ على بدايعها يَدَ الضَّنين ، وأَقْتَنى دُرَرَ كلامك ،

ونَفَثات أقلامِك ، اقْتِناء الدُّرِّ الثمين ، والأَيام بلقياك تَعِد ولا تُسْعِد ، وفى هذه الأَيام انثالَتْ علىَّ سماؤُك بعد قَحْط ، وتوالت علىَّ آلاؤُك على شَحْط ، وزارَتْنى من عقَايل بَيانك كلُّ فاتِنة الطَّرف ، عاطِرة العَرْف ، رافِلَة فى حُلل البيان والظَّرف ، لو ضُربت بيوتُها بالحجاز ، لأَقرَّت لنا العربُ العاربة بالإِعجاز ، ماشِيت منَ رَصْف المَبْنى ، ومطاوعة اللَّفظ لغرض المَعْنى ، وطيب الأُسلوب ، والتَّشَبُّث بالقلوب . غير أن سيِّدى أفرط فى التَّنَزُّل ، وخلط المخاطبة بالتَّغَزُّل ، وراجع الالْتِفات ، ورام اسْتِدراك ما فات . يرحم الله شاعر المعرَّة ، فلقد أجاد فى قوله ، وأنكر مناجاةً للشَّوْق ، بعد انْصِرام حَوْله فقال :

أَبَعْدَ حَوْلٍ تُناجى للشَّوق ناجية هلاّ ونحن على عَشْر من العُشْر

وقد تَجَاوَزْتَ فى الأَمل ، وأَنْسَيتَ أَخبار صاحِبك عبد الصَّمد ، فأُقسمُ بـأَلِفات القُدود ، وهَمَزات الجُفُون السُّود ، وحاملى الأَرْواح مع الأَلواح ، بالغَدْوِ والرَّواح ، لولاَ بُعْد مَزَارِك ، ما أَمِنْتُ غايلةَ ماتَحْت إزَارِك . ثمَّ إنِّى حقَّقْتُ الغرض ، وبحثْتُ عن المُشْكل الذى عَرَض ، فقلتُ للخواطِر انتِقال ، ولكلٍّ مَقام مَقال ، وتختلفُ الحوايجُ باختلاف الأَوقات ، ثم رفع اللَّبسَ خبرُ الثِّقات.

ومنها : وتعرَّفتُ ماكان من مُراجعة سيدى لحرفة التَّكْتِيب والتَّعْلِيم ،والْحَنِين إلى العهد القديم ، فسُررت باستقامة حاله ، وفَضْل ماله ، وإنْ لاحظ المُلاحظ ما قال الجاحظ ، فاعتراضٌ لا يُرَدُّ ، وقياس لا يُضطَّرد ، حبَّذا والله عيش أَهل التَّاديب ، فلا بالضَّنْك ولا بالجَدِيب ، معاهدةُ الإِحسان ، ومشاهدةُ الصُّور الحِسان ، يميناً إنَّ المُعَلِّمين لسادةُ المُسْلمين ، وإنِّى لأَنظُر منهم ، كلما خطرت على المكاتب ، أَمراً فوق المراتب ، من كل مُسَيْطِر

الدُّرَّة ، مُتَقَطِّب الأَسِرَّة ، مُتَنَمِّر لِلْوارِد تَنَمُّر الهِرَّة ، يَغْدو إلى مَكْتبه ، والأَمير فى مَوْكِبه ، حتى إذا استقلَّ فى فرشه ، واستولى على عرْشه ، وترنَّم بتلاوة قانُونِه وورْشِه ، أظهر للخَلْق احتقاراً ، وأَنْدَى بالجبال وقاراً ، ورُفعت إليه الخصوم ، ووَقَف بين يديه الظَّالم والمظلوم ، فتقول كِسْرى فى إيوانه ، والرَّشيد فى زمانه ، والحجَّاج بين أعْوانه . وإذا استولى على البَدْر السَّرار ، وتبين للشهر القرار[1] ، وتحرك إلى الخَوْج ، تحرُّك القرد إلى الفَرْج . أَستغفر الله مما يشقُّ على سيدى سماعه ، وتشمئزُّ من ذكراه طباعُه ، شِيم اللِّسان ، خَلْطُ الإساءَة بالإحسان ، والغفلة من صِفات الإنسان . فأَىُّ عَيْشٍ هذا العيش ، وكيف حال أَمير هذا الجيش ، طاعة معروفة ، ووجُوهٌ إليه مَصْروفة ، فإن أَشار بالإنصات ، تتحقق الغُصَّات ، فكأَنَّما طَمَسَ الأَفْواه ، ولام بين الشِّفاه . وإن أَمر بالإِفْصاح ، وتِلاوَة الأَلْواح ، علا الضَّجيج والعَجيج ، وحفَّ به كما حفَّ بالبيت الحجِيج . وكم بين ذلك من رِشْوةٍ تُدَسُّ ، وغَمْزة لا تُحَسُّ ، ووعْد يُسْتَنْجز ، وحاجةٍ تُسْتَعْجَل وتُحْفَز . هنَّأَ الله سيدى ما خوَّله ، وأنْساه بِطيب آخِره أَوَّلَه . وقد بعثتُ بدُعابتِى هذه مع إجلال قَدْرِه ، والثِّقة بسَعَة صَدْره ، فليَتَلَقَّها بيمينه ، ويَفْسَح لها فى المَرْتبة بَيْنَه وبيْن خَدِينه ، ويُفْرِغ لمراجعتها وقتاً من أَوْقاته ، بمُقْتَضَى دِينه ، وفَضْلِ يَقِينه ، والسَّلاَم .

ومن شعره ما كتب به إلَىَّ :

آيات حسنك حُجَّة للقــــال	فى الحب قائمةٌ على العُـــذّال
يا منْ سَبا طوعا عقول ذوى النُّهى	ببلاغةٍ قد أُيِّدَت بجمــــال
يستَعْبد الأَبصار والأَسماع ما	يجْلُو ويتْلُو من سَنِىّ مقـــال

(١) وردت فى الإسكوريال (العرار) . ونعتقد أن التصويب أرجح .

وعليك أهواءُ النفوس بأَسرهـا وُقفت فَطيرُك لا يمرُّ ببـال
رفعت لِريُّه (١) فى البلاغة رايةً لمّا احتلَلْت بها وحيدَ كمال
وغدت تُباهى منك بالبَدْر الذى تَعْنو البدور لنُوره المُتَلالِ
ماذا ترى ياابن الخطيب لخاطب وُدًّا ينافس فيك كلَّ مقال
جَذَبَتْه نحو هواك غُرٌّ محاسنٍ مشفوعةٌ أَفرادها بمعال
وشمايلُ رقَّت لرقَّة طبعها فزُلالها يُزْرى بكل زُلال
وحَلْىُ آداب بمثل نَفيسها تَزْهو الحُلا ويحلُّ قدر الحال
يستخدم الياقوت عند نِظامها فَمُقَصِّرٌ مَنْ قاسَها بلآل
سبق الأَخيرُ الأَوَّلين بفضلها فغدا المُقَدَّم تابعا للتَّال
شغفى بذكرٍ من عقايلها إذا تبدو تُصان من الحِجا بحِجال
فابعث بها نِلْتَ المُنَا ممهورةً طيبَ الثَّنا لنَقْدها والكال
لا زلتَ شمساً فى الفضايل يُهتدى بسَناك فى الأَفعال والأَقوال
ثم السَّلام عليك يَتْرى ما تَلتْ بُكَرُ الزَّمان روادفَ الآصال

ومن الدُّعابة ، وقد وقعت إليها الإشارة من قبل ، ما كَتَب به إليه صديقه الملاطف أَبو على بن عبد السَّلام :

أَبا عبد الله نداءَ خلٍّ وفىٍّ جاءَ يمنحك النَّصيحة
إلى كم تألف الشُّبان غيًّا وخِذْلانا أَما تخشى الفَضيحة

فأَجابه رحمه الله :

فَدَيْتُك صاحب السِّمة المليحة ومن طابَتْ أَرومته الصَّريحة
ومن قلبى وضعتُ له محلاًّ فما عنه يحلُّ بأَن أزيحه
نأَيْتُ فدمع عينى فى انسكابٍ وأَكبادٌ لفُرْقَتكم قريحة

---

(١) ريه هنا هو اسم الولاية الأندلسية التى يقع بها ثغر مالقة بلد المترجم له . وبالإسبانية Rejio

وطَرْفى لا يُتـــاح له رُقـــاد　　　وهل نوْمٌ لأَجفـــانٍ جَريحة
وزاد تَشَوُّقى أَبيـــاتُ شـــعر　　　أَتت منكُمُ بأَلفاظٍ فصيحة
ولم تَقْصِد بها جَدًّا ولاكن　　　قَصدتَ بها مُداعبةً قبيحة
فقلت أَتـأْلفُ الشبَّان غيًّـــا　　　وخِذْلانا أما تخشى الفضيحة
وفيهم حِرْفَتى وقوامُ عَيْشى　　　وأحوالى بخُلْطَتهم نجيـــحة
وأَمـــرى فيهم أَمـــرٌ مُطـــاع　　　وأَوجُهُهم مصابيحُ صَبيحة
وتعلم أَنَّنى رجلٌ حَصُـــورٌ　　　وتعرفُ ذاك معـــرفة صحيحة

قال فى « التَّاج »[١] : ولما اشتهر المَشِيب بعارضه ولِمَّته ، وخَفَر الدهر لعمود صباه وإذمَّته ، أَقْلَع واسْترجع ، وتـأَلَّم لما فَرطَ وتوجَّع ، وهو الآن من جلَّة الخطباء ، طاهرُ العِرض والثَّوْب ، خالصُ من الشَّوْب ، بادٍ عليه قبولُ قابِل التوب .

وفاته رحمه الله : فى آخر صفر من عام خمسين وسبعماية فى وقيعة الطاعون العام[٢] . ودخل غرناطة .

ومن الغرباء فى هـذا البـاب

محمد بن أحمد بن محمدبن محمد بن أبى بكر بن مرزوق العَجيسى

من أَهل تِلمْسان ، يكنى أَبا عبد الله ، ويلقب من الأَلقاب المشرقية بشمس الدين

---

(١) هو كتاب « التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى » من كتب ابن الخطيب الصغيرة . وقد سبق ذكره فيما تقدم غير مرة .

(٢) سبق التعريف بهذا الطاعون فى ترجمة ابن محارب الصريحى (راجع ص ٧٩ من هذا المجلد — حاشية) .

حـــاله

هذا الرجل من طُرَفِ دهره ظَرْفًا وخصوصيَّة ولطافةً ، مليح التوسُّل[١] حسن اللقاء ، مبذول البِشر ، كثير التَّوَدُّد ، نظيف البِزَّة ، لطيف التَّأَتِّى ، خَيِّر البيت ، طَلْقُ الوجه ، خَلُوب اللسان ، طَيِّب الحديث ، مُقْدر الألفاظ ، عارف بالأبواب ، دَرِبٌ على صُحبة الملوك والأشراف ، مُتقاضٍ لإيثار السلاطين والأمراء ، يَسْحِرُهُم بخلابة لفظه ، ويَفْتِلهم فى الذِّروة والغارِب بتَنَزُّله ، ويَهْتَدى إلى أغراضهم الكمينة بحِذْقة ، ويَصْنع غاشِيتهم بتلطُّفه ، ممزوجُ الدُّعابة بالوقار ، والفكاهة بالنُّسك ، والحِشْمة بالبَسْط ، عظيم المشاركة لأهل وُدِّه ، والتَّعَصُّب لإخوانه ، إلْفٌ مألوف ، كثِير الأتباع والعِلْق ، مُسخَّر الرِّقاع فى سبيل الوساطة ، مُجْدِى الجاه ، غاصُّ المنزل بالطَّلبة ، مُنْقاد الدَّعوة ، بارع الخط ، أنيقه ، عذب التِّلاوة ، متَّسع الرِّواية ، مشاركٌ فى فنون ، من أُصول وفروع وتفسير ، يكتب ويَشْعر ويُقيِّد ويؤلف ، فلا يعدو السِّداد فى ذلك ، فارسُ مِنْبرٍ غير جَزوع ولاهيابة[٢] .

رَحَل إلى المشرق فى كنَفِ حِشْمة من جناب والده رحمه الله ، فحجَّ وجاور ، ولقى الجِلَّة ، ثم فارقه ؛ وقد عُرِف بالمشرق حقُّه ، وصَرَف وجهه إلى المغرب ، فاشتمل عليه السلطان أبوالحسن أميرهُ ، اشتمالا خَلَطه بنفسه ، وجعله مَفْضَى سِرِّه ، وإمام جُمْعته وخطيب مِنْبَره ، وأمين رسالته ، فقَدِم فى غَرَضها على الأندلس فى أواخر عام ثمانية وأربعين وسبعماية ، واجْذبه سلطانُها رحمه الله ، وأجراه على تلك الوَتِيرة ، فقلَّده الخُطْبة بمسجده فى السادس لصفر عام ثلاثة وخمسين وسبعماية ، وأَقْعَده للإقراء بالمدرسة من

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى جذوة الاقتباس (الترسل) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (هياب) .

حَضْرته . وفى أُخريات عام أَربعة وخمسين بعده أَطْرَف عنه جِفْنَ بِرِّه ، فى أُسلوب طِماحٍ[1] ودالَّة ، وسبيل هوىً وقِحَةٍ . فاغتنم العِبْرة ، وانتهز الفُرصة ، وأَنْفَذ فى الرَّحيل العَزْمة ، وانصرف عزيز الرِّحلة ، مغبوط المُنْقلب ، فى أَوايل شعبان عام أَربعة وخمسين وسبعماية ، فاستقرَّ بباب ملك المغرب ، أَمير المؤمنين أَبى عِنان فارس فى مَحلٍّ تَجلَّة ، وبِساط قُرْب ، مُشترك الجاه ، مُجْدى التوسُّط ، ناجعُ الشَّفاعة ، والله يتولاَّه ويزيدهُ من فضله.

مشـــيخته

[من كتابه المسمى « عُجالة المستوفز المستجاز فى ذِكر من سُمع من المشايخ دون من أَجاز ، من أَئمة المغرب والشَّام والحجاز » . فممن لقِيه بالمدينة المشرَّفة على ساكنها الصلاة والسلام ، الإِمام العلاَّمة عزّ الدين محمد أَبو الحسن ابن على بن إسمعيل الواسطى صاحب خُطَّتى الإمامة والخطابة بالمسجد النبوى الكريم ، وأَفرد جزءًا فى مناقبه . ومنهم الشيخ الإمام جمال الدين أَبو عبد الله محمد بن أَحمد بن خلف بن عيسى الخزرجى السَّعدى العبَّادى ، تحمَّل عن عفيف الدين أَبى محمد عبد السلام بن مزروع وأَبى اليُمن وغيره . والشيخ الإمام خادم الوقت بالمسجد الكريم ونائب الإمامة والخطابة به ، ومُنْشِد الأَمداح النبوية هنالك][2] . وبمكةَّ شرَّفها الله ، الشيخ المُعَمَّر الثِّقة شرف الدين أَبو عبد الله عيسى بن عبد الله الحجى المكىّ . والشيخ الصالح شرف الدين خضر بن عبد الرحمن العجمى . والشيـخ مُقْرى الـحرم

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الزيتونة (طمع) .

(٢) هذا ما ورد فى الزيتونة عن مشيخة ابن مرزوق . وورد عنها فى الإسكوريال ما يأتى فقط (منقولة من خطه وكتابه المسمى عجالة المستوفز المستجاز : فى ذكر من سمع من المشايخ دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز ، اختصرتها لطولها إذ هى نحو من ثلاثة أوراق) . وقد أضفنا نحن إليها عدة أسماء أخرى . وأوردها المقرى بجملتها فى نفح الطيب (ج ٣ ص ٢٠١ و ٢٠

برهان الدين إبراهيم بن مسعود بن إبراهيم الآبلي المِصْرى . والشيخ الإمام الصالح أَبو محمد عبد الله بن أَسْعَد الشافعي الحُجَّة ، انتهت إليه الرِّياسة العلمية والخُطط الشَّرعية بالحَرَم . والشيخ قاضي القضاة وخطيب الخطباء عز الدين أَبو عمر عبد العزيز بن محمد بن جَماعة الكِنانى قاضي القضاة بمصر . وبمصر الشيخ علاء الدين القُونَوى . والتَّقى السعدى ، وقاضي القضاة القَزْويني ، والشرف أقضى القضاة الإخميمي ، وكثيرون غيرهم . وسمع من عدد عديد آخر من أعلام القضاة والحُفّاظ والعلماء بتونس ، وبجاية ، والزَّاب ، وتِلِمْسان

محنتــه

اقتضى الخوض الواقع بين يدى تاميل الأَمير أَبي الحسن رحمه الله ، وتوقُّع عودة الأَمر إليه ، وقد أَلقاه اليمُّ بالسَّاحل بمدينة الجزاير ، أَن قَبض عليه بتِلِمْسان ، أُمراؤُها المتوثِّبون عليها فى هذه الفترة ، من بنى زَيّان ، إرضاءً لِقَبيلهم ، المتَّهم بمُداخلته ، وقد رَحل عنهم دسيساً من أَميرهم عثمن بن يحيى بن عبد الرحمن بن يَغْمَراسِن ، فصُرف مأْخوذًا عليه طريقهُ ، مُنْتَهباً رَحْلُه ، مُنْتَهكةٌ حُرْمَتُه ، وأُسْكِن قرارة مُطْبق عميق القَعْر ، مُقْفَل المَسْلَك ، حَريز القفل ، ثانى اثنين . ولأَيام قُتل ثانيه ذبحاً بمقربة من شَفى تلك الرَّكيَّة ، وانقطع لشدَّة الثِّقاف أَثره ، وأَيقن الناس بفوات الأمْر فيه . ولزمان [من][1] محنته ظهرت عليه برَكةُ سَلفِه ، فى خبر ينظر بطرقه[2] إلى الكرامة ، فنجا ولا تَسَلْ كيف ، وخلَّصه الله خلاصاً جميلا ، وقَدِم على الأَندلس ، والله ينفعه بمحنته[3] .

(١) هذه الكلمة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هكذا فى النفح . وفى الإسكوريال (بطرف) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بنيته) .

شـــعره

وما وقع من المكاتبة بينى وبينه

رَكِب مع السلطان خارج الحمراءِ ، أيام ضَربَت الَّلوز قبابَها البيض ، وزَيَّنت الفَحْص العريض ، والرَّوض الأَرِيض ، فارتجل فى ذلك :

[أُنظر إلى النَّوار فى أغصانه ... يحكى النجوم إذا تبدَّت فى الحَلَك](1)
حيًّا أمير المسلمين وقال قد ... عَمِيَت بصيرةُ من بغيرك مثَّلك
يا يوسفًا حُزْت الجمال بأَسره ... فمحاسنُ الأَيام تُومى هَيْت لك
أنت الذى صَعَدت به أَوصافُه ... فيقال فيه ذا مليكٌ أَو مَلِك

ولما قدمتُ على مدينة فاس فى غرض الرسالة ، خاطبنى بمنزل الشاطبى على مَرْحلة منها بما نصه :

يا قادماً وافى بكل نجـــاج ... أَبْشِر بما تلقاه من أفـــراح
هذى ذُرى ملك الملوك فلُذْ بها ... تنل المُنى وتفُز بكل سماح
مغنى الإمام أَبى عنـــان يمِّمن ... تظفر ببحر فى العلى(٢) طفَّاح
من قاس جُودَ أَبى عنان ذى الندى ... بسواه قاس البحر بالضِّحضاح
ملكٌ يفيض على العفاة نواله ... قبل السُّوال وقبل بَسْطة راح
فلجود كعبٍ وابن سعدى فى الندى ... ذكرٌ محـاه من نِداه مـاح
ما أن رأَيتُ ولا سمعتُ بمثله ... من أَريَحىٍّ للنـدى مُرتاح
بَسَط الأَمان على الأَنام فأَصبحوا ... قد أُلحفوا منه بظلِّ جنـاح
وهَمَى على العافين سيبُ نواله ... حتى حكى سَحَّ الغمام السَّاح
فنوالُه وجلالُه وفعالُه فاقت ... وأَعْيَت أَلْسُـــن المُدَّاح

---

(١) هذا البيت وارد فى « الزيتونة » والنفح ، وساقط فى الإسكوريال .

(٢) هكذا فى الاسكوريال والنفح . وفى الاستقصا (بالندا) (ج ٢ ص ٩٢) .

وبه الدُّنا أضحت تروق وأصبحت كلُّ المنى تنقــاد بعد جِمــاح
من كان ذا ترحٍ فرؤية وجهه مِتْلافةُ الأحــزان والأتــراح
فانهض أبا عبد الإلّه تَفُزْ بما تبغيه من أمل ونيــل نجاح
لازلتَ ترتشف الأمانى راحةً من راحةِ المولى بكلّ صبــاح

والحمد لله ياسيدى وأخى على نِعمِه التى لا تحصى حَمْداً يؤم به جميعنا المقصد الأسنى ، فيبلغَ الأمدَ الأقصى ، فطالما كان مُعَظِّم سيدى للأسى فى خبال ، وللأسف بين اشْتِغال بال ، واشْتِغال بلبال . ولقدومكم على هذا المقام العَلِي فى ارتقاب ، ولمواعدكم بذلك فى تحقق وقوعه من غير شك ولا ارتياب ، فها أنت تَجْتلى ، من هذا المقام العَلِي ، لتُشَيِّعَك وجوه المسرّات صباحاً ، وتتلقى أحاديث مكارمه ومواهبه مُسندة صِحاحاً بحول الله. ولسيدى الفضل فى قبول مَرْكُوبه الواصل إليه بسَرْجِه ولجامه ، فهو من بعض ما لدى المحب[١] من إحسان مولاى وإنعامه . ولعمرى لقد كان وافداً على سيدى فى مُسْتَقَرِّه مع غيره . فالحمد لله الذى يَسَّر فى إيصاله على أفضل أحواله .

فراجعته بقولى :

راحَتْ تذكِّرُنى كؤوس الرّاح والقُرْب يخفض للجنوح جناح
وسَرَت تدُلُّ على القبول كأنّما دَلَّ النسيم على انبلاج صباح
حسناءُ قد غَنِيَت بحُسْن صفاتِها عن دَمْلج وقلادةٍ ووشــاح
أَمْسَت تحضُّ على اللِّياذ بمن جَرَتْ بسُعوده الأقلام فى الأفــراح
بخليفة الله المؤيــد فــارسٍ شمس المعالى الأزهر الوضّاح
ما شِيت من هِممٍ ومن سِيمٍ غدت كالزَّهر أو كالزهر فى الأدْواح

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (المعظم) .

فضلُ الملوك فليس يُدرك شأْوه ... أَنَّى يُقاس الغَمْرُ بالضَّحضاح

أَسْنَى بنى عبَّاسِهم بلوائه المنصور أَو بحسامه السفَّاح

وغدت مغانى المُلْك لما حَلَّها ... تَزْهى ببدر هُدىً وبحر سماح

وحياةُ من أَهداك تحفة قادم ... فى العَرْف منها راحة الأَرواح

مازلتُ أَجعل ذكرَه وثناءَه ... رُوحى وريحانى الأَريج وراح

ولقد تمازج حبُّه بجوارحى ... كتمازُج الأَجسام بالأَرواح

ولو أَننى أَبصرت يوما فى يدى ... أَمرى لطرتُ إليه دُون جناح

فالآن ساعدنى الزَّمان وأَيْقَنَتَ ... من قُرْبه نفسى بفوز قِداح

إيهٍ أَبا عبد الإلاه وإنه ... لنداءُ وُدٍّ فى عُلاك صُراح

أَما إذا استنْجَدْتَنى من بعد ما ... رَكَدَت لما خَبَت الخطوب رياح

فأَليكها مهزولة وأَنا امرؤ ... قرَّرت عجزى واطَّرحتُ سلاح

سيدى : أَبقاك الله لعهد تحفظه ، وولىٍّ بعين الولاء تلحظُه . وصلتنى رُقعتك التى ابْتَدعْتَ ، وبالحق من مدح المولى الخليفة صَدَعْتَ ، وأَلِفْتَنى وقد سَطَتْ بى الأَوحال ، حتى كادت تُتلف الرِّحال ، والحاجة إلى الغذاء ، قد شمَّرت كشح البَطِين . وثانية العَجْماوين قد تُوقع فَوات وقتها ، وإن كانت صَلاتُها صَلاة الطِّين ، والفكر قد غاض مَعِينُه ، وضَعُف وعلى الله جزاءَ المولى الذى يُعينه ، فغَزَتْنى بكتيبة بيان أَسدُها هَصُور ، وعَلَمُها منصور ، وأَلفاظُها ليس فيها قُصور ، ومعانيها عليها الحُسْن مَقْصور ، واعتراف مثلى بالعجز فى المضايق حولٌ ومِنَّة ، وقول لا أَدرى للعالم فكيف لغيره جنَة . لاكنها بَشَّرتنى بما يقل لمهديه[1] بذل النفوس وإن جَلَّت ، وأَطْلَعَتْنى من

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح والاستقصاء (لمؤديه) .

السرَّاءِ على وجه تحسده الشمس إذا تَجَلَّت ، بما أعلمت [١] به من جميل اعتقاد مولانا أَمير المؤمنين أَيده الله ، فى عَبْدِه ، وصِدْقِ الْمخيَّلة فى كَرَم مَجْده . وهذا هو الجود المحض ، والفضل الذى شُكْرُه هو الفَرْض . وتلك الخلافة المَوْلويَّة تتَّصف بصفة [٢] من يبدأُ بالنَّوال ، من قَبْل الضَّراعة والسؤال ، من غير اعتبار للأَسباب ، ولا مجازاة للأَعمال . نسأَل الله أن يُبقى منها على الإسلام أَوْفى الظِّلال ، ويبلِّغَها من فضله أَقْصى الآمال . ووصل ما بعثه سيدى صحبتها من الهديَّة ، والتحفة الودية ، [وقبلتُها امتثالاً] [٣] ، واستجليتُ منها عِتقاً وجمالاً . وسيدى فى الوقت أَنسبُ إلى اتخاذ ذلك الجِنس ، وأَقدرُ على الاستكثار من إناث البَهْم والإِنْس . وأَنا ضعيف القدرة ، غير مستطيع لذلك إلا فى النَّدْرة ، فلو رأَى سيدى ، ورأْيُه سَداد ، وقصدُه فضل ووِداد ، أَن ينقل القَضِيَّة [إلى باب العارِية من باب الهِبة] [٤] مع وجوبِ الحقوق المترتبة ، لبَسْط خاطرى وجَمْعه ، وعملٍ فى رفع المؤُنة على شاكِلة حالى معه ، وقد استصحبت مركوبا يَشُقُّ علىَّ هجره ، ويناسب مقامى شكله ونَجْره ، وسيدى فى الإِسعاف على الله أَجرُه ، وهذا أَمر عرض ، وفرض فُرِض ، وعلى نظره المعُوَّل ، واعتماد إغضائه هو المعقول الأَول . والسلام على سيدى من مُعَظِّم قدره ، ومُلْتَزِم بِرِّه ، ابن الخطيب ، فى ليلة الأَحد السابع والعشرين لذى قعدة سنة خمسة وخمسين وسبعماية ،

---

(١) هذا فى الإسكوريال . وفى النفح والاستقصاء (أعلمتنى) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح والاستقصاء (بصفات) .

(٣) هذه العبارة واردة فى النفح والاستقصاء ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٤) وردت هذه العبارة فى الإسكوريال (من باب الهدية إلى باب العارية) والتصويب من النفح والاستقصاء .

والسَّماءُ قد جادت بمطرٍ سَهِرت منه الأَجفان ، وظُنَّ أنه طُوفان ، واللِّحاق في غَدٍ بالباب المولوى ، مؤملٌ بحول الله .

ومن الشعر المنسوب إلى محاسنه ، ما أُنشد عنه ، وبين يديه ، في ليلة الميلاد المعظم ، من عام ثلاثة وستين وسبعماية بمدينة فاس المحروسة :

[أيا نسيم][1] السَّحر   بالله بلِّـغ خبـر
إن أنت يوماً بالحِمى   جررتَ فضل المئزر
ثم حثَثَت الخطو من   فوق الكثيب الأَعْفـر
مُستقـرياً في عُشْـبه   خفىَّ وطىء المَطَـر
تروى عن الضّحاك في الروض حديثَ الزَّهر
مُخَلَّـق الأَذيـال   بالعبير أو بالعَنْبـر
وصِف لجيران الحِمى   وجْـدى بهم وسَهَـرى
وحقهم مـا غيَّـرَتْ   وُدِّى صروفُ الغِيَـر
لله عهـدٌ فيـه قضيتُ حميـدَ الأَثـر
أَيَّـامه هي الـتى   أَحْسُبُهـا من عُمـرى
ويا للَّيـل فيـه مـا   عيبٌ بغيـر القِصر
العمـر فَيْنَـان ووجـهُ الدهر طَلِـق الغُرر
والشَّمل بالأَحبـاب منظـوم كنَظْم الـدُّرر
صفوٌ من العيش بـلا   شائبة من كـدر
ما بين أهـل تَقْطِف   الأُنْس جَنَى الثمـر
وبيـن آمـال تُبيـح القُرْب صافى الغُـدُر
يا شجراتِ الحىِّ حيَّـاك الحَيـا من شجـر

(١) هكذا وردت في الإسكوريال . وفي النفح (قل النسيم) .

إذا أجـال الشـوق فى تلك المغـانىَ فكرى
خرَجت من خـدِّى حديث الدمع فوق الطُّـرر
وقلتُ يا خدُّ اروِ من دمعى صِحاح الجوهرى
عهدى بحادى الرَّكب كالْوَرْقاء عند السَّحَر
والعِيسُ تَجْتاب الفَلا واليَعْمــلات تنبـرى
تخبط بالأَخْفاف مظلــوم البَرا وهو بَــرِى
قد عَطَفت عن مَيْــدٍ والتفَّت عــن حَــور
قِسىٌّ سيرٍ ما ســوى العـزم لهـا من وَتـر
حتى إذا الأَعلام حلِسَــت لحفىٍّ البشـــر
واستَبْشَر النـازحُ بالقــرب ونَيْــل الوَطَـر
وعيَّن الميقاتَ للسَّــفر نجــاحُ السَّفـر
والنــاس بيـن مُحْـرِم بالحجِّ أو مُعْتَمِــر
لَبَّيـك لَبَّيْـك إلَـٰــه الخلـق بـارى الصُّـور
ولاحت الكَعْبــة بيتُ الله ذات الأَثـــر
مقــامُ إبراهيم والمأْمَنُ عنــد الذَّعَــر
واغتنم القومُ طَــواف القــادم المُبْتَـدر
وأعقبوا رَكْعَتى السَّــعى اسـتلام الحَجَـر
وعَرَّفــوا فى عَـرَفات كل عَـرْف أذْفَــر
ثم أَفاض النـــاس سعياً فى غـد للمَشعـر
فوقفــوا وكبَّــروا قبل الصباح المُسْفـر
وفى مِنىً نـالوا المُنى وأيقنــوا بالظَّفَــر
وبعـد رَمْى الجمَـرا ت كان حَـلْق الشَّعْـر

أكرم بذاك الصحب[1] والله وذاك النَّفر[2]
يا فَوْزُه من مَوْقف يا رَبْحُه من مَتْجر
حتى إذا كان الوَدا ع وطَواف الصَّدر
فأَىُّ صبر لم يَخُن أو جَلَد لم يَغْدُر
وأىُّ وجْدٍ لم يَصُل وسَلْوة لم تُهجر
ما أفجع البَيْن لقَلْـب الواله المُسْتَغْفر[3]
ثم ثَنَوا نحو رسو ل الله سَيْر الضُّمَّر
فعاينوا فى طِيبَة لألاءَ نور نَيِّر
زاروا رسول الله واستَشْفَعوا بلَثم الجُدُر
نالوا به ما أمَلوا وعرَّجوا فى الأثر
على الضَّجيعين أبى بكر الرِّضا وعُمر
زيارة الهادى الشُّفيع جَنَّةٌ فى المَحْشر
فأحسَن الله عزا ءَ قاصدٍ لم يَزُر
ربْعٌ ترى مُسْتَنزل الآى به والسُّور
وملتقى جبريل بالهادى الزَّكىِّ العُنْصر
وروضةُ الجَنَّة بين روضة ومِنْبر
مُنْتَخَب الله ومُختار الوَرَى من مُضَر
والمُنْتَقى والكون من ملابس الخلق عَرى
إذْ لم يكن فى أفُق من زُحل أو مُشْترِ[4]

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (السفر) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (السفر) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح (المستعبر) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ومشترى) .

ذو المعجزات الغُرِّ أمثال النجوم الزُّهر
يَشْهد بالصِّدق له منها انشِقاق القَمَر
والضَّب والظَّبي إلى نُطْق الحَصَى والشَّجر
من أَطْعَم الأَلْفَ بصا ع فى صَحيح الخَبَر
والجيشُ روَّاه بما ء الرَّاحة المُنْهمر
يا نُكْتةَ الكون التى فاتَت مَنال الفِكَر
يا حجة الله على الرا ئح والمبتكر
يا أكرم الرُّسْل على الله وخيرَ البَشَر
يامن له التَّقدم الحقُّ على التَّأَخر
يامن لدى مولده المُقدَّس المُطَهَّر
إيوان كِسْرى ارتَجَّ إذ ضاقت[١] قُصُور قَيصر
ومَوْقد النار طفا كأَنها لمَ تُسْعر
يا عُمْدتى يا مَلْجئ يا مَفْزعى يا وَزَرى
يا من له اللِّواء والحَوْض وَوِرد الكَوْثر
يا منقذَ الغَرْقى وهم رَهْن العذاب الأكبر
إن لم تُحقِّق أملى بُؤْتُ بسعى المُخْسِر
صلَّى عليك الله يا نور الدُّجا المُعْتَكر
يا ويحُ نفسى كم أرى [من غَفْلتى فى عُمَر][٢]
واحسروا من قِلَّة الزَّاد وبعد السَّفر
يُحجِّنى والله بالبرهان وعُظْ المنبر

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (ضاءت).
(٢) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال . وفى النفح (فى غفلة من عمرى) .

يا حُسْنَها من خُطب لو حرَّكت من نظر[١]
يا حُسْنها من شجَر لو أَوْرَقَت من ثَمْر
أُومِّل الأَوْبَة والأَمر بكفِّ القَدر
أُسَوِّفُ العزم بها من شهر لِشهر
من صَفَرٍ لرجَبٍ من رجبٍ لصَفرِ
ضيَّعتُ فى الكَبْرة ما أَعددتُه فى صِغَر
وليس ما مَرَّ من الأَيام بالمُنْتظر
وقلَّ ما أَن حَمِدْتُ سلامةً فى غَرَر
ولى غريم لا يَنى عن طلب المُنْكَسِر
يا نفس جدِّى قد بدا الصبح أَلا فاعْتَبِرى
واتَّعظى بمن مضَى وارْتَدعى وازْدَجرى
ما بعْد شَيْب الفَوْد من مُرْتَقب فشمِّرى
أَنتِ وإن طال المدى فى قَلْعة أَو سَفَر
وليس من عُذر يُقيم حجَّة المُعْتذر
يا ليت شِعرى والمُنى تَسْرِق طيبَ العُمر
هل ارتجى من عودةٍ أَو رجعةٍ أَو صَدَر
فأُبرِّد الغُلَّة من ذاك الزُّلال الخصِر
مقتدياً بمن مضى من سَلفٍ ومَعْشر
نالوا جوار الله وهو الفَخْر للمُفْتَخر
أَرجو بإِبراهيم مو لانا بلوغ الوَطَر

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (نظرى) .

فوعــدُه لا يَمتَرِى في الصِّدق منه المُمْتَرِ (١)
فهو الإمام المُرْتضى والخير ابن الخيِّر
أكرِم من نال المنى (٢) بالمُرْهفات البُتر
مُمَهِّد الملك وسيفُ الحقِّ والليث الجَرى
خليفة الله الذى فاق بحسن السِّير
وكان منه الخُبر فى العَلْياء وفْق الخَبر
فصدِّق التَّصديق من مرآه للتَّصور
ومستعين الله فى وِرْدٍ له وصَدَر
فاق الملوك الصَّيد بالمَجد الرَّفيع الخَطر
فأصبحت ألقابُهم مَنْسِيَّةً لم تُذْكر
وحاز منهم (٣) أوحدُ وصْفَ العديد الأكثر
برأيه المأمون أو عسكره المُظَفَّر
بسيفه السَّفاح أو بعَزْمه المُقْتَدِر
بالعَلَم المنصور أو بالذَّابل المُسْتَنصر (٤)
بابن الإمام الطاهر البَرِّ الزَّكى السِّير
مدحُك قد علَّم نظم الشِّعر مَنْ لم يَشْعر (٥)
جُهدُ المُقِلِّ اليوم من مثلى كوُسْع المُكْثر
فإن يُقَصِّر ظاهرى فلم يُقَصِّر مُضْمِر

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تمترى) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (العلا) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (منه) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (المنتصر) .
(٥) هذه الأبيات الأخيرة كان قد نظمها ابن مرزوق فى مديح ملك المغرب يومئذ السلطان أبى سالم ابراهيم المرينى ، ولكنه لقى مصرعه فى ذى القعدة ٧٦٢ هـ قبل حلول المولد النبوى .

ووَرَدْتُ على باب السلطان الكبير العالم أبى عنان ، فبلوتُ من مشاركته ، وحَميد سعيه ، ما يليق بمثله . ولما نَكَبَه لم أقَصِّر عن مُمْكن حيلةٍ فى أمره. ولما هلك السلطان أبو عنان رحمه الله ، وصار الأمر لأخيه [المتلاحق من الأندلس أبى سالم بعد الولد المُسَمَّى بالسَّعيد][1] كان ممن دَمُثَ له الطَّاعة ، وأناخ راحلة المُلْك ، وحَلَب ضِرْع الدَّعوة[2] ، وخطب [عروس][3] المَوْهبة ، فأَنْشَب ظُفْره فى مَتات مَعْقود من لَدُن الأب ، مَشْدود من لدن القُرْبة[4] ، فاستحكم عن قُرْب ، واستغلظ عن كَثَب ، فاستولى على أمره ، وخَلَطه بنفسه ، ولم يستأثر عنه ببَتَّة ، ولا انفرد بما سوى بضع أهله ، بحيث لا يَقْطَعُ فى شيء إلاَّ عن رأيه ، ولا يَمْحُو ويُثْبِت إلاَّ واقفا عند حَدِّه ، فغَشِيت بابه الوفود ، وصُرِفت إليه الوجوه ، ووُقِفت عليه الآمال ، وخَدَمته الأشْراف ، وجُلِبت إلى سُدَّته بضايعُ العقول والأموال ، وهادَتْه الملوك ، فلا تخدُو الحُداة إلاَّ إليه ، ولا تحطُّ الرِّحال إلاَّ لديه ، إن حَضَر أجرى الرسم ، وأنفذ الأمر والنَّهى لَحْظًا أو سِراراً أو مكاتبةً ، وإن غاب ، تردَّدت الرِّقاع ، واختلَفت الرُّسل . ثم انفرد أخيراً ببيت الخَلْوة ، ومُنْتَبذ المُناجاة ، من دونه مُضْطَفُّ الوزراء ، وغايات الحُجَّاب[5] ، فإذا انصرف تَبِعَته الدُّنيا ، وسارت بين يديه الوزراء ، ووقَفت ببابه الأُمراء ، قد وَسِع الكلُّ لحظَه ، وشَمِلهم بحسَب الرُّتب والأموال رعيُه ، ووَسَم أفْذادَهُم تسويدُه ، وعُقِدت ببَنان عِلْيتهم بَنانهُ . لاكن رِضى الناس غايةٌ

---

(١) هذه الزيادة من النفح . ومكانها فى المخطوط هذه العبارة (بعد ولده) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الدولة) .

(٣) هذه الزيادة من النفح .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (التقرب) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الحجابة) .

لا تُدرك ، والحِقد[1] بين بنى آدم قديم ، وقَبيلُ الملك مبايِنٌ لمثله ، فطُويت الجوانح منه على سَل ، وحُنيت الضُّلوع على بَثٍّ ، [وأُغْمضت الجفون على قَذًى][2] إلى أن كان من نَكْبته ما هو معروف جعلها الله له طُهورا .

ولما جَرَت الحادثة على السلطان[3] [بالأندلس][4] ، وكان لحاقُ جميعنا بالمغرب ، جَنَيْتُ ثمرة ما أَسلفتُه فى وُدِّه ، فوفَّى كَيْل الوَفا ، وأَشْرَك فى الجاه ، وأَدرَّ الرِّزْق ، ورفع المجلس [بعد التَّسْبيب فى الخلاص][5] ، والسَّعى فى الجبْر ، جَبَرَهُ الله [تعالى وكان له][6] أَحوج ما يكون إلى ذلك ، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون ، إلاَّ من أَتى الله بقلب سليم .

ولما انقضى أَمرُ سلطانهُ رحمه الله ، وقَذَف به بحرُ التَّمحيص إلى شَطّه ، وأَضحى جوُّ النَّكبة بعد انطِباقه ، آثرَ التَّشْريق بأَهْله وجُمْلته ، واستقرَّ بتونس ، خطيب الخلافة ، مقيماً على رسمه من التَّجلَّة ، ذايع الفضل هنالك والمشاركة ، وهو بحاله الموصوفة إلى الآن كان الله له .

وكنت أَحْسَسْتُ منه فى بعض الكُتُب الواردة ، صاغيةً إلى الدُّنيا ، وحنيناً لما فارق من غُرُورها ، فحملنى الطَّور الذى ارتكبته فى هذه الأَيام بتوفيق الله ، على أَن خاطبته بهذه الرسالة ، وحقُّها أَن يجعَلها خدمَة الملوك ممن يُنسب إلى نُبل ، أَو يُلم بمعرفة ، مُصْحَفاً يَدْرسُه ، وشِعاراً يَلْتَزِمه ، وهى:

سيدى ، الذى يدُه البيضاء لم تَذْهب بشهرتَها المكافاة ، ولم تختلف

---

(١) هذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الحسد) .

(٢) هذه الزيادة من النفح .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الدول) .

(٤) هذه الزيادة من النفح .

(٥) وردت فى الإسكوريال (تسبيب الخلاص) . والتصويب من النفح .

(٦) الزيادة من النفح .

فى مَدْحها الأَفعال ، ولا تَغايرت فى حَمدها الصِّفات ، ولا تزال تعترف بها العِظام الرُّفات ، أَطْلَقك الله من أَسْر الكَوْن ، كما أَطلقك من أَسر بَعْضه ، ورشَّدك فى سَمايه العالية وأَرضِه ، وحقَّر الحظَّ فى عَيْن بصيرتك بما يَحْمِلُك على رفضه . اتَّصل بى الخبرُ السَّار من تَرْكك لشأْنك ، وإجْناءِ الله إيَّاك ثمرة إحْسانك ، وإنْجِياب ظَلام الشِّدة الحالِك ، عن أُفُق حالك . فكبَّرتُ لانتشاق عفو الله العاطر ، واسْتَعْبرتُ لتضاؤل الشِّدة بين يَدَىْ الفَرَج ، لا بِسوى ذلك من رِضى مخلوق يُومَر فيأْتَمر ، ويدعُوه القضاءُ فَيبْتَدِر ، إنما هو فَيْءٌ وظلٌّ ليس له من الأَمر شَيءٍ ، ونسأَله جلَّ وتعالى أَن يجعلها آخر عهدك بالدُّنيا وبَنيها ، وأَوَّلَ مَعارج نَفْسك ، التى تُقَرِّبها من الحقِّ وتُدْنيها ، وكأَنَّنى والله أُحِسُّ بثِقْل هذه الدعوة على سمعك ، ومضادَّتِها ولا حول ولا قوة إلا بالله لطَبْعِك ، وأَنا أُنافِرك إلى العمَل الذى هو قِسطاس الله فى عَالَم الإنسان ، والآلةُ لبثِّ العدل والإحسان ، والمَلِك الذى يَبين عنه تُرْجمان اللِّسان ، فأَقول ليتَ شِعرى ما الذى غَبَط سيدى بالدُّنيا ، وإن بلغ من زِبْرِجها الرُّتبة العليا ، وأَفْرِض المِثال لحالة إقبالها ، ووَصْل حِبالها ، وضَراعة سِبالها ، وخشوع جِبالها . أَلِتَوقُّع المَكروه صَباح مَسا ، وارتقاب الحِوالة التى تُديل من النَّعيم الْبَأْسا ، ولزوم المنافسة التى تُعادى الأَشراف والرؤسا . أَلترتُّب العَتْب ، حتى على التَّقصير فى الكَتْب ، وظَعِينة جارِ الجَنْب ، وولوع الصَّديق بإحصاءِ الذَّنْب . أَلِنَسْبة وقايع الدولة إليك وأَنت بَرِى ، وتطويقِك المُوبِقات وأَنت منها عَرِى ، أَلاسْتِهدافِك للمَضَّار التى تُنْتجها غيرةُ الفُروج ، والأَحقاد التى تَضْطِبنُها رَكْبَةُ السُّروج وسَرْحةُ المُروج ، ونجوم السَّما ذاتِ البُروج . أَلتَقْليدك التَّقْصير فيما ضاقت عنه طاقتُك ، وصحَّت إليه فاقَتُك ، من حاجة لا يقْتَضى قَضاها الوجود ،

ولا يُكَيِّفُها الرُّكوع لِلْمَلك والسُّجود . أَلِقَطْع الزَّمان بين سلطانٍ يُعبد ، وسِهام للغُيوب تُكبَّد ، وعَجاجةِ شَرٍّ تُلَبَّد ؛ وأُقْبُوحةٍ تُخَلَّد وتُوَبَّد . أَلِلوَزير يُصانع ويُدارى ، وذى حُجَّة صحيحة يُجادل فى مُرْضاة السُّلطان ويُمارى ، وعَوْرةٍ لا تُوارَى . أَلِمُباكرة كلِّ عايبٍ حاسد ، وعدوٍّ مُسْتَأْسِد ، وسوق للإنصاف والشَّفَقة كاسِد ، وحالٍ فاسد . أَلِلْوفود تَتَزاحم بِسُدَّتك ، مُكَلِّفة لك غير ما فى طَوْقك ، فإن لم تَنَل أَغراضها ، قَلَبت عليك السَّما من فوقك . أَلِجُلَساءِ ببابِك ، لا يَقْطعون زمن رجوعك وإيابك ، إلاَّ بقَبيح اغْتِيابك . فالتَّصرُّفات تُمْقَت ، والقَواطع النُّجوميَّات تُوَقَّت ، والألاق[1] تُبَثُّ ، والسعايات تُحثُّ ، والمساجد يُشْتَكى فيها البَثُّ ، يعتقدون أن السلطان فى يَدك ، بمَنزِلة الحِمار المدبُور ، واليَتِيم المَحْجُور ، والأَسير المامُور ، ليس له شهوةٌ ولا غَضب ، ولا أَملٌ فى المُلْك ولا أَرَب ، ولا مَوْجِدَةٌ لأَحد كامنةٌ ، وللشَّر ضامِنة . وليس فى نفسه عن رأى نُفْرة ، ولا بإزاء ما لا يقبله نَزْوة وطَفْرة ، إنما هو جارِحَةٌ لصَيْدك . وعانٍ فى قَيْدك ، وآلةٌ لتَصَرُّف كَيْدك ، وأَنَّك عِلَّة حَيْفه ، ومُسَلِّط سيفه . الشُّرَّار يُسْمِلون عُيُون الناس باسمك ، ثم يُمَزِّقون بالغَيْبَة مزق جِسمك ، قد تنَخَّلهم الوجودُ أَخبثَ ما فيه ، واختارهم السَّفيه فالسَّفيه ، إذ الخير يُسرُّه الله عن الدُّول ويُخْفيه، ويُقْنِعه بالقليل فَيَكفيه ، فهم يَمْتاحون بك ، ويولُونك المَلامة ، ويَقْتَحمون عليك أَبواب القوْل ، ويسدُّون طُرَق السَّلامة ، وليس لك فى أَثناء هذه إلاَّ ما يعُوزُك مع ارتفاعه ، ولا يفُوتُك مع انْقِشاعه ، وذهاب صُداعه ، من غِذَاءٍ يُشبع ، وثوبٍ يُقْنع ، وفِراشٍ يُنِيم ، وخَدِيم يَقْعُدويُقيم . وما الفايدة فى فُرُش تحتها جَمْر الغَضا ، ومال من ورايه سُوء القَضا ، وجاهٍ يُحَلِّق عليه

---

(١) الألاق جمع ألقية ، ومعناها الألغاز والأحاجى .

سيفٌ مُنْتَضا . وإذا بَلَغَت النَّفْس إلى الالتِذاذ بمالا تَمْلك ، واللَّجاج حول المَسْقط الذى تعلم أنها فيه تَمْلك ، فكيف يُنْسب إلى نُبْل أو يُسَر مع السعادة فى سُبُل . وإن وجَدْتَ فى القُعود بمَجْلِس التَّحية بعض الأَريحيَّة ، فليْتَ شِعْرى أىُّ شيءٍ زادَها ، أَو معْنًى أفادَها ، إلاَّ مُباكرةِ وجْهِ الحاسِد ، وذى القلب الفاسِد ، ومواجهَة العدوِّ المُسْتَاسِد . أَو شَعُرْتَ ببعض الإيناس فى الركوب بين الناس ، هل الْتَذَّت إلاَّ بحِلْم كاذب ، أَو جذبها غيرُ الغُرور مُجاذِب . إنما الحِلْية وافَتْك من يُحدِّق إلى البزَّة ، ويستطيل مدَّة العِزَّة ، ويرتاب إذا حُدِّث بخبرك ، ويَتْبَع بالنَّقد والتَّجسُّس مواقع نظرك ، ويمنَعُك من شارة أُنْسِك ، ويحتال على فراغ كِيسك ، ويُضْمِر الشرَّ لك ولرَسْيك . وأىُّ راحة لمن لا يُباشر قَصْده ، ويَسِير متى شا وَحْده ، ولو صحَّ فى هذه الحال لله حظٌّ ، وهَبْه زهيداً ، أَو عَيَّن للرُّشد عملاً حميداً ، لساغ الصَّابُ[1] ، وخَفَّت الأَوْصاب ، وسَهُل المُصاب . لاكن الوقتُ أشْغَل ، والفكرَ أَوْغَل ، والزَّمنُ قد غَمَرته الحصصُ الوهْمِيَّة ، واستَنْفَدت منه الكمِّيَّة . أَما ليلُه ففكرٌ أَو نومٌ ، وعَتْبٌ يَجرُّ الضِّراس ولَوْم ، وأَما يومُه فتَدْبير ، وقَبِيل ودَبِير ، وأمور يعيا بها ثَبِير ، و بلاءٌ مُبِير ، ولَغَطٌ لا يدخل فيه حكيمٌ كبير ، وأنا بمثل ذلك خَبِير . ووالله يا سيِّدى ، ومَن فَلَق الْحبَّ وأخرج الأَبَّ ، وذَرا من مَشى وما دبَّ ، وسمَّى نفسه الربَّ ، لو تعلَّق المال الذى يَجِدُه هذا الكَدْح ، ويُورى سَقِيطه هذا القَدح ، بأذيال الكواكب ، وزاحمت البدْرَ بدْرُه بالمناكب ، لا وَرِثه عَقِب ، ولا خَلَص به مُحْتَقِب ، ولا فاز به سافرٌ ولا مُنْتَقِب . والشَّاهد الدُّول والمشايم الأُول . فأين الرِّباع المُقْتَنَاة ، وأين الدِّيار المُبْتَداة ، وأين الحدايق المُغْتَرسات ، وأين الذَّخاير

---

(١) ورد فى هامش المخطوط ما يأتى الصابة شجرة مرة . وجمعه صاب .

المُخْتَلسات ، وأين الودايع المُؤمَّلة ، وأين الأمانات المُحمَّلة ، تاذن الله بِتَبْييرها ، وإدناءِ وتارِ التيَّار من دنانيرها ، فقلما تلقى أعقابهم إلا أعْرُباً للطُّمور ، مُتَرَمِّقينَ بجرايات الشُّهور ، مُتعلِّلين بالهباءِ المنْثُور ، يُطْرَدون من الأبواب التى حُجِب عندها آباؤهم ، وعُرِف منها إباؤهم ، وشُمَّ من مقاصيرها عَنْبَرُهم وكِباؤُهم ، لم تُسامحهم الأيام إلا فى إرثٍ مُحَرَّرٍ ، أوحلال مُقَرَّر ، وربما محَقَهُ الحَرام ، وتعذَّر منه المرام . هذه أعزَّك الله حالُ قَبُولها ومالها مع التَّرفيه ، وعلى فرض أن يَسْتَوْفى العُمْر فى العزِّ مُسْتَوفيه . وأما ضِدُّه من عدوٌّ يتحكَّم ويَنْتَقم ، وحُوتُ بَغْى يَبْتَلِع ويَلْتَقم ، وطَبَقٌ يَحْجب الهوا ، ويُطيل فى التُّراب الثَّوا ، وثُعبان قَمِيدٌ[1] يعضُّ السَّاق ، وشوبُوب عذاب يُمَزِّق الإبشار الرِّقاق ، وغيلةٌ يهديها الواقِبُ الغاسق ، ويَجْرَعُها العدوٌّ الفاسق ، مع الأُفول والشُّروق . فهل فى شيءٍ من هذا مُغْتَبَطٌ لنفس حُرَّة ، أو ما يساوى جُرْعَةَ حالٍ مُرَّة . واحَسْرتاه للأَحلام ضَلَّت ، وللأَقدام زلَّت ، ويا لها مُصيبةٌ جَلَّت ، ولسيدى أن يقول حَكَمْتَ علىَّ باستِثْقال الموعِظة واستِجْفانها ، ومُراوَدة الدُّنيا بين خِلاَّنِها وأَكفايها ، وتناسى عدم وفايها ، فأقول الطَّبيب بالعِلَل أدرى ، والشَّفيق بسُوءِ الظَّن مُغْرَى . وكيف لا وأنا أقِف على السَّحاآت ، بخطِّ سيدى ، من مَطارح الاعتِقال ، ومَثاقِف النُّوبِ الثِّقال ، وحَلَوات الاستعداد لِلقاءِ الخُطوب الشِّداد ، ونَوْش الأَسِنَّة الحِداد ، وحيث يَجْمُل بمثله ألاَّ يَصْرِف فى غير الخضوع لله بَناناً ، ولا يَثْنِى لمخلوق عِناناً . وأتعرف أنها قد ملأَت الجوّ والدوّ ، وقَصَدَت الجَماد والبوّ ، تقتحم أَكُفَّ أولى الشَّهات ، وحَفَظَة المذَمَّات ، وأعوان النُّوب المُلِمَّات ، زيادة فى الشَّقا ، وقَصْد أبرياءٍ من الاخْتِيار والانْتِقا ، مُشْتَمِلة من التَّجاوُز

---

(١) قميد أعنى طويل من قمد قمدا أى طال جيسمه .

على أَغْرَب من العَنْقا ، ومن النِّفاق على أَشْهر من البَلْقا . فهذا يُوصف بالإمامة ، وهذا يُنسب فى الجود إلى كعْب بن مامة ، وهذا يُجعل من أَهل الكرامة ، وهذا يُكَلَّفُ الدُّعاءَ وليس من أَهد ، وهذا يُطْلب منه لقا الصَّالحين وليسوا من شَكله ، إلى ما أَحْفَظَنِى والله من البحث عن السُّموم ، وكُتُبِ النجوم ، والمَذْمُوم من المعلوم ، هلاّ كان من يَنْظُر فى ذلك قد قُوطع بتاتاً ، وأَعتقد أَن الله قد جعل لزَمَنِ الخير والشَّر مِيقاتاً ، وأَنّا لا نملك موتاً ولا نُشوراً ولا حياتاً ، وأَنَّ اللَّوح قد حَصَر الأَشياءَ مَحْواً وإثباتاً ، فكيف نرجُو لما منَعَ منالاً ، أَو نستطيعُ مما قدر إفلاتاً . أَفِيدُونا ما يُرجِّح العقيدة المُقَرَّرة ، نَتَحَوَّلْ إليه ، وبيِّنوا لنا الحقَّ ، نُعوِّل عليه . الله الله ياسيدى فى النَّفْس المُرَشَّحة ، وللذّات المُحَلاّتِ بالفضايل المُوَشَّحة ، والسَّلف الشهير الخيِّر ، والعُمْر المُشْرف على الرِّحلة بعد حَثِّ السَّير ، ودَعْ الدنيا لأَهلها ، فما أَرْكَس حُطوظَهم ، وأَخَسَّ لحُوظَهم ، وأَقلَّ متاعهم ، وأَعجل إسْراعهم ، وأَكثر عَناءَهم ، وأَقْصَرَ أَناأَهم :

ما تَمَّ إلا ما رأَيـــــت   وربما تَعْيى السَّـــــلامة
والنـــــاس إما جـــــائرٌ   أَو حايرٌ يشكو ظُلامة
والله ما احْتَقَب الحريصُ   ســـوى الذُّنوبِ أَو الملامة
هل ثَمَّ شكٌّ فى المعـــــاد   الحقِّ أَو يوم ِ القيـــامة
قُولوا لنبـــا ما عندكم   أَهلَ الخَطـابة والإمامة

وإن رميتُ بأَحجارى ، وأَوحرت المرَّ من أَشجارى ، فوالله ماتلبَّست منها لليوم بشيءٍ قديم ولا حديث ، ولا استَأثَرتُ بطيِّب فَضْلاً عن خبيث . وما أَنا إلا عابِرُ سبيل ، وهاجرُ مرعىً وَبيل ، ومُرتقبُ وعدِ قدر فيه الإنجاز ، وعاكفٌ على حقيقة لا تعرف المجاز قد فرَرْتُ من الدنيا

كما يُفَرُّ من الأَسَد ، وحاولت المقاطعة ، حتى بين رُوحى والجَسَد ، وغَسَل الله قلبى ، وله الحمد ، من الطَّمع والحَسَد ، فلم أُبْقِ عادة إلاَّ قطعتُها ، ولا جنَّةً للصَّبر إلاَّ ادَّرَعتُها . أمَّا اللِّباس فالصُّوف ، وأما الزُّهد فيا فى أَيدى الناس فمَعْروف ، وأما المال الغَبِيط فعلى الصَّدقة مصروف . ووالله لو علمتُ أنَّ حالى هذه تتَّصل ، وعُراها لا تنفصل ، وأن ترتيبى هذا يدوم ، ولا يجيزُنى الوعد المحتوم ، والوقت المعلوم ، لمتُّ أَسَفاً ، وحَسْبى الله وكَفَا . ومع هذا ياسيدى ، فالموعظةُ تُتَلقَّى من لسان الوُجود ، والحكمةُ ضالَّةُ المُؤْمن يطلُبها ببذل المجهود . ويأْخذُها من غير اعتبار بمحلِّها المذْموم أو المحمود . ولقد أَعْمَلْتُ نظرى فيا يكافىء عنى بعض يُدِك ، أو ينْتَمى فى الفضل إلى أَمَدِك . فلم أر لَكَ الدُّنيا كَفًا . هذا لو كنتَ صاحبَ دُنيا ، وأَلفيت بذل النَّفس قليلاً لك من غير شرطٍ ولا ثُنَيًّا ، فلما أَلْهمَنى الله لمخاطبتك بهذه النَّصيحة المفْرَغة فى قالَب الجَفا ، لمن لا يُثْبت عين الصَّفا ، ولا يُشيم بارقَة الْوَفا . ولا يعرف قاذُورَة الدُّنيا مَعْرِفة مِثْلى من المُتَدَنِّسِين بها المُنْهمكين . وينظر عَواره الفادِح بعين اليقين ، ويعلم أنها المومِسة التى حُسْنها زُور ، وعاشقُها مغْرور ، وسُرورها شُرور ، تَبَيَّن لى أنى قد كافَيْتُ صنيعَتَك المتقدِّمة ، وخرجتُ عن عهدتك المُلْتَزَمة ، ومَحَضْتُ لله النُّصح الذى يُقِرُّ بعزِّ الله ذاتك ، ويُطيب حياتك ، ويُحيِي مَواتك ، ويريح جَوارِحَك من الوَصَب ، وقَلْبَكَ من النَّصب ، ويُحقِّر الدنيا وأَهْلَها فى عَيْنك إذا اعْتَبَرْت ، ويُلاشى عَظايمها لديك إذا اخْتَبَرْت ، كلُّ من تقع عليه عينُك حقِيرٌ قليلٌ ، وفقيرٌ ذليل ، لا يَفْضُلك بشىءٍ إلاَّ باقْتِفاء رُشْد أو تَرْك غىٍّ ، أثوابهُ النَّبيهة يُجرِّدها الغاسل ، وعُرْوة غيره يُفَصِّلها الفاصل ، ومالهُ الحاضر الحاصل ، يَعيث فيه الحُسام الفاصل ، والله

ما تَعَيّن للخَلَف إلاّ ما تَعَيّن للسَّلَف ، ولاَ مصيرُ المجموع إلاّ إلى التَّلف ، ولا صَحَّ من الهِياط والمِياط ، والصِّياح والعِياط ، وجَمْع القيراط إلى القيراط ، والاستظهار بالوَزَعة والأَشْراط ، والخَبْط والخُبَّاط ، والاسْتِكثار والاغْتِباط ، والغُلُوِّ والاشْتِطاط ، وبِنا الصَّرح وعمل السَّاباط ، ورفع العماد وإدارة الفُسْطاط ، إلاّ أَلَمٌ يُذهب القوة ، ويُنْسى الآمال المرجُوَّة ، ثمَّ نَفَسٌ يصعد ، وسَكَرات تتردَّد ، وحسرات لِفراق الدُّنيا تتجدَّد ، ولسانٌ يَثْقُل ، وعينٌ تُبصر الفراق الحقَّ وتمقُل . قل هو نبأٌ عظيم ، أَنتم عنه مُعْرضون . ثم القَبْرُ وما بعده ، والله منجزٌ وعيدَهُ ووعْدَه . فالإِضرابُ الإِضرابُ ، والتُّراب التُّراب ، وإن اعتَذَر سيدى بقِلَّة الجَلَد ، لكثرة الوَلد ، فهو ابن مَرْزوق ، لا ابن رَزَّاق ، وبيده من التَّسبُّب ، ما يتكفَّل بإمساك أَرْماق . أين النَّسْخُ الذى يَتبلَّغ الإِنسان بأُجرَته ، فى كِنٍّ حُجْرته ، لا بل السؤال الذى لا عار عند الحاجة بمَعَرَّته ، السؤال والله أَقومُ طريقاً ، وأَكرم فريقاً ، مِنْ يدٍ تمَدّ إلى حَرام ، لا يَقُوم بمرام ، ولا يُؤمَنٌ من ضِرام أُحْرِقت فيه الحُلل ، وقُلِبت الأَديان والمِلَل ، وضُربت الابْشار ، ونُحرت العِشار ، ولم يَصل منه على يَدَى واسِطةِ السُّوءِ المِعْشار . ثم طُلب عند الشِّدَّة ففُضِح ، وبان سَوْمه ووَضَح ، اللهم طهِّر منَّا أَيْدِينا وقلوبَنا ، وبلِّغنا من الانصراف إليك مَطْلُوبَنا ، وعرِّفنا بمن لا يَعْرف غيرك ، ولا يَسْتَرْفِد إلاّ خَيْرك ياألله . وحقيقٌ على الفُضلاءِ إن جَنَح سيدى منها إلى إشارة ، أَو أَعمل فى اخْتِلابها إضباره ، أَو لَبِس منها شَارَة ، أَو تَشَوَّف إلى خدمة إمارة ، أَلا يُحْسنوا ظنونهم بعدها بابن ناس ، ولا يَغْتَرُّوا بِسَمْتٍ ولاخلْقٍ ولا لِباس ، فما عَدَا عمَّا بَدا . تَقْضى العُمْر فى سِجْنٍ وَقَيْد ، وعَمْرو وزَيْد ، وضُرٌّ وكَيْد ، وطِراد صَيْد ، وسَعْد وسَعيد ، وعَبْد وعَبيد ، فمتى تظهرُ الأَفكار ،

ويَقِرُّ القرار ، وتُلازَم الادِّكار ، وتُشام الأنوار ، وتَتَجلّى الأسرار ، ثم يقع الشُّهود الذى تذهب معه الأفكار ، ثم يحقُّ الوُصول الذى إليه من كلٍّ ما سواه الفَرار ، وعليه المَدار . ووَحَقِّ الحقِّ ، الذى ما سواه فَباطل ، والفَيْض الرَّحْمانى ، الذى رَبابهُ لا بد هاطل ، ما شاب مُخاطبتى لك شايِبةٌ برَيْب ، ولقد مَحَضْتُ لك ما يَمْحَضه الحبيب إلى الحبيب[1] ، فيحمل جَفاً فى الذى حَمَلَتْ عليه الغَيْرة ، ولا تَظُنَّ بى غيْره . وإن أقْدَر قَدْرى فى مُكاشفة سيادتك بهذا البَثّ ، فى الأسلوب الرَّث ، فالحقُّ أقْدَم ، وبناؤه لا يُهْدم ، وشَأْنى معروف فى مواجهة الجبابرة ، على حِين يَدى إلى رِفدِهم مَمْدُودة ، ونَفْسى فى النُّفوس المُتَهافِتة عليهم مَعْدُودة ، وشَبابى فاحِمٌ ، وعلى الشَّهوات مُزَاحِمٌ ، فكيف بى اليوم مع الشَّيْب ، ونُصْح الجَيْب ، واسْتِكْشاف العَيب ، إنما أنا اليوم على كلٍّ مَنْ عَرَفنى كَلٌّ ثقيل ، وسيفُ العَذْل فى كفٍّ صَقِيل ، أَعْذِل أهْل الهوى ، وليست النُّفوس فى القَبُول سَوا ، ولا لكلِّ من ضَرٍّ دَوا ، وقد شَفَيْتُ صَدْرى ، وإن جَهِلتُ قدْرى ، فاحْمِلنى حَمَلَكِ الله على الجادَّة الواضحة ، وسَحَب عليك سِتْر الأُبوَّة الصَّالحة ، والسَّلام .

ولما شَرَح كِتابَ « الشِّفا »[2] للقاضى أَبى الفَضْل عِياض بن موسى ابن عِياض رحمه الله ، واسْتَبْحر فيه ، طلب أهل العُدْوتين بنَظْم مقطوعات تَتَضَمَّن الثَّناء على الكِتاب المذكور ، وإطْراءَ مؤلِّفه ، فانْثال عليه من ذلك الطَّم والرَّم ، بما تعدَّدت منه الأوراق ، واخْتَلفت فى الإجادة وغيرها

---

(١) وردت فى الإسكوريال (الجيب) . ونعتقد أن التصويب أرجح .

(١) كتاب « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » هو أعظم كتب القاضى الإمام الحافظ عياض ابن موسى بن عياض اليحصبى السبتى المتوفى بمراكش سنة ٥٤٤ هـ . وسوف يترجم له ابن الخطيب فيما بعد فى حرفه العين .

الأَرزاق ، إيثاراً لِغَرضه ، ومبَادَرَةً من أهل الجهات لإسعاف أَرَبِه ، وطُلب مني أن أُلِمَّ فى ذلك بشيء ، فكتبت فى ذلك :

شِفا عياضٍ للصُّدور شِفاءُ ... وليس بفضل قد حَواه خفاءُ
هديَّةُ برٍّ لم يكن لجَزِيلها ... سوى الأَجرِ والذِّكرِ الجميل كَفاءُ
وفىَّ لِنَبىِّ الله حقَّ وفائه ... وأَكْرَمُ أَوصاف الكِرام وفاءُ
وجاء به بَحْرًا يقول بفضله ... على البَحْر طَعْمٌ طيِّبٌ وصفاءُ
وحقُّ رسول الله بعد وفاته ... رَعاه وإغفالُ الحُقوق جَفاءُ
هو الذُّخر يُغنى فى الحياة عَتاده ... ويَتْرُك منه اليقينُ رِفاءُ
هو الأَثَرُ المحمود ليس يَنالُه ... دُثُور ولا يُخْشى عليه عَفاءُ
حَرَصْت على الإطْناب فى نَشْر فضله ... وتَمْجِيده لو ساعدتنى فاءُ

واستزاد من هذا الغرض ، الذى لم يَقْنَع منه بالقليل ، فبعثتُ إليه من محل انتقالى بمدينة سَلا حرسها الله :

أَأَزاهير رياض ... أَم شفاءٌ لِعياض
جدَّل الباطلَ للحق ... بأَسياف مَواض
وجلا الأَنوار بُرهانًا ... بحَقٍّ(١) وافتراض
وشفى من يشتكى الغُلَّة ... فى زُرْق الحياض
أَىُّ بُنيان مُعارٍ(٢) ... آمنٍ فَوْق انقضاض
أَىُّ عهد ليس يُرمَى ... بانتكاث وانتقاض
ومَعانٍ فى سطور ... كأُسُود فى غِياض
وشفاءُ لصدور ... من ضَنى الجهل مُراض

---

(١) وردت فى الإسكوريال (بخلف) والتصويب من النفح .

(٢) هكذا فى الإسكوريال و فى النفح (مقال) .

حَرِّر القصد فما شينٌ بنقد واعتراض
يا أبا الفضل أدْر بأَنَّ الله عن سَعيك راض
فاز عبدٌ أقْرَض الله برُجحان القِراض
وجُنْت عزَّ المَزايا من طِوال وعِراض
لك يا أصْدق راوٍ لك يا أعْدَل قاض
لرسول الله وفَيْتَ بِجدٍّ وانتهاض
خيْرُ خَلْق الله فى حالٍ وفى آتٍ وماض
سدَّد الله ابنَ مرزوق إلى تلك المُراض
زُبدة العِرفان مَغْنى كلِّ نُسْك وارتِياض
فتوَلّى بَسْط ما أجْمَلتَ من غير انقِباض
ساهرٌ لم يَدْرِ فى استخلاصه طَعْمَ اغتِماض
إن يكن دَيْنا على الأيام قد حان التَّقاض
دام فى عُلُوٍّ ومن عاداه يهوى فى انخِفاض
ما وشَى الصُّبح الدَّياجى فى سوادٍ ببَياض

ثم نظمتُ له أيضاً فى الغرض المذكور ، والإكثار من هذا النمط ، فى هذا الموضع ، ليس على سبيل التَّبجُّح بغرابته وإجادته ، ولاكن على سبيل الإشادة بالشَّرح المشار إليه ، فهو بالغٌ غاية الإستِبْحار .

حُيِّيت يا مُخْتَطَّ سَبْت بن نوح بكل مُزْن يَغْتَدى أو يروح
وحمل الرِّيحان ريح الصَّبا أمانةً فى كُلٍّ إلى كلِّ روح(١)
دارُ أبى الفضل عِياض الذى أضحت برِيَّاه رياضاً تَفُوح
يا ناقِل الآثار يُعنى بها وواصلاً فى العلم جَرْى الجَمُوح

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى الاسكوريال . وفى النفح (أمانة فيك إلى كل روح) .

طِرفك فى الفخر بعيدُ المدا ... طَرفك للمجد شديدُ الطُّموح
كفاك إعجازاً كتاب الشِّفا ... والصبح لا يُنكر عند الوضوح
لله ما أجزلت فِينا به من ... مِنْحة تَقْصُر عنها المُنوح
روضٌ من العلم هَمَى فوقه ... من صَيِّب الفِكر الغمامُ السَّفوح
فمن بيان الحقِّ زَهْرٌ نِدٌ[(١)] ... ومن لسان الصِّدق طيرٌ صَدُوح
تأَرَّج العَرْف وطاب الجَنَى ... وكيف لا يُثمر أو لا يفوح
وحُلَّةٌ من طيب خير الورى ... فى الجَيب والأعطاف منها نُضوح
ومُعَلَّمٌ للدين شيَّدته ... فهذه الأعلام منه تَلُوح
فقل لهامان كذا أو فلا ... يامَنْ أضلَّ الرُّشْدتَبْنِى الصُّروح
فى أَحْسَن التَّقْويم أنْشأته ... خَلْقاً جديداً بين جِسْم ورُوح
فعُمْره المكتوب لا يَنْقضى ... إذا تَقَضَّى عُمْر سامٍ ونُوح
كأنَّه فى الحَفْل ريحُ الصَّبا ... وكلُّ عطف فهو غَضٌّ[(٢)] مَروح
ما عُذر مَشْغوفٍ بخير الورى ... إن هاج منه الذِّكر أنْ لا يَبُوح
عجبتُ من أكباد أهل الهوى ... وقد سطا البُعد وطال النُّزوح
إن ذُكر المحْبُوب سالت دِما ... ما هنَّ أكباد ولكن جُروح
يا سيِّدَ الأوضاع يا مَنْ له ... بِسَيِّد الإرسال فضْلُ الرُّجوح
يا مَنْ له الفخر على غيره ... والشُّهب[(٣)] تَخْفى عند إشراق يوح[(٤)]
يا خَيْر مشروح وفى واكْتَفى ... منه ابنُ مرزوق بخير الشُّروح

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بدا) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (غصن) .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (والشمس) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بوح) .

فَتْحٌ من الله حَبـــاه بـــه ومن جَناب الله تـأتى الفُتوح

مولده : بتلمسان عام أحد عشر وسبعماية[١]

محمد بن عبد الرحمن بن سعد التَّميمى التَّسِلى[٢] الـكَرْسوطى

من أهل فاس ، نزيل ما لَقة يكنى أبا عبد الله .

حـــاله

الشيخ الفقيه المُتَكلِّم أبو عبد الله ، غزيرُ الحِفْظ ، مُتَبحِّر الذِّكر ، عديم القَرين ، عظيم الاطِّلاع ، عارفٌ بأسماءِ الأَوضاع ، يَنْثال منه على المسايل كَثيب مَهِيل ، ينقل الفِقْه منسوباً إلى أمانة ، ومنوطاً برِجاله ، والحديث بأسانيده ومُتُونه ، خَوَّار العِنان[٣] ، وسَّاع الخَطْو ، بعيدُ الشأْو ، يفيض من حديث إلى فقه ، ومن أَدب إلى حكاية ، ويتعدى ذلك إلى غرايب المَنْظُومات ، مما يختصُّ بنظمه أُولو الشَّطارة والحِرفة من المغاربة ، ويستَظهر مُطوَّلات القِصاص ، وطَوابير الوُعَّاظ ، ومَساطير أهل الكُدْية ،فى أُسلوب وَقاحٍ يَفْضحه الإعراب ،حسن الخُلُق جمُّ الاحتمال ، مُطرِّح الوَقار ، رافضُ التَّصنُّع ، مُتَبَذِّل[٤] اللِّبْسَة ، رَحيب أَكْناف المرارة لأَهل الولايات ، يُلقى بمعاطِنهم البَرْك ، وينوط بهم الوسائل ، كثيرُ المشاركة

---

(١) جاء فى « جذوة الاقتباس » أنه توفى بعد الثمانين وسبعمائة (ص ٢٢٧). وورد فى هامش المخطوط ما يأتى بعد ذكر مولد ابن مرزوق : « قال الشيخ جلال الدين السيوطى فى تاريخ النحاة ، مات فى ربيع الأول سنة إحدى وثمانين وسبعمائة » . هذا ولم يكن من الميسور أن يذكر ابن الخطيب وفاته ، وقد توفى قبله بخمسة أعوام .

(٢) نسبة إلى قبيلة « تسولة » حدى قبائل البربر النازلة فى شمال غربى المغرب الأقصى .

(٣) خوار العنان أى سهل المعطف لينه .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . ومتبذل اللبسة أى غير معتن بملبسه وهندامه . وذلك بخلاف مبتذل اللبسة أعنى رث الملابس .

لوُصلايه ، مُخْصِبٌ على أَهل بيته ، حَدِبٌ على بَنيه . قَدِم على الأَندلس عام اثنين وعشرين وسبعماية ، فأَقام بالجَزيرة مقرياً بمسجد الصَّوّاع منها، ومسجد الرَّايات . ثم قدم على مالَقة وأقرأ بها ، ثم قدم على غرناطة عام خمسة وعشرين وسبعماية ، فتعرف على أَرباب الأَمر ، بما نجحت حيلتهُ ، وخفَّ به موقعه ، فلم يَعْدم صلةً ، ولا فقد مِرْفَقَةً ، حتى ارتاش وتأَثَّل بمحل سُكناه من مالقة ، مَدَرَةً مُغِلَّة ، وعقارا مفيدا . وطال قعوده لسَرْد الفقه بمسجدها الجامع ، نَميرٌ فى الركب ، مَهْجور الحَلَقة ، حَمْلا من الخاصَّة والعامَّة ، لتلَبُّسه بالعَرَض الأَدْنى . وهو الآن خطيب مسجد القصَبة بها ، ومحله من الشهرة ، بالحِفظ والاستِظْهار لفروع الفقه ، كبير .

مشيخته

قرأ القرآن على الجماعة بالمغرب والأندلس ، منهم أَبوه ، والأستاذ أَبو الحسن القِيجاطى البَلوى ، وأَبو إسحق الحريرى ، وأَبو الحسن بن سُليمن ، وأَبو عبد الله بن أَجْرُوم . وقرأ الفقه على أَبى زيد الجَزولى ، وعبد الرحمن بن عفَّان ، وأَبى الحسن الصغير ، وعبد المؤمن الجاناتى[١] ، وقرأ الكتاب بين يديه مدة ، ثم عَزَله ، ولذلك حكاية . حَدثنى الشيخ أَبو عبد الله الكرْسوطى ، المُترجم به ، قال قرأْتُ بين يديه ، فى قول أَبى سعيد فى التهذيب ، والدَّجاج والأوز المُخلات ، فقال أَنظر هل يُقال الدَّجاج أَو الجدّاد ، لغة القرآن أَفصح ، قال الله تعالى : وجُدَدٌ بيض ، [وحمرٌ مختلفٌ أَلوانها][٢] ، وغرابيب سُودٍ . فأَرزى به ، ونقل إليه إزاره[٣] ، فعزله . وقعد بعد ذلك للاقراءِ بفاس ، كذا حدث . وأَخذ عن

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الجذوة (الجناتى) .

(٢) هذه العبارة واردة فى « الزيتونة » وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) هكذا وردت فى « الزيتونة » . وفى الإسكوريال (أزراوه) .

أبي إسحق الزناتي[١] ، وعن خلف الله المجاصي ، وأبي عبد الله بن عبد الرحمن الجَزُولي ، وأبي الحسين المزدغي ، وأبي الفضل ابنه ، وأبي العبَّاس بن راشد العُمراني ، وأبي عبد الله بن رُشَيد . وروى الحديث بسَبْتة عن أبي عبد الله الغماري ، وأبي عبد الله بن هاني ، وذاكر أبا الحسن بن وشَّاش . وبمالقة عن الخطيب الصالح الطَّنجالي ، وأبي عمرو بن مَنظور . وبغرناطة عن أبي الحسن القِيجاطي ، وأبي إسحق بن أبي العاصي . وببلِّش عن أبي جعفر الزيات .

تواليفه

منها « الغُرَر في تكميل الطُّرر » ، طرر أبي إبراهيم الأعرج . ثم « الدُّرر في اختصار الطُّرر » المذكور . وتقييدان على الرسالة ، كبيرٌ وصغيرٌ ، ولخَّص « التهذيب » لابن بشير ، وحذف أسانيد المُصَنَّفات الثلاثة ، [البخاري ، والترمذي ، ومسلم][٢] ، والتزم إسقاط التكرار ، واستدراك الصِّحاح[٣] الواقعة[٤] في التهذيب على مسلم والبخاري . وقيّد على مختصر الطُّليطلي ، وشرع في تقييدٍ على قواعد الإمام أبي الفضل عِياض بن موسى ابن عياض ، برَسْم ولدي أسْعَدُه الله .

شـــعره

أنشدني ، وأنا أحاول بمالَقة لَوْث العمامة ، وأستعين بالغير على إصلاح العمل ، وإحكام اللِّياثة :

(١) هكذا وردت في الإسكوريال . وفي « الزيتونة » (البرناسي).
(٢) هذه الزيادة واردة في « الزيتونة » وساقطة في الإسكوريال .
(٣) وردت في الإسكوريال (الصحايح) . والتصويب من النفح
(٤) وردت في الإسكوريال ، وفي « الزيتونة » (المرافقة) .

أَمُعَمِّمًا قمرًا تكامل حُسنه ... أربى على الشمس المنيرة فى البَها
لا تلتمس مِمَّن لديك زيــادة ... فالبدرُ لا يَمْتار من نُور السُّها

ويَصدُر منه الشعر مُصَدَّراً ، لا تَكْنِفه العِناية .

محنتــه

أُسِر ببحر الزُّقاق[١] ، قادمًا على الأَندلس ، فى جُملة من الفضلاء ، منهم والده . واستقر بطَرِيف[٢] عام ستة وعشرين وسبعماية ، ولقى بها شدَّةً ونكالاً ، ثم سُرِّح والده ، لمحاولة فِكاك نفسه ، وفُكَّ ابنه ، ويَسَّر الله عليه ، فتخلَّصا من تلك المحنة فى سبيل كُدْية ، وأَفْلَت من بين أَنْياب مشقَّة .

بعض أَخباره

قال ، لقيتُ الشيخ ولى الله أَبا يعقوب بساحل بادس[٣] ، قاصداً الأَخذ عنه ، والتَّبرك به ، ولم يكن رآنى قط ، وأَلفيتُ بين يديه عند دخولى عليه ، رجلاً يقرأُ عليه القرآن . فلما فرغ ، أَراد أَن يقرأَ عليه أَسْطُراً من الرِّسالة ، فقال له ، اقْرأْها على هذا الفقيه ، وأَشار إلىَّ ، ورأَيْتُ فى عَرْصةٍ له أُصول خَصٍّ ، فتمَنَّيت الأَكل منها ، وكان ربَّاعها غير حاضر ، فقام عن سُرعةٍ ، واقتلع منها أُصولا ثلاثة ، ودَفَعها إلىَّ ، وقال كُل . فقلت فى نفسى ، تصرف فى الخَضْرة قبل حضور ربَّاعها ، فقال لى ، إذا أَردت

---

(١) بحر الزقاق ، يطلق على الطرف الغربى الضيق من البحر المتوسط ، الواقع شرقى جبل طارق أو جبل الفتح ، فيما بين ثغر المرية شمالا ومليلة جنوبا . وقد يشمل مضيق جبل طارق نفسه .

(٢) ثغر طريف أو جزيرة طريف . سبق التعريف به (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ٣٧٤ حاشية) .

(٣) بادس أو باديس ثغر مغربى صغير يقع على شاطىء البحر المتوسط الجنوبى مقابل ثغر مالقة الأندلسى ، وغربى ثغر مليلة الإسبانى .

الأكل من هذه الخَضْرة ، فكُل من هذا القسم فإنَّه لى . قلت ، وخَبَرْتُ من اضطِّلاع هذا المترجم به بعبارة الرُّؤيا ، ما قضيت منه العَجَب فى غير ما شيء جَرَّبتُه . وهو الآن بحاله الموصوفة . وأصابه لهذا العهد جلاءٌ عن وطنه ، لتوفر الحَمْل عليه من الخاصِّ والعامِّ ، بما طال به نَكَده . ثم آلَتْ حاله إلى بعض صلاحٍ ، والله يتولاَّه .

مولده : بمدينة فاس عام تسعين وستماية .

محمد بن عبد المنعم الصَّنهاجى الحميرى

يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن عبد المنعم ، من أهل سَبْتة ، الأُستاذ الحافظ .

حـــاله

من « العايد » : كان رحمه الله رجلَ صِدْقٍ ، طيِّب اللهجة ، سَلِيم الصدر ، تام الرُّجولة ، صالحاً ، عابداً ، كثير القُرب والأَوْراد فى آخر حاله ، صادق اللسان . قرأ كثيراً ، وسنُّه تنيف على سبع وعشرين ، ففات[١] أهل الدُّؤب والسَّابقة ، وكان من صدور الحُفَّاظ ، لم يَسْتَظْهِر أحدٌ فى زمانه من اللُّغة ما استَظْهره ، فكاد يستظهر كتاب التَّاج للجَوْهرى وغيرَه ، آيةً تُتلى ، ومثلاً يُضْرب ، قايماً على كتاب سيبويه ، يَسْرُده بلَفْظه . اختبَرَهُ الفاسيون فى ذلك غير ما مرة . طبقةٌ فى الشطرنج ، يلعَبُها محجوباً ، مُشاركاً فى الأُصول آخذاً فى العلوم العقلية ، مع المُلازمة للسُّنَّة ، يُعرب أبداً كلامَه ويزينه .

---

(١) وردت فى الإسكوريال (فساى) والتصويب من « الزيتونة » .

مشيخته

أخذ ببلده عن الأُستاذ أَبي إسحق الغافِقى ، ولازَم أَبا القاسم بن الشَّاط ، وانتفع به وبغيره من العلماء .

دخوله غرناطة

قدم غَرْناطة مع الوفد من أَهل بلده ، عند ما صارت إلى إيالة الملوك من بنى نَصْر ، لما وصلوا بالبَيْعة .

وفاته : كان من الوَفد الذين استأْصلهم الموَتان [عند][1] مُنْصرفهم عن باب السلطان ، ملك المغرب ، بأَحْواز تيزى[2] ، حسبما وقع التَّنبيه على بعضهم .

محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن إدريس بن سعيد ابن مسعود بن حسن بن محمد بن عمر بن رُشَيْد الفهرى

من أَهل سبتة ، يكنى أَبا عبد الله ويعرف بابن رُشَيد

حـــاله

من « عايد الصلة » : الخطيبُ المحدِّثُ ، المُتبَحِّر فى علوم الرِّواية والإسناد . كان رحمه الله فريدَ دهره عدالةً وجلالةً ، وحِفْظاً وأَدباً ، وسَمْتاً وهدياً ، واسع الأَسْمِعة ، عالى الإسناد ، صحيح النَّقل ، أَصيل الضَّبط ، تام العناية بصناعة الحديث ، قيما عليها بصيرا بها ، محققا فيها ، ذاكراً فيها للرجال ، جمَّاعةً للكُتُب ، محافظاً على الطَّريقة ، مضطَّلعاً بغيرها ،

---

(١) أضفنا هذه الكلمة لاستقامة السياق

(٢) بلدة تازة المغربية ، وهى تقع شمال شرق فاس .

من العربية واللغة والعَرُوض ، فقيهاً أصيل النَّظر ، ذاكراً للتفسير ، ريّان من الأَدب ، حافظاً للأَخبار والتواريخ ، مُشاركاً فى الأَصْلَين ، عارفاً بالقراءات ، عظيم الوقار والسَّكينة ، بارع الخَطّ ، حسن الخُلُق ، كثير التَّواضع ، رقيق الوَجْه ، مُتَجمِّلاً ، كَلِف الخاصة والعامَّة ، مبذول الجاه والشَّفاعة . كَهْفاً لأَصناف الطَّلَبة . قَدِم على غَرْناطة فى وزارة صديقه ، ورَفيق طريقه فى حجِّه وتَشْريقه ، أَبى عبد الله بن الحَكِيم ، فلقى برًّا ، وتقدَّم للخطابة بالمَسْجد الأَعظم ، ونَفَع الله لَديْه بشفاعته المبْذُولة ، طايفةً من خَلْقِه ، وانصرف إثْر مَقْتلِه إلى العُدْوة ، فاستقرَّ بمدينة فاس ، معظَّماً عند الملوك والخاصَّة ، معروف القَدْر عندهم .

مشيخته

[قرأَ ببلده سَبْتَة على الأُستاذ إمام النُّحاة أَبى الحسن بن أَبى الربيع كتاب سيبويه ، وقيد على ذلك تقييداً مفيداً ، وأَخذ عنه القراءات . وأَخذ أَيضاً عن الأُستاذ أَبى الحسن بن الخطَّار . ورَحَل من بلده سبتة لأَداء الفريضة . حَجَّ ولَقِى المشايخ عام ثمانية وثمانين وسمّاية ، فوافى فى طريقه الحاجَّ المحدِّث الرَّاوية ، ذا الوزَارتين بعد ، أَبا عبد الله الحَكِيم ، وأَخذ عن الجِلَّة الذين يُشَقّ إحْصاؤُهم . فمِمَّن لَقِى بإفريقية الرَّاوية العَدْل أَبا محمد عبد الله بن هارون يرْوى عن ابن بقىّ ، والأَديب المتَبَحِّر أَبا الحسن حازم ابن محمد القرطاجنىّ . وروى بالمشْرق عن العَددِ الكثير كالإمام جار الله أَبى اليُمْن بن عساكر ، لقيه بباب الصَّفا تِجاه الكَعْبة المُعَظَّمة ، وهو موضعُ جلوسه للسَّماع ، غرَّة شوال عام أربعة وثمانين وسمّاية ، وعن غيره ، كأَبى العِزّ عبد الرحمن بن عبد المنعم بن على بن نصْر بن مَنْظور بن هبة الله

وغيرهم ممن ثَبَت فى اسم مُرافقة فى السَّماع والرِّحلة أَبى عبد الله بن الحكيم رحمه الله ، فليُنْظر هنالك][١]

تواليفــــه

أَلَّف فوايدَ رحلته فى كتاب سمَّاه « ملء العَيْبَة فيما جُمع بِطُول الغيْبَة فى الوُجْهتين[٢] الكَريمتين ، إلى مكَّة وطِيبة » ، قال شيخنا أَبو بكر ابن شِبْرين ، وقفتُ على مُسْوَدَّته ، ورأَيتُ فيه فنوناً وضروباً من الفوايد العِلْمية والتاريخ، وطَرْفاً من الأَخبار الحِسان ، والمُسْندات العَوالى والأَناشيد. وهو ديوانٌ كبير[٣] ، ولم يُسبق إلى مثله ،قُلْتُ ورأَيتُ شيئاً من مُخْتَصره بسَبْتَة .

دخوله غــرناطة

ورَد على الأَندلس فى عام اثنين وتسعين وستماية ، فعَقَد مجالِس للخاصِّ والعام،يُقرى بها فنوناً من العِلْم ، وتقدَّم خطيباً وإماماً بالمسجد الأَعظم منها . حدَّثنى بعضُ شيوخنا ، قال ، قَعَد يوماً على المِنْبَر ، وظنَّ أَن المُؤَذِّن الثالث قد فرغ ، فقام يَخْطُب والمؤَذِّن قد رفع صوته بآذانه ، فاستعظم ذلك بعضُ الحاضرين ، وهمَّ آخر بإشعاره وتَنْبيهه . وكلَّمه آخر ، فلم يُثْنه ذلك عَمَّا شرَع فيه ، وقال بديهةً ، أَيُّها الناس ، رَحِمَكم الله ، إنَّ الواجب لا يُبْطِله المَنْدوب ، وأَن الأَذان الذى بعد الأَوَّل غير مَشْرُوع الوُجوب ، فتأَهَّبوا لطلب العلم ، وانتَبهوا ، وتذكَّروا قوله عزَّ وجلَّ :

---

(١) نقلنا مشيخة ابن رشيد عن مخطوط الزيتونة . وهى ساقطة فى الإسكوريال . وفقط أورد عنها الناسخ هذه العبارة (قلت اختصرتها لطولها ولكونها تأتى فى اسم مرافقه فى السماع والرحلة أبى عبد الله بن الحكيم رحمه الله) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الجهتين) .

(٣) وردت فى الإسكوريال (كثير) والتصويب من الزيتونة .

وما أتاكم الرَّسول فخذُوه ، وما نَهاكم عنه فانْتَهُوا ، وقد رُوِّينا عنه صلى الله عليه وسلَّم ، أنه قال ، مَنْ قال لأَخيه والإمام يَخْطُب ، أُصْمُتْ ، فقد لغا ، ومن لغا فلا جُمْعَةَ له . جَعَلَنا الله وإيَّاكم مِمَّنْ عَلِم فَعَمِل ، وعَمِل فَقُبِل ، وأَخْلَص فتَخَلَّص . وكان ذلك مما اسْتُدِلَّ به على قُوَّة جَنانه ، وانقِياد لِسانه لبَيَانِه .

شــعره

وله شعر يتكلفه إذ كان لايَزِن أعاريضه إلاَّ بميزان العَرُوض ، فمن ذلك ما حدَّث به ، قال لما حَلَلْتُ بدمشق ، ودخلتُ دار الحديث الأَشْرَفِيَّة ، برَسْم رُؤْية النَّعْل الكَريمة ، نَعْلِ المُصْطفى صلوات الله عليه ، ولَثمْتُها ، حَضَرَتْنى هذه الأَبيات :

هنيئاً لعينى أن رأَتْ نَعْل أَحْمَدِ ... فيا سَعْدُ جَدِّى قد ظَفِرْت بأَسْعَد (١)
وقَبَّلتُها أَشْفِى الغَليل فزادنى ... فيا عَجَبا زاد الظَّما عند مَوْرِد
فللّه ذاك اللَّثْم فهو أَلَذُّ مِن ... لِما شَفَةٍ لَمْيا وخَدٍّ مُوَرَّد
ولله ذاك اليوم عيدًا ومعْلماً ... بتاريخه أَرَّخْتُ مَوْلد أَسْعَد
عليه صلاةٌ نَشْرُها طَيِّبٌ كما ... يُحبُّ ويَرْضى ربُّنــا لمحَمَّد

[وقال ، وقلت فى موسم عام ستة وثمانين وستماية ، بِثَغْر سَبْتة حرسها الله تعالى :

أقول إذا هبَّ النَّسيم المُعَطَّــر ... لعلَّ بشيراً باللقــاء يُبشّــر
وعالى الصَّبا مرَّت على رَبْع جِيرتى ... فعَنْ طِيبهم عَرْفُ النَّسيم يُعبِّر
وأَذكر أَوقاتى بسَلْمَى وبالحِمى ... فتَذْكو لَظىً فى أَضْلعى حين أَذْكُر
ربوعٌ يودُّ المِسْك طِيبَ تُرابها ... وبهوى حصىً فيها عقيقٌ وجوهر

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى « الجذوة » (بمقصدى) .

بها جيرةٌ لا يَخْفِرون بذِمّةٍ هُمْ لمواليهم جَمالٌ ومَفْخَرُ
إذا ما اجْتَلت زُهْرُ النجوم جمالَهم تغار لباهي نُورهم فتغَوَّر
ومن جُود جَدْواهم يُرى اللَّيْثُ يَغْمُر ومن خَوْف عَدْواهم يَذْعُر
ومن سَيْب يمناهم يُرى الرَّوض يزهر ومن فَيض نَعْماهم يُرى البحر يَزْخُر
رَعى الله عَهْداً بالمُصَلَّى عَهِدتُه وروضُ المُنَى غَضٌّ يرِقُّ ويَنْضُر
زماناً نَعِمنا فيه والظلُّ وارفٌ بجنّات عَدْن تحتَها العَذْب يَخْضَر
ولله أيامُ المُصَلَّى وطيبُها وأنفُسُنا بالقُرْب والأُنْس تُجْبَرُ
بحيث يُرى بدرُ الكمال وشمسُه وروضتُه فِرْدَوسٌ وحوضٌ ومِنْبَرُ
أَروم دُنُوًّا من بَهاء جَمالها ولَثْماً فتَأْبَى هَيْبةً وتَوَقُّر
خضعتُ وذُلِّى للحبيب تعزُّزٌ فطَرْفِىَ مَغْضُوض وخدِّى مُعَفَّر
ووجهُ سروري سافرٌ مُتهلِّلٌ وحالى بهم حُلَلٌ وعَيْشى أَخْضَرُ
فطُوبى لِمنْ أضحى بِطيبَةَ ثاوياً يجرُّ أذيال الفَخَار ويَنْشُر
وإذ فات عَيْنى أن تَراهم فردِّدوا على مسْمعى ذكر المُصَلَّى وكرِّروا
وَرَدْتُ فياطيب الوُرود بطيبةَ صَدَرْتُ فواحُزْنى فلا كان مَصْدَرُ
رَمانى زَمانى بالفِراق فغرَّنى على مِثل مَنْ فارقتُ عَزَّ التَّصبر
وأَضْمَرتُ أشجانى ودمعى مُظْهِرٌ وأَسْرَرْتُ هِجْرانى وحالى تُخَبِّر
فَمِن أَدْمُعى ماءٌ يَفيضُ ويَهْمُر ومن أَضْلُعى نارٌ تفُور وتَسْعَر
فجسمى مُصْفَرٌّ وفَوْدى أبيضُ وعَيْشِى مُغْبَرٌّ ودمعى أَحْمَرُ
وحين دنا التَّوديع ممَّن أُحِبُّه وحان الذى مازلت منه أَحْذَر
ونادى صِحابى بالرَّحيل وأَزْمَعوا وسارت مطاياهم وظِلتُ أُقهقِر
وأَأْوى إليه الجيد حتى وجَعْته وظلَّ فؤادى لَوْعةً يتفطَّر
وقفتُ لأَقْضِى زَفْرةً وصَبابة ولا أَنْثَنى فالموت أجْدى وأَجْدَرُ

ولو أَنَّنى بعتُ الحيـاة بنظـرةٍ | لأَبَتْ وحظِّى فيه أَوْفى وأَوْفـــر
وما باختِيارى إنما قَدَرٌ جـــرى | رضيتُ بما يَقْضى الإله ويُقْدر
حَنِينى إلى مَعْنى الجمـــال مواصل | وشوق إلى مَعْنَى الجمـال مُوَفَّـر
وغيرُ جميل أَن يُرى عن جمالهـــا | فؤادى صَبُوراً والمَسِير مُيَسَّـرُ
أَيَصْبُر ظمآنٌ يُغـال بغُـــــلَّة | وفى روضة الرِّضوان شَهْدٌ وكوثر
فيا عَيْنَها الزَّرقاءَ إِنَّ عُيونهـــا | من الحُزْن فيضٌ بالنَّجِيع تُفَجَّـر
سأَقطع لَيلى بالسُّرى أَو أَزورُهـــا | وأَحمى الكَرَى عيناً لبعدك يظهر
وأُنْضِى المطايا أَو أُوافى رَبْعهـــا | فَتُنْجِدُنى طَوْراً وطوراً تُغَوِّر
حظَرتُ على نفسى الحِذار من الرَّدى | أَتَحْذَرُ نَفْسُ الحبيب تُسَـيِّر
أَيُنْكر تَغْـرير المشُوق بنفســـه | وقد علموا أَنَّ المُحبَّ مُغَـرَّر
وقفتُ على فَتْوى المحبِّين كلِّهم | فلم أَجد التَّغرير فى الوَصْل يُنكر
وإِنى إذا ما خَطْرَةٌ خطَرت قَضَـــــت بهَمِّى وعَزْمى همَّةٌ لا تأَطَرُ
أُقِيمُ فأُلْفِى بين عَيْنَىْ هِمَّـــتى | وسَيْرى فى سُبُل العُلا ليس يُنكر
إذا ما بَدَت لِلعين أَعــلام طِيبـــةَ ولاحت قِبابٌ كالكواكب تَزْهَر
وللقُبَّة الزَّهراءِ سَمْكٌ سَما عُـــلاً | وراق سَنًى كالشمس بل هو أَزْهَرُ
لها مَنْظَرٌ قَيْدُ النَّواظر والنُّهى | لها ساكنٌ من نـورد البَدْرُ يبدُر
فعرِّجوا على كَمَلِ الكمال وسلِّموا | سَلِمتم وبُلِّغتم مُنـاكم فأَبْشِروا
بنفسى لا بالمال أَرْضَى بِشارة | إذا لاح نورٌ فى سَناها مُبَشِّـر
وما قَدْرُ نَفْسى أَن تكـون كفاً | ولكنها جُهْد[1] المُقِلِّ فأُعْـذَر
أَقول إذا أَوْفَيْتُ أَكرم مُرسَـلٍ | قِراىَ عليكم أَنَّ ذنبى يُغْفَـــر
وأَحْظى بتَقْريب الجِوار مُكَرَّماً | وأَصفحُ عن جَوْر البُعـاد وأَعذر

---

(١) وردت فى الإسكوريال (جهل) والتصويب أرجح .

وأرْتَع فى ظلّ الجِنـان منعّماً … وأُمْنى بقُرْبٍ من حِمـاك وأُجْبَر
هُناك هناك القُرْب فانعِم بنَيْله … بحيث ثَوى جِسْمٌ كريمٌ مُطَهَّر
ودَعْ عنك تَطْواف البـلاد وخَيِّمن … بطيبة طابَتْ فهى مسكٌ وعَنْبـر
فَخَرْتُ بمَدْحى للنَّبىِّ محمد ومن … مدَّحه المدَّاح يزهى ويفخـر
أَطلتُ وإنِّى فى المديح مُقَصِّـر … فكلُّ طويلٍ فى معاليك يُقَصِّـر
فما بَلَغت كفُّ أمرى متناولٌ بهـا … المجدَ إلاَّ والذى نِلتَ أكبـرُ
وما بلغَ المُهدون فى القول مِدْحةً … وإن أَطنَبوا إلاَّ الذى فيك أَفْخَرُ
عليك صلاةُ الله ما مرَّ سـبقٌ … إليك وما هبَّ النَّسيم المعَطَّـر

وقال يرثى إبنا نجيباً ثَكله بغرناطة :

شبابٌ ثَوى شابتْ عليه المفارق … وغُصن ذَوى تاقت إليه الحدايق
على حين راق النَّاظرين بسـوقه … رَمَتـه سـهامٌ للعيـون رَواشـق
فما أَخْطَأت منه الفؤادَ بعَمْدهـا … فلا أَبْصَرَتْ تلك العيـون الرَّوانق
وحين تَـدانَى للكمـال هِلالُـه … أَلمَّ به نَقْـصٌ وجَـدَّت مَواحق
إلى الله أَشكو فهو يُشكِى نوازعـاً … عِظـاماً سـطاها للعِظـام عَوارِق
ولا مثلُ فُقدان البَنىِّ فجيعـةٌ … وإن طـال ما لجَّت وجلَّت بوايق
محمدُ إن الصَّبر صَبْرٌ وعلقـمٌ … على أنه حُلْو المثُوبة سـابق
فإن جَزَعاً فالله للعَبْد عـاذِر … وإن جَلَداً فالوعد لله صـادق
وتالله مـا لىَ بعد عَيْشِك لـذَّةٌ … ولا راقنى مَرْأى لعَيْنى رايـق
فأنّى بـه والمذكرات عديـدةٌ … فنُبلٌ وهَمٌّ للعوايد خـارق
فأَين التفَتُّ فالشخص للعين ماثل … وإن أَسْتَمع فالصَّوت للأُذْن طارق
وإن أدْعُ شخصاً باسمه لضرورة … فإن اسمَك المحبوبَ للنُّطق سابق
وإن تقرعَ الأَبواب راحةُ قـارع … يطيرُ عندها قلبٌ لِذكْرك خـافق

وكلٌّ كتاب قد حويتَ فمُذْكَـرٌ ... وآثـــاره كلٌّ إليــك توايـــق
سبقتَ كهولةً فى الطُّفولة لا تَنِى ... وأَرْهَقْتَ أشياخاً وأنت مُراهــق
فلو لمْ يُغِلْك الموْتُ دُمتَ مَجْليًّا ... واقبل سِكِّيتاً وجيبةً ولاحِـــق
على مَهَلٍ أحرزتَ ما شيتَ ثانِيـاً ... عِنانَك لا تَجْهد وأنت مُســابق
رأتك المنايا ســابقاً فأَغْرَتَهـــا ... فجُـدٌّ طِــلاباً إنَّهــن لَواحــق
لِينْ سُلِبت منِّى نفيسُ ذخـــائر ... فإنِّى بمذخُور الأُجُــور لواثــق
وقد كان ظَنِّى أنَّنى لك ســابقٌ ... فقد صـار عِلمى أنَّنى بك لاحق
غَريبين كُنَّا فرَّق البَيْنُ بيننـــا ... فأَبْرَحُ ما يَلْقى الغريبُ المُفارق
فبَيْن وبعدٌ بالغـــريب توكُّلاً ... قد رعى بما حَمَلْتُ والله ضـايق
عسى وطنٌ يَدْنُو فتدْنُو مُنًى ... وأىُّ الأمــانى والخطوبُ عوايق
فلولا الأَسى ذاب الفؤاد من الأَسى ... ولولا البُكا لم يَحْمل الحُزْنَ طايق
فخطُّ الأَسى خطًّا تروقُ سـطورُه ... وتَمْحو البكا فالدَّمع مــاحٍ وساحق
فياواحداً قد كان للعين نُورهـا ... اتلُ ضِيًّا بَعْدَ بُعْدك غاســـــق
عليك سلام الله ما جَنَّ ســاجعٌ ... وما طلعت شمسٌ وما ذرَّ شارق
وما هَمَعَتْ سحبٌ غَوادٍ روايِــحٌ ... وما لَمَعت تَحْدُو الرَّعودُ بوارق
وجاد على مثواك غيثٌ مــروضٌ ... عبَّادٌ لِرضوان الإلَه موافق][١]

محنتــه

تعرَّض إليْه قومٌ ، يوم قتل صديقه أَبى عبد الله الحكيم بإذايةٍ قبيحة ، وأُسمع كل شارق من القول على أَلسنة زَعانفة فُجَّر وتَرَهم القتيلُ، فتخلَّص ولا تَسَلْ كيف ، وأزمع الرَّحيل فلم يلبث بعد ذلك .

وفاته : كانت وفاته بمدينة فاس ، فى اليوم الثامن من شهرم المحرم

(١) هذا الشعر كله وارد فى الإسكوريال ، وساقط فى الزيتونة .

مفتتح عام أحد وعشرين وسبعماية . ودفن فى الجبانة التى بخارج باب الفُتوح بالرَّوضة المعروفة بمطْرح الجنَّة ، التى اشتملت على العلماء والصلحاء والفضلاء ، من الغرباء الواردين مدينة فاس . وكان مولده بسبتة عام سبع وخمسين وستماية .

محمد بن على بن هانى [اللَّخمى] [1] السَّبْتى

يكنى أبا عبدالله ، ويعرف باسم جدِّه ، أصلهم من إشبيلية .

حــــاله

كان رحمه الله فريدَ دهره فى سمُوِّ الهمَّة ، وإيثار الاقتصاد والتَّحلِّى بالقناعة ، وشُموخ الأَنْفِ على أهل الرِّياسة ، مُقتصراً على فايدة [2] رَبْعٍ له ببلَده ، يتَبَلَّغ مع الاستقامة ، مع الصَّبر والعمل على حفظ المروءة ، وصَوْن ماءِ الوَجْه ، إماماً فى علم العربيَّة ، مبرِّزاً متقدماً فيه ، حافظاً للأَقوال ، مُسْتوعباً لطريق الخلاف ، مُستحضراً لحُجَج التَّوجيه ، لا يُشَقُّ فى ذلك غُبارُه ، ريَّان من الأَدب ، بارع الخَطِّ ، سهلَ مَقادة الكلام ، مُشاركاً فى الأَصْلين ، قايماً على القِراءَات ، حَسِن المجلس ، رايق البِزَّة ، [بارع] المحاضرة ، فايق التَّرسُّل ، متوسط النَّظم ، كثير الاجتهاد والعكوف ، مليح الخُلق ، ظاهر الخشوع ، قريبَ الدِّمعة ، بيته شهير الحسَب والجَلالة .

وجرى ذكره فى « الإكليل الزاهر » [3] بما نصه : عَلَمٌ تشير إليه الأَكفُّ

---

(١) هذه الزيادة من الزيتونة .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (فايد) .

(٣) كتاب «الإكليل الزاهر » من كتب ابن الخطيب الصغرى وقد سبق التعريف به (أنظر مقدمة المجلد الأول من الإحاطة ، ص ٥٨ ، والمجلد الثانى ص ٣٤١ حاشية) .

ويعمل إلى لقايه الحافر والخُفّ، رفع للعربيَّة ببلده رايةً لا تتأخر ، ومرَج منها لُجَّة تزْخَر ، فانفسخ مجالُ درسِه ، وأثمرت أَدْواح غَرْسِه ، فركَضَ بما شا وبرَّح ، ودوّن وشرَح ، إلى شمايل تَمَلَّك الظَّرفُ زمامها ، ودُعابة راشَتْ الحلاوة سِهامها . ولما أخذ المسلمون فى مُنازلة الجَبَل(١) وحِصاره ، وأصابوا الكُفر منه بجارِحة أَبْصاره ، ورَمَوا بالثُّكل فيه نازح أَمْصاره ، كان ممن انتُدب وتطوّع ، وسمع النِّدا ، فأهطع ، فلازمه إلى أَن نَفِدلأَهله القُوت ، وبلغ من فَتْحة الأَجل الموْقوت ، فأَقام الصَّلاة بمحرابه ، وقد غيَّر مُحيَّاه طولُ اغترابه ، وبادَرَه الطَّاغية قبل أَن يستقرَّ نصلُ الإسلام فى قِرابه ، أَو يَعْلُق أَصلُ الدِّين فى تُرابه . وانتُدب إلى الحصار به وتبرّع ، ودعاه أَجلُه فلبَّى وأَسرع . ولما هَدَر عليه الفَتِيق ، [وركعت إلى قِبْلَته المجانيق](٢) ، أُصيب بحَجَر دوَّم عليه كالجارح المُحَلِّق ، وانقضَّ إليه انقضاض البارق المتألِّق ، فاقْتَنَصه ، واخْتَطفه ، وعمد إلى زَهْره فقَطَفه(٣) فمضى إلى الله طَوْع نيَّته ، وصَحِبَتْه غَرابة المنازع حتى فى مَنِيَّته .

مشيخته

قرأ على الأُستاذ العلاَّمة أَبى إسحق الغافقى ، وعلى الأُستاذ النحوى أَبى بكر بن عُبيدة ، واعتمد عليه ، وقرأ على الإمام الصالح أَبى عبد الله ابنُ حُريث .

تواليفه

أَلَّف كُتُباً، منها كتاب «شرحُ التَّسهيل لابن مالك»، وهو أَجلُّ كتبه،

---

(١) الجبل يقصد بها جبل طارق أو جبل الفتح .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى النفح (وركع إلى قبلة المنجنيق) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (فاقتطفه) .

أَبْدَع فيه ، وتنافس [الناس][١] فيه . ومنها « الغُرَّةُ الطَّالعة فى شعراءِ المائة السابعة » ، ومنها « إنشاد الضَّوَّال ، وإرشاد السُّوَّال فى لحن العامة » ، وهو كتاب مفيد ، « وقوت المُقيم » . ودوّن ترسُّل رييس الكتَّاب أبى المُطَرِّف بن عَميرة وضمه فى سفرين . وله رجز فى الفرايض مفيد

شــعره

حدَّثنا شيخُنا القاضى الشَّريف ، نسيجُ وحده ، أَبو القاسم الحسنى ، قال : خاطبت الأُستاذ أَبا عبد الله بن هانى رحمه الله بقصيدة من نظمى أَولها :

هلَّت الحديثَ عن الكَرْب الذى شَخصـــا

فأَجابنى عن ذلك بقصيدة فى رَوِيِّها :

لولا مَشيبٌ بفَوْدى للفؤاد عَصـــا ... نَضَيْتُ فى مُهمَه التَّشْبِيب لى قَلصا
واستوقفت عَبَراتى وهى جـــاريةٌ ... وكفاءٌ توهمٌ[٢] رَبْعًا للحبيب قَصا
مُسايلاً عن لَياليه التى انْتَهَزَت ... أيدى[٣] الأَمانى بها ماشِيتَه فُرَصـــا
وكنتُ جاريتُ فيها من جرى طَلْقاً ... من الإجــادة لم يُحْجم ولا نَكَصا
أصـــاب شاكِلة المَرْمَى حين رَمَى ... من الشَّـوارد ما لولاه ما اقْتَنَصـــا
ومن أعدَّ مكان النُّبل نُبْــــل حِجاً ... لم يَرْض إلاَّ بأَبكار النُّهى قَنَصا
ثم انْثَنَى ثانياً عَطْف النَّسيب إلى ... مَدْحٍ به قد غلا ما كان قد رَخصا
فظِلتُ[٤] أرفل فيها لِبْسةً شرُفت ... ذاتًا ومُنْتَسبًا أعْزِز بــه قَمصـــا

(١) الزيادة من النفح .
(٢) وردت فى الإسكوريال (يومم) . والتصويب من النفح .
(٣) وردت فى الإسكوريال (فيها) . والتصويب من النفح .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى النفح .

يقول فيها وقد خُوِّلتُ مِنْحتها | وجُرِّع الكاشحُ المُغْرَى بها غُصَصا
هذى عَقايلُ وافَتْ منك ذا شرفٍ | لولا أياديه بِيع الحَمْدُ مُرْتخصا
فقلت هلاَّ عكستَ القول منك له | ولم يكن قابلا من مَدْحه الرُّخْصا
وقلت ذى بِكْر فِكرٍ من أخى شرفٍ | يُرْدى ويُرْضى بها الحُسَّاد والخُلَصا
لها حَلْىُ حُسْنِيَّاتٍ على حُلَلٍ | حُسْنِيَّةٌ تَشْتَبى من حلَّ أو شَخَصا
خُوِّلْتُها وقد اعتزَّت ملابسها | بالبَخْت ينقاد للإنسان ما عَوِصا
خُذْها أبا قاسم منِّى نتيجةَ ذى | وُدٍّ إذا شِيت وُدًّا للوَرى خَلَصا
جاءت تجاوب عما قد بعثتُ به | إن كنت تأْخذ من(١) درَّ النحور حَصا

وهى طويلة . ومما ينسب إليه ،وهو مليح فى معناه :

ما للنَّوى مُدَّت لغير ضرورة | ولقَبْل ما عهدى بها مَقْصوره
إن الخليل وإن دَعته ضرورة | لم يَرْضَ [ذاك](٢) فكيف دون ضروره

وقال مضمِّنا :

لا يَلُمنى عاذِلى حتى(٣) يرى | وجه من أهوى فلَوْمى مستحيل
لو رأى وَجْه حبيبى عاذلى | لتفارَقْنا على وجْه جميل

وقال فى الفخر :

قل للمُوالى عِشْ بغِبْطة حامد | وللمُعادى بِتْ بضِغْنة حاسد
المُزْن كفِّى والثُّريَّا همَّتى | وذكا ذكرى والسُّعود مقاصد

وقال فى غير ذلك .

غَنِيتُ بى دون غيرى الدَّهر عن مثل | بعضى لبعضى أَضْحَى يَضْرِب المثلا

---

(١) وردت فى الإسكوريال (عن) . والتصويب من النفح .
(٢) هذه الزيادة من « الزيتونة » والنفح .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (حين) .

ظَهْرى انحنى لمشيبٍ لاح واعجَبا غضٌّ إذا أينعت أزهاره ذَبُلا
أذلك أم زُهرٌ لاحَت تخبِّر أن يوم الصِّبا والتَّصابى آنس الطَّفَلا

ومما جَمع فيه بين نظمه ونثره ، ما راجع به شيخَنا القاضى الشريف أبا القاسم الحسنى،عن القصيدة الهمزية التى ثبتت فى اسمه :

يا أوْحَد الأُدبا أو ياأوحد الفُضلا أو ياأوحد الشَّرفاء
من ذا تراه أحقَّ منك إذا التَوَتْ طرقُ الحِجاج بأن يجيب نداء
أدبٌ أرقُّ من الهواءِ وإن تَشا فمن الهوى والماءِ والصَّهباء
وألذُّ من ظُلْم الحبيب وظُلْمه بالظَّاءِ مفتوحاً وضمِّ الظَّاء
ما السِّحْر إلاَّ ما تَصُوغ بنانُه ولسانُه من حِلْيَة الإنشاء
والفضلُ ما حلَّيتَه وحَبَيتَه وحَبَوْتَنى منه بخير حِباء
أبكارُ فكرِك قد زُفِّفَت بمدْحَتى تمشى روايعها على استحياء
لا من قُصورٍ بل لتُقْصيها من حيثُ لم يَظْفَرنَّ بالإرْفاء
لاكن جُبِرن وقد جُبلن[1] على الرِّضا فالجَبْر للأَبكار للإباء
هذا إلى الشَّرف الذى قد فزتَ من عليائه بالعِزَّة القَعْساء
شرفُ السَّليل من الرسول وسيلةٌ قامت بابن سَنًا وابن سَنَّاء
حسنٌ وأبو حسن وفاطمة ابنة الهادى البرِيَّة خاتَم النُّبلاء
شرفٌ على شرفٍ إلى شَرَفين من ذا حاز ما حُزْت من عَلْياء
هذى ثلاثٌ أنت واحدُ فخرِها فاشْمَخ لها شرفاً بأنفِ علاء
من رام رُتْبتك السَّنية فليقِف دون المرام مواقفَ الإقصاء
هذى مآثرُ قد شَأَوْتَ بصيتها من كان من آبَ لها أو شاء
واللَّيثُ يُرْهب زأرُه فى موطنٍ ما كان من نَقْدٍ به أو شاء

(١) وردت فى الإسكوريال (جلبن) ونعتقد أن التصويب أرجح .

يكفيك من نَكد المُعاند أن يُرى ... مُتَقَلِّد الأَعضاء بالبَغْضاء
السِّنُّ يُفنى بالأَنامل قـــرعُه ... أَو عضُّه متوقِّـــد الأَحشـــاء
أَتْحَفْتَنى بقصيـدة هَمْـــزِيَّة ... مقصـــورةٍ ممـــدودةِ الآراء
كم بين تلك وهذه لاكنَّهـــا ... غطىً على هذى ذهـــابُ فَتـــاء
ذو الشيب يعذُره الشَّــباب فمــا لهم بذكا نُبلٍ أَو بنُبْلِ ذكاء
من قارب الخمسين خَطْواً سِنُّه ... فمحالُه مستوجبُ الإِبطــــاء
أَبُنَىَّ إِنك أَنت أَسْــدى من بــه ... يتعــاظمُ الآبـــاءُ بالأَبنـــاء
لله نفثة سحر ما قد شِدت لى ... من نفث سحرك فى مشـادِ ثنـاء
عارضتَ صفْواناً بها فأَرَيْتَ ما ... يَسْتَعْظِم الرَّاوى له والرَّاء
لو راءَ لؤلؤك المُنَظَّم لم يَفُز ... فى نظم لؤلؤه بغيـر عنـــاء
بوَّأْتَـــنى منهـا أَجلَّ مبوَّإٍ ... فلأَخْمَصى مُستَوطن(١) الجَوْزاء
وسَمَى بها أَسْمى ســايرٍ فأَنا بما ... أَسديتَ ذو الأَسماء فى الأَسماء
وأَشَدْت ذِكْرى فى البلاد فلى بها ... طولُ الثَّناء وإِن أَطلتُ ثـواءِ(٢)
ولقَوْمى الفَخر المَشِيد بَنيتُه ... بأَحسن تَشييد وحُسن بناء
فَلْيهُن هانيهم يدٌ بيضــاءُ ما ... أَنَّ مثلها لك من يدٍ بيضـــاء
حَلَّيتُ أَبياتا(٣) هم(٤) لخمَّيةً ... بحُلا عُـلاً مُضَريةٍ غَـــرَّاء
فَلْيَشْمُخوا أَنفـا بمـا أَوليتَهم ... يا مُحْـــرِز الآلاء بالإِيـــلاء

هذا ، بُنَىَّ ، وصل الله لكَ ولِى بكَ عُلُوَّ المقدار ، وأَجرى وِفق أَو فوق إِرادتك أَو إِرادتى لك جاريات الأَقدار ، ما سَمَح به الذهن الكَليل واللسان

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (مستوطناً) .
(٢) وردت فى الإسكوريال (ثناء) مرة أخرى ، والتصويب من النفح .
(٣) وردت فى الإسكوريال (أبا) . والتصويب من النفح .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (له) .

الفَلِيل فى مراجعة قصيدتك الغرّاء، الجالِية للسَّراء ، الآخذة بمجامع القلوب، الآتية[١] بجوامع المطلوب ، الحَسنة المهْيع والأُسلوب ، المتَحلِّية بالحُلى الحَسَنيَّة[٢] ، العريقة المُنْتَسب فى العُلى الحسنية ، الجالبة صَدا قلوبٍ ران عليها الكسلُ ، وخانها المُسْعِدان : السُّؤل والأَمل ، فمتى حامت المعانى حولها ، ولو أقامت حولها ، شَكَتْ وَيْلها وعَوْلها ، وحُرِمت من فَرِيضة الفضيلة عَوْلها ، وعَهْدى بها ، والزمان زمان ، وأحكامُه الماضية أَمانِى مَقْضيَّة وأَمانٍ ، تتوارد آلافها ، ويجمع إجماعها وخلافُها ، ويساعدها من الأَلفاظ كلُّ سهل مُمْتع ، مفترقٍ مُجمع ، مُستأْنِسٍ غريب ، بعيد الغُور قريب ، فاضح الحُلا ، واضح العُلا ، وضَّاح الغُرَّة والجبين ، رافعٌ عمود الصبح المُبين ، أَيِّد من الفصاحة بإِياد ، فلم يَحْفل بصاحِبِى طىٍّ وإياد ، وكسى بضاعة[٣] البلاغة ، فلم يعبأْ بهمَّام وابن المراغة . شفاءُ المحزون ، وعلم السِّر المخزون ، ما بين منثُوره والمَوْزون . والآن لا مُلهج ولا مُبْهج [ولا مرشد ولا منهج][٤] عُكِست القضايا فلم تُنتج ، فتبلَّد القلب الذَّكى ، [ولم يرشح القُلَيب البَكى][٥] ، وعمَّ الإفحام وغمَّ الإحجام ، وتمكن الإِكداء والإِجبال ، وكُوِّرت الشَّمسُ وسُيِّرت الجبال ، وعَلَتْ سآمة ، وغَلَبت نَدَامة ، وارتفعت ملامة ، وقامت لنَوْعى الأَدب قِيامة . حتى إذا ورد ذلك المهْرَق ، وفرَّع غُصْنُه المُورق ، تغنَّى به الحمام الأَوْرَق ، وأَحاط بعِداد عُداته الغَصَص والشَّرق ، وأَمن من الغَضب والسَّرَق ، وأَقبل الأَمْنُ ، وذهب بإقباله الفَرَق،

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (الموفية) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (السنية) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (نصاعة) .

(٤) الزيادة من النفح . (٥) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ومكانها فى النفح (ولم يرشح القلم الذكى) .

نفخ فى صُور أهل المَنْظُوم والمَنْثُور ، وبُعثر ما فى القُبور ، وحُصِّل ما فى الصدور ، وتراءت للأدب صُور ، وعَمَرت للبلاغة كُور ، وهَمَت للبراعة دُرر ، ونُظمت للبراعة دُرر ، وعندها يَتَبيَّن أنك واحدُ حَلْبة البيان ، والسَّابق فى ذلك الميدان ، يوم الرِّهان ، فكان لك القدم ، وأقرَّ لك مع التأخر السَّابق الأَقْدَم ، فوحقِّ نَصاعة[1] أَلْفاظ أَجَدْتَها ، حين أَوردْتَها ، وأَسَلْتها حين أَرْسَلْتها ، وأَزَنْتها حين وَزَنْتها ، وبراعةِ معانٍ سَلَكْتَها حين مَلَكْتها ، وأَرْوَيْتها حين روّأْتها[2] وأَرْوَيتها ، وأَصَلْتها حين فصَّلتها ووَصَلْتها ، ونظام جعلته لجسد البَيان قَلْباً ، والمِعْصَمة قَلَماً ، وهَصرْتَ حدايقه غَلَباً ، وارتكَبْت روِيَّةً صَعْبا ، ونِثاراً أَتْبَعته له خَدَماً ؛ وصيَّرته لمُدير كأْسِه نديماً ، ولحفظ ذِمامه المُدَامِى ، أَو مُدامه الذِّمامِى مُديماً ؛ لقد فَتَنَتْنى حين أَتَتْنى ، وسَبَتْنى حين نَصَبَتْنى[3] ، فذهَبَتْ خفَّتُها بوَقارى ، ولم يَرُعْها بعد شيبُ عِذارى ، بل دعت للتَّصابى فقلت مرحبا ، وحَلَلْتُ لِفتْنتها الحَبا ، ولم أَحفل بشَيْب ، وأَلْفَيْتُ مارد نِصابى نُصيب ، وإن كنَّا فرَسَى رِهان ، وسابِقَى حَلْبة ميدان ، غير أن الجِلْدة[4] بيضاء ؛ والمرجو الإغْضاء ، بل الإرضاء . بُنىَّ كيف رأَيْت لِلْبيان هذا الطَّوع ، والخروجَ فيه من نَوْع إلى نوع . أَين صَفْوان بن إدريس ، ومحلُّ دَعْواه بين رِحلة وتعْريس ، كم بين ثُغاء [بمر][5] هذا الفَلا ، وبين زئير[6] لَيْثِ العَريس ، كما أَنى أَقْطَعُ

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (فصاحة) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (رويتها) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (صبتنى) .

(٤) وردت فى الإسكوريال (الجادة) . والتصويب من النفح .

(٥) هذه الكلمة ساقطة فى الإسكوريال . وواردة فى النفح .

(٦) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى النفح ، وأثباتها لازم لاستقامة السياق

عِلْماً ، وأعْلم قَطْعاً ، وأحكمُ مضاءً ، وأمضى حُكماً : أنه لو نُظر إلى قصيدتك الرَّائقَة ، وفَريدتك الحالية الفايقة ، المعارَضَة بها قصيدتُه ، المُنْتَسخة بها فريدتُه ، لذهب عرْضاً وطولاً ، ثم اعتقد لك اليَدَ الطُّولى ، وأقرَّ بارتفاع النِّزاع ، وذهبت له تلك العُلالات والأَطماع ، ونسى كَلمته اللُّؤلؤية ، ورجع عن دعواه الأَدبيَّة : واستغفرَ اللهَ ربَّه من تلك الإلَـٰهية . بُنَيَّ وهذا من ذلك ، من الجَرْى فى تلك المسالك ، والتَّبسُّط فى تلك المآخذ والمتارك ، أَيَنْزِع غيرى هذا المَنْزَع ، أَم المرءُ بِشِعْره[١] وابنِه مُولع . حيَّا اللهُ الأَدب وبنيه ، وأعاد علينا من أيَّامه وسِنِيه ، ما أعلى مَنازِعَه ، وأكْبا مُنازِعَه ، وأجلَّ مآخذَه ، وأجْهَل تارِكَه ، وأعْلَم آخذه ، وأرقَّ طباعَه ، وأحقَّ أَشْياعه وأَتْباعه ، وأَبْعَد طريقَه ، وأسْعَد فريتَه ، وأَقْوَم نهجَه ، وأوثق نسْجَه ، وأسْمَح أَلفاظه ، وأفْصَح عُكاظه ، وأَصْدق معانيه وأَلفاظه ، وأحْمَد نِظامه ونِثاره ، وأغْنى [شِعاره ودِثارد][٢] . فعايِبُه مَطْرود ، وعاتِبُه مَصْفود ، وجاهله مَحْصُود . وعالِمه مَحْسُود . غير أن الإحسان فيه قليل ، ولطريق الإصابة فيه عِلْمٌ ودليل : من ظَفِر بهما وصَل ، وعلى الغاية القصوى منهما حَصَل ، ومن نَكَبَ عن الطريق ، لم يَعد من ذلك الفَريق ، فليَهْنِك أيها الإبن الذَّكى ، البَرُّ الزَّكى . الحبيبُ الحَفِى ، الصَّفِى الوَفى ، أنك حاملُ رايته ، وواصلُ غايته ، ليس أوَّلوه وآخِروه لذلك بمنكرين ، ولا تجد أكثرهم شاكرين . ولولا أن يَطُول الكتاب ، ويَنْحَرف الشُّعراءُ والكُتَّاب ، لفاضَتْ ينابيع هذا الفصْل فَيْضاً ، وخَرَجت إلى نوع آخر من البلاغة أيضاً ، قرَّتْ عُيون أودَّايك ، ومُلِئَتْ غَيظاً صدور أعْدايك ، ورَقِيتَ درَج الآمال ،

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بنفسه) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (دثاره وشعاره) . والتصويب من النفح . وهو أكثر تمشيا مع السياق .

ووُقيت عَيْن الكمال ، وحُفِظ منْصبُك العالى ، بفضل ربِّك الكبير المتعالى .
والسلام الأتم الأكمل[(١)] الأعم يخُصُّك به ، من طال فى مَدْحه أرْقالَك وأغْذاذَك ، وراد رَوْضُ حَمْده طلَّك ورَذاذك [وَغَدت مصالحُ سَعْيه فى سعى مصالحك ، وسينفَعُك بحول الله وقوته ، وفَضْله ومِنَّته مُعاذُك][(٢)] وَوَسَمْتَ نفسك بتلميذه ، فسَمَتْ نفسُه بأنه أُسْتاذُك : ابن هانى ورحمة الله وبركاته .

دخوله غرناطة : دخل غرناطة مع الوَفْد من أهل بلده عند تصيُّرها إلى الإيالة النَّصرية ،حسبما ثبت فى موضعه .

توفى بجبل الفتح ، والعدوُّ يحاصره ، أصابه حَجَرُ المنجنيق فى رأسه ، فذهب به ، تقبَّل الله شهادته ونفعه ، فى أواخر ذى قعدة من عام ثلاثة وثلاثين وسبعماية[(٣)]

ومن رثاه قاضى الجماعة شيخنا القاضى أبو القاسم الحسنى ، وهى القصيدة التى أولها :

سَقَى الله بالخَضْراءِ أشلاءَ سُؤْدد ... تَضَمَّنَهنَّ التُّرْب صوب الغمايم

وقد ثبت فى «جُهد المُقِل» فى اسم المذكور فليُنْظر هنالك .

ومن رثاه شيخنا القاضى أبو بكر بن شِبْرين رحمه الله بقوله :

قد كان ما قال اليَزيد[(٤)] ... فاصبر فحُزْنُك لا يفيـــد

---

(١) واردة فى النفح . وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى النفح وساقط فى الإسكوريال .

(٣) كان النصارى (القشتاليون) قد انتزعوا جبل الفتح (جبل طارق) من المسلمين فى سنة ٧٠٩ هـ-١٣١٠م) ولبث المسلمون يتحينون الفرص لاسترداد هذا الثغر المنيع ، وبعث السلطان محمد بن اسماعيل (ابن الأحمر) ملك غرناطة يستنجد بملك المغرب السلطان الكبير أبى الحسن المرينى فلبى نداءه . وحاصرت القوات المتحالفة جبل طارق بشدة من البر والبحر ،واستطاعت فى النهاية أن ترغم الحامية النصرانيه على التسليم (سنة ٧٣٣ هـ - ١٣٣٣ م) ، وأن تسترد الجبل ليبق فى يد المسلمين عصرا آخر .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تبريد) .

أَوْدَى ابن هـلنى الرِّضـا فاعتـادنى للثَّـكل عِيد
بحـرُ العلـوم وصدْرُهـا وعميدُها إذ لا عَميـد
قد كان زَيْنـاً للـوُجو د فَفِيه قد فُجع الوُجود
العِلْمُ والتَّحقيق والتوفيـق والحَسَـب التَّليـد
تَنْدى خـلايِقُه فقـل فيها هى الرَّوض المَجْـرد
مُغْضٍ عن الإخـوان لا جَهْمُ اللقـاء ولا كَنـود
أَوْدَى شـهيداً بـاذلاً مجهودده فِعـم الشَّـهيد
لم أنْسَـه حين المعـا رف باسمه فينـا تشـيد
وله صُبـوب فى طـلاً ب العلم يَتْلـوه صُعـود
لله وقـت كان يَنظِمُـنـا كمـا نُظِـم الفريـد
أيـام نَغْـدو أو نَرُو ح وسَعْيـنـا السَّـعى الحميد
وإذا المَشِيخةُ جَثْـمُ هَضْبـات حِلم لا تَبيـد
ومُرادُنا جم النَّبـا ت وعَيْشُنا خَضِـر البُرود
لَهفى على الإخـوان والأَتـراب كلُّـهم فقيـد
لو جِيتُ أوطـانى لأنـكرنى التَّهـايم والنُّجـود
ولراعَ نفسى شيبُ من غادَرْته وهـو الوَليـد
ولطْفتُ ما بين اللُّحـو د وقد تَكاثَرَت اللُّحـود
سُرعان ما عاث الحِمـا م ونحن أيقـاظٌ هُجـود
كم رُمْتُ إعمال المَسـير فقيَّدت عـزمى قُيـود
والآن أَخلَفَت الوعـو د وأَخلَقَت تلك البُـرُود
ما للفتى ما يبْتَـغى والله يفعـل ما يُريـد
أعلى القديم المُلْك يـا وَيْلاه يَعْترض العبيـد

يا بَيْنُ قد طـال المدى أَرْعِد وأَبْرِق يا يَزيـد
ولكل شيء غـايةٌ ولربمـا لان الحَديـد
إيهٍ أَبا عبـد الإلَـه ودونَنا مَرْمى بعيـد
أَين الرسـايل منـك تأ تينا كما نُظِم[1] العقـود
أَين الرُّسـوم الصالحـا ت تصرَّمَتْ أَيـن العُهـود
أَنعم مساءً لا تخطَّتـك[2] البشاير والسُّعود
وأَقدم على در الرِّضـا حيث الإقامة والخُلـود
والـقَ الأَحبَّـة حيث دا رُ المُلْك والقَصْـر المَشِيد
حتى الشَّهادة لم تَفُتْـك فنجمُك النَّجم السَّعيد
لا تَبْعُدَن وعُدْ لَوْ انَّ المَيْت[3] فى الدنيا يعـود
ولين بُليـت فإنَّ ذكـرَك فى الدُّنا غَضٌّ جديد
تالله لا تَنْسـاك أَنْدِيـة العُلى ما اخضَـرَّ عُود
وإذا تسومح فى لحقـو ق فحقُّك الحـقُّ الأَكيد
جادَتْ صـداك غمـامةٌ يُروى[4] بها ذاك الصَّعيـد
وتعَهَّدتك مـن المُهَيمـن رحمةٌ أَبـداً وجُـود

محمد بن يحيى العَبْـدرى

من أَهل فاس . يكنَى أَبا عبدالله ، ويعرف بالصَّدفى

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (نسق) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (تخطيك) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (البدء) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (يرى) وهو تحريف .

حـــاله

قال الأُستاذ فى « صلته »[١] : إمامٌ فى العربية ، ذاكر للُّغات والآداب ، متكلمٌ ، أُصُولى مفيد ، مُتَفَنِّن ، حافظ ، ماهر ، عالم ، زاهد ، ورِعٌ ، فاضل . أَخذ عِلْم العربية والآداب عن النَّحوى أَبى الحسن بن خروف ، وعن النَّحوى الأَديب الضَّابط أَبى ذَرٍّ الخُشَنى ، وأَكثر عنهما ، وأَكْمَل الكتاب على ابن خروف ، تَفَقُّهاً وتَقْييداً وضَبْطاً . وكان حسن الإقراء ، جيِّد العبارة ، متين المعارف والدِّين ، شديد الوَرَع ، مُتواضعاً جليلاً ، عالماً عاملا ، من أَجلِّ من لَقِيتُه ، وأَجْمعِهم لفنون المعارف ، وضُروب الأَعمال ، وكان الحِفْظ أَغْلبَ عليه ، وكان سريع القَلَم إذا كَتَب أَو قيَّد ، وسمعتُه يقول ، ما سمعت شيئاً من أَحد من أَشياخى ، من نُكتِ العِلْم ، وتَفْسير مُشْكلٍ ، وما يرجع إلى ذلك ، إلاَّ وقيَّدتُه ، ولا قيَّدتُ بخطِّى شيئاً إلاَّ حَفِظته ، ولا حَفِظت شيئاً فنَسِيتُه . هذا ما سمعت منه .

مشيخته

أَخذ العربيَّة عن الأُستاذ أَبى الحسن بن خروف ، وعن النَّحوى الأَديب الضَّابط أَبى ذَرٍّ الخُشَنى . وأَكثر عنه ، وأَخذ معهما عن أَبى محمد بن زيدان ، ولازم ثلاثَتَهم ، وسمع وقرأَ على الفقيه الصالح أَبى محمد صالح وأَخذ[٢] عن غير من ذكر .

دخوله غرناطه

قال ، دخل الأَندلس مراراً بيَسير بضاعة كانت لديه يتَّجرُ فيها ،

---

(١) يقصد بها كتاب « صلة الصلة » لابى جعفر بن الزبير (راجع ترجمته فى المجلد الأول من الإحاطة ص ١٨٨) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (وأكثر) والأولى أرجح .

ودخل إشبيلية ، وتردَّد آخر عمره إلى غَرْناطة ومالَقة إلى حين وفاته .

توفى رحمه الله شهيداً بمَرْسى جبل الفتح . دخل عليهم العدوُّ فيه . فقاتل حتى قُتل ، وذلك سنة أحد وخمسين وستماية . وسمعتُه يتوسل إلى الله ، ويسأله الشهادة .

المحدِّثون والفقهاء والطلبة النجباء

وأولا الأصليـــون

محمد بن أحمد بن إبراهيم بن الزُّبير

من أهل غرناطة ، ولد الأُستاذ الكبير أبى جعفر بن الزبير ، يكنى أبا عمرو .

حـــاله

هذا الشيخ سِكِّيتُ حَلْبَة ، ولدُ أَبيه فى عُلُوِّ النَّباهة ، إلا أنه لَوْذَعى فكِه ، حسن الحديث ، رافضٌ للتَّصنُّع ، ركض طَرَف الشَّبيبة فى ميدان الراحة ، مُنكباً عن سُنَن أَبيه وقومه ، مع شُغوفِ إدْراك ، وجودة حِفْظ . كانا يُطْمِعان والدَه فى نجابته ، فلم يَعْدَم قادحاً . ورحل إلى العُدْوة . وشرَّق[1] ونال حُظْوة ، وجَرَتْ عليه خطوب . ثم عاد إلى الأَندلس على معروف رَسْمه يَتَكوَّر بها ، وهو الآن قد نال منه الكِبَر ، يُزْجى الوقت بمالَقة ، متعلِّلا بوقفٍ من بعض الخِدم المَخْزنيَّة ، لطف الله به .

---

(١) شرق أى رحل إلى الشرق .

مشـــيخته

استجاز له والده الطِّم والرِّم ، من أهل المغرب والمشرق ، ووَقَف عليه منهم فى الصِّغر وقفاً لم يغتبط به عمره ، وادَّكره الآن بعد أُمَّة ، عندما نقَرَ عنه لديه ؛ فأثْرت به يده من عُلُوٍّ رواية ، وتوفُّر سببٍ مبَرَّة ، وداعيةٍ إلى إقالة عَثْرة ، وسَتْر هَيْبةِ شَيْبَةٍ . فمن ذلك الشيخ الإمام أبو على ناصر الدين منصور بن أحمد المِشدالى ؛ إجازةً ثم لقاءً وسماعاً ، والشيخ الخطيب الرَّاوية أبو عبد الله بن غريون . وأجازه الأُستاذ أبو إسحق الغافقى ، وأبو القاسم بن الشَّاط ، والشَّريف أبو العباس أحمد الحسنى ، والأُستاذ الإمام أبو الحسين عبد الله بن أبى الربيع القُرشى نزيل سبْتة . ومحمد ابن صالح بن أحمد بن محمد الكتّانى الشَّاطبي ببجاية ، والإمام أبو اليمن ابن عساكر بالمسجد الحَرام ، وابن دَقيق العيد وغيرهم . ومن أهل الأَندلس أَبو محمد بن أبى السَّداد ، وأبو جعفر بن الزيات ، وأبو عبد الله بن الكَمَّاد ، وأبو عبد الله بن ربيع الأَشْعَرى ، وأبو عبد الله بن بُرْطال ، وأبو محمد عبد المنعم بن سِماك ، والعَدْل أبو الحسن بن مَسْتَقور . وأجازه من أهل المشرق والمغرب : عَالَمٌ كبير .

شــــعره

وبضاعته فيه مُزْجاة ، فمن ذلك ما خاطبنى به عند إيابى من العُدْوة فى غرض الرسالة عن السلطان :

نوالى الشُّكر للرحمن فَرْضا ... عَلَمُ نِعَمٍ كَسَتْ طولاً وعَرْضا
وكم لله من لُطْفٍ خَفِىٍّ لنــا ... منه الذى يشاءُ .... [1] وأمضا
بمَقْدَمك السَّعيد أتت سُعُود ... تنال بهـا نَعيم الدَّهـر مَحْضا
فيا بُشرى لأندلسٍ بمـا قد ... به والاك بارينا وأَرْضـــا

(١) هنا بياض فى الإسكوريال .

ويا لله من سَــفرٍ سَــعيد قد … أَقْرَضْتَ المُهَيمنَ فيه قَرْضــا
نَهضْت بنِيَّةٍ أَخْلَصت فيها … فأَتَتْ بكل ما يَبْغى ويَرْضا
وثَبَتَّ لنُصرة الإِســلام لمَّا … عَلِمت بأَنَّ الأَمْرَ إليك أَفْضا
لقد أَحْيَيْتَ بالتَّقْوى رسُوماً … كما أَرْضَيْت بالتَّمْهيد أَرْضا
وقُمْت بسنَّة المختــار فينا … تُمَهِّد سُنَّةً وتُقيم فَرْضــا
ورُضْتَ من العُلوم الصَّعْبَ حتى … جَنَيْتَ ثمارها رَطْباً وغَضــا
فرأْيُك ناجحٌ فيما تــراه … وَعَزْمُك من مَواضى الهِنْد أَمْضا
تُدبِّر أَمر مولانا فيَلْقَى المُسيءُ لديك إشْفاقاً وإغْضـــا
فأَعْقَبَنا شِفاً وانْبِســـاطاً … وقد كانت قلوبُ الناس مَرْضا
ومن أَضْحَى على ظماٍ وأَمْسَى … يَرِد إن شاءَ من نُعْماك حَوْضا
أَبا عبد الالَه إليك أَشــكو … حين نابُ الفَقْــر عضَّا
ومِنْ نُعماك اسْتَجْدى لِباسا … يَفيض به علىّ الجــاهُ فَيْضا
بقيتَ مُؤَمَّلاً تُرجى وتُخشى … ومِثْلُك من إذا ما جــاد أَرْضا

توفى فى التاسع لمحرم من عام خمسة وستين وسبعماية .

محمد بن أحمد بن خلف بن عبد الملك بن غالب الغسَّانى

من أَهل غرناطة ، يكنى أَبا أَبكر ، ويعرف بالقُلَيعى .

أَوَّليته : قد جرى من ذكره ، وذكر بَيْته فى الطبقات ما فيه كفاية(١)

حـــاله

كان نبيه البيت ، رفيع القدر ، عالى الصيت : من أَهل العِلْم والفضل والحَسَب والدِّين ، وأَجمع على اسْتِقْضائه أَهلُ بلده بعد أَبى محمد بن سَمْحون سنة ثمان وخمسماية .

(١) أورد ابن الخطيب ترجمة وافية لأبيه ، فى المجلد الأول من الإحاطة (ص ١٤٧ — ١٥٠).

توفى بغرناطة ،أوايل صفر عشرة وخمسماية . ودفن فى رَوْضة أبيه ذكره ابن الصِّيرفى وأطْنَب .

محمد بن أحمد بن محمد الدَّوْسى

من أهل غرناطة ، يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن قطبة .

حـــاله

من « عايد الصلة » : كان رحمه الله شيخ الفقهاء والموثَّقين ، صَدْرَ أرباب الشورى ، نسيج وحده فى الفضل : والتَّخلُّق والعدالة ، طِرْفاً فى الخير ، مُحَبَّباً إلى الكافة ، مجبولا على المشاركة ، مطبوعا على الفضيلة ، كَهْفاً للغُرباءِ والقادمين ، مَألفاً للمتعلمين ، ثِمالاً للأَسرى والعانِين ، تخلَّص منهم على يَدَيْه أممٌ ، لقصد الناس إيَّاه بالصَّدقة ، مقصوداً فى الشَّفاعات ، مُعْتَمداً بالأَمانات ، لا يُسْدَل دونه سِتْر ، ولا تُحْجَب عنه حُرْمة ، فقيها حافظا ، إخباريا محدِّثا ممتعا ، متقدما فى صناعة التوثيق ، حسن المشاركة فى غيرها ، كثير الحضِّ على الصدقة فى المُحُول والأَزمات ، يقوم فى ذلك مقامات حميدة ، ينفع الله بها الضعفاءِ ، وينقاد الناس لموعِظته ، ويؤثِّر فى القلوب بصِدقه . فُقد بفِقدانه رَسْمٌ من رسوم البرِّ والصَّدقة.

مشيخته

قرأ على الأُستاذ الكبير أَبى جعفر بن الزُّبير ،والخطيب ولىِّ الله أَبى الحسن ابن فضيلة ، وروى عن الشيخ الوزير المُسِنِّ المحدث أَبى محمد عبد المنعم ابن سماك ، وأَبى القاسم بن السَّكوت المالقى ؛ والخطيب أَبى عبد الله

ابن رُشيد ، والقاضى أَبى يحيىٰ بن مسعود ، والعَدْل أَبى على البَجْلى ، وأَبى محمد عبد المؤمن الخولانى . وأجازه جماعة من أهل المشرق والمغرب ، وناب عن بعض القضاة بغرناطة . ولد عام تسعة وستين وستماية ، وتوفى فى الثالث لربيع الأَول من عام ثمانية وثلاثين وسبعماية . وكانت جنازته مشهودة .

محمد بن إبراهيم بن عبدالله بن أحمد بن محمد ابن يوسف بن رويبل الأنصارى

من أَهل غرناطة . ويكنى أَبا عبد الله ، ويعرف بابن السرَّاج . طُليطلى الأَصل ، طبيبُ الدار السلطانية .

حـــاله

من « العايد » : كان رحمه الله من أَهل التَّفَنُّن والمعرفة ، مُتناهى الأُبَّهة والحُظْوة ، جميل الصورة ، مليح المجالسة ، كثير الدُّعابة والمؤانسة ، ذاكراً للأَخبار والطُّرَف ، صاحب حظٍّ من العربية والأَدب والتفسير ، قارضاً للشِّعر ، حسن الخط ، ظريف الوِراقة ، طِرْفاً فى المعرفة بالعُشْب ، وتمييز أعيان النَّبات ، سَنِيًا ، محافظاً ، مُحبا فى الصالحين ، ملازما لهم ، مُعْتَنياً بأَخبارهم ، مُتَلمذاً لهم . انْحاش إلى الوَلى أَبى عبد الله التُّونِسى ، وانقطع إليه مدة حياته ، ودوَّن أَحواله وكراماته . وعيَّن رَيْع ما يستفيده فى الطِّب صدقة على يَدَيْه ، أَجرى ذلك بعد موته لبنيه . ونال حظاً عريضاً من جاه السلطان ، فاطَّرح حظَّ نفسه مع المساكين والمحتاجين ، فكان على باوِه على أَهل الدنيا ، يوثر ذوى الحاجة ، ويخِفُّ إلى زيارتهم ، ويَرْفِدهم ، ويُعينهم على معالجة عِلَلهم .

مشيخته

قرأ الطِّب على الشيخ الطبيب . نسِج وحده أَبى جعفر الكَزْنى ، رييس الصناعة فى وقته ، ولقى فيه الأُستاذ إمام التَّعاليم والمعارف ، أبا عبد الله الرَّقوطى المُرْسى وغيره . وقرأ القرآن على المقرى الشهير أَبى جعفر الطبَّاع بالروايات السَّبع ، والعربية على الأُستاد أَبى الحسن بن الصايغ الإشبيلى ، وأَكثر القراءَة على شيخ الجماعة العلامة أَبى جعفر بن الزُّبير .

تواليفه : أَلَّف كتباً كثيرة ، منها فى النَّبات والرؤيا . ومنها كتاب سماه ، « السِّرُّ المُذاع فى تفضيل غَرْناطة على كثير من البقاع » .

شعره

من ذلك قوله مُلَغِّزاً فى المَطَر :

وما زايرٌ مهما أَتى ابْتَهَجَتْ بـه ... نفوسٌ وعمَّ الخَلقَ جوداً وإحسانا
يُقيمُ فيشكو الخلقُ منه مُقـامَه ... ويَكرُبهم طُرًّا إذا عَنْهم بـانا
يَسُرُّ إذا وافى ويَكْرُب إن نـأَى ... ويُكْرَه منـه الوصل إن زار أَحيانا
وأَعجبُ شيءٍ هَجْـرُ حبٍّ مواصلٍ ... به حين يُطِل هواه إن لم يُطِل خانا

محنته

ذكر أَنه لما توفى السلطان ثانى الملوك من بنى نصر[1] فجأَة ، وهو يُصَلِّى المغرب ، وباكر الطبيب بابه غداة ليلة موته ، سأَل عن الطعام القريبِ عَهْدِ موته بتَناوُله ، فأُخْبر أَنَّه تناول كَعْكاً وصَلَته من ولىِّ عهده ،

(١) ثانى ملوك بنى نصر بمملكة غرناطة هو محمد بن محمد بن يوسف الملقب بالفقيه . وقد ولى الملك عقب وفاة أبيه محمد بن الأحمر الكبير فى سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٢ م) . وحكم مملكة غرناطة حتى وفاته فى سنة ٧٠١ هـ (١٣٠٢ م) .

فقال كلاماً أوجَب نكبته ، فامتُحن بالسِّجن الطويل ، والتُمست الأَسباب الموصلة إلى هلاكه ، ثم أُجلى إلى العُدْوة . ثم دالت الأَيام ، فعاد إلى وطنه مستأنفا ما عَهِده من البرِّ وفَقَده من التَّجِلَّة .

ميلاده : بغرناطة عام أربعة وخمسين وستماية .

وفاته : ليلة الخميس التاسع من شهر ربيع الأول من عام ثلاثين وسبعماية .

محمد بن ابراهيم بن عبد الله بن أبى زَمَنِين المُرِّى

يكنى أبا عبد الله ، وبيته معلوم

حاله : كان من أهل المعرفة والنُّبل والذكاء

مشيخته

قرأ القرآن على أبى بكر بن النَّفيس ، وأبى عبد الله بن شُهيد المُرِّى المُقرى بطخشارش من غرناطة . ودرس الفقه عند المُشاور أبى عبد الله ابن ملك المقرى ، وأبى الحسن على بن عمر بن أَضْحى ، وعلى غيرهما من شيوخ غرناطة .

توفى سنة أربعين وخمسماية .

قلت ، وإنما ذكرت هذا المترجم به مع كونى اشترطت صدر خطبته ، ألاَّ أذكر هذا النمط لمكان مُصاهرتى فى هذا البيت . ولعل حافِدَ هذا المترجم به من ولدى ، يطَّلع على تَعْدادهم وذكرهم فى هذا التاليف وتردادهم ، فيكون ذلك محرضا له على النَّجابة ، محرضا للإجابة ، جعلنا الله ممَّن انتمى للعِلم وأهله ، واقتفى من سُنَنِه واضح سُبُله .

محمد بن جابر بن محمد بن قاسم بن أحمد بن إبراهيم بن حسّان القيسى

الوادآشى الأَصل والمعرفة ، التُّونسى الاستيطان ، يكنى أَبا عبد الله ، ويعرف بابن جابر

حـــاله

من « عايد الصلة » : نشأَ بتونس ، وجال فى البلاد المشْرقية والمغْربية ، واستكثر من الرِّواية ونقَّب عن المشايخ ، وقيَّد الكثير ، حتى أَصبح جَمَّاعة المغرب ، وراوية الوقت . ثم قدِم الأَندلس ظريف النَّزْعة ، عظيم الوقار ، قَويم السَّمْت ، يأْوى فى فضل التَّعيش إلى فضل ما كان بيده ، يصرفه فى مصارف التجارة . وقعد للإسماع والرِّواية . وانتقل إلى بَلِّش ، فقرأَ بها القرآن العظيم والروايات السَّبع ، على الخطيب أَبى جعفر بن الزيات . ثم رحل إلى المغرب ، ثم أَعاد الرِّحلة الحجازية ، وأَعْرَق ، فلقى أُمَّةً من العُلماء والمحدِّثين ، وأَصبح بهم شيخَ وَحْده ، انْفِساحَ رواية ، وعُلُوَّ إسناد.

مشيخته

من شيوخه قاضى الجماعة بتونس أَبو العباس بن الغمَّاز الخَزْرجى البَلَنْسى ، وقاضى الجماعة بها أَبو إسحق بن عبد الرفيع ، وقاضى قضاة الدِّيار المصرية بدر الدين بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن على بن جماعة بن صخر الكِنانى . وقاضى الجماعة ببجاية ، أَبو العباس الغُبْرينى ، وسراج الدين أَبو جعفر عمر بن الخضر بن طاهر بن طرّاد بن إبراهيم ابن محمد ابن منصور الأَصْبَحى ، وأَبو محمد عبد الغفار بن محمد السَّعدى المصرى ، ورضىُّ الدين إبراهيم بن عمر بن إبراهيم الخليلى الجعفرى ، وشرف الدين أَبو عبد الله بن الحسن بن عبد الله ابن الحافظ عبد الغنى

ابن عبد الواحد بن سرور المقدسى ، وأبو الفضل أبو القاسم بن حمَّاد بن أَبى بكر بن عبد الواحد الحضرمى اللبيد ، وعبد الله بن يوسف بن موسى الخِلاسى ، وعبد الله بن محمد بن هرون ، وإبراهيم بن محمد بن أَحمد ابن محمد بن عبد الله بن الحاج التُّجيبى ، وأَحمد بن يوسف بن يعقوب ابن على الفِهرى اللَّبلى(١) ، وولده جابر بن محمد بن قاسم معين الدين ، وعزُّ الدين أَبو القاسم بن محمد بن الخطيب ، وجمال الدين أَبو عبد الله محمد بن عبد الباقى بن الصَّفَّار ، وأَبو بكر بن عبد الكريم بن صدقة العزفى ، ومحمد بن إبراهيم بن أَحمد التجيبى ، وأَبو يعقوب يوسف بن إبراهيم بن أَحمد بن على بن إبراهيم بن عقاب الجُذامى الشاطبى ، وعبد الرحمن بن محمد بن على بن عبد الله الأَنصارى الأَسدى القيْرُوانى ، وأَبو القاسم خلف بن عبد العزيز القَبْتُورى(٢) ، وعلى بن محمد بن أَبى القاسم ابن رَزين التُّجيبى ، وأَحمد بن موسى بن عيسى البَطِرنى(٣) ، وغر القضاة فخر الدين أَبو محمد عبد الواحد بن منصور بن محمد بن المنير ، وتقى الدين محمد بن أَحمد بن عبد الخالق المصرى ، وصَدْر النحاة أَبو حيَّان ، وظهير الدين أَبو محمد بن عبد الخالق المخزومى المقدسى الدَّلاصى ، ورضىُّ الدين بن إبراهيم بن أَبى بكر الطَّبرى ، والمُعمِّر بهاءُ الدين أَبو محمد القاسم بن مظفر بن محمود بن هِبَة الله بن عساكر الدمشقى . وأَما من كتب إليه فنحو مایة وثمانين من أَهل المشرق والمغرب .

قدم غرناطة فى أَول عام ستة وعشرين وسبعماية ، فهو باعتبار أَصله أَصلى ، وباعتبار قدومه طارئٌ وغريب .

---

(١) نسبة إلى مدينة لبلة من قواعد الغرب الأندلسى .

(٢) نسبة إلى قبتور أو كبتور من بلاد منطقة إشبيلية .

(٣) نسبة إلى بطرنة . وهى بلدة أندلسية صغيرة تقع شمال غربى بلنسية .

تواليفه

له تواليف حديثيّة جُمْلة ، منها أربعون حديثاً ، أَغْرَب فيها بما دلّ على سَعَة خَطْوه وانفساح رَحْله .

وفاته : كان حيا سنة أربعين وسبعماية ، وبلغنى أنه توفى عام سبعة بعدها .

محمد بن خلف بن موسى الأنصارى الأوسى

من أهل إلبيرة ، يكنى أبا عبد الله .

حـــاله

كان مُتكلِّما ، واقفا على مذاهب المُتَكَلِّمين ، متحققا برأى الأشعرية ، ذاكراً لكتب الأُصول والاعتقادات ، مشاركا فى الأدب ، مقدَّماً فى الطِّب.

مشيخته

روى عن أبى جعفر بن محمد بن حكم بن باق ، وأبى جعفر بن خَلَف ابن الهيثم ، وأبَوَى الحسن بن خَلَف العَنْسى ، وابن محمد بن عبد العزيز ابن أحمد بن حمْدين ، وأبوى عبد الله بن عبد العزيز المَوْرى ، وابن فرج مولى الطلاّع ، وأبى العباس بن محمد الجُذامى . وأبى على الغسانى ، وأبى عمرو زياد بن الصَّفار ، وأبى القاسم أحمد بن عمر . وأخذ علم الكلام عن أبى بكر بن الحسن المُرادى ، وأبى جعفر بن محمد بن باق ، وأبى الحجاج ابن موسى الكلبى . وتأدَّب فى بعض مسائل النحو بأبى القاسم بن خَلَف ابن يوسف بن فُرْتُون بن الأَبرش .

من روى عنه : روى عنه أبو إسحق بن قرقول ، وأبو خالد المروانى ،

وأبو زيد بن نزار ، وأبو عبد الله بن الصَّيقل المرسى ، وأبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن سمعان ، وأبو الوليد بن خيرة .

تواليفه

من تواليفه : « النُّكت والأمالى فى الرَّد على الغزالى » ، و « الإيضاح والبيان فى الكلام على القرآن » ، و « الوصول إلى معرفة الله ونبوة الرسول » ورسالة « الاقتصار على مذاهب الأيِمَّة الأخيار » ، ورسالة « البيان فى حقيقة الإيمان » ، والرَّد على أبى الوليد بن رشد فى مسألة الاستواء الواقعة له فى الجزء الأول من مُقدِّماته ، و « شرح مشكل ما وقع فى الموَطَّإ وصحيح البخارى » ، وقد كان شرع فى تصنيفه عام ثمانية عشر وستّماية[1] فى شوال منه ، وبلغ فى الكلام فيه إلى النُّكتة الرابعة والخمسين ؛ وقطعت به قواطع المرض ، وشرع فى معالجة العين لرؤيا رآها ، يقال له أَلِّفتَ فى نور البَصيرة ، فألِّف فى نور البَصَر تَنْفع وتَنْتَفع ، فأقبل على تأُليفه فى مداواة العين ، وهو كتاب جمٌّ الإفادة ، ثم أكمل النُّكت .

شـعره

وكان له حظٌّ من قرض الشعر ؛ فمن ذلك ما مدح به إمام الحرمين أبا المعالى الجُوينى :

حُبُّ حَبر يكنىً أبا المعالى   هو دينى ففيه لا تعذلونى
أَنا والله مُغْرم فى هـواه   عَلِّلونى بذكـره علِّلونى

مولده : ولد يوم الثلاثاء لإثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة سبع وخمسين وخمسماية .

---

(١) ورد هذا التاريخ فى الإسكوريال « والزيتونة » (عام ثمانية عشر وخمسمائة) . ومن الواضح أنه تاريخ محرف ، وأن الحقيقة فيه أنه (ثمانية عشر وستمايه) حسبما أثبتناه . وذلك أولا ، =

محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله الخَوْلانى

غرناطي يكنى أبا عبد الله ويعرف بالشَّريشى

حـــاله

من أهل التَّصاوُن والحشمة والوقار ، مُعْرِق فى بيت الخَيْريَّة والعفَّة ، وكان والده صاحبنا رحمه الله ، آيةً فى الدُّؤوب والصَّبر على انتِساخ الدَّواوين العِلْمية والأَجزاء ، بحيث لا مَظِنَّة معرفة أَو حُجرة طَلب تخلو عن شيء من خطِّه إلاَّ ما يَقِل ، على سكون وعدالة وانقِباض وصبر وقناعة . وأكتب للصِّبيان فى بعض أطواره . ونشأَ ابنه المذكور ، ظاهر النُّبل والخصوصيَّة مشاركاً فى فنون ، من عربية وأَدب وحساب وفريضة ، وتصرَّف فى الشهادة المَخْزَنيَّة برهة ، ثم نُزِع عنها انقياداً لداعى النَّزاهة ، وهو الآن بحاله الموصوفة

شـــعره

وشعره من نمط الإِجادة ، فمن ذلك قوله :

بى شادن أهيف مَهْمَى انْثنى ... يحكى تَثنِّيه القضيب الرَّطيب
ذو غُرَّةٍ كالبدْر قد أُطْلِعت ... فوق قَضِيب نابتٍ فى كَثيب
خضت حَشا الظَّلماء من حُبِّه ... أَخْتَلِس الوصل حِذار الرَّقيب
فبتُّ ولِلْوَصْـل لنـــا ثالثٌ ... يضُمُّنا ثوبُ عفافٍ قَشِيب
حتى إذا ما الليل ولَّى وقـــد ... مالت نجوم الأُفُق نحو الغروب
ودَّعْتُه والقلـب ذو لَوْعـــة ... أَسيل من مـاء جفونى غُروب

= لأن الفيلسوف ابن رشد الحفيد صاحب «المقدمات» توفى سنة ٥٩٥ هـ ، وثانيا ، لأن ابن الخطيب نفسه يقول لنا إن صاحب الترجمة قد ولد سنة ٥٥٧ هـ .

فلست أَدرى حين أُودعتــه ... قلبٌ بأَضلاعى غدا أم قُلَيب

ومن ذلك فى النسيب :

يا أَجْمَل الناس ويا مَنْ غَدَتْ ... غُرَّتُه تمحـو سَـنا الشمس

أَنعم على عَبْدِك يا مالـــكى ... دون اشتراء ومُنَى نفـــسى

بأَن تُرى وُسْطَى لعِقدى وأن ... تُعيد رَبْعى كامل الأُنـــس

فإن تَفَضَّلت بمـا أَرْتجى ... أَبقيتنى فى عـــالم الإنس

وإن تكن تُرْجِعنى خايبـــاً ... فإنـــنى أُدْرَجُ فى رَمْـــسِ

وقال فى فضل العِلم :

يا طالب العِلم اجتهد إنـــه ... خيرٌ من التَّالد والطَّـــارف

فالعلم يَذْكُو قَدْر إنفـــاقه ... والمال إذا أَنْفَقْتَه تَالِـــف

وترقَّ إلى هذا العهد بإشارتى إلى التى لا فَوْقها من تَعْليم وَلَدِ السلطان ، والرِّياسة القرآنية بباب الإمارة ، والإمامة بالمسجد الجامع من القلعة (١) ، حَميدُ الطريقة فى ذلك كله ، معروفُ الحق ، تولاه الله .

مولده : عام ثمانية عشر وسبعماية .

محمد بن محمد بن على بن سُودة المُرِّى

يكنى أَبا القاسم

أَوَّليتــه

من نُبهاء بيُوتات الأَندلس وأَعيانها ، سكن سلفُه البُشارَّة (٢) ،

---

(١) الإشارة هنا إلى قلعة (أوقصبة) الحمراء الملاصقة للقصر السلطانى .

(٢) منطقة البشارة أو البشرات هى المنطقة الجبلية الواقعة على جنوبى سفوح جبال سيرانفادا Sierra Nevada ، جنوب غربى غرناطة ، وعلى مقربة من البحر المتوسط . وبالإسبانية Alpujarras . وتشتهر برقاعها الخصيبة وحدائق فواكها اليانعة .

بشارة بنى حسَّان ، وولِى جدُّه الأَشغال ، حميد السيرة ، معروف الإدانة .

حـــاله

هذا الفتى من أهل الخُصوصِيَّة والسكون والحياء، المانع عن كثير من الأغراض . مال إلى العلوم العقلية ، فاستَظْهر على المُماسَّة فى بعض أغراضها بالدؤوب والعكوف ، المورِّثَيْن تأثير حبل الرَّكيَّة فى جحرها ، فتصدَّر للعلاج ، وعانى الشِّعر ، وأرْسم فى الكتابة ، وعُدَّ من الفضلاء ، وظهرت على عباراته اصطِلاحات الحكماء . وتشوَّف إلى العهد للرِّحلة الحجازية ، والله يُيَسِّر قصده .

مشيخته

قرأ الطبَّ والتَّعْديل على الحَبْر طبيب الدّار السُّلطانية ، فارِس ذيْنك الفنَّين ، إبراهيم بن زَرْزار اليهودى . ورَحل إلى العُدْوة ، فقرأ على الشَّريف العالم الشهير، رُحلة الوقت فى المغرب، أبى عبد الله العَلَوى ، وبلقايه نجح

شـــعره

أنشد السلطان قوله :

جاد الحِمى صَوْب الغمام هُتُونه ... تُزْجى البُروق سحابه فتُعينه
وسقى ديار العامرية بعد ما ... وافى بجَرْعا الكثِيب معِينُـه
ينْدى بأفنان الأراك كأنـه ... عقدٌ تناثر بالعقيق ثمينـه
ومحى الكثيبُ سكوبَه فكأنه ... خطٌّ تطَلَّس ميمُه أَو نونُـــه
حتى إذا الأرواح هبَّت بالضُّحا ... مسحت عليه بالجِناح تُبينه
وكأنَّه والرعد يحـــدو خلفه ... صب يطول إلى اللقـاء حنينُه
أَوسحَّ دمعى فوق أكناف اللِّوى ... جادت بلؤلؤة النفيس عيونُه

والبرق فى حُلل السَّحاب كأنه ... مكنون سرٍّ قد أُذيع مَضُمونه
أو ثوبُ ضافية الملابس كاعبٌ ... عمدت بحاشية النُّضار تَزينه
هنَّ الديار برامَةٍ لا دهرُها ... سَلِسُ القياد ولا العِتاب يلينه
ولقد وقفتُ برَسْمها فكأنَّنى ... من ناحِل الأَطلال فيه أكونُه
قلبى بذاك اللِّوى خلَّفتُه ... ألوى بمُزْدَلِف الرِّفاق ظعينُه
لا تَسَلْ العُذَّال عنى فالهوى ... ذا يخامر بالضُّلوع دفِينـه
إن يَخْفَ عن شرحى حديثُ زُمَيرتى ... فعلى الفنون فريضةٌ تُبينيه
عجباً لدمعى لا يكفُّ كأنما ... جدوى أبى عبد الآله هُتُونه
مُحيي المكارم بعدما أودى بها ... زمنٌ تقلَّب بالكِرام خَؤُونُه
مولى الملوك عَميدُ كلِّ فضيلة ... عَلِق الزمان ثمينُه ومكينُـه
يُضْفى إلى داعى النَّدى فيهزُّه ... وبملتقى الجَمْعين طال سكونه
من ذا يُسابق فضله لوجوده ... ويلُجِّ فَيْض البحر فاض يمينه
إن تَلْقَه تَلْقَ الجمال وقاره ... والحلمُ طبعٌ والسَّماحة دينُـه
غَمَر الأَنام نوالهُ ومَحا الضـــلال رشاده وجلا الظَّلام جبينُه
أَحْيا رسُومَ الدين وهى دَوارس ... ولطالما صَدَع الشكوك يقينُه
شمس الهدى حَتْفُ العِدا مُحْيي النِّدا بحر الجِدا طول المدى تمكينه
ليثُ الشَّرى غوثُ الورى قمر السُّرى سنَّ القِرى عمَّ القُرى تأْمينه
فلِبَأْسه يوم الوغى ولعـزمه ... جاش الهِزَبْرُ إذا الهِزبر يخُونُه
لا تَسَلْ الهيجاءُ عنـه إنـه ... يصل المراد كما تحبُّ ظنونُه
لو كان يُشْغله المنام عن العُلا ... هجر المنـام وباعدته جُفونه
وإذا تطاولت الملوك بماجدٍ ... بمحمد دون الأَنـام يكـونُه
يا بْنَ الأُلَى نصروا الرسولِ ومنِ بهم نطق الكِتاب فصيحُه ومُبينه

خُصُّوا ببيعته وحاموا دونَــه　　نَهْج الرِّضا حتى تَقَاوم دينـه
أمعاضِدَ الإسلام أنت عميدُه　　وخليفةُ الرحمن أنت أمينُه
لم يبق إلا من بسَيْفك طايعٌ　　وألفُنُشُ[١] فى أقصى البلاد رهينه
وبجيشِك المنصور لو لاقيتُه　　أدرى بمُشْتَجر الرِّماح طعينُه
ولو اصْطَنَعت إلى العدوِّ إدالةً　　طاعَتْ إليك بلادُه وحصونُه
خُذْها إليك قصيدةً من شاعر　　حُلو الكلام مهذَّبٌ تَبْيينه
جعل القوافى للمعالى سُلَّماً　　فجنى القَريضَ كما اقتَضَتْه فنونه
غطَّى هواه عقله واقتـــاده　　يُحصى النجوم جهالةً تَزْيينُه

ولو أَخَذَته أيدى التحرير والنَّقد ، لرُجى أن يكون شاعراً ، وبالجملة فالرجل معدود من السُّراة بَيْتاً وتخصُّصاً .

محمد بن عبد العزيز بن سالم بن خلف القيسى

مُنَكَّبى[٢] الأَصل يكنى أبا عبد الله ، طبيب الدَّار السلطانية .

حـــاله

من « عايد الصلة » : كان رحمه الله فذًّا فى الانطباع واللَّوْذَعية ، حسن المشاركة فى الطِّب ، مليح المحاضرة ، حَفِظَةٌ ، طُلَعةٌ ، مستحضراً للأدب ، ذاكرا لصناعة الطب ، أخذها عن إمام وقته ، أبى جعفر الكَزْنى ، وانتصب للعلاج ، ثم انتقل إلى الخدمة بصناعته بالباب السلطانى ، ووُلِّى الحِسْبة ، ومن شعره يخاطب السلطان على ألسنة أصحابنا الأطباء الذين

---

(١) يقصد بها هنا ملك قشتالة ، وقد كان هذا الاسم يطلق على ملوك النصارى لان معظمهم كان يحمل اسم ألفنش (الفونسو) .

(٢) منكبى الأصل ، أى ينتمى إلى ثغر المنكب Almunecar . الواقع شرق مالقة .

جَمَعَتْهُم الخدمة ببابه يومئذ ، وهم أبو الأَصْبَغ بن سعادة ، وأبو تمام غالب الشَّقورى :

قد جمعنا ببابكم سَطْر عِلم لبلوغ المنى ونيل الإرادة
ومن أسمائنا لكم حُسْنُ فالٍ غالبٌ ثم سالمٌ وسعادة

توفى فى شهر رجب من عام سبعة عشر وسبعماية .

محمد بن عبد الله بن أبى زَمَنِين

من أهل إلبيرة ، يكنى أبا عبد الله

حـــاله

من الملاحى[1] : قال وُلِّى الأَحكام ، وكان فقيها نبيها .

وفاته : توفى بغرناطة فى عَشْر الستين وأربعمائة

قلت : قد تقدم اعتذارى عن إثبات مثله فى هذا المختصر ، فلينظر هناك إن شاء الله .

محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد ابن ابراهيم بن محمد بن أبى زَمَنِين عدنان بن بشير بن كثير المُرِّى

حـــاله

كان من كبار المحدِّثين والعلماء الراسخين ، وأجلُّ وقته قدراً فى العلم والرِّواية والحفظ للرَّأى والتمييز للحديث ، والمعرفة باختلاف العُلماء ،

(١) هو أبو القاسم الملاحى صاحب كتاب «تاريخ علماء إلبيرة » وقد سبق التعريف به . وسوف يورد لنا ابن الخطيب ترجمته بعد قليل .

مُتفَنّناً فى العلم ، مضطَّلعا بالأَدب ، قارضاً للشِّعر ، متصرفاً فى حفظ المعانى والأَخبار ، مع النُّسك والزُّهد ، والأَخذ بسُنَن الصالحين ، والتخلُّق بأَخلاقهم . لم يزل أُمَّةً فى الخير ، قانتاً لله ، مُنيباً له ، عالما زاهدا صالحا خيِّراً متقشِّفا ، كثير التَّبَتُّل والتَّزلُّف بالخيرات ، مسارعاً إلى الصالحات ، دايمُ الصلاة والبكاء ، واعظًا . مذكراً بالله ، داعياً إليه ، ورِعاً ، مُلَبِّى الصدقة ، معينا على النَّايِبة ، مواسيا بجاهه وماله . ذا لسانٍ وبيانٍ ، تُصغى إليه الافئدة ، فصيحا ، بهيًّا ، عربيًّا ، شريفا ، أَبِيَّ النفس ، عالى الهمة ، طيِّب المجالسة ، أَنيس المشاهدة ، ذكيا ، راسخاً فى كل جمٍّ من العلوم ، صَيْرفيا جهْبِذاً ، ما رُؤى (١) قبله ولا بعده ، مثله .

مشيخته

سكن قرطبة ، وسمع بها من أحمد بن مطرِّف ، ووَهَب بن مَسرَّة الحِجارى ، وعن أَبان بن عيسى بن محمد بن دنيِّر ، وعن والده عبيد الله ابن عيسى .

من روى عنه : روى عنه الزاهد أبو اسحق إبراهيم بن مسعود الإلبيرى وغيره .

تواليــــفه

أَلف كتاب المُغْرب فى اختصار « المُدَوَّنة » ثلاثين جزءاً ، ليس فى المختصرات مثله بإجماع ، والمُهَذَّب فى تفسير « المُوَطَّأ » ، والمُشْتمل فى أُصول الوثايق ، وحياة القلوب ، وأَنْسُ الفريد ، ومُنْتَخب الاحكام ، والنصائح المنْظُومة ، وتفسير القرآن .

---

(١) وردت فى الإسكوريال (رى ء) ونعتقد أن التصويب أفضل .

مولده : فى المحرم سنة أربع وعشرين وثلاثمائة .

وفاته : توفى فى شهر ربيع الثانى عام ثمانية وتسعين وثلاثمائة بحاضرة إلبيرة ، رحمه الله ونفع به .

محمد بن عبد الرحمن بن الحسن بن قاسم بن مُشْرف بن قاسم ابن محمد بن هانى اللخمى القايصى

يكنى أبا الحسن

حـــاله

كان وزيراً جليلا ، فقيها رفيعا ، جوادا ، أديبا ، جيِّد الشعر ، عارفا بصناعة النَّحو والعَرُوض ، واللغة والأدب والطب ، من أهل الرِّواية والدِّراية

مشيخته

روى عن الحافظ أبى بكر بن عطيَّة ، وأبى محمد بن عَتَّاب ، وأبى الوليد ابن رُشد القاضى الإمام ، والقاضى أبى محمد عبد الله بن على بن سَمْجون .

شـــعره

من شعره قوله :

يا حُرقَةَ البَيْن كَوَيْتِ الحشا حتى ... أَذَبْتِ القَلْــبَ فى أضْلُعــه

أذكيتِ فيــه النَّــار حتى غــدا ... يَنْسَاب ذاك الذَّوْبُ من مَدْمَعه

يا سُؤْلَ هذا القلب حتى متى ... يوسى برَشْف الرِّيق من مَنْبعه

فإنَّ فى الشَّهد شِــفاً للــورى ... لاسيما إن يَصِر من مَكْـرِعه

والله يُدنى منــكم عاجـــلا ... ويبلِّغ القلبَ إلى مَطْمعــه

مولده : ولد فى الثلث الأخير من ليلة الجمعة لثلاث بقين لذى حجة سنة ثمان وتسعين وأربعمائة .

توفى فى آخر جمادى الأُخرى سنة ست وتسعين وخمسمائة .

محمد بن عبد الرحمن بن عبد السلام بن أحمد بن يوسف ابن أحمد الغسانى

من أهل غرناطة ، يكنى أبا عبد الله

حـــاله

كان محدِّثاً نبيلا حاذقا ذكيا ، وله شرح جليل على كتاب «الشِّهاب» ، واختصارٌ حسن فى « اقتباس الأَنوار» للرُّشاطى . وكان كاتباً وافر الحظٍّ من الأَدب ، يَقرِض شعراً لا بأس به .

من شعره فى ذكر أَنساب طبقات العرب :

الشَّعبُ ثم قبيلةٌ وعمــارةٌ ... بَطْنٍ وفَخْذٍ والفَصِيلة تابعُه
فالشَّعب يَجمع للقبائل كلها ... ثم القَبيلةُ للعِمارة جــامعة
والبَطْنُ يجمعه العِمار فاعْلَمَن ... والفخذ يجمعه البطون الواسعة
والفخذُ يجمع للفصايل كلها ... جاءت على نسقٍ لها مُتَتابعة
فخُزيْمة شعبٌ وإنّ كِنـــانة ... لقبيلةٌ عنها الفَصايل شاسِعة
وقُرَيْشُها تسمو العبارة يافَتى ... وقُصَىٌّ بطنُ الأَعادى قامِعة
ذا ما ثَمَّ فخذٌ وذا عبَّاسُــها ... الا الفصيلة لا تُناط بسابِعة

ولد بغرناطة سنة ثمان وستين وخمسماية .

وفاته : بمُرْسية فى رمضان تسع عشرة وستماية .

محمد بن عبدالواحد بن إبراهيم بن مُفَرِّج بن أحمد بن عبد الواحد ابن حُرَيث بن جعفر بن سعيد بن محمد بن حَقْل الغافقى

من ولد مروان بن حقل النازل بقرية الملاَّحة من قَنْبِ قَيْس[١] من عمل إلبيرة ، يكنى أبا القاسم ويعرف بالملاَّحى . وقد نقلنا عنه الكثير ، وهو من المفاخر الغَرْناطية .

حـــاله

كان محدِّثا راوية مُعْتنيا ، أديبا ، مؤرخا ، فاضلا جليلا . قال الأُستاذ فى « الصلة » : كان من أفضل الناس ، وأَحسَنِهم عِشْرةً ، وأَلينِهم كلمة ، وأَكثرهم مروءة ، وأَحسنِهم خَلْقاً وخُلُقاً ، ما رأَيت مثله ، قدَّس الله تربتَه . وذكره صاحب « الذيل »[٢] ، الأُستاذ أَبو عبد الله بن عبد الملك ، وأطنب فيه ، وذكره المحدِّث أبو عبد الله الطنجالى ، وذكره ابن عساكر فى تاريخه .

مشيخته

روى عن أبيه أَبى محمد ، وأَبى القاسم بن بَشْكُوال ، وأَبى العبَّاس بن اليتيم ، وعالمٍ كثير من غير بلده ، ومن أَهل بلده سوى أبيه ، وعن أَبى سليمان داود بن يزيد بن عبد الله السَّعدى القلعى ، لازمه مدة . وعن أَبى خالد بن رَفاعة اللخمى ، وأَبى محمد عبد الحق بن يزيد العَبْدرى ،

---

(١) سبق التعريف بهذين الموضعين ، الملاحة وبالإسبانية La Mala ، وقنب قيس وبالإسبانية Cambca (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ٥٨ ، و١٢٨ ، و١٢٩ حواشى) .

(٢) أعنى كتاب « الذيل والتكلة » . وقد ورد بعد هذه الكلمة فى مخطوط الإسكوريال كلمة (ذكره) مرة أخرى ونعتقد أن وجودها هنا سهو من الناسخ ، ومن ثم فقد أغفلناها .

وأَبى جعفر عبد الرحمن بن الحسن بن القصير ، وأَبى بكر بن طلحة ابن أَحمد بن عبد الرحمن بن عطية المُحاربى ، وأَبى محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم ، وأَبى جعفر بن حَكَم الحصَّار ، وأَبى عبد الله بن عَرُوس ، وأَبى الحسن بن كَوْثر ، وأَبى بكر الكَتُنْدى ، وأَبى إسحق بن الجلاَّ ، وأَبى بكر بن أَبى زَمَنِين ، وأَبى القاسم بن سمْجون ، وأَبى محمد عبد الصمد ابن محمد بن يَعيش الغسانى . وكان من المكثرين فى باب الرِّواية ، أَهل الضبط والتقييد والإتقان ، بارعَ الخَطِّ ، حسن الوراقة ، أَديبا بارعا ذاكرا للتاريخ والرجال ، عارفا بالأَنساب ، نقَّادا حافظا للأَسانيد ، ثقةً عَدْلاً ، مشاركاً فى فنون ، سياسياً . وروى عنه الأُستاذ ، واعتنى بالرواية عنه . وقال الأُستاذ ، حدَّثنى عنه من شيوخى جماعة ، منهم القاضى العدْل أَبو بكر بن المُرابط .

تواليفه

أَلَّف كتابه فى « تاريخ علماء إلبيرة » ، واحتفل فيه . وأَلف كتاب « الشجرة فى الأَنساب » ، و « كتاب الأَربعين حديثاً » ، و« كتاب فضايل القرآن » ، و « برنامج روايته » وغير ذلك .

مولده : سنة تسع وأَربعين وخمسماية

وفاته : توفى فى شعبان سنة تسع عشرة وستماية ببلده .

محمد بن على بن عبد الله اللخمى

يكنى أَبا عبد الله ، ويعرف بالشَّقُورى ، منسوباً إلى مدينة شُقورة[1]

(١) هى بلدة أندلسية حصينة تقع شمال شرق مدينة أبدة ، وشمال غربى مرسية على مقربة من نهر شقوره وبالإسبانية Segura .

ومنها أَهله ، صاحبُنا طبيب دار الإمارة ، حفظه الله .

حـاله

هذا الرجل طِرْفٌ فى الخير والأَمانة ، فذٌّ فى حسن المشاركة ، نقِىٌّ فى حب الصَّالحين ، كثير الهوى إلى أهل التقوى، حَذِرٌ من التفريط ، حريص على التَّعلُّق بجناب الله . نشأَ سابِغ رداءِ العفَّة ، كثيفَ جِلْباب الصِّيانة ، متصدِّراً للعلاج فى زمن المُراهقة ، مُعِمًّا ، مُخوَّلا فى الصِّناعة بادى الوقار فى سَنِّ الحشمة . ثم نظر واجتهد ، فأَحْرَز الشهرة بدِينه ، ويُمْن نَقِيبته ، وكثرة حِيطته ، ولطيف علاجه ، ونُجْح تجربته . ثم كَلِف بصحبة الصالحين ، وخاض فى السلوك ، وأخذ نفسه بالارتياض والمُجاهدة ، حتّى ظهرت عليه آثار ذلك . واستدعاه السلطان لعلاج نفسه ، فاغْتَبط به ، وشدَّ اليَدَ عليه ، وظهر له فضله ، وهو لهذا العهد ببابه ، حميدُ السيرة ، قويم الطريقة ، صحيح العَقْد ، حسن التدبير ، عظيم المشاركة للناس ، أَشدُّ الخلق حرصاً على سعادة من صَحِبه ، وأكثرهم ثناءً عليه ، وأَصْرَحُهم نصيحة له ، نبيلُ الأَغراض ، فَطِن المقاصد ، قايمٌ على الصنعة ، مُبِين العبارة ، معتدل فى البحث والمذاكرة ، متكلم فى طريقة الصُّوفية ، عديم النظير فى الفضل ، وكرم النَّفس .

شيوخه

قرأ على جده للأَب ، وعلى الحكيم الوزير خالد بن خالد من شيوخ غرناطة ، وعلى شيخنا الحكيم الفاضل أَبى زكريا بن هُذَيل ، ولازمه ، وانتفع به ، وسلك بالشيخ الصُّوفى أَبى مُهذِّب عيسى الزيات ثم بأَخيه الصالح الفاضل أَبى جعفر الزيات ، والتزم طريقته ، وظهرت عليه بَرَكته .

تواليفه

ألف كتبا نبيلة ، منها « تحفة المتوسل فى صنعة الطب» وكتابا أسماه « الجهاد الاكبر » ، وآخر سماه «قمع اليهودى عن تعدى الحدود» أحسن فيه ما شاء .

شـــعره

أنشدنى بعد ممانعة واعتذار ، إذ هذا الغرض ليس من شأنه :

سالت رِكاب العِز أين ركابى … فابدى عِنادا ثم رد جـوابى
ركابُك مع سيرى يسيرُ بسيره … بغير حُلول مذ حَللتَ جَنابى
فلا تلتفت سيراً لذاتك إنما … تسير بها سيراً لغير ذهـاب

وهى متعددة .

ولد فى عام سبعة وعشرين وسبعماية .

محمد بن على بن فرج القَرِبْليانى (١)

يكنى أبا عبد الله ويعرف بالشِّفرة (٢)

حـــاله

كان رجلا ساذِجا ، مشتغلا بصناعة الطب ، عاكفا عليها عمره محققا لكثير من أعيان النَّبات ، كَلِفًا به ، مُتَعَيِّشاً من عُشْبه أول أمره ،

---

(١) بهذه الترجمة يبدأ الجزء الثالث من كتاب الإحاطة ، مخطوط الزيتونة الذى يحفظ بدار الكتب التونسية الوطنية (مكتبة العطارين) برقم 8136 . ومخطوط المتحف البريطانى (من كتاب الإحاطة (المحفوظ برقم Or. 8674 ، ومخطوط مكتبة الرباط العامة المنقول عنه . ويحمل رقم 2704ك (الكتانية)

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الشفر) .

وارتاد المنابِت ، وسَرَح بالجبال ، ثم تصدَّر للعلاج ، ورأس به ، وحفظ الكثير من أَقوال أهله ، ونسخ جملة من كنَّانيشه على ركاكة خطِّه ، وعالج السلطان نصر المُسْتَقر بوادى آش ، وقد طرق من بها مرضٌ وافد [حمل علاجه المُشاقَحة لأَجله ، وعظُم الملاك فيمن اختصَّ بتدبيره ، فطوَّف القلب المبارك بَمبْراه . ثم رحل إلى العُدْوة ، وأَقام بَمراكُش سنين عدة ، ثم كرَّ إلى غرناطة فى عام أَحد وستين ، وبها هلك على أَثر وصوله .

مشيخته

زعم أنه قرأ على أَبيه ببلده من قَربْليان بلد الدَّجن(١) ، وأَخذ الجِراحة عن فوج من مُحسنى صناعة عمل اليَد من الرُّوح . وقرأ على الطبيب عبد الله بن سِراج وغيره .

تواليفه : أَلف كتاباً فى النَّبات .

وفاته : فى السابع عشر لربيع الأَول عام أَحد وستين وسبعماية](٢)

محمد بن على بن يوسف بن محمد السَّكونى

يكنى أَبا عبد الله ويعرف بابن اللؤلؤة ، أَصله من جهة قمارش(٣)

حـــاله

رحل فى فتايه ، بعد أَن شدا شيئا من الطلب ، وكَلِف بالرواية والتقييد

---

(١) أى البلد الذى يسكنه المسلمون الذين تحت حكم النصارى . والظاهر أن هذه البلدة ، أى قربليان كانت داخلة فى حدود قشتالة .

(٢) كل ما هو محصور بين الحاصرتين وارد فى مخطوط الزيتونة . وساقط فى الإسكوريال .

(٣) قمارش بلدة أندلسية حصينة تقع شمال شرق ثغر مالقة فى سفح جبال سيرا نفادا (جبل الثلج) ، وبالاسبانية Comares .

فلقى مشيخةً ، وأخذ عن جِلَّة ، وقدم على بلده حسن الحالة ، مستقيم الطريقة ، ظاهر الانقِباض والعفَّة ، وأَدخل الأَندلس فوايد وقصايد ، وكان ممن ينتفع به لو أَمهلته المنية .

شـــعره

مما نسبه إلى نفسه من الشعر قوله :

يا من عليه اعتمـادى ... فى قِلٍّ أمرى وكُثْـره
سَـهِّل على ارتحـــالى ... إلى النَّبى وقَبْـــرِه
فذاك أَقْصَى مُـــرادى ... من الوُجـــود بأَسْرِه
وليس ذا بعـــزيـــز ... عليك فامنن بيُسْـــرِه

ومن ذلك :

أَمن بعد ما لاح المَشيب بمفْرِق ... أَميل لزُور بالغُرور مصـــاغ
وأرتاح للَّذات والشَّيب مُنذر ... بما ليس عنه للأَنام مــراغُ
ومن يَمُتْ قبل المشيب فإنه ... يُراع بهول بعده ويُـــراغ
فياربٌ وفِّقنى إلى ما يكون لى ... به للذى أَرْجُوه منك بلاغ

توفى مُغْتَبطاً فى وقيعة الطاعون(١) عام خمسين وسبعماية ، خطيباً بحصن قُمارش .

---

(١) إن وقيعة الطاعون التى يشير إليها ابن الخطيب هنا والتى سبق أن أشار إليها غير مرة والتى سوف يشير إليها فيما بعد مرارا أخرى باسم الطاعون الأعظم ، هى كارثة الوباء الجارف الذى اجتاح أمم الشرق والغرب معا فيما بين سنتى ١٣٤٨ و ١٣٤٩ م (٧٥٠ هـ) ، والذى طاف بالأندلس كما طاف من قبلها بمصر وبلاد المغرب وحمل منها مئات الألوف . وتشير إليه الرواية الإسلامية باسم « الفناء الكبير » وقد سبق التعريف بهذا الحادث :

محمد بن سُودة بن إبراهيم بن سودة المُرِّى

أَصله من بُشُرَّة غرناطة ، يكنى أبا عبد الله .

حـــاله

من بعض التواريخ المتأَخِّرة : كان شيخاً جليلاً ، كاتباً مجيداً ، بارع الأَدب ، رايق الشعر ، سيَّال القَريحة ، سريع البديهة ، عارفاً بالنَّحو واللغة والتاريخ ، ذاكراً لأَيام السَّلف ، طيِّب المحاضرة ، مَليح الشَّيبة ، حسن الهيئة ، مع الدِّين والفضل ، والطَّهارة والوقار والصَّمت .

مشيخته

قرأ بغرناطة على الحافظ أَبى محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم بن الفَرَس ، وغيره من شيوخ غرناطة . وبمالقة ، على الأُستاذ أَبى القاسم السُّهيلى وبجيَّان على ابن يَرْبُوع ، وبإشبيلية على الحسن بن زَرْقون وغيره من نُظَرائه .

أَدبه

قال الغافِقى ، كانت بينه وبين الشيخ الفقيه واحد عصره أَبى الحسن سَهْل بن مالك ، مُكاتبات ومُراجعات ، ظهرت فيها براعتهُ ، وشَهدت له بالتقدم يراعَتُه .

محنتـــه

أَصابَتْه فى آخر عمره نكبةٌ ثقيلة ، أُسِر هو وأَولاده ، فكانت وفاتُه أَسفاً لما جرى عليهم نفعه الله . توفى فى حدود سبعة وثلاثين وستمابة .

محمد [بن يزيد] (١) بن رَفاعة الأموى (٢) البِيرى (٣)

أصله من قرية طُرُش (٤)

حـــاله

طلب العلم وعنى بسمعه (٥) ، ونسخ أكثر كتبه بخطِّه ، وكان لُغَويا شاعرا ، من الفقهاء المُشاورين الموثِّقين ، ووُلِّى الصلاة بالحاضرة ، وعُزل وسَرَد الصَّوم عن نَذْرٍ لَزِمه عُمْره .

مشيخته

سمع من شيوخ إلبيرة ، محمد بن فُطيس ، وابن عَمْريل ، وهاشم ابن خالد ، وعثمان بن جهير ، وحفص بن نجيح ، وبقرطبة من عُبيد الله ابن يحيى بن يحيى وغيره .

من حكاياته : قال المؤرخ ، من غريب ما جرى لأَبِى على البغدادى ، فى مَقْدَمه إلى قرطبة ، أَن الخليفة الحكَم ، أَمر ابن الرِّما حس عامله على كُورَتَى إلبيرة وبجَّانة ، أَن يجىء مع أَبى على فى وفد من وجوه رعيَّته ، وكانوا يتذاكرون الأَدب فى طريقهم ، إلى أن تجاروا يوما وهم سايرون ، أَدب عبد الملك بن مَرَوان ، ومُساءلته جلساءه عن أفضل المناديل ، وإنْشَاده بيت عَبْدَة بن الطبيب :

---

(١) الزيادة فى النسب من الزيتونة . ووردت مصححة فى هامش الإسكوريال .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الأسدى) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الإلبيرى) .

(٤) طرش وبالإسبانية Torrox بلدة أندلسية صغيرة تقع بين المنكب وبلش مالقة على مقربة من البحر المتوسط .

(٥) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (بجمعه) والأولى أنسب .

ثُمَّتَ قُمنا إلى جُرُدٍ مُسَوَّمة   أعراقُهُنَّ لأَيْدينا مَناديل

وكان الذَّاكر للحكاية أَبو على ، فأَنشد الكلمة فى البيت أَعراقُها ، فلوى ابن رفاعة عِنانه منصرفاً ، وقال ، مع هذا يُوفد على أَمير المؤمنين ، وتُتَجشَّم الرِّحلة العظيمة ، وهو لا يقيم وَزْنَ بيت مشهور فى النَّاس ، لا يَغْلط فيه الصِّبيان ، والله لاتَبِعتُه خطوة ، وانصرف عن الجماعة ، ونَدَبه أَميره ابن الرِّماحس ، ورامَه بأَن لا يفعل ، فلم يجد فيه حيلة ، فكتب إلى الخليفة يعرِّفُه بابن رفاعة ، ويصف ما جرى معه ، فأَجابه الحَكَم على ظهر كتابه : الحمد لله الذى جَعَل فى بادية من بوادينا من يُخْطِّئ وفد أَهلِ العراق ، وابن رَفاعة بالرِّضا أَولى منه بالسُّخط ، فدعه لشَأْنه ، وأَقدم بالرَّجُل غيرَ منتَقَصٍ من تكريمه ، فسوف يُعليه الاختبار أَو يحطَّه .

توفى سنة ثلاث أَو أَربع وأَربعمائة[١]

محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن على ابن أبى بكر بن خميس الأنصارى

من أَهل الجزيرة الخضراء

حـــاله

كان فاضلا وقورا ، مشاركا ، خطيبا ، فقيها ، مُجَوِّداً للقرآن ، قديمَ الطَّلب ، شهير البيت ، معروف التَّعَيُّن ، نَبيه السَّلف فى القَضاء ، والخطابة والإقراء ، مضى عمره خطيباً بمسجد بلده الجزيرة الخضراءِ ،

(١) وردت فى الإسكوريال والزيتونة (وثلاثمائة) وهو تصحيف واضح ، وصحته ما اثبتناه وهو (أربعمائة) ، لأن الخليفة الحكم المستنصر توفى بعد حكم دام ستة عشر عاما فى سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) .

إلى أن تغلّب العدوُّ عليها ، وباشر الحِصار بها عشرين شهرا ، نفعه الله ثم انتقل إلى مدينة سَبْتَة ، فاستقرَّ خطيبا بها إلى حين وفاته .

مشيخته

قرأ على والده رحمه الله ، وعلى شيخه ، وشيخ أبيه أبى عمر ، وعباس ابن الطُّفيل الشهير بابن عَظيمة ، وعلى الأُستاذ أبى جعفر بن الزُّبير ، والخطيب أبى عبد الله بن رُشَيد بغرناطة عند قدومه عليها ، والقاضى أبى المجد بن أبى الأَحوص قاضى بلده ، وكتب له بالإجازة الوزير أبو عبد الله بن أبى عامر بن ربيع ، وأجازه الخطباء الثلاثة أبو عبد الله الطَّنجالى ، وأبو محمد الباهلى ، وأبو عثمن بن سعيد . وأخذ عن القاضى بسَبْتة أبى عبد الله الحَضْرمى ، والإمام الصالح أبى عبد الله بن حُريث ، والمحدث أبى القاسم التُّجيبى ، والأُستاذ أبى عبد الله بن عبد المنعم ، والأَخوين أبى عبد الله وأبى إبراهيم ابنى يَرْبوع . قال ، وكلُّهم لقيتُه وسمعتُ منه . وأجاز لى إجازة عامة ما عدا الإمام ابن حُريث فإنه أجاز لى ، ولقيته ولم أسمع عليه شيئاً ، وأجاز لى غيرهم كناصر الدين المِشْدالى ، والخطيب ابن عَزْمون وغيرهما ، ممن تضمنه برنامجُه .

تواليفه

قال ، وكان أحدُ بُلَغاءِ عصره ، وله مُصنَّفات منها ، «النَّفْحة الأَرَجِيَّة فى الغزوة المَرْجيَّة» ، ودخل غَرْناطة مع مثله من مشيخة بلده فى البَيْعات أظن ذلك .

توفى فى الطّاعون بسبتة آخر جمادى الآخرة من عام خمسين وسبعماية ،

محمد بن أحمد بن عبد الله العطار

من أهل ألمريَّة .

حاله : من بعض التَّقييدات ، كان فتًى وسيماً ، وقوراً ، صيِّباً ، متعفِّفاً ، نجيبا ، ذكيا . كَتَب عن شيخنا أبى البركات بن الحاج ، وناب عنه فى القضاء ، وانتقل بانتقاله إلى غرناطة ، فكَتَب بها . وكان ينظم نظما مترفِّعاً عن الوَسَط . وجرى ذكره فى « الإكليل » بما نصُّه : ممَّن نبغ ونَجُب ، وخُلق له البرُّ بذاته ووجب ، تحلى بوقار ، وشَعْشع للأَدب كاس عُقار ، إلا أنه اختُرِم فى اقتبال ، وأُصِيب الأَجل بنِبال .

ومن شعره قوله من قصيدة :

دعانى على طول البُعاد هواها ... وقد سَدَّ أبواب اللُّقا نَواها
وقد شمتُ برقا للُّقا مُبَشِّراً ... وقد نَفَحَتْ ريح الصَّبا بشذاها
وجنَّ دُجى ليل بخيل بصُبحه ... كما بَخِلت لَيْلَى بطيف سُراها
وقاد زمانى قايدُ الحبِّ قاصدا ... ربوعا ثَوتْ لَيلى بطول قَناها
وناديت والأَشواق بالوَجْدبَرَّحت ... ودمعى أجرى سابغاً لِلقاها
أَبا كَعْبَةَ الحُسْنِ التى للنفس تُرتجى ... رضاها وحاشى أن يَخيب رجاها
أَحبك يا لَيلى على البُعد والنوى ... وبى منك أَشواق تَشُبُّ لظاها
لين حُجبت لَيلى عن العين إننى ... بعين فؤادى لا أزال أراهـا
إلى أن بدا الصبح المُشَتِّت شَمْلنا ... وما بَلَغَتْ نفس المشُوق مُناها
فمدَّت يميناً للوَداع ودمعهـا ... يُكفكِفه خوفُ الرقيب سُراها
وقالت وداعا لا وداع تفَرُّق ... لعلَّ الليالى أن تُديل نَـواها
تُذَكِّرنا ليلى معاهد بالِّلـوى ... رعى الله ليلاتِ اللِّوى ورعاها

توفى فى الطاعون الأعظم عام خمسين وسبعمائة .

محمد بن أحمد بن المراكشى

من أهل ألمريّة ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بالمُرّاكشى .

حـــاله

كان فتى جميل الرؤيا[١] ، سكُوتا ، مَطْبوعا على المُغافَصَة[٢] والغَمْز ، مهتديا إلى خِفىِّ الحيلة ، قادرا على المُباحثة ، ذكياً ، مُتَسَوِّرا[٣] على الكلام فى الصّنايع والألقاب ، من غير تدَرُّب ولا حُنْكَة ، دمِثُ الأخلاق ، لين العريكة ، انتحل الطب ، وتصدّر للعلاج والمداواة ، واضطّبن أُغْلوطةً صارت له بها شهرة ، وهى رِقٌّ يشتمل على أعداد وخطوط وزايرجة ، وجداول غريبة الأشكال ، تحتها علامات فيها اصطلاحات الصّنايع والعلوم ، ويتصل بها قصيدة رويُّها لام الألف أولها ، وهى منسوبة لأبى العباس السبتى .

يقول سَبْتِيٌّ ويحمد ربــه مُصَلٌّ على هاد إلى الناس أُرْسلا

وأنها مدخل للزّيرجة ذكر أنه عثر عليها فى مَظِنَّة غريبة ، وظفر برسالة العمل بها ، وتحرى بالإعلام بالكنايات ، [والإخبار بالخَفِيِّ][٤] وتَقْدِمَة المعرفة ، والإنذار بالوقايع ، حتى استهوى بذلك جماعة من المَشْيخة ، ممن

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (الرواية) . وهو تحريف .

(٢) المغافصة أى المفاجأة .

(١) وردت فى الزيتونة (مستورا) وفى الإسكوريال (ستسورا) وهو تحريف . والتصويب أنسب للمعنى والسياق .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (وإخراج الخبء) والأولى أفصح وأنسب للسياق .

كان يركَنْ إلى رُجحان نظره ، وسلامة فِطرته ، واستُغلّت الشهادة له بالإصابة ، سجيّة النفوس فى حِرصها على إثبات دعاوى المتَحَرِّفين ، أَخبرنى بعضهم أَنه خبَّأَ له عَظْماً صغيراً ، يكون فى أَطراف أَجنحة الطَّير ، أَخذه من جناح ديك ، وزعم أَرباب الخَواصّ أَنه يُزيل الإعياء إذا عُلِّق ، فتصرَّف على عاداته [من الدخول][1] فى تلك الجداول ، وأَخذ الأَعداد الكثيرة ، يَضْرِبُها آونة ، ويُقَسِمها أُخرى ، ويستخرج من تلك الجداول جيوباً وسِهاماً ، ويأخذ جذوراً ، وينتج له العمل آخراً حروفاً مقطعة ، ببُقيها الطرح ، يُولف منها كلاما ، تُقْتَنص منه الفائدة ، فكان فى ذلك بيت شعر :

وفى يدكم عَظْمٌ صغير مُدَوَّر يُزيل به الإعيا مَنْ كان فى السَّفر

وأَخبرنى آخرون أَنه سُيل فى نازلة فقهية لم يُلق فيها نص ، فأَخبر أَن النص فيها موجود بمالقة ، فكان كذلك . وعارض ذلك كله جلَّةٌ من أَشياخنا ، فذكّرنى الشيخ نسيج وحده ، أَبو الحسن بن الجياب أَنه سامره يُخرج خبيئته سواد لَيْلة ، فتأَمَّل ما يصنعه ، فلم يأْت بشيء ، ولا ذهب إلى عمل يُتعقَّل ، وظاهر الأَمر أَن تلك الحال كانت مبنيَّة على تَخَيُّل وتخمين ، تختلف فيه الإصابة وضدها ، بحسب الحالة والقايل ، لتصرُّف الحيلة فيه ، فاقتضى ذلك تأْميل طائفة من أَهل الدَّول إياه ، وانتسخوا نظاير من تلك الزيرجة المموَّهَة ، مطُولين منه بطريق التصرُّف فيها إلى اليوم ، واتصل بالسلطان ، فأُرسم ببابه ، وتعدَّى الإنْس إلى طبِّ الجِن ، فافتضح أَمره ، وهُمَّ به ، فنجا مُفْلِتاً . ولم تزل حاله مضطّربة ، إلى أَن دُعى من العُدْوة وسلطانها ، منازل مدينة تلمسان ، ووصلت الكتب عنه ،

---

(١) الزيادة من الزيتونة .

فتوجَّه فى جَفْن هُيِّىءَ له ، ولم ينشِب أَن تُوفى بالمحلَّة فى أَوايل عام سبعة وثلاثين وسبعماية .

محمد بن بكرون بن حزب الله

من أَهل مالقة ، يكنى أَبا عبد الله .

حـــاله

من أَهل الخصوصيَّة والفضل ، ظاهر الاقتصاد ، كثير التخلُّق ، حسن اللقاءِ ، دايم الطريقة ، مختصر الملبس والمأْكل ، على سُنن الفضلاءِ وأَخلاق الجِلَّة . انتظم لهذا العهد فى نَمَط من يُسْتجاز ويُجيز . وكان غَفلاً فأَقام رسْمًا محموداً ، ولم يُقَصِّر عن غاية الاستعداد .

مشيخته

منهم الأُستاذ مولى النعمة على أَهل بلده ، أَبو محمد عبد الواحد بن أَبى السَّداد الباهلى ، قرأَ عليه القرآن العظيم أَربعة عشر خَتْمة قراءَة تَجْويد وإتقان بالأَحرف السَّبعة ، وسمع عليه كتباً كثيرة ، وقال عند ذكره فى بعض الاستدعاءَات : ولازمته رضى الله عنه وأَرضاه إلى حين وفاته ، ونلتُ من عظيم بركاته ، وخالص دعَواته ، ما هو عندى من أَجلِّ الوسايل ، وأَعظم الذخيرة ، وأَفضل ما أَعْدَدْتُه لهده الدَّار والدار الآخرة . وكان فى صَدْر هذا الشيخ الفاضل كثير من عِلْم اليقين . وهو عِلْمٌ يجعله الله فى قَلْبِ العبْد إذا أَحبَّه ، لأَنه يؤول بأَهله إلى احتمال المكروه ، والتزام الصَّبر ، ومُجاهدة الهوى ، ومُحاسبة النَّفس ، ومراعاة خواطر القلب ، والمُراقبة لله ، والحياءِ من الله ، وصحَّة المعاملة له ، ودوام الإقبال عليه ، وصحَّة النِّية ،

واستشعار الخَشْية . قال الله تعالى : إنما يَخْشى الله من عِباده العُلماء ، فكفى بخَشْية الله عِلْماً ، وبالإقبال عليه عزا . قلت ، وإنما نقلت هذا ، لأَنَّ مثله لا يصدر إلا عن ذى حركة ، ومُضْطَّبن بَرَكة ، ومنهم الشيخ الخطيب الفاضل ولى الله ، أَبو عبد الله محمد بن أَحمد بن يوسف الطَّنجالى .

دخل غرناطة راويًا ، وفى غير ذلك فى شئونه ، وهو الآن ببلده مالَقة يخطب ببعض المساجد الجامعة بها على الحال الموصوفة .

محمد بن الحسن بن أحمد بن يحيى الأنصارى الخزرجى

الميُورقى[1] الأَصل ، سكن غرناطة .

حــاله

كان محدِّثاً عالى الرِّواية ، عارفا بالحديث وعِلَله ، وأَسماءِ رجاله ، مشهورا بالإتقان والضبط ، ثِقَةً فيما نَقل ورَوى ، ديِّناً ، زكيا ، متَحاملا ، فاضلا ، خيِّراً ، مُتَقَلِّلا من الدُّنيا ، ظاهرىَّ المذهب داوُديَّه[2] ، يَغْلِب عليه الزهد والفضل .

مشيخته

روى بالأَندلس عن أَبى بكر بن عبد الباقى بن محمد الحِجارى ، وأَبى على الصَّدْفى الغسانى ، وأَبى مروان الباجى ، ورَحل إلى المشرق وحجَّ ، وأَخذ بمكة كرمها الله ، عن أَبى ثابت وأَبى الفتح عبد الله بن محمد البيضاوى وأَبى نصر عبد الملك بن أَبى مسلم العُمرانى . قلت وغيرهم اختصرتهم

---

(١) نسبة إلى مدينة ميورقة Mallorca عاصمة جزيرة ميورقة ، كبرى الجزائر الشرقية (البليــار) .

(١) يريد الإشارة هنا إلى خلف بن داود الإصفهانى . مؤسس المذهب الظاهرى المتوفى سنة ٢٧٠ هـ.

لطولهم ، وقفَل إلى الأَندلس فحدَّث بغير بلده منها ، لتجواله فيها .

من روى عنه : روى عنه أَبو بكر بن رزق ، وأَبو جعفر بن الغاسل وغيرهم .

محنتــه

إمتُحن من قِبل على بن يوسف بن تاشُفين ، فحُمل إليه صحبة أَبى الحكم بن يُوجان ، وأَبى العباس بن العَريف ، وضُرب بالسَّوط عن أَمره ، وسجنه وقتا ، ثم سرَّحه وعاد إلى الأَندلس ، وأَقام بها يسيراً ، ثم انصرف إلى المشرق ، فتوقف بالجزاير ، وتوفى بها فى شهر رمضان سنة سبع وثلاثين وخمسماية .

محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم الأنصارى الساحلى

يكنى أَبا عبد الله ، ويعرف ببلده مالقة بالمُعَمَّم .

حــــاله

كان طبقةٍ من طبقات الكُفاة ، ظَرْفاً ورُواءً وعارضةً وترتيباً ، تجلَّل بفضل شهرة أَبيه ، وجعل بعض المُتْرفين من وزراء الدُّول بالمغرب أَيام وَجَّهْتُه إليه ، صُحبة الشيخ الصالح أَبيه فى غرض السفارة ، مالاً عريضاً لينفقَه فى سبيل البِرِّ ، فبنى المدرسة غربى المسجد الأَعظم ، ووَقَف عليها الرِّباع ، وابتنى غيرها من المساجد ، فحَصَلت الشهرة ، ونبُه الذِّكر ، وتطوَّر ، ورام العُروج فى مَدارج السُّلوك ، وانقطع إلى الخَلْوة ، فنَصَلَت الصِّبغة ، وغَلَبَت الطَّبعة ، وتأَثَّل له مال جم ، اختُلف فى سبب اقتنايه ،

[وأظهر][1] التجر المُرْهَف الجوانب بالجاه العَريض ، والحِرص الشَّديد ، والمُسامحة فى باب الوَرَع ، فتبَنَّك به نعيما من ملبس ومطعم وطيبٍ وتَرَفُّه ، طارد به اللَّذة ما شاءَ فى باب النِّكاح استِمتاعا وذَواقاً يَتْبع رايد الطَّرف ، ويُقَلِّد شاهد السَّمع ، حتى نُعى عليه . ووُلِّى الخطابة بالمسجد الأَعظم بعد أَبيه ، فأَقام الرسم ، وأَوْسَع المنبر ما شاءَ من جَهْوَرِيَّةٍ وعارضةٍ ، وتسوَّر على أَعراضٍ[2] ، وأَلفاظ فى أُسلوب ناب عن الخشوع ، عريق فى نسب القِحة . ثم رَحَل إلى المشرق مرة ثانية ، وكرَّ إلى بلده ، مليحَ الشَّيبة بادى الوقار ، نبيه الرُّتْبة ، فتولى الخطابة إلى حين وفاته .

مشيخته

حسبما قيَّدتُه من خطِّ ولده أَبى الحسن ، وارثِه فى كثير من خِلاله ، وأَغلبُها الكفاية . فمنهم والده رحمه الله . قرأَ عليه وتأَدب به ، ودوَّن فى طريقه ، حسبما يتقرر ذلك ؛ ومنهم الأُستاذ أَبو محمد بن أَبى السداد الباهلى ، ومنهم الشيخ الرَّاوية أَبو عبد الله بن عيَّاش ، والخطيب الصالح أَبو عبد الله الطَّنجالى ، والخطيب الصالح أَبو جعفر بن الزيات ، والأُستاذ ابن الفخار الأَركُشِى ، والقاضى أَبو عمرو بن منظور ، والأُستاذ ابن الزبير وغيرهم ، كابن رُشيد ، وابن خميس ، وابن بُرطال ، وابن مَسْعَدة ، وابن ربيع ، وبالمشرق جماعة اختصرتهم لطولهم .

تواليفه

وتسوَّر على التأليف ، بفرط كفايته ، فمما يُنسب إليه كتاب :

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة . وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) وردت فى المخطوطين (أغراض) . والتصويب أرجح بالنسبة للمعنى والسياق .

« التجر الرَّبيح فى شرح الجامع الصحيح » . قال ، منه ما جرَّده من المُبيَّضة ، ومنه ما لم يسمح الدهر بإتمامه ، وكتاب بهجة الأنوار ، وكتاب الأسرار ، وكتاب « إرشاد السَّايل لنهج الوسايل »[١] ، « وكتاب بُغْية السَّالك فى أشرف المسالك » فى التَّصوف ، وكتاب « أشعة الأنوار فى الكشف عن ثمرات الأذكار » . وكتاب النَّفحة القُدْسيَّة ، وكتاب « غُنية الخطيب بالاختصار والتَّقريب » فى خُطب الجُمَع والأعياد ، وكتاب « غرايب النُّحب فى رغايب الشُّعب » ، شُعب الإيمان ، وكتاب فى مناسك الحج ، وكتاب « نَظْم سِلْك الجواهر فى جيِّد معارف الصُّدور والأكابر » ، فِهْرِسة تحتوى على فوايد من العِلم وما يتعلق بالرواية ، وتَسْمِية الشيوخ وتحْرير الأسانيد .

دخوله غرناطة

دخلها مراتٍ تشُذُّ عن الإحصاء . ولد عام ثمانية وسبعين وستماية ، وتوفى بمالقة فى صبيحة ليلة النصف من شعبان عام أربعة وخمسين وسبعماية .

محمد بن محمد بن يوسف بن عمر الهاشمى

يكنى أبا بكر ، ويعرف بالطَّنجالى ، ولد الشيخ الولى أبى عبد الله .

حـــاله

من ذيل تاريخ مالَقة للقاضى أبى الحسن بن الحسن . قال ، كان هذا العالم الفاضل ممن جمع بين الدِّراية والرِّواية ، والتراث[٢] والاكتساب ، وعُلُو الانتِساب ، وهو من القوم الذين وصلوا الأصالة بالصَّوْل ، وطول

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (المسايل) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (والثراة) .

الأَلسِنة بالطَّول ، وهدُوا إلى الطَّيِّب من القول ، أَثَرُ الشُّموخ يَبْرُق من أَنْفِه ، ونسيم الرُّسوخ يَعْبَقُ من عَرْفه . وزاجر الصَّلاح يُومى بِطَرْفِه ، فتخالُه من خَوْف الله ذا لَمَمٍ ، وفى خلُقه دماثة ، وفى عِرنِينه شَمَمٌ . ووصفه بكثير من هذا النَّمط .

ومن « العايد » : كان من أَهل العلم والتَّفَنُّن فى المعارف والتُّهمُّم بطلبها ، جمع بين الرِّواية والدِّراية والصلاح . وكانت فيه خِفَّةٌ ، لفَرْط صِحَّةٍ وسذاجة وفضل رُجولة[1] به ، بارع الخطِّ ، حسن التَّقييد ، مَهيباً جَزْلاً ، مع ما كان عليه من التَّواضع ، يحبُّه الناس ويعظمونه ، خطب بالمسجد الأَعظم من مالِقة ، وأَقرأَ به العِلم .

مشيخته

قرأ على الأُستاذ أَبى محمد الباهلى ، وأَبيه الوَلِى الخطيب رحمه الله . وروى عن جَدِّه أَبى جعفر ، وعن الرَّاوية الأُستاذ الكبير أَبى جعفر بن الزبير ، والرَّاوية أَبى عبد الله بن عيَّاش ، والقاضى أَبى القاسم بن السَّكوت ، وغيرهم ممن يطول ذكره ، من أَهل المشرق والمغرب .

وفاته : توفى بمالقة فى أَول صفر من عام ثلاثة وثلاثين وسبعماية [وكان عُمْره][2] نحواً من تسع وخمسين سنة .

محمد بن محمد بن مَيْمُون الخزرجى

يكنى أَبا عبد الله ، ويعرف بلا أَسْلم ، لكثرة صُدور هذه اللفظة عنه ، مُرْسى الأَصل ، وسكن غرناطة ووادى آش وأَلمريّة .

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (وجولة) .

(٢) أضفنا هذه الزيادة ليستقيم السياق .

حـــاله

من كتاب « المؤتمن »[١] : كان دَمِث الأَخلاق ، قبل أن يحرجه شيء من [مُضَيِّقات الصُّدور][٢] يشارك فى العربية ، والشعر النازل عن الدرجة الوسطى ، لا يخلو بعضه عن لَحْن . وكان يتعيش من صناعة الطِّب . وجرَت له شهرة بالمعرفة [تَرْفَعُ به بتلك الصِّناعة على حَدِّ شهرةٍ ترك النَّصيحة فيها ، فكانت شُهرتُه بالمعرفة ترفع به][٣] . وشُهرتُه بترك النصيحة تُنْزله ، فيمرُّ بين الحالتين بشَظَف العيش ، وَمقْتِ الكافَّة إيّاه .

قلت ، كان لا أَسْلم ، طِرْفاً فى المعرفة بطُرُق العلاج ، فسيح التَّجربة ، يشارك فى فنون ، على حال غَريبةٍ من قِلَّة الظَّرف ، وجَفاء الآلات ، وخَشْنِ الظاهر ، والإزراء بنفسه وبالناس ، متقدَّم فى المعرفة بالخُصوم ، يُقصد فى ذلك . وله فى الحرب والحِيل حكايات ، قال صاحبنا أبو الحسن ابن الحسن : كانت للحكيم لا أَسْلم خَمْرٌ مُخبَّأٌ ، فى كَرْم كان له بأَلمريَّة عَثَر عليها بعض الدَّعرة ، فسرقها له . قال ، فعمد إلى جرَّةٍ وملأَها بخمر أُخرى ، ودفنها بالجهة ، وجعل فيها شيئاً من العقاقير المُسَهِّلات[٤] ، وأَشاع أَن الخمر العَتِيقة التى كانت له لم تُسرق ، وإنما باقية ، بموضع كذا ، فعمدَ إليها أولئك الدَّعرة ، وأَخذوا فى استعمالها ، فعادت عليهم بالاستِطْلاق القَبيح المُهْلك ، فقصدوا الحكيم المذكور ، وعرضوا عليه ما أَصابهم ، فقال لهم إيهٍ ، أَدُّوا إلىَّ ثمن الشَّريبة ، وحينئذ أَشرَعُ لكم فى

---

(١) وعنوانه الكامل «المؤتمن على أنباء أبناء الزمن» من تأليف أبى البركات ابن الحاج البلفيقى ، من شيوخ ابن الخطيب الأثيرين .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ضيق الصدر) .

(٣) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال وساقط فى الزيتونة .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (المسهلة) .

الدواءِ ، ويقع الشِّفا بحول الله ، فجمعوا له أضعاف ما كان يساويه خَمْرُه ، وعالجهم حتى شفُوا بعد مشقَّة . وأَخباره كثيرة .

وفاته : توفى عقب إقلاع الطَّاغية ملك برجلونة عن أَلمريَّة عام [تسعة] [1] وسبعماية. وخلفه ابنٌ كان له يسمى إبراهيم ، ويعرف بالحكيم ، وجرى له من الشُّهرة ما جرى لأَبيه ، مرت عليه ببَخْتٍ وقَبُول ، وتوفى بعد عام خمسين وسبعماية .

محمد بن قاسم بن أحمد بن إبراهيم الأنصارى

جيَّانى الأَصل مالَقِيه ، يكنى أَبا عبد الله ويعرف بالشُّدَيِّد على بِنْية التصغير ، وهو كثير التردُّد والمُقام بحضرة غرناطة .

حــــاله

من أَهل الطَّلب والذكاءِ والظَّرف والخُصوصِيَّة ، مجموع خِلال من خطٍّ حسن واضطِّلاع بحمل كتاب الله . بُلْبُل دَوْح السَّبع المثانى ، وما شطة عروس أَبى الفرج الجوزى ، وآية صُقْعه فى الصَّوت ، وطيب النَّغمة ، اقتحم لذلك دسوت الملوك ،وتوصَّل إلى صُحبة الأَشراف ، وجرَّ أَذْيال الشهرة . قرأَ القرآن والعَشْر بين يدى السلطان ، أَمير المسلمين بالعُدْوة ، ودنا منه محلُّه ، لولا إيثار مَسْقَط رأْسه . وتقرَّب بمثل ذلك إلى ملوك وطنه ، وصلَّى التَّراويح بمسجد قصر الحمراءِ ، غريب المنْزِع ، عذْبُ الفكاهة ،

---

(١) ورد مكانها بياض فى المخطوطين . والحادث الذى يشير إليه ابن الخطيب هو قيام خايمى الثانى ملك أراجون (وعاصمتها يومئذ برشلونة أو برجلونه) بغزو ثغر ألمرية فى سنة ٧٠٩ ﻫ (١٣٠٩م) وذلك بالاتفاق مع ملك قشتالة فرناندو الرابع الذى قام فى نفس الوقت بغزو الجزيرة الخضراء وجبل طارق. ولكن جند الأندلس استطاعوا أن يهزموا الجيش الأرجونى ورده عن ألمرية وبذلك، نجت من خطر السقوط (راجع كتابى نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين .(الطبعة الثالثة ص ١١٥و١١٦).

ظريف المجالسة ، قادرٌ على الحكايات ، مستورٌ حِمى الوقار ، مُلَبٍّ داعى الانبساط، على استرجاعٍ واستقامة ، مبرور الوِفادة ، مُنَوَّه الإنزال ، قُلِّد شهادة الدِّيوان بمالقة ، مُعَوَّلاً عليه فى ذلك ، فكان مَغار جبل[1] الأَمانة ، صَلِيب العود ، شامخًا ، صادقَ النَّزاهة ، لوحاً للأَلقاب، مُحرزاً للعمل .

ووُلِّى الحِسبة بمالقة حرسها الله تعالى ، فخاطبته فى ذلك أَداعِبُه ، وأُشير إلى قوم من أَجداده ، وأُولى الحَمْل عليه بما نصه :

يا أَيها المُحْتَسِبُ الجـزل ومن لديه الجَدُّ والهزْلُ
تُهنيك والشكر لمولى الورى ولايةٌ ليس لهـا عَـزْل

كتبتُ أَيها المحتسب ، المنْتمى إلى النزاهة المنْتَسب ، أُهَنِّيك ببلوغ تمنِّيك ، وأُحذِّرك من طمع نفسٍ بالغرور تُمَنِّيك ، فكأَنِّى وقد طافت بركابك السَّاعة ، ولزم لأَمرِكَ السَّمع والطَّاعة ، وارتفعت فى مصانعتك الطِّماعة ، وأَخذت أَهل الرِّيب بَغْتة كما تقوم الساعة ، ونَهِضْت تَقعد وتقيم ، وسكوتُك الريح العقيم ، وبين يديك القِسْطاس المُسْتَقيم ، ولابُدَّ من شَرَكٍ يُنصب ، وجماعة على ذى جاه تَتَعَصَّب ، وحالة كَيْتٍ بها الجناب الأَخْصَب ، فإن غَضَضْتَ طَرْفَك ، أَمِنت عن الولاية صَرْفَك ، وإن ملأْت ظَرْفَك ، رَحلت عنها حَرْفُك ، وإن كَفَفْتَ فيها كَفَّك ، حفَّك العزُّ فيمن حفَّك . فكن لقالى المَجْبَنة قالياً ، ولحُوت السَّلَّة ساليا . وابدِ لدقيق الحَوارى زُهْد حَوارى ، وازهد فيما بأَيدى الناس من العَوارى ، وسِر فى اجتناب الحُلو[2] على السبيل السَّوا ، وارفض فى الشِّوا[2] دواعى الأَهوا ، وكن على الهرَّاس ، وصاحب فريد الرَّاس ، شديدِ المِرَاس ، وثِبْ

(١) وردت فى الإسكوريال (حبل) والتصويب من الزيتونة .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال. ووردت فى الزيتونة على التوالى: الحلوى . الشوى. الأهوى.

على بايع طَبيخ الأعراس ، ليثاً مرهوب الافتراس ، وأدِّب أطفال السُّوق فى السوق ، سيَّما من كان قبل البلوغ والسُّبوق ، وصَمِّم فى استخراج الحقوق ، والناس أصناف ، فمنهم خَسيس يطمع منك فى إكْلة ، ومُسْتَغْدٍ عليك بوَكْزَة أو رَكْلة . وحاسدٌ فى مطيَّةٍ تُركبْ ، وعطيَّة تُسْكَب ، فاخفض للحاسد جِناحك ، وسدِّد إلى حربه رِماحك، وأشبع الخَسيس منهم مَرَقَةً دَسِمةً فإنه حَنِقٌ ، ودسَّ له فيها عَظْماً لعله يَخْتَنِق ، واحفُر لشرِّيرهم حُفْرةً عميقةً ، فإنه العدوُّ حقيقةً ، حتى إذا حَصَل ، وعلمت أن وقت الانتصار قد وصَل ، فأوْقِع وأوْجِع ، ولا تَرْجع ، وأولياه من [حِزْب](١) الشيطان فأَفْجِع ، والحقُّ أقوى ، وإن تعْفُو أقرب للتقوى . سدَّدك الله إلى غرض التَّوْفيق ، وأعْلَقَنا من الحقِّ بالسَّبب الوثِيق ، وجعل قدومَك مقروناً برُخص اللَّحم والزَّيت والدَّقيق . بمنّه وفضله .

مشيخته

قرأ القرآن على والده المُكَتِّب النَّصوح رحمه الله ، وحَفِظ كُتباً كرسالة أبى محمد بن أبى زيد ، وشهاب القُضاعى ، وفصيح ثَعْلب(٢) ، وعَرَض الرِّسالة على ولى الله أبى عبد الله الطَّنجالى ، وأجازه . ثم على ولده الخطيب أبى بكر ، وقرأ عليه من القرآن . وجَوَّد بحَرْف نافع على شيخنا أبى البركات . وتَلا على شيخنا أبى القاسم بن جُزَى . ثم رَحَل إلى المغرب ، فلقى الشيخ الأُستاذ الأوحد فى التِّلاوة . أبا جعفر الدرَّاج ، وأخذ عن

---

(١) هذه الزيادة من الزيتونة .

(٢) رسالة أبن أبى زيد القيروانى المتوفى سنة ٣٨٩ هـ ، من أشهر متون الفقه المالكى . وكتاب « الشباب » لأبى عبد الله القضاعى الشافعى المصرى المتوفى سنة ٤٥٤ هـ من كتب الحديث . وله كذلك « مسند الشهاب » فى الحديث أيضاً . وكتاب الفصيح أو فصيح ثعلب من كتب اللغة والبلاغة لأبى العباس أحمد بن زيد بن ثعلب اللغوى النحوى المتوفى سنة ٢٩١ هـ .

الشَّريف المُقْرى أبى العباس الحسنى بسَبْتة ، وأدْرَك أبا القاسم التُّجيبى ، وتلا على الأُستاذ أبى عبد الله بن عبد المنعم ولازمه ، واختصَّ بالأُستاذ ابن هانى السَّبتى ،ولقى بفاس جماعةً كالفقيه أبى زيد الجَزُولى ، وخَلَف الله المجاصى ، والشيخ أبا العباس المِكناسى ، والشيخ البقية أبا عبد الله بن عبد الرازق ، وقرأ على المُقْرى الفَذِّ الشهير فى التَّرنُّم بألحان القرآن أبى العباس الزَّواوى سَبْع خَتْمات ، وجمع عليه السَّبع ، والمُقْرى أبى العباس بن حِزب الله ، واختصَّ بالشيخ الرييس أبى محمد عبد المُهيمن الحَضْرمى .

شــعره

من شعره ما كَتَب به إلى وزير الدولة المَغْربيَّة فى غرض الاسْتِلْطاف :

يا من به أبداً عُرِفت ومن أنا   لولاه لى دامَتْ عُـلاه وداما
لا تأْخُذَنْك فى الشَّديد لوْمةٌ   فشُخَيْص نَشْأته بفضلك قاما
ربَّيْتُــه عَلَّمتُــه أَدَّبْتُــه   قدَّمتــه للفَرْضِ منك إماما
فجزاك ربُّ الخلق خيرَ جزِاية   عنِّى وبوَّأك الجِنــان مُقاما

وهو الآن بالحالة المَوْصوفة ، مستوطناً حضرة غرناطة ، وتالياً الأُعشار القرآنية ، بين يدى السلطان أعزَّه الله ، مرفَّع الجانب ، معزَّز الجِراية بولايته أحْباس المدرسة ، أطْرُوفة عَصْره ، لولا طَرَشٌ نَقَص الأُنْس به ، نفعه الله .

ولد بمالقة فى عاشر ربيع الأوَّل من عام عشرة وسبعماية .

ومن الغُرباء فى هذا الاسم

محمد بن أحمد بن ابراهيم بن محمد التِّلمسانى الأنصارى

السَّبْتى الدَّار ، الغَرْناطى الاستيطان ، يكنى أبا الحسين ، ويعرف بالتِّلِمْسانى .

حــــاله

طِرْفٌ فى الخير والسلامة ، مُعرق فى بيت الصَّون والفضيلة ، مُعِمٌّ[1] تَخَوَّل فى العدالة ، قديم الطَّلب والاستعمال ، معروف الحقِّ ، مليح البَسْط ، حُلو الفكاهة ، خفيف إلى هَيْعة الدُّعابة ، على سَمْتٍ ووقار ، غَزِلٌ ، لوْذَعى ، مع استِرجاع وامتِساك ، مُتْرَف ، عريقٌ فى الحضارة ، مؤثر للراحة ، قليل التَّجلُّد ، نافرٌ عن الكدّ ، مُتَّصل الاستعمال ، عريضُ السعادة فى باب الولاية ، محمول على كَتَد المبرَّة ، جار على سُنن شيوخ الطَّلبة والمُقْتاتين من الأَرزاق المُقَدَّرة ، أولى الخُصوصيَّة والضَّبط ، من التَّظاهر بالجاه على الكِفاية . قدِمَ على الأَندلس ثمانية عشر وسبعماية ، فمهّد كنفَ القَبُول والاستعمال ، فوُلِّى الحِسْبة بغرناطة ، ثم قُلِّد تنفيذ الأَرزاق ، وهى الخُطَّة الشرعية ، والولاية المُجْدِية ، فاتَّصلت بها ولايته . وناب عنِّى فى العَرْض والجواب بمجلس السلطان ، حميدُ المنْأَى فى ذلك كله ، يقوم على كتاب الله حِفْظاً وتَجْويداً ، طيِّب النَّغَمة ، راوياً محدِّثاً ، إخبارياً ، مُرتاحاً للأَدب ، ضارباً فيه بسَهْم ، يقوم على كُتُب السِّيرة النَّبوية ، فذاً فى ذلك . قرأه بالمسجد الجامع للجمهور ، عند لِحاقه بغرناطة ، مُعرباً به عن نفسه ، منَبِّهاً على مَكانه ، فزعموا أن رجلا فاضَتْ نفْسُه وجْداً لشَجْو نَغَمَتِه ، وحُسْن

(١) معم ، أعنى الذى يعم بخيره الناس .

إلْقايه . وقرأ التَّراويح بمسجد قصر السلطان إماماً به ، واتَّسم بمجلسه بالسَّلامة والخير ، فلم تُؤْثر عنه فى أحد وَقيعة ، ولا بَدَرَتْ له ، فى الحَمْل على أحد بنتُ شَفَه .

مشيخته

منهم الشَّريف أبو على الحسن بن الشريف أبى التُّقا طاهر بن أبى الشَّرف ربيع بن على بن أحمد بن على بن أبى الطاهر بن حسن بن موهوب بن أحمد بن محمد بن طاهر بن أبى الشرف الحسن بن على بن محمد بن على ابن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسن بن على بن الحسن بن على ابن أبى طالب . ومنهم والده المُتَرجم به ، ومنهم أبوه وجدُّه ، ومنهم الأَمير الصالح أبو حاتم أحمد بن الأَمير أبى القاسم محمد بن أبى العباس أحمد بن محمد العَزَفى ، والمُقْرى أبو القاسم بن الطيب ، وإمام الفريضة أبو عبد الله محمد بن محمد بن حُريث ، والأُستاذ مُلْحِق الأَبناء بالآباء أبو إسحق الغافقى ، والكاتب النَّاسك أبو القاسم خلف بن عبد العزيز القبتورى ، والأُستاذ المُعمَر أبو عبد الله بن الخضَّار ، والخطيب المحدث أبو عبد الله ابن رُشَيد ، والخطيب الأَديب أبو عبد الله الغُمارى ، والأُستاذ أبو البركات الفضل بن أحمد القنطرى ، والوزير العابد أبو القاسم محمد بن محمد ابن سهل بن مالك ، والولى الصالح أبو عبد الله الطَّنجالى ، والخطيب الصالح أبو جعفر بن الزيات ، والقاضى الأَعْدل أبو عبد الله بن بُرطال ، والشيخ الوزير المعمر أبو عبد الله بن ربيع ، والصُّوفى الفاضل أبو عبد الله ابن قَطْرال ، والأُستاذ الحسابى أبو اسحق البَرْغَواطى ، هؤلاءُ لقيهم وقرأَ وسمع عليهم . وممن كتب له بالإجازة ، وهم خلق كثير ، كخال أبيه ، الشيخ الأَديب أبى الحكم مالك بن المُرَحَّل ، والخطيب أبى الحسن فضل

ابن فضيلة ، والأُستاذ الخاتمة أَبي جعفر بن الزبير ، والعَدْل أَبي الحسن ابن مَسْتَقور ، والوزير المُعمر أَبي محمد بن سِماك ، والخطيب أَبي محمد مولى الرييس أَبي عُثمن بن حَكَم ، والشيخ الصالح أَبي محمد الحَلاسى ، والقاضى أَبي العباس بن الغمّاز ، والشيخ أَبي القاسم الحضرمى اللّبيدى ، والعَدْل المُعمر الراوية أَبي عبد الله بن هرون ، والمحدث الراوية أَبي الحسن القَرافى ، وأَبي إسحق إبراهيم بن أَحمد بن عبد المحسن بن هبة الله بن أَبي المنصور ، والإمام شرف الدين أَبي محمد الدُّمياطى ، وبهاء الدين بن النَّحاس ، وقاضى القضاة تقى الدين بن دَقيق العِيد ، وضياء الدين أَبي مهدى عيسى بن يحيي بن أَحمد ، وكتب فى الإجازة له :

ولدتُ لعام من ثلاث وعشرة   وستٍّ مئين هجـرةٍ لمحمد
تطوَّفتُ قُدُماً بالحجاز وإننى   بمصر هو المَرْبَلىُّ وسَبْتة مَوْلِد

إلى عالم كثير من أَهل المشرق ، يشق إحْصاؤهم . قد ثبت معظمهم فى اسم صاحبه أَبي محمد عبد المهيمن الحضرمى رحمه الله .

محنتـــه

نالته محنة بجرْى الأُمور الاشتغالية وتَبَعاتها ، قال الله فيها لعَثْرته لعاً ، فاستقلَّ من النَّكبة ، وعاد إلى الرُّتبة ، ثم عفَّت عليه بآخرةٍ ، فهلك تحت بَرْكها بعد مناهزة التسعين سنة ، نفعه الله .

ولد عام ستة وسبعين وستماية ، وتوفى فى شهر محرم من أَربعة وستين وسبعماية .

محمد بن على بن محمد بن على بن محمد بن يوسف بن قَطْرال الأنصارى

من أَهل مرّاكُش ، يكنى أَبا عبد الله ، ويعرف بابن قطرال .

حـــاله

من « العايد » : كان رحمه الله فاضلا صوفيا، عارفا ، متحدِّثا ، فقيها ، زاهداً ، تجرَّد عن ثَرْوةٍ معروفة ، واقتصر على الزُّهد والتَّخلِّى ، وملازمة العبادة ، والغُروب عن الدنيا . وله نَظْمٌ رايق ، وخطٌّ بارع ، ونثر بليغ ، وكلام على طريقة القَوْم ، رفيع الدَّرجة ، عالى القدر . شرح قصيدة الإسراييلى ، بما يشهد برسوخ قدمه ، وتجوَّل فى لقاء الأكابر على حال جميلة من إيثار الصَّمت والانقِباض والحِشمة . ثم رَحَل إلى المشرق حاجاً صَدْر سنة ثلاث وسبعماية .

مشيخته

من شيوخه القاضى العالم أبو عبد الله محمد بن على ، والحافظ أبو بكر بن محمد المُرادى . والفقيه أبو فارس الجَرَوى ، والعلَّامة أَبو الحسين بن أَبى الربيع ، والعَدْل أَبو محمد بن عبيد الله ، والحاج أَبو عبد الله بن الخضَّار ، وأبو إسحق التِّلِمسانى ، وأبو عبد الله بن خميس ، وأَبو القاسم بن السَّكوت . وأَبو عبد الله بن عيَّاش ، وأبو الحسن بن فضيلة ، وأبو جعفر بن الزبير ، وأبو القاسم بن خير . هؤلاءُ كلهم لَقِيهم ، وأخذ عنهم . وكتب له بالإجازة جُملة ، كالقاضى أَبى على بن الأَحْوَص ، وأَبى القاسم العَزَفى ، وأَبى جعفر الطَّنجالى ، وصالح بن شريف، وأَبى عمرو الدَّارى . وأَبى محمد بن الحجَّام ، وأَبى بكر بن حُبَيش ، وأَبى يعقوب بن عقاب ، وعز الدين الجداى ، وفخر الدين بن البخارى ، وابن طرخان ، وابن البوَّاب ، وأمين الدين بن عساكر ، وقطب الدين بن القسْطلأنى ، وغيرهم .

شعره

وأما شعره فكثير بديع . قال شيخنا القاضى أبو بكر بن شِبْرين كتبت إليه :

يا مُعمل السِّير أىّ إعمال سلِّم على الفاضل ابن قَطْرال

من أبيات راجعنى عنها بأبيات منها :

زارَتْ فأَزْرَتْ بمسْك دارَين تَفْتَنُّ للحسن فى أفانين

ومثلُها فى شتَّى محاسنها ليست بِبِدْع من ابن شِبرين

توفى بحرم الله عاكفًا على الخير وصالح الأعمال ، مُعرضا عن زَهْرة الحياة الدنيا ، إلى أن اتصل خبر وفاته ، وفيه حكاية ، عام تسعة وسبعماية

ودخل غرناطة برسم لقاءِ الخطيب الصالح أبى الحسن بن فضيلة . وغير ذلك .

العُمال فى هذا الاسم وأولا الأصليون

محمد بن أحمد بن محمد بن الأكحل

يكنى أبا يحيي .

حاله

شيخٌ حسن الشَّيْبة ، شامل البياض ، بعيدُ مدى الذَّقْن ، خدُوع الظاهر ، خَلُوب اللفظ ، شديد الهوى إلى الصُّوفية ، والكَلَف بإطراءِ الخيريَّة ، سيما عند فِقْدان شُكر الولاية ، وجِماح الحُظوة ، من بيت صَوْنٍ وحشمة ، مُبين عن نفسه فى الأَغراض ، مُتقدِّم فى معرفة الأُمور العملية ، خايضٌ مع الخايضين فى غُمار طريق التصوُّف ، وانتحال كيمياءِ السَّعادة ، راكبٌ مَتْن دعوى عريضة فى مَقام التَّوحيد ، تُكذِّبُها أحوالُه الرَّاهنة جُمْلةً ،

ولا تسْلم له منها نُبذة ، لمعاصاة خلقه على الرياضة واستيلاء الشَّره ، وغَلَبِ سلطان الشَّهوة ، فلم يَجْن من جِعْجاعه المُبرم فيها إلا اسْتِغراق الوقت فى القواطع عن الحق ، والأَسف على ما رَزَتْه الأَيام من مَتاع الزُّور ، وقِنْية الغرور ، والمَشاحة أَيام الولاية ، والشَّباب الشاهد بالشَّره ، والحَلِف المتصل بياض اليوم ، فى ثمن الخَرْدلة باليمين التى تجرُّ فساد الأَنْكِحة ، والغَضَب الذى يَقْلب العَين ، والبَذا الذى يُصاحب الشَّين ، مغلُوبٌ عليه فى ذلك ، ناله بسببه ضيقٌ واعتقالٌ ، وتفْويت جِدَةٍ ، وإطْباق رَوْع ، وقيدٌ للعذاب ، فأَلقيتُ عليه رِدائى ، ونفَّس الله عنه بِسَبَبى ، محواً للسَّيئة بالحَسَنة ، وتوسُّلاً إلى الله بترك الحظوظ ، والمِنَّةُ لله جلَّ جلالُه على ذلك .

شــعره

خاطبنى بين يَدَىْ نكبته أَوخَلْفَها بما نصه ، ولم أَكن أظن الشِّعر مما تلوكه جَحْفلتُه ، ولكن الرجل من أَهل الكفاية :

راجَوْتُك بعد الله يا خيرَ مُنجد ... وأَكرَم مأْمُول وأَعظَمَ مُرفد
وأَفضلَ من أَمَلْتُ للحادث الذى ... فقدتُ به صبرى وما مَلَكَتْ يَد
وحاشى وكلاَّ أن يَخيب مامَلى ... وقد عَلِقتُ بابن الخطيب محمد
وما أنا إلاَّ عَبْدُ أَنْعُمه الـتى ... عهدتُ بها يُمنى وإنجاح مَقْصِد
وأَشرف من حضَّ الملوك على التُّقى ... وأَبْدى لهم نُصْحاً وصيَّةَ مُرشد
وساسَ الرَّعايا الآن خيرَ سياسةٍ ... مباركة فى كل غَيْبٍ ومَشْهَد
وأَعْرَض عن دُنْياه زُهدا وإنمـا ... لمظهرةٌ طوعاً لـه عن تَـوَدُّد
وما هو إلاَّ النَّيث والغَيْث إن ... أَتى له حايفٌ أَوجاءَ مَغْناه مُجْتَد
وبحرُ علوم دُرُّه كلماته إذا ... رُدِّدت فى الحفل أَىَّ تَرَدُّد

صُقَيل مَرْأى الفِكر رب لطايف ... محاسنها تُجلى بحسن تَعبُّد
بديعٌ عَروج النفس للملإ الذى ... تجلَّت به الأَسرار فى كل مَصْعد
شفيقٌ رقيقٌ دايم الحلم راحمٌ ... وأىُّ جميل للجميل معــوَّد
صفوحٌ عن الجانى على حين قُدْرة ... يواصل تقوى الله فى اليوم والغَد
أَيا سيدى يا عُمْدتى عند شدَّتى ... ويا شِربى متى ظَميت ومَوْردى
حَنانَيْك والطُفْ بى وكن لى راحماً ... ورفقاً على شيخٍ ضعيف مُنَكَّد
رَجاك رجا الذى أنت أهلُه ... ووافاك يُهدى الثَّنا المُجَدَّد
وأَمَّكَ مضطَّراً لرحماك شاكياً ... بحالٍ كحَرِّ الجمر حين تَوَقُّد
وعندى افتِقار لأَنْوالٍ مواصلاً ... لأَكرم مولى حاز أَجراً وسَيِّد
ترفَّق بأَولادٍ صغــار بكاؤهم ... يَزيد لوَقْع الحادث المتزيِّد
وليس لهم إلاَّ إليك تطلُّع ... إذا مسَّهم ضرٌّ أَليم التَّعهُّد
أَنِلْهم أَيامولاى نظرةَ مُشْفِقٍ ... وجُدْ بالرِّضا وانظر لشملٍ مُبَدَّد
وقابل أَخا الكُرْه الشَّديد برحمةٍ ... وأَسْعِف بغُفران الذُّنوب وأَبعد
ولا تنظُرَن إلاَّ لفضلك لا إلى ... جريمةِ شيخ عن محلِّك مُبعد
وإن كنتُ قد أذنبتُ إنى تايبٌ ... فعاوِد لى الفعلَ الجميل وجـدِّد
بقيتَ بخير لأَنْوال وعــزَّة ... وعيشٍ هنى كيف شِيت وأَسْعد
وسخَّرك الرحمن للعَبْد إنَّــه ... لمتْنٌ وداعٍ للمَحَــلِّ المُجَدَّد

وقد وُلِّى خُططاً نَبيهة . منها خُطة الاشتغال على عهد الغادر المُكايد للدَّولة ، إذ كان من أَوْلياء شيطانه ومُمدِّيه فى غيِّه ، وسماسير شَعْوذته ، فلم يزل من مُسيطرى ديوان الأَعمال . على تَهوُّر واقتحام كَبْرة . وخطٌّ لا غاية وراءه فى الرَّكاكة ، كما قال المعرِّى :

تمشَّت فوقه حُمرُ المنايــا ... ولكن بعد ما مَسِخت نَما لا

استحضرته يوما بين يدى السلطان ، وهو غُفْل لفَكٍّ ما أُشْكل من مغْمَيَّاته فى الأعمال عند المطالعة ، فوصل بحال سيئة ، ولما أُعْتِب بسببه ، ونعيتُ عليه هُجنته ، أحسن الصَّدر عن ذلك الوِرْد ، ونَذَر فى نفسه ، وقال حيَّا الله رداءة الخطِّ ، إذا كانت ذريعةً إلى دخول هذا المجلس الكريم ، فاستُحسن ذلك ، لطف الله بنا أجمعين .

توفى عام سبعة وستين وسبعماية .

محمد بن الحسن بن زيد بن أيوب بن حامد الغافقى

يكنى أبا الوليد .

أَوَّليَّته

أصله من طُليطلة ، انتقل منها جدُّ أَبيه ، وسكنوا غرناطة ، وعدُّوا فى أهلها .

حـــاله

كان أبو الوليد طالباً نبيلا ، نبيها ، سَرِيًّا ، ذكيا ، ذا خطٍّ بارع ، ومعرفة بالأدب والحساب ، ونَزَع إلى العمل فكان محمود السِّيرة ، مشكور الفعل . ووُلِّى الإشراف فى غير ما موضع . قلتُ ، وآثاره فى الأملاك المنسوبة إليه ، التى من جُملة المُسْتَخْلَص السلطانى بغرناطة وغيرها ، مما يدل على قِدَم ، وتَعِمَّة أصيلة .

توفى بمدينة إشبيلية سنة ثمان وثمانين وخمسماية ، وسنه دون الخمسين .

محمد بن محمد بن حسّان الغافقى

إشبيلى الأصل ، غرناطى المنشأ ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن حسان .

حـــاله

من « العايد » : كان من أهل السَّرْو والظَّرف والمروءة ، وحسن الخلق . تولى الإشراف بغرناطة ، وخُطَّة الأشغال ، فحسن الثناء عليه . وله أدب ومشاركة . حدَّثني بعض أشياخنا ، قال ، كنت على مائدة الوزير ابن الحكيم ، وقد تحدَّث بصَرْف ابن حسّان عن عمل كان بيده ، وإذا رُقْعة قد انتهت اليه أحفظ منها :

لكم أيادٍ لكم أياد　　كـررتُها إنها كثيرة
فإن عزمتم على انتقالي　　ريه أبْغِي أو الجزيرة
وإن أبيتم الاَّ مُقامي　　فنعمةٌ منكم كبيرة

وقال لى بعضهم ، جرى بين ابن حسّان هذا ، وبين أحد بنى علاّق[1] ، وهم أعيان، كلام وملاحة[2] فقال ابن حسّان ، إنما كان جدكم مولى بنى أَضحى ، وجدُّ بنى مشرف ، فاستَعدى عليه ، ورفعه إلى الوزير ابن الحكيم فيما أظن ، فلما استفهمه عن قوله ، قال أعزَّك الله ، كنت بالكُتُبيين ، وعُرض علىّ كتاب قديم فى ظهره أبيات حفظتها وهى :

أضحى الزمان بأَضحى وهو مبتسم　　لنوره فى سماءِ[3] المجد إشراق
فلم يزل ينتمى للمجد كل فتى　　تطيب منه مواليد وأعراق
فإن تُرد شرفاً يمم مُشَرِّفه[4]　　وإن ترد عِلْق مجد فهو علاّق

فعلم الوزير أن ذلك من نظمه ، ونتيجة بديهته ، فعجب من كفايته ، وترضّى خصمه ، وصرفهما بخير. وتوفى فى شهر رجب ثلاثة عشر وسبعماية.

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بنى غبلان) .
(٢) وردت فى الإسكوريال (ملاحاة) والتصويب من الزيتونة .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (سناه) .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (مشرفهم) .

محمد بن عبد الله بن ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن موسى بن ابراهيم ابن عبد العزيز بن اسحق بن أحمد بن أسد بن قاسم النُّميرى المدعو بابن الحاج

يكنى أبا عمرو ، وقد مر ذكر أخيه

حــالـه

تولى خطَّة الإشراف بلَوْشَة وأنْدَرَش[١] ومالقة . ووُلِّىَ النظر فى مختص ألمريَّة ، والأَعشار الرومية بغرناطة . وكان له خط حسن ، وجودة كاملة ، وحُسْن خُلُق ، ووَطْأَةُ أَكْناف ؛ تشهد له بجلالة قَدْرِه ، ورفيع خَطَره . وصاهَر فى أَعيانٍ كالوزير أَبى عبد الله بن أَبى الحسن [فاضلٌ ، سَرِىٌّ ، متخلِّق ، حسن الضريبة ، متميِّز بخصال متعددة، من خطٍّ بديع ، ونظم ، ومشاركة فى فنون ، من طب وتعديل ، وارتياض سماع ، وذكر التاريخ . حَجَّ وجال فى البلاد . ولَقِى جِلَّة ، وتولى بالمغرب خُططا نبيهة علية[٢]][٣] . ثم كرَّ إلى الأَندلس عام ستين وسبعماية ، فاجْرِى من الاستعمال على رَسمه . ثم اقتضت له العناية السلطانية بإشارتى ، أَن يوُجه فى غرض الرسالة إلى تونس وصاحب مصر ؛ لما تقدَّم من مُرانه على تلك البلاد ، وجوَلاته فى أَقطارها ، وتعَرُّفه بملوكها والجلَّة من أَهلها ، فآب بعد أَعوام ، مشكور التصرُّفات ، جاريا على سُنَنَ الفضلاءِ ، مضطَّلعا بالأَحوال التى أُسندت إليه من ذلك . فلم يزل مُعْتنىً به ، مُرَشَّحا إلى الخُطط التى تطمح إليها نفس مثله ، مُسْنِدا النَّظر فى زمام العسكر الغربى إلى ولده ، الذى

---

(١) سبق التعريف بها (أنظر المجلد الأول من الإحاطة ص ١٥٨ حاشية) .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (عملية) والأولى أرجح وأنسب للسياق .

(٣) الفترة التى بين الحاصرتين وردت فى الزيتونة فى أول الترجمة .

يخلفه عند رحلته نايبا عنه ، مُعَزَّزاً ذلك بالمرتبات والإحسان ، تولاه الله وأعانه

شـــعره

مدح السلطان ، وأنشد له فى المواليد النبوية . ورَفع إلى السلطان بحضرتى هذه الأبيات :

مولاى يا خَير أعلام السلاطين ومن له الفضل فى الدنيا وفى الدينِ
ومن له سِيَرٌ ناهيك من سِيَرٍ وافَتْ بأَكرم تحسين وتحصين
شرَّفتَ عَبْدك تشريفا له رُتَبٌ فوق النجوم التى فوق الأفق تُعلين
وكان لى موعدٌ مولاى أنجزه وزاد فى العزَّ بعد الرُّتبة الدُّون
والله ما الُّشكر منى قاضياً وَطَرى ولو أتيتُ به حيناً على حِين
ولا الثَّناء مُوفٍ حقَّ أنْعُمِه ولو ملأْتُ به كل الدَّواوين
لكن دُعائِي وحُبى قد رضيتهما كفا أَفعاله الغر الميامين
وعند عَبْدِك إخلاصٌ يواصله فى خِدمةِ لم يزل للخير تُدنين
وسوف أَنصح كل النصح مغْتنما رضى إمام له فضل يُرَجِّين
جوزيتَ عنى أَمير المسلمين بما ترضاه للمُلْك من نصرٍ وتَمْكين
وأنت أكرمُ من ساس الأَنسام ومن عم البلاد بتسْكين وتَهْدين
ومن كمِثْل أَبِى عبد الآله إذا أضحى الفَخار لنا رحْبُ الميادين
محمد بن أَبِى الحجّاج خيرةُ من أُهْدِى إليه مدحا بالسَّعد يحْظين
وجهٌ جميل وأَفعال تناسبهُ ودولةٌ دولةُ المأُمون تُنْسين
لازال فى السَّعد والإسعاد ما سَجَعَتْ ورْق الحمام على قضُب البساتين][1]

(١) هذا الشعر وارد فى الإسكوريال . وساقط كله فى الزيتونة .

محمد بن عبد الرحمن الكاتب

يكنى أبا عبد الله من أهل غرناطة ، أصله من وادى آش

حـــاله

كان طالبا نبيها [كاتبا] (١) جليلا ، جيِّد الكتابة . كَتَب عن بعض أبناءِ الخليفة أَبي يعقوب ، واختصَّ بالسيد أَبي زيد بغرناطة ، وبشرق الأَندلس ، وكان أثيراً عنده مكرَّماً . وكان رحمه الله شاعرا ، مطبوعا ، ذا معرفة جيدة بالعَدَد والمساحة ، ثم نَزَع عن الكتابة ، واشتغل بالعمل ، فراش فيه ، ووُلِّى إشراف بُنيات غرناطة . ثم وُلى إشراف غرناطة ، فكَّف يده ، وظهرت نصيحته . ثم نُقل إلى حضرة مرّاكُش ، فوُلى إشرافها مدة ، ثم صُرف عنها إلى غرناطة ، وقُدِّم على النظر فى المُسْتَخلص إلى أن توفى .

منــــاقبه

أَشْهَد لما قربْت وفاتُه . أَنه كان قد أَخرج فى صحَّته وجوازه ، أَربعة آلاف دُنير من صميم ماله لتتميم القنطرة التى بنيت على وادى شنجيل (٢) بخارج غرناطة (٣) . وكان قبل ذلك قد بنى مسجد دار القضاءِ من ماله ، وتـأَنَّق فى بنائه ، وأَصلح مساجد عدة ، وفعل خيرا ، نفعه الله .

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هو نهر شنيل الذى يخترق غرناطة من شرقها (enil × او Genil) . ويسمى أيضا فى الجغرافية الأندلسية بنهر سنجيل أو شنجيل من اسمه اللاتينى .

(٣) وردت بعد هذه الكلمة فى الزيتونة عبارة (وشرق الأندلس) فرأينا إغفالها لأنها ليست مستقيمة مع السياق . ووجودها هنا حشو لا محل له .

شعره

من شعره ما كتب به إلى الشيخ أبي يحيي بن أبي عمران وزير الخلافة ، وهو بحال شكاية أصابته :

شكوتُ فأضنى المجدَ بَرْحُ شِكاته — وفارق وجه الشمس حسنُ آياته
وعادت بِعْديك الزمان زمانةً — تعدَّت إلى عوّاد وأُساته
وغِيض ما للبَشَر لما تبسَّطت — يدٌ للسُّقْم في ساحات كافي كفاته
فكيف بمقصُوصٍ وصلتَ جَناحه — وأَدْهَم قد سَرْبَلْتَه بشاته
ومُمْتَحن لولاك أذعن خبرةً — وهان على الأَيام غَمْزُ قنَاته
أَمَغْلَق آمالي ومطمحَ همَّتي — وواهبُ نفسي في عِداد مباته
سأستقبل النَّعمى ببرِّك غضَّة — ويصْغُر ذنبُ الدهر في حَسَناته
وتسطو عينُ الحق منك بمُرْهَف — تُراع الخطوب الجُور من فَتكاته
وتطْلَع في أفق الخلافة نيرًا — تُطالعنا الأَقمار من قَسَماته
حرامٌ على الشكوى اعتياد مطهر — حياة الدُّنا والدين طيَّ حياته
فما عَرَضَتْ في قصده بمَساءة — ولكن ترجّت أن تُرى في عفاته] [1]

مشيخته

قال الغافقي ، قرأ بمالقة على الأُستاذ أَبي زيد السُّهيلي رحمه الله .

وتوفي بغرناطة سنة سبع وستماية ودفن بداره بجهة قنطرة القاضي منها على ضفة الوادي .

(١) هذا الشعر وارد في الإسكوريال ، وساقط كله في الزيتونة .

محمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد بن الحسن بن عثمان ابن محمد بن عبد الله بن سعيد بن عمار بن ياسر

أَوليَّتـه

قد وقع التَّنبيه عليها ويقع بحول الله .

حــاله

كان وزيرا جليلا بعيدَ الصيت عالى الذكر رفيع الهمَّة ، كثير الأَمل[١] .

نباهته

ذكره ابن صاحب الصلاة فى تاريخه فى الموحدين[٢] ، فنبَّه على مكانة محمد بن عبد الملك منهم فى الرأى والحُظْوة، والأَخذ عنه[٣] فى أَمور الأَندلس ، وأَثنى عليه . وذكره أَبو زيد السُّهيلى فى شرح السِّيرة الكريمة ، حتى انتهى إلى حديث كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الموجه إلى هرقل ، وأَن محمد بن عبد الملك عاينه عند أَذفونش ، مكَرماً ، مُفْتَخَراً به . والقضية مشهورة . وأَما محلُّه من أَمداح الشعراء ، فهو الذى مدحه الأَديب أَبو عبد الله الرُّصافى بقوله :

أَبداً تفيض وخاطــراً متوقِّداً　　　دعها تَبِتْ قَبَساً على عَلِمِ النـدَا

وفيه يقول أَبو عبد الله بن شرف من قصيدة :

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (الأمال) .

(٢) ابن صاحب الصلاة هو عبد الملك بن محمد بن صاحب الصلاة الباجى المتوفى حول سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ م) وكتابه المشار إليه هو كتاب تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين ، وتوجد منه قطعة كبيرة مخطوطة بالمكتبة البودلية بأكسفورد، وقد قام بنشرها الأستاذ عبد الهادى التازى (بيروت سنة ١٩٦٤)

(٣) وردت فى الإسكوريال (معه) والتصويب من الزيتونة .

يارحمة الله للــرّاجى ونِقْمته ... لـكل باغٍ طِغا عن خيرَةِ الـرُّسُل
لم تُبق منهم كفورا دون مَرْقبـةٍ ... مطالعاً منك حَتْفا غير مُنْفصـل
كما بُزاتُك لم تترك بـأَرضهــم ... وحشًا يَفِرُّ ولا طيرا بلا وَجــل

وكان كثير الصَّيد ، ومتردِّد الغارات .

مناقبه فى الدين

قالوا لما أنشده أبو عبد الله الرُّصافى فى القصيدة الّتى مطلعها :

لمحـلك التَّرفيـع والتَّعظـيم ... ولوجهك التقـّـديس والتَّكريم

حلف ألاّ يسمعها ، وقال علىَّ جايزتك ، لكنَّ طباعى لا تحتمل مثل هذا ، فقال الرُّصافى ، ومن مثلُك ، ومن يستحق ذلك فى الوقت غيرك ، فقال له ، دعنى من خِداعك أنا وما أعلمه عن نفسى .

شـــعره

أنشده صاحب « الطالع »[١] ، ولا يذكر له غيره :[٢]

فلا تُظهرَن ما كان فى الصدر كامناً ... ولا تركَبَنْ بالغيظ فى مَرْكَب وَعْر
ولا تَبْحثن فى عُذْر من جاء تايباً ... فليس كريما من يباحث فى عُذْر

ووُلى من الأَعمال للموحدين كثيراً ، كمُخْتَص حضرة مراكش ، ودار السلاح ، وسَلا ، وإشبيلية ، وغرناطة ، واتصلت ولايته على أعمال غرناطة ، وكان من شيوخها وأعيانها .

محنتــه

وعُمل فيه عقد بـأَن بداره من أصناف الحلى ، مالا يكون إلا عند الملـوك ،

---

(١) هو كتاب « الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد » لأبى الحسن على بن سعيد ، وقد سبقت الإشارة إليه غير مرة .

(٢) وردت فى الإسكوريال (قوله) ، وهو تحريف . والتصويب من الزيتونة .

وأنه إذا ركب فى صلاة الصبح ، من دار الرُّخام التى يجرى الماءُ فيها ، فى إثنى عشر مكانا ، شوَّش الناس فى الصلاة ، دوِىُّ الجلاجل بالبُزاة ، ومناداة الصيادين ، ونباح الكلاب ، فأَمر المنصور بالقبض عليه ، وعلى ابن عمه صاحب أَعمال إفريقية أَبى الحسين ،فى سنة ثلاث وسبعين وخمسماية . ثم رضى عنهما ، وأَمر محمد بن عبد الملك أَن يكتب بخطه كلَّ ما أُخِذ له ، فصرفه عليه ، ولم ينقصه منه شىء ، وغرم ما فات له .

ولد سنة أَربع عشر وخمسماية ، وتوفى بغرناطة سنة تسع وثمانين وخمسماية .

محمد بن سعيد بن خلف بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن الحسن ابن عثمان بن محمد بن عبد الله بن عمار بن ياسر العَنْسى

يكنى أَبا بكر ، وقد تقدَّم التَّعريف بأَوليته .

حـــاله

قال فى « الطالع » ساد فى دولة الملثَّمين[1] ، وولُّوه بغرناطة الأَعمال ، وكانت له دار الرُّخام المشهورة بإزاءِ الجامع الأَعظم بغرناطة . قال الغافقى فيه : شيخ جليلٌ ، فقيهٌ نَبيه من أَهل قلعة يَحْصُب[2]. كان فى عداد الفقهاءِ ، ثم نزع إلى العمل ، ووُلِّى إشراف غرناطة فى إمارة أَبى سعيد الميمون بن بدر اللمتونى . وقال صاحب « المُسْهب » وحسب القلعة كَوْن هذا الفاضل الكامل منها ،وقد رقم بُرد مَجْده بالأدب ،ونال منه بالاجتهاد

(١) الملثمون أو أهل اللثام هم المرابطون .

(٢) قلعة يحصب أو قلعة بنى سعيد ، تقع شمالى غرناطة ، وهى بلدة Alcala la Real الحديثة وقد سبق التعريف بها (أنظر المجلد الأول من الإحاطة ص ١١١ حاشية) .

والسجيَّة القابلة ، أعلى سبب ، وله من المكارم ما يُغيِّر فى وجه كعب وحاتم ، لذلك ما قصدته الأدباء ، وتهافتتْ فى مدحه الشعراء ، وفيه أقول :

وكان أبو بكر من الكُفْر عصمةً ... وردَّ به الله الغُـواة إلى الحـق
وقام بأمر الله حافظٌ أهــلَه ... بلين وسَبْط فى المــبَّرة والخُلق
وهذا أبو بكر سليل ابن ياسر ... بغرناطة ناغاه فى الرَّأى والصِّدق
فهذا لنـا بالغَرْب يَجنى معالمـا ... تُباهى الذى أحيا الدِّيانة بالشَّرق

وقد جرى من ذكره عند ذكر أبى بكر بن قُزْمان ، ويجرى عند ذكر نَزْهون بنت القِلاعى ما فيه كفاية ، إذ كان مَفْتُوناً بها ، وبِحَمدَة وزَيْنب بِنْتَى زِياد المؤدِّب من أهل وادى آش ، وفيهما يقول :

ما بــين زينب عمــرى ... أحــثُ كــأسى وحَمْده
وكــل نظــم ونــثر ... وحكمـــة مُسْتَجدَّه
وليــس إلاّ عفَــافٌ ... يُبَلِّــغ المــرءَ قَصْده

ولذلك ما سعى به المخزومى الأعمى ، وقد سَها عن رَسْم تفقُّده ، فكُتب إلى علىٍّ بن يوسف فى شأنه بما كان سبب عَزْله ونكبته :

إليــك أمــير المؤمنين نصيحة ... يجوز بها البحر المُجَعجِع شاعر
بغرناطة ولِّيت فى النـاس عاملاً ... ولكن بما تَحْويه منه المــآزر
وأنت ما تَخفى عليــك خَفِيَّةٌ ... فسل أهلهــا فالأمر للنـاس ظاهر
وما لإلآه العرش تفنيـه حَمْدةُ ... وزينبُ والكأس الذى هو داير

شـعره : من ذلك قوله :

يــا هــذه لا تــروعى ... خــداع من ضــاق ذَرْعه
تبــكى وقــد قَتَلْتِينى ... كالسَّــيف يقطــر دمْعه

وقال عفى الله عنه :

لقد صَدَعتْ قلبي حمامةُ أَيْكَة　　أثارت غراماً ما أَجـلَّ وأَكْرما
ورقَّ نسيم الرِّيح من نحو أَرضِكم　　ولطُفَ حتى كاد أن يتكلَّمـا

وقال فى مذهب الفخر :

فَخَرْنا بالحديث بعد القديم　　من معالِ توارَثت كالنجوم
نحن فى الحرب أَجُبُلٌ راسيات　　ولنا فى النَّدى لُطْف النَّسيم

ولد فى سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة ، وتوفى سنة تسع وثلاثين وخمسماية.

ومن الطارئين فى هذا الاسم من العمال

محمد بن أحمد بن المتأهِّل العبدرى

من أَهل وادى آش ، يكنى أبا عبد الله .

حـــاله

كان رجلا شديد الأَدْمَة ، أَعْين ، كثَّ اللحية ، طِرْفاً فى الأَمانة ، شديد الاستِرابة بجلِيسه ، مُخِيناً لرفيقه ، سيِّءَ الظن بصديقه ، قليل المداخلة ، كثير الانْقِباض ، مُختصر الملبس والمطعم ، عظيم المحافظة على النَّفير والقِطْمِير ، مُستوعب للحَصْر والتَّقييد ، أَسير محيِى وعابد زِمام ، وجَنِيب أَمانة ، وحِلْس سقيفة ، ورَقيب مُشرف ، لا يقبل هوادة ، ولا يُلابس رِشوة ، كثير الالتفات ، متفقِّداً للآلة ، متمماً للعمل .

جرى ذكره فى بعض الموضوعات الأَدبية بسبب شِعْرٍ خامل نسب إليه بما نصه : رجل غليظ الحاشية ، معدودٌ فى جنس السَّائمة والماشية ، تُلِيت على العمال به سُورة الغاشية ، ولِيَ الأَشغال السلطانية ، فذعَرت الجُباة

لولايته ، وأيقنوا بقيام قيامتهم لطلوع آيته ، وقَنِطوا كل القُنوط ، وقالوا جاءت الدَّابة تُكلمنا ، وهى إحدى الشروط ، من رجل صايم الحُسْوَة، بعيد عن المُصانعة والرِّشوة ، يتجنب الناس ، ويقول عند المخالطة لهم لا مَساس ، عهدى به فى الأَعمال يَخْبِط ويَتْبُر ، وهو يهلِّل ويكبِّر ، ويحسِّن ويقبِّح ، وهو يسبح ، انتهى . قلت ، ووُلِّى الأَشغال السلطانية ، فضم النَّشر ، وأَوْصَد باب الحيلة ، وبثَّ أَسباب الضَّياع ، وتُرُصِّد ليلا وأصيب بجراحة أَخطأَته ، ثم عاجَلَته الوفاة ، فنُفِّس عن أَقْتاله المُخَنَّق .

شِعره : قال يخاطب بعض أُثرَاءِ الدَّولة قبل نباهته :

عمادى ملاذى مُوَيلى ومُؤَمَّلى ... أَلا انعم بما ترضاه للمتأَهَّل
وحقِّق بنَيْل القصد منك رجاءه ... على نحو ما يُرضيك يا ذا التَّفَضُّل
فأَنت الذى فى العِلم يُعْرف قدرُه ... بخير زمان منه لازلت فيه تَعْتل
فهُنيت يا مَغنى الكمال برتبـة ... تقِرُّ لكم بالسَّبق فى كل مَحْفل

توفى عام ثلاثة وأربعين بغرناطة أَو قبل ذلك بيسير ، وله خط حسن ، وممارسة فى الطلب ، وقد توسط المعترك .

محمد بن محمد بن محمد بن عبد الواحد البَلوى

من أَهل أَلمريّة ، يكنى أَبا بكر .

أَوليته

من كتاب « المؤتمن »[١] قال ، يُشْهر بنَسَبِه وأَصل سَلَفه من جهة بِيرة[٢]

---

(١) سبق التعريف به (أنظر ص ١٩٥ من هذا المجلد) .

(٢) بيرة بلدة أندلسية تقع جنوب المنصورة الواقعة على نهر المنصورة ، شمال شرق ألمرية وبالإسبانية Vera

إما من بجّانة[١] ، وإما من البريج[٢] ، واستوعب سبب انتقالهم .

حـــاله

من « عايد الصلة » ، كان أحد الشيوخ من طبقته ، وصدر الوزراء من نمطه ببلده ، سراوةً وسماحةً ، ومبرّةً[٣] وأدباً ولوذعيّة ودُعابة ، رافع راية الانْطِباع ، وحايز قَصب[٤] السبق فى ميدان التّخلّق ، مبذول البِر ، شايع المشاركة .

وقال فى « المؤتمن » ، كان رجلا عاقلا ، عارفا بأقوال الناس ، حافظا لمراتبهم ، مُنْزِلاً لهم منازِلَهم ، ساعياً فى حوايجهم ، لا يَصْدرون عنه إلا عن رضىً بجميل مُداراته . التفت إلى نفسه ، فلم يَنْس نصيبه من الذُّل ، ولا أغْفَل من كان يالفُه فى المنزل الخَشِن ، واصلا لرَحْمِه ، حاملا لوَطْأة من يَجْفُوه منهم ، فى ماله حظٌ للمساكين ، وفى جاهِه رِفْدٌ للمضطّرين ، شيخا ذكيَّ المُجالسة ، تَسْتَطيب معاملته ، على يقين أنه يَخْفى خلاف ما يُظهر ، من الرجال الذين يصلحون الدُّنيا ، ولا يَعْلُق بهم أهل الآخرة ، لعَرْوه عن النَّخوة والبَطَر ، رحمه الله . تكرَّرت له الولاية بالديوان غير ما مرَّة ، وورد على غرناطة ، وافداً ومادحاً ومُعَزِّياً .

مشيخته [وما صدر منه][٥]

قرأ على ابن عبد النُّور ، وتأدَّب به ، وتلا على القاضى أبى على بن أبى الأَحْوَص أيام قضايه بِبَسْطة ، ونظم رَجَزاً فى الفرايض.

(١) بجانه وبالإسبانية Pechina ، تقع غربى نهر أندرش وشمال غربى ثغر المرية . وقد سبق التعريف بها (المجلد الثانى من الإحاطة ص ١٦٢ حاشية) .

(٢) بلدة من بلاد مقاطعة المرية تقع على مقربة من بجانه .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (مبارة) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (قصبة) .

(٥) الزيادة من الزيتونة .

شعره

قال الشيخ[١] فى « المؤتمن » ، كانت له مشاركة فى نظم الشعر الوَسَط ، وكان شِعْرُ تلك الحَلْبة الآخذة عن ابن عبد النور ، كأنه مصوغٌ من شعر شيخهم المذكور ، ومحذوٌّ عليه ، فى ضعف المعانى ، ومِهنة الأَلفاظ . تنظُر إلى شعره ، وشعر عبد الله بن الصَّايغ ، وشعر ابن شُعبة ، وابن رُشَيد ، وابن عُبَيد ، فتقول ذرِّية بعضُها من بعض .

فمن ذلك ما نظمه فى ليلة سماع واجتماع بسبب قدوم أخيه أبى الحسن من الحجاز :

إلهى أَجرنى إننى لك تايب ... وإنى من ذَنْبى إليك لهارب
عَصَيتك جَهْلا ثم جئتُك نادما ... مقرّاً وقد سُدَّت علىَّ المذاهب
مضى زمن بى فى البطالة لاهيا ... شبابىَ قد ولىّ وعُمرىَ ذاهب
فخُذْ بيدى واقبل بفضلك تَوْبتى ... وحقِّق رجائى فى الذى أنا راغب
أخاف على نفسى ذنوباً جَنيتُها ... وحاشاك أن أَشْقى وأَنت المُحاسب
وإنى لأَخْشَى فى القيامة موقفاً ... ويوماً عظيماً أَنت فيه المُطالِب
وقد وُضع الميزان بالقِسْط حاكما ... وجاءَ شهيدٌ عند ذاك وكاتِب
وطاشَتْ عقول الخَلق واشتدَّ خوفهم ... وفرَّ عن الإِنسان خلٌّ وصاحب
فما ثَمَّ من يُرجى سواك تفضُّلا ... وإن الذى يرجُو سواك لخايب
ومن ذا الذى يُعطى إذا أَنت لم تَجُدْ ... ومن هو ذو مَنْعٍ إذا أَنت واهب
عُبَيْدُك يا مولاى يدعوك رغبة ... وما زلتَ غفَّاراً لمنْ هُو تايب

---

(١) يقصد بها هنا أبو البركات بن الحاج شيخ ابن الخطيب .

دعوتُك مضطَّراً وعفوُك واسع ... فأَنت المجازى لى وأَنت المعاقبِ
فهَبْ لى من رحْماك ما قدرجوتُه ... وبالجُود يا مولاى تُرجى المواهب
توسَّلت بالمختار من آل هاشم ... ومن نَحْوه قصداً تُحثُّ الرَّكايب
شفيعُ الوَرى يوم القيامة جاههُ ... ومنقذُ من فى النار والحقُّ واجب

ومما بلغ فيه أَقْصى مَبالغ الإجادة ، قوله من قصيدة هنَّا فيها سلطاننا أَبا الحجاج بن نصر ، لما وفد هو وجملة أَعيان البلاد أَولها :

يُهنى الخلافة فتَّحت لك بابها ... فادخل على اسم الله يُمْنا غابها

منها وهو بديع ، استُظرف يومئذ :

يا يوسفيّاً باسمه وبوجهه ... اصعد لِمنْبَرهـا وصُن مِحـرابها
فى الأَرض مكَّنك الإلَه كيوسف ... ولتمْلُكَنَّ بربِّها أَربابها
بلغَتْ بكم آرابها من بعد ما ... قالت لذلك نسوةٌ ما رابها
كانت تُراود كُفوها حتى إذا ... ظَفِرت بيوسف غلَّقت أَبوابها

[قلت ، ما ذكره المؤلف ابن الخطيب رحمه الله ، فى هذا المُترجم به ، من أَنه ينظم الشعر الوَسَط ، ظهر خلافه ، إذا أَثبت له هذه المقطوعة الأَخيرة . ولقد أَبدع فيها وأَتى بأَقصى مبالغ الإجادة كما قال ، وحاز بها نمطاً أَعلى مما وصفه به . وأَما القصيدة الأُولى فلا خفاءَ أَنها سهلة المأْخَذ ، قريبة المنْزع ، بعيدة من الجزالة . ولعل ذلك كان مقصوداً من ناظمها رحمه الله] (١) .

توفى ببلده عن سن عالية فى شهر ربيع الآخر عام ثمانية وثلاثين وسبعماية .

---

(١) وردت هذه الفقرة التى بين الحاصرتين فى مخطوط الإسكوريال فقط . ومن الواضح أنها من تعليق الناسخ .

ورثاه شيخنا أبو بكر بن شِبْرين رحمه الله بقوله :

يا عين سِحِّي بدمع واكِفٍ سَرِب لحامل الفضل والأخلاق والأَدب
بكيتُ إذ ذُكِر الموتى على رجل إلى بلى من الأَحياء مُنْتَسب
على الفقيه أَبي بكر تضمَّنه رَمْسٌ وأَعمل سيرا ثم لم يؤُب
قد كان بي منه وُدٌّ طاب مشرعُه ما كان عن رغَبٍ كلاًّ ولا رَهَب
لكن ولا على الرحمن مُحتسبا فى طاعة الله لم يمذُق ولم يشب
فاليوم أَصبح فى الأَجداث مُرتَهنا ما ضرَّت الريح أُمْلُودا من الغضب
إنا إلى الله من فَقْد الأَحبَّة ما أَشدَّ لذعا لقلب الثَّاكل الوَصِب
من للفضائل يُسديها ويُلحمها من للعُلى بين مَوْروث ومُكْتَسب
قُلْ فيه أَما تَصِفُ رُكْناً لمُنْتبذ رَوْضٍ لمُنْتَجع أُنْسٍ لمُغْتَرب
باق على العهد لا تَثنيه ثانية عن المكارم فى وِرْد ولا قُرْب
سهل الخليقة بادى البِشر مُنبَسط يَلْقى الغريب بوجه الوالد الحَدِب
كم غيَّر الدهر من حال فقَلَّبها وحال إخْلاصُه ممتدَّة الطُّنُب
سامى المكانة معروف تقدُّمه وقَدْره فى ذوى الأَقدار والرُّتب
أَكْرِم به من سجايا كان يحملها وكلها حَسَن تُنبيك عن حَسَب
ما كان إلا من الناس الأُلى دَرَجوا عقلا وحلما وجوداً هامى السُّحب
أَمسى ضجيعَ الثَّرى فى جَنب بلقَعَةٍ لكن محامدَه تبقى على الحُقُب
ليست صَبابة نفسى بعده عجباً وإنما صبرها من أَعجب العُجب
أَجاب دمعى إذ نادى النعيُّ به لو غَيْر مَنْعاه نادى الدمع لم يُجب
ما أَغفل المرءُ عمَّا قد أُريد به فى كل يوم تناديه الرَّدى اقترب
يا ويحُ نفسى الأَنفاس مَضَت هدراً بين البطالة والتَّسويف واللَّعب
ظننت أَنى بالأَيـام ذو هـزء غلطت بل كانت الأَيام تهزأُ بى

أشكو إلى الله فقرى من معاملة ... لله أنجو بها فى مَوْقِف العَطَب
ما المال إلا من الله قُوًى فأَفْلَح ... من جاءَ القِيامة ذا مالٍ وذا نَشبِ
أَبا بكر الأَرْضَى نداءَ أَخٍ باكٍ ... عليك مدى الأَيـام مُكْتَئبِ
أَهلاً بقَدْمتك الميمونُ ظاهرها ... على محل الرِّضى والسَّهل والرَّحب
نم فى الكرامة فالأَسباب وافرة ... وربما نِيلَت الحُسنى بلا سبب
لله لله والآجـال قاطعـةٌ ما ... بيننا من خطابات ومن خُطَب
ومن فرايـد آداب يُحَـبِّرها ... فيودع الشُّهب أَفلاكاً من الكُتب
أَما الحياة فقد مُلِّيتَ مدَّتهـا ... فعوّض الله منها خير مُنْقَلب
لولا قواطعُ لى أَشراكها نُصبت ... لزُرْت قبرك لا أَشكو من النَّصب
وقلّ ما شُفيت نفسٌ بزَوْرة ... من حِلِّ البَقيع ولكن جُهْد ذى أَرب
يا نُخْبةٌ ضمها تُرْبٌ ولا عجب ... إن التراب قديما مدفن النُّخُب
كيف السبيل إلى اللُّقيا وقد ضربوا ... بينى وبينك ما بقى من الحجب
عليك منى سلام الله يتبعُـه ... حسنُ الثَّنا وما حيِّيت من كثب

محمد بن محمد بن شُعْبة الغسّانى

من أَهل أَلمريّة ، يكنى أَبا عبد الله .

حـــاله

قال شيخنا أَبو البركات فى الكتاب « المؤتمن » ، من أَهل أَلمريَّة ووجوهها لا حظَّ له فى الأَدب ، وبضاعتُه فى الطلب مُزَجاة . قطع عمره فى الأَشغال المخْزنيَّة ، وهو على ذلك حتى الآن . قلت هذا الرجل أَحد فرسان الطريقة العَمَليَّة ، ماضٍ على لين ، متحرك فى سكون ، كاسدُ سوقَ المروءَة ، ضانٌ بما يملك من جدَة ، مُنْحَطٌ فى هوَّة اللَّذة ، غير مُعْرِج على رَبْع الهمَّة ، لطيفُ

التَّأَنِّى ، مُتَنزِّل فى المعاملة ، دَمِث الأَخلاق ، مليحُ العمل ، صحيح الحِساب ، مُنجب الولد .

مشيخته : قرأ على ابن عبد النُّور ،والقدرُ الذى يُحِس به عنه أَخذه .

شعره : من شعره يخاطب أَبا الحسن بن كُماشة :

وافى البَشِير فوافى الأُنس والجَذَل ... وأَقبل السَّعدُ والتوفيق والأَمل
وراقَت الأَرض حُسْناً زاهراً وسَنىً ... واخضرَّت منها الرُّبى والسَّهل والجبل
ولاح وجهٌ على بعد ذا فَغَدا ... له شعاعٌ كضوءِ الشَّمس مُتَّصل
مذ غاب أَظلمت الدنيا لنا وغَدَت ... أَحشاؤُنا بلهيب الشَّوق تشتعل
وحين أَشرقت الدُّنيا بغرّته ... عاد الظَّلام ضياءً وانتفى الخَبَلُ
إِيهٍ أَبا حَسَن أَنت الرجاءُ لنا ... مهْمَى اعتَرَت شدَّةٌ أَو ضاقت الحيل
وأَنت كهفٌ منيعٌ مَنْ نَحاك فقد ... نال المُنَى وبدا عيشٌ له خَضِل
يا سيداً قد غدا فى المجد ذا رُتب ... مشَيَّدة قد بنَتْها السَّادة الأُول
بنو كُماشَة أَهل الفضل قد شُهروا ... باهَتْ بهم فى قديم الأَعصُر الدُّول
السَّالكون هدىً السابقون مدىً ... والباذلون ندىً والناس قد بُخِلُ
أَنت الأَخيرُ زماناً والقديم عُلاً ... والسَّيد المرْتَجى والفارسُ البطل
إِن كُنْتَ جئت أَخيرا فلقد ... أَضْحى بجودِ يديك يُضْرب المثل
حُزْت المآثر لا تُحصى لكثرتها ... من رام إِحصاءها سُدَّت له السُّبل
جُزْت البُدور سنىً والفرْقَدين عُلاً ... وأَنت تجرٌّ النَّدى والوابل الهطِل
من جاءَ يطلب منك السِّلم قابلَه ... وجهٌ طليق ولفظٌ كله عسل
ومن يرُد غير ذا تبًّا له وردىً ... لقد ترفَّع فى بُرج له زُحل
هنَّاك ربُّك ما أَولاك من نعم ... وعِشْتَ فى عزَّة تَتْرى وتتَّصل
ولا عَدِمت مدى الأَيام مَنْزلةً ... من دُونها رفعةٌ فى الأَبْرُج الحمل

وخُذْه بعدُ سلاما عاطراً أَرِجاً   يدوم ما دامت الأَسحار والأصل
من خادمٍ لعُلاكم مخلصٍ لكم   من حُبِّكم لا يُرى ما عاش يَنْتقل
تقبيلُ كفِّك أعْلى ما يؤمله   فجُدْ به فشِفا الحايم القُبَل

وفاته ، فى أول عام أربعة وستين وسبعماية .

محمد بن محمد بن العراقي

وادى آشى ، يكنى أبا عبد الله .

حـــاله

فاضل الأُبوة ، معروف الصَّون والعفَّة ، بادى الاستِقامة ، دَمِث الأَخلاق ، حسن الأَدوات ، ينظِم وينثرُ ، ويجيد الخَطَّ ، تولى أعمالا نَبيهة ، ثم عَلِقت به الحرفة ، فلقى ضغطاً ، وفقد نَشَبًا ، واضطر إلى التحول عن وطَنه إلى برِّ العُدْوة عام ستة وخمسين وسبع ماية ، وتُعرِّف لهذا العهد أنه تولى الأَشغال بقُسَنْطينة الهواء[1] من عمل إفريقية .

شـــعره

كتب إلىَّ وقد أَبى عملا عُرِض عليه :

أَ أصمتُ أَلفاً ثم أَنطق بالخُلْف   وأَفْقِد أَلفاً ثم آنسُ بالجِلف
وأُمْسك دهرى ثم أَنطق عَلْقماً   ويمحق بَدْرى ثم أُلحق بالخسف
وعزُّكم لا كنتُ بالذُّل عاملاً   ولو أن ضَعْفى يَنْتَمى إلى حَتْف
فإن تُعملونى فى تصرُّف عزَّةٍ وعـــــدل وإلاَّ فاحسموا علَّة الصَّرف
بقيت وسُحُب العَطْف منــكم   تُظلُّنى وعطف ثُناتى دائماً ثانى العطف

(١) هكذا كانت تسمى مدينة قسنطينة (معجم البلدان - مصر - ج ٧ ص ٨٩) . وهى اليوم من مدن الجزائر الزاهرة .

محمد بن عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن فُرتون الأنصارى

من أهل مالقَة ، يكنى أبا القاسم ويعرف بالهنا

أوَّليتّــه

يُنسب إلى القاضى ببَطَلْيَوْس ، قاضى القضاة رحمه الله . وبمالقة دورٌ تنسب إلى سَلَفِه تدل على نباهة ، وقد قيل غير ذلك . والنَّص الجَلى أولى من القِياس .

حـــاله

من « عايد الصلة » : الشيخ الحاج المحدِّث صاحب الأَشغال بالدار السلطانية . صَدْرُ نَمَطه، وفريدُ فنِّه ، رجولةً وجزالةً واضطلاعا وإدراكا وتجلُّدا وصبراً . نشأَ بمالقة ، معدوداً فى أَهل الطَّلب والخصُوصيَّة ، ورَحل إلى الحجاز الشَّريف فى فِتايه[1] ، فاستكثر من الرِّواية ، وأَخذ عن أَكابرٍ من أَهل المشرق والمغرب ،حسبما يشهد بذلك برنامجه .

وكان على سُنن من السَّرْوِ[2] والحشمة ، فذًّا فى الكِفاية ، جريًّا مِقداما مَهيبا ، ظريف الشَّارة ، فارِه المَرْكب ، مليح الشَّيبة ، حسن الحديث ، وقَّاد الذهن ، صابراً على الوظايف ، يَخْلط الخوض فى الأُمور الدُّنيوية ، بعبادةٍ باهظة ، وأَوْراد ثقيلة ، ويجمع ضِحك الفاتِك ، وبُكاءَ النَّاسِك ، فى حالة واحدة ، هشًّا ، مفرط الحِدَّة ، يَشْرُد عليه مَجْلُ[3] لسانه فى

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (شبابه) والمؤدى واحد .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الصبر) والأولى أرجح وأنسب للسياق .

(٣) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (مجد) والأولى أرجح .

المجالس السلطانية بما تعرُوه المنْدمة بسببه ، قايماً على حفظ القرآن وتَجْويده وتلاوته ، ذا خصال حميدة ، صنَّاع اليد ، مقتدرا على العمليات من نسخٍ ومقابلة وحساب ، معدودا من صُدُور الوقت وأَعلام القُطر ، ورجال الكمال .

مشيخته

أَخذ عن الجلَّة من أَهل بلده كالأُستاذ أَبى محمد بن أَبى السَّداد الباهلى ، لازمه وانتفع به ، والخطيب أَبى عثمان بن عيسى أَخذ عنه[١] ، والولى أَبى عبد الله الطَّنجالى ، وغيرهم مما يطول ذكرهم من العُدْوة والأَندلس والمشارقة .

محنتــه

لقى نَصَباً فى الخدمة السلطانية ، وغَضًّا من الدهر لبَأْوه ، بتَعَنُّته وعدم مبالاته مرات ، ضُيِّق لها سِجْنه ، وعُرض عليه النَّكال ، ونِيل منه بالإهانة كلَّ مَنال ، وأُغرم مالا أَجْحف بمُحْتَجَنِه ، وعُرِّض للأَيدى نفايس كُتبه ، وعلى ذلك فلم يَذْعر سربهُ ، ولا أَضْعَفَتْ النكبة جاشَه .

ولد عام ثلاثة وسبعين وستماية . ومات ميْتة حسنة . صلى الجمعة ظهرا ، وقد لزِم الفراش ، ونَفَث دَمَ الطاعون ، ومات مُستقبل القِبلة ، على أَتم وجوه التأَهب ، سابع شوال من عام خمسين وسبعماية .

محمد بن عبد الله بن محمد بن مقاتل

من أَهل مالَقة ، يكنى أَبا القاسم ، أَزدى النسب ، إشبيلى الأَصل ، من بيت نزاهة ونباهة .

---

(١) ورد بعد هذا الاسم فى مخطوط الزيتونة ما يأتى (ومن أهل الشرق جار الله تق الدين ، وأبو محمد عبد الله بن عبد المؤمن القرشى الدلاصى ، قرأ عليه القرآن بالحرم الشريف) .

حـــاله

كان فاضلا وقوراً سَمْحاً ، مليح الدُّعابة ، عذبُ الفكاهة ، حُلو النادرة ، يكتُبُ ويُشْعر ، طِرْفاً فى الانطباع واللَّوذعيَّة ، آيةً فى خلط الجدِّ بالهزْل . وُلِّى الإشراف بمدينة مالَقة ، وتقلَّب فى الشهادة المَخْزنية عُمْره .

شـــعره

من شعره يخاطب ذا الوزارتين أَبا عبد الله بن الحكيم رحمه الله :

فؤادى من خَطْب الزمان سَقيم وفيه لسَهْم الحادثات كلُومُ

ولم أشْكُ دائِى فى البريَّة لامرئٍ أأشكو به وابنُ الحكيم حكيمُ

توفى بمالقة يوم الخميس عاشر شهر رمضان من عام تسعة وثلاثين وسبعماية .

محمد بن على بن عبد ربه التجيبى

من أهل مالقة ، يكنى أبا عمرو .

حـــاله

كان راويةً ثقةً ، بارع الأدب ، بليغ الكتابة ، طيِّب النفس ، كامل المروءة ، حَسِن الخلق ، جميل العشرة ، تلبَّس بالأعمال السلطانية دهرا ، ووُلِّى إشراف غرناطة وغيرها ، إلى أن قَعَد لشكاية منعته من القيام والتَّصرُّف فعَكَف على النَّظر ، فانتُفع به .

مشيخته

كانت له رِحْلة سَمِع فيها بالأسكندرية على أَبى عبد الله بن منصور وغيره ، وروى عنه الأخوان سالم وعبد الرحمن ابنا صالح بن سالم .

تواليفه

له اختصار حسن فى « أغانى الإصبهانى » ، وردٌّ جيِّد على ابن غَرْسِيَّة فى رسالته الشُّعُوبية [1] لم يَقْصُر فيها عن إجادة .

وتوفى لسبع خلون من محرم من عام اثنين وسمّاية .

الزُّهاد والصُّلحاء والصُّوفية والفقراء وأولا الأصليون

محمد بن إبراهيم بن محمد بن محمد الأنصارى

من أهل غرناطة ، يكنى أبا عبد الله ويعرف بالصنّاع .

حـــاله

من « عايد الصلة » : الشيخ الصُّوفى ، الكثير الأتباع ، الفَذُّ الطريقة المُجَبَّب إلى أهل الثغور من البادية . كان رحمه الله شيخاً حسن السَّمت ، كثير الذِّكر والمداومة ، يقود من المُخْشَوشِنين عددَ ربيعة ومضر ، يعمل الرِّحلة إلى حُصونهم ، فيتألَّفون عليه ، تألُّف النَّحل على أُمرائها ويعَاسِيبها ، مُعلنين بالذِّكر ، مهرولين ، يغشُون مثواه ، بأقواتهم على حالها ، ويتناغُون

(١) ابن غرسية ، هو أبو عامر بن أحمد ، وهو مولد أندلسى من كتاب شرق الأندلس ، وقد نشأ بدانية فى كنف مجاهد العامرى صاحب مملكة دانية والجزائر (٤٠٠ – ٤٣٦ هـ) ، واشتهر برسالته فى «تفضيل العجم على العرب » التى وجهها إلى ابن الحداد الشاعر ببلاط المعتصم بن صمادح أمير ألمرية . وهذه الرسالة تفيض تحاملا ضد الجنس العربى ، وتبالغ فى تعداد نقائصه ومثالبه ، وتشيد بالعكس بصفات العجم (أى الروم أو النصارى) . وقد كان لرسالة ابن غرسية وقع عميق فى سائر الأوساط الفكرية والأدبية فى عصره وبعد عصره ، ورد عليه كثيرون من المفكرين والأدباء فى رسائل عنيفة يسفهون فيها آراءه واتهاماته للجنس العربى (راجع كتابى دول الطوائف – الطبعة الثانية ص ٢٠٤ – ٢٠٨ – ونص رسالة ابن غرسية فى نفس الكتاب (ص ٤٥٥ – ٤٥٩) .

فى التماس القرب منه ، ويباشرون العمل فى فِلاحة كانت له بما يعود عليه بوفر وإعانة . وكان من الصالحين ، وعلى سُنن الخِيار الفضلاءِ من المسلمين ، وله حظٌّ من الطَّلب ومشاركة ، يقوم على ما يحتاج إليه من وظائف دينِه ، ويتكلم فى طريق المتصوِّفة على مذهب أبى عبد الله السَّاحلى شيخه ، كلاما جَهْوريا ، قريب الغَمْر[1] . وكان له طمع فى صناعة الكيمياء تهافَتَ على دفاتيرها ، وأهل مُنْتحليها ، ليستعين بها بزعمٍ على آماله الخيْريَّة ، فلم يَحُلْ بطايل .

مشيخته

قرأ على أُستاذ الجماعة أبى جعفر بن الزبير ، وكانت له فى حاله فراسةٌ . حدَّثنى بذلك شيخنا أبوعبد الله بن عبد الولى رحمه الله . وسلك على الشيخ الصالح أبى عبد الله السَّاحلى .

وتوفى ليلة الاثنين السابع من شهر شوال عام تسعة وأربعين وسبعماية، وكانت جنازته آخذة فى الاحتفال ، قَدِم لها العهد ، ونَفَر لها الناس من كل أوب ، وجىء بسريره ، تلوح عليه العناية ، وتحفُّه الأَتباع المقتاتون من حِلِّ أموالهم وأيديهم من شيوخ البادية ، فتولوا مواراته ، تعلو الأَصوات حوله ، ببعض أذكاره .

محمد بن أحمد الأنصارى

من أهل غرناطة ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بالموَّاق .

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (القصر) .

حـــاله

كان معلما لكتاب الله [تعالى][١] ، خطيبا بمسجد ربض الفخَّارين ، طِرْفاً فى الخير ولين العريكة ، والسذاجة المشفوعة بالاختصار ، وإيثار الخُمول ، مستقيما فى طريقته ، خافتا فى خطبته ، عاكفا على وظيفته ، مقصودا بالتماس الدعاء ، مَظِنَّة الصلاح والبركة .

توفى بغرناطة قبل سنة خمسين وسبعماية بيسير ، وكلِفَ الناس بقبره بعد موته ، فأولوا حجارته من التعظيم ، وجَلْب أوانى المياه للمداواة ، ما لم يولوه معشاره أيام حياته .

محمد بن حسنون الحميرى

من أهل غرناطة ، يكنى أبا عبد الله .

حـــاله

كان فاضلا صالحاً ، مشهور الولاية والكرامة ، يقصده الناس فى الشَّدايد ، فيسألون بركة دُعايه . ومن إملاء الشيخ أبى بكر بن عَتيق بن مُقَدَّم ، قال ، أصله من بَيَّاسة[٢] ، وكان عمه من المقربين المحدثين بها ، وسكن هو مُرسية ، ونشأ بها ، وقرأ على أشياخها ، وحفظ « كتاب التحبير » فى علم أسماء الله الحسنى للإمام أبى القاسم القُشَيرى ، ثم انتقل إلى غرناطة ، فسكن فيها بالقصبة القديمة ، وأمَّ الناس فى المسجد المنسوب

---

(١) الزيادة من الزيتونة .

(٢) بياسة ، وبالإسبانية Baeza ، بلدة أندلسية متوسطة ، تقع شمال شرق جيان ، على مقربة من نهر الوادى الكبير .

إليه الآن . وكان يعمل بيده فى الحَلْفا ، ويتقوت من ذلك .

توفى عام خمسة وسبعماية بغرناطة ، وهو من عدد الزُّهَّاد .

ومن مناقبه ، ذكروا أنه سمع يوماً بعض الصِّبيان يقول لصبى آخر مر للحبس ، فقال أنا المخاطب بهذا ، فانصرف إلى السِّجن ، فدخله ، وقعد مع أهله ، وبلغ ذلك السلطان ، فوجَّه وزيره ، فأخرجه ، وأخرج معه أهل السجن كلَّهم ، وكانت من كراماته .

محمد بن محمد البكرى

من أهل غرناطة ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن الحاج .

كان رحمه الله شيخاً صالحاً ، جَهْوريًّا ، بعيدا عن[1] المصانعة ، متساوى الظاهر والباطن ، مُغْلِظاً لأهل الدُّنيا ، شديدا عليهم ، غير مُبالٍ فى الله بغيره ، يلبس خِرْقة الصُّوفية من غير التزام لاصْطِلاح ، ولا مُنْقاد لرَقْو ، ولا مُؤثر لسماع . مشاركا للناس ، ناصحاً لهم ، ساعياً فى حوايجهم. خدم الصالح الكبير أبا العباس بن مَكْنون ، وسلك به ، وكان من بيت القيادة والتَّجنُّد ، فرفض زِيَّه ، ولبس المسُوح والأَسْمال . وكان ذا حظٍّ من المعرفة ، يتكلم للناس . قال شيخنا أبو الحسن بن الجَيَّاب ، سمعته ينشد فى بعض مجالسه :

يا غادياً فى غفلة ورايحاً ... إلى متى تَسْتَحسن القبايِحا

وكمْ إلى كم لا تخاف موقفاً ... يستَنْطِق الله به الجَوارحا

يا عجبا منك وأنت مُبصِرٌ ... كيف تَجتنب الطريق الواضحا

---

(١) وردت فى الإسكوريال (من) والتصويب أرجح .

كيف تكون حين تقرأُ فى غَد ... صحيفةً قد مُليت فضائحا
أم كيف ترضى أن تكون خاسرا ... يوم يَفوز مَنْ يكونُ رابحا

ولما حاصر الطَّاغية مدينة ألمريَّة ، وأشرفت على التلف[١] ، تبرَّع بالخروج منها ولحاقِه بباب السلطان ، لبثٍّ حالها ، واستِنْفار المسلمين إلى نَصْرها ، فيُسِّر له من سَتْر غَرَضه ، وتَسْهيل قصده ، ما يشهد بوِلايته .

توفى بألمريَّة محل سكناه ، فى حدود عام خمسة عشر وسبعماية .

محمد بن محمد بن أحمد الأنصارى

غرناطى ، قِيجاطى[٢] الأصل يعرف بالسَّواس .

قال فى « المؤتمن » فى حاله : رجل مُتَطَبِّب ، سهل الخُلُق ، حسن اللقاء . رحل من بلده ، وحجَّ ، وفاوض بالمشرق الأطباءَ فى طريقته ، وعاد فتصدَّر للطب ، ثم عاد إلى بلاد المشرق . قلتُ ، وعظُم صيته ، وشُهر فضله ، وقُدِّم أمينا على أحْباس مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة الطَّاهرة وصَدقاتِه ، وذُكر عنه أنه اضطره أمرٌ إلى أن خَصى نفسه ، وسقَطَتْ لذلك لحيتُه .

قال شيخنا أبو البركات ، أنشدنا بدكَّانه برحَبة المسجد الأعظم ،

---

(١) الإشارة هنا حسبما تقدم فى حاشية سابقة إلى محاولة خايمى الثانى ملك أراجون الإستيلاء على ثغر ألمرية وقيامه بحصاره فى سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) وذلك بتحريض زميله فرناندو الرابع ملك قشتالة ، الذى قام بحصار جبل طارق فى نفس الوقت . وفشل خايمى فى مشروعه إزاء مقاومة المسلمين العنيفة ، ونجت ألمرية بذلك من خطر السقوط . ونزيد هنا أن جبل طارق كان أسوأ حظاً إذ سقط فى أيدى النصارى فى أواخر سنة ٧٠٩ هـ (مارس ١٣١٠ م) ، واستمر بأيديهم حتّى استعاده المسلمون منهم فى سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٣ م) ليبقى بأيديهم عصراً آخر (وراجع الحاشية ص١٩٦ من هذا المجلد) .

(٢) قيجاطى نسبة إلى بلدة قيجاطة Quesada ، وهى تقع شمال شرق جيان .

من حضرة غرناطة ، قال أنشدنا أبو عبدالله المُرَّاكشى بالإسكندرية ، قال أنشدنا مالك بن المُرحَّل لنفسه :

أرى الكلاب بشَتْم الناس قد ظُلمت والكلبُ أَحْفَظُ مخلوق لإحسان
فإن غَضِبت على شخص لتشتِمه فقل له أنت إنسانٌ ابن إنسان

وفاته : كان حيا عام خمسين وسبعماية فيما أظن .

ومن الطَّارئين عليها فى هذا الاسم

محمد بن أحمد بن جعفر بن عبد الحق بن محمد بن جعفر بن محمد ابن أحمد بن مروان بن الحسن بن نصر بن نزار بن عمرو بن زيد بن عامر ابن نصر بن حقاف السلمى

يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن جعفر ، ويشهر فى الأخير بالقَوْنجى ، منسوباً إلى قرية بالإقليم ، وكان من أهل غرناطة .

حـــاله

من خطِّ شيخنا أبى البركات بن الحاج : كان هذا الرجل ، رجلا صالحاً فاضلا متخلِّقاً ، سمْحاً ، جميل اللقاء على قدم الإيثار على رقة حاله ، ممَّن وضع الله له القبول فى قلوب عباده ، فكانت الخاصَّة تَبِرُّه ولا تنتقدُه ، والعامة تَوَدُّه وتعتقده ، وتَترادف على زيارته ، فئةً بعد فئة ، فلا تَنْقَلب عنه الا راضيةً ، وكان جارياً على طريقة الشيخ أبى الحسن الشَّاذلى [إذ كان قد لَقى بالمشرقَ الشيخ الإمام تاج الدين بن عطاء الله ، ولازمه وانتفع به ، كما لَقى ولازم تاج الدين أبا العباس المُرْسى ، كما

لازم أبو العباس أبا الحسن الشاذلى] [١] . قال : ولقيه بعد هذا الشيخ أبى عبد الله جماعات فى أقطار شتَّى ، ينتسبون إليه ، ويَجْرون من ملازمته الأذْكار فى أوقات معينة على طريقته ، وله رسايل منه إليهم طوال وقصار ، يوصيهم فيها بمكارم الأخلاق ، ومُلازمة الوظايف ، وخرج عنه إليهم على طريقة التَّدْوين ، كتابٌ سمَّاه « بالأنوار فى المخاطبات والأسرار » مُضَمَّنُه جملةٌ من كلام شيخهم تاج الدين ، وكلام أبى الحسن الشاذلى ،ومخاطبات خوطب بها فى سرِّه ، وكلام صاحبه أبى بكر الرُّندى ، وحقايق الطريق ، وبعض كرامات غير مَنْ ذُكر من الأولياء ، وذكر الموت ، وبعض فضايل القرآن .

مشيخته

قرأ على الأُستاذ أبى الحسن البلُّوطى وأجازه ، وعلى أبى الحسن بن فَضيلة وأجازه كذلك ، وعلى أبى جعفر بن الزبير وأجازه ، ثم رحل فحجَّ ودخل الشام ، وعاش مدَّة من حِراسة البساتين ، واعتنى بلقاء المعروفين بالزُّهد والعِبادة ، وكان مليًّا بأخبار من لقى منهم ، فمنهم الشيخ أبو الفضل تاج الدين بن عطاء الله ، وصاحبه أبو بكر بن محمد الرندى .

منـــاقبه

قال ، دخلت معه إلى من خفَّ على قلبى الوصُول إلى منزله لمَّا قدم ألمريَّة ، وهو رجل يعرف بالحاج رحيب ، كان من أهل العافية ، ورقَّت حاله ، ولم يكن ذلك يظهر عليه ، لمحافظته على سَتْر ذلك لعلوِّ همَّته ، ولم يكن أيضا أثر ذلك يظهر على منزله ، بل أثاثُ العافية باق فيه من

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى الإسكوريال ، وساقط فى الزيتونة .

فَرْشٍ وماعون . فساعة وصول هذا الشيخ ، قال الله يجْبُر حالك ، فحسبتُها فراسة من هذا الشيخ . قال ، وخاطبته عند لقائى إياه بهذه الأَبيات :

أَشكو إليك بقلبٍ لست أَملكهُ ... ما لم يُرد من سبيل فهو يسلكه
له تعاقبُ أهــواءٍ فيقلقــه ... هذا ويأْخذه هذا ويتــركه
طوراً يؤمِّنهُ طورا يُخوِّفـــه ... طورا يُيقِّنُــه طورا يُشَكِّـكه
حينــاً يوحشه حينــا يونِسُه ... حينــا يسكِّنه حينــا يحرِّكه
عسى الذى يمسِك السَّبع الطِّباق ... على يديك يا مُطلع الأَنوار يمسِكه
فيه سقامٌ من الدنيا وزُخْرُفها ... مهمَى أُبيِّضه بالذكر تُشركه
عسى الذى شانه السّتْرُ[1] الجميل كما ... غطَّى عليه زماناً ليس يَهْتِكه

فلما قرأ منها ، فيه سقامٌ من الدنيا وزخرفها ، قال هذه عِلَّتى .

مولده : سأَلته عنه ، فقال لى عام ثمانية وستين بقرية الجيط من قرى الإقليم

وفاته : بقرية قنجة[2] خطيبًا بها ، يوم الإثنين عشرين من شهر شعبان المكرم عام خمسين وسبع مابة ، فى الوباءِ العام ، ودفن بقرية قنجة ، رحمة الله عليه ورضوانه .

محمد بن أحمد بن حسين بن يحي بن الحسين بن محمد بن أحمد ابن صفوان القيسى

وبيته شهير بمالقَة يكنى أَبا الطاهر ، ويعرف بابن صَفْوان .

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، ووردت فى الزيتونة (قرتجة) والأولى أرجح نظراً لما تقدم من أن المترجم له يشهر (بالقونجى) .

حـــاله

كان مفتوحاً عليه في طريق القوم ، مُلْهَماً لرمُوزهم ، مصنوعاً له في ذلك ، مع المحافظة على السُّنة ، والعمل بها ، آخر الرَّعيل ، وكوكبَ السِّحر ، وفذلكةَ الحساب ببلده ، اقتداءً وتخلُّقا وخشوعا وصلاحا وعبادة ونصحا . رَحل فحّج ، وقَفل إلى بلده ، مُؤثراً الاقْتصار على ما لديه ، فإذا تكلَّم في شيءٍ من تلك النِّحلة ، يأْتي بالعجايب ، ويفُكُّ كل غامض من الإشارات . وعُنِي بالجزء المنسوب إلى شيخ الإسلام أبي إسمعيل الرُوبي المسمى « بمنازل السّارى إلى الله » فقام على تدريسه ، واضطَّلع بأَعبايه ، وقيَّد عليه ما لا يدركه إلا أُولوا العناية ، ولازمه الجُمْلة من أُولي الفضل والصلاح ، فانتفعوا به ، وكانوا في الناس قُدْوة . ووُلِّي الخطابة بالمسجد الجامع من الرَّبض الشَّرقي ، وبه كان يقعد ، فيقصِده الناس ، ويتبركون به ، وكان له مشاركة في الفقه ، وقيامٌ على كتاب الله .

تواليفه

أَلَّف بإشارة السلطان على عهده ، أَمير المسلمين أَبي الحجاج رحمه الله ، كتابا في التَّصوُّف والكلام على اصطلاح القوم ، كتب عليه شيخنا أَبو الحسن بن الجيَّاب بظهره ، لما وقع عليه ، هذه الأَبيات :

أَيام مولاى الخليفة يوســف ... جاءت بهــذا العــالم المُتَصَوِّفِ
فكفى بما أَسدى من الحِكم التى ... أَبدين من سِّر الطــريقة ما خَفِ
وحقايقُ رُفع الحجاب بهن عن ... نور الجمال فلاح غير مُكيَّف(١)
كالشمس لاكن هذه أَبدى سَناً ... للحُسن والمعـــنى لعـين المُنصف

(١) هذه الأبيات الثلاثة فقط هي التي وردت في الزيتونة من قصيدة ابن الجياب .

فيه حياةُ قلوبِنـــا ودواؤهـا فمن استغاث بجرعة منها شُفِ
إن ابن صفوان إمام هِداية صافى فصَوِّفى فهـو صُـوفىٌّ صَـفِ
وإن اختبرت فإنه صفوٌ ابن صَفْوٍ ظاهـر فى طيِّـهِ صَفْوٌ خَفِ
علمٌ تـوارثه وحـالٌ قـد خلَت ذوقاً فنعم المقْتَدى والمُقْتَفِ
فلْيُهْنِلى المـولى سُـعود إيالـة فيها سراجُ نورِه لا يَنْطَفِ
جلَّى وجـوهَ شريعـةٍ وحقيقةٍ صُبْحـاً سَناهُ باهرٌ لا يَخْتَف
لازلتَ تسلك كل نَهْجٍ واضح منها وتحيي كل سَعْى مُزلـف

ومن تواليفه « جَرُّ الحُرِّ » فى التوحيد ، وعلَّق على الجزء المنسوب لأَبى إسمعيل الهرَوى .

من أخذ عنه

أُخذ عنه ببلده ، وتبرَّك به ، جلَّة ، وكان يحضر مجلسَه عالَمٌ ، منهم شيخ الشيوخ الأَعلام ، أَبو القاسم الكسكلان ، وأَبو الحسين الكوَّاب ، والأُستاذ الصالح أَبو عبد الله القطان ، وصهره الأُستاذ أَبو عبد الله بن قرال والعاقد الناسك أَبو الحسين الأَحمر وغيرهم .

شعـره

رأيت من الشعر المنسوب إليه ، وقد رواه عنه جماعة من أَصحابنا ، يُذيِّل قول أَبى زيد رضى الله عنه :

رأَيتك تُدْنينى إليك تُباعـدنى فأَبعدتُ نفسى[لابتغاء التقرُّب][1]

فقال :

هويت بِدِمْنى إليه فلم يكن بى البعد فى بعدى فصَحَّ به قرب

---

(١) وردت فى الإسكوريال (لابتغاى فى القرب) وهو تحريف . والتصويب من الزيتونة

فكان به سَمْعى كما بَصَرى به وكان به لَأْىَ لِسانى مع القلب
فقُرْبى بـه قربٌ بغيـــر تبــاعد وقُرْبى فى بُعدى فلا شيءَ من قُرْب

وفــــاته

سافر من بلده إلى غرناطة فى بعض وجهاته إليها ، وذهب سَحَراً يرتاد ماءً لوضويه . فتردى فى حفرة تردِّيا أوهن قواه ، وذلك بخارج بَلِّش ، فرُدَّ إلى مالَقة ، فكانت بها وفاته قبل الفجر من ليلة يوم الجمعة الرابع عشر لشعبان عام تسعة وأربعين وسبعمايه .

محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم الأنصارى

يكنى أبا عبد الله، ويعرف بالسَّاحلى .

حـــاله

من « عايد الصلة » : المثل الساير فى عُمران أوقاته كلها بالعبادة ، وصَبره على المُجاهدة . قطع عمره فى التَّبَتُّل والتَّهجُّد لا يفْتُر لسانه عن ذكر الله ، والصلاة على نبيه ، صلى الله عليه وسلم . خرج عن مَتْروك والده ، واقتصر على التَّمعُّش من حِرفة الخياطة . ثم تعدّاها إلى النَّسخ والتَّعليم، وسلك على الشيخ أبى القاسم المُريد ، نفع الله به ، حتى ظهرت عليه سيا الصالحين ، وأقام عمره مُسْتوعباً ضروب الخير ، وأنواع القُرب من صوم وأذان وذِكر ، ونَسْخ وقراءة ، وملازمة خَلْوة . ذا حظٍّ من الفصاحة . وجُرأة على الوعظ ، فى صوت جَهير ، وعارِضَة صَليبة . اقتدى به طوايفُ من أصناف الناس على تباعُد الدِّيار ،وألزمهم الأذكار ، وحوَّلهم للسلوك ، فأصبح كثير الأَتباع ، بعيد الصِّيت . ووُلِّى الخطابة بالمسجد الجامع من

بلده ، ونُقل إلى الخطابة ، بجامع غَرناطة فى نَبْوَةٍ عرضت له بسبب ذُنَابَى ذرِّية طرقوا الكَدَر إلى سِرْبه[1] ، ثم عاد إلى بلده متين ظَهْر الحُظْوة ، وثيق أَساس المَبرَّة .

مشيخته

قرأ ببلده مالَقة على الخطيب أَبى محمد بن عبد العظيم بن الشيخ ، وأَبى عبد الله بن لُب ، وأَبى جعفر الحرَّار ، وأَبى عبد الله بن الحُلو ، والخطيب أَبى عبد الله بن الأَعْوَر .

محنتـــــه

ابتلى بعد السبعين من عمره بفَقْد بصره ، فظهر منه من الصبر والشكر والرِّضاءِ بقضاءِ الله ، ما يظهر من مثله . وأَخبرنى بعض أَصحابه أنه كان يقول ، سأَلت الله أَن يكفَّ بصرى خوفا من الفِتنة . وفى هذا الخبر نظرٌ لمكان المعارضة فى أَمره صلى الله عليه وسلم بسؤال العافية ، والإمتاع بالإبهاع والإبصار .

شـــهرته

وجعل الله له فى قلوب كثير من الخَلْق ، الملوك فَمَنْ دونَهم ، من تعظيمه ما لا شيءَ فوقه ، حتى أَن الشيخ المُعَمر الحجَّة الرُّحلة أَبا على ناصر الدين المِشْدالى كتب إليه من بِجاية بما نصه : يا أَيها العزيز مسَّنا وأَهلنا الضُّر ، وجينا ببضاعة مُزْجاة ، فأَوْفِ لنا الكَيْل ، وتصدَّق علينا ، إن الله يجزى المتصدِّقين . وبعده : من العَبْد الأَصغر والمُحِب الأَكبر فلان ، إلى سيِّد العارفين ، وإمام المحققين ، فى أَلفاظ تناسب هذا المعنى .

حدَّثنى شيخنا أَبو الحسن بن الجيَّاب ، وكان من أَعلام تلاميذه ،

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (شرفه) والأولى أرجح وأنسب للسياق .

وصدور السالكين على يديه ، قال قصدت منه خَلْوة ، فقلت يا سيدى ، أصحابُنا يزعمون أنك ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاخبرنى واشْف صدرى هل هذه الرؤيا عيْنِيَّة أو قلبية ، قال ، فأَفْكَر[١] ساعة ، ثم قال ، عندى شك فى رؤية ابن الجيّاب الساعة ومحادثته ، فقلت لا ، فقال كذلك الحال ، قلت وهذا أمر غريب ، ولا يصح إلا رُؤية القلب ، ولكن غَلبت عليه حتى تخَيَّل فى الحسِّ الصورة الكريمة ، إذ وجود جوهر واحد فى محلَّين اثنين محال .

شـــعره

نظم الكثير من شعر مُنْحط لا يصلح للكُتْب ولا للرِّواية ، ابتلى به رحمه الله ، فمن لبابه قوله ، وهو من الوسط :

إن كنت تـأْمل أن تنال وصالهم ... فامحُ الهوى فى القيل والأَفعال
واصبر على مُرِّ الدواء فإنـــه ... ياتيك بعدُ بخالص السِّلسال

تواليفه : أَلف كتاباً سمَّاه « إعلان الحجَّة فى بيان رسوم المحجَّة » .

توفى يوم الجمعة الرابع والعشرين لشوال عام خمسة وثلاثين وسبعماية ، وكانت جنازته مَشْهُودة ، تزاحم الناس على نعشه ، وتناولوه تمزيقاً على عادتهم من ارتكاب القِحة[٢] الباردة فى مِسْلاخ حُسْن الظَّن .

محمد بن أحمد بن قاسم الأمى

من أَهل مالقة ، يكنى أَبا عبد الله ، ويعرف بالقطَّان ، الفقيه الأَوَّاب المتكلم المجتهد .

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والزيتونة .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الحجة الباردة) .

حـــاله

من « العايد » : كان هذا الرجل غريب المَنْزَع ، عجيب التَّصوُّف . قرأ وعقد الشروط ، وتصدَّر للعدالة ، ثم تجرَّد ، وصدق فى معاملته لله ، وعول عليه ، واضطَّلع بشروط التَّوبة ، فتحلَّل من أهل بلده ، واستفاد واستَرْحم ، واستغْفَر ، ونَفَض يديه من الدُّنيا ، والتزم عبادة كبيرة ، فأَصبح يُشار إليه فى الزُّهد والوَرَع ، لا تراه إلا متبسِّماً ، ملازماً لذكر الله ، متواضعاً لأَصاغر عِباده ، محبا فى الضُّعفاءِ والمساكين ، جميل التَّخلُّق ، مُغْضياً عن الهِنات ، صابراً على الإفادة . وجلس للجُمهور بمجلس مالَقة ، يتكلم فى فنون من العلم ، يعظُ الناس ، ويُرشدهم ، ويُزهِّدهم ، ويحملهم على الإيثار ، فى أسلوب من الاستنفار[1] والاسترسال ، والدلالة ، والفصاحة والحفظ ، كثيرُ التأْثير فى القلوب ، يخبر بإلهام وإعانة . فمال الخلق إليه ، وتزاحموا على مجلسه ، وأعلنوا بالتَّوبة ، وبادر مُتْرِفُوهم إلى الإقلاع عن إجابة الشهوات ، والاستقالة من الزَّلَّات . ودَهَم الوباءِ ، فبذلوا من الأَموال فى أَبواب البرِّ والصَّدَقة ، ما لا يأْخذه الحَصْرُ ولا يُدركه الإحْصاء ولولا أَن الأَجل طرقه ، لعظُم صيته ، وانتشر نفعه .

وفـــاته

توفى شَهيد الطَّاعون عصر يوم الأَربعاءِ الرابع لصفر من عام خمسين وسبعماية ، ودفن بجبانة جبل فاره[2] ، ضحى يوم الخميس الثانى من يوم وفاته . وصلى عليه خارج باب قِنْتِنالة ، وألْحَده فى قبره الخطيب القاضى الصالح ، أَبو عبد الله الطَّنجالى ، رحم الله جميعهم .

---

(١) وردت فى الإسكوريال (الاسحنفار) . وفى الزيتونة (الاستمار) . ونعتقد أن التصويب أرجح .

(٢) جبل فاره وبالإسبانية Gibralfaro ، هو الجبل الذى يشرف على مالقة من الجنوب وقد سبق التعريف به (أنظر المجلد الأول من الإحاطة ص ٥٠٦ حاشية) .

ومن رثاه الشيخ الأديب أبو الحسن الورّاد فقال :

[أبَعْد ولىِّ الله دمعى يُسْجم ... وغِمار قلبى من كُلوم تترجم
فؤادى مَكْلُوم بحُزْنى لفقده ... لذاك جُفُونى دمعُها كلُّه دم] (١)
وماذا عسى يُغنى التفجُّع والبُكا ... وماذا عسى يُجدى الأسى والتَّبرم
سأصبر للبَلْوى وإن جلَّ خطبها ... فصبر الفتى عند الشَّدايد يُعلم
كذا العلم بالسيف الصَّقيل لدى الوَغى فُوَيق الذى من حُسْنه يُوسم
على قَدْر صبر المرءِ تَصْغُر عنده ... خطوبٌ من الدنيا على الناس تَعظم
إلا إنها الدُّنيا تَعِلَّةُ باطل ... ومَخْمَضة أحلام لِمن بات يحلَمُ
تجنَّبها أهل العقول فأقْصروا ... وأغرق فيها الجاهلون وأشأمُ
أعد نظراً فيها تجبك براحة ... وانس بما تقضى عليك وتحكم
أعدَّ لها دِرياق صبرك إنها ... من البؤس والتَّلوين والله أرْقم
تلفَّت إلى تعذيبها لمحبها ... وماذا بها يَلْقى كئيبٌ ومُغرم
يُظنُّ بها ريحانةً وهى سِدْرَةٌ ... ولا مُنْتَهى إلا الرَّدى والتَّندم
عجبت لها تَخْفى علينا عُيوبها ... وذاك لأنَّا فى الحقيقة نُوَّم
أليس عجيباً أن يُعَوِّل عاقلٌ ... على عاجل من وَصْلها يَتَصرَّمُ
وما وَصْلها مِعْشار عُشر صُدورها ... ولكنه صرف للدَّهر أدْوَم
إذا ابْتَسمت يوما ترقَّبْ عُبُوسَها ... فما إن لنا منها يَدُوم التَّبسُّم
ضُحَّى كان وجهُ الدَّهر سبْرٌ بشْرُه ... فلم يَمْسَ حتى بان منه التَّجَهُّم
ذَرينا بعقد من وُلِّى مكانه ... مكينٌ لدى العلياء سام معظَّمُ
هوَى مثل ماهوى من الأُفُق كوكب ... فجَلَّلنا ليل من الخَطْب مُظلم
تساوى لديه صَيدُها وعبيدُها ... وعالِمُها النِّحرير والمُتَعلم

---

(١) ورد فى الزيتونة هذان البيان فقط من القصيدة .

هو الموتُ لا ينفكُّ للخلق طالباً ... يرُوح ويغْدو كلَّ حين عليهم
وما هو إلاَّ الدَّاءُ عـــزَّ دواؤه ... فليس لشيءٍ فى البَسِيطة يُحسم
دها كلَّ مخلوق فما منه سيِّدٌ ... له الجـاهُ عند الله ينجو فسَلِّم
ولـو كان ذا كان النَّبي محمد ... تجنَّبـه صلُّوا عليـــه وسَلِّمُ
تعنَّى به موسى ويوسف قبله ... ونوحٌ وإدريس وشـــيثٌ وآدم
به باد بهرام وتُبـرُ بَهْـــرم ... وكُسر من كِسرى سوارٌ ومِعْصَم
وكم من عظيم الشَّأْن حلَّ برَبعه ... فإنْ تَخْتَبرْه فهو ربٌّ وأَعْظَـم
ولـكنَّنـــا نَنْسى ونَـابَى حديثه ... ونُنْجِد فى الإعراض عنه ونُتْهِم
فحتَّى إذا حلَّ ســاحة مــاجِد ... نظُلُّ بهـا من حَسْـــرة نتـكلَّم
نَسينا حديث الموت جهلاً بغَدْره ... فأَلهِمْنـــا إذ هـــزَّنا منـه مُلهم
وفاةٌ ورمىٌ فى التُّراب مُوَسَّـــد ... وآثــاره فوق السِّماك تُخَيِّـــم
خَبــا ضوءُه نادىَ أَقْفَر ربْعُـــه ... من العِلم والتَّعليم ربعٌ ومُعْلَمُ
تردَّى فأَردَى فَقْدُه أَهل ريَّـة ... فما منهم إلا كئيبٌ ومُغْـــرَمُ
غدا أَهلُها من فَجْعة بمصابه ... وعيشُهم صابٌ قطيع وعَلْقم
وهل كان إلاَّ والدٌ مات عنهم ... فيا مَنْ لقوم يُتِّموا حين أَو يُتِّم
قضى نَحْبه الاستاذُ واحدُ عصره ... فكاد الأَسى يَقْضى إلى الكلِّ منهم
قضى نحبه القطَّان فالحزن قاطن ... مقيمٌ بأَحناء الضُّلُوع مُحَـكَّم
وهل كان الاَّ روضة رَفَّ ظِلُّها ... أُتيح له قَيظٌ من الجَوْن صَيْلَمُ
وهل كان إلاَّ رحمةٌ عاد فقدُها ... علاَمَة فَقْــد العِلم والله أَعْـلَمُ
سَلْ التَّائبين العاكفين على الهدى ... لـكم منَّة أَسدى وأَهدى إليهم
أَفادهم من كلِّ علم لُبــــابَه ... وفهَّمهم أَســـــراره فتَفَـهَّمُ
جزى الله ربَّ الناس خَيْر جزائه ... دليلا بهم نحو الهدى حيث يمَّمُ
أَبان لهم طُرَق الرَّشاد فأَقْدَموا ... وحذَّرهم عن كل غىٍّ فأَحْجَـمُ

وجاء من التَّعليم للخيــر كله ... بأبيَن من يأتى به مَنْ يعـــلم
فصاحةُ أَلفاظ وحسنُ عبــارة ... مضى كما يمضى الحُسام المُصَمَّمُ
يُصيب فلا يخطى إذا مقصـدا ... ولمن يجيب فلا يُبطى ولا يَتَلعثم
يحدِّث فى الآفاق شرقاً ومغرباً ... فأخبــاره أَضحت تُخطُّ وتُرسم
سرَى فى الورى ذكرٌ له ومدايح ... يكاد بهـا طيرُ العُلى يتـــرنّـم
لعَمْرُك ما يـاتى الزمـــان بمثله ... وما ضرَّنى لو كنت بالله أُقسم
فقيهٌ نزيهٌ زاهـــد متــواضع ... رؤوفٌ عطــوف مُشــفق مُتَرحِّم
يودُّ لو انَّ الناس أَثْرى جميعهم ... فلم يَبْقَ مِسكين ولم يبق مُعــدم
يودُّ لو انَّ الله تاب على الوَرى ... فتابوا فما يَبْقى من الكلِّ مُجرم
عليه من الرَّحمن أَوسعُ رحمة ... فقد كان فينا الدَّهر يحنو ويَرْحَمُ

محمد بن أحمد بن يوسف بن أحمد بن عمر بن يوسف بن على بن خالد ابن عبد الرحمن ابن حميد الهاشمى الطَّنجالى

لوْشِى[1] الأَصل ، مالقى النشأة والاستيطان .

أَوليتــه

[بيتهم نبيهُ إلى هاشميَّة النُّبْه][2] وهم ببلدنا لَوْشة أَشرافٌ ، وكانت لهم فيها ثَرْوة وثوْرة ، اجتثَّها الدهر ببعض طوارقه ، فى أَبواب المُغالبات . ويمتُّ سلفُنا إليهم بصُحبة ومُصاهرة فى حديث يستدعى طولاً ، وانتقل خلفُهم إلى مالَقة .

---

(١) لوشى أى نسبة إلى لوشة Lota وهى بلد ابن الخطيب وهى تقع غرب غرناطة جنوبى نهر شنيل .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى الزيتونة وردت كالآتى : (بيتهم ينسب إلى الهاشمية أهل بيت نبيه) .

حـــاله

من « عايد الصلة » : كان هذا الوَلِى الفاضل ، المُجْمَعُ على ولايته وفضله ، سهل اللقاءِ ، رفيقاً بالخلق ، عَطُوفاً على الضعفاءِ ، سالكاً سُنَن الصَّالح من السَّلف ، سَمْتاً وهَدْياً ، بصرُه مغضُوض ، ولسانه صامتٌ ، [إلاَّ من ذكر الله ، وعلمه نافع](١) وثوبُه خَشِن ، وطُعْمَتُه قد نَقِدها الورَعُ الشَّديد ، حتى اصْطَفاها مختارة ، إذا أَبْصَرت بها العينُ ، سَبَقَتْها العَبْرةُ . بلغ من الخَلْق ، الملوكَ فَمَنْ دونهم الغاية ، فكان يلجأُ إليه المضطَّر ، وتُمَدُّ إلى عنايته الأَيدى ، وتُحَطُّ بفنايه الوسايل ، فلا يَرْتفع عن كُلَف الناس ولا حوايجهم ، ولا يَنْقَبض عن الشَّفاعة لهم ، وإصلاح ذات بَيْنهم . له فى ذلك كلِّه أخبارٌ طريفة . واستُعمل فى السِّفارة بين مَلِكى العُدْوة والأَندلس ، فى أَحوال المسلمين ، فما فارق هيئته ، وركوبَ حِماره واستصْحاب زادِه ، ولِبْس الخشِن من ثوْبه . وكان له حظٌّ رغيبٌ من فِقه وحديث ، وتفسير ، وفريضة . وُلِّى الخطابة ببلده مالقة ، واستَسْقى فى المُحول ، فسُقِى الناس .

حدَّثنى بعض أَشياخنا : قال ، حضرت مُقامه ، مُسْتَسْقِياً ، وقد امتنع الغيث ، وقحط الناس ، فما زاد عند قيامنا أن قال ، أَستغفر الله ، فضجَّ الخَلْقُ بالبكاءِ والعَجيج ، ولم يَبْرَحوا حتى سُقوا . وكراماته كثيرة ، ذايعة من غير خلاف ولا نزاع .

حدَّث بعض أَشياخنا عن الخطيب الصَّالح أَبى جعفر الزيات ، قال رأَيت فى النَّوم قايلا يقول ، فُقِد اللَّيلة من يَعْمُر بَيْت الإِخلاص بالأَندلس ، فما انتصف النهار ، من تلك الليلة ، حتى وَرَدَ الخبر بموته .

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى الزيتونة ، وساقط فى الإسكوريال .

مشـــيخته

من شيوخه الذين قرأ عليهم ، وأسْنَد إليهم الرواية والده رحمه الله ، وأبو عمرو بن حَوْط الله ، والخطيب أبن أبي ريحانة المَرْبلىّ ، والقاضى أبو على بن أبي الأحوص ، والراوية أبو الوليد بن العطار ، والراوية المحدث أبو بكر بن مُشليون ، والمقرى أبو عبد الله بن مسْتَقُور الطائى ، والاستاذ أبو جعفر الطبّاع ، وأبو الحسين بن أبي الربيع ، والمحدِّث أبو عبد الله بن عيّاش ، والاستاذ أبو الحسن السَّفّاج الرُندى ، والخطيب بألمريَّة أبو الحسن الغزّال . وقرأ على الاستاذ أبي جعفر بن الزبير . وأجازه من أهل المشرق جماعةٌ منهم أبو عبد الله بن رُزيق الشافعى، والعباس أحمد ابن عبد الله بن محمد الطبرى ، وأبو اليُمن عبد الصمد بن أبي الحسن عبد الوهاب بن أبي البركات المعروف بالنجام ، والحسن بن هِبَة الله بن عساكر ، وإبراهيم بن محمد الطَّبرى إمام الخليل ، ومحمد بن محمد بن أحمد بن عبد ربه الطَّبرى ، ومحمد بن على بن وَهَب بن مُطيع القُشَيرى ، وأبو الفتح تقىّ الدين بن أبي الحسن فخر الدين ، وعبد الله بن محمد بن أبي بكر الطبرى المكىّ الشّافعى وغيرهم .

ميلاده : بمالقة فى رجب سنة أربعين وستماية .

وفاته : بمالقة فى يوم الخميس الثامن لجمادى الأولى من عام أربعة وعشرين وسبعماية . وقد ناهز الثمانين سنة ، لم ينتقص شيءٌ من أعماله المقرَّبة إلى الله ، من الصوم والصلاة ، وحضور الجماعات ، ومُلازمة الإقراء والرِّواية ، والصبر على الإفادة .

حدث من يُوثق به ، أنَّ ولده الفقيه أبا بكر دخل عليه ، وهو فى

حال النَّزْع ، والمَنِيَّة تُحَشْرِج فى صَدْره ، فقال يا والدى أوصِنى ، فقال وعيناه تدمعان ، يا ولدى اتَّق الله حيث كنتَ [واتبِع السَّيئة بالحسنة تَمْحِها][1] ، وخالق الناس بخُلُقٍ حسن

محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم البِلفيقى[2] ابن الحاج

والد شيخنا أبى البركات . وقد مرَّ فى ذكر النَّسب المُتَّصل بعباس ابن مِرداس ، والأوَّليَّة النَّبيهة ما يُغنى عن الإعادة .

حـــاله

من خطِّ ولده شيخنا على الاختصار ، قال يخاطبنى فى بعض ما كتب به إلى : ذكر أبى ، وهو ممن طلبتُم ذكره إلى فى أخباره جزءًا من نحو سبعين ورقة فى المقْسُوم ، لخَّصتُ لك من مبيَّضتِه ما يُذكر :

نشأ رحمه الله بسَبْتة على طهارة تامة ، وعفَّة بالغة ، وصَوْن ظاهرٍ ، كان بذلك عَلماً لشُبَّان مَكتبه . قرأ القرآن بالقِراءات السَّبع ، وحَفِظ ما يُذكر من المبادى ، واتَّسم بالطَّلب . ثم تاقتْ نفسُه إلى الاعتلاق بالعُروة الوُثْقى ، التى اعْتلق بها سلفُه ، فنبذ الدُّنيا ، وأقبل على الآخرة ، وجَرَى على سُنن المتَّقين ، أخذاً بالأشدِّ من ذلك والأَقْوى ، طامحاً بهمَّته إلى أقصى ما يؤمِّله السَّالكون . فرفض زِىَّ الطَّلبة ، ولبس الخشنية[3] ، وترك مُلابَسة الخلْق بالجُمْلة ، وبالغ فى الانقِباض عنهم ، وانقطع إلى الله

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة كالآتى (واتبع الحسنة بالسيئة تمحها) وهو قلب للمعنى المقصود .

(٢) نسبة إلى بلفيق ، وبالإسبانية Vellefique ، وهى بلدة أندلسية صغيرة تقع بولاية ألمرية على مقربة من جنوبى برشانة (راجع المجلد الثانى من الإحاطة ص ١٤٣ حاشية) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الخشينة) .

برباطات سَبْتة وجبالها ، وخصوصا بمينايها ، وعَكَف على ذلك سنين ثم سافر إلى المغرب ، سايحاً فى الأرض ، على زِى الفقهاء لِلقاء العُبَّاد وأهل العلم ، فأحرز من ذلك ما شاء . ثم أجاز البحر إلى جزيرة الأندلس ، ووَرَدَ ألمريَّة ، مُسْتقرَّ سَلَفِه ، وأخذ فى إيثار[1] بقايا أمْلاك بقيت لأسْلافه بها ، على ما كان عليه من التَّبَتُّل والإخبات. وكان على ما تلقينا من أصحابه وخُدَّانه ، صوَّاماً ، قوَّاماً ، خاشعاً ذاكراً ، تاليا[2] ، قوَّالا للحق ، وإن كان مرًّا كبيراً فى إسقاط التَّصنُّع والمباهاة ، لا يُضاهى فى ذلك ، ولا يُشقُّ غُباره . وقَدِم على غرناطة ، ودخل على أمير المسلمين ، وقال له الوزير ، يقول لك السلطان ما حاجتُك ، فقال ، بهذا الرسم رحلتُ ، ثم ظهر لى أن أُنْزل حاجتى بالله ، فعارٌ على من انْتسب إليه ، أن يَقْصد غيره . ثم أجاز البَحْر وقد اشتدَّت أحوال أهل الأندلس بسبب عدُوِّهم ، وقدم على مَلِكه ، ووعَظه موعظةً ، أغْنف عليه فيها ، فانفعل لموعظته ، وأجاز البحر بسببه[3] إلى جزيرة الأندلس ، وغزا بها ، وأقام بها ما شاء الله ، [وتأدب الروم لو تم المراد][4] قال ، وأخبره السلطان أبو يوسف ملك المغرب ، قال كل رجل صالح دخل علىَّ كانت يده ترعُد فى يدى ، إلا هذا الرجل ، فإن يدى كانت ترعُد فى يده عند مصافحته .

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (أثارة) . والأولى أنسب للسياق .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (تلا) وهو تحريف .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بسبته) والأولى أرجح وأنسب للسياق .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وورد مكانها فى الزيتونة (وتأدب لتوهم المراد) . ولم تتضح علاقتها تماما بالسياق .

كراماته

وجلب له كرامات عدة ، فقال فى بعضها ، ومن ذلك ما حدثنى الشيخ المُعلم الثِّقة أبو محمد قاسم الحصَّار ، وكان من الملازمين له ، المنقطعين إلى خدمته ، والسَّفر معه إلى البادية ، فقال ، إنى لأحفظ لأبيك أشياء من الاحوال العظيمة ، منها ما أذكره ، ومنها ما لا أستطيع ذكره . ثم قال ، حدَّثنى أهل وادى الزَّرجون ، وهو حُشٌ [1] من أعمال سَبْتة ، قالوا ، انصرف السيد أبو عبد الله من هنا ، هذا لفظه ، فلما استقرَّ فى رأس العقبة ، المشرفة على الوادى ، صاح عليه أهل القرى ، إذ كانوا قد رأوا أسَدًا كبيراً جدا ؛ قد تعرَّض فى الطريق ، ما نجا قط من صادفه مثله ، فلما سمع الصياح قال ما هذا ، فقيل له أهل القرى يصيحون عليه خِيفة من السَّبع قال ، فأعرض عنهم بِيَده ، ورَفع حاجبَه كالمُتكبِّر على ذلك ، وأسْكتهم ، وأخذ فى الطَّريق حتى وصل إلى الأسد ، فأشار عليه بالقضِيب ، وقال له ، من هاهُنا من هاهُنا ، أُخرج عن الطريق ، فخرج بإذن الله عن الطريق ، ولم يوجد هنالك بعد . وأمثال ذلك كثيرة .

مشيخته

قرأ على الاستاذ أبى الحسين بن أبى الربيع القرشى ، وأجازه والده أبو إسحق إجازة عامة . ومن شيوخه القاضى المُسَنّ أبو عبد الله الأزْدى ، والمحدِّث أبو بكر بن مشلِيون ، وأبو عبد الله بن جَوْهر ، وأبو الحسين بن السراج ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله الخزْرَجى ، وأبو عبد الله بن الأبار ، وأبو الوليد بن العطار ، وأبو العباس بن عبد الملك ، وأبو إسحق

(١) الحش أعنى البستان .

ابن عيّاش ، وأبو محمد عبد الله بن أحمد بن عطيّة ، وأبو بكر القرطبي حُميد ، وأبو إبراهيم الطَّرسى ، والقاضى أبو عبد الله بن عِياض ، والكاتب أبو الحسن الرُّعينى ، وأبو الحسن الشّارى ، وأبو يحيي بن الفَرَس ، وأبو إسحق بن عبيد الله ، وأبو الحسن الغزّال ، وجماعة من الأندلس غير هؤلاء . ومن أهل العُدْوة كأبى يعقوب المحاسبى (١) وابن فُرتُون وغيرهم

محنتــه

نُمى عنه إلى السلطان بالأندلس ، أنه أغْرَى به ملك المغرب ، وتخلّص بعد لأى فى خبر طويل ، وانتهب السلطان ماله ، وألحق أملاكه بالمختص (٢) واستمر. وذلك إلى دولة والده وامتحن السّاعون به ، فعجَّل الله عقوبتهم .

مولده : قال شيخنا نقلت من خطِّ أبيه ما نصه : وُلد إبنى أبو بكر محمد أسعده الله ووفّقه ، فى النصف الأول من ليلة يوم الاثنين الحادى والعشرين لذى قعدة من سنة ست وأربعين وستماية .

وفاته : قال ألفيْتُ بخط القاضى الأديب الكاتب أبى بكر بن شِبْرين وكان ممن حضر جنازته بسَبْتة . وكانت وفاة الفقيه النّاسك السّالك الصالح أبى بكر محمد بن الشيخ الفقيه المحدث أبى إسحق السلمى البِلْفِيقى فى العشر الأواخر من رمضان أربعة وتسعين وستماية بمحْرُوسَة سبتة ، ودفن إثر صلاة العصر بجبّانة الخرُّوبة من منارتها بمقْربة من قبر ريحان الأسود العبد الصالح نفع الله به . وصلى عليه الإمام أبو عبد الله بن حُرَيث .

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (المحسانى) .

(٢) المختص هنا يقصد بها الأملاك السلطانية ، ويعبر عنها عادة فى لغة الأملاك الأندلسية (بالمستخلص) .

محمد بن يحيى بن إبراهيم بن أحمد بن مالك بن إبراهيم بن يحيى ابن عبّاد النّفْزِى

من أهل رُنْدَة ، يكنى أبا عمرو ، ويعرف بابن عبَّاد ، الحاجّ الصُّوفى

حـــاله

نشأ ببلده رُنْدة ، وهو من ذوى البيوتات الأصيلة بها ، ثم رَحَل إلى المشرق ، ولقِىَ العلماء والصُّوفية ، وحضر عند المَشْيخة ، ثم كرَّ إلى الأندلس ، فتصوف ، وجال فى النَّواحى ، واطَّرح السُّموت ، وفوَّت ما كان بيده من متاع الدُّنيا ، وكان [له مالٌ][1] له خُطر ، وألقى التَّصَنُّع لأهله رأساً . وكان فيه توَلُّه وحِدَّة ، وله ذهنٌ ثاقب ، يتكلم فى المُعقولات والمنْقُولات ، على طريقة الحُكماءِ والصُّوفية ، ويأْتى بكل عبارة غريبة ، وآثاره هايلة من غير تمكُّن عِلْم ، ولا وَثاقة إدراك ، غير أنك لا تسمع منه إلا حَسَناً ، وهو مع ذلك طوَّاف على البلاد ، زوَّار للرُّبط ، صبَّار على المجاهدة طوْعاً وضرورةً ، ولا يسَلُ ثيابا البتَّة إلا بَذْلةً من ثوب أو غيره ، صَدَقةُ واحد فى وقته

محنته وفضله وشـعره

نُمى عنه كلامٌ بين يَدَىْ صاحب المغرب ، أسِفَ به مُدبِّر الدولة يومئذ ، فأُشخص عند إيابه إلى رُندة وسُجن بسِجْن أرْباب الجرايم ، فكتب إلى ولِّى الأمر :

تركتُ لكم عزَّ الغِنى فأَبَيْتُم   وأن تتركونى للمَذلَّة والفقـر
ونازعتمونى فى الخمول وإنه   لذى مُهجَتى أحْلى من البِنَى والأمر

(١) وردت هذه العبارة فى الزيتونة . وهى ساقطة فى الإسكوريال .

ثم قال ، يا مَنْ رمانى بِسَهْمه ، الغربُ ، قد رُدَّ عليك مَخْضُوباً بالدَّم . قال فوالله ما مَرَّت ثلاثةٌ ، حتى نفذ حُكْمُ الله فيمن عدَا عليه.

وشعره حسن يدل على طبْعٍ مَعِين ، فمن ذلك :

سُرَّى يُسِرُّ إلىَّ أنك تاركى ... نَفْسى الفِدا للُطْفِك المُتَدارِك
يا ما لكى ولىَ الفخـار بأننى ... لك فى الهوى ملكٌ وأنَّك مالِكِ
التَّرْكُ هَلْكٌ فاعفِنى منه وعِـد ... بالوَصْل تُحيي ذما مُحِبٍّ هالك
وأعد جميلا فى الهوى عوَّدتنى ... إن لم تُعِدْه إلىَّ مَنْ للهالك
يا مُنْية القلْب الذى بِجمـاله ... فُتِن الوَرى من فاتك أو ناسك
أأتِيهُ دونك أو أحـار وفى سَنى ... ذاك الجمال جِلا الظلام الحالك
ولكم سلكتُ إليك لكن حين لم ... تكن الدَّليل اختلَّ قصدُ السَّالك
ولقد عَرفْتَ بسَتْر سرّى فى الهوى ... فهجَرْتنى فكُسيتُ ثوْب الهاتك
ما السَّتر إلاَّ ما يحُوك رضاك لا ... ما حَاكه للبَتْر[1] كفُّ الحايِك
ما الفضل إلا ما حَكَمْتَ به فصُنْ ... وأهتِك وصِل إن شِيت أو كن تارك
ما لى سوى حبِّيك يا حُبِّى فدَعْ ... ترْكى فهَلْكُ المِلْك ترك المالك

وقال أيضا :

هذا العقيق فسَلْ معاطفَ بانه ... هل نسْمَةٌ عادتُه من نُعْمـانه
واسأله[2] إن زارته ماذا أخبرت ... عن أجْرُع العَلميْن أو سُكَّانه
وأصِخْ لحسن حديثها وأعده للمُضْـنى ففيـه البُـرْءُ من أشجانه
يا حبَّذا ذاك الحديث وحبَّـذا ... من قد رفـاه وحبَّذا[3] ببيـانه

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وهى ساقطة فى الإسكوريال .
(٢) هكذا وردت فى «الكتيبة الكامنة» لابن الخطيب . وفى الإسكوريال (وارسله) والأولى أرجح .
(٣) وردت فى الإسكوريال (وحب أن) . والتصويب من الكتيبة الكامنة .

وسقى الالّه زمــانه ومكانه ... ويعزّ قدْر زمــانه ومكانــه
يا سعدُ ساعِد مُستهاماً فيـه لا ... ذُقْت الهوى ونجَوْتَ من عُدْوانه
وأَصِخْ لما يَتْلُو الوجُود عليك من ... أَنْبائهم بلسان حالِ كيانه[1]
وأبنه لى واقبل ذِمامى بشــارة ... ويقلّ بذل ذِمامى فى تِبيــانه
وسل النَّسيم يهبُّ من واديهم ... شذًا خُزاماه وطيبُ لُبانــه
ارْحَم بروحُ منه روحى تُحيِيه ... ويُسْقِمه سُقْمى فديتُك عــانِه
وبنشْرِه انشُر نفس مُشــتاق ... قضتْشوقاًلنفْحَةِ نسْمة[2] من بانه
يا سعدُ حدِّثنى فكل مُخبِّــر ... عن خبَر من أهــواه أو إحسانه
يا سعد حدثنى فكلٌّ حديث عنهم ... ويجلُّ قدْرُ الحُبِّ عن نِسيانه
يا سعد طارِحْنِيه واملأْ مسمعى ... من ســرِّه إن شيت أو إعلانه
أنا فى الغرام أَخوك حقاً والفتى ... لا يكتم الأَسرار من إخــوانه
قل كيفوادىوُدِّ سُكَّان الحمى[3] ... ومُنى أَمانيه ورَوْض لســانه
هل قلصت أَيْدى النَّوى من ظِلِّه ... أو ماجرى هل عاث فى جَرَيانــه
وهل الرِّبوع أَواهِلٌ بِجمالهم ... فسُقِّى للربوع الوُذْق من هتّانِه
وهلالتقى بان على عهد النَّوى[4] ... وهل اللِّوى يلوى بعود زمــانه
فبرَوْض أُنْسِهم غمُدت نضارة ... نزَّهت منها الطَّرف[5] فى بُستانه
وأرى هجير الهجْر أَذْبل يانعاً ... منه وأذوَى الغضَّ من رِيحــانه
وأُحال حال الأُنْس فيه وَحْشَةً ... وطوى بِساط الأُنس فى هِجرانه

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الكتيبة الكامنة (بيانه) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الكتيبة الكامنة (هبة) .
(٣) هكذا وردت فى الكتيبة الكامنة . وفى الإسكوريال (الفضا) .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الكتيبة (الهوى) .
(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الكتيبة (القلب) .

آهاً ووالهْفى وويْحى أن مضى   عهدٌ عَرَفتُ الأُنْس فى أَزْمانه
وبأجْرُع العَلمين من شرقيه   حِبٌّ غذَّانى حُبُّه بلبانه
حاز المحاسن كلَّها فجَمعْن لى   كلَّ الهوى فحملتُ كلَّ هوانه
وزها علىّ بعزّةٍ فبواجبٍ   أزهُو بذلّى فى يَدَىْ سلطانه
وقضى بأن أَقْضى وليتَ بما قضى   يَرضى فطيبُ العيش فى رِضوانه
واختار لى أن لا أَميل لسَلْوةٍ   عن حُبِّه فسَلوْتُ عن سُلطانه
يا عاذِلى أَو ناصحى أو لايمى   تبغى السُّلُو ولات حين أوانه
غلب الغرام وعزَّ سلطان الهوى   فالكلُّ فيه علىَّ من أَعوانه
فعلام تعْتِب مُسْتهاماً كلَّما   فى الكون[1] عاذره على شيمانه
دع عنك لوْمى إننى لك ناصح   أَبدى الجمالُ العُذْر عن هَيْمانه
وإذا الفتى قام الجمال بعُذْره   فى الحبِّ فاتركه وثنى عِنانه
من سام قلبى فى هواه سَلْوة   قد سامه ما ليْس فى إمكانه

وقال فى الغرض المذكور :

يا للرِّجال ألا حِبٌّ يساعدنى   فى ذا الغرام فأَبكيه ويَبْكينِ
غُلبت فيه وما أَجْدت مُغالبتى   وهَنتُ والصَّبُّ أَولى الناس بالهونِ
ركِبتُ لُجَّته وحْدى فأَدْهَشنى   ومِتُّ فى يده فردا فدلُّونِ
واضيعةَ العُمْر والبَلْوى مضاعفةٌ   ما بين يأْسٍ وآمالٍ تُرَجِّينِ
والهف نَفْسى إن أَوْدَت وما ظَفِرت   فى ذا الهوى بتمنٍّ أو بتأْمين
فليت شِعرى وعُمْرى ينقضى طمعاً   [فى ذا الهوى][2] بين مَغْلوب ومَغْبون
هل الأُولى مَلكوا رِقّى وقد علموا   بذلِّى وافتقارى أن يُواسونِ

---

(١) نصفها ممحى فى الإسكوريال .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى الكتيبة (فى الحب) .

فكم أكفكف دمعي بعدهم وأرى ... مُجدِّداً نار ياسى وهى تُبْلين

وكم أمرُّ على الأطْلال[١] أنْدِبها ... وبالمنازل من خيفٍ وداريــنِ

وفى الفؤاد لهُم ما ليس يعلَمُه ... إلَّا هُمُ عِلمهم بالحــال يكفين

أهمى المدامع كَىْ أُرْوِى فتُعْطِشُنى ... وألزم الذِّكر للسُّلوى فيُشْجِين

وكلٌّ مَنْ لدَحَتْ عينى أُسـايِلُه ... عنهم فيُغْرِى بهم قَلْبى ويُغْرين

يا أهل نَجْدٍ وفَخْرى أن أُحبَّكم ... لا أطلب الوصْل عزٌّ الحبِّ يُغْنِين

هل للهوى من سبيلٍ للْمُنَى فلقد ... عزَّت أمانيه فى الدُّنيا وفى الدِّين[٢]

محمد بن يوسف بن خَلصون

يكنى أبا القاسم ، روطىٌّ الأصل لوشيه[٣] سكن لَوْشَة وغرناطة ومالقة

حــــاله

كان من جلَّة المشيخة وأعْلام الحكمة ، فاضلا ، مُنقطع القرين فى

(١) وردت فى الاسكوريال (الأطناب) والتصويب من الكتيبة .

(٢) إن الترجمة الموجزة التى وردت فى مخطوطى الإسكوريال والزيتونة عن ابن عباد الرندى وكذا ما أورده عنه ابن الخطيب فى «الكتيبة الكامنة» (ص ٤٠ وما بعدها) هى تراجم موجزة ينقصها الكثير من صفات ابن عباد ومزاياه العلمية والصوفية . وربما كان السبب فى هذا الإيجاز راجعا إلى اختصار الناسخ . ونحن نستدرك هنا بعض الشيء فنقول إن لابن عباد مؤلفات كثيرة ، أشهرها شرحه لكتاب الحكم العطائية الذى وضعه العلامة الصوفى المصرى تاج الدين بن عطاء الله السكندرى المتوفى سنة ٧٧٩ هـ ، وهو بالرغم من صغر حجمه يعتبر من أشهر كتب الحكم والتصوف . ولابن عباد أيضاً مجموعة فى أجوبة العلوم فى مجلدين . وقد توفى ابن عباد فى سنة ٧٩٢ هـ .

راجع ترجمة وافية لابن عباد بقلم صاحبه الشيخ أبى زكريا السراج وغيره أوردها المقرى فى نفح الطيب (ج ٣ ص ١٧٥ – ١٧٧) .

(٣) روطى نسبة إلى روطه أو روضه وبالأسبانية Rueda ، وهى بلدة صغيرة تقع على المحيط قرب ثغر شلوقه San Lucar شمالى مدينة شريش . وهى غير روطة القريبة من سرقسطة . ولوشيه نسبة إلى بلدة لوشة وقد سبق التعريف بها .

المعرفة بالعلوم العَقْلية ، متبحراً فى الإلـهيات ، إماما فى طريقة الصُّوفية ، من أَهل المقامات والأَحوال ، كاتبا بليغا ، شاعرا مجيدا ، كثير الحلاوة والطِّلاوة ، قايما على القرآن ، فقيها أُصوليا ، عظيم التخلُّق ، جميل العِشرة . انتقل من حصن رُوطة إلى الخطابة والإمامة بلَوْشَة ، كثير الدؤوب على النَّظر والخَلْوة ، مقصودا من مُنْتحِلى ما لديه ضرورة . لم يتزوج ، وتمالأَت عليه طايفةٌ ممن شانها الغضُّ من مثله ، فانزعج من لَوْشَة إلى مالَقة ، فتحرَّف بها بصناعة الطِّب ، إلى حين[1] وفاته .

حدثنى والدى ، وكان خبيراً بأَحواله ، وهو من أَصحاب أَبيه ، قال ، أَصابَتْ الناس شدَّةُ قَحْط ، وكانت طايفة من أَضداده تقول كلاما مُسَجَّعا ، معناه ، إنكم إن أَخْرَجْتم ابن خلصون من بينكم ، مُطرتم . قال ، فانزعج عنها ، ولما [كان على أَميال][2] ، نزل الغيث الرغد ، قال فسَجَد بموضعه ذلك ، وهو معروف ، وقال ، سيدى ، وأَساوى عندك هذا المقدار ، وأَوجب شُكْراناً . وقدم غَرْناطة ، وبها الأُستاذ أَبو عبد الله الرَّقُّوطى ، وله استيلاءٌ على الحُظوة[3] السلطانية ، وشأْنُه اختبار من يرد على الحضرة ، ممن يحمل فَناً ، وللسلطان على ابن خلصون موجدةٌ ، لمدحه فى حداثته أَحد الثوار عليه بقُمارش[4] ، بقصيدة شهيرة . فلما حضر ، سأَله الأُستاذ ما صناعتك ، فقال التصوُّف ، فالتفت إلى السلطان وقال : هذا رجل ضعيفٌ لا شىء لديه ، بحيث لا يفَرِّق بين الصِّناعة وغيرها ، فصرفه رحمه الله .

---

(١) وردت فى الإسكوريال (حال) والتصويب من الزيتونة .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ولما خرج أميالا) والمؤدى واحد .

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (الحضرة) وهو تحريف .

(٤) هى بلدة من أعمال مقاطعة مالقة . وقد سبق التعريف بها (راجع ص ١٨٠ من هذا المجلد)

توالیـــفه

وتواليفه كثيرة ، تدل على جلالته وأصالة معرفته ، تنطق عِلماً وحكمة ، وتروق أدباً وظَرْفاً . فمن ذلك كتابه فى « المحبة » ، وقفت عليه بخط جَدِّى الأقرب سَعيد ، وهو نهاية . وكتاب « وصف السلوك ، إلى ملك الملوك » ، عارض به مِعْراج الحاتمى ، فبان له الفضل ، ووجبت المزيَّة ، ورسالة « الفَتْق والرَّتْق ، فى أسرار حكمة الشرق » .

شـــعره

من ذلك قوله :

هل تعلمون مصارع العُشَّاق ... عند الوداع بلَوْعة الأشواق
والبينُ يكتُبُ من نَجيع دمائِهم ... إن الشَّهيد لمن يمت بِفـــراق
لو كنتَ شاهدَ حالهم يوم النَّوى ... لرأيتَ ما يلقون غير مُطاق
منهم كئِيبٌ لا يَملُّ بكاؤُه ... قد أغْرَقَته مدامعُ الآماق
ومُحرَّق الأحشاءِ أشْعَل نارَه ... طولُ الوَجِيب بقلبه الخفَّاق
ومُولَّهٌ لا يستطيع كـلامَه ... مما يُقاسى فى الهوى ويُلاق
خَرِس اللسان فما يُطيق عبارة ... أَلِم المُرورَ وماله من راق
ما للمحبِّ من المَنُون وقايةٌ ... إن لم يُغثه حبيبُه بتَلاق
مولاى عبدُك ذاهبٌ بغَرامه ... فاذرك بوَصْلك من دماه الباق
إنى إليك بذِلَّتى متوسِّلٌ ... فاعطف بلطفٍ منك أَو إشفاق

ومن شعره أيضاً :

أعِد الحديث إذا وصفتَ جماله ... فبه تُهيج للمحِبِّ خيالَه
يا واصف المحبوب كرِّر ذكرَه ... وأدر على عشّاقه جَرياله

فيذكر من أَهْوى وشرح صفاته لذَّ الحديث لمَسْمَعى وخلاله
طَاب السّماع بوصفه لمسامِعى وقررّتُ عيناً مذ لمحت هِلاله
قلبي بلذُّ ملامةً فى حبِّه ويرى رشادًا فى هواه ضلاله
يا عاذِلى أَو ما تَرِقُّ لسامرٍ سمع الظَّلامُ أَنينه فرَثا له

ومن شعره أَيضاً :

إن كنتَ تزعم حُبَّنا وهَوانا فلتَحْمِلَن مذلَّةً وهَــوانــا
فاسجرُ لنفسك إن أَردت وِصالنا واغضب عليها إن طَلَبْتَ رضانا
واخلع فؤادك فى طِلاب وِدادنا واسمح بموتك[1] إن هَوَيْت لقانا
فإذا فَنِيت عن الوجود حقيقةً وعن الفَناء فعِند ذاك تــرانا
أَو ما عَلِمت الحبَّ فيه عِبْرةٌ فاخْلِص لنا عن غيرنا وسِوانا
وابدل لُبْابَك إن وقفت ببابنا واترك حِماك إذا فقدت حِمانا
ما لعْلَعٌ ما حاجِرٌ ما رامةٌ ما ريمُ أُنْس يَسْحر الأَذهانا
إن الجمال مُخَيِّم بقِبابنــا وظِباؤُه محجوبةٌ بظُبـــانــا
نحن الأَحِبَّة من يَلُذ بفَنايِنــا نَجْمَعْ له مع حُسْنِنا إحسانا
نحن الموالى فاخْضَعن لعزٍّ نَالنا إنَّا لندفع فى الهوى مَنْ هَانا
إن التَّذَلُّل للتَّدلُّل سِــحْرٌ فأَخْلِد إلينــا عاشِقاً ومُهانا
واصبر على ذُلِّ المحبَّة والهوى واسمع مقالةَ هايِمٍ قد لانا
نُون الهوَان من الهوى مسروقةٌ فإذا هَوِيت فقد لَقِيت هَوانا

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بنفسك) .

(٢) اللعلع أَصْل السراب .

ومن لطيف كلامه [ورقيق شعره][1]

لو خيالٌ من حَبِيبى طرَقا ... لم يَدَعْ دمعى بخدِّى طرَقا
ونسيمُ الريح منه لو سَرى ... بشَـذاه لأزال الحَـرَقا
ومتى هبَّت عَليلات الصَّبـا ... صحَّ جسمى فهنَّ لى نَفْثٌ رَقا
عجباً يشكو فؤادى فى الهوى ... لَهب النـار وجَفْنى الفَرقا
يا أهْلَ الحىِّ لى فيكم رشـا ... لم يَدَع لى رمقاً مُذْ رَمَقا
بدرُ تِم طـالع أثمـره ... غُصْن بانٍ تحته دِعْصُ نَقَا
راق حُسْناً وجمالا مثلمـا ... رقَّ قلبى فى هـواه ورَقا
[أنسى الشمسَ ضياه ذهباً ... وكَسَى البدر سَناه ورقا][2]
حُلَل الحُسْن عليـه خُلِعت ... فارتداها ولها قـد خُـلقا

ومن شعره .

دعوتُ من شَفَتَى رِفْقا على كبدى ... فقال لى خُلِق الانسان فى كَبَـد
قلت الخيالُ ولو فى النَّوم يَقْنعنى ... فقال قد كَحُلت عيناك بالسُّهد
فقلت حَسْبِى بقلبى فى تذكُّره ... فقال لى القلبُ والأفكارُ ملكُ يدى
قلت الوصال حياتى منك يا أملى ... قال الوِصال فراق الرُّوح للجَسَد
فقلت أهْلاً بما يَرْضى الحبيبُ به ... فإنَّ قلبى لا يلْـوى على أحَد

ومن أقواله الصُّوفية ، وكلها تشير إلى ذلك [المعنى][3]

ركِبنا مطايا شوقنا نَبْتغى السُّرى ... وللنَّجم قنديل يُضيءُ لمن سَرا
وعينُ الدُّجا قد نام لم يدرِ ما بنا ... وأجفانُنا بالسُّهد لم تُطْعَم الكرَا

(١) هذه الزيادة من الزيتونة .
(٢) هذا البيت وارد فى الإسكوريال وساقط فى الزيتونة .
(٣) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال .

إلى أن رأينا الليل شاب قَذاله ... ولاح عمودُ الفجر غُصْناً مُنوّرا
لمحنا برأس البُعد ناراً منيرة ... فسرنا لها نَبْغى الكرامة والقِرَا
وأفضى بنا السير الحثيث بسُحْرَة ... لحانَةِ ديرٍ بالنواقِس دورا
فلما حلَلْنا حَبْوة السير عنده ... وأبصرنا القسِّيس قام مُكَبِّرا
وحرّكَ ناقوساً له أعْجَمَ الصّدا ... فأَفْصَح بالسِّر الذى شاءَ مُخْبرا (١)
وقال لنا حُطُّوا حَمِدتم مسيرَكم ... وعند الصّباح يحْمَد القوم السرى
نَعِمتم صباحاً ما الذى قد أتى بكم ... فقُلنا له إنا أتيْناك زُوَّرا
وراحَتُنا فى الرّاح إن كنت بايعاً ... فان لدينا (٢) فيه أَربحَ مُشترى
فقال لكم عندى مُدام عتيقةٌ ... مخلَّدَةٌ من قبل آدم أعْصُرا
مُشَعْشَعةٌ كالشمْس لكن تَرَوْحَنَت ... وجلَّت عن التجسيم قُدُماً فلا تُرى
وحلَّ لنا فى الحين خَتْمُ فِدامِها ... فأسدى لنا مِسْكاً فتيقاً وعَنْبرا
وقلنا مَنْ السَّاق فلاح بوجهه ... فأَدْهَش ألْباب الأنام وحيّرا
وأشْغَلنا عن خَمْره بجمَاله ... وغيَّبنا سُكْراً فلم نَدْرِ ما جَرا

ومن شعره فى المعنى :

يانايماً يطلب الأَسْرار إسرارا ... فيك العِيان ونَبْغى بعد آثارا
أرجع إليك ففيك المُلكُ مُجتمَع ... والفُلْك والفَلَك العُلْوى قد دارا
أنت المِثال وكُرْسى الصِّفات فَتُه ... على العوالم إعلاناً وإسْرارا
والطُّور والدُّر (٣) منشوراً وقد كَتَبَتْ ... أقلامُ قُدْرته فى اللَّوح آثارا
والبيتُ يَعْمُره سرُّ الملايك فى ... مِشكاةِ قَلْبِك قد أَسْرَجْنَ أنوارا

---

(١) هذا البيت وارد فى الإسكوريال وساقط فى الزيتونة .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (لنا) .
(٣) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (والرق) والأولى أرجح .

ورَفَع الله سقْفاً أنت تَسْكُنه سماؤُه أطْلَعَتْ شُهُباً وأقْمارا
وبحرُ فِكْرِك مسجُورٌ بجوهره فغُصْ به مُخْرجاً للدُّر أسْرارا
فإن رأيت [بوادى القُدْسِ] [١] نَارَهُدىً فاثْبُت فنُورُك فيها مازج النَّارا
واخْلعَ لسَمْع النِّدا نَعلَيك مُفتقرا إلى المُنادى تَنَلْ عزًّا وإكبارا
وغب عن الكَوْن بالأسماء متَّصِفا واطلُبْ من الكلِّ ربَّ الدار لا الدَّارا

ومن ذلك فى هذا المعنى :

أطالب ما فى الرُّوح من غامض السِّر وقارع باب العِلْم من عالم الأمر
عَرَضْتُ لِعلمٍ أبْهمَ الشَّرْع بابَه لكلِّ جهول للحقائق لا يَدْرى
ولكنَّ خبيرا قد سأَلتُ مُحَقِّقا فدونك فانظم ما نَثَرْتَ من الدُّر
وبين يَدَىَّ نجْواك قَدِّم وسيلةً تُقَى الله واكتُم ما فَهِمت من السِّر
ولا تلتفت جِسْما ولا ما يخُصُّه من الحِسِّ والتخييلِ والوَهْم والفِكر
وخذ صورةً كليِّة جوهريَّة تَجلُّ عن التمييز [٢] بالعَكْس والسَّبر
ولكن بِمرآةِ اليَقِين تولَّدت وليست بذاتى إن سأَلْتَ ولا غيرِ
كذلك لم تَحْدُثْ وليست قديمة وما وُصِفتْ يوماً بشَفْع ولا وَتْر
ولكن بِذاتِ الذَّات كان ظُهُورها إذا ما تبدَّت فى الدُّجا غُرَّة الفَجْر

ومن هذا الغرض قوله :

مُشاهدتى مَغْناك ياغايتى وقتُ فما أشتكى بُعْداً وحبُّك لى نَعْتُ
مُقامى بقايى عاكفاً بجمالكم فكل مُقام فى الحقيقة لى تحت
لئن حالَتْ الأحوال دون لِقايكم فإنِّى على حُكْم المحبَّة ما حُلت
وإن كان غيرى فى الهوى خان عهدَه فانى وأَيمُ الله عَهْدِىَ ما خُنت

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بالقدس) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (التحسيس) .

ومالِى رجاً غيرُ نَيْل وِصالكم ولا خوفٌ إلاّ أن يكون له فَوْت
نعم إنْ بَدا من جانب الأُنس بارقٌ يُحرِّكنى بَسْطٌ به نحوَكم طِرْتُ
ومهما تذكَّرتُ العِتاب يهزُّنى لهيبَتِكم[1] قَبْضٌ يَغيب به النَّعت
تواجدتُ حتى صار لى الوَجْدُ مَشْربا ولاح وجودٌ للحقيقة إذ غِبْت
فها أنا بين الصَّحْو والمَحْو دايرٌ أقول فلا حرفٌ هناك ولا صَوْت
قُصُودى إليكم والورود عليكم ومنكم سُهودى والوجودُ إذا عَدِمت
وفى غَيْبَتِي عنىٌ حضورى لديكم وعند امتحان[2] الرسْم والمحْوأثْبَتٌّ
وفى فُرْقَتِى البانى بحقٌ جَمَعْتنى وفى جَمْع جَمْعى فى الحقيقة فرَّقت
تجلَّيتُه لى حتى دَهِشْتُ مهابة ولما ردَدْت اللَّحْظ بالسرِّ لى عِشْتُ
مواردُ حقٍّ بل مواهبُ غاية إذا ما بَدَتْ تلك البوادة لى تُهْتُ
لوايح أنوار تلوح وتختفى[3] ولكن وميضَ البَرْق ليس له ثَبْتُ
ومهْمى بدت تلك الطَّوالع أَدهَشَتْ وإن غُيِّبَت تلك اللّوامع أَظْلَمت
وهيبات هَيبات الجلال تردُّنى وعندالتجلىِّ لا محالة دَكْدَكْت[4]
نَسَفْن جِبالى فهى قاعٌ صَفْصَفٌ وليس يُرى فيهنَّ زيغٌ ولا أَمْتُ
ولى أَدمع أَجَّجْن نار جَوانِحى ولى نَفَسٌ لولاه من حُبّكم ذبْتُ
ألا فانظروا قَلْبَ العيان حقيقةً فنايِي ووجُودى والحياة إذا متُّ
مراتبُ فى التَّلوين نِلتُ جميعَها وفى عالم التَّمكين عن كلِّها بِنْتُ
وعند قيامى عن فَنايِي وجدتكم فلا رُتْبةٌ عُلْويَّة فوق ما نِلت
ورودٌ وشِربٌ ثم لا رَىً بعده لين كنت أُرْوَى من شَرابك لا كنت

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (لطيبتكم) .
(٢) وردت فى الإسكوريال (امتحا) والتصويب أرجح .
(٣) وردت فى الإسكوريال (واختفى) والتصويب من الزيتونة .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (تكدكدت) .

شربتُ أكؤاس الوجود مُدامة فلستُ أُجلى عن ورُودٍ متى شِيت
وكيف وأقْداح العَوَالم كلُّها ولكنيٍّ من صاحب الدَّير أُسْكِرْتُ
تعلق قوم بالأواني وإنَّني جَمال المعانى لا المغانىَ عُلِّمتُ
وأرضعتُ كأساً لم تُدَنَّس بمزجها وقد نِلتُها صِرْفاً فيالعُمْرِىَ ما ضِعت
شرابٌ بها الأَبرارُ طاب مزاجُهم وأرْضَعْتُها صِرفاً لأنى قُرِّبت
بها آدمُ نال الخِلافة عندما تبدَّت له شمساً لها نحوه سَمْتُ
ونجّت لنوحٍ حين فرَّ لفُلْكِه ومن بان عن أسرارها عَمْد الموت
وقد أخمدَت نارَ الخَليل بنورِها وكان لموُسى عن أشِعَّتها بُهْت
وهبت لروح الله روحُ نسيمها فأبْصَره الأَعمى وكلَّمه المَيْت
وسار بها المُختار سَيرى لربِّه إلى حيثُ لا فَوْق هناك ولا تَحْتُ
هنياً لمن قد أَسْكَرَتْه بعَرْفها لقد نال ما يَبْغى وساعده البَخْتُ

ومن نثر الأُستاذ الجليل أَبي القاسم بن خلصون المترجم به ، قوله من رسالة :

«وصلنى أيها الإبن النَّجيب ، المُخلص الحبيب ، كتابُك الناطق بخُلوص وُدِّك ، ورُسوخ عَهْدك ، وتلك سجيَّةٌ لايقة بمجدك ، وشِنْشِنَةٌ تُعرف من والدك وجَدِّك ، وصَلَ الله أَسباب سَعْدك ، وأنْهَض عزم جَدِّك ، بتوفيق جَدِّك ، وبلَّغك من مأمولِك ، أَقصى قَصْدك ، فلتَعْلم أيها الحبيب أن جَنانى يَنْطَوى لكم أكثر مما يَنْشُره لسانى . فإنى مُغْرىً بِشكركم وإن أَعْجَمْت ، ومُفْصِحٌ بجميل ذِكركم وإن جمْجَمْتُ ، لا جرَم أن الوقت حَكم بما حكم ، واستولى الهرج فاستحكم ، حتّى انقطعت المسالك ، وعَدِم الوارد والسّالك ، وذلك تمحيصٌ من الله جارٍ على قضيَّة قِسْطه ، وتقليبٌ لقلوب عِباده بين إصبعى قَبْضه وبَسْطِه ، حين مُدّ على الخليقة ظلٌّ التّلوين ، ولو شاءَ لجعله ساكناً ، ثم جعل شمس المعرفة لأَهل التَّمكين،

عليه دليلا باطنا ، ثم قبض كل الفِرق عن خاصيته قبضاً يسيراً ، حتى أطلع عليهم من الأُنْس بدراً مُنيرا . وإلى ذلك يا بُنَىَ فإنى أحمد الله تعالى إليك على تَشْويقه إيَّاك إلى مُطالعة كُتب المعارف ، وتعطُّشِك للورُود على بحر اللّطايف . وإنَّ الإمام أبا حامد [1] رحمه الله ، لمَّن أحرز خَصْلها ، وأحْكَم فرعها وأصلها ، لا يُنكر ذلك إلا حاسدٌ ، ولا يأباه إلا مُتَعَسِّف جاحد . هذا وصْفُه ، رحمه الله ، فيما يخُصُّه فى ذاته . وأما تعليمُه فى تواليفه ، وطريقُه التى سَلكها فى كافَّة تصانيفه ؛ فمِن عُلمائنا رضى الله عنهم ، من قال إنه خلط النِّهاية بالبِداية ، فصارت كُتُبُه أقربَ إلى التَّضْليل منها إلى الهداية ، وإن كان لم يقصُد فيها إلا النَّفع ، فيما أمَّه من الغَرض ، فوُجد فى كتبه الضَّرر بالعَرَض ، وممن قال بهذا الفقيه الحكيم أبو بكر بن الطُّفيل [2] . قال ، وأما أبو حامد ، فإنه مضْطرب التأليف ، يَرْبُط فى مَوْضع ، ويحِلُّ فى آخر ، ويَتَمَذْهب بأَشياءَ ، ويَكْفُر بها ، مثل أنه كفَّر الفلاسفة باعتقادهم أن المعاد رُوحانى ، وإنكارهم حَشْرالأَجْساد . وقد لوَّح هو بأَن ذلك مَذْهَبَه فى آخر كتاب «الجواهر والأَربعين» وخرَّج بأنه مُعْتَقَد كِبار الصُّوفية ، فى كتاب آخر ، وقال إن مُعْتَقده كمُعْتقدهم ، وأنه وقع على ذلك بعد بحث طويل وعَناءٍ شديد . قالَ ، وإنما كلامه فى كُتُبه ، على نحو تَعْليم الجُمهور . وقد اعتذر أبوحامد نفسُه عن ذلك فى آخر كتاب ، «ميزان العمل» ، على أغلب ظَنِّ ، فإن لى من مُطالعة الكتب مُدَّة . قال ، ولو لم يكن فى هذه الأَلفاظ إلا ما يُشَكِّك فى اعتقادك المَوْروث ،

---

(١) هو حجة الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى (٤٥٠ – ٥٠٥ هـ) (١٠٥٨ – ١١١١ م) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ابن طفيل) وهو الأكثر شيوعا . وقد ترجم له ابن الخطيب فيما تقدم (راجع المجلد الثانى من الإحاطة ص ٤٧٨ – ٤٨٢) .

يَعْنى التَّقليد ، فإنه من لم يَشُك ، لم يَنْظُر ، ومن لم يَنْظُر ، لم يُبْصِر ، ومن لم يُبْصر فى العَمَى والحَيْرة . ثم تمثل بقول الشاعر :

خذ ما تراه ودَعْ شيئاً سَمِعتَ به   فى طَلْعَة الشمس ما يُغنيك عن زُحل

وذلك أنه قسّم آراءه إلى ثلاثة : رأى يُجاب به كلُّ مُسْتَرشد سايل ، بحسب سؤاله ، وعلى مقدار فهمه . ورأى يُجاب به الخاصّة ، ولا يُصَرَّحُ به للعامّة . ورأىٌ بَيْن الإنسان وبَيْن نَفْسِه ، لا يطَّلِع عليه إلا مِن شَريكه فى اعتقاده . وأما الفقيه الفاضل أبو الوليد بن رُشد رحمه الله ، فإنَّه بالغ فى ذلك مَبالغ عظيمة ، وذلك فى كتابه الذى وصَف فيه مناهج أدلَّة المُتَكَلِّمين ، فإنه لما تكلم على طُرُق الأَشْعَريَّة والمُعْتَزلة ، والفلاسفة ، والصُّوفية ، والحشويّة ، وما أحدثته [1] المُتَكلِّمون من الضَّرر فى الشَّريعة بتَواليفهم ، انْعَطَف فقال ، وأما أبو حامد ، فإنه طَمَّ الوادى على القُرى ، ولم يَلْتَزِم طريقةً فى كُتُبه ، فنراه مع الأَشْعَرية أشْعَريّاً ، ومع المُعْتَزلة ، مُعْتَزِليّاً ، ومع الفلاسفة فيلسوفاً ، ومع الصُّوفية ، صوفياً ، حتى كأنى به :

يوما يمان إذا لاقيت ذا يَمنٍ   وإن لقيت معَدِّياً فَعَدْنان

ثم قال ، والذى يجب على أهل العلم ، أن يُنهوا الجمهور عن كُتُبه ، فإن الضَّرر فيها بالذات ، والمنْفَعة بالعَرَض . قال ، وإنما ذلك لأنه صرَّح فى كتبه بنتائج الحِكمة ، دون مقدِّماتها ، وأفصح بالتَّأويلات التى لا يطلع عليها إلا العلماء ، الرَّاسخون فى العلم ، وهى التى لا يجُوز أن تُؤَوَّل للجمهور ، ولا أن تُذكر فى غير كُتُب البُرْهان . وأنا أقول إن كتبه فى الأَصْلين ، أعنى أُصول الدين ، وأُصول الفِقه . فى غاية النُّبل والنَّباهة ، وبَسْطِ اللفظ ، وحُسْن التَّرتيب والتَّقْسيم ، وقُرْب المسائل . وكذلك كُتُبه الفقهية

(١) وردت فى الإسكوريال (وما أخذته) . والتصويب من الزيتونة .

والخِلافية والمَذْهَبِيَّة ، التى ألفها على مَذْهب الشَّافعى ، فإنه كان شافِعِىَّ المذهب ، فى الفُروع . وأما كتبه التى ذَهَب فيها مَذْهب التصوُّف ، فهى التى يوجد فيها ما ذُكر من الضَّرر بالعَرَض . وذلك أنه بَنى الأَكثر من الاعْتِقادات فيها على ما تأدَّى إلى فَهْمه من مذاهب الفلاسفة ، ونَسَبها إلى المُتَصَوِّفة . وقد نبَّه على ذلك الفقيه الجليل أبو بكر الطُّرْطوشى[1] فى كتابه الذى سماه « بمراقى العارفين » . قال ، وقد دَخل على السَّالكين ضرر عظيم من كُتُب هذا الرجل الطُّوسى[2] ، فإنه تَشَبَّه بالصُّوفية ولم يَلْحَق بمذاهبهم ، وخلَط مذاهب الفلاسفة بمذاهبهم ، حتى غَلِط الناس فيها . على أنّى أقول إن باعَه فى الفلسفة كان قَصيراً ، وإنه حَذا حذو الشيخ أبى على بن سينا فى فلسفته التى نقلها فى المقاصد ، ومَنْطِقِه الذى نقله فى مِعْيار العلم ، لكن قَصُر عنه . وتلك الاعتقادات ،منها حقٌّ ومنها باطلٌ، وتلخيصُه لا يتأَتَّى إلا لصِنْفَين من الناس ، أعنى أهل البُرهان ، وأهل المُكاشفة ، فبحَسَب ذلك تحتاج كُتُبه إلى تَقْدِمة عُلوم البرهان ، أو رِياضة أهل المُكاشفة . ولذلك صنَّف هو مِعيار العلم ، ليكون الناظر فى كُتُبه يَتَقَدَّم ، فيتَعَلَّم منه أصناف البراهين ، فيلْحَق بأهل البرهان . وقدمَّ أيضاً تَصْنيف « ميزان العمل » ليكون المُرْتاض فيه ، وبه يَلْحَقُ بأَهل المُكاشفة ، وحينئذ يُنْظر فى ساير كتبه. وهذه الرسالة طويلة ، تكلم فيها على كُتُب أبى حامد الغزالى رحمه الله ، بما يدل على تفنُّنه ، وعلى اضطِّلاعه ، رحمه الله.

---

(١) أبو بكر الطرطوشى فقيه ومفكر سياسى واجتماعى أندلسى ، ولد بثغر طرطوشة من أعمال الثغر الأعلى سنة ٤٥١ هـ ، وتلقى دراسته الأولى بسرقسطة ، ثم نزح إلى المشرق وطاف بحواضره ، وتلقى الكثير عن علمائه ، واستقر أخيراً بالإسكندرية وتوفى بها سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٧ م) ، ومن أشهر مؤلفاته كتاب (سراج الملوك) وهو يعالج نظريات فى السياسة والاجتماع .

(٢) نسبة إلى طوس من أعمال فارس ، وهى مسقط رأس الإمام الغزالى .

ومن الغُرَباء فى هذا الاسم

محمد بن أحمد بن أمين بن معاذ بن إبراهيم بن جميل بن يوسف المراقى

ثم الخَلاطى ، ثم الأَقْشُرى الفارسى ، ويُنعت من النُّعوت المشرقية بجلال الدين ، من بلاد فارس

حـــاله

كان من الصوفية المتَجرِّدين من المال والعِيال ، ذا وقار وتُؤَدة ، وسُكون ومحافظة على ظاهِره . أكثر فى بلاد المشرق من الأَخذ عن الشُّيوخ المحدِّثين والمُتَصوِّفين ، ثم قَدِم المغرب ، فاستوطن بعض بلاده ، ثم أجاز البحر إلى الأَندلس عام أربعة وسبعماية ، وأخذ عمّن بها من الشيوخ ، ودخل غرناطة . وكان شافعيّ المذهَب ، يُشارك فى قَرْض الشِّعر .

مشـــيخته

أخذ عن أَبى مروان عبد الملك الشَّريشى بفاس ، وعن أَبى بكر محمد ابن محمد بن قَسِى المومياني ، ولَبِس الخِرْقة الصُّوفية من جماعة بالمشْرق ، وبالمغرب ، منهم الإمام أَبو إبراهيم الماجَرى ، عن أَبى محمد صالح : عن أَبى مَدْين .

تواليـــــفه

أُخِذ عنه تـاليفُه فى نحو اللغة الفارسية ، وشرح أَلفاظها . قال شيخنا . الوزير أبو بكر بن الحكيم ، كتب إلى والدى ببابه ، وقد أَحسَّ بغَضٍّ من الشيخ الإمام أَبى عبد الله بن خميس ، عَميد مجلس الوزارة الحكيمية :

عُبَيدٌ ببابِ العُلى واقف　　أيَقْبَلُه المَجْدُ أم يَنْصَرف

فإن قَبل المجدُ نِلتُ المُنا　　وإلاَّ فقَدْرى ما أعْرِف

ثم كتب على لفظه ما من وصحَّحه . قال فأُذن له ، واستُظْرِف مَنْزَعه .

محمد بن أحمد بن شاطر الجَمْحى المرَّاكشى

يكنى أبا عبد الله ، ويُعرف بابن شاطِر .

حـــــاله

فقيرٌ متجرِّد ، يلبس أحسن أطوار الخِرقة ، ويُوثر الاصْطلاح ، مَليح الشَّيبة ، جميل الصورة ، مُسْتَظْرف الشَّكل ، ملازمٌ للمسجد ، مساكنٌ بالمدارس ، محبَّبٌ إلى الخواص ، كثير الذِّكر ، مترددُ التأَوُّه ، شارد اللِّسان ، كثير الفَلَتات ، مُطَّرِح فى أكثر الأَحاين للسَّمت ، ينزع إلى هدفٍ تايه ، تَنِم عليه القِحة والمَجانة ، مُقْتَحم حِمى الحِشْمَة فى باب إيهام التَّلبيس ، يزلق سوء الاعتقاد عن صفاته ، وإن قارب الانهماك ، غير مبالٍ بناقد ، ولا حافلٍ بِذام ، ولا حامدٍ . كلما اتُّبع انْفَرد ، ومَهْمى استقام شرَد ، تَطيب النَّفس به على غِرَّة ، ويُحْسن الظَّن بباطنه على سُوء ظاهره ، مليحُ الحديث ، كثير الاعتبار . دايم الاسترجاع والاستغفار . فعّال الموعظة . عجيب الانتزاع من الحديث والقرآن ، مع عدم الحِفظ ، مُسْتشهدٌ بالأَبيات الغريبة على الأَحوال . قال شيخنا القاضى أبو عبد الله بن المقَّرى : لقيت فيمن لقيت بتِلمسان رجلين ، أَحدهما عالم الدُّنيا ، والآخر نادِرَتُها . أَما العالم فشيخنا أَبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أَحمد العَبْدرى الآبِلى ، وأَما النَّادرة ، فأَبو عبد الله بن شاطر . ثم قال ، صحب أَبا زيد الهزْميرى

كثيراً ، وأبا عبد الله بن تجلات[1] ، وأبا العباس بن البنّا ، وإخوانهم من المرّاكشيين ومن جاورهم ، واختصّ بأبى زيد الهزميرى ، وآثره وتبنّاه ، وكان يقول له ، وألقيت عليك محبّة منّى ، فيظهر أثرُ ذلك عليه ، من سَتْر الهِنات ، ووَضْع القَبُول ، فلا تجد من يَسْتَثْقله من راض عنه أو ساخط. دخل الأندلس ، وقدم على غرناطة ، وتلوّم بها أياما .

نبـذ من أقواله

فمن ذلك أنه إذا سئل عن نفسه يقول ، أنا ولىٌّ مَفْسُود ، وفى هذا من النَّصَفة ، وخِفَّة الرُّوح ما لا خَفاءَ به . قال بعض شيوخنا ، قلت له يوما ، كيف أنت ، فقال ، كيف أنا محبوسٌ فى الدَّم . ومن حكمه ، الليل والنهار حَرَسِيّان ، أحدهما أسود ، والآخر أبيض ، وقد أخَذَ بمجامع الخلق إلى يوم القِيامة ، وإن مررنا إلى الله . ومرَّ يوما بأبى العباس بن شُعيب الكاتب وهو جالس فى جامع الجَزيرة ، وقد ذهَبَتْ به الفكرة ، فصاح به فلما رفع رأسه ، قال ، وله نَعْشُ خاطر ، أنظر إلى مَرْكِب عَزْرايل ، قد رفع شِراعه ، والنِّدا عليه ، اركبوا ياعزا . قال شيخنا أبو عبد الله المقّرى ، وجدته يوماً فى المسجد ذاكراً ، فقلت له ، كيف أنت ، فقال مُهيم فى روضة يَحْبُرون ، فهممتُ بالانصراف ، فقال أين تذهب من روضة من رياض الجنة ، يقام فيها على رأسك بهذا التّاج ، وأشار إلى المنار ، مملوءا بالله أكبر . قال وأنشدنى أبو العباس بن البنّا ، وكتبهما عنه :

قصدت إلى الوِجازة فى كلامى   لعلمى بالصَّواب فى الاختِصار

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بجلات) .

ولم أَحْذَر فهو ما دون فهمى ولكن خِفْتُ إزْراءَ الكبار

فشأن فحولة العُلماء شانى وشان البَسْط تَعْليم الصِّغار

قال ، وأخبار ابن شاطر تحتمل كُرَّاسة ، قلت رأيته بفاس فى أخريات عام خمسة وخمسين ، وهو الآن بحاله الموصوفة ، قد أربى على السَّبعين .

محمد بن محمد بن عبد الرحمن التميمى ، ابن الحلفاوى(١)

من أهل تونس ، يكنى أبا عبد الله ، نَزِيل غرناطة ، ويعرف بالتُّونسى وبابن المؤذن ببلده .

حـــاله

من « العايد » : قال ، ولىُّ الله المُجابُ الدعوة ، الظاهرُ الكرامة ، المشهودُ له بالولاية . وَرَد الأَندلس فى جملة من تُجَّار بلده ، وبيده مالٌ كبير ، بَذَله فى معاملة ربِّه ، إلى أن استَأْصَله بالصَّدقَة ، وأَنْفَقَه فى سبيل الله ، ابتغاءَ مَرْضَاتِه ، وتجرَّد عن الدنيا ، وأَخذ نَفْسه بالصَّلاة والصَّوم والتِّلاوة ، وكثرة السُّجود . والتَّطارح [على ذلك](٢) ، محفوظاً فى ذلك كله ، حِفْظَة الأَولياء ، مُذَكِّرا بمن سَلَفه من الزُّهاد ، عازباً عن الدنيا [أخذ نَفْسه](٣) بسلوك الإيتاب عنها ، رحمة للخلق ، وتمالُأً للمساكين ، يقصِده الناس بصَدَقاتهم ، فيبثُّها فى ذوى الحاجات(٤) ، فيتألَّف فى باب مسجده آلافٌ من رجالهم ونِسايهم وصِبْيانهم ، حتى يعمُّهم الرِّفْد ، وتسَعُهم

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة (الحفاوى) .

(٢) هذه الزيادة من الزيتونة .

(٣) هذه الزيادة من الزيتونة .

(٤) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (الحاجة) . والأولى أنسب .

الصَّدقة . وكان غريبَ الأَحوال ، إذا وَصَلَ وقت الصلاة ، يظهر عليه البِشْرُ والسُّرور ، ويدخل مَسْجده الذى ابْتَناه ، واحْتَفل فيه ، فيخلو بنفسه آخذاً فى تعبُّدات كثيرة ، غريبة شاملة لجميع أركان المسجد ، ويزْدحم الناس حول المسجد ، وأكثرهم أهلُ الفاقة ، فإذا تمكَّن الوقت ، أَذَّن أذانا مُؤَثِّراً فى القُلوب ، جَداً وصِدْقاً ووقاراً ، كان صَدْره يَنْصَدع عند قول ، لا إلّه إلاَّ الله . ثم يعيدُ التَّعبُّد والسُّجود فى الصَّومعة وأَدْراجِها ، حتى يُفْتَح باب المسجد ، وينتقل إلى صَدْر المحراب ، فيصلى ركْعات خفيفة . فإذا أَقام الصلاة ، ووقف عند المحراب، ظَهرعليه من الخَوْف والكَآبة والحُزْن والانْكِسار والتَّضَرُّع والتَّمَلُّق[1] والرَّغبة ، ما لا تفى العبارة بوَصْفه ، كأَن موقِفَه موقفَ أهل الجرايم بين أَيْدى المُلُوك الجَبابرة . فإذا أَتمَّ الصلاة على أَتَمِّ هيئاتها ، تَرى كأَن الغُبار على وجهه ، أو كأَنه حُشِر من قَبْر ، فإذا شرع فى الدُّعاء بِأَثر الصلاة ، يتلُوه بتَرْداد الصلاة على النَّبى صلى الله عليه وسلم فى كل دَعْوة ، ويتوسَّل به ، وتظهر عليه أَحوال من الحُضور والمْراقبة ، ويَنْجلى عن وجهه ما كان به . وكان يَخْتِم القرآن فى شهر رمضان مائة خَتْمة ، فما من ليلة ، إلاَّ ويُحيِي اللَّيل كلَّه فيها بمسجده . هذا ترتيبه ، ولو تَتَبَّعنا ما شوهد من كراماته وأحواله ، لخرجنا عن الغرض .

ولد بتونس فى حدود الأَربعين وستّماية .

توفى فى شهر ربيع الثانى عام خمسة عشر وسبعماية . وكان الحَفْل فى جنازته عظيماً ، استَوْعب الناس كافَّة ، وحضر السلطان ، فمن دونه ، وكانت تَنمُّ ، زعموا ، على نَعْشه وقَبْره رائحةُ المِسْك . وتبرَّك الناس بجنازته ،

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (التخلق) .

وقصد قبره المرضى وأهل الحاجات ، وبقى القُرّاءُ يقرأون القرآن عليه مدة طويلة ، وتُصُدِّق على قبره بجملة من مال ،ففُدِى به طايفةٌ من الأَسرى . وقبره بباب إلبيرة عن يمين الخارج إلى مقبرة العسَّال ، معروف هنالك .

محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن يوسف اللَّواتى

من أَهل طنجة ، يكنى أَبا عبد الله ، ويُعرف بابن بَطُوطَة .

حــــاله

من خطِّ شيخنا أَبى البركات ، قال ، هذا رجلٌ لديه مشاركة يسيرة فى الطَّلب ، رَحَل من بلاده إلى بلاد المَشْرِق يوم الخميس الثانى من رجب عام خمسة وعشرين وسبعماية ، فدخل بلاد مصر والشام والعراق ، وعِراق العَجَم ، وبلاد الهند والسِّند ، والصين ، وصين الصِّين ، وبلاد اليمن . وحج عام سنة وعشرين وسبعماية . ولقى من الملوك والمشايخ عالَماً ، وجاوَرَ بمكَّة . واستقرَّ عند ملك الهند ، فحظِى لديه ، وولاَّه القضاء ، وأَفاده مالاً جسيماً . وكانت رحلته على رَسْم الصُّوفية زِيا وسَجِيَّةً ، ثم قَفل إلى بلاد المغرب ، ودخل جزيرة الأَندلس ، فحَكَى بها أَحوال المشرق ، وما استَفاد من أَهله ، فكُذِّب . وقال ، لقيتُه بغرناطة ، وبتنا معه ببُسْتان أَبى القاسم ابن عاصم بقرية نِبْلة ، وحدثنا فى تلك الليلة ، وفى اليوم قَبْلها عن البلاد المشرقيَّة وغيرها ، فأَخْبرَ أَنَّه دخل الكنيسة العُظْمى بالقُسْطَنْطِينية العظمى ، وهى على قَدْر مدينة مُسَقَّفة كلها ، وفيها اثنى عشر أَلف أَسْقُف . قلت ، وأَحاديثه فى الغرابة أَبْعَدُ من هذا . وانتقلَ إلى العُدْوة ، فدخل

بلاد السُّودان . ثم تُعرِّف أن ملك المغرب استدعاه ، فلحق ببابه ، وأمر بتدوين رحلته[١] .

ساير الأسماء فى حرف الميم

الملوك والأُمراء ، وما منهم إلا طارئ علينا أو غريب

مَزْدَلى بن تيولتِكان بن حمى بن محمد بن تُرقوت بن وَرْبابطن بن منصور ابن نِصاله بن أمية بن واباتن الصَّنْهاجى اللَّتمونى

حـــاله

كان الأَمير مَزْدَلى عَضُدَ القايم بالدولة اللَّمتونية يوسف بن ناشُفِين ، وقريبه لالتقائهما فى تَرْقُوت ، راشَ به وبَرى ، وجَزَّ وفَرَى ، فهو شيخ الدولة اللَّمْتُونية ، وكبير العِصابة الصَّنهاجية ، بطلاً ثَبْتًا ، بُهْمة من البُهَم بعيد الصِّيت ، عظيم الجَلَد ، شهير الذِّكر ، أَصِيل الرَّأى ، مُسْتَحكم الحُنْكَة ، طال عمره ، وحَمُدَت مواقعُه ، وبعُدَت غاراتُه ، وعظُمت فى العدوِّ وقايعُه ، وشُكرت عن سلطانه نيابتُه .

من مناقبه ، استرجاع مدينة بلنسية من أَيدى الرُّوم بسَعْيه ، وردُّه إلى مُلْكَة الإسلام بحميد غِنايه فى مُنتصف رجب عام خمس وخمس مايه .

---

(١) إنه لمن بواعث الأسف والدهشة معاً ،أن يقتصر ابن الخطيب فى التعريف بابن بطوطة ، أعظم الرحل المسلمين ، على هذه الأسطر القليلة ، التى نقلها من خط شيخه ابن الحاج . وقد كان حريا به أن يعطى سيرة هذا الرحالة العظيم شيئاً من الأهمية ، فيقدمها إلينا على الأقل فى الحيز المعقول الذى ترجم فيه لمواطنه الرحالة الغرناطى ابن جبير (راجع هذه الترجمة فى المجلد الثانى من الإحاطة ص ٢٣٠ - ٢٣٩) والتى عرف فيها بحاله ورحلته ومشيخته ونثره وشعره بإفاضة . ولقد كان ابن الخطيب ، قبل أن يضع لابن بطوطة هذه الترجمة الموجزة ، على علاقة مودة وصداقة به . وقد وجه إليه وقت أن كان قاضياً بالسوس بتامسنا (فى سنة ٧٦٣هـ) أثناء إقامته بسلا ، رسالة يستشيره فيها فى شراء الأرض بجواره (راجع هذه الرسالة فى كتابنا لسان الدين ابن الخطيب . ص ٣٣٤) .

دخوله غرناطة : وُلِّى قرطبة وغَرناطة وما إليهما من قِبَل يوسف بن تاشُفِين سنة خمس وخمسماية .

قال ابن الصَّيرفى[1]، توفى ليلة الثلاثاء السابع عشر من شوال عام ثمانية وخمس ماية ، غازيا على مقربة من حِصْن قسطانية ، طرق به إلى قرطبة ، فوصل يوم الأَربعاء ثانى يوم وفاته ، وصَلَّى عليه إثر صلاة العصر الفقيهُ القاضى بقرطبة أَبو القاسم بن حَمْدين ، ودفنه قرب أَبيه ، وبُنِيت عليه روضةٌ حسنة . وكان ، نضَّر الله وجهه ، البقَّية الصالحة على نهج أَمير المسلمين يوسف .

موسى بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن بن على الهنْتاتى

السيد أَبو عُمران .

حــاله

بَيْتُه معروف . وكان أَديباً شاعراً ، جواداً ، واختصَّ بالعادِل ، فجل قَدْرُه فى دولته ، وأَمله الناس بإشبيليه فى حوايجهم لمحلِّه منهم . ولما انصرف عنها العادل إلى طلب الخلافة ، قدَّمه عليها ، فبلغ الغاية .

وفى شوال من عام اثنين وعشرين وستماية ،كانت على جَيْشه الوقيعة ، أَوقعها به السيد أَبو محمد البيَّاسى ، وأَخباره شهيره .

وتوفى تَغْريقاً فى البَحْر بعد أَن وُلِّى بجاية ، رحمه الله وعفا عنه .

شـــعره

قال ، وكان أَبو المُطَرِّف بن عَميرة ، يَنْشِد له ، يخاطب الفقيه

(٢) هو من علماء غرناطة وكتابها فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى . وقد سبق التعريف به . (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ١٠٨ حاشية) .

الأَديب أبا الحسن بن حَريق بسْتَحِثُّه على نظم الشعر فى عَروض الخَبَبْ :

خُذْ فى الأَشْعار على الخَبَبْ   فقُصُورك عنــه من العَجَب
هذا وبنُو الآداب قَضُــوا   بعُلُوٍّ مَجْدِك فى الرُّتَـب

فنظم له أبو الحسن القصيدة المشهورة ، منها :

أَبُعَيْد الشَّيب هَوَى وصَبَا   كلَّا لا لهــوًا ولا لِعبــا
ذرّت الستُّون بُرادَتَهــا   فى مِسْك عِذارِك فاشْتَهَبـا

ومنها : يا نفس أَحيي تصلى أَملاً   عيشى روحيا تروى عجبـا
وخُذى فى شكر الكِبْرة ما   لاح إلاصْباح وما ذَهَبـا
فيها أَحْرَزْتُ معارفَ مـا   أُبْليتَ بجدّتـه الحِقبـا
والخمر إذا أُعْتِقَت وصَفَتْ   أَعْلَى ثمناً منهـا عِنَبَـا
وبقيَّةُ عُمْر المرءِ له أَن   كان بهـا طَبًّـا دَرِبَـا
هَبْنى فيهـا بإنابَتِــه   ما هدَّمـه أَيــام صَبَا

دخل غرناطة ، فوجَبَ ذكره مع مثله .

مَنْديل بن يعقوب بن عبد الحق بن مَحْيوَ الأمير أبو زيّان

حــاله

كان فاضلاً عاقلاً جواداً ، عيَّنه أَبوه أَمير المسلمين أَبو يوسف بن عبد الحَقِّ،للضَّرب على أَحواز مالَقة عند الفِتنة ، فاضطَّرب المحلة تجاه سُهيل[(١)] ، وضيق على تلك الأَحواز ، وبَرَز إليه الجيش لنَظِر موسى بن

(١) سهيل ، وتسمى اليوم بالإسبانية Fuengirola بلدة من إقليم مالقة ، تقع على شاطىء البحر المتوسط ، على قيد نحو ثلاثين كيلو متراً غربى مالقة .

رحُّو من قرابته ، النَّازعين عن إيالة المغرب من بنى رَحُّو . وكان اللقاء ، فوقعت به الدَّبْرة ، وانهزم جيشه ، وقُبض عليه ، وسِيق إلى السلطان ، فتلقَّاه بالبرِّ ، ورَعى ما لبَيْته الكبير من الحقِّ ، وأسكنه مجاوراً لقصره بحمرايه[١] ، مرفَّهاً عليه ، مَحْجُوزاً عن التصرُّف ، إلى أن كان ما تلاحَق بهذه الحال من وفاة أبيه السلطان أبى يوسف بالجزيرة الخضراء ، وتصَيُّر الأَمر إلى ولده السلطان أمير المسلمين أبى يعقوب يوسف . وتجَدَّدَت الأُلفة وتأكَّدت المودَّة ، وارتفعت الإِحْنَة ، فكان ما هو معروف من التقايهما على تَعْيِنَة[٢] إجازة ملك المغرب أبى يعقوب البحر على ظاهر مَرْبَلَّة[٣] ، وصُرف الأَمير أبو زيان محبُوّا بما يليق به .

حدَّثنى شيخُنا أبو زكريا بن هُذَيل رحمه الله ، قال ، نُصب للسلطان أبى يعقوب خِباءٌ احتَفل فى اتخاذه له أميرُ سَبْتة ، فبلغ الغاية التى لاتستطيعها الملوك ، سُمُوَّ عماد ،وامتدادَ ظل ، وانفساح ساحة ، إلى إحكام الصَّنعة ، والإِعياء فى الزُّخرف . وقَعَد فيه السلطان ملك المغرب ، وأُجْلس السلطان أمير المسلمين أبا عبدَ آلله ابن الغالب بالله ، عن يمينه ، وأخاه الأَمير أبا زيَّان عن يساره ، وقرأَ عِشاره المعروف بالوقَّاد،آيةُ الله فى حُسن الصَّوت ، وبعد مَدى السَّمع ، وطيبِ النَّغَمة ، قوله عزَّ وجل ، « يا أَيها العزيز مَسنا وأَهْلنا الضُّرُّ ، وجئنا ببضاعة مُزْجاة ، فأَوف لنا الكيْل ، وتصدَّق علينا ، إنَّ الله يُجْزى المُتَصَدِّقين . قال هل علمتم ما فعلتم بيُوسُف

---

(١) بحمرايه أى قصر الحمراء مقر سلاطين غرناطة .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة وفى الإسكوريال (تعبة) .

(٣) مربلة وبالإسبانية Marbella ثغر من ثغور شاطىء اسبانيا الجنوبى المسمى بساحل الشمس Costa del sol ، نظراً لصحو منطقته ، وصفاء جوه ، تقع على نحو ستين كيلو متراً غربى مالقة (وراجع المجلد الاول من الإحاطة ص ١٩٧ حاشية) .

وأخيه ، إذ أنتم جاهلون ، قالوا إنك لأنت يوسف ، قال أنا يوسف وهذا أخى قد منَّ الله علينا ، إنه من يَتَّق ويَصْبِر ، فإن الله لا يُضيع أجر المحسنين. قالوا تالله لقد آثَرَك الله علينا وإن كُنَّا لخاطئين ، قال لا تَثْريب عليكم اليوم ، يَغْفر الله لكم وهو أَرْحَمُ الرَّاحمين » . فكان مقاماً مُبْهِتاً . كان السلطان رحمه الله يقول ، لشَدَّ ما جَنى علىَّ عدو الله بقِحَتِه ، والله لقد كان يُشير بيده إلى السلطان وأخيه عند قوله ، أنا يوسف وهذا أخى . ثم أجاز للعُدْوة ، فطاح بها لعَهْد غير بَعيد .

وكان الإيقاعُ بجيش الأَمير أبى زيَّان فى أُخْرَيات ذى الحجة عام أربعة وثمانين وستمائة . فاتصل بذلك موتُ والد أمير المسلمين أبى يوسف بالخضراء فى شهر محرم عام خمسة وثمانين بعده ، وكان لِقاءِ السُّلْطانين بالخضْراءِ فى شهر محرم عام خمسة وثمانين هذه ، وكان اللِّقاءُ كما ذُكر فى شهر ربيع الآخر من العام المذكور .

ومن الطارئين

المُطَرِّف بن عبد الله بن محمد ابن [عبد الرحمن بن الحكم] بن هشام ابن عبد الرحمن بن معاوية[1]

حـــاله

كان المطرِّف ، ولد الخليفة[2] عبد الله أمير المسلمين بالأَندلس ، شجاعاً مِقْداماً ، جَرِيًّا ، صَرَفه والده الخليفة فى الغَزَوات ، وقَوْد العساكر ، وهو الذى بنى حصن لَوْشَة ، ووَقم كثيرا من الخوارج على والده .

---

(١) وردت نسبة المطرف محرفة فى الإسكوريال حيث ذكرت (المطرف بن عبد الله ابن عبد الله) وأسقط منها من بعد محمد اسم (عبد الرحمن) . ولكنها وردت صحيحة فى الزيتونة .

(٢) إن استعمال كلمة (الخليفة) هنا هو من باب التجاوز ، لأن عبد الله لم يكن سوى أمير الأندلس ، ولم تبدأ الخلافة إلا من بعده على يد حفيده عبد الرحمن الناصر .

دخوله غـرناطة

قال ابن حيَّان [١] غزا المطرِّف بُبَشْتِر [٢] بسبب ابن حَفْصون ، إذ كان صالح الأَمير عبد الله ، ودَفع رهينةً إبنه ، فلما امتُحن الطِّفلُ ، وُجد غير ابنه ، فنهض إلية المطرِّف ، وكان القايد على العسكر قَبْله عبد الملك ابن أُمية ، فنهض صُحبته ، ونازل المطرِّف ابن حفصون ، فهَتَك حَوْزَته ، وتقدّم إلى بِنْيَةٍ كان ابْتَناها بموضع يعرف باللَّويَّات ، فشرع فى خرابها ، وخرج ابن حفصون ومن معه من النَّصرانية يُدافع عنها ، وعن كنيسة كانت بقُرْبها ، فغُلب ابن حفصون ، وهُدمت الكنيسة ، وقُتل فى هذه الحرب حفصُ بن المُرَّة قايدُه ووُجُوه رجاله ، وعند الفراغ من ذلك . انصرف المطَرِّف ، فدخل كُورَة إلبيرة ، وبنا لَوْشَة ، وتقدَّم منها إلى إلبيرة ودخلها ، ثم طاف بتلك الجهات والحصون ، ثم انصرف .

ذكر إيقاعه بعبد الملك ين أُمية وسبب ، الإحنة بينه وبين أبيه

قال ، وفى هذه الحركة ، أَوْقَع بعبد الملك بن أُمية ، لما كان فى نفسه لصَرْف والده عن عَقْد البَيْعة له ، وتمزِيق العَهْد فى خبر يطُول . وكان والدُه قد أَخذ عليه الميثاق عند خروجه إلى شَذُونة [٣] ، ألاَّ يَعْرض إليه بمكروه ، وأقسم له بالإيمان ، لين نال منه شيئاً ليعاقِبَنَّه بمثله ، فلما قتله ، عتمد

---

(١) أبو مروان بن حيان القرطبى من أعظم مؤرخى الأندلس (٣٧٧ - ٤٦٩ هـ) . وقد سبق التعريف به (أنظر المجلد الأول من الإحاطة ص ٩٢ حاشية) .

(٢) ببشتر وبالإسبانية Bobastro ، بلدة حصينة تقع فى شمال غربى مالقة ، وعلى مقربة من شمال شرق رندة ، وكانت أيام الفتنة الكبرى من معاقل زعيم ثورة الجنوب ابن حفصون .

(٣) شذونة أو مدينة شذونة وبالاسبانية Medina Sidonia ، تقع فى منطقة الفرنتيرة فى المثلث الإسبانى على مقربة من جنوب شرق شريش ، وعلى مقربة منها كانت الموقعة الحاسمة التى انتصر فيها طارق بن زياد فاتح الأندلس على القوط سنة ٩٢ هـ (٧١١ م).

الوثائق عليه ، وأخذ الشّهادات فيها بالظُّلم والشُّؤم خوفاً من أبيه ، وكتب إليه يَعْتذِر له ، ويُحكِّمه فى نفسِه .

مقتل المطرِّف

قال ، وظهرت عليه ، فِعال قبيحة ، من أذى جِيرانه بما أكَّد غايلة أبيه عليه ، وأعان عليه معاوية بن هشام ، لما ذكروا أنَّ المطرِّف كان قد خلا به ، فذكروا أنه نَزَل يوما عنده بمنزله ، وأخَذُوا فى حديثِ الأبناء ، وكان المطرِّف عقيماً ، فدعا معاوية بِصَبى يَكْلَفُ به ، فجاءَ وبرأسه ذُؤابتان ، فلما نظر إليه المطرِّف حَسَده ، وقال يا معاوية ، أتتشبَّهُ بأبْنَاءِ الخلفاءِ فى بَنِيهم ،وتناول السَّيف فحزَّ به الذُّؤابة ، وكان معاوية حيَّةُ قريش دهاءً ومكراً ، فأَظْهَر الاستِحْسان لصُنْعه وانبَسط معه فى الأُنْس ، وهو مضَّطِغن . فلما خرج كتب إلى الخليفة يسأله اتِّصاله إليه ، فلما أوْصَله كاشفه فى أمر المطرِّف [بما أزْعَجه ، وأقام على ذلك ليلاً أحْكَم أمره عند الخليفة] (١) بلُطْفِ حِيلته ، فأصاب مقْتَلَه سهمُ سِعايته . قال ابن الفيَّاض ، بعث الأمير عبد الله إلى دار ولده المطرِّف عَسْكراً للقبض عليه ، مع ابن مُضَر ، فقُوتِل فى داره حتى أُخِذ ، وجىءَ به إليه ، فتَشَاور الوزراءُ فى قَتْله ، فأشار عليه بعضهم أن لا يَقْتُلَه ، وقال بعضهم إن لم تَقْتُلْه قَتَلك ، فأمر ابن مُضر بصَرْفه إلى داره ، وقَتَله فيها ، وأن يَدْفِنه تحت الرِّيحانة التى كان يشربُ الخمر تحتها ، وهو ابن سبعٍ وعشرين سنة ، وذلك فى يوم الأحد ضُحًى لعشر خلون من رمضان سنة اثنتين وثمانين ومائتين .

---

(١) هذه العبارة واردة فى الزيتونة ، وساقطة فى الإسكوريال .

مُنْذِر بن يحيى التُّجِيبي

أمير الثَّغر المُنْتزى بعد الجماعة بقاعدة سَرَقُسطة ، يكنى أبا الحكم ويُلقَّب بالحاجب المنصور ، وذى الرِّياستين .

حـــاله

قال أبو مروان ، وكان [أبو الحكم][1] رجلا من عَرْض الجند ، وترقَّى إلى القيادة آخر دولة ابن أبى عامر . وتناهى أمره فى الفِتنة إلى الإمارة . وكان أبوه من الفرسان غير النُّبَهاءِ . فأما ابنهُ منذر ، فكان فارساً نقِيَّ الفُرُوسة ، خارجاً عن مدى الجهل ، يتمسك بطَرْف[2] من الكتابة السَّاذجة . وكان على غَدْره ، كريما ، وهَبَ قُصَّاده مالا عظيما ، فوفَدوا عليه ، وعَمَرت لذلك حَضْرَتُه سَرَقُسْطة . فحسُنت أيامُه ، وهَتَف المُدَّاح بذكره .

وفيه يقول أبو عمرو بن درّاج القَسْطَلِّى[3] قصيدته المشهورة ، حين صَرَف إليه وجهه ، وقَدِم عليه فى سنة ثمان وعشرين وأربعماية :

بُشْراك من طول التَّرحُّل والسُّرى ... صُبْح بِرُوح السَّفْر لاح فأسفرا

من حاجب الشمس الذى حَجَب الدُّجا ... فَجْرًا[4] بأنهار النَّدَى مُتفجِّرا

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بضرب) .

(٣) هو أبو عمرو (وهو الأرجح فى كنيته) أحمد بن محمد بن دراج القسطلى ، من أعظم شعراء الأندلس فى أواخر عهد المنصور وأوائل عهد الطوائف . ولد سنة ٣٤٧ هـ بقسطلة من أعمال جيان . وتوفى سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) وله مدايح كثيرة لأمراء الطوائف . وقد قام على تحقيق ديوانه ونشره الدكتور محمود على مكى (دمشق سنة ١٩٦١) .

(٤) وردت فى الإسكوريال (فجرى) . والتصويب من الديوان .

نادى بحىٍّ على الندى ثم اعتــلا ... سُبُل العُفــاة مهلِّلاً ومكــــبِّرا
لُبَّيك أَسْمَعَنــا نــداك ودوننـــا ... نَوْءِ الــكواكب مُخْويا أَو مُمْطرا
من كل طارق لَيْلٍ همٌّ (١) ينتحى ... وجهى بوجهٍ من لقــايك أَزْهَرا
سارٍ لِيَعْدِل عن سمايك أَنْجُمــى ... وقد ازْدَهاها عن سَنَاك محُــيَّرا
فكأَنما أَعْدته (٢) أَســباب النّوى ... نور الهــدى عن يديك منورا (٣)
أَو غار من همَمى فأَنحى شأْوها ... فلَكُ البروج مغـــرِّبًا ومُغَوِّرا
حتّى عَلِقْتُ النَّيـــرِّين فأَعلقــا ... مثْنَى يدى مَلِك الملوك النَّـيِّرا
فسريتُ فى حرَم الأَهِلَّة مظلمــا ... ورَفَلْت فى خِلَــع السَّمُوم مهجَّرا
وشَعَبْتُ أَفلاذ الفــؤاد ولم أَكَــدْ ... فحذوتُ من حَذْو الــثريَّا مَنْظَرا
ستٌّ تسرّاها الجــلاء مغرِّبـــاً ... وحَدا بهــا حادى النجــاء مُشَمِّرا
لا يستفيق الصُّبْح منها ما بـــدا ... فَلَقــاً ولا جَدْىُ الفـــراقد ما سَرَا
ظُعُنٌ أَلفْن القفر فى غَوْل الدُّجا ... وتركْن مــأْلوفَ المعــاهد مُقْفرا
يَطْلَبن لجَّ البحر حيث تقاذفت ... أَمواجُـــه والــبرُّ حيث تَنَكَّــرا
هيمٌ وما يَبْغين دونـــك مَوْرِدا ... أَبدا ولا عن بَحْر جــودك مَصْدرا
من كلِّ نِضو الآل محبوكِ المنى ... يُزجيه نحوك كلمحبــوك القَرَا
بُدُنٌ فَدَتْ منَّا دمــاء نحورها ... ببِغائها فى كل أُفــق مَنْحــرا
نَحَرت بنا صَدْر الدَّبور فأَنبطَت ... قَلقَ المضاجع تحت جوٍّ أَكْدرا
وصَبَتْ إلى نحو الصَّبا فاستَخْلصت ... سَكَن الليـــالى والنّهــارَ المُبْصرا
خوصٌ نَفَخْنَ بنا البُرى حتى انْثَنت ... أَشلاؤهن كمثل أَنصــاف البُـرا

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الديوان (همى) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الديوان (أغرته)
(٣) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال ، ووردت فى الديوان كالآتى (قدر لبعدى من يديك مقدراً) .

نَذَرَتْ لنا أن لا تُلاقى راحةً ... مما تُلاق أو تُلاقى مُنْذِرا
وتَقَاسَمَتْ أن لا تُسِيغ حياتها ... دون ابن يحيى أو تموت فتُعْذَرا
للّه أى اهَلّة بَلَغَتْ بنا ... يُمناك يا بَدْرَ السماءِ المُقْمِرا
بل أىَّ غُصْنٍ فى ذَراك هَصَرْته ... فجرى(١) فأَوْرَق فى يديك وأَثْمَرا
فلئن صَفا ماءُ الحياة لديك لى ... فبما شَرِقت إليك بالماءِ الصَّرى
ولئن خَلَعْتَ علىّ بُرْداً أخضرا ... فلقد لبِسْتُ إليك عَيْشاً أَغْبرا
ولئن مددَّتَ علىّ ظلا باردا ... فلكم صَلِيت إليك جواً مُسْعَرا
[وكفى لمن](٢)جعل الحياة بضاعةً ... ورأى رضاك بها رخيصاً فاشْتَرى
فمن المُبلِّغُ عن غريب نازح ... قلبا يكاد علىّ أن يَتَفَطَّرا
لهفانَ لا يرتَدُّ [طَرْفُ جفونه](٣) ... إلاّ تذكَّر عَبْرتى فاستَعْبَرا
أبُنَىّ لا تَذْهب بنفسك حسْرةً ... عن غَوْل رَحْلى مُنجدا أو مُغْورا
فلئن تركتَ الليل فوقى داجيا ... فلقد لَقيتُ الصبح بعدك أَزْهَرا
ولقد ورَدْتُ مياه مأْرِب حُفَّلاً ... وأَسَمْتُ خيلى وسْط جنَّة عَبْقَرا
ونظمت للْغيد الحسان قلائداً ... من تاج كِسرى ذى البهاءِ وقَيْصَرا
وحللتُ أرضًا بُدِّلت حصباؤُها ... ذَهَباً يَرِفُّ لناظِرىَّ وجوهرا
ولِيَعْلَم الأَملاكُ انىَ بعدهم ... أَلفَيتُ كلَّ الصيد فى جوف الفَرا
ورمى علىّ رداءه من دونهم ... مَلِكٌ تُخُيِّر للعُلا فتَخَيَّرا
ضربوا قِداحهم علىّ ففاز بى ... من كان بالقدْح المُعَلّى أجدرا

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الديوان (نحر)

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الديوان (وكفاك من)

(٣) وردت فى الإسكوريال (فى أجفانه). عبارة الديوان (طرف جفونه) أنسب للمعنى.

من فَكَّ طِرفى من تكاليف الفلا وأجار طَرْفى من تباريح السُّرى
وكفا عِتابى من ألام مُعَذِّرا وتذَمُّمِى ممَّن تحمَّل مُعْذرا
ومُسائلٍ عنىَّ السرفاق وودُّه لو تنبذ السانحات (١) رَحلى بالعَرا
وبقيتُ فى لُجَجِ الأَسَى مُتضلِّلا وعدلتُ عن سُبُل الهُدى مُتَحيِّرا
كلاَّ وقد آنستُ من هُودِ هُدىً ولقيتُ يَعْرُب فى القُيول وحِمْيرا
[وأصبتُ فى سبإٍ مورِّث مُلْكه يَسْبِى الملوكَ ولايَدِبُّ لها الضَّرا] (٢)
فكأنَما تابعت تُبَّعَ رافعاً أعلامَه مَلِكاً يدين له الورَى
والحارثُ الجَفْنِى ممنوع الحِمى بالخَيْل والآساد مبذولُ القِرى
وحططتُ رَحْلى بين نارَى حَاتِمٍ أيام يَقْرِى موسراً أو مُعْسرا
ولقيت زَيْد الخَيْل تحت عَجاجة يكسو غلايلُهـا الجيادَ الضُمَّرا
وعقدتُ فى يَمَنٍ مواثقَ ذِمَّة مشدودةِ الأَسباب موثقةِ العُرى
وأتيتُ بَحْدَل وهو يرفعُ مِنبرا للدِّين والدُّنيا ويَخْفِضُ مِنْبَرا
وحطَطْتُ بين جفانها وجُفونها حَرَماً أبت حُرُماتهُ أن تُخْفَرا
تلك البحوُر تَتابعت وخَلَفْتَها سعياً فكنت الجَوْهَرَ المُتَخَيَّرا
ولقد نَمَوْك ولادةً وسيادةً وكَسَوْك عزًّا وابْتَنَوْا لك مَفْخَرا
فَمَمَرْتَ بالآمال (٣) أكرَمَ أكرَمٍ مُلْكاً ورثت عُلاه أكْبرَ أكْبَرا
وشَمايل عَبِقت بها سبُلُ الهُدى وذَرَت على الآفاق مِسْكاً أذْفرا
أهْدَى إلى شَغَف القلوب من الهَوى وألذَّ فى الأَجْفان من طَعم الكَرى
ومشاهد لك لم تَكُن أيامُها ظنّا يَريبُ ولا حديثاً يُفْتَرَى

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الديوان (السادات) .

(٢) هذا البيت ساقط فى الإسكوريال . ووارد فى الديوان .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الديوان (بالإقبال) .

لاقيتَ فيها الموت أسودَ أدْهَمـا فَذَعَرْته بالسَّيف أَبيضَ أَحْمَرا
ولو اجْتلى فى زِىٍّ قِرْنِك مُعْلَماً لتركتَـه تحت العَجـاج مُعَفَّرا
يـا من تَكَـبَّر بالَّتكَرُّم قدرُه حتى تكـرَّم أن يُـرى مُتَكَبِّـرا
والمنذر الأَعـداءِ بالبُشْرى لنـا صَدَقَتْ صفاتُك مُنذرا ومُبشِّرا
ما صُوِّر الإيمانُ فى قَلْب امرئٍ حتى يراكَ اللهُ فيـه مُصَـوَّرا
فارفع لها عَلَم الهُـدى فلمثلها رَفَعتْك أعلام السيادة فى الذُّرَى
وانصُر نُصِرتَ من السماءِ فإنمـا ناسبت [1] أنصار النبى لتُنْصرا
واسْلَم ولا وجَدُوا لجوِّك مَنْفَساً فى النائبات ولا لبَحْرِك مَعْبَرا [2]

سـيرته

قال ، وساس لأول ولايته عظيم الفرنْحة . فحُفِظت أطْرافُه ، وبلغ من استمالته طوايفَ النَّصرانية ، أن جرى على يديه بَحضْرَته ، عقد مصاهرة بعضهم [3] ، فقرفَته الأَلسنة لسَعْيه فى [نظام سِلْك النصارى] [4] . وعُمِّر به الثَّغر إلى أن أَلْوت به المَنِيَّة . وقد اعترف له الناس بالرَّأى والسِّياسة .

---

(١) هكذا وردت فى الديوان وفى الإسكوريال (ناصبت) والأولى أرجح .

(٢) لم يرد فى الزيتونة من هذه القصيدة سوى البيتين الأولين . ووردت القصيدة برمتها فى ديوان ابن دراج القسطلى السابق ذكره (ص ١٢٤ – ١٣١) . وأورد منها ابن بسام فى الذخيرة ثلاثين بيتا (القسم الأول من المجلد الأول ص ٥٦ – ٥٨ طبعة الجامعة المصرية) .

(٣) كانت هذه المصاهرة بين سانشو ملك نافار (أنبره) ورامون بوريل أمير برشلونة حيث اقترن الأول بابنة الثانى . وعقد الزواج بقصر الأمير المنذر بسرقسطة ، وحضره الفقهاء والقساوسة وأعيان الملتين .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة كالآتى : (نظام ملك النبار) وملك النبار ، هنا يعنى ملك نافار أونبره ، وكلا القراءتين صحيحة ، وتؤدى معنى مناسيا .

كُتّابه : واستكتب عدَّة كتّاب كابن مُدَوَّر . وابن أَزْرَق ، وابن واجب وغيرهم .

وصـــوله إلى غرناطة

وصل غَرْناطة صُحبة الأَمير المُرْتَضى الآتي ذكره ، وكان ممن انهزم بانهزامه . وذكروا أنه مرَّ بسليمان بن هُود ، وهو مُثْبِت للإفرنج الذين كانوا في المحَلَّة لا يريم موقفه[1] ، فصاح به النجَّاة ، يا بن الفاعلة ، فلستُ أَقف عليك ، فقال له سليمان ، جِيت والله بها صَلَعاً ، وفَضَحْت أَهل الأَندلس ، ثم انْقَلع وراءه .

وفـــاته

وكانت على يَدَيْ رجل من أبناءِ عمه يدعى عبد الله بن حَكَم ، كان مُقَدَّماً في قُوَّاده ، أَضمر غَدْره ، فدخل عليه ، وهو غافل في غِلالة ، ليس عنده إلا نفرٌ من خواصِّ خَدَمه الصُّقْلُب ، قد أَكبَّ على كتاب يقرؤه ، فملاه بسِكِّين أَجهز به عليه . وأَجْفَل الخدم إلَّا شَهْمٌ منهم أَكبَّ عليه فمات معه . ومَلَك سَرَقُسطة ، وتمسَّك بها أياما ، ثم فرَّ عنها ، ومَلَكها ابن هُود . وكان الإيقاع به غرة ذى حجة سنة ثلاثين وأربعمائة ، رحمة الله عليه .

موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيي بن يَغْمراسن بن زيّان الأَمير بتلِمْسان ، يكنى أَبا حَمُّو .

---

(١) أى لا يبرحه .

أوّليـــته

أوّليته معروفة تنظر فيما سلف من الأسماء .

حـــاله

هذا السلطان مُجْمعٌ على حَزْمه ، وضمِّه لأطراف مُلْكه ، واضِّطلاعه بأعباء مُلْك وطنه ، وصَبره لدولة قومه ، وطلُوعه بسعادةِ قَبِيله . عاقلٌ ، حازمٌ ، حَصيفٌ ، ثابتُ الجَأْش ، وقورٌ مَهيب ، جمَّاعةٌ للمال ، مباشر للأمور ، هاجر للَّذات ، يَقِظ ، مُتَشَمِّر . قام بالأمر غُرّة ربيع الأول فى عام ستين [1] ، مُرْتاش الجَناح بالأحْلاف من عَرَبِ القِبْلَةِ ، معوِّلاً عليهم عند قصْد عدُوِّه ، وحَلَب ضِرع الجِباية ، فأثْرى بيتُ ماله ، ونَبُهَت دولتُه ، واتَّقَتْه جيرتُه ، فهو اليوم ممن يُشار إليه بالسَّداد .

أدبــه وشـــعره

ووجَّه لهذا العهد فى جُملة هدايا وُدِّية ، ومقاصِدَ سِنيَّة ، نسخة من كتابه المسمى «بواسِطَة السُّلوك فى سياسة الملُوك» [2] ، افتتحه بقوله :

« الحمد لله الذى جعل نِعْمته على الخَلْق ، بما ألْفَهم عليه من الحقِّ ، شاملةً شايعةً ، ويسَّر طوايفَ من عِباده لليُسْرى ، فأتَتْ إليها مُساعدة مُسارعةً ، وحضَّهم على الأخْذِ بالحُسْنى ، ولا أحْسَنُ من نفوس أُرْشِدَت ،

---

(١) أعنى سنة سبعماية وستين ٧٦٠ هـ .

(٢) توجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة بمكتبة الجزائر الوطنية تحفظ برقم 1374 من فهرس Fagnan وتقع هذه النسخة فى ٩٣ لوحة كبيرة مكتوبة بخط مغربى . وقد اطلعنا على الكتاب وهو يحتوى على أربعة أبواب ، الأول فى « الوصايا والحكم » والثانى فى « قواعد الملك وأركانه » والثالث فى « الأوصاف التى هى نظام الملك » والرابع فى « الفراسة » ويتخلل هذه الأبواب كثير من الأمثال والحكايات والسوابق .

فأَقْبلت لإرثْها طالبةً وارِبِّها طايعة ، ولا أَسْمَى من هِمَمٍ نَظَرت بحُسْن السِّياسة فى تدبير الرِّياسة ، التى هى لأَشْتاتِ الملك جامعةٌ ، ولأَسباب المَلْك مانعة ، وأَظهرت من معادنها دُرَر الحِكَم ، وغُرَر الكَلِم لايحةً لامعةً ، فاجتَلت أَقمارها طالعةً ، واجْتَنَتْ أَزهارَها يانعةً . وصلى الله على سيدنا محمد الكريم ، المبعوث بالآيات البيِّنات ، ساطِيةً ساطِعةً ، والمُعْجزات المُعْجَمات قاصِمةً لظهور الجاحِدين قاطعةً . الذى زُوِيت له الأَرضُ ، فتَدانَتْ أفكارها وهى نابِيةٌ شاسعة ، واشتاقت له المياه ، فَبَرَزَتْ بين أَصابعه يانعةً ، وامْتَثَل السَّحاب أَمْرَهَ ، فسحَّ باستِسْقايه دُررًا هاميةً هامعةً ، وحنَّ الجِذْع له ، وكان حِنينُه لهذه الآيات الثَّلاث آيةً رابِعةً ، إلى ما لا يُحصى مما أَتَتْ به مُتَواتَرات الأَخبار ، وصَيْحات الآثار ، ناصرةً لنبوَّتِه ساطعةً . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ، وعِتْرَتِه التى أَجابت داعىَ الله خاشيةً خاشعةً ، وأَذْعَنت لأَوامر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فكانت من الاسْتِبْداد خالية ، وللأَنْداد خالعةً ، صلاة ديمَتُها دائمةٌ مُتَتابعةٌ ، وسلم كثيرا » .

جَمَع فيه الكثير من أَخبار الملوك وسِيَرِهم ، وخصَّ به ولَدَه ووليَّ عهده ، فجاء مجْمُوعاً يُسْتَظْرَفُ من مِثْله ، ويدلُّ على مكانه من الأَدب ومحلِّه .

وثَبَتَ فيه الكثيرَ من شِعره ، فمن ذلك قصيدة أَجاب فيها أَحدَ رؤوس القبايل ، وقد طلب منه الرجوع إلى طاعته ، والانتظام فى سِلْك جماعته ، وهى :

تذكَّرتُ أَطْلال الرُّبوع الطَّواسِم ... وما قد مضى من عهدها المُتَقادم
وقفتُ بها من بَعْد[بُعْدأُنْسِها] (١) ... بصَبْر مُنافٍ أَو بشوقٍ مُلازم
تَهيم بمَغْناهم وتَنْدب رَبْعهم ... وأَىّ فُؤاد بَعْدهم غيرُ هايم

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (هذا نسيمها)

تَحِنُّ إلى سلمى ومن سَكَن الحِمى ... وما حبُّ سَلمى للفتى بمُسالم
فلا تَنْدِب الأَطْلال واسْلُ عن الهوى ... ولا تَقُل فى تَذْكار تلك المعالم
فإنّ الهوى لا يَستَفِزُّ ذوى النُّهى ... ولا يَسْتَبِى إلا الضَّعيف العَزايم
صبورٌ على البَلْوى طَهُورٌ من الهوى ... قريبٌ من التَّقوى بعيدُ المآثم
ومن يَبْغ دَرْكَ المُعْلَوات ونَيْلها ... يُساق بخَلْق الشّهد مُرَّ العَلاقم
ولايِمة لما رَكِبنا إلى العُلا ... بحارَ الرّدى فى لُجِّها المُتَلاحم
تقول بإشفاق أَتَنْسى هوى الدِّما ... وتنثُرُ دُرَراً مِن دُموعٍ سَواجم
إليك فإنّا لا يَرُدُّ اعتزامَنا ... مقالةُ باك أو ملامَةُ لايم
ألم تَدْرِ أن اللوم لومٌ وأننا ... لنجتنب اللَّوم اجتناب المحارم
فما بسوى العَلْيا هِمْنا جلالةً ... إذا هام قوم بالحسان النَّواعم
بروق السُّيوف المشرفيَّات والقنا ... أحبُّ إلينا من بروق المباسم
وأما صَميل السَّابحات لذى الوَغَى ... فأَشجى لدينا من غِنا الحمايم
وأَحسنُ من قدِّ الفتاة وخدِّها ... قدود العوالى أو خدود الصوارم
إذا نحن جرَّدنا الصوارم لم تَعُد ... إلا غِمادُها الأَبْحرُ الغلاصم
نواصل بين الهند [وانى الطَّلا](١) ... بتفريق مابين الطُّلى والجماجم
فيرغب منا السِّلم كل مُحارب ... ويَرْهب منَّا الحرب كلُّ مُسالم
نقود إلى الهيجاء كلَّ مُضمَّر ... ونقدم إقدام الأُسود الضَّراغم
وما كلُّ من قاد الجيوش إلى العدا ... يعود إلى أوطنانه بالغنائم
وننصر مظلوما ونمنع ظالما ... إذا شيك مظلوم بشَوْكة ظالم
ويأْوى إلينا المُسْتجير ويلتجى ... ويحميه منَّا كل ليثٍ صيارم(٢)

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (وإلى الطلا) .
(٢) هكذا وردت فى « الزيتونة » . وفى الإسكوريال (ضبارم) .

أَلم تر إذ جاءَ السُّبَيْعى[١] قاصدا — إلى بابنا يَبغى[٢] التماس المكارم
وذلك لمّا أن جَفاه صِحابُه — وكلُّ خليل وُدُّه غير دايم
وأَزْمَع إرسالاً إلينا رسالةً — بإخلاص وُدٍّ واجب غير واجم
وكان رَأَى أن المهامة[٣] بيننا — فخَلَى لذات الخُفِّ ذَات المَناسِم
وقال أَلا سَلْ من عَليم مجرِّبٍ — أَبثُّ له ما تحت طيِّ الحيَازم
فيبلِّغُ عنه الآن خيرَ رسالة — تُوَدّى إلى خير الملوك الأَعاظم
على ناقة وجْناء كالحرْف ضامرٍ — تَخَيرَّها[٤] بين القِلاصِ الرَّواسم
[من اللاتي يُظْلمن الظليم إذا عَدى — ويُشْبهُه فى جيده والقوايم
إذا أَتلَعَتْ فوق السَّحاب جوابَها — تخَيَّلْتُهاتعضُ السَّحاب الروّاكَم][٥]
وإن هَمْلَجَت بالسَّير فى وسط مَهْمه — نَزَلَتْ كمِثل البَرْق لاح لشايم
ولم يأْمَنْ الخُلاّن بعد اختلالهم — فأَمْسَى وفى أكبادها أى جاحم
فقالوا فحمِّلها الحَمايِم قال لا — لبُعْد المدا أو خَوْف صَيْد الحَمايم
وما القصدُ الا فى الوصول بسرعة — فقالوا فحمِّلها أكُفَّ النواسم
فقال لنِعم المُرْسلات وإنّما — لها أَلسُنٌ مشهورة بالنَّمايم
فلم يَلْفَ فيها للأَمانة مَوضعا — وكلُّ امرئ للسِّر ليس بكاتم
فحينئذ وافى إلينا بنَفْسه — فكان لدَيْنا خيرُ واف وقادم
يجوب إلينا البَيْداءَ قصداً وبشرنا[٦] — يُضئُ له الظَّلْماءَ فى كلِّ عاتم
طُلّاب العلا تَسْرى مع الوحش فى الفلا ويَصْحبُ منها كلَّ باغٍ وباغِم

(١) هكذا وردت فى « الزيتونة » . وفى الإسكوريال (السبيع) والأولى أنسب للوزن .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (يبكى) .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الملامة) .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (تجربها) .
(٥) هذان البيتان واردان فى الإسكوريال وساقطان فى الزيتونة .
(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (سرنا) .

على سَلْهَبٍ[(١)] ذى صوتين مُطْعَم[(٢)] من المُغْرِبات الصّافنات الصّلادم

إذا شاء أَىّ الوحْش أدركه به فتحسبه فى البيد بعضَ النَّعايم

ويُقدِّمه طوعاً إلينـــا رجلؤه حمايتُنـا إيّـاهُ من كلِّ ظالم

ألا أيها الآتى لظــلِّ حَنانـنـا نَزَلْتَ برَحْبٍ فى عِراص المكارم

وقوبِلْتَ منّا بالذى أنتَ أهلُـه وفاض عليك الجودُ فَيْضَ الغَمايم

كذا دأْبُنـا للقادمـين محَلَّنـا حِمىً ونـداً يُنسَى به جُودُ حاتِم

وهذا جوابٌ عن نظامك إنَّنـا بُعِثْنـا به كاللؤلؤ المُتَنـاظم

ونحن ذوو التيجـان من آل حِمير لَعَمْرك ما التّيجـان غيرُ العَمايم

بهمَّتِنا العَلْيـا سمونا إلى العُـلا وكم دُون إدراك العُلا من مَلاحم

شدَدْنَا لها أَزْراً وشِدْنا بنـاءها وكم مَكَّنَتْ دهراً بغير دَعائم

نَظَمْنـا شَتِيت المجد بعد افتراقه وكم بـاتَ نَهبْاً شملُه دون ناظم

ورُضْنا جياد المُلْك بعد جِماحها فذَلَّت وقد كانت صِعاب الشَّكايم

مناقِبُ زيّانيّةٌ[(٣)] موسَوِيّـةٌ يُذلُّ لها عزُّ الملوك القَمـاقِم

يَقْصُر عن إدراكها كلُّ مُبْتَغٍ ويعجز عن إحْصايها كلُّ ناظم

فلله منا الحمدُ والشُّكر دايماً وصلى الله على المختار من آل هاشم

ونختَصُّكم منا السَّلام الأثيرَ ما تضاحك روضٌ عن بُكاء الغَمايم

قلت ، ولما تعرَّفتُ كَلَفَه بالأدب ، والإلمام بمجاورته ، عزمتُ على لقايه ، وتشوَّقْتُ عند العَزْم على الرِّحلة الحجازية ، إلى زيارته ، ولذلك كنت أُخاطبه بكلمة منها :

---

(١) فرس سلهب أى طويل ، وخيل سلاهب .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (مطمع) .

(٣) نسبة إلى يغمراسن بن زيان بن ثابت زعيم بنى عبد الواد ، ومؤسس مملكة تلمسان المستقلة فى سنة ٦٤٠ هـ ، ورأس هذه الأسرة الملوكية .

على قَدَرٍ قد جيت قومَك يا موسى   فجلَّت بك النُّعمْى وزالت بك البُوسى

فحالَتْ دون ذلك الأَحوال . وهو بحاله الموصوفة إلى هذا العهد . وفَّقه الله ، وساير من تولَّى أمراً من أمور المسلمين .

وجرى ذكره فى رجز الدول[1] من نظمى :

بادَرَها المُفدَّى الهمامُ موسى   فأذْهَب الرحمن عنهـا البُوسى

جدَّد فيهـا المُلْك لمـا أخلقـا   وبعث السَّعد وقد كان لقـا

ورتَّب الرُّتبـا والرُّسُـومـا   وأَطْلَـع الشُّمـوس والنُّجومـا

واحْتَجنَ المـال بهـا والعُـدَّة   وهو بهـا بـاق لهـذى المُـدَّة

ولد بمدينة غَرناطة حسبا وقعتُ عليه بخط الثِّقة من ناسه ، فى أول عام ثلاثة وعشرين وسبعماية[2] .

مُبارك ومُظفَّر الأميران مَوْليا المنصور بن أبى عامر

حـــالُهمـا

قال أبو مروان[3] : ترقَّيا إلى تَمَلُّك بَلَنْسية من وكالة السَّاقية ، وظَهر من سِياستهما وتعاوُضِهما صحَّة الأُلْفة طول حياتهما : ما فاتا به فى معناها أَشِقَّاء الأُخُوَّة ، وعُشَّاق الأحبَّة ، إذ نَزَلا معاً بقصر الإمارة مُختَلِطين ، تجمعهما مائدةٌ واحدة من غير تميُّزٍ فى شيئ ، إلا الحُرم خاصَّة . وكان التَّقَدُّم لمُبارك فى المُخاطبة ، وحفظ رسومَ الإمارة ، أَفضلُ صرامةً وذِكْراً ،

(١) يقصد ابن الخطيب هنا الإشارة إلى كتابة (رقم الحلل فى نظم الدول) وقد عرفنا به فى مقدمة هذا الكتاب .

(٢) توفى السلطان العالم الأديب أبو حمو – موسى بن يوسف بن عبد الرحمن فى سنة ٧٩١ هـ ، قتيلا خلال ثورة قام بها ولده أبو تاشفين لانتزاع الملك منه بمعاونة بنى مرين .

(٣) يعنى أبو مروان ابن حيان (بن خلف بن حيان).

قَصّرَ عنهما مُظَفَّر ، لدمائة خُلُقه ، وانحِطاطِه لصاحبه فى ساير أمره ، على نِحْلته بكتابة ساذجة وفروسة ، فبلغا الغاية من اقتِنـاءِ الأسلحة والآلات الملوكية ، والخَيْل المُغْرِبات ، ونفيس الحُلىّ والحُلَل ، وإشادَة البناءِ للقُصور . واشتمل هذا الرأى على جميع أصحابهما ، ومن تعلّق بهما من وُزرابهما وكتّابهما ، ولم يَعْرِض لهما عارضُ إنْفاق بتلك الآفاق[١] ، فانْغَمسا فى النَّعيم إلى قِمَم رؤوسِهما حتى انقضى أمرُهما .

قال ، وكان موتُ مبارك أنه ركب يوما من قصر بَلَنْسية ، وقد تَعرَّض أَهلُها مُسْتَغِيثين من مالٍ افتَرَضَه عليهم ، فقال لهم ، إن كنت لا أريد إنْفاقه فيما يَعُمُّ المسلمين نَفْعه ، ، فلا تُؤَخّر عقوبتى يومى هذا . ورَكب إثْر ذلك . فلما أتى القنطرة ، وكانت من خشب ، خرَجَت رِجْلُ فَرسِه من خدها فرمى به أَسْفَلها ، واعترضته خَشَبة ناتِئَةٌ شَرَخَتْ وجهه ، وسَقط الفرسُ عليه ، ففاضَتْ نَفْسُه ، وكفاهم الله أمرَه يومئذ .

وفى مُبارك ومُظَفَّر يقول أبو عمرو بن درّاج القَسْطَلّى رحمه الله :

أنوركِ أم أوقدتِ بالليـل نارك ... لبـاغ قِـراك أو لبـاغ جـوارَك
وريّاك أم عـرفُ المجـامر أشْعَلَت ... بعـود الـكباءِ والألـوَّة نـارك
ومَبْسِمُكِ الوضّاح أم ضوءُ بارق ... حَداه دُعائى أن يجود ديـارَك
[وخَلخالَكِ استنضيتِ أم قمرٌ بدا ... وشمسٌ تبدّت أم ألَحْتِ سوارَك][٢]
وطُرَّةُ صُبح أم جبينُـك سافـرًا ... أعَرْتِ الصباح نورَه أم أعارَكِ
وأنتِ هجرتِ[٣] الليل إذ هَزَم الضُّحى ... كتائبَه والصُّبحَ لما استجارَك

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الأقطار) .
(٢) هذا البيت وارد فى ديوان ابن دراج (السابق التعريف به) وساقط فى الإسكوريال
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الديوان (أجرت) .

فللصُّبح فيما بين قِرطَيْك مطلعٌ … وقد سَكَنَ الليـل البهـيم خِماركِ
فيالنهـار لا يُغيض ظـــلامُه … وبالظـلام لا يُغيض نهـارك
ونجمُ الـثريّـــا أم لآل تقسّمت … يمينَـك إذ ضَمّخَتْهـا أم يَسارَك
لسلطـانِ حُسْنٍ فى بديـع محاسِن … يصيدُ القلوبَ النّـافِرات نِفارَك
وجُنْدُ غـرام فى دروع صَبـابة … تقلَّدْن أقدار الهـوى واقتدارَك
هو المُلْك لابلْقيس أدرك شأْوُها … مداك ولا الزَّبّاءُ شَقَّت غُبـارَك
وقادحة(١) الجَوْزاءِ راعيتُ مَوهِناً … بحـرٍّ هـواك أم ترسّمتُ دارَك
وطيفُك أسْرَى فاستثـار تَشَوُّقى … إلى العهد أم شَوْق إليك استثارَك
ومُوقَدُ(٢) أنْفاسى إليك استطارَنى … أم الـرُّوح لـمارُدَّ فى استطـارَك
فكم جُزْتِ من بَحْر إلىّ ومَهْمَة … يكادُ يُنسِّى المُسْتهـام ادّكارَك
[أذوُ الحظِّ من عِلم الكتاب حَذَاك لى … أم الفَلَكُ الدوّار نحـوى أدارك](٣)
وكيف كتمت الليل وجهَك مظلماً … أشَعْرَكِ أغشَيْتِ(٤) السَّنا أم شِعارَك
وكيف اعتَسَفْت البِيد لافى ظعائنٍ … ولا شَجَرُ الخَطِّىِّ حـفَّ شجارَك
ولا أذّن الحَىُّ الجميعُ برحْلَة … أراح لهـا راعى المخـاض عِشارَك
ولا أرْزَمت خوصُ المهارى مجيبةٌ … صهيـل جياد يكتَنِفن قِطـارَك
ولا أذْكَتَ الرُّكْبان عنك عيونَها … حِذار عيون لا يَنَمْــن حِـذارَك
وكيف رضيتِ الليل مَلْبَس طارق … وما ذرَّ قرنُ الشمس إلا استَنارَك
وكم دون رَحْلى من بروج(٥) مشَيَّدة … تُجَرِّم من قـربِ المـزار مزارَك

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الديوان (وقادمة) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الديوان (ومرتد) .
(٣) هذا البيت ساقط فى الإسكوريال ووارد فى الديوان .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الديوان (أغشيت) .
(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الديوان (قصور) .

وقد زَأَرتْ حولى أسودٌ تهامَست ... لها الأُسْد أنْ كُفِّى عن السَّمع زارَك
وأرْضِى سيولٌ من خُيول مُظَفَّر ... وليلى نجومٌ من سماء مُبارَك
بحيث وجدتُ الأَمْنَ يهتف بالمُنى ... هلُمِّى إلى عَيْنَين جادا سَرارَكِ
هلُمِّى إلى بَحْرين قد مَرَج النَّدى ... عُبابَيْهما لا يَسْأَمان انتظارَك
هلُمِّى إلى سَيْفَين والحدُّ واحدٌ ... يُجيران من صَرْف الحوادث جارَك
هلُمِّى إلى طِرْفَىْ رِهان تقدَّما ... إلى الأَمَدِ الجالى عليك اختيارَك
هلُمِّى إلى قُطْبى نجوم كتايب ... تنادى نجومَ التَّعس غُورى مَغارَك[1]
وحيى[2] على دَوْحَين جاد نَداهما ... ظلالَك واستَدْنى إليك[3] ثِمارَك
وبُشراكِ قد فَازَتْ قِداحُك بالعُلا[4] ... وأُعطيتِ من هذا الأنام خِيارَك
شريكان فى صِدْق المُنَى وكلاهما ... إذا قارَن[5] الأَقْران غير مُشارَك
هما سَمعا دعواك يادعوةَ الهدى ... وقد أَوثَقَ الدهر الخئُون إسَارَك
[وسلّاَ سيوفاً لم تزل تَلْتَظى أسًى ... بثارِك حتى أَدْرَكا لك ثارَك
ويَهْنِيك يا دارَ الخلافة منهما ... هِلالان لاحا يَرْفعان منارَكِ
كلا القَمرين بين عَيْنَيه غُرَّةٌ ... أَثارت كُسُوفَيْك وجلّت سِرَارَكِ][6]
فقاد إليك الخيل شُعْثاً شَوازِبا ... يُلبِّين بالنَّصر العزيز انتصارَك
سوابِق هَيْجاء كأَنَّ صهيلَها ... يُجاوب تحت الخافِقات شِعارَك
بكلِّ سَرِىّ العِتْق سرًى عن الهُدى ... وكل حَمِىِّ الأَنْفِ أَحْمى ذِمارَك

---

(١) هذا البيت وارد فى الإسكوريال وساقط فى الديوان .

(٢) هكذا وردت فى الديوان . وفى الإسكوريال (وحيا) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الديوان (إلى) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الديوان (بالمنى) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الديوان (بارز) .

(٦) هذه الأبيات الثلاثة واردة فى الديوان وساقطة فى الإسكوريال .

تحلَّوا من المنصور نصراً وعزةً فأبْلَوْك فى يوم البلاءِ اختيارَك
إذا انْتسَبوا يوم الطِّعان لعامر فعُمْرك يا هام العِدى لا عَمارَك
يقودُهم منهم سِراجاً كتايبٌ يقولان للدُّنيا أجدّى افتخارَك
إذا افتَرت الرايات عن غُرَّتَيْهما فيا للعِدى أضْلَلْتِ منهم فِرارَك
وإن أَشْرقَ النّادى بنور سَناهما فبُشْرى الأمانى عَيْنَك لا ضِمارَك
وكم كشَفْنا من كُرْبة بعد كُرْبة تقول لها النيرانُ كُفِّى أُوارَك
وكم لبَّيا من دعوة وتداركا شَفَى رمق ما كان بالمُتَدارَك
ويانفْسَ غاو كم أقرَّا نفارَك ويارجْل هاو كم أقالا عثارَك
ولستُ بِبِدع حين قلت لهمَّتى أَقِلِّى لإعْتاب الزّمان انتظارَك
[فلله صِدْقُ العَزْمِ أيَّة غِرَّة إذا لم تُطِيعى فى لَعَلَّ اغتِرارَك][(١)]
فإن غالت البيدُ اصطبارَك والسُّرى فما غال ضيمُ الكاشِحين اصطبارَك
وياخُلَّة التَّشْويف قومى فأَغْدِقى قِناعَك من دونى وُشدِّى إزارَك
[وحسبُك بى ياخلَّة النَّاى خاطِرى بنفِسى إلى الحظِّ النفيس خِطارك][(٢)]
فقد آن إعطاءُ النَّوى صفقةَ الهوى وقولُك للأيّام [جُورى مَجَارك][(٣)]
وباسُتُر البيضِ النَّواعم أَعْلِنى إلى اليَعْمَلات والرُّحّال بدارَك[(٤)]
نواجِىَ واستَوْدَعتهنَّ نواجِياً حِفاظَك ياهذى بذى وازدِهارَك
ودونَكِ أفلاذَ الفؤاد فشمِّرى ودونَكِ يا عينَ اللَّبيب اعتبارَك
صرفتُ الكَرى عنها بمُغْتَبَق[(٥)] السُّرى وقلتُ أَدِيرى والنجوم عُقارَك

---

(١) هذا البيت وارد فى الديوان وساقط فى الإسكوريال .
(٢) هذا البيت وارد فى الديوان وساقط فى الإسكوريال .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الديوان (حورى محارك) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الديوان (سرارك)
(٥) هكذا وردت فى الديوان ، وفى الإسكوريال (بمغتنق) والأولى أنسب للسياق

فإن وجَبَتْ للمغرِبَين جنوبُهـــا فداوي بَرقْراق السَّراب خُمارك
فأوْرى بزَنْدَى سُدفة ودُجُنَّة إذا كانتا لى مَرْخَك وعَفــارَكِ
وإن خلع الليلُ الأصائلَ فاخلعى إلى المَلكين الأكـرَمين عِذارَك
بلنسيةٌ مثْوى الأمانى فاطلُــبى كنُوزَك فى أقطـارها وادِّخـارَك
سيُنْبيك زَجْرى عن بلاءٍ نسيتُه إذا أصبحت تلك القصور قُصارك
وأَظْفَرُ سَعْى بالرِّضا مِن مُظَفَّــر وبورك لى فى حُسنِ رأى مُبــارَك
قَصِيُّ المنى[1] قد شام بارقَة الحيــا وانشقَّت يا ظِئْر الرَّجا حُوارَك[2]
وحمداً يمينى قد تملأتِ بالمُــنى وشكراً يسارى قد حَوَيْتِ يَسارك
وقل لسماء المُزْن إن شئت اقْلعـى ويا أرْضها[3] إن شِيتِ غِيضى بحارك
ولا توُحشِي يادولة العـزِّ والمُنى[4] مساءَك من نُورَيْهما وابتِكارَك[5]

وصولهما إلى غرناطة

وصلا مع أمثالهما من أمراءِ الشَّرق صحبة المُرتَضى ، وكان من انهزام الجميع بظاهرها ، وإيقاع الصناهجة[6] بهم ما هو معلوم حسبما مر ويأتى بحول الله .

ومن ترجمة الأعيان والوزراء

بل ومن ترجمة الطارئين والغرباء منها

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الديوان (فظء) .
(٢) هكذا وردت فى الديوان . وفى الإسكوريال (جوارك) . والأولى أنسب للسياق والحوار هو ولد الناقة الرضيع .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الديوان (ويا أرضنا) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الديوان (الندى) .
(٥) وردت هذه القصيدة برمتها فى ديوان ابن دراج القسطلى الذى سبقت الإشارة إليه (ص ١٠١ – ١٠٨) .
(٦) أى جند صنهاجة .

منصور بن عمر بن عثمن بن يعقوب بن عبد الحق بن مَحْيُو

يكنى أبا على

أوَّليتـــه

معروفة قد مرَّت عند ذكر إخوته وقومه .

حـــاله

كان رحمه الله فتَى القوم ، لسِناً ، مُفَوَّهاً ، مُدْركا ، متعاطيا للأدب والتاريخ ، مُخالطا للنُّبلاءِ ، مُتَسَوِّرا خُلُقَ العلماءِ ، غَزْلاً ، كَلفاً بالدُّعابة ، طُرْفَة من طُرَف أهل بيته ، قوى الشَّكيمة ، جواداً بما فى وُسْعه ، مُتَناهيا فى البَدانة . دخل غرناطة فى الجُمْلة من إخوانه وبنى عمِّه ، مُغَرَّبين عن مَقَرّ الملوك بالمغرب ، وأقام بها إلى شهر ربيع الأول من عام ثلاثة وستين وسبعماية . ورَكِب البحر فى الخامس والعشرين منه، عندما لَحِق أخوه عبد الحكيم بالمغرب ، وبايَعه الناس ، ولاحَت له بارقةٌ ، لم تَكِد تَقُد حتى خَبَتْ ، فبادر إلى مُظاهرته فى جَفن غزوى من أسطول الأندلس ، وصَحِبه قومٌ ممن يَخْطُب الخُطط ، ويبْتَدر رَمَق الدول ، وهال عليهم البحر ، فطَرَح الجَفْن بأحْواز غسَّاسة ، وقد عادتها مُلْكة عدُوِّهم ، فتُقُبِّض عليه ، وأُدخل مدينة فاس ، فى الثانى لربيع الآخر من العام ، مَشْهُور المَرْكِب على الظَّهر ، يُضرب بين يديه طبلٌ للشُّهْرة ، وناقورُ المُثلة ، وأُجلس بين يدى السلطان ، فأبْلَى بما راق الحاضرين من بيانه من العُذْر للخروج بالاستِمالة حتى لرُجى خلاصُه ، واستقر مُثَقَّفاً تَتَعلَّق به الأراجيف ، ويحُوم حول مَطْرحة الاختبار إلى حين وفاته .

شعره

أَنشدنى الفقيه الأَديب أبوبكر بن أَبى القاسم بن قُطْبة من شِعره ، وكان صاحبُه فى الرِّحلة ، ومُزامِلُه فى أُسطول المَنْحسَة ، وذلك قوله :

سوف ننال المُنى ونَرقى   مَراقى العزِّ والمَعالى
إذا حطَطْنا بأَرض فاس   وحُكِّمت فى العِدَى العوالى
فأَنت عندى بها حَقِيقٌ   يا حايز الفَضْل والكمال

وفاته

فى وسط جمادى الأُولى من العام . دُخل عليه فى بيت مُعْتَقله فقُتل ، ودُفن ببعض مدافنهم . رحمة الله عليه .

مُقاتل بن عطية البرْزالى

يكنى أبا حرب ، وقال فيه أبو القاسم الغافقى ، من أَهل غرناطة ، ويُلَقَّب بذى الوَزارتين ، ويعرف بالرُّيه [١] لحُمْرةٍ كانت فى وجهه .

حاله

كان من الفُرسان الشجعان لا يُصْطَلى بناره ، وكان معه من قومه نحوٌ من ثلاث ماية فارس من بنى بِرزال . وولاه الأَمير عبد الله بن بُلُقِّين بن باديس مدينة اليُسانة [٢] ، والتى به ابن عباد وأَخذ بمُخَنَّقها ، وكان

---

(١) كذا فى الإسكوريال والزيتونة . والظاهر أن كلمة « الريه » هذه مأخوذة من الكلمة الاسبانية El Rojo ومعناها الأحمر. وقد كان يتسرب إلى العامية الأندلسية كثير من الكلمات القشتالية .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (اللسانة) . واللسانة ، وتسمى أحياناً اليسانة ، وبالاسبانية Lucena وهى بلدة حصينة من أعمال مقاطعة غرناطة تقع شمال غربى مدينة لوشة على مقربة من نهر شنيل .

عبد الله يَحْذَرُه . وعندما تحقّق حركة اللّمتونيين إليه ، صَرَفَه عن جهته ، فقلَّ لذلك ناصِرُه ، وأسرع ذهابُ أمره .

شجاعته

قال ، وحضر مُقاتل مع عبد الله بن بُلُقّين أمير غرناطة وقِيعةَ النِّيبل فى صدر سنة ثمان وسبعين وأربع ماية ، فأبْلى فيها بلاء عظيما ، وجُرِح وجهُه ، ومُزِّق دِرعه بالطَّعن والضَّرب . وذَكر من حضرها ونجا منها ، قال ، كنتُ قد سقط الرمح من يدى ولم أشعر ، وحَمَلْتُ التِّرس ولم أعلم به ، وحَمَلنى الله إلى طريق مِنْجاة فرَكِبْتُها ، مرَّة أقع ومرَّة أقوم ، فأدركت فارساً على فرس أدْهَم ورُمحه على عاتِقه ، ودَرَقَتُه على فَخْذِه ، ودِرعه مُهتَّكة بالطَّعن ، وبه جُرح فى وجهه يُثعب دما تحت مِغْفَره ، وهو مع ذلك ينهض على رَسْله ، فرجعت إلى نفسى فوجدت ثِقْلاً ، فتذكرت التِّرس ، فأخرجتُ حِمالته عن عاتِقى ، وألقيته عنى ، فوجدت خِفَّة ، وعدتُ إلى العَدْوِ ، فصاح ذلك الفارس ، خُذْ التِّرس ، قلت لا حاجة لى به ، فقال خُذه ، فتركتُه ووليِّت مسرعا ، فهمز فَرَسه ووضع سِنان رمحه بين كتِفَىّ ، وقال خذ الترس ، وإلا أخرجته بين كَتفيك فى صَدرْك ، فرأيت الموت الذى فررت منه ، ورجعت إلى التّرس فأخذته ، وأنا أدعو عليه ، وأسرعت عَدْواً ، فقال لى « على ما كنتَ فليكن عدوّك » . فاستَعَذْتُ وقلت ، ما بعثه الله إلا لهلاكى ، وإذا قطعة من خَيْل الروم قد بَصرت به ، فوقع فى نفسه أنه يُسْرِع الجرى فَيسْلم وأُقْتل ، فلما ضاق الطَّلق ما بينه وبين أقْربِهم منه ، عَطَف عليه كالعُقاب ، وطعنه ففطره ، وتخلَّص الرمح منه ، ثم حمل على آخر فطعنه ، ومال على الثالث فانهزم منه ، فرجع إلىّ ، وقد

بهتٌ من فعله ، ورشاش دم الجُرح . يتطاير من قناع المغْفَر لشدَّة نفسه ، وقال لى يا فاعل يا صانع أتُلقِى الرُّمح ومعك مقاتل الرِّيه .

« انتهى اختصار السفر الثامن والحمد لله رب العالمين

يتلوه فى اختصار التاسع بعده

ومن ترجمة القضاة

مؤمل بن رجا بن عكرمة بن رجا العقيلى من إلبيرة »[1]

---

(١) هذا ما ورد فى المخطوط فى ختام هذا السفر – أى السفر السابع – الذى بدأ بترجمة (محمد بن أحمد بن محمد ابن أبى خيثمة الجبانى (المجلد الثانى ص ٣١٥) ، وهو أكبر أسفار الإحاطة ، ويشغل فى مخطوط الإسكوريال من اللوحة رقم ١ إلى اللوحة رقم ١٨٨ .

ومن السِّفر التاسع من ترجمة القضاة

مُوَمَّل بن رجاء بن عِكْرِمة بن رجاء العُقيلى

من إلبيرة .

حـــاله

كان شيخا مَضْعُوفا يَغْلِب عليه البَلَه ، من أَهل التَّعَيُّن والحَسَب والأَصالة ، عريقاً فى القضاء ، قاض ابن قاض ابن قاض . وُلى قضاء إلبيرة ، للأَمير محمد .

من حكاياته : رَفَعت إليه امرأَة كتابَ صَداقها ، فقال الصَّداق مفسوخٌ ، وأنتما على حَرام ، فافْترقا ، فرّق الله بينكما . ثم رمى بالصَّداق إلى من حوله ، وقال عجباً لمن يدعى [فِقْهاً] [١] ولا يعلمه ، أو يزعم أَنه يُوثِّق ولا يُتْقنه ، مثل أَبى فلان وهو فى المجلس يكتب هذا الصَّداق ، وهو مفسوخ ، ما أَحقَّه أَن يُغَرَّم ما فيه . فدار الصَّداق على يَدَىْ كل من حضر ، وكل يقول ما أَرى موضع فَسْخ ، فقال أنتم أَجهلُ من كاتبه ، لكنى أَعْذُرُكم ، لأَن كل واحد منكم ، يَسْتُر على صاحبه خطأَه ، أَنظروا وأَمنحكم اليوم ، فنظروا فلم يجدوا شيئا يوجب فَسْخاً . فدنا منه محمد ابن فُطَيس الفقيه ، فقال أَصلح الله القاضى ، إن الله مَنَحك من العلم والفهم ، ما نحن مقرُّون بالعجز عنه ، فأُفدنا هذه الفايدة ، فقال ، ادن فدنا منه ، فقال ، أو ليس فى الصداق « ولا يمنعها زيارة ذوى محارمها ، ولا يمنعهم زيارتها بالمعروف » ، ولولا معرفتى بمحبتّك ما أَعلمتُك . فشكره

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (صداقها) .

الشيخ . وأخذ بطَرَفِ لحيته يجرُّه إليه حتى قبَّلها . وكان عظيم اللحية طويلَها ، شيمة أهل هذه الطَّبقة. قال ابن فُطَيس ، أنا المخصوص بالفايدة ، ولا أعرِّفْ بها الاَّ مَنْ تأْذنُ بتعريفه إياها ، فتبسَّم القاضى معجباً بما رأى ، وشَفَعوا إليه أن لا يفسخ الصَّداق ، وقيل للزوجين [١] ، لا تَطْلُبا به عنده شيئا . ووُلِّى قضاء جيّان .

ومن الطاريين والغربا

المهلب بن أحمد بن أبى صفرة الأسَدى

من أهل ألمريّة يكنى أبا القاسم

حـــاله

كان من أدهى الناس وأنْصَحِهم ، ومن أهل التَّعَيُّن والعناية التامة ، واستُقْضى بألمريَّة .

مشـيخته

سمع من أبى محمد الإصبهانى ، ورحل وروى عن أبى ذرٍّ الهَرَوى .

تواليفه : ألف كتابا فى « شرح البخارى » ، أخذه الناس عنه .

وفاته : توفى سنة ست وثلاثين وأربعمائة . وقيل سنة . . .] [٢] .

ومن ترجمة الكتاب والشعراء وهم الأصليُّون

مالك بن عبد الرحمن بن على بن عبد الرحمن بن الفرج

ابن أزرق بن سعد بن سالم بن الفرج

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (للعروسين) .

(٢) وردت هذه الترجمة الموجزة مكتوبة بخط نفس الناسخ فى هامش المخطوط (لوحة 188) فرأينا إثباتها ، وقد محى منها السطر الأخير ، فلم يتيسر لنا قراءته .

المُنْزل بوادى الحِجارة بمدينة الفَرَج المنسوبة إليه الآن .

قال ابن عبد الملك ، كذا كتب لى بخطّه بسَبْتَة ، وهو مصمودى ثم شصّادى مولى بنى مخزوم ، مالَقى ،سكن سَبتْة طويلا ثم مدينة فاس ، ثم عاد إلى سَبْتة مرة أَخرى ، وبآخرةٍ فاس ، يكنى أَبا الحكم وأبا المجد ، والأُولى أَشهر ، ويعرف بابن المُرحَّل ، وصفٌ جرى على جَدِّه على بن عبد الرحمن لمّا رحل من شَنْتَمرِيَّة(١) حين إسْلامها للروم عام خمسة وستين وخمسماية .

حــــاله

قال الأَستاد أبو جعفر بن الزبير ، شاعرٌ رقيقٌ مطبوعٌ ، مُتَقَدِّمٌ ، سريعُ البدَيهة ،رشيقُ الأَغراض، ذاكر للأَدب واللغة . تحرَّف مدَّةً بصناعة التَّوثِيق ببلده ، ووُلى القضاء مراتٍ بجهات غرناطة وغيرها . وكان حسن الكتابة إذا كَتَب ، والشِّعر أَغْلَبُ عليه . وذكره ابن خلاَّد ، وابن عبد الملك ، فأَما ابن عبد الملك فلم يسْتَوْفِ له ما اسْتَوفى لغيره . وأَما ابن خلاّد فقَصُر به ، إذ قال ، كانت نشأته بمالَقة بلده . وقرارة مولده فى ناسها ووسط أَجناسها ، لم يتميَّز بحسب ، ولم يتقدَّم فى ميدان نَسَب ، وإنما أَنهَضَهُ أَدبُه وشعرُه ، وعوَّضه بالظُّهور من الخُمول نَظْمُه ونَثْرُه ، فطَلَع فى جَبِين زمانه غُرَّةً مُنيرة ، ونَصَع فى سِلْك فُصحاءِ أَوانِه دُرَّةً خطيرة ، وحاز من جِيله رُتْبَة التَّقْديم ، وامتاز فى رَعِيله بإدْراك كلِّ معنى وَسِيم . والإِنْصاف

(١) هى شنتمرية الشرق أو شنتمرية ابن رزين ، وبالإسبانية Albarracin وهى مدينة أندلسية ، تقع شرق وادى الحجارة . وكانت أيام الطوائف قاعدة لإمارة صغيرة تحت حكم بنى رزين ، ولما تولى محمد بن سعد بن مردنيش إمارة بلنسية (وشرق الأندلس) كانت شنتمرية ضمن أملاكه ، وهو الذى أسلمها إلى الروم (القشتالين) ، ولكن فى تاريخ أسبق من الذى يورده ابن الخطيب (نحو سنة ٥٥٠ هـ) .

فيه ما ثَبَتَ لى فى بعض التَّقْييدات وهو ، الشيخ المُسِنُّ المُعَمَّر الفقيه ، شاعرُ المغرب ، وأديب صُقْعه ، وحامل الرّاية ، المُعَلَّم بَالشُّهرة ، المثلُ فى الإكثار ، الجامع بين سهولة اللفظ ، وسَلاسَة المعنى ، وإفادة التَّوليد ، وإحكام الاختراع ، وانْقِياد القَرِيحة ، واسْتِرسال الطَّبع ، والنَّفاذ فى الأَغراض . استعان على ذلك بالعِلْم بالمقاصد اللِّسانية ، لغةً وبياناً وعربِيَّةً وعَروضاً ، وحِفْظا واضطِّلاَعا ، إلى نفوذ الذِّهن ، وشدَّة الإدراك ، وقُوَّة العارِضة ، والتَّبْريز فى ميدان اللَّوذعية ، والقِحة والمجَانة ، المؤيَّدُ ذلك بخفَّة الرُّوح ، وذكاءِ الطَّبع ، وحرارة النّادرة ، وحلاوة الدُّعابة ، يقوم على الأَغْرِبة والأَخبار ، ويُشارك فى الفقه ، ويتقدَّم فى حفظ اللغة ، ويقوم على الفَرايض . وتولىَّ القضاء . وكتَبَ عن الأُمراءِ ، وخَدَم واسْتَرْفَد ، وكان مقصوداً من رُواة العِلم والشِّعر ، وطُلاّب الدُلَح ، ومُلْتَمِسى الفوايد ، لسَعَة الذَّرع وانفِساح المعرفة ، وعلوِّ السِّن ، وطِيب المجالسة ، مَهيبا مَخْطُوبَ السَّلامة ، مرهوباً على الأَعْراض ، فى شَدْقه شَفْرَتُه ونارُه ، فلا يتعرَّض إليه أَحد بِنَقد ، أَوأَشار إلى قناته بغَمْز ، إلاَّ وناط به آبدَة ، تركته فى المثلات ، ولذلك بَخَس وزنُه ، واقتُحم حِماه ، وساءت بمحاسنه القالة ، رحمه الله وتجاوز عنه .

مشيخته

تلا بالسَّبع على أَبى جعفر بن على الفخّار ، وأَخذ عنه بمالقَة وعن غيره . وصحب وجالس من أَهلها ، أَبا بكر عبد الرحمن بن على بن دحمان ، وأَبا عبد الله الإستجى ، وابن عسكر ، وأَبا عمرو بن سالم ، وأَبا النعيم رضوان بن خالد ، وانتفع بهم فى الطريقة . وبفاس أَبا زيد اليرناسنى الفقيه . ولقى بإشبيلية أَبا الحسن بن الدّباغ ، وأَبا على الشُلوبين ،

وأبا القاسم بن بقِي ،وأجازوا له. وروى عنه أبو جعفر بن الزبير ، والقاضى أبو عبد الله بن عبد الملكَ وجماعة .

دخــوله غرناطـة

قال ابن الزبير ، تكرَّر قدومه علينا بغرناطة ، وآخر انْفِصالاته عنها آخر سنة أربع وسبعين وستماية ، وقال لى حفيدُه أبو الحسين التِّلمسانى من شيوخنا ، أنْشَد السلطان الغالب بالله ، بمجلسه للنّاس من المقصورة بإزاء الحمراء ، قبل بناء الحمراء . وقال غيره أقام بغرناطة ، وعقد بها الشروط مدة . وقال لى شيخنا أبو الحسن الجيّاب ، وُلى القضاء بجهات من البشارات[1] ، وشكى للسِّلطان بضعف الولاية ، فأضاف إليه حصن أشْكُر يانتشر[2] ، وأمر أن يهمل هذا الاسم ولا يُشكّل ، فقال أبو الحكم رحمه الله عند وقوفه عليه ، قال لى السلطان فى تصحيف هذا الاسم ، « أشكر يا تيس »[2] وهى من المقاصد النبيلة .

تواليـــفه

وهى كثيرة متعدِّدة ، منها شِعره ، والذى دُوِّن منه أنواع . فمنه مختارُه ، وسماه بالجَولات . ومنه ، الصُّدور والمَطالع . وله العَشْرِيات والنَّبويّات على حروف المُعجم ، والتزام افتتاح بيوتها بحرف الرَّوى ، وسماها ، « الوَسيلة الكبرى المرجو نفعها فى الدُّنيا والأُخرى » . وعَشْرياته

(١) البشارات أو البشرات وبالاسبانية Alpujurras ، قد سبق التعريف بها (انظر هذا المجلد من الإحاطة ص ١٦٨ حاشية) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال. وفى الزيتونة (اشكر يانش) . وأشكر أوحصن أشكر ، بالإسبانية Huescar مجلة أندلسية تقع شمالى مدينة بسطة ، فى شمال شرق ولاية غرناطة .

الزُّهديَّة . وأُرجوزته المسماة « سلك المُنْخُلُ لمالك بن المرُحَّل » نظم فيها مُنخل أَبي القاسم بن المَغرِبي ، والقصيدة الطويلة المسماة بالواضحة ، والأَرجوزة المسماة « اللُّؤلؤ والمُرجان » والمُوَطَّأَة لمالك . والأَرجوزة فى العروض . وكتابه فى كان ماذا ، المسمى «بالرَّمى بالحصا» ، إلى ما يَشُقُّ إحْصاره ، من الأَغراض النَّبيلة ، والمقاصد الأَدبية .

شـــعره

قال القاضى أَبو عبدالله بن عبد الملك ، كان مُكثرا من النَّظْم ، مُجيدا ، سريع البديهة ، مُسْتَغْرق الفكرة فى قُرْضه ، لا يُفْتُرُ عنه حينا من ليل أَو نهار . شاهدت ذلك وأَخبرنى أَنَّه دأْبَه ، وأَنه لا يَقدر على صَرْفه من خاطره ، وإخلاءِ باله من الخوض فيه ، حتى كان من كلامه فى ذلك ، أَنه مرضٌ من الأَمراض المُزمنة ، واشتهر نظمه ، وذاع شعره ، فكَلِفَت به أَلسنة الخاصَّة والعامَّة ، وصار رأْسَ مال المُسْتمعين والمُغَنِّين ، وهجيرُ الصَّادرين والواردين ، ووسيلة المُكِدِّين[1] ، وطِراز أَوراد المؤذِّنين وبطايقة[2] البطالين ، ونحن نجتزئ منه بنبذ من بعض الأَغراض تدل على ما وراءِها إن شاء الله . فمن ذلك فى غرض النَّسيب :

دَنِفٌ تستَّر بالغـــرام طويـــلا — حتى تغـــيَّر رقَّـةً ونُحـولا
بُسِط الوِصال فما تمكَّن جالســا — حتى أُقيم على البِساط دليلا
يا سادتى ماذا الجَــزا فَديتُكُم — الفضـلُ لو غيَّر الفتى ما قيلا
قالوا تعــاطَى الصَّبـر عن أَحبــابه — لـو كان يصبر للصُّدود قليلا
ما ذاق إلا شَرْبــةً من هجرنـــا — وكأَنَّه شَـرِب الفُـرات شمُولا

(١) وردت فى الإسكوريال . (الم) فقط بعدها بياض والتكلة من الزيتونة .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ومطامة) .

أيقول عِشْتُ وقد تملكه الهوى ... لو قال مُتُّ لكان أقْوَم قيلا
حَلَف الغرام بحبِّنا وجَمالنا ... إن لم يدعه ميِّتا فعليلا
إن الجُفُون هى السُّيوف وإنما ... قَطَعت فلم تسمع لهنَّ صَليلا
قل لِلْمحبيب ولا أصرِّح باسمه ... ماذا المَلال وما عهدتُ مَلُولا
بينى وبينك ذِمَّة مرعِيَّة ... أتراك تقطع حَبْلها المَوْصولا
ولكم شَرِبْتُ صفا وُدِّك خالصاً ... ولَبِستُ ظلا من رِضاك ظليلا
فيا غُصْن بانٍ بانَ عنى ظلُّهُ ... عند الهَجير فما وجدت مَقيلا
إعطف على المُضْنى الذى ... أحْرَقتَه فى نَار هجرك لوعةً وغليلا
فارقتَه فتقَطَّعت أفلاذُه ... شوقاً وما أَلْفَى اليك سبيلا
لو لم يكن منك التَّغيُّر لم يَسَلْ ... بالناس لو حَشَروا إليه قَبيلا
يا راحلاً عنى بقلبٍ مُغْضَبٍ ... أيطيقُ قلبى غَضْبَةً ورَحيلا
قل للصَّبا هيجَّتَ أشجان الصبِّا ... فوجدتَ يا ريحَ القبول قبولا
هل لى رسول فى الرياح فاز من ... فارقته بعث النسيم رسولا
يا ليت شعرى أيـن قرّ قرارُه ... يا قلبُ ويْلك أما وجَدْت دليلا
إن لم يعد ذاك الوصال كعهدنا ... نكَّلتُ عَيْنى بالبُكا تَنْكيلا

وقال نسيباً ومدحاً :

أعْدَى على هواه خصم جفونه ... مالى به قِبَلٌ ولا بفنونُه
إن لم تُجْرنى منه رحمةُ قَلْبه ... من ذا يُجير عليه مِلْكُ يمَينه
صاب من الأَتراك أصبى مُهْجتى ... فعَبَدْتُ نور الحُسن فوق جَبينه
متمَكِّن فى الحُسن نون صِدغه ... فتبيَّن التَّمكين فى تَنوْينه
تَنْساب عقربُ صِدغه فى جنَّة ... لم يَجْنِ منها الصَّبُّ غير مُنونه

ولوى ضَمِيرته فولّى مُدْبراً ... فعل الكَليم ارتاع من تبْيينه
قد أطْمَعَتنى فيه رقَّةُ خدِّه ... لو أمْكَنَتنى فيه رقَّةُ دينه
ورجوتُ لينَ قِوامه لو لم يكن ... كالرُّمح شِدَّةُ طَعْنه فى لِينه
شاكى السِّلاح وما الذى فى جَفْنه ... أعْدَى علىَّ من الذى بِجُفُونه
ناديتُه لما نَدَت لى سينُه ... وشعرتُ من لفظ السَّلام بسِينه
رحماك فى دَنِف غدا وحياتُه ... ممَّاتُه وحِراكه كسُكُونه
إن لم تمنَّ علىَّ منَّةَ راحم ... فمُناه أن يلقاه رَيْبُ مُنونه
ولذا أبيتُ سوى بِمات عدوِّه ... فأمانُه من ذاك ظَهْرُ أمونه
سُنيخُها فى باب أروع ماجد ... فيرى محلَّ الفصل حقَّ يقينه
حيث المعارف والعوارف والعلا ... فى حدِّ مجد جامعٍ لفُنونه
بدرٌ وفى الحسن بن احمد التَقَتْ ... نُجُبٌ مرَرْن على العطا بركوبه
تبغى مُناها فى مِناها عنده ... وتطوف بالحاجات عند حَجونه
فرعٌ من الأصل اليمانى طيِّبٌ ... وَرِثَ البيان وزاد فى تَبْيينه
يُبدى البشاشة فى أسرَّة وجهه ... طَوراً ويحمى العزَّ فى عِرْنينه
بُسطت شمايله للزمان كمثل ما ... بَسط الغِنا نفوسَنا بلُحونه
يُثنى عليه كلُّ فِعْل سايرٍ ... كالمسْك إذ يثنى على دارينه (١)

ومن النَّسيب قوله :

هو الحبيب قضى بالجور أم عَدَلا ... لِىَّ الخيار وأما فى هواه فلا
تالله ما قصَّر العُذّال فى عَذْلى لكن ... أَبَتْ أُذنى أن تسمع العَذَلا
أما السُّلُو فشئ لست أعرفه ... كفى بخِلِّك غَدْراً أن يُقال سلا
جُفون غيرى أَضْحت بعدما قطرت ... وقلبُ غيرى صحا من بعد ما ثَمِلا

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (صارينه) .

وغُصن بانٍ تثَنَّى من معــاطفه ... سقيتُه الدَّمـع حتى أثمـر العَذَلا
آثره نسـيمُ الشِّعـر آونـةً ... فكلمـا مال من أَعْطـافه اعْتَدلا
أَمَلْتُ والهمـة العليـاء طامحـة ... وليس فى الناس إلا آملٌ أَمـلا
وقـال إيهًا طُفيـلى ومُقترح ... أَلستَ عَبْدى ومملوكى فقلتُ بَلا
ما مَنْ تحدَّث عن حُسنى وعن كَلَفى ... بحسنه وبحبى فأَضْرِب المَثلا
نيِّطتُ خدِّى خوف القبض من ملكه ... إذا أَشار بأَدنى لحظِه قَتَـلا
تُقبِّل الأَرض أعضـائى وتخدمه ... إذا تجلَّـى بظهر الغيب واتَّصلا
يا مَنْ له دولة فى الحُسْن باهـرةٌ ... مِثلى ومثلُ فـؤادى يخدم الدُّوَلا

ومن نظمه فى عَروض يخرج من دوبيْتى مجزوًا مُقْصرا قوله . ومُلَحه فى اختراع الأَعاريض كثيرة :

الصبُّ إلى الجمال مايل ... والحبُّ لصـدقه دلايـل
والدمع لسايلى جـواب ... إن روجع سائل بسـائل
والحُسْن على القلوب وال ... والقلب إلى الحبيب وابل
لو ساعد من أُحِبُّ سَعْدٌ ... ما حال من الحبيب حَايل
يا عَاذِلى إليك عنِّى لا ... تُقـرِّب ساحتى العـواذل
ما نازلى(١) كمثل ظبى ... يَشْفى بلحظة المُنـازل
ما بين دفونه حُسـام ... مخـارقه لـه حمـايل
والسيف يَبِتُّ ثم يَنْبُـو ... واللحظ يُطبق المَفاصـل
والسهم يُصيب ثم يُخطى ... واللحظ يمرُّ فى المقاتل
مهلاً فَدمى لـه حـلال ... ما أَقبلُ فيه قولَ قـايل
إن صدَّنى(٢) فذاك قصدى ... أَو جدَّلنى فـلا أُجـادل

(١) وردت فى الإسكوريال (ما نازل) والتصويب من الزيتونة .
(٢) وردت فى الإسكوريال (انصدى) والتصويب من الزيتونة .

يا حسن طلوعه علينا — والسُّكر بمعطفيه مايل
ظمآن مُخَفَّف الأعالى — ريَّان مثقَّل الأسافل
قد نمَّ به شذا الغوالى — إذ هبَّ ونمّت الغلايل
والطيب منبِّهٌ عليه — من كان عن العيان غافل
والغَنْجُ مُحرِّك إليه — من كان مُسَكِّن البلابل (١)
والسِّحر رسولُ مُقْلتيه — ما أقرب عهده ببابل
والروض يعير وجنتيه — ورداً كهواى غير حايل
واللين يَهُزُّ معطفيه — كالغُصن تَهزُّه الشَّمايل
والكاس تلوح فى يديه — كالنَّجم بأسْعد المنازل
يُسقيك بريقه مُداما — ما أملح ساقياً مُواصل
يُسْبيك برقَّة الحواشى — عِشقاً ولكافَّة الشمايل
ما أحسن ما وجدت خداً — إذ نجم صِباى غير آفل

ومن مستحسن نزعاته :

يا راحِلين وبى من قربهم أملُ — لو أغنت الحِلْيتَان لى القولُ والعملُ
سِرْتُم وسار اشتياقى بَعْدَكم مثلاً — من دونه السَّامِران (٢) الشِّعر والمثَل
وظلَّ يَعْذِلُنى فى حبِّكم نَفَر — لا كانت المحْنَتان (٣) الحبُّ والعَذَل
عطفاً علينا ولا تَبْغُوا بنا بَدَلاً — فما استوى التَّابعان العطف والعمل
قد ذقت فضلكم دهرا فلا وأبى — ما طاب لى الأحمران (٤) الخمر والعسل
وقد هَرِمت أسًى من هجركم وجوًى — وشبّ منى (٥) اثنتان الحرصُ والأملُ

(١) هذا البيت وارد فى الإسكوريال وساقط فى الزيتونة .
(٢) هكذا وردت فى الزيتونة والجذوة . وفى الإسكوريال (الساران) وهو تحريف .
(٣) هكذا وردت فى الزيتونة . ووردت فى الإسكوريال (المحتنان) .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال والجذوة . ووردت فى الزيتونة (الحمران) .
(٥) وردت فى الإسكوريال (من) والتصويب من الزيتونة .

غدرتم أو مللتم ياذَوى ثِقتى … [لَبيستْ الخَصْلتان](١) الغَدْروالمَلَل
قالوا كَبِرْتَ ولم تَبْرح كذا غَزِلاً … أَزْرَى بلك الفاضحان الشَّيب والغَزَل
لم أنس يومَ مانادوا للرحيل ضُحى … وقَرُب المرْكبَان الطِّرْف والجَمَلُ
وأشْرَقَت بهواديهم هــوادجهم … ولاحت الزِّينتان الحَلْى والحُلَل
وودَّعونى(٢) بأَجفان مرَضة تَغُضُّها … الرَّقْبتَــان الخـوفُ والخَجـل
كم عمَّروا بين أيدى العِيس من بطل … أَصابه المُضْنِيان الغَنْجُ والكَحَل
دَارَتْ عليهم كؤوس الحبِّ مُتْرَعة … وأبا المُسْكِران الخمــر والمُقَل
وآخرين اشْتَفوا منهم بضمِّهــم … يا حبَّذا الشافيان الضَّم والقُبَــل
كأنما الرَّوض منهم روضة أُنُفٌ … يُزهى(٣) بها المثْبتان السَّهل والجبل
من لمستَرق الرَّوانى والوِهاد بهم … ماراقه المُعجبان الخَصْر والكَفَل
يا حادى العِيس خُذْنى مأْخذاً حسنا … لا يستوى الضِّدَّان الرَّيْثُ والعَجَل
لم يبق لى غير ذكر أو بُكا طَلَل … لو ينفع الباقيان الذِّكر والطَّلَلُ
يا ليت شعرى ولا أُنْسٌ ولا جَذَل … هل يُرفع الطَّيِّبان الأُنس والجَذَل

ومن قوله على لسان أَلْثَغ ينطق بالسِّين ثاءً ويقرأ بالرَّوِيَّين :

عَمرْتُ رَبْع الهوى بقلب … لقوَّة الحبِّ غير ناكس ث
لبثت فيه أجرُّ ذيل النُّحول … أَحْبِــبْ بــه لِلاَّبس ث
إن مِتُّ شوقاً فلى غــرام … نَباته بالسِّــقام وادِس ث
أمَّا حديث الهـــوى فحقٌ … يصرف بلْواه كل حادِس ث
تَعِبْتُ بالشَّوق فى حبيب … أنا به ما حُيِّيت يابِس ث

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الزيتونة والجذوة . ووردت فى الإسكوريال كالآتى (لبيست الحميلتان) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (ودعوا) . والتصويب من الزيتونة .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة (يهى) .

يَختال كالغُصْن مادَ فيه ... طرفٌ فأزْرَى كلَّ مايس ث
دُنيـــا تَبدَّت لـكلٍّ وأىّ ... فهو لدُنيـاه أىُّ حارِس ث
يلعب بالعاشـقين طُرّا ... والكلُّ راضون وهو عابس ث

ومن شعره فى الزهد يصف الدنيا بالغرور والخدايع والزُور :

يا خاطب الدنيا طلَبْت غروراً ... وقَبلتَ من تلك المحاسن زُورا
دنياك إمَّا فِتْنة أو مِحْنـة ... وأراك فى كِلْتَيهما مقهورا
وأرى السنين تمرُّ عنك سريعةً ... حتى لأحسَبُهُنَّ صِرْنَ شهـورا
بينا تريك أهلَّةً فى أفْقهـا ... أبصرتَها فى إثر ذاك بُـدورا
كانت قِسِياً ثم صِرْن دوايـرا ... لابدَّ أن تَرْمى الورى وتَـدُورا
يأتى الظلام فما يسود رُقْعةً ... حتى ترى مَسْـطُورها منشُورًا
فإذا الصباح أتى ومدَّ رداءَه ... نَفَضَ المساءُ رداءَه المنشورا
يتعاقبان عليك هذا ناشـر ... مِسْكًا وهذا ناشر كافــورا
ما المسْك والكافور إلاَّ أن ترى ... من فِعلك الإمْسـاك والتَّكبيرا
أمْسَى على فَوْدَيْك من لونَيْهما ... سِمَةٌ تَشُوم كآبةً وبُســورا
حتى متى لا تَرْعوى وإلى متى ... أوَ ما لقِيتَ من المشيب نَذِيرا
أخشى عليك من الذُّنوب فربما ... تَلْقَى الصَّغير من الذنوب كبيرا
فانظر لنفسك إننى لك ناصح ... واستَغْفِر المولى تَجدْه غفورا
من قَبْل ضَجْعَتِك التى تَلْقَى لها ... خدَّ الصِّغار على التُّراب حَقيرا
والهَوْلُ ثم الهول فى اليوم الذى ... تجد الذى قدَّمْتَه مَسْـطورا

وقال فى المنى المذكور :

إشْفِ الوَجْد ما أبكى العُيونا ... وأشْفِى الدَّمع ما نَكَأ الجُفُونا

فيا ابن الأربعين اركَبْ سفيناً　　من التَّقوى فقد عَمَرْتَ حِينا(١)
ونُح إن كنت من أصحاب نوح　　لكى تنجو نجاة الأربعينا
بدا الشَّيْبُ فى فَوْدَيك رَقْمٌ　　فيا أهل الرَّقيم أتَسْمَعُونا
لأنْتُم أهلُ كَهْف قد ضَرَبْنا　　على آذانهم فيه سنينا
رأيتُ الشَّيْب يجرى فى سواد　　بياضاً لا كعَقْل الكاتِبينا
وقد يجرى السَّواد على بياض　　فكأنَّ الحُسْن فيه مستبينا
فهذا العكس يوذن بانعكاس　　وقد أُشْعِرتم لو تشعرونا
نباتٌ هاج ثم يُرى حُطاماً　　وهذا اللَّحَظ قد شمل العُيونا
نذيرٌ جاءكم عريان يعدو　　وأنتم تضحكون وتلعبونا
أخى إلى متى هذا التَّصابى　　جُنِنْتَ بهذه الدنيا جُنونا
هى الدنيا وإن وَصَلت وبَرَّت　　فكم قطعت وكم تركت بنينا
فلا تخدعنك أيسام تليها　　ليال واخْشَها بيضاً وجونا
فذاك إذا نظرتَ سلاح دنيا　　تُعيد حراك ساكنها سُكونا
وبين يديك يومٌ أيُّ يوم　　يدينُك فيه ربُّ الناس دينا
فإما دار عِزٍّ ليس يَفْنى　　وإما دار هَوْن لن يَهُونا
فطُوبى فى غد للمتَّقِينا　　وويلٌ فى غد للمُجْرِمينا
وآه ثم آه ثم آه على نفسى أكررها مِئينا
أخَىْ سمعتَ هذا الوعظ أم　　لا ألاَ لَيْتنى فى السامعينا
إذا ما الوعظ لم يُورد بصدق　　فلا خُسْرٌ كخُسْر الواعظينا

وقال يتشوق إلى بيت الله الحرام ، ويمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم

شوق كما رُفعت نارٌ على عَلَم　　تَشِبُّ بين فروع الضَّال والسَّلم
ألفَه بضلوعى وهو يُحرقها　　حتى بَرانى بَرْياً ليس بالقَلَم(٢)

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الزيتونة (مبينا) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (للقلم) .

من يَشْترينى بالبُشرى ويملِكنى | عبداً إذا نَظَرت عينى إلى الحرُم
دَعْ للحبيب ذِمامى واحْتَمـل | رَمَقِى فليس ذا قَدْمٍ من ليس ذا قِدم
يا أهل طِيبَة طاب العَيْشُ عندكم | جاوَرْتم خير مبعوثٍ إلى الأُمم
عاينتم جنَّة الفِردوس من كَثَب | فى مَهْبِط الوحى والآيات والحِكم
لنتركنَّ بها الأَوطان خاليـةً | ونَسلكنَّ لها البَيْداءَ فى الظُّلم
رِكابُنا تحمل الأَوزار مُثْقَلة | إلى محطِّ خطايا العُرْب والعَجَم
ذنوبنا يا رسول الله قد كَثُرت | وقد أَتَيْناك فاستغفر لمجْتَرِم
ذنبٌ يليه على تَكْراره ندمٌ | فقد مضى العُمْر فى ذَنْب وفى نَدَم
نبكى فَتُشْغلنا الدنيا فتُضْحِكنا | ولو صَدَقنا البكا شِبْنا دماً بدَم
يارِكبَ مصر رُويدا يلتحق بكم | قومٌ مغـاربةٌ لحمٌ على وَضَم
فيهم عُبَيْد تسوق العيسُ زَفْرتَه | لم يَلْق مولاه قد ناداه فى النَّسم
يبغى إليه شفيعاً لا نَظير له | فى الفضل والمجد والعَلياءِ والكرم
ذاك الحبيب الذى تُرجى شفاعتُه | محمدٌ خير خَلْقِ الله كلِّهم
صلى عليه إلَهُ الخَلْق ما طَلَعت | شمسٌ وما رُفعت نارٌ على علَم

ومن مقطوعاته العجيبة فى شتى الأَغراض، وهى نقطة من قَطْر، وبَلالة من بحر، قوله مما يكتب على حمالة سيف، وقد كَلِف بذلك غيـره من الشعراءِ بسَبْتَة. فلما رآها أخفى كل منظومه، وزعم أنه لم يأْت بشيءٍ، وهو المخترع المُرْقِص :

جماله كرياض جاورت نهرا | فأَنْبَتَت شجراً راقت أَزاهِرُها
كحيَّة الماءِ عامَتْ فيه وانصرفت | فغاب أَوَّلُها فيه وآخـــــرها

وقوله وقد تناول الرئيس ابن خلاص[1] بيده مِقصًا فأدمى يده فأنشده :

عداوةٌ لا لكفِّك من قَدْ نَمْ   فلا تعجب لِقرّاض لئيم
لئن أدْماك فهو لها شبيهٌ   وقد يسطو اللَّئيم على الكريم

وقوله فى الخِضاب :

سترتُ مَشيبي بالخِضاب تعلُّلا   فلم يَخْطَ فشيبٌ وراب خِضابى
كأنِّىَ وقد زوَّرتُ لونا على الصِّبا   أُعَنْون طِرْساً ليس فيه كتاب
غُراب خِضاب لم يقف من حِذاره   وأَغْرَبُ شيء فى الحِذار غُراب

وقوله وهو من البديع المخترع :

لابدَّ من مَيل إلى جهة فـلا   تَنكر على الرجل الكريم مميلا
إنَّ الفؤاد وإن توسَّط فى الحشا   لَيميلَ فى جهة الشَّمال قليلا

وقوله وهو معنى قد قيل فيه :

لا تعجبوا للمرءِ يَجهل قَدْره   أَبَدًا ويعرف غيره فيَصِير
فالعين تُبْصر غيرها مع بُعده   ولكن نَفْسَها لا تُبْصـر

وقوله :

أَرى المتعلِّمين عليك أعداء   إذا أعلمتهم من كل عـاد
فما عند الصَّغير سوى عُقوق   ولا عند الكبير سوى عِناد

وقوله فى وصفه ذى الجاه :

يضع الناس صاحب الجاه فيهم   كل يوم فى كفَّة الميـزانْ
إن رأوه يوما تَرَجَّح وزنـاً   ضاعفوا البرَّ فهو ذو رُجحانْ

---

(١) هو الرئيس أبو على بن أبى جعفر بن خلاص البلنسى ، تولى حكم سبتة من قبل الموحدين فى سنة ٦٣٤ هـ ، ثم خلع طاعة الخلافة الموحدية فى سنة ٦٤٢ هـ ، واعترف بطاعة الدولة الحفصية بتونس .

أو رأوا منه نقصَ حبَّة وزن ما كسوه فى حبَّة الجُلْجُلان

وأنشدنا عنه غير واحد من شيوخنا وقد بلغ الثمانين :

يا أيها الشيخ الذى عُمْرُه قد زاد عَشراً بعد سَبْعينا
سَكِرتَ من أكؤس خَمْر الصِّبا فحدَّك الدهر ثمانينا

وقال ، هيهات ما أظنه يُكملها ، وقال فى الكَبْرة :

يا من لشيخ قد أسَنَّ وقد عفَا مذ جاوز السَّبعين أضحى مُدْنَفا
خانتْه بعد وفايها أعضاؤه فغدا قَعيداً لا يُطيق تصرُّفا
هَرِماً غريبا ما لديه مُؤانس إلاَّ حديث محمد والمصطفى

وكتب إلى القاضى أبى الحجاج الطُّرسونى فى مراجعة :

يا سيدى شاكركم مَالِك قد صَيَّرت ميم اسمه هاءَ
ومن يَعِش خمساً وتسعين قد أنْهَى فى التعمير إنهاءَ

ومن نظمه فى عُرْسٍ ، صَنعَها بسَبْتَة على طريقه فى المجَانة :

الله أكبر فى منار الجامع من سَبْتة تاذين عَبْد خاشع
الله أكبر للصَّلاة أُقيمُها بين الصُّفوف من البلاط الواسع
الله أكبر مُحْرِماً ومُوَجِّهاً ودِبْرةٌ إلى ربِّ بقلب خاضع
الحمد لله السلام عليكم آمين لا تُفتح لكل مخادع
إن النِّساء خَدَعْنَنى ومكَرن بى ومَلأْن من ذكر النساءِ مَسامع
حتى وقعتُ وما وقعتُ بجانب لكن على رأْسٍ لأَمرٍ واقع
والله ما كانت إليه ضرورة لكن أمْرَ الله دون مُدَافع
فَخَطبن لى فى بيت حُسْن قُلن لى وكَذَبْن لى فى بنْت قُبح شانع
بِكْراً زعمن صغيرةً فى سنِّها حسناءُ تُسفر عن جمال بارع
نحوداً لها شَعْرٌ أَثِيثٌ حالك كالليل تُجلى عن صباح ساطع

حَوْراء يرتاع الغزال إذا رَنَتْ — بجُفون خَشْفٍ[1] فى الخمايل رافع
تتلو الكتاب بغُنَّة وفصاحة — فيميل نحو الذِّكر قلبُ السامع
بسَّامة عن لؤلؤ متناسق — فى ثغرها فى نظمه مُتَتابع
أَنفاسُها كالرَّاح فضَّ ختامُها — من بعد ما خُتمت بمِسْكٍ رائع
شمَّاءَ دون تَفاوت عربيَّةٌ — ببسالة وشجاعة ومَنازع
غَيْداء كالغصن الرَّطيب إذا — مَشَتْ ناءت بردْفٍ للتعجُّل مانع
تخطو على رِجْلَى حَمامةٍ أيكةٍ — مخْضُوبة تُسْبى فؤاد السامع
وَوَصَفْنَ لى من حسنها وجمالها — ما البعض منه يُقيم عُذْر الخالع
فدنوت واستأمنتُ بعد توحُّشى — وأطاع قلبٌ لم يكن بمطاوع
فحَمَلْننى نحو الونىِّ وجئننى — بالشَّاهدين وجلد كبش واسع
وبعرفه من نافع لتعادل — والله عز وجلّ ليس بنافع
فشَرَطْن أشراطا علىَّ كثيرةً — ما كنت فى حَمْلى لها بمطاوع
ثم انفصلتُ وعلمتُ بأَننى — أُوثِقْتُ فى عنقى لها بجوامع
وتَرَكْنَنى يوما وعِدْن وقلن لى — خُذْ فى البِناء ولكن بمرافع
واصنع لها عُرْساً ولا تحوج إلى — قاضٍ عليك ولا وكيلٍ رافع
وقرعتُ سِنِّى عند ذاك ندامةً — ما كنت لولا خُدعت بقارع
ولزِمْتنى حتى انفصلتُ بموعد — بعد اليمين إلى النهار الرابع
فلو اننى طَلَّقتُ كنت موفَّقاً — ونَفَضْتُ من ذاك النكاح أصابع
لكن طمعت بأَن أرى الحُسْن الذى — زَوَّرن لى فذَمَمْتُ سوءَ مطامع
فنظرتُ فى أَمر البناء مُعَجِّلا — وصنعتُ عُرْساً يالها من صانع
وطمعتُ بأَن تَجلى ويُبْصَر وجهها — ويَقَرُّ عينى بالهلال الطَّالع

---

(١) الخشف هو ولد الظبية .

وظننتُ ذاك كما ذَكَرْنَ ولم يكن		وحَصَلتُ أيضاً فى مقام الفازع
وحَمَلْننى ليلا إلى دار لهــا		فى موضع عن كل خير سامع
دارُ خرابٍ فى مكان تَوَحُّشٍ		ما بين آثار هنـاك بَلاقِــع
فقعدتْ فى بيت صغير مظلم		لاشيءَ فيه سوى حَصِير الجامع
فسمعتُ حساً عن شمالى مُنْكَرًا		وتنحنحاً يحكى نَقِيق ضفادع
فأَردتُ أن أنجو بنفسى هاربا		ووثبتُ عند الباب وثْبَة جازع
فلقِيتُهنَّ وقد أَتَيْن بجَذْوة		فردَدْننى وحبَسْنَنى بمجــامع
ودخَلْن بِى فى البيت واسْتَجْلَسْنَنى		فجلستُ كالمضْرور يوم زَعازِع
وأَشَرْن لى نحو السَّما وقلن لى		هذى زُوَيبعة وبنتُ زوابــع
هذى خَلِيلتك التى زَوَّجتها		فاجلس هنا معها ليوم ٍ سابع
وبتنا النُّعمى التى خُوِّلتها		فلقد حَصَلْتُ على رياض يانع
فنظرت نحو خَليلتى [متأَمِّلا][1]		فوجدتهــا محجـوبة ببـــراقع
وأَتيتها وأَردت نزْع خِمارها		فغَدت تُدافعنى بجدٍّ وازع
فوجَلْتُها فى صدرها وحذوته		وكشفتُ هامَتها بغيظ صارع
فوجدتها قَرْعاء تحسب أنّهـا		مَقْروعة فى رأسها بمقــارع
حَوْلاء تنظر فوقها فى ساقها		فتخالُها مَبهوتةً فى الشـارع
فَطْساء تحسبُ أن رَوْثة أنفها		قُطعت فلا شُلَّت يمين القاطع
صمَّاء تُدعى بالبريح[2] وتارة		بالطَّبل أو يُؤتى لها بمقامع[3]
بَكماء إن رامَتْ كلاما صوتت		تصويتَ مِعزى نحو جَدْى راضع

---

(١) هكذا وردت بالزيتونة . ومكانها بياض بالإسكوريال .

(٢) البريح هنا معناها ، التعب .

(٣) جمع قمعة . وهى عبارة عن ذباب أزرق ضخم يدخل أنوف الدواب . ويهاجم الإبل إذا اشتد الحر ويلسعها .

فَقماء إن تلتقى أَسْنانُها تَفْسُو إذا نطقَت فساء الشابع
عرجاء إن قامت تعالج مشيها أَبْصَرْتَ مِشْية [ضالع أوخامع][1]
فلقيتها وجعلت أَبْصق نحوها وأَفرُّ نحو دُجاً وغيثٍ هامع
حيرانُ أَغدو فى الزُّقاق كأَننى لصٌّ أَحِسُّ بطالب أَو تابع
حتى إذا لاح الصباح وفتّحوا باب المدينة كنت أَوَّل كاسع
والله مالى بعد ذاك بأَمرها علمٌ ولا بأُمور بَيْتى الضَّايع

نثره

وفضَّل الناس نظمه على نثره ؛ ونحن نُسَلِّم ذلك من باب الكثرة ، لا من باب الإِجادة . وهذه الرسالة مُعْلمة بالشهادة بحول الله .

كتب إلى الشيخين الفقيهين الأَديبين البليغين أَبى بكر بن يوسف بن النخّار وأَبى القاسم خلف بن عبد العزيز القبتورى :

« لله دَرُّكما حَلِيفى صفاء ، وأَليفى وفاء ، يتنازعان كاس المودَّة ، تنازع الأَكْفاء ، ويتهاديان رَيحان التحية تهادِى الظُّرفاء . قَسِيمَى نَسَب ، وقريعى حَسَب ، يتجاوزان بمطبوع من الأَدب ومُكْتَسب ؛ ويتواردان على عَلَم من الظَّرف ونسب ، رَضِيعَى لِبان ، ذَرِيعى لُبان ؛ يَحْرزان ميراث قُسٍّ وسَحْبان ، ويُبرزان من الذَّكاء ، ما بان على أَبان ، قَسِيمى مجال ، فَصيحى رويَّة وارتجال ، يَتْرعان فى أَشطان البلاغة ، سجالاً بعد سجال ، ويَصْرعان فى ميدان الفصاحة رجالاً على رجال . ما بالكما لا حُرِمت خبالُكما ولا قُصمت نبالُكما ، لم تَسْمحا لى من عُقُودِكما بدُرَّة ، ولم تُرشِّحانى من نُقُودكما بَذْرة ، ولم تفسحا لى بحُلْوة ولا مُرَّة . لقد ابتُلِيتُ من أَدبكما بنهر أَقْربُه ولا أَشْرَبُه ، وما أُرده ولا أَتبرَّده . ولو كنت من أَصحاب

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الخامع أو ضالع) .

طالوت لا فُسِحت لى غُرفة ، وأُتِيحَت لى تُرفة . بل لو كنت من الإبل ذوات الأَظماء ، ما جُليت بعد الظَّمإ عن الماء ؛ ولا دخلتُ بالإشفاق مدخل العجماء . كيف وأنا ولا فخر فى صورة إنسان ، ناطق بلسان . أُفرِّق بين الإساءة والإحسان . وإن قلت إنَّ باعى فى النَّظم قصير ، ومالى على النَّثر ولىٌّ ولا نصير ، وصَنْعة النحو عنى بمعْزِل ؛ ومنزل الفقيه ليس لى بمنزل ، ولم أُقدِم على العِلم القديم ، ولا استأثرت من أَهله بنديم . فأنا والحمدلله غنىٌّ بصَنْعة الجَفْر ، وأَقتنى اليَراع كأَنها شبابيك التِّبر ، وأُبْرى البريَّة المغا تنيف على الشِّبر ، وأُزين خُدود الأَسطار المُسْتوية ، بعقارب اللَّامات المُلْتوية ، ولا أَقول كَأَنها ، فلا ينكر السيدان أَعزَّهما الله ، أَنها نعم بعود أَزاعم ، وبمثل شكَسى تُحْضَر الملاحم . فما هذا الازدراءُ والاجتراءُ فى هذا الأَمر مر المواقير . تالله لقد ظَلَمتمانى على عِلم ؛ واستَنْدتما إلى غير حِلم ؛ أَما رَهِبْتُما شَبابى ، أَما رغبتما فى حسابى ، أَما رفعتما بين نفح صبابى ، ولَفْح صِبابى . لعمرى لقد رَكِبتما خطرا ، وهِجْتُما الأَسد بَطْرا ، وأَبحتما حِمًى مُحْتضرا ، ولم تمعنا فى هذا الأَمر نَظَرا .

أَعِدْ نظراً يا عبدَ قيس لعلَّما أَضاءَت لك النَّار الحِمار المقَيَّدا

ونفسى عينُ الحمار فى هذا المضْمار ، لا أَعرف قبيلا من دَبير ، ولا أُفرِّق بحِسِّى بين صغير وكبير ، ولا أَعهد أَنَّ حصاة الرَّمْى أَخفُّ من ثَبير ، أَليس فى ذوى كبد رُطْبة أَجر ، وفى معاملة أَهل التَّقوى والمغفرة تَجْر ، وإذا خوَّلتُمانى نِعْمة ، أَو نَفَلْتمانى نفَلاً ؛ فاليَدُ العُليا خير من اليد السُّفْلى ، وما نَقَص مال من صَدَقة ، ولا جمالٌ من لَمْح حَدَقة ، والعِلْم يزيد بالإنفاق ، وكَتْمُه حرامٌ باتفاق ، فإن قلتما لى إنَّ فهمك سَقيم ، وعِوَجُك على الرِّياضة لا يستقيم ، فلعلَّ الذى نَصَب قامتى ، يمنُّ باستِقامتى ، وعسى

الذى يَشُقُّ سمعي وبصرى ، أن يزيل عِيٍّ وحَصَرى ، فأعِى ما تَقُصَّان ، وأجْتَلِى ما تَنُصَّان ، وأجْنِى ثِمار تلك الأغصان ، فقد شاهَدْتما كثيراً من الحيوان ، يُنَاغى فيتعلَّم ، ويُلَقَّن فيتكلَّم . هذا والجِنْس غير الجنس ، فكيف المُشارك فى نَوْعِيَّة الإنْس ، فإن قلنا إن ذلك يَشُقُّ ، فأين الحقُّ الذى يَحِق ، والمشقَّة أختُ المروة ، وينعكس مَساق هذه الأُخُوَّة ، فيقال المروة أختُ المشقَّة ، والحَجيج يصبر على بُعد الشُّقَّة ، ولولا المشقَّة ، كثُر السَّادة ، وقلَّت الحَسادة ، فما ضرَّكما أيها السيِّدان ، أن تَحْسِبا تحويجى ، وتكتسبا الأجر فى تدْريجى ، فإنكما إن فعلتما ذلك ، نُسِبت إلى ولايكما ، كما حُسِبت على علايكما ، وأُضِفْتُ إلى نَدَيكُما ، كما عُرِّفت بمنْتَداكما . ألم تعلما أنَّ المرءَ يُعرف بخَلِيله ، ويُقاس به فى كثِيره وقَلِيله ، ولعلِّى أُمْتَحن فى مَرام ، ويَعْجِم عودى رام ، فيقول هذا العُود من تلك الأعْواد . وما فى الحَلْبة من جَواد ، فأكْسُوكُما عاراً ، وأكون عليكما شِعاراً . على أنى إذا دُعيت باسمكما ، استَرَبْتُ من الإدعاء ، فلا أستجيب لهذا الدُّعاء ، ولكن أقول كما قال ابن أبى سفيان ، حين عرف الإدارة ، وأنكر الإمارة ، نعم أُخُوَّتى أَصح ، وأنَّها بها أشح ، إلا أنَّ غيرى نُظم فى السِّلك ، وأسْهم فى المُلْك ، وأنا بينكما كالمحجوب بين طُلاَّب ، يشاركهم فى البُكا لا فى التُّراث ، إن حضرت فكنتم فى الإقحام . أو لمقعدٍ فى زحام ، وإن غِبْت فيُقْضى الأمر ، وقد سَطَر زيد وعمرو . ناشدتكما الله فى الإنصاف ، أن تَرْبعا بوادٍ من أوْدِية الشَّحْر . فى نادٍ من أندية الشِّعر بل السِّحر ، حيث تَنْدرج الأنهار ، وتتأرَّج الأزهار ، ويتبرَّج الليل والنهار ، ويقرأ الطير صُحُفًا مُنتشرة ، ويجلو النور ثُغورا مؤشَّرة ، ويُغازل عيون النَّرجس الوَجِل خدُود الورد الخَجِل . وتمايل أعطاف البان ، على أرْداف الكُثْبان ، فيرقد

النسيم العليل فى حِجر الرَّوض وهو بَليل ، وتَبْرُز هوادج الرَّاح على الرَّاح ، وقد هُدِيت بأَقمار ، وحُدِيت بأزهار ومِزْمار ، وركبتها الصَّبا والكُمَيت فى ذلك المِضْمار ، ولم تزالا فى طيبٍ ، وعيش رطيبٍ ، من قباب وخُدور ، وشموس وبُدور ، تَصِلان الليالى والأيام ، أَعْجازاً بصُدور ، وأنا الطَّريدُ منبوذٌ بالعراء ، موقوذٌ فى جهة الوراء ، لا يُدنى مَحلِّى ولا يُعتَنى بعَقْدى ولا حلِّى ، ولا أُدْرِج من الحَرور إلى الظِّل ، ولا أُخرج من الحرام إلى الحِل ، ولا يُبْعث إلىَّ مع النَّسيم هَبَّة ، ولا يُتاح لى من الآتى عَبَّه . قد هلكت لَغْواً . ولم تُقيما لى صَفْواً ، ومتُّ كمداً ، ولم تَبْغيا لبَغْيى أمداً . أتراه خَلَفْتُمانى جَرَضاً ، وألْقَيْتُمانى حَرَضاً ، كم أَستَسْقى فلا أُسْقى ، وأَسْتَرْق فلا أُرق ، لا ماء أَشْرَبُه ولا عمل فى وصْلِكما أُدرِّبُه . لم يبق لى حيلة إلا الدُّعاء المجاب ، فعسى الكرب أن يَنْجاب . اللهم كما أَمْدَدت هذين السَّيِّدين بالعِلم الذى هو جَمال ، وسدَّدْتهما إلى العمل الذى هو كمال ، وجَمَعْت فيهما الفضايل والمكارم ، وخَتَمْتَ بهما الأَفاضل والمكارم ، وجعلتَ الأَدب الصَّريح أقلَّ خِصالهما ، والنَّظر الصحيح أقلَّ نِصالهما ، فاجْعَل اللهم لى فى قلوبهما رحمة وحناناً ، وابسُط لى منهما وَجْهاً ، واشرح لى جَناناً ، واجعلنى اللهم ممِّن اقتدى بهما ، وتعلَّق بأهدابهما ، وكان دأبُه فى الصَّالحات كَدَأْبهما ، حتى أكون بهما ثالثَ القَمَرين فى الآيات ، وثالث العُمَرين ، فى عمل البرِّ وطول الحياة . اللهم آمين وصلى الله على محمد خاتم النبيِّين . وكأنِّى أنظر إلى سيدىَّ أعزَّهما الله ، إذا وقفا على هذا الخطاب ، ونظرا إلى هذا الاحتِطاب ، كيف يُديران رَمْزاً ، ويسيران غَمْزاً ، ويقال استَتَبَّ [1] الفِصال ، وتعاطى البيذَق ما تفعل النِّصال ، وحَنَّ جِذْعٌ ليس منهما ، وخُذْ عجفاءَك وسَمِّنها ،

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (استثنيت) .

فأقول وطَرْفى غَضِيض ، ومَحلِّى الحضيض ، مثلِي كمثل الفرُّوج أو ثانى البُروج ، وما تقاس الأَكُفُّ بالسُّروج ، فأَضْرِبا عنى أيها الفاضلان ، ما أنا ممَّن تُناضلان ، والسلام » .

مولده

قال شيخنا الفقيه أبو عبد الله بن القاضى المُتَبحِّر العالم أبى عبد الله ابن عبد الملك ، سأَلْته عن مولده فأنشدنى :

يا سايلى عن مولدى كى أذكُرَه ولدتُ يوم سبعة وعشرة
من المُحَرَّم افتتاح أَربع من بعد ستماية مُفَسَّرة

وفاته

فى التاسع عشر لرجب عام تسعة وتسعين وستماية ، ودفن بمقبرة فاس ، وأَمر أن يكتب على قبره :

زر غريبا بمقرِّه نازحا ماله ول
تركوه مُوسَّداً بين تُرْب وجَندل
ولتَقُل عند قبره بلسان التَّذَلُّل
يرحم الله عَبْده مالك بن المُرَحَّل

ومن طارئى المقريين والعلماء

منصور بن على بن عبد الله الزواوى

صاحبُنا ، يكنى أبا على .

حاله

هذا الرجل طِرْفٌ فى الخير والسلامة ، وحسن العهد ، والصَّون والطهارة

والعفَّة ، قليل التصنُّع ، مؤثرٌ للاقتصاد ، مُنقبض عن الناس ، مكْفوف اللسان واليد ، مُشْتَغل بشأْنه ، عاكفٌ على ما يُعنيه ، مستقيم الظاهر ، ساذج الباطن . مُنصِف فى المذاكرة ، مُوجبٌ لحقِّ الخَصْم ، حريصٌ على الإفادة والاستِفادة ، مثابرٌ على تعلُّم العِلم وتعليمه ، غير أَنِفٍ عن حَمْله عَمَّن دُونه ، جُملةٌ من جُمل السَّذاجة والرُّجولة وحسن المعاملة ، صَدْر من صدور الطَّلبة ؛ له مشاركة حسنة فى كثير من العلوم العَقْلية والنَّقلية ، واطِّلاعٌ وتقييد ؛ ونظر فى الأُصول والمنطق وعِلْم الكلام ، ودعوى فى الحساب والهندسة والآلات . يكتب الشِّعر فلا يعدو الإجادة والسَّداد .

قدم الأَندلس فى عام ثلاثة وخمسين وسبعماية ، فلقى رَحْباً ، وعُرف قَدْره ؛ فتقدم مُقرئا بالمدرسة[١] تحت جراية نبيهة ، وحَلَّق للناس متكلِّماً على الفروع الفقهية والتفسير . وتصدَّر للفُتْيا ، وحضر بالدار السلطانية مع مثله . جَرَّبته وصَحِبْتُه ، فبَلَوتُ منه دِيناً ونَصَفَة ، وحسن عِشْرة .

محنتـــه

امتُحن فى هذا العهد الأَخير بمطالبةٍ شرعيَّة ، لمُتَوقَّف صدر عنه لما جمع الفقهاءِ للنَّظر فى ثبوت عقد على رجل نال من جانب الله والنُّبوة ، وشذَّ فى القول بتكْفيره ، فقال القوم بإشراكه فى التكفير ولَطْخِه بالعاب[٢] الكبير ؛ إذ كان كثير المشاحَّة[٣] لجماعتهم ؛ فأَجْلَت الحال عن صَرْفه عن الأَندلس فى أَواخر شعبان عام خمسة وستين وسبعماية .

(١) المقصود بالمدرسة هنا ، المدرسة النصرية أو جامعة غرناطة الشهيرة ، التى أنشأها السلطان يوسف أبو الحجاج فى سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (اللعاب) وهو تحريف .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (المشاحنة) والمؤدى واحد .

مشـيخته

طلبتُ منه تقييد مشيخته ، فكتب مما يدل على جودة القريحة ما نصه :

« يتفضَّلُ سيدى الأعلى الذى أهتَدِى بمِصْباحه ، وأَعْشُو إلى غُرَره وأَوْضاحه . جامعُ أَشْتات العلوم ، وفاتِقُ رَتْق الفهوم ، حامل راية البديع ، وصاحبُ آيات التَّورية[١] فيه والتَّرْصيع ، نُخْبة البلغاء ، وفخر الجهابِذة العلماء . قايدُ جِياد البلاغة من نواصِيها ، وسايق شَوارد الحِكَم من أقاصيها . أبو عبد الله بن الخطيب . أبقاه الله للقريض ، يَقْطِف زَهْره ، ويَجْتَنى غُرَره . وللبديع يُطلع قَمَره ، وينظم دُرَره . وللأَدب يَحُوك حُلَله . ويجمع تَفاصيله وجُمَله . وللمعانى يَجُوس بجيوش البراعة خِلالها ، ويفتتح بعوامل اليراعة أَقْفالها ، وللأَسْجاع يُقَرِّط[٢] الأَسماع بفرايدها ، ويُحلِّى النحور بقلايدها . وللنَّظْم يُورد جياده أَحْلى الموارد . ويُجيلها[٣] فى مِضْمار البلاغة من غير مُعاند . وللنثر يَفْتَرِع أَبْكاره . ويودعها أَسْراره ، ولساير العلوم يَصوغها فى مَفْرق الآداب تاجاً . ويَضَعُها فى أَسْطُر الطُّروس سراجا ، ولازال ذا القلم الأَعلى . وبَدْر الوزارة الأَوْضح الأَجْلى ، ببقاء هذه الدولة المولوية والإمامة المحمدية . كعبةً لملوك الإسلام . ومَقْصِداً للعلماء الأَعلام . ورضى عنهم خَلَفًا وسَلَفًا . وبُورك لنا فيهم وسَطاً وطَرْفاً ، ولا زالت آمالنا بعَلايهم منُوطة . وفى جاههم العريض مبْسُوطة ، بقبول ما نَبَّه عليه ، من كَتْب شيوخى المشاهير إليه ، فها أنا أذكر ما تيسر لى من ذلك بالاختصار ، إذ لا تفى بذكرهم وحُلاهم المجلَّدات الكِبار .

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . ووردت فى الإسكوريال (آية التفويف) وهو تحريف .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة (يقطر) وهو تحريف .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ويحييها) .

فمنهم ، مولاى الوالد على بن عبد الله لقاه الله ، الرَّوح والريحان ، وأوسعه الرِّضا والغفران . قرأت عليه القرآن ، وبعض ما يتعلق به من الإعراب والضبط . ثم بعثنى إلى شيخنا المجتهد الإمام ، عَلَم العلماء ، وقُطْب الفقهاء ، قُدْوة النُّظار ، وإمام الأمْصار ، منصور بن أحمد المشْدالى رحمه الله وقدَّس روحه ، فوجدته قد بلغ السِّنُّ به غاية أَوْجَبت جلوسه فى داره ، إلا أنه يُفيد بفوايده بعض زُوَّاره . فقرأْت من أوائل ابن الحاجب[1] عليه لإشارة والدى بذلك إليه ، وذلك أول محرم عام سبعة وعشرين وسبعماية . واشتد الحصار ببجاية لسماعنا أن السلطان العَبْدِ الوادى[2] ينزل علينا بنفسه ، فأمرنى بالخروج رحمه الله ، فعاقنى عايق عن الرجوع إليه لأُتمم قراءة ابن الحاجب عليه . ثم مات رحمه الله عام أحد وثلاثين وسبعماية ، فخَصَّ مصابه البلاد وعمَّ ، ولفَّ ساير الطلبة وضم ، إلا أنه ملأ بجاية وأنظارها بالعلوم النظرية وقساها . وأنظارها بالفهوم النقلية والعقلية . فصار[3] من طلبته ، شيخنا المعظم ، ومفيدنا المُقَدَّم أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلى المعروف بالمُفَسِّر[4] رحمه الله ، بالطريقة الحاجبية ، والكتابة الشرعية والأدبية ، مع فضل السن وتَقْرير حَسَن ، إلى معارف[5] تحلاَّها ، ومحاسن اشتمل حُلاها . واستمر فى ذكر شيوخه

---

(١) هو أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبى بكر المعروف بابن الحاجب ، إذ كان والده حاجبا لأحد أمراء الدولة الصلاحية المصرية . ولد بالقاهرة وبرع فى الفقه وعلوم اللغة ، واشتهر بكتبه فى النحو وفى مقدمتها « الكافية » و « الشافية » . وكانت كتبه من أهم نصوص الدراسة اللغوية طوال العصور الوسطى . وتوفى بالإسكندرية سنة ٦٤٦ هـ .

(٢) نسبة إلى بنى عبد الواد ملوك مملكة تلمسان بالمغرب الأوسط .

(٣) هكذا وردت فى الزيتونة . ووردت فى الإسكوريال (فقار) وهو تحريف .

(٤) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (بالماسفر) .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (معان) .

على هذه الوتيرة من التزام السَّجع ، وتقرير الحَلْي ، فأجاد ، وتجاوز[1] المعتاد . فذكر منهم محمد بن يحيي الباهلي المذكور ، وأنه أخذ عنه جملة من العلوم ، فافرده بقراءة الإرشاد . والأستاذ أبا على بن حسن البَجْلى ، وقرأ عليه جملة من الحاصل ، وجملة من المعالم الدينية والفقهية ، والكتب المنطقية ، كالخَوْنجي ، والآيات البينات . والقاضي أبا عبد الله محمد بن أبي يوسف ، قاضي الجماعة ببجاية ، وأبا العباس أحمد بن عمران الساوى اليانيولى[2] . قال ثم ثنيت العِنان بتوجُّهى إلى تلمسان ، راغباً فى علوم العربية ، والفهوم الهندسية والحسابية ، فأول من لقيت شيخنا الذى عُلِمت فى الدنيا جلالته وإمامته ، وعُرفت فى أقاصى البلاد سِيادته وزعامته ، وذكر رئيس الكُتَّاب العالم الفاضل أبا محمد عبد المهيمن الحَضْرَمى . والمحدِّث البقيَّة أبا العباس بن يَربوع ، والقاضى أبا إسحق بن أبى يحيى . وقرأ شيئا من مبادىء العربية على الأستاذ أبى عبد الله الرُّندى . ولقى بالأندلس جلَّة . فممَّن قرأ عليه إمام الصنعة العربية شيخنا أبو عبد الله بن الفخَّار الشهير بالبيرى[3] ، ولازمه إلى حين وفاته ، وكتب له بالإجازة والإذن له فى التَّحليق بموضع قُعُوده من المدرسة بعده . وقاضى الجماعة الشريف أبو القاسم محمد بن أحمد الحسينى ، نسيجُ وحده ، ولازمه ، وأخذ عنه تواليفه ، وقرأ عليه تسْهيل الفوايد لابن مالك ، وقيَّد عليه . وروى عن شيخنا إمام البقية أبى البركات بن الحاج ، وعن الخطيب المحدِّث أبى جعفر الطَّنجالى . وهو الآن بالحال الموصوفة أعانه الله وأمتع به

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (جاوز) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (اليانوني) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الالبيرى) . والمؤدى واحد ، وهو النسبة إلى إلبيرة .

شـــعره

زُرنا معا والشيخ القاضى المتفنِّن أبو عبد الله المُقْرى عند قدومه إلى الأَندلس رِباط العقاب[1] . واستَنْشَدتُ القاضى . وكتب لى يومئذ بخطه ، استَنْشدنى الفقيه الوجيه الكامل ذو الوزارتين أَبو عبد الله بن الخطيب ، أَطال الله بقاه كما أَطال ثناه ، وحفظ مُهجته ، كما أَحسن بهجته ، فأَنشدته لنفسى :

لما رأيناك بعد الشَّيب يا رَجُل لا تستقيم وأَمر النفس تمتثل

زدنا يقينـــا بما كنـــا نصدِّقه عند المَشيب يَشِبُّ الحِرْص والأَمل

وكان ذلك بمسجد رابطة العقاب ، عقب صلاة الظهر من يوم الأَحد التاسع والعشرين لشهر ربيع الآخر من عام سبعة وخمسين وسبعماية . وكتب الشيخ الأُستاذ أبو على يقول : منصور بن على الزَّواوى ، فى رابطة العقاب فى كذا ، أَجَزْتُ صاحبنا الفقيه المعظم ، أَبا عبد الله بن الخطيب وأَولاده الثلاثة عبد الله ، ومحمداً ، وعليا ، أَسعدهم الله ، جميع ما يجوز لى وعنِّى روايته ، وأَنشدته قولى أُخاطب بعض أَصحابنا :

يحيِّيك عن بعض المنازل صاحب صديق غَدَتْ تُهدَى إليك رسايله

مُقدِّمةً حِفْظ الوداد وسـيلة ولا وُدَّ إلا أَن تَصِحَّ وسـائله

يُسايل عنك الدَّارَين ولم يكن تَغيب لبُعْد الدار عنك مسايله

وكتبت له قبل هذا مما أَنشدته عند قدومى على غرناطة :

يا مَنْ وجدناه لفظا حقيقةً فى المعـــالى

مقدِّمات عُـــلاكم أَنْتَجن كل كمـــال

---

(١) رباط العقاب أو رابطة العقاب ، كانت أحد الربط التى تخصص للعبادة ، وكانت تقع على مقربة من غرناطة ، وقد سبق التعريف بها (أنظر المجلد الثانى من الإحاطة ص ١٥٥ حاشية) .

وكل نظْم قيـــاس خَلَوْت منه فَخـــال

وهو من لدُنْ أُزعِج عن الأَندلس ، كما تقدم ذكره ، مقيمٌ بتلمسان ، على ما كان عليه من الإقراء والتدريس .

مسلم بن سعيد التّنملّى (١)

حـــاله

كان غير نَبيه الأُبوة . ظهر فى دولة السلطان أمير المسلمين ، ثانى الملوك من بنى نصر ، بمزيد كفاية ، فقلَّده خُطَّة الحِفازة ، وهى تعميم النظر فى المَجانى ، وضم الأَموال ، وإيقاع النَّكير فى محل التَّقصير ، ومظانِّ الرِّيَب فنَمَت حاله ، وعَظُم جاهه ، ورُهِبت سَطْوته ، وخِيف إيقاعه . وقَرُبت من السلطان وسيلته ، فتقدم الخُدَّام ، واستْوعب أطراف الحُظوة ، واكتَسَب العَقار ، وصاهر فى نَبيه البيوتات ، وأَروث عنه أَخبارا ، تشهد له بالجُود وعلوِّ الهمة ، وشرف النفس ، إلى أَن قَضَى على هذه الوتيرة .

ذكروا أَن شخصاً جلَب سِلعة نفيسة ، مما يُطْمع فى إخفايها ، حِيدَةً عن وظيفة المغْرم الباهظة ، فى مثل جِنسه ، فبينما هو يروم المحاولة ، إذ بَصُر بنبِيه المَرْكب والبِزة ، يَنْفُضُ فى زوايا الفَحْص عن مثل مُضْطبنَه ، فظنَّه رئيساً من رؤساء الجند ، فقصده ورغب منه إجازة خَبِيئته بباب المدينة ، وقرَّر لتخوُّفه من ظُلم الحافز الكذا مُسلم ، فأَخذها منه وخبَّأَها تحت ثيابه ، ووكَّل به . ولم يذهب المسكين الا يسيراً ، حتى سأَل عن الرجل ،

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (النخلى) وهو تحريف . والتنملى ، نسبة إلى بلدة تينملل ، وهى بلدة صغيرة تقع فوق سفح جبال الأطلس ، فى جنوب غرب مراكش ، ومنها كان نهوض المهدى ابن تومرت ، ومبعث دولة الموحدين .

فأُخبر أنَّه الذى فرَّ عنه ، فسُقِط فى يده . ثم تحامل فألْفاه ينظره فى داخل السور ، فدفع إليه أمانته ، وقال سِر فى حفظ الله ، فقد عَصَمها الله من ذلك الرجل الظالم ، فخَجل الرجل ، وانصرف متعجِّباً . وأخباره فى السَّراوة ، ونُجح الوسيلة . كثيرة .

وفـــاته

توفى فى عام ثمانية وتسعين وستماية ، وشهد أميرُه دفنه . وكان قد أَسَفَّ ولى العهد بأُمور صانعه فيها من باب خدمة والده ، فكان يتَلمَّظ لنكبته ، ونصب لشاته لأكله . فعاجله الحِمام قبل إيقاع نقمته به . ولما تصيَّر إليه الأمر ، نبش قَبْره ، وأخرج شِلوه . فأُحرِق بالنار ، إغراقاً فى شهوة التَّشفى رحمة الله عليه (١)

ومن العمال الأثراء

مُؤمَّل ، مولى باديس بن حبُّوس

حـــاله ومحنتـــه

قال ابن الصَّيرفى ، وقد ذكر عبد الله بن بُلُقيِّن حفيد باديس ، واستشارته عن أمره ، لمَّا بلغه حركة يوسف بن تاشفين إلى خَلعه . وكان فى الجُملة من أحبابه ، رجل من عبيد جَدِّه اسمه مؤَمَّل . وله سِنٌّ ، وعنده دهاء وفِطنة ، ورأى ونَظَر. وقال فى موضع آخر ، ولم يكن فى وزراء

---

(١) وردت هذه الترجمة فى هامش اللوحة 198 من مخطوط الإسكوريال . والظاهر أن الناسخ كان قد نسيها ، وهى واردة فى مكانها بمخطوط الزيتونة باللوحة 84 من الجزء الثانى .

مملكته وأَحْبار[١] دولته ، أَصيلَ الرأى ، جَزْل الكلمة ، الا ابن أَبى خَيْثَمة من كَتَبَته ، ومؤمَّل من عبيد جَدِّه ، وجعفر من فِتْيانه ، رجع ، قال ، فأَلْطَف له مؤمِّل فى القول ، وأَعلمه برِفق ، وحُسن أَدب ، أَن ذلك غيرُ صواب ، وأَشار إليه بالخروج إلى أَمير المسلمين إذا قَرُب ، والتَّطارُح عليه ، فإنه لا تُمْكنه مُدافعته ، ولا تُطاق حَرْبُه ، والاسْتِجداءُ[٢] له ، أَحمدُ عاقبة وأَيمنُ مَغبَّة . وتابعه على ذلك نُظراؤه ، من أَهل السِّن والحُنكة ودافع فى صدِّ رأيه الغِلْمة والأَغْمار ، فاستشاط غيظاً على مؤمِّل [ومن نحا نحوه][٣] ، وهمَّ بهم ، فخرجوا ، وقد سلَّ بهم فرَقاً منه . فلما جنَّهم الليل فرُّوا إلى لَوْشة ، وبها من أَبناءِ عَبيد باديس قايدُها ، فملكوها وثاروا فيها ، بدعوة أَمير المسلمين يوسف بن تاشُفين . وبادر مؤمِّل [بالخطاب إلى أَمير المسلمين المذكور][٤] وقد كان سَفَر إليه عن سلطانه ، فأَعجبه عقلا ونُبْلا ، فاهتزَّ إليه ، وكان أَقوى الأَسباب على حَرَكته . وبادر حفيد باديس الأَمر ، فأَشْخَص الجيش لنظر صِهره ، فتغلَّب عليهم ، وسِيق مؤمَّل ومن كان معه شرَّ سوْق فى الحديد ، وأُرْكِبوا على دواب هُجن ، وكُشفت رؤوسهم ، وأُرْدِف وراءَ كلِّ رجل من يصْفَعُه . وتقدَّم الأَمر فى نَصْب الجُذوع وإحضار الرُّماة . وتلطَّف جعفر فى أَمرهم . وقال للأَمير عبد الله : إن قَتلتَهم الآن ، أَطْفَأْت غضبك ، وأَذْهَبْتَ مُلْكك . فاستخرِج المال : وأَنت من وراءِ الانتقام ، فثَقَّفهم ، وأُطْمِعوا فى أَنفسهم ريثما شغله الأَمر :

---

(١) وردت فى الإسكوريال (أحبا) . والتصويب من الزيتونة .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة . ووردت فى الإسكوريال (الابتحداء) وهو تحريف .

(٣) هذه الزيادة من الزيتونة .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى الزيتونة . وورد مكانها فى الإسكوريال (بخطاب يوسف المذكور) . والأولى أنسب للسياق .

وأَنْفَذَ إليه يوسف بن تاشفين فى حلٍّ اعتقالهم ، فلم تَسَعْه مخالفته وأَطلقهم . ولما ملك غرناطة على تَفِيئَة تلك الحال ، قدَّم مؤمِّلاً على مُسْتَخْلصه(١) وجعل بيده مفاتيح قَصْره ، فنال ما شاءَ من مال وحُظوة ، واقتنى ما أَراد من صامتٍ وذخيرة . ونُسبت إليه بغرناطة آثار ،منها السِّقاية بباب الفخَّارين والحَوْز المعروف بحوز مُؤمِّل(٢) ، أدركتها وهى بحالها .

وفاته

قال ابن الصَّيرفى ، وفى ربيع الأَول من هذا العام ، وهو عام اثنين وتسعين وأَربعماية ، توفى بغرناطةَ مؤمِّل مولى باديس بن حَبُّوس ، عبد أَمير المسلمين ، وجابى مُسْتَخْلصه [وكان له دهاءٌ وصبر](٣) ، ولم يكن بقارىءٍ ولا كاتب . رَزَقه الله عند أَمير المسلمين ، أَيام حياته ، منزلةً لطيفة ودرجة رفيعة . ولما أَشرف على المَنِيَّة ، أَحضر ما كان عنده من مال المُسْتخلص ، وأَشهد الحاضرين على دَفْعه إلى من اسْتَوْثقه على حَمْله . ثم أَبْرَأَ جميع عماله وكتَّابه . وأَنفذَ رجلا من صنايعه إلى أَمير المسلمين بجُمْلَة من مال نفسه ، يريه أَن ذلك جميع ما اكْتَسَبَه فى دولته ، أَيام خِدمته ، وأَن بَيْت المال أَولى به ، ورغب فى سَتْر أَهله وولده . فلما وصل إليه ، أَظهر الأَسف عليه ، وأَمضى تقديم صَنِيعته . ثم ذكر ما كشف البحث عنه من مُحْتَجنه ، وشقاءِ من خَلِفه بسببه ، وعدَّد مالا وذخيرة .

(١) المستخلص هنا يقصد بها الأملاك والأموال الأميرية .

(٢) حوز مؤمل أو رحبة مؤمل ، اسم مكان بغرناطة الإسلامية كان يقع فى جنوب غربى الحمراء ويشتهر برياضه ومتنزهاته . وقد سبق التعريف به (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ٤٤١ حاشية) .

(٣) هذه العبارة واردة فى الزيتونة . ومكانها بياض بالإسكوريال .

حـــرف النون

الملوك والأمـــراء

نصر بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر بن أحمد بن محمد بن خميس بن عقيل الخزرجى الأنصارى

أمير المسلمين بالأندلس ، بعد أبيه وجده وأخيه . يُكنى أبا الجيوش وقد تقدم من أوليَّة هؤلاء الملوك ما يُغنى عن الإعادة.

حـــاله

من كتاب « طُرْفَة العصر فى أخبار الملوك من بنى نصر »(١) من تَصْنيفنا. قال . كان فتى يملأُ العيون حُسْناً وتمام صورة ، دَمِث الأَخلاق . ليِّن العريكة . عفيفاً ، مَجْبولا على طلب الهدنة وحبِّ الخير . مُغْمد السَّيف . قليل الشَّر . نافراً للبَطَر وإراقة الدماء ، مُحبا فى العلم وأهله ، آخذاً من صناعة التَّعديل بحظٍّ رغيب . يخُطُّ التقاويم الصَّحيحة ، ويصنع الآلات الطَّريفة بيده ، اختصَّ فى ذلك الشيخ الإمام أبا عبد الله بن الرَّقَّام ، وحيدَ عصره . فجاء واحد دهره ظَرْفاً وإحكاماً . وكان حَسِن العهد ، كثير الوفاء . حَمَله الوفاءُ على اللِّجاج فى وزيره المطلوب بعزله ، على الاستهداف للخَلْع .

تقدَّم يوم خلع أخيه ، وهو يوم عيد الفطر من عام ثمانية وسبعماية ، وسنه ثلاث وعشرون سنة ، فكان من تمام الخُلُق ، وجمال الصُّورة ، والتَّأنق فى ملوكى اللِّباس ، آية من آيات الله خالِقه . واقتدى برسوم أبيه وأخيه ، وأَجْرَى الأَلقاب والعَوايد لأَول دولته وكانت أيامه كما شاء الله ، أيام

---

(١) قمنا بالتعريف بهذا الكتاب ، ضمن مؤلفات ابن الخطيب ، فى مقدمة المجلد الأول من « الإحاطة » (ص ٥٨) .

نخس مستمر ، شملت المسلمين فيها الأزمة ، وأحاط بهم الذُّعر ، وكلِبَ العدوُّ . وسيمر من ذلك ما فيه كفاية . وكان فتىً أىَّ فتىً ، لو ساعده الجَدُّ . والأمر لله من قبل ومن بعد .

وزراءُ دولتـــه

وزَر له مُقيم أمره ومُحكم التَّدبير على أخيه ، أبو بكر عتيق بن محمد ابن المَوْل . وبيت بنى مَوْل بقرطبة ، بيتٌ له ذكر وأصالة . ولما تغلَّب عليها ابن هود ، اختفى بها أبوه أياما عدة . ولما تملكها السلطان الغالب بالله تلك البُرْهة . خرج إليه وصحبه إلى غرناطة ، فاتَّصلت قرْباه بعَقْده على بِنْتٍ للرئيس أبى جعفر المعروف بالحُجْاب ابن عم السلطان . واشتد عَضُدُه . ثم تأكَّدت القُرْبى بعقد مَوْل أخى هذا الوزير على بِنْت الرئيس أبى الوليد أخت الرئيس أبى سعيد . مُنجب هؤلاء الملوك الكرام ، فقام بأمره ، واضَّطلع بأعباء سلطانه ، إلى أن كان من تغلُّب أهل الدولة عليه ، وإخافة سلطانه منه ، ما أوجب صرْفه إلى المغرب فى غَرِض الرسالة ، وأُشير عليه فى طريقه بإقامته بالمغرب . فكان صَرْفاً حسناً . وتولى الوزارة محمد بن على بن عبد الله بن الحاج ، المُسَيَّر لخَلْعِه ، واجتِثاث أصله وفَرْعه ، وكان خِبًّا داهية ، أعلم الناس بأخبار الرُّوم وسيرهم وآثارهم . فحدَثَتْ بين السلطان وبين أهل حَضْرته الوَحْشة بسببه .

قضـــاته

أقر على خطة القضاء بحضرته قاضى أخيه الشيخ الفقيه أبا جعفر القرشى المُنْبز بابن فركون ، وقد تقدم التعريف به مستوفى بحول الله[1]

(١) وردت ترجمة ابن فركون المشار إليه ، فى المجلد الأول من الإحاطة (ص ١٥٣ – ١٥٧)

كـتّـابه

شيخنا الصدر الوجيه ، نسيج وحده أبو الحسن على بن محمد بن سليمن بن الجيّاب إلى آخر مدته

من كان على عهده من الملوك

بالمغرب : السلطان أبو الربيع سليمن بن عبد الله بن أبي يعقوب يوسف بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق ، تصيّر الأمر إليه بعد وفاة أخيه السلطان أبي ثابت عامر بأَحْواز طَنْجَة ، فى صفر عام ثمانية وسبع ماية ، وكان مشكوراً ، مُبْخت الولاية . وفى دولته عادت سَبْتَة إلى الإيالة المرينيَّة ، ثم توفى بتازى[(١)] فى مستهل رجب من عام عشرة وسبعماية . وتولى الملك بعده عمُّ أبيه السلطان الجليل الكبير ، خِدْنُ العافية ، وولىُّ السلامة ، وممهِّد الدولة أبو سعيد عثمن بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق . واستمرت ولايته إلى تمام أيام هذا الأمير ، وكثيراً من أيام مَنْ بعده . وقد تقدَّم من ذكر السلطان أبي يوسف فى اسم من تقدم من الملوك ما فيه كفاية .

وبتِلمسان ، الأَمير أبو حمّو موسى بن عثمن بن يَغْمِراسِن ، سلطان بنى عبد الواد[(٢)] : مذلِّل الصُّقع ، والمثل السّاير فى الحزم والتيقُّظ ، وصلابة الوَجْه ، زعموا ، وإحكام القِحة ، والإغراب فى خُبْث السِّيرة . واستمرت ولايته إلى عام ثمانية عشر وسبعماية ، إلى أن سَطا به ولدهُ ، عبد الرحمن أبو تاشُفِين .

وبتونس ، الأَمير الخليفة أبو عبد الله محمد بن الواثق يحيي بن

---

(١) تازى أو تازه أو تازا بلدة مغربية تقع شرقى مدينة فاس ، وجنوبى ثغر المزمة .

(٢) وردت فى المخطوطين (عبد الوادى) والأصح ما أثبتناه

المستنصر محمد بن الأَمير أَبى زكريا بن أَبى حَفْص . ثم تُوفى فى ربيع الآخر عام تسع وسبع مائة . فوَلى الأَمر قريبُه الأَمير أَبو بكر بن عبد الرحمن ابن الأَمير أَبى زكريا ابن الأَمير أَبى إسحق بن الأَمير أَبى زكريا بن عبد الواحد بن أَبى حَفْص. ونهض إليه من بِجاية قريبُه السلطان أَبو البقاء خالد ابن الأَمير أَبى زكريا ابن الأَمير أَبى إسحق ابن الأَمير أَبى زكريا بن عبد الواحد بن أَبى حفص ، فالتقيا بأَرض تونس ، فهُزم أَبو بكر ، ونجا بنفسه ، فدخل بُسْتانا لبعض أَهل الخِدمة ، مُخْتفياً فيه ، فسُعِى به إلى أَبى البقاء ، فجِيء به إليه ، فأَمر بعض القرابة بقَتْله صَبْراً ، نفعه الله . وتمَّ الأَمر لأَبى البقاء فى رابع جمادى الأُولى منه ، إلى أَن وفد الشيخ المعظم أَبو يحيى زكريا الشهير باللِّحيانى ، قافلاً من بلاد المشرق ، وهو كبير آل أَبى حَفْص نَسَباً وقَدْراً ، فأَقام بإِطْرابُلس ، وأَنْفَذ إلى تونس خاصَّتَه ، الشيخ الفقيه أَبا عبد الله المَرْدُورى[1] محارباً لأَبى البقاء ، وطالباً للأَمر . فتمَّ الأَمر ، وخلع أَبو البقاء تاسع جمادى الأُولى عام أَحد عشر وسبعماية . وتم الأَمر للشيخ أَبى يحيى ، واعتُقل أَبو البقاء ، فلم يزل مُعْتقلا إلى أَن توفى فى شوال عام ثلاثة عشر وسبعماية ، ودفن بالجبّانة المعروفة لهم بالزّلاج ، فضَرِيحُه فيما تعرَّفنا بإزاء ضريح قَتِيله المظلوم أَبى بكر ، لا فاصل بينهما . وعند الله تجتمع الخصوم .

واتَّصلت أَيام الأَمير أَبى يحيى ، إلى أَن انقرضت مدة الأَمير أَبى الجيوش . وقد تضمَّن الإلماع بذلك الرّجز المسمى بقَطْع السُّلوك[2] من

(١) هكذا ورد اسم هذا الفقيه فى الإسكوريال وهو اسمه الصحيح . وفى الزيتونة (أبا عبد الله السالماردى) وهو تحريف .

(٢) يشير ابن الخطيب هنا إلى كتابه (رقم الحلل فى نظم الدول) الذى سبقت الإشارة إليه .

نظمى . فمن ذلك فيما يختص بملوك المغرب قولى فى ذكر السلطان أبى يعقوب :

ثم تقضّى معظم الزمان   مواصلاً حَصْر بنى زيّان
حتى [أتى](١) أهل تلمسان الفَرَج   ونَشَقُوا من جانب اللُّطْف الأَرج
لما ترقّى دَرَج السَّعد دَرَج   فانفضّ ضيق الحصر عنها وانْفَرَج
وابنُ ابْنِه وهو المسمى عامراً   أصبح بعدُ ناهياً وآمراً
وكان ليْثاً دامى المَخالب   تغلّب الأَمر بجدٍّ غالب
أباح بالسَّيف نفوسًا عِدَّة   فلم تَطُل فى المُلْك منه المُدةً
ومات حَتْف أنفه واخْتَرِما   ثم سليمان عليها قُدِّما
أبو الربيع دهرُه ربيعُ   يُثْنى على سِيرته الجميع
حتى إذا الملِك سليمان قضى   تصيَّر الملك لعثمن الرِّضا
فلاح نور السَّعد فيها وأضا   وسَنَّ العهدَ الذى كان مضا

وفيما يختص ببنى زيَّان ، بعد ذكر أبى زيَّان :

حتى إذا اسْتوفى زمان سَعْده   قام أبو حمّو بها من بعده
وهو الذى سَطا عليه ولده   حتى انتهى على يَدَيْه أمَدُه

وفيما يختص بآل أبى حَفْص بعد ذكر جملة منهم :

ثم الشهيدُ الأَمير خالد   هيهات ما فى الدهر حيٌّ خالد
وزكريّا بها بعدُ ثَوا   ثم نَوَا الرِّحلة عنها والتَوا
رحَل بالشرق وبالشرق ثَوا   وربّما فاز امرؤٌ بما نَوا

ومن ملوك النصارى بقَشْتاله :هراندُه بن شانجُه بن أَلْهنشُه بن هراندُه بن

---

(١) ناقصة فى الإسكوريال وواردة فى الزيتونة واللمحة البدرية

شانجُه[١] . ونازل على عهده الجزيزة الخضراء ، ثم أقلع عنها عن ضَرِيبةٍ وشروط ، ثم نازل فى أُخريات أمره حِصْن القَبْذاق[٢] . وأدركه أَلَمُ الموت بظاهره . فاحتُمل من المحلَّة إلى جيّان ، وبقيت المحلة مُنِيخة على الحصن ، إلى أن تُمَلِّك بعد موت الطَّاغية بأيام ثلاثة ، كتموا فيها مَوْته . ولسبب هلاكه حكاية ظريفة ، تضمنتها « طُرْفة العصر فى تاريخ دولة بنى نصر » . وقام بعده بأَمر النصرانية ولده أَهْنشُه[٣] ، واستمرت أيامه إلى عام خمسين وسبعماية .

بعض الأَحداث فى أَيامه

نازل على أَول أمره طاغية قَشْتالة . الجزيرة الخضراء فى الحادى والعشرين من عام تسعة وسبعماية . وأَقام عليها إلى أخريات شعبان من العام المذكور ، وأَقلع عنها بعد ظهوره على الجَبَل[٤] وفوز قِداحه[٥] به . ونازل صاحب بَرْجلونة مدينة أَلمريَّة غرة ربيع الأَول من هذا العام . وأخذ بمُخَنَّقها ، وتفرَّقت الظبا على الخِراش . ووقَعتْ على جيش المسلمين الناهد إليه وقِيعة كبيرة ، واستمرت المطاولة إلى أخريات شعبان ، ونفَّس الله الحَصْر ، وفرَّج الكرب . وما كاد أَهل الأَندلس يستَنْشِقُون ريح العافية ،

---

(١) حرانده أى فرناندو ، وشانجه أى سانشو ، وأهنشه أى ألفونسو ، وهو الملك فرناندو الرابع ابن سانشو الباسل الذى تولى عرش قشتالة سنة ١٢٩٦ م (٦٩٦ هـ) ، تحت وصاية أمه ماريا دى مولينا ، وتوفى سنة ١٣١٢ م .

(٢) القبذاق ، وبالإسبانية Alcaudete ، بلدة حصينة تقع جنوب غربى جيان على مقربة من شمال غربى قلعة يحصب

(٣) اهنشه أى ألفونسو ، وهو هنا ألفونسو الحادى عشر ، وقد حكم قشتالة من سنة ١٣١٢ إلى سنة ١٣٥٠ م (٧٥١ هـ)

(٤) يقصد به هنا جبل الفتح أو جبل طارق .

(٥) أى من حظه وحسن طالعه .

حتى [نشأ نجم الفتنة][1] . ونشأت ريحُ الخلاف ، واسْتَفْسد وزير الدولة ضمائر أهلها ، واسْتَهدف إلى رعيتها بإيثار النصارى والصاغية[2] إلى العدو ، وأظهر الرَّيِّس ابن عم الأب صاحب مالَقة أبو سعيد فرج ابن اسماعيل ، صِنو الغالب بالله ابن نصر ، الامْتِساك بما كان بيده ، والدعاءَ لنفسه ؛ وقدَّم ولده الدَّايل إلى طلب المُلْك . وثار أهل غرناطة ، يوم الخامس والعشرين لرمضان من العام ، وأعلن منهم من أعلن بالخلاف ثم خانهم التدبير ، وخَبَطُوا العَشْواءَ ، ونزل الحَشَم ، فلاذ الناس منهم بديارهم ، وبرَز السلطان إلى باب القلعة ، متقدِّماً بالعِفَّة عن الناس ، وفرَّ الحاسرون عن القِناع ، فلحقوا بالسلطان أبى الوليد بمالقة ، فاستَنْهضوه إلى الحركة ، وقصْد الحَضْرة ، فأجابهم وتحرَّك ، فأطاعته الحصون بطريقه ، واحتل خارج غرناطة صبيحة يوم الخميس السابع والعشرين لشوال منه ، فابتدره الناس من صايح ومُشير بثَوْبه ، ومُتطارح بنفسه . فدخل البلد من ناحية رَبَض البيَّازين ، واستقر بالقَصبة ، كما تقدم فى اسمه . وفى ظهر يوم السبت التاسع والعشرين من الشهر ، نزل الحمراءَ دار الملك ؛ وانفصل السلطان المُترجم به ، موفًّى له شرط عَقْده من انتقاله إلى وادى آش ، مستبدًّا بها ، وتعْيين مالٍ مخصوص ، وغير ذلك . ورَحَل ليلة الثلاثاءِ الثالث لذى قعدة من العام . واستمرت الحال ، بين حرب ومُهادنة ؛ وجَرَتْ بسبب ذلك أُمور صَعْبة إلى حين وفاته . رحمه الله .

مـــولده

وُلد فى رمضان عام ستة وثمانين وست مائة . وكانت سنُّه ستاً وثلاثين

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة . وفى اللمحة البدرية (نجم شهاب الفتنة)

(٢) هكذا وردت فى اللمحة البدرية وفى المخطوطين (الطاغية) والأولى أنسب للسياق والصاغية معناها هنا الخاصة والأنصار

سنة وثلاثة أشهر، ودولته الجامعة خمس سنين وشهراً واحداً ، ومُقامه بوادى آش تسعة أعوام وثلاثة أيام .

وفـــاته

توفى رحمه الله ، ليلة الأربعاء سادس ذى قعدة من عام اثنين وعشرين وسبعماية بوادى آش ، ودفن بجامع القصبة منها ؛ ثم نقل فى أوايل ذى الحجة منه إلى الحَضْرة ، فكان وصوله يوم الخميس السادس منه ، وبرز إليه السلطان ، والجَمْعُ الكثير من الناس ، ووُضع سريره بالمصلى العِيدى ، وصُلِّى عليه إثر صلاة العصر ، ودفن بمقبرة سلفه بالسَّبيكة ؛ وكان يوما من الأيام المشهودة ، وعلى قبره مكتوب فى الرُّخام :

« هذا قبر السلطان المُرَفَّع[1] المقدار ، الكريم البيت ، العظيم النِّجار سلالة الملوك الأعلام الأخيار ، الصَّريح النَّسب فى صميم الأنصار ، الملك الأَوْحَد ، الذى له السَّلف العالى المنار ، فى المُلْك المنيع الذِّمار ، رابع ملوك بنى نصر ، أنصار دين المصطفى المختار ، المجاهدين فى سبيل الملك الغفار ، الباذلين فى رضاه كرايم الأموال ، ونفايس الأعمار . المعظَّم المقدس المرحوم ، أبى الجيوش نصر ابن السلطان الأعلى الهمام الأسمى ، المجاهد الأَحْمَى ، الملك العادل ، الطَّاهر الشَّمايل ، ناصر دين الإسلام ، ومُبيد عَبَدَة الأصنام ، المؤيد المنصور ، المقدس ، المرحوم أمير المسلمين أبى عبد الله بن السلطان الجليل . الملك الشهير ، مؤسس قواعد الملك على التَّقوى والرِّضوان ، وحافظ كلمة الإسلام ، وناصر دين الإيمان ، الغالب بالله ، المنصور بفضل الله ، المقدس المرحوم ، أمير المسلمين أبى عبد الله بن نصر ، تغمَّده الله برحمته وغُفْرانه ، وبوَّأه منازل إحسانه ، وكتبه فى أهل رِضوانه . وكان

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين ، وفى اللمحة البدرية (الرفيع) .

مولده فى يوم الاثنين الرابع والعشرين لشهر رمضان المعظم عام ستة وثمانين وستماية . وبويع يوم الجمعة غُرَّة شوال عام ثمانية وسبعماية ، وتوفى رحمه الله ليلة يوم الأَربعاء السادس لشهر ذى قعدة عام اثنين وعشرين وسبعماية فسبحان المَلِك الحقِّ المبين ، وارث الأَرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين وفى جهة :

يا قبر جاد ثَراك صَوْب غمام ... يَهْمِى عليك برحمةٍ وسلام
بُورِكْتَ لَحْدًا فيه أىُّ وديعة ... ملك كريم من نِجار كرام
ماشيت من حلم ومن خلق رضى (١) ... وزكاءِ أعراق ومجدٍ سام
فاسْعد بنصرٍ رابع الأَملاك من ... أبناء نصر ناصرى الإِسلام
من خَزْرج الفخر الذين مَقامُهم ... فى نَصْر خير الخلق خير مقام
يا أيها المولى المؤَسَّس بيتُه ... فى معدن الأَحساب والأَحلام
ماللمَنِيَّة والشباب مساعد ... قد أقصدتك بصائبات سِهام
عجَّلت على ذاك الجمال [فغادرت] (٢) ... ربْع المحاسن طامِسَ الأَعلام
فمحى الرَّدى من حُسْن وجهك آيةً ... نحو النهار لسَدْفَة الإِظلام
ما كنت إلا بَدْرَ تِم باهراً ... أخْنَى الخسوف عليك عند تمام
فعلى ضريح أبى الجيوش تحية ... كالمِسْك عَرْفا عند فضِّ ختام
وتغَمَّدته رحمة الله التى ... تُرضيه من عَدْن بدار مُقام

ومن الأعيان والوزراء

نصر بن إبراهيم بن أبى الفتح الفهرى

يكنى أبا الفتح ، أصلهم من حِصن أُرْيُول من عمل مرسية ، ولهم فى

(١) هكذا وردت فى الزيتونة واللمحة البدرية . وفى الإسكوريال (رضا) .
(٢) هذه الكلمة ساقطة فى الإسكوريال والزيتونة ، وواردة فى اللمحة البدرية .

الدولة النَّصرية مزيَّة خُصُّوا لها بأعظم رُتَب القيادة ، واستُعمل بعضهم فى ولاية السلطان .

حـــاله

نقلت من خط شيخنا أبى بكر بن شِبْرين ، قال : وفى السادس عشر لذى قعدة منه ، يعنى عام عشرة وسبعماية ، توفى بغرناطة القايدُ المبارك ، أبو الفتح ، أحد الولاة والأعيان الذاكرين لله تعالى ، أولى النزاهة والوفاء .

نصر بن إبراهيم بن أبى الفتح بن نصر بن إبراهيم بن نصر الفهرى

يكنى أبا الفتح ، حَفيد المذكور [معه فى هذا الباب] (١) .

حـــاله

من كتاب «طُرفة العصر» : نسيجُ وحده فى الخير والعَفاف ، ولين العريكة ، ودماثة الأخلاق (٢) ، إلى بُعْد الهمة ، وجمال الأبَّهة ، وضخامة التَّجنُّد ، واستجادة المَرْكِب والعُدَّة ، وارتباط العبادة . استعان على ذلك بالنِّعمة العريضة بين مُنادية (٣) إليه بميراث ، ومُكْتَسَبٍ من جرّاء المُتغلِّب على الدولة صِهْرِه ابن المحروق معياشة لُبْنَتِه . ونَمَت حال هذا الشهم النَّجد ، وشَمَخت رُتْبته حتى خُطِب للوزارة فى أُخريات أيامه ، وعاق عن تمام المُراد به ، إلحاح السَّقَم على بدنه ، وملازمة الضَّنا لجُثْمانه ، فمضى لسبيله ، عزيز الفَقْد عند الخاصَّة ، ذائع الثَّنا ، نقى العِرْض ، صدراً فى الوُلاة ، وعَلَماً فى القُوّاد الحُماة .

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى الزيتونة مكانها كلمة (قبله) .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة وفى الإسكوريال (الأخالق) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الزيتونة (متاوية) .

وفـــاته

توفى بغرناطة ليلة الجمعة التامن والعشرين لجمادى الآخرة عام خمسة وأربعين وسبعماية . وكانت جنازته آخذةً نهاية الاحتفال ، رَكِب إليها السلطان ، ووقف بإزاءِ لَحْدِه ، إلى أن وُورى ، تنويهاً بقَدره ، واشادة ببقاءِ الحرمة على خلفه . وحمل سريره الجملة من فرسانه وأبناءِ نعمته .

ومن الكتاب والشعراء

نزهون بنت القليعى [١]

قال ابن الأبّار ، وهو فيما أَحْسَبُ أبو بكر محمد بن أحمد بن خلف ابن عبد الملك بن غالب الغسّانى : غرناطية .

حـــالها

كانت أديبة شاعرة ، سريعة الجواب ، صاحبة فكاهة ودُعابة . وقد جَرَى شيء من ذلك فى اسم أبى بكر بن قُزْمان ، والمخزومى الأعمى ، وأبى بكر بن سعيد [٢] .

شـــعرها

دخل الأديب أبو بكر الكُتُندى الشاعر ، وهى تقرأ على المخزومى الأعمى ، فلما نظر إليها ، قال أَجِز يا أستاذ :

« لو كنتَ تُبصر من تكلِّمُه » [٣] . فأُفْحِمَ المخزومى زامِعاً ، فقالت :

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (القلعى) وذكرها ابن الخطيب من قبل (تزهون بنت القلاعى) (المجلد الأول ص ٤٢٥)

(٢) راجع المجلد الأول من الإحاطة (ص ٤٢٥–٤٢٧) ، والمجلد الثانى (ص٥٠٤و٥٠٥) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى النفح (تجالسه) .

« لَغَدَوْتَ أَخْرَسَ من خلاخله » ثم زادَتْ :

إليه البـــدرُ يطْلعُ من أَزرّتِه والغُصن يَمْــرحُ فى غَـلايله

ولاخفاء ببراعة هذه الإجازة ، ورفاعة هذا الأَدب .

وكتب إليها أَبو بكر بن سعيد : وقد بلغه أَنها تُخالط غيره من الأدباءِ الأَعيان :

يا من لـه أَلـف خلٍّ (١) من عاشـــق وعَشِيـق
أَراك خلَّيت للنّـــا س سَدَّ ذاك الطريق

فأَجابته بقولها :

حَلَلْتَ أَبا بكـر محـلاًّ منعتَــه سواك وهل غير الرفيع (٢) له صَدْرى
وإن كان لى كم من حبيب فإنما (٣) يقدِّم أَهلُ الحقِّ فضلَ (٤) أَبى بكر

وهذه غاية فى الحُسْن بعيدةٌ . ومحاسنها شهيرة ؛ وكانت من غُرَرْ المفاخِرِ الغَرْناطية .

حرف الصـــاد

من الأعيان والوزراء

الصُّمَيل بن حاتم بن عمر بن جذع بن شِمْر [بن] ذى الجوشن (٥) الضّبابى الـكلبى

وهو من أَشراف عَرَب الكوفة .

(١) هكذا وردت فى النفح وفى الإسكوريال (شخص)
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى النفح (الحبيب) .
(٣) هكذا وردت هذه الشطرة فى النفح . وفى الإسكوريال (وإن كان حلا لى كثيراً فإنما) .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى النفح (حب) .
(٥) وردت فى الإسكوريال والزيتونة (ذى الجيوش) وهو تحريف

أَوليّتــــه

قال صاحب الكتاب « الخَزَايِنى »[١] جدُّه أَحدُ قَتَلة الحسين بن على ؛ والذى قَدِم برأسه على يزيد بن معاوية . فلما قام المختار ثايراً بالحسين ، فرَّعنه شِمر ، ولحق بالشام فأقام بها[٢] فى عزٍّ ومَنَعة . ولما خرج كُلثوم بن عِياض غازيا إلى المغرب ، كان الصُّميل ممن ضُرب عليه البعث فى أشراف أهل الشام . ودخل الأَندلس فى طالِعة بَلْج بن بشر القُشيرى[٣] ، فشرُف ببَدَنِه إلى شرفٍ تقدَّم له . وردَّ ابن حيَّان هذا ، وقال فى كتاب « بهجة الأَنفُس ، ورَوْضة الأُنس » : كان الصُّميل بن حاتم هذا جدُّه شِمْر قاتل الحسين رضى الله عنه ، من أهل الكوفة ، فلما قتله ، تمكَّن منه المُخْتار[٤] فقتله ، وهَدَم داره . فارتحل ولدُه من الكوفة ، فرأَس بالأَندلس ، وفاق [أقرانه][٥] بالنجدة والسَّخاء .

حـــاله

قال : كان شجاعاً . نَجْدًا ، جوادا ، كريماً ، إلا إنه كان رجلا أُمِّيًّا لايقرأُ ولا يكتب ، وكان له فى قَلْبِ الدول ، وتدبير الحروب ، أَخبارٌ مشهورة .

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الزيتونة (الخزاذ)

(٢) واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال

(٣) واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال.

(٤) هو المختار بن أبى عبيد الثقفى . وقد خرج بالكوفة فى سنة ٦٦ هـ مطالبا بثأر الحسين ومن قتل من آل البيت . واستولى على الكوفة، وبايعه الناس على سنة كتاب الله ورسوله ، والمطالبة بثأر الحسين وآل البيت ، وتجرد المختار لمطاردة قتلة الحسين ، فقتل شمر بن ذى الجوشن ، و عمر ابن سعد بن أبى وقاص ، وكل من اشترك فى مأساة مقتل الحسين رضى الله عنه فى كربلاء

(٥) واردة أيضاً فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال

من أخباره . حكى ابن القوطيَّة ، قال ، مرَّ الصُّميل بمعلم يتلو « وتلك الأيام نُداولها بين الناس » ، فوقف يسمع ، ونادى بالمعلم ، يا هناه كذا نَزَلت هذه الآية ، فقال نعم ، فقال ، أرى[1] والله أن سيُشْرِكنا فى هذا الأمر ، العبيدُ والأراذل والسِّفْلة .

خبره فى الجود : قال : كان أبو الأجرب الشاعر ، وقفاً على أمْداح الصُّميل ، وهو القايل :

بنَى لك حاتمٌ بيتًا رفيعا ... رأيْناه على عُمُد طُوال
وقد كان ابْتَنَى شِمْرٌ وعمرو ... بيوتاً غير ضاحية الظِّلال
فأنت ابن الأكارم من معدًّ ... تَعْتَلج الأباطحُ والرِّمال

وقارَضه بإجزْاله لعَطايه ، وانتِمائه فى ثَوابه ، بأن أغْلَظَ القَسَم على نفسه ، بأن لا يراه ،إلاَّ أعطاه ما حَضَره ، فكان أبوالأجرب قد اعتمد اجْتِنابه[2] فى اللقاء ، حياءً منه ، وإبقاءً على ماله ، فكان لا يزوره إلا فى العِيديْن ، قاضياً لحقِّه . وقد لقيه يوما مواجَهةً ببعض[3] الطريق ، والصُّميل راكبٌ ، ومعه إبناه فلم يحْضرُه ما يُعطيه ، فأرْجَل أحدَ ابنَيْه ، وأعطاه دابَّتَه ، فضَرَب فى صُنْعه ، وفيه يقول من قصيدة :

دون الصُّميل شريعة مَوْرُودَةٌ ... لا يستطيع لها العدوُّ ورودا
فُتَّ الورى وجمعت أشتات العلا ... وحَوَيْتَ مجداً لا يُنال وجُودا
فإذا هَلَكْتَ فلا تحمَّلَ فارسٌ ... سَيْفا ولا حَمَل النساءُ وليدا

وكان صاحب أمرِه ولأه الأندلس قَبْل الأمويين ، لهم الأسماء ، وله مَعْنى الإمرة ، وكان مُظفَّر الحروب ، سديدَ الرأى ، شهيرَ الموقف ، عظيمَ

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (يارب) .
(٢) وردت هذه الكلمة فى الزيتونة ، ومكانها بياض فى الإسكوريال .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الزيتونة (فى) .

الصبر . وأَوْقعَ باليمانيةً وقايع كثيرة ، منها وقيعة شَقُنْدَة ، ولم يكن بالأَندلس مثلَها ، أَثْخنَ فيها القتل باليمانية .

أَنَفَته

قال : وكان أَبيًّا للضَّيم ، مُحاميا عن العشيرة ، كلَّم أَبا الخطّار الأَمير ، فى رجل من قومه ، انتصر به ، فأَفحجمه [1] ، وردَّ عليه ، فأَمرَ به ، فتَعْتَع ومالت عمامته . فلما خرج قال له بعض من على باب الأَمير ، يا أَبا الجَوْشن ما بال عمامتك مايِلة ، فقال إن كان لى قومٌ فسَيُقِيمونها ، وخرج من ليلته ، فأَفْسَد مُلكه .

وفاؤه : وخبَرُ وفائه مشهور ، فيما كان من جوابه لرسُولَى عبد الرحمن ابن معاوية إليه : بما قطع به رجاء الهَوادة فى أَمْرِ أَمِيره ، يوسف بن عبد الرحمن الفِهرى : والتَّستُّر مع ذلك عليهما [2] : فليُنظَر فى كتاب « المُقْتَبس » [3] » .

دخوله غرناطة

ولما صار الأَمر إلى عبد الرحمن بن معاوية ، صَقْر بنى أَمية : وقَهَر الأَمير يوسف الفِهرى ، ووزيره الصُّميل ، إذ عَزَله الناس ، ورجع معه يوسف الفهرى والصميل إلى قرطبة . ولم يلبثا أَن نَكثا ، ولحقا فَحصْ غرناطة ، ونازلهما الأَمير عبد الرحمن بن معاوية فى خَبر طويل ، واستَنْزَلهما عن عَهْد، وعاد الجميع إلى قرطبة ، وكان يوسف والصميل يَرْكبان إلى

(١) هكذا وردت فى الزيتونة وفى الإسكوريال (فنجمه) والأولى أرجح

(٢) هكذا فى الإسكوريال وفى الزيتونة (عليها)

(٣) هو كتاب « المقتبس فى أخبار أهل الأندلس » أو « المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس » لأبى مروان بن حيان ، أعظم مؤرخى الأندلس ، وأوثقهم رواية ، وأبرعهم نقدا (٣٧٧-٤٦٩ هـ) وقد سبق التعريف به (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ٩٢ حاشية)

القَصْر كل جُمعة إلى أن مضيا لسبيلهما . وكان عبد الرحمن بن معاوية يسْتَرجع ، ويقول ما رأيت مثله رجلاً . لقد صَحِبَنى من إلْبِيرة إلى قرطبة ، فما مسَّت رُكْبتى رُكْبتَه ، ولا خرجت دابَّتُه عن دابَّتِي .

ومن الكتاب والشعراء

صَفْوان بن إدريس بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس التُّجيبي

من أهل مُرْسية ، يُكنى أبا بجر .

حـــاله

كان أديبا ، حَسِيباً جليلا ، أَصيلا ، مُمْتِعا من الظرْف ، ريّان من الأَدب ، حافظا ، حسن الخَطِّ ، سريعَ البديهة ، تَرِفَ النَّشأَة ، على تصَاوُن وعَفاف ، جميلا سَرِيّاً ، سَمْحاً ذكيا ، مليح العِشرة ، طيِّب النفس ، ممَّن تساوى حظُّه فى النظم والنثر ، على تبايُن الناس فى ذلك .

مشـيخته

روى عن أَبيه وخاله ،ابن عم أَبيه القاضى أَبى القاسم بن إدريس ، وأَبى بكر بن مُغاور ، وأَبى الحسن بن القاسم ، وأَبى رِجال بن غَلْبُون ،وأَبى عبدالله بن حُميد ، وأَبى العباس بن مَضاء ، وأَبى القاسم بن حُبَيْش ، وأَبى محمد الحِجْرى ، وابن حَوْط الله ، وأَبى الوليد بن رُشْد . وأَجاز له أَبو القاسم ابن بَشْكُوال .

من روى عنه :أَبوإسحق اليابُرى ، وأَبو الربيع بن سالم ،وأَبوعبدالله ابن أَبى البقاء ، وأَبو عمرو بن سالم ، ومحمد بن محمد بن عَيْشون .

تواليــــفه

له تواليف أدبيّة منها ، « زاد المسافر» ، وكتاب « الرحلة » ، وكتاب « العِجالة » سفران يتضمنان من نظمه ونثره ، أَدباً لا كِفاء له . وانفرد من تأبين الحسين رضى الله عنه ؛ وبُكاءِ أهل البَيت بما ظهرت عليه بركتُه فى حكايات كثيرة .

شــعره

ثبتٌ من ذلك فى العِجالة قوله :

جاد الزمــان بــأَنَّــة الجَرْعــاءِ ... تَوْقــانَ من دمعى وغَيْث سماءِ
فالدَّمع يقضى عندها حق الهوى ... والغَيْمُ حــق البــانة الغَيْنــاءِ
خَلَتْ الصُّدور من القلوب كما خلَت ... تلك المقاصِــرُ من مَهىً وظِبــاءِ
ولقد أَقــول لصــاحبى وإنمــــا ... ذُخْــر الصَّــديق لأَمجد الأَشيــاءِ
يا صاحبىَّ ولا أَقــلْ إذا أنـــــا ... ناديت مَنْ إنْ تُصغيــا لنــداءِ
عُوجا بحار الغَيْم فى سَقْى الحِمـا ... حتّى ترى كيف انسكاب المـاءِ
ونسُنُّ فى سَــقْى المنــازل سُنَّــةً ... نَمْضى بهــا حُكْماً على الظُّرفــاءِ
يا منزلاً نَشَطت إليــه عَــبرتى ... حتّى تبَسَّــم زهــرُه لبــكاءِ
ما كنتُ قبلُ مزار رَبْعــك عالمـا ... أنَّ المدامــع أصــدقُ الأَنواءِ
ياليت شعرى والزَّمــان تَنَقُّـــلٌ ... والدهــر ناسخُ شــدَّةٍ برَخــاءِ
هل نلتقى فى روْضــة مَوْشِيَّــةٍ ... خفّاقــة الأَغصــان والأَفْياءِ
وننــال فيها من تــأَلُّفِنــا ولــو ... ما فيه سُخْمة(١) أعيُن الرُّقبــاءِ
فى حيث أَتْلَعَتْ الغُصون سوالفـاً ... قد قُلِّــدت بــلآلئ الأَنْــداءِ

(١) وردت فى الإسكوريال (سخنة) والتصويب من الزيتونة

وجَرَتْ ثغور الياسمين فقبَّلت — عَيْنى عِذار الآسَة الميْساء
والورد فى شطِّ الخليج كأنَّه — رمدٌ ألمَّ بمُقْلةٍ زرقاء
وكأنَّ غصن الزَّهْر فى خُضْر الرُّبى — زُهْر النجوم تلوح بالخَضْراء
وكأنما جاء النَّسيم مبشِّراً — للرّوض يُخبره بطول بَقاء
فكساه خِلْعة طِيبه ورمى له — بدراهم الأَزهار رَمْىَ سَخاء
وكأنَّما احتقَرَ الصَّنيع فبادرت — بالعُذْر عنه نَغْمة الوَرْقاء
والغُصن يرقص فى حُلى أوراقه — كالخُود فى مَوْشِيَّةٍ خضراء
وافترَّ ثغر الأُقْحوان بما رأى — طرباً وقَهْقَه منه جَرْىُ الماء
أفْديه من أُنْسٍ تصرَّم فانقضى — فكأنَّه قد كان فى الإغْفاء
لم يبق منه غير ذِكْرٍ أو منىً — وكلاهما سببٌ لطول عَناء
أو رُقعة من صاحب هى تُحفة — إن الرِّقاع لتُحْفة النُّبهاء
كبطاقة الوَسْمى إذ حيّا بها — إن الكتاب تحيَّة الظُّرفاء

وهى طويلة . وقال مراجعا عن كتاب أيضا :

ألا سمح الزمان به كتابا — ذرى(١) بوروده(٢) أُنْسى قبابا
فلا أدرى أكانا تحت وعْدٍ — دعا بهما لبُشرْى فاستْجابا
وقد ظَفِرت يدى بالغُنْم منه — فليت الدهر سنىَّ لى إيابا
فلو لم أسْتَفد شيئا سواه — قَنِعت بمثله عِلْقاً لُبابا(٣)
إذا أَحْرَزْتُ هذا فى اغترابى — فدعنى أَقْطَعُ العُمْر اغِترابا
رَجَمْتُ بأُنْسه شيطان هَمِّى — فهل وجَّهْتُ طِرساً أم شِهابا
رَشَفْتُ به رُضاب الوُدِّ عذباً — يُذكِّرنى شمايلَك العِذابا

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (زوى)
(٢) هكذا فى الإسكوريال وفى الزيتونة (فوروده)
(٣) هكذا فى الزيتونة ؛ وفى الإسكوريال (ليابا)

وكِدْت أَجرُّ أذيالى نشاطاً ... ولكن خِلْتُ قولَهم تَصابا
فَضَضْتُ ختامه عنى كأنى ... فتحتُ بفَضِّه للروض بابا
فكدت أَبثهُّ [فى جفن عينى[1]] ... لكى أستودع الزُّهْرَ السَّحابا
وكنت أَصُونه فى القلب لكن ... خَشِيت عليه أَن يَمْنى التهابا
ولو أَنَّ الليالى سامَحَتْنى ... لكنتُ على كتابكم الجوابا
فأُبْلى[2] عندكم بالشكر عُذْرا ... وأَجْزِلُ من ثَنايكم الثَّوابا
ولكن الليالى قيَّدتنى ... وقيَّدت غرضى[3] إلا الخِطابا
فما تَلْقانِيَ[4] الأَحباب إلا ... سلاما أو مَناما أو كِتابا
لأَمرٍ ما يقصُّ الدهر رِيشى ... لأن السَّهم مهما رِيش صابا
وعاذلةٌ تقول ولست أُصْغِى ... ولو أَصْغَيْتُ لم أَرفع جوابا
تُخوِّفنى الدَّواهى وهى عندى ... أَقلُّ من أن أُضِيق بها جَنابا
إذا طَرَقت أَعدُّ لها قِراها ... وقاراً واحتساباً واصطبارا
وما مثلى يُخَوَّفُ بالدواهى ... عرينُ اللَّيث لا يخشى الذُّبابا
تُعاتبنى فلا يرتدُّ طَرْفى ... وهل تَسْتَرْقِص الرِّيح الهِضابا
ولو أَنَّ العِتاب يُفيد شيئا ... ملأْتُ مسامع الدُّنيا عِتابا
وقد وصَّيتُها بالصَّمت عنى ... فما صَمَتت ولا قالت صوابا
تعنِّفُنى على تَرْكى بلاداً ... عَهِدْتُ بها القَرارة والشَّبابا
تقول وهل يفلُّ السَّيف إلاَّ ... إذا ما فارق السيف القِرابا
فقلت وهل يضرُّ السيف فَلٌّ ... إذا قطَّ الجماجم والرِّقابا

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بمحيص)
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (فأملى)
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (عدتى)
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (تلقى) .

بِخَوْض الهول تُكْتسب المعــالى ... يَحِلُّ السَّهل من رَكِب الصِّعابا
فلَيْثُ الغــاب يفترس الأَناسى ... وليثُ البَيْت يفترس الذُّبابا
ولو كان انقِضاض الطَّيْر سهلا ... لكانت كلُّ طــائرة عُقابــا
دعيني والنهـــــار أسير فيه ... أَسير عزايم تُفْرى الصِّــلابا
أُغازل من غَزالته فتـــــاةً ... تَبيَّض فودُهـــا هَرَماً وشــابا
إذا شــاءت مُواصَلتى تجلَّــت ... وإن مَلَّت توارَتْ لى احتجــابا
وأسْرى اللَّيل لا أَلوِى عِنــانا ... ولو نيل الأَمــانى لما[1] أَصــابا
أُطــارح من كواكبه كمــاما ... وأَزجر من دجنته[2] غُـــرابا
وأَركب شُهُباً غُبْراً كبــاعى ... وخُضْراً مثل خـاطرى انسِيابا
وآخذ من بَنــات الدَّهــر حقِّى ... جهــاز البيت استُلِب استلابا
ولست أذيِّل بالمدح القـــوافى ... ولا أَرضى بخُطَّتِها اكتســابا
أأمدح من به أهجــو مديحــى ... إذا طيَّبتُ[3] بالمسك الكــلاما
سأخزُنها[4] عن الأَسماع حتّى ... أَردَّ الصَّمت بينهما حِجــابا
فلست بمادح ما عِشتُ إلاَّ ... سيوفاً أَو جياداً أَو صِحــابا
أَبــا موسى وإنِّــى أُخَى وداد ... أُناجى لو سمعت إذا أَجــابا
ولــكن دون ذلك مهمةٌ لــــو ... طَوَتْه الريح لم تَرْج الإِيــابا
أَخــى بـــرٌّ المودَّة كلَّ بِــرٍّ ... إذا بَرَّ الأَشــقَّة الانْتِســابا
بعثت إليك من نظمى بــــدرٍّ ... شقَقْتُ عليه من فِــكرى عُبــابا
عدانى الدهر إن يَلْقاك شخصى ... فأغْنَى الشِّعر عن شَخْصى ونــابا

(١) هكذا فى الزيتونة . وفى الإسكوريال كلمة غير واضحة (سى) .
(٢) وردت فى الإسكوريال (دحبته) والتصويب من الزيتونة .
(٣) هكذا فى الإسكوريال وفى الزيتونة (أطيب) .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى الزيتونة (سأضربها) .

وقال فى الغرض الذى نظم فيه الرُّصافى من وصْفِ بلَده ، وذكر إخوانه ومعاهده[(١)] ، مساجلا فى العَروض والرَّوِى ، عَقِب رسالة سماها « رسالة طِراد الجياد فى الميدان ، وتنازع اللُّدان والإخوان ، فى تَنْفيق مُرْسية على غيرها من البُلدان » .

هل رسول البَرْق يَغْتنِم الأَجْــرا ... فينْشُر عنى مـاءَ عَبْرته نَثْرا[(٢)]
معاملة أَرْبُو بهـــا غيــرَ مُذنب ... فأُقْضِيه دمع العين من نقطة بَحْراً
ليُسْقِنى من تُدْمير[(٣)] قَطْرا مُحَبَّباً ... يَقِرُّ بعين القَطْر أَن تشرب القطرا
ويَقْرِضُه ذوب اللُّجيـــن وإنمــا ... تُوفِيه عَيْنى من مدامعهــا تِبـرا
وما ذاك تقصيراً بهـــا غير أَنــه ... سَجِيَّة ماءِ البَحْر أَن يَذْوِى الزَّهرا
خلِيلى قوما فأَحْبِسا طرق الصَّبـــا ... مخافة أَن تحْمى بزَفْرتى الحــرًّا
فإن الصَّبـــا ريحٌ علىَّ كريمـــة ... بآية ما تَسْرى من الجـنَّة الصُّغرا
خليلىَّ أَغْنِى أَرض مُرســية المُنا ... ولولا توخِّى الصِّدق سَمَّيْتُها الكُبرا
محلِّى بل جوِّى الــذى عبقَتْ بـه ... نواسمُ آدابى مُعطَّـــرةً نَشْـرا
ووَكْرى الذى منه دَرَجْتُ فليتنى ... فُجعت بريش العَزْم كى أَلْزَم الوكْرا
وما روضة الخَضْراءِ قد شَلَت بهـا ... مجرَّتُها نهراً وأَنجمُهـا زُهْـرا
بأَبهج منـها والخليج مجـرَّةٌ ... وقد فَضَحت أَزهار ساحتها الزَّهرا
وقد أَسْكَرت أَزهار[(٤)] أَغصانها الصَّبا ... وما كنتُ أَعتدُّ[(٥)] الصبا قَبْلها خمرا

---

(١) وردت قصيدة الرصافى المشار إليها فى ترجمته التى تقدمت (المجلد الثانى من الإحاطة ص ٥٠٧ – ٥٠٩) ومطلعها :

خليلى ما للبيد قد عبقت نشراً ... وما لرؤوس الركب قد رجحت سكرا .

(٢) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة كالآتى : (فينشر عنى ما عبرت به نثرا) .

(٣) تدمير هو اسم آخر لمرسية ، وهو اسم الولاية التى تقع فيها .

(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (أعطاف) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (أعددت) .

هنالك بين الغُصن والقطر والصَّبا وزهر الرُّبى وُلِدت آدابى الغَـرَّا
إذا نَظَم الغصن الحيا قال خاطرى تعلَّم نِظام النَّثر من هاهنا شِـعْرا
وإن نَثَرتْ ريحُ الصَّبا زهر الرُّبى تعلَّمتُ حلَّ الشعر أُسْبِكُه نثـرا
فوايد أَسْحارٍ هنـاك اقْتَبَستهـا ولم أر روضاً غيره يُقْرِئُ السِّحرا
كأَنَّ هَزيز الريح يمدح رَوْضهـا فتملأُ فاه[(١)] من أزاهرها دُرَّا
أيارَنْقات [الحسن][(٢)] هل فيك نظرة من الجُرْف الأَعلى إلى السِّكة الغرَّا
فأنظر من هذِى لتلك كأنمـا أغيرُ إذ غازَلَتْها أُختُها الأُخْـرا
هى الكاعبُ الحَسناءُ تُمِّم حسنُها وقُدَّت لها أَوراقُها حُللاً خَضْـرا
إذا خُطِبت أَعطت دراهم زَهْرهـا وما عادة الحَسْناء أَن تَنقُدَ المَهْرا
وقامت بِعُرس الأُنس قينةُ أَيْكةٍ أَغاريدها تَسْتَرْقص الغُصن النَّضِرا
فقُلْ فى خليجٍ يلبس الحُوت دِرْعه ولكنه لا يستطيع بهـا قصـرا
إذا ما بدا فيها الهلال رأيتـه كصفحة سيفٍ وَسْمُها قُبعة[(٣)] صَضْرا
وإن لاح فيها البدر شَبَّهت مَتْنَه بسَطْرٍ[(٤)] لجين ضَمَّ من ذهبٍ عشرا
وفى جُرْفى روض هناك تجافيـا لنهر يودُّ الأُفق لو زاره فَجْـرا
كأَنهما خِلاَّ صفـاءٍ تَعاتبـا وقد بكيا من رقَّـة ذلك النَّهرا
وكم لى بالباب الجديد[(٥)] عشِيَّةٌ من الأُنس ما فيه سـوى أَنَّه مرّا

---

(١) هكذا فى الإسكوريال وفى النفح (فلأ فاها).

(٢) الزيادة من الزيتونة والنفح .

(٣) وردت فى الإسكوريال والزيتونة (نبعة) والتصويب من النفح .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة وفى النفح (بشط) .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة. وفى النفح (بابيات الحديد) . والأولى أرجح وأنسب للسياق .

عَشِّيات(١) كأَنَّ الدهر غُصّ(٢) بحسنها ... فأَجْلت سياط(٣) البرْق أفراسها الشَّقرا
عليهنَّ أُجرى خَيْل دمعى بوَجْنَتى ... إذا رَكِبت حُمْراً ميادينها الصفرا
أَعهدى بالغَرْس المُنَعَّم دَوْحُه ... سَقَتْك دموعى إنها مُزْنة شكرا
فكم فيكِ من يوم أَغرَّ مُحجَّل ... تقضَّت أَمانيه فخلَّدْتُها ذِكرا
على مُذَنَّب كالنحر(٤) من فرط حُسنه ... تودُّ الثُّرَيَّا أَن تكونَ له نَحْرا
سقت أَدمعى والقَطْرُ أَيهما انبْرى ... نقا الرَّملة البيضاء فالنَّهر فالجسرا
وإخوان صِدْقٍ لو قضيت حقوقهم ... لما فارَقَتْ عينى وجوهَهم الزَّهرا
ولو كنت أَقْضِى حَقَّ نفسى ولم أَكن ... لما بِتُّ أَسْتَحلى فراقَهم المُرَّا
وما اخترتُ هذا البُعْد إلاَّ ضَرْوةً ... وهل تَسْتَجير العين أَن تفقد الشُّفرا
قضى الله أَن [يَنْأَى بى الدهر](٥) عنهم ... أَراد بذاك الله أَن أَعْتَبَ الدهرا
ووالله لو نِلْتُ المُنا ما حَمِدتها ... وما عادةُ المشْغُوف أَن يُحْمِدَ الهجْرا
أُيانس باللَّذات قلبى ودونهم ... مرام يجدُّ الرَّكب(٦) فى طيِّها شهرا
ويصحب هادى الليل راءً وحُرفَة(٧) ... وصاداً ونوناً قد تقوّس(٨) واصفرّا
فدَيْتُهم بانوا وضنُّوا بكَتْبهم ... فلا خَبَرًا منهم لقيتُ ولا خُبْرا
ولولا عُلا هِمانهم لعَتَبْتُهم ... ولكنَّ عُراب الخيل لاتحمل الزَّجرا(٩)

---

(١) هكذا وردت فى النفح. وفى الإسكوريال والزيتونة (عشايا).
(٢) هكذا فى الإسكوريال وفى الزيتونة (غض) وفى النفح (غضا).
(٣) هكذا فى الإسكوريال وفى الزيتونة والنفح (بساط) والأولى أرجح.
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة. وفى النفح (كالبحر).
(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال. وفى النفح (تنأى بى الدار).
(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى النفح (الكرب) والأولى أرجح وأنسب للسياق.
(٧) هكذا وردت فى النفح، وفى الإسكوريال (وحزمة).
(٨) هكذا وردت فى الإسكوريال، وفى النفح (تقدس) والأولى أرجح.
(٩) هذا البيت وارد فى الإسكوريال والزيتونة، وساقط فى النفح.

ضربتُ غُبار البِيد فى مَهْرق السُّرى ... بحيث جعلتُ الليل فى ضربه حِبرا
وحقَّقت ذاك الضَّرب جَمْعاً وعُدَّة ... وطرحاً وتجميلا فأَخرج لى صفرا
كأَنَّ زمانى حاسبٌ مُتعسِّف ... يُطارحنى كَسْراً أَما يُحْسن الجَبرا (١)
فكم عارف بى وهو يَحْسُب رُتبتى ... فيمدَحُنى سرًّا ويَشْتِمنى جَهرا
لذلك ما أَعْطَيْتُ نفسى حقَّها ... وقلتُ لسِرْب الشِّعر [لا تهمُّ الفِكرا] (٢)
فما بَرِحت فكرى عَذارى قصايدى ... ومن خُلُق العَذْراءِ أَن تأْنَف الخِدرا
ولست وإِن طاشَتْ سهامى بايسٍ ... فإِن مع العُذر الذى يُتَّقى يُسرا

ومن مقطوعاته :

يا قمرا مَطْلَعه أَضْلُعى ... له سوادُ القلب منها غَسَق
وربما استَوْقد نار الهوى ... فذاب فيها لونها عن شَفَق
مَلَكْتنى فى دولة من صِبا ... وصدَّتْنى فى شَرَكٍ من حَدَق
عندى من حُبيبك (٣) مالو سَرَتْ ... فى البحر منه شُعلة لاحترق

ومن مقطوعاته أَيضاً :

قد كان لى قلبٌ فلما فارقوا ... سوَّى جناحاً للغرام وطارا
وجَرَتْ سَحَابٌ بالدموع فأَوقدت ... بين الجوانح لَوْعَةً وأُوارا
ومن العجايب أَنَّ فَيْض مدامعى ... ماءٌ ويُثمر فى ضلُوعى نَارا

وشعره الرَّمْل والقطْر كثرةً ، فلنختم له المقطوعات بقوله :

قالوا وقد طال بى مَدى خطىءٌ ... ولم أَزل فى تَجرُّمى ساهِ
أَعَدَدْتَ شيئاً ترجو النجاة به ... فقلتُ أَعْدَدْتُ رحمة الله

---

(١) أورد الناسخ هذا البيت فى هامش الصفحة (206) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة والنفح (لا ترم الذكرا) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (حبك) .

نـــثـــره

كتب يهنى ، قاضى الجماعة أبا القاسم بن بَقى من رسالة : لان قدره[١] ، دام عُمره ، وامتُثِل نهيُه [الشرعى][٢] وأمرُه ، أعْلَى رتبةً ، وأكْرَم محلا ، من أن يَتَحَلَّى بخُطَّة هى به تَتَحَلَّى . كيف يهنأُ بالقعود لسماع دَعْوة الباطل ، ولمعاناة الإنصاف المَطول من الماطل ، والتَّعب فى المعادلة ، بين ذوى المجادلة . أما لو عَلِم المُتَشوِّقون إلى خُطَّة الأَحكام ، المُسْتَشْرِفون إلى مالها من التَّبسُّط والاحتِكام ، ما يجب لها من اللَّوازم ، والشروط الجوَازم ، كبَسْطِ الكَنَف ، ورَفع الجَنَف ، والمساواة بين العدوِّ وذى الذَّنْب ، والصاحب بالجَنْب ، وتقديم ابن السَّبيل ، على ذى الرَّحم والقَبيل ، وإيثار الغَريب على القَريب ، والتوسُّع فى الأَخلاق ، حتى لِمَنْ ليس له من خلاق ، إلى غير ذلك مما عِلْمُ قاضى الجماعة أحصاه ، واستعمل لخُلقه الفاضل أدناه وأقصاه ، لَجَعَلوا خُمولهم مامولهم ، وأضْربوا عن ظُهُورهم ، فنبذوه وراءَ ظُهُورهم ، اللهم إلا من أُوتى بَسْطةً فى العِلْم ، ورَسا طوداً فى ساحة الحِلْم ، وتساوى ميزانه فى الحرب والسِّلم ، وكان [كقاضى الجماعة][٣] ، فى المماثلة بين أجناس الناس ، فقصاراه أن يتقلد الأَحكام للأَجر ، لا للتَّعسف[٤] والزَّجر ، ويتولاَّها للثواب ، لا للغِلْظَة فى رد الجواب ، ويأخذها نحُسْن الجزاء ، لا لقُبح الاستهزاء ، ويلتَزِمُها لجزيل الذُّخْر لا للإِزْراءِ والسُّخر . فإذا كان كذلك ، وسلك المتولىِّ هذا السَّالك ، وكان كقاضى[٥]

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والزيتونة وفى النفح (محله) .

(٢) هذه الكلمة الزائدة من الذيل والتكلة ، والنفح .

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (كونالا) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال وفى الذيل والتكلة والنفح (للتعنيف) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الذيل والتكلة (مثل قاضى) .

الجماعة ولا مِثْل له ، ونفع الحقَّ به عِلله ، ونَقَعَ غُلله ، فيومئذ تَهْنَأُ به خُطَّة القضاء ، ويعرف ما لله عليه [١] من اليَد البَيْضاء [٢]

ومحاسنه فى النثر أيضاً جمة .

ومن أخباره أنه رحل إلى مرّاكُش متسبِّباً فى جهاز بِنْتٍ بَلَغَتْ التَّزويج ، وقصد دار الإمارة مادحاً ، فما تيسّر له شئٌ من أمله ؛ ففكَّر فى خيبة قصده ، وقال لو كنت تأمَّلتُ جهة الله ، ومدحتُ المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وآل بيته الطاهرين ؛ لبلغتُ أملى بمحمود عملى. ثم استغفر الله فى توجُّهه الأول ؛ وعلم أن ليس على غير الثانى من مُعَوَّل ؛ فلم يكن إلا أن صوّب نحو هذا القصد سَهْمه ، وأمضى فيه عزمه ؛ وإذا به قد وُجِّه عنه ، وأُدخل على الخليفة ، فسأله عن مقصده . فأخبره [مفصحاً به] [٣] فأَنْفَذه وزاده عليه ؛ وأخبره أن ذلك لرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النَّوم يأمره بقضاء حاجته . فانفصل مُوفَّى الأغراض ؛ واستمر فى مدح أهل البيت حتى اشتهر فى ذلك .

وفـــاته

سنة ثمان وتسعين وخمسماية ، وسنه دون الأربعين سنة ؛ وصلى عليه أبوه ، فإنه كان بمكان من الدِّين والفضل رحمة الله عليه ؛ وتلقيت من جهات ؛ أنه دخل غرناطة ، لما امتدح القايد أبا عبد الله بن صَناديد بمدينة جيَّان ، حسبما يظهر من عُجالته ، من غير تحقيق لذلك .

---

(١) وردت فى الإسكوريال (على) وفى النفح (عليها) والتصويب أرجح .
(٢) وردت هذه الرسالة بأكملها فى الذيل والتكلة (السفر الرابع ص ١٤٠ — ١٤٣) .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بما جاء له) .

صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبى القاسم ابن على بن شريف النِّفْرى

من أَهل رُندة ، يكنى أبا الطَّيِّب .

حـــاله

قال ابن الزُّبير ، شاعر مُجيدٌ فى المدح والغَزَل ، وغير ذلك . وعنده مشاركة فى الحساب والفرايض . نظم فى ذلك . وله تواليف أدبية . وقصايد زُهدية ، وجزءٌ على حديث جبريل عليه السلام . وغير ذلك مما روى عنه. وكان فى الجملة معدوداً فى أهل الخير ، وذوى الفضل والدِّين . تكرَّر لقائى إياه ، وقد أَقام بمالقة أشهراً ، أيام إقراءى . وكان لا يفارق مجالس إقراءى ، وأنشدنى كثيراً من شعره .

وقال ابن عبد الملك ، كان خاتمة الأُدباء بالأَندلس ، بارع التَّصرُّف فى منْظُوم الكلام ومنْثُوره ، فقيهاً حافظاً ، فرَضِيا ، متفنِّناً فى معارف شتى ، نبيل المقاصد ، متواضعاً ، مقتصداً فى أحواله . وله مقامات بديعة فى أغراض شتَّى ، وكلامه نظما ونثرا ، مُدوَّن .

مشـــيخته

روى عن آباء الحسن أَبيه (١) ، والدبَّاج ، وابن الفخَّار الشَّريشى ، وابن قَطْرال ، وأَبى الحسن بن زَرْقُون ، وأَبى القاسم بن الجَدِّ .

تواليـــفه

أَلَّف جزءا على حديث جبريل ، وتَصْنيفا فى الفَرايض وأَعمالها ،

(١) هكذا فى الإسكوريال والزيتونة .

وآخر فى العَروُض ، وآخر فى صَنْعة الشعر سماه «الوافى [١] فى عِلم القوافى» [٢] .
وله كتاب كبير سماه « رَوْضَةُ الأُنْس ، ونُزْهة النَّفس » [٣] .

دخوله غرناطة

وكان كثير الوِفادة على غرناطة ، والتردُّد إليها ، يَسْتَرْفِد ، ملوكها ، ويُنْشِد أمراءها ، والقصيدة التى أوَّلها : « أَواصِلِى يوماً وهاجِرِى ألفاً » ، أخبرنى شيخنا أبو عبد الله اللَّوشى ، أنه نظمها باقتراح السلطان رحمه الله . وقد أوعز إليه ألاّ يخرج عن بعض بساتين المُلْك ، حتى يُكملها فى معارضة محمد بن هانئ الإلبيرى .

شعره

وهو كثير ، سهل المَأْخذ ، عذب اللفظ ، رايِقُ المعنى ، غيرُ مُؤْثِر للجزالة . فمن ذلك قوله رحمه الله فى غرض المدح من السُّلطانيات :

سَوى والحبُّ أَمـر لا يُرام ... وقد أَغْرى به الشَّوق والغـرام
وأَغْفَى أَهلُـها إلاّ وُشـاة ... إذا نـام الحـوادثُ لا تَنام
وما أَخْفـا بين القـوم إلا ضَناً ... وربمـا نفـع السَّقـام
فنـال بهـا على قَدر مُنـاه ... وبين التَّبْض والبَسْـط التِيام
وأَشْهى الوصلِ ما كان اخْتِلاسا ... وخيـرُ الحبّ ما فيه اخْتِتـام

(١) وردت فى الإسكوريال والزيتونة « الكافى » ، وكذا فى التكملة لابن عبد الملك (السفر الرابع ص ١٣٧) وصححت فى هامش الإسكوريال (الوافى) .

(٢) وعنوان الكتاب الصحيح حسبما اطلعنا على نسخة مخطوطة منه بمكتبة الرباط العامة (رقم 1730 الكتانية) هو : « الكتاب المسمى بالوافى فى نظم القوافى » ، وهو مخطوط قديم يقع فى ١٨٧ صفحة كبيرة ، مكتوب بخط مغربى جميل . وفى ديباجته ما يدل على أن مؤلفه أبا الطيب الرندى ، قد تولى منصب القضاء .

(٣) هو كتاب فى التاريخ والأدب . وقد كتبه أبو الطيب برسم حاميه السلطان محمد ابن يوسف بن الأحمر الكبير مؤسس مملكة غرناطة (٦٣٥ – ٦٧١ هـ) ، وكان شاعره الأثير .

وما أَحْلَى الوِصال لو انَّ شَيْئا ... من الدُّنيا للــــذَّته دَوام
بكيتُ من الفِراق بغير أَرضي ... وقد يَبْكى الغَـريبُ المُسْتهام
أَعاذِلَتى وقد فارقت إلْـفِى ... أَمِثْلى فى صَبابَتِه يُـلام
أَأَفْقِدُه فلا أبكـى عليـه ... يكونأرقَّ من قلـبى الحِمام
أَأَنساه فأَحْسُبُـه كصبرى ... وهـل يُنسى لمحبـوب ذِمام
رُوَيداً إن بعض اللَّـوم لومٌ ... ومثـلى لا يُنَهْنِهُـه المَلام
ويومُ نوًى [1] وضعتُ الكفَّ فيه ... على قلبٍ يطـير به الهيـام
ولولا أن سَفَحْتُ به جفونـاً ... تفيض دَماً لأَحْـرَقها الضِّرام
وليلُ بتُّه [2] كالدهر طـولاً ... تنكَّـر لى وعَـرَّفه التَّمـام
كأَنَّ سماه زُهـر [3] تجـلَّى ... بزَهر الزَّهــر والشَّوق الكِمـام
كأَنَّ البَدْر تحت الغَيم وجـهٌ ... عليـه من مَلاحـه لِثـام
كأَنَّ الكوكب الدُّرِّى كأْسٌ ... وقد رقَّ الـزُّجاجة والمُدام
كأَنَّ سُطور [4] أفلاك الدَّرارى ... قِسِىٌّ والرُّجـوم لها سِهـام
كأَن مَدار قُطب بَنات نعش ... نَدِىٌّ والنجـوم به نِدام
كأَن بَناته الكـبرى جَـوارٍ ... حَـوارٍ والسُّهى فيها غُلام
كأَن بناتـه الصُّغرى جُمـانٌ ... على لَبَّاتِها منها [5] نِظـام
كواكبُ بِتُّ أَرعاهُـنَّ حتى ... كأَنِّى عاشـقٌ وهى الذِّمـام
إلى أن مـزَّقت كفُّ الثُّريّـا ... جيوبَ الأفق وانْجاب الظلام

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (النوى) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى التكلة (صبابة) والبيت ساقط فى الزيتونة .
(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى التكلة (روض) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (سلوك) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال والزيتونة ، وفى الذيل والتكلة (منه) .

فما خِلتُ انْصِداع الفجر إلا　　قِراباً يُنْتَضى منه حُسام
وما شَبَّهتُ وجه الشمس إلا　　بوجهك أيها الملك الهُمام
وإن شَبَّهته بالبَدْر يوماً　　فللبَدْر الملاحةُ والتَّمام
تَهلَّل منه حُسْن الدهر حتى　　كأَنَّك فى مُحيَّاه ابتسام
وعَرَّف ما تنكَّر من معالٍ　　كأَنَّك لاسْمِها أَلِفٌ ولام
ومِلْءُ العين منك جَلال مولىً　　صنائعهُ كغُرَّته وسام (١)
إذا ما قِيل فى يده غَمام　　فقد بَخُسَتْ وقد خُدِع الغمام
وحَشْوُ الدِّرع أَرْوَع غالِبيٌّ　　يُراعُ بذِكْره الجيشُ اللُّهام
إذا ما سَلَّ سَيْف العزم يوما　　على أمر فسَلِّم يا سَلام
تناهى مجدُه كرماً وبأْساً　　فما يدرى أَمَحياً أَم حِمام
نَمَتْهُ للمكارم والمعالى　　سُراةٌ من بَنى نَصْرٍ كرام
هُم الأَنصار هُم نَصَرُوا وآوَوا　　ولولا المِسْك ما طاب الخِتام
وهم قادُوا الجيوش لكل فَتْح　　ولولا الجَدُّ ما قَطع الحُسام
وهم مَنحوا الجزيرة من حِماهم　　جِواراً لا يُذمُّ ولا يُضام
فمن حَرْبٍ تشيب له النَّواصى　　وسَلْم تحيَّته سلام
بِسَعْدك يا محمد عزَّ دين　　له بعد الإله بك اعتصام
وباسمك تمَّ للإسلام سَلْمٌ　　وغِبَّ السلم نصرٌ مُستدام
وكان مَرَامُه صعباً ولكن　　بحمد الله قد سَهُل المرام
أدام الله أَمْرك من أمير　　ففيه لكل مَكْرُمةٍ دوام
وأنت العُرْوة الوُثْقى تماما　　وما للعُرْوة الوُثقى انفصام
وروحٌ أَنت والجسم المعالى　　ومعنىً أنت وللَّفظ الأَنام

(١) فى الزيتونة (وشام).

إذا ما ضاقت الدنيـا بحُـرٍّ　　كفاه لَثْمُ كفِّك والسـلام

ومن شعره أيضا :

أَواصـلتى يوماً وهاجرتى ألفـاً　　وصالُكِ ما أَحْلَى وهَجْرُكِ ما أَجْفا
ومن عجبٍ للطَّيف أن جاءَ واهتدى　　فعاد عليلاً[1] عاد كالطَّيف أم أَخْفا
فياسايراً لولا التخيُّل ما سَـرى　　ويا شاهداً لولا التعلُّل ما أغفا
أَلمّ فأَحيـانى وولَّى فراعـنى　　ولم أَرَ أَجْفَى منك طبعا ولا أَشْفا
بعَيْنى شـكواى لِلْغَـرام وتيهـه　　إلى أَن تثَنَّى عطفُه فانثنَى عَطْفا
فعانقتُه شوقاً وقبَّلته هـوًى　　ولا قُبلة تكفى ولا لوعـةٌ تَطْفا

ومن نزعاته العجيبة قوله ، وقد سبق إلى غرضه غيره :

يا طَلْعَـة الشمس إلاَّ إنه قمـرٌ　　أَمَّا هـواك فلا يُبقِى ولا يَـذر
كيف التخلُّص من عَيْنَيك لى ومتى　　وفيهما القاتلان الغَنْج والحَـوَر
وكيف يُسْلى فؤادى عن صَبابته　　ولو نَهى النَّاهِيان الشَّيْبُ والكِبرُ
أَنت المُنا والمنايا فيك قد جُمعت　　وعندك الحالتـان النَّفْع والضَّرر
ولى من الشوق ما لا دَواءَ لـه　　ومنك لى الشَّافيان القُرب والنَّظر
وفى وِصالك ما أُبْقى بـه رَمَقى　　لو ساعد المُسْعِدان الذِّكر والقَدَرُ
وكان طَيْفُ خيالٍ منك يُقْنعنى　　لو يذهب المانِعان الدَّمع والسَّـهر
يانابياً[2] لم يكن إلاَّ ليملكَنى　　من بعده المُهْلكان الغَمُّ والغَيْـر
ما غِبتَ إلا وغاب الجنسُ أَجمعُه　　واستوحش المُؤنسان السَّمع والبصر
بما تُكِنُّ ضلوعى فى هواك بمـن　　يعنو له السَّاجدان النجم والشجر
إدرك بقيَّة نفسٍ لست مُدرِكُهـا　　إذا مضى الهادِيان العَيْن والأَثـر

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (معليا) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (يا غايبا) .

وذُلَّ حَيْرة مهجور بلا سبب — يبكى له القاسيان الدّهر والحَجر
وإن أَبيتَ فلى من ليس يُسلمنى — إذا نبا المُذْهبان الوِردُ والصَّدر
مؤيِّداً لمَلْك بالآراء يُحْكِمها — فى ضمنها المُبْهِجان اليُمن والظَّفر
من كالأمير أبى عبد الإله إذا ما — خانت القَدمان[١] البيضُ والسُّمر
الواهب الخيل آلافا وفارسها[٢] — إذا استوى المُهْطِعان الضرُّ والصَّبْر
والمُشْبِه اللَّيث فى بأس وفى خَطَرٍ — ونِعْمَت الحِلْيتان[٣] البأس والخَفَر
تأَمَّن الناس فى أيامه ومشوا — كما مَشَى الصَّاحبان الشاة والنِّمر
وزال ما كان من خوفٍ ومن حذرٍ — فما يُرى الدَّايلان الخوف والحذر
رأيتُ منه الذى كنتُ أَسمعه — وحبَّذا الطَّيِّبان [الخَبْرُ والخُبرُ][٤]
ما شِيت من شيم عُليا ومن شيم — كأنها الرَّايقان الظلُّ والزَّهرُ
وما أَردتَ من إحسان ومن كرم — يُنْسى به الأَجْوَدان البحرُ والمطرُ
وغُرَّةٌ يتلألأُ من سماحتها — كأنها النَّهران الشمس والقمر
إيه فلولا دواعٍ من محبته — لم يَسْهُل الأَصْعَبان البَيْن والخطَر
نأَيتُ عنه اضطرارا ثم عُدت له — كما اقتضى المُبْرمان الحِلُّ والسَّفر
فإن قضى الله أن يَقْضى به أَملى — فحسْبى المُخْصِبان الظلُّ والثَّمر
ولست أَبْعُد إذْ والحال مُتَّسع — أن يُبْلَغ الغايبان السُّؤْل والوَطَر

ومن شعره فى أغراض متعددة . قال فى الليل والسَّهر :

أَطال ليلى الكَمَد — فالدهر عندى سَرْمَد

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (العدمان) .
(٢) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (ومارسا) والأولى أرجح .
(٣) وردت فى الإسكوريال والزيتونة (الحيلتان) والتصويب أرجح .
(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى الزيتونة وودت فى الإسكوريال (الخمر والخبر) .
وقد آثرنا الأولى لأنه لا محل لذكر الخمر هنا باعتبارها من الطيبات .

وما أظن أنه لِلَيــــلة الهجــــر غَـــد

يا نائمــا عن لَوْعَتى عُوفيت ممــا أَجِـد

أَرْقُد هنيًا إنــــنى لا أســـتطيع أرقد

لواعج [1] ما تنطفى وأدمع [2] تضــطرد

وكبدى كبد الهـوى وأين منى الكبد [3]

ولا تَسَلْ عن جَلَدى والله مــالى جَـــلَد

ومن شعره أيضا فى المقطوعات :

وليلة قُصِّر من طولهـــا بزوْرَةٍ من رشـــأ نافِـــر

أستوفر الدهر بها غالطـــاً فأُدْغم الأوَّل والآخـــر

وقال من قصيدة مُغْرِبة فى الإحسان :

وليلة نَبَّهت أجفــــانها والفجرُ قد فجَّر نهـر النهار

والليل كالمهْزُوم فى يوم الوغا والشُّهب مثل الشُّهب عند الفِرار

كأنما استَخْفى السُّهى خيـفةً وطُولب النَّجم بثأرٍ فثــار

لذاك [4] ما شابت نواصى الدُّجى وطارح [5] النِّسر أخاه فطــار

وفى الثُّـــريَّا قمـــر ســافر عن غرَّة غيِّر منها الشِّفـــار

كأن عنقوداً [بها ماثلٌ] [6] إذ صار كالعُرْجُون عند السِّرار

كأنهــا تُشْبك دينـــاره وكفُّها تَفتَّـل منه ســوار

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (اواعجى)

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (وادمعى) .

(٣) هكذا ورد هذا البيت فى الزيتونة وورد فى الإسكوريال كالاتى (وكبد فى كبد ، لمن واين الكبد) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال والزيتونة . وفى النفح (كذاك) .

(٥) هكذا فى الإسكوريال والزيتونة . وفى النفح (طير) .

(٦) هكذا فى الإسكوريال والزيتونة ، وفى النفح (تثنى به) .

كأنما الظَّلماءُ مظلومة　　تحَكَّم الفَجْرُ عليها فجار
كأَنما الصُّبح لمشتاقه[(١)]　　[إقبالُ دُنيا][(٢)] بعد ذلٍّ افتِقار
كأَنما الشمس وقد أَشرقت　　وجهُ أَبي عبد الاله اسْتنار

وفى وصف البحر والأَنهار وما فى معنى ذلك :

البحر أَعظمُ مما أَنت تَحْسَبه　　من لم يرالبحريوما ما رأَى عجبا
طامٍ له حَبَبٌ طاف على زَوْرق　　مثلُ السماءِ إِذا ما ملئت شُهُبا

وقال فى وصف نهر :

وأَزرق مَحفوفٌ بزهر كأَنَّه　　نجوم بأَكناف المجرَّة تَزْهَر
يسيل على مِثْل الجُمان مُسَلسلا　　كما[(٣)] سُلَّ عن غِمْد حُسام مُجَوْهر
وقد صافح الأَدواح من صَفَحاته　　حتى حبابٍ بالنَّسيم مُكَسَّر
فما كان فى عَطْف الخليج قُلامة　　وما كان فى وجه الغدير فمُغْفَر

وفى العقل والتَّغرُّب :

ما أَحسن العقل وآثاره　　لو لازَم الإِنسان إِيثاره
يصُون بالعقل الفتى نفسه　　كما يصون الحرُّ أَسْراره
لا سيا إِن كان فى غُرْبة　　يحتاج أَن يُعرف مِقداره

ومن وصفه الجيش والسلاح :

وكتيبة بالدَّارعين كثيفة　　جرَّت ذيول الجَحْفل الجرّار
روضُ المنايا بينها القُضُب التى　　زُفَّت بها الرَّايات كالأَزهار
فيها الكُماة بنو الكُماة كأَنهم　　أُسْد الشَّرى بين القنا الخَطّار

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (لعشاقه) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة ، وفى النفح (عز غنى) .
(٣) وردت فى الإسكوريال (كل) والتصويب من الزيتونة .

مُتهلِّلين لدى اللِّقاءِ كأَنهم خُلِقت وجوههم من الأَقمار

من كلِّ ليثٍ فوق بَرْقٍ خاطف بيمينه قَدرٌ من الأَقْدار

من كلِّ ماضٍ قد تقلَّد مثله فيصُبُّ آجالاً على الأَعمار

لبسوا القلوب على الدروع وأَسرعوا لأَكفِّهم ناراً لأَهل النار

وتقدموا ولهم على أعدائهم حُنقُ العِدا وحميَّةُ الأَنصار

فارتاع ناقوس بخلع لِسابه وبكى الصَّليب لِذلَّة الكُفَّار

ثم انثنوا عنه وعن عُبَّاده وقد أَصبحو خَبَراً من الأَخبار

وفى السَّيف :

وأَبيضُ صيغ من ماءٍ ومن لَهَبٍ على اعتدال فلم يَخْمُد ولم يَسِل

ماضى الغِرار يهاب العُمْر صَوْلته كأَنما هو مَطْبُوع من الأَجل

أَبهى من الوَصْل بعد الهجْر مَنْظَره حُسْناً وأَقْطعُ من دَيْنٍ على مال

وأَسمر ظنَّ ما كلَّ سابِغة فخاض كالأَيْم يستَشفى من النَّهل

هام الكماة به حبّاً ولا عجبٌ من لوعةٍ بمليح القَدِّ مُعتدل

إذا الطُّعين تلقَّاه وأَرْعَفه حَسِبْتَه عاشقاً يبكى على طَلَل

ومن ذلك قوله فى وصف قوس :

تنكَّبها كحاجبه وسوَّى بأَهداف الجُفون لها نِبالا

فلم أَر قَبْله بدراً منيرا تحمَّل فوق عاتِقه هِلالا

ومن ذلك فى وصف قلم :

وأَصفرُ كالصَّبِّ فى رَوْنق تظنُّ به الحُبَّ من نحَل

بديع الصِّفات حديدُ السَّبات يَطُول الرِّماح وإن لم يَطُل

يُعَبِّر عما وراءَ الضمير ويفعل ما فَعَل الظُّبا والذُّبَل

ومن ذلك قوله فيما يظهر منها :

تفاخر السيفُ فيما قيل والقلمُ — والفَصْلُ بينهما لا شك مُنْفَهم
كلاهمـــا شـــرَّف الله دَرَّهُما — وحبَّذ الخُطّتان الحُكْم والحَكَمُ

ومن ذلك قوله فى سكِّين الدواة :

أنا صَمْصامةُ الكتـــابة مالى — من شَبِيه فى المُرْهَفات الرِّقاق
فكأنِّى فى الحُسْن يوم وِصال — وكأنِّى فى القَطْع يوم فِـراق

ومن ذلك قوله فى المقَصِّ :

ومُعْتَنقين ما اشتهرا بعِشْـــق — وإن وُصِــفا بِضَمٍّ واعتنـــاق
لعَمْرُ أبيك ما اعتنقـــا لمعنى — سوى معنى القَطِيعة والفِراق

ومن ذلك قوله فى الوَرْد :

الوَرْدُ ســـلطان كلِّ زَهْــرٍ — [لو انَّه دايم الوُرود](١)
بعد خدود المِـــلاح شيء — ما أَشْبَه الورد بالخُـدود

ومن ذلك قوله فى الخَيْرِيِّ (٢) :

وأزرق كمثل الســـماء — فيه لمن ينظر سِرٌّ عجيب
شحَّ مع الصُّبح بأَنفاسِه — كأَنما الصُّبح عليه رقيب
وباح بالليل بأَسْـــراره — لما رأى اللَّيل نهارَ الأَريب

ومن ذلك قوله فى الرَّيحان :

وأَخضر فَسْتَقى اللون غضّ — يرُوق بحسن مَنْظَره العُيونا

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى الزيتونة . ووردت فى الإسكوريال كالآتى (ما به الورد بالخدود) . وهو فى الواقع نص الشطرة الثانية للبيت الثانى كرره الناسخ سهواً للبيت الأول .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الخمر) . والخيرى لبات ينمو فى البادية له زهر يستخرج منه دهن طبى وله رائحة ذكية .

أغار على التُّرنج وقد حكاه | وزاد على اسمه أَلِفاً ونـونا

وقال من جملة قصايده المُطوَّلات ، التى تفنَّن فيها رحمه الله :

وغانيةٌ يُغنى عن العُود صوتُها | وجاريةٌ تَسقى وساقيةٌ تَجرى
بحيث يجُرُّ النهر ذيل مجرَّةٍ | يرفُّ على حافاتها الزَّهر كالزَّهر
وقد هزَّت الأرواح خِصر كتايب | بـأَأْوِية بيضٍ على أَسَلٍ سُـمر
رمى قُزَحٌ نِبلاً إليها فجُرِّدت | سيوفٌ سواقيها على دارع النَّهر
وهبَّت صَبا نجدٍ فجرَّت غلايلا | تُجَفِّفِ دمع الطَّل عن وجْنة الزَّهر
كأَنَّ بصَفْح الرَّوض وَشْىُ صحيفة | وكالأَلِفات القُضْب والطِّرس كالتِّبر
كأَنَّ به الأُقْحُوان خـواتِمـا | مُفَضَّضة فيها فُصُوصٌ من التِّبر
كأَنَّ به النَّرجس الغضُّ أَعيـا | تُرقْرِق فى أَجفانها أَدمُع القَطْر
كأَنَّ شَذا الخَيْرِىِّ زَوْرة عاشقٍ | يرَى أَن جَنْح اللَّيل أَكْتم للسِّر

وقال فى وصف الرُّمان :

لله رُمَّانةٌ قد راق مَنْظَرهـا | فمِثْلُها ببديع الحسن مَنْعُوت
القِشْر حقٌّ لها قد ضمَّ داخلـه | والشَّحم قطنٌ والحَبُّ ياقوت
أنظر إلى جِذْرٍ فى اللون مختلف | البعض من سَجٍّ والبعض من ذهب

ومن ذلك قوله فى الجزر :

إن قلتَ قصبٌ فقل قصب بلا | زهر أو قلتُ شمعٌ فقل شمع بلا لهب

وفى الاغتراب[1] وما يتعلق به مما يقرب من المطولات :

غريبٌ كلَّمـا يلقى غريبـاً | فلا وطنٌ لديـه ولا حَبيب
تذكَّر أَصـله فبكى اشتياقا | وليس غريباً أن يبكى غريب
وممـا هـاج أَشـواقى حديثٌ | جَرى فجرى له الدَّمع السَّكُوب

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الإغراء) وهو تحريف .

ذكرتُ به الشَّباب فشقَّ قلبي ... ألم تَر كيف تَنْشَقُّ القلوب
على زمن الصِّبا فليَبْك مِثلي ... فما زمن الصِّبا إلا عجيب
جَهِلتُ شَبيبتى حتى تولَّت ... وقدْرُ الشيءُ يُعرف إذ يَغيب
ألا ذَكَر الآله بكل خير ... بلاداً لا يَضيع بها أديب
بلادٌ ماؤها عذب زُلال ... وريحُ هوائها مِسْكٌ رطيب
بها قلبي الذى قلبي المُعَنَّى ... يكاد من الحنين له يذوب
رُزقت الصَّبر بلين أبي وأمى ... كلانا بعد صاحبه كئيب
ألا فتوَخَّ بعدى من أؤاخى ... ودَعْ ما لا يُريب لما يُريب
ولا تحكم بأول ما تراه ... فإنَّ الفجر أوله كَذوب
إلا إنا خُلقنا فى زمان ... يَشيب بهوله من لا يشيب
وقد لذَّ الحِمام وطاب عندى ... وعَيْشى لا يلذُّ ولا يطيب
لحَى الله الضَّرورة فهى بَلْوى ... تهين الحرَّ والبلوى ضُروب
رأيت المال يَسْتُر كل عَيْب ... ولا تخفى مع الفقر العُيوب
وفَقْدُ المال فى التَّحقيق عندى ... كفقد الرُّوح ذا مِن ذا قريب
وقد أجهدتُ نفسى فى اجتهاد ... وما أن كلَّ مُجتهد مُصيب
وقد تجرى الأُمور على قياس ... ولو تجرى لعاش بها اللَّبيب
كأنَّ العقل للدُّنيا عدُوٌّ ... فما يَقضى بها أَرَباً أريب
إذا لم يُرزق الإنسان بَخْتاً ... فما حَسَناته إلاَّ ذنوب

ومن نسيبه قوله فى بادرة من حمَّام :

بَرَزَت من الحمَّام تمسح وجهها ... عن مثل ماءِ الورد بالعُنَّاب
والماءُ يقطر من ذوائب شعرها ... كالطَّل يسقط من جَناح غُراب
فكأنها الشمس المنيرة فى الضُّحى ... طَلَعت علينا من خلال سحاب

ومن مقطوعاته أيضاً قوله :

ومُتَيَّم[1] لو كان صوَّر نفسه ... ما زادها شيئاً سوى الإشفاق
ما كان يرضى بالصُّدود وإنما ... كَثُرت عليه مسائل العُشَّاق

وقال :

وافٍ وقد زانه جمال ... فيه لعشّاقه اعتذار
ثلاثة ما لها مثال ... الوجه والخَدُّ والعِذار
فمن رآه رأى رِياضا ... الورد والآس والبَهار

ومن ذلك قوله فى ذم إخوة السوء :

ليس لإخوةٍ باللِّسان أُخُوَّة ... فإذا تُراد أُخُوَّتى لا تنفع
لا أنت فى الدُّنيا تُفَرِّج كَرْبه ... عنِّى ولا يوم القيامة تَشْفع

وقال كذلك :

ولقد عرفتُ الدهر حين خَبَرته ... وبَلَوت بالحاجات أَهلَ زمان
فإذا الأُخُوَّة باللسان كثيرة ... وإذا الدَّراهم مَيْلَق الإخوان

ومن ذلك قوله فى ثقيل :

تزلزلت الأَرض زلزالها ... فقلت لسكانها ما لها
فقالوا أتانا أبو عامر ... فأَخرجت الأَرض أَثْقالها

ومن ذلك قوله فى الصَّبر :

الدهر لا يُبقى على حالة ... لكنه يُقْبل أو يُدبر
فإن تلقَّاك بمكروهه ... فاصْبِر فإن الدهر لا يصبر

---

(١) وردت فى الإسكوريال والزيتونة (ومتمم) والتصويب أرجح .

ومن ذلك قولة فى الموت :

المـوت سرٌّ الله فى خَلْقـه ... وحكمـةٌ دلَّت عـلى قهـره
ما أَصْعب المـوت وما بَعْده ... لـو فكـر الإنسـان فى أمـره
أيـام طاعـات الفتى وحدهـا ... هى التى تُحسب من عُمْـره
لا تُلْهِك الدنيـا ولذاتهـا ... عن نَهْـيِ مولاك ولا أَمْـرِه
وأنظـر إلى من ملَك الأَرض هل ... صحَّ لـه منهـا سـوى قَـبْره

نـثـره

قال فى كتاب « روْضة الأَنس » ما نصه :

« ويتعلق بهذا الباب ، ما خاطبنى به الفقيه الكاتب الجليل ، أَبو بكر البرْذعى من أَهل بلدنا ، أَعزَّه الله : أُخبرك بعُجاب ، إذ لا سرَّ دونك ولا حجاب ، بعد أَن أتقدم إليك أَن لا تعجل باللوم إلى قبل عِلم ما لدىَّ ، فإن الدهر أَخْدعُ من كفَّة الحابل ، وقلبُ الإنسان للآفات قابل . مشيتُ يوما إلى سوق الرَّقيق ، لأَخْذِ حقٍّ فؤاد عتيق ، فرأَيت بها جارية عسْجدِية اللون ، حديثة عهد بالصَّون ، متمايلة القدِّ ، قايمة النَّهد ، بلَحْظ قد أُوتى من السِّحر أوفر حظٍّ ، وفَمٍ كشَرطة رُشحت بِدم ، داخله سِمطان لولاهما ما عُرف النَّظم ، ولا حُكم على الدُّر للعظْم ، فى صدْغها لامان ، ما خطَّ شكلَهما قلم ، ولاقصَّ مثلهما حِلم . لها جيدٌ تتمناه الغيد ، وخَصْر هو قبضة الكفِّ فى الحَصْر ، وردِف يَظْلمه من يُشبه به بالحِقْف ، ويدان خُلقتا للوشْى ، وقدمان أُهِّلتا للَّثم لا للمشْى ، فتطاولت إليها الأَعناق ، وبُذلت فيها الأَعلاق ، والمياسير عليها مُغرم[1] فى القوم . وتسوَّم أهل السَّوم .

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (يعزم) .

وكل فيها يزيد ، ليبلغ ما يريد ، إلى أن جاءَ فتى صادقٌ فى حبه ، لا يبالى بفساد ماله فى صلاح قَلْبه ، فعدَّ المال عدًّا ، ولم يجد غيره من التسليم بُدًّا . فلما فاتَتْنى ، تركتُ الأشواق وأَتَتْنى ، وانتَقضت عزايم صبْرى فما أَتَتْنى ، فالله الله ، تداركْ أخاك سريعا ، قبل أن تُلفيه من الوجْد صريعاً ، واستَنْزله خادما ، قبل أن تُصبح عليه نادماً ، ولن أَحتاج أن أصفها إليك مع ما قَصصْته عليك ، وقد أهديتها دُرراً ، فخذها على جهه الفكاهة والدُّعابة .

ولا تطلع أخا جهْلٍ عليهـــا　　　فمن لم يَدْرِ قدر الشئ عابه

فأَجبته ، نعم نعم ، أَنْعم الله بالك ، وسنى آمالك ، أَنا بحول الله أَرتادُ لك ، من نحو هاتِيك ، ما يُسْليك ويؤاتيك ، وإلا فبيضًا كاللُّجين ، هل القلب والعين ، زهرة غُصْن فى روْضة حُسن ، ذات ذَوايب ، كأَنها الليل على نَهار ، أو بنَفْسِج فى بَهار . لها وجه أبهى من الغِنا ، وأَشْهى من نَيْل المنا ، فيه حاجبان كأَنهما قَوْس صُنعت من السَّبج ، ورُصِّعت بعاج من البلج ، على عينين ساحرتين ، بالعقل ساخِرتين ، بهما تُصاب الكُبُود ، وتُشَقّ القلوب قبل الجُلود ، إلى فمٍ كأَنَّه خِتام مسك ، على نِظام سِلك ، سقاه الحُسن رَحِيقه ، فأَنبَتَت دُرَرَه وعَقِيقه ، وجيدٍ فى الحسن وحيد ، على صَدْر كأنه من مرمر ، فيه حُقَّتا عاجٍ طوِّقتا بعَنْبر ، قد خُلقتا للعَضِّ ، فى جسم غَضٍّ ، له خَصْر مُدْمَج ، وردِفه يتموَّج ، وأَطراف كالعَنَم ، رُقمت رَقْم القلم ، من اللاتى شَهِدن ابن المؤَمَّل ، وقال فى مثلها الأَول ، إن هى تاهَتْ فمثلها تاها ، أو هى باهَت فمثلها باها ، من أَين للغُصْن مثل قامتها ، أَو أَين للبدر مثل مَرْآها ، ما فَعَلت فى العقول صابية ، ما فَعَلت فى العقول

عيناها . تملِكُنى بالهوى وأمْلِكُها ، فهأنا عَبْدُها ومولاها ، فأيُّهما لست بذلتُ فيه الجُهد ، وأرْقَيت للمجد والوُد إن شاءَ الله تعالى . وأنا فيما عَرَض لسيدى ، حَفِظه الله ، على ما يُحب ، أعذِرُه ولا أعْذِلُه ، وأنصُره ولا أخذله لكنى أقول كما قال بعض الحكماء . لا ينبغى لمن قَلْبُه رقيق ، أن يدخل سوق الرَّقيق ، إلا أن يكون قد جمع بين المال والجمال ، يتنافس فى العالى ، ويسترخص بالثمن الغالى ، ولا يُبالى بما قال الأئمة ، إذا وجد من يلايمه ، كما قال الشاعر :

ما انتفاع المُحِبِّ بالمال إذا لم يتوصَّل به لوصل الحبيب
إنما ينبغى بحكم الهوى أن يُنْفَق المال فى صلاح القلوب

والسلام على سيدى ، ما كانت الفكاهة من شأن الوَفا ، والمداعبة من شِيم الظُرفا ، ورحمة الله وبركاته .

مولده : ولد فى محرم سنة إحدى وستماية .

وفاته : توفى فى عام أربعة وثمانين وستماية

نقلت من خط صاحبنا الفقيه المؤرخ ، أبى الحسن بن الحسن . قال : أنشدنى الشيخ الرَّاوية الأديب القاضى الفاضل أبو الحجاج يوسف بن موسى بن سليمان المنتشافرى ، قال أنشدنى القاضى الفاضل أبو القاسم ابن الوزير أبى الحجاج ابن الحُقَالة ، قال أنشدنى الأديب أبو الطيب صالح بن أبى خالد يزيد بن صالح بن شريف الرُّندى لنفسه ، ليكتب على قبره :

خليلَىّ بالودِّ الذى بيننـــا اجعلا إذا متُّ قبرى عُرضة للتَّرحُّم

عنى مسلمٌ يدنو فيدعو برحمة　　　فإنى محتاج لدَعْوة مُسلم (١)

حرف العين

من ترجمة الملوك والأمراء

عبد الله بن إبراهيم بن على بن محمد التجيبى ، الرئيس أبو محمد بن إشقيلولة

أَوليّته

قد مرَّ شيءٌ من ذلك فى اسم الرئيس أَبى إسحق أَبيه .

حــــاله

كان أَميرا شهما ، مضطَّلعا بالقضية ، شهير المواقف ، أَبىّ النفس ، عالى الهمة . انْتَزَى على خاله أَمير المسلمين الغالب بالله (٢) ، وكان أَمْلَك

(١) من الذائع المعروف أن أبا الطيب الرندى (صالح بن شريف) هو نظم قصيدة مرثية الأندلس الشهيرة التى مطلعها (لكل شىء إذا ما تم نقصان فلا يغير بطيب العيش انسان) ، والتى أوردها لنا المقرى فى نفح الطيب ، ونقلها فيما يرجح عن كتاب (الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية) والتى ما زالت حتى يومنا تحتفظ برنينها الحزن . وبالرغم من ابن الخطيب قد أورد لنا طائفة مختارة من شعر أبى الطيب ، وفيها ثلاث قصائد من مطولاته ، فإنه لم يشر بكلمة واحدة إلى مرثيته الأندلسية ، بالرغم من أنها من غرر قصائده . وهو أمر يدعو إلى الدهشة والتساؤل ، فإما أن الناسخ لمخطوط كتاب « الإحاطة » قد أغفل إيراد هذه القصيدة اختصاراً أو ظنا منه بأن شهرتها تغنى عن إيرادها . وإما أن ابن الخطيب قد أغفل إيرادها عمداً . ذلك أن هذه القصيدة قد نظمت عقب انهيار الأندلس وسقوط قواعدها الكبرى ، ونزول ابن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة عن عدد كبير من البلاد والحصون للنصارى . وقد كان ابن الخطيب من أولياء نعمة بنى نصر (بنى الأحمر) ملوك غرناطة وربيب نعمتهم ، وربما رأى أن وجود هذه القصيدة فى مؤلفه قد يسيء إلى ذكريات ابن الأحمر الكبير ، الذى وقعت فى عهده محنة الأندلس ، ثم نظمت القصيدة فى عصره أيضا بقلم شاعره الأثير أبى الطيب فرأى إغفالها .

(٢) أمير المسلمين المشار إليه هنا هو السلطان الغالب بالله محمد بن يوسف بن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة (٦٣٥ – ٦٧١ هـ) .

لما بيده من مدينة وادى آش وما إليها ، مُعززا بأخيه الرئيس أبى الحسن مُظاهِرُه فى الأَمر ، ومُشاركه فى السلطان ، واستمرت الحال مدة حياة خاله السلطان . ولما صار الأَمر إلى مُخيفه ولى العهد[1] ، اسْتَشْرى الداءُ ، وأَعْضَل الأَمر ، وعمَّت الفتنة ، وزاحمه السلطان بالمُنكَّب ، انفَجَم ، واعتوره بالحيلة ، حتى تحيَّف أَطرافه ، وكان ما هو معلوم ، من إجازة أَمير المسلمين أَبى يوسف يعقوب بن عبد الحق[2] البحر إلى الجهاد . ومال الحال بينه وبين السلطان أَمير المسلمين أَبى عبد الله بن نصر إلى التَّقاطع ، وتصيَّرت مالقة إلى الإيالة المغربية[3] . ثم عادت إلى السلطان.

وفى أخريات هذه الأَحوال ، أَحكم السلطان مع طاغية الرُّوم ، السَّلم. وصَرَف وجهه إلى مطالبة الرئيس أَبى محمد ، صاحب وادى آش ، فالجأَه الحال إلى أَن صَرَف الدعوة بوادى آش إلى السلطان بالمغرب ورفع شِعاره ، فأَقعد عنه . ووَقَعَتْ مراسلات ، أَجْلَت عن انتقال الرئيس أَبى محمد إلى المغرب ، معوَّضاً عن مدينة وادى آش بقصر كِتامة[4] ، وذلك فى عام تسعة وثمانين وستماية .

---

(١) ولى العهد المشار إليه هو ولده السلطان أبو عبد الله محمد (٦٧١ - ٧٠٢) الملقب بالفقيه لعلمه وتقواه ، وهو ثانى ملوك غرناطة بعد أبيه.

(٢) هو أعظم سلاطين بنى مرين ملوك المغرب ، وهو الذى قضى نهائيا على دولة الموحدين (سنة ٦٦٨ هـ) . وعبر إلى الأندلس أربع مرات برسم الجهاد ، وأحرز على النصارى عدة انتصارات باهرة استحق من أجلها لقب المنصور . وتوفى سنة ٦٨٥ هـ ،وترك دولة بنى مرين الفتية فى أوج قوتها ومجدها .

(٣) وردت فى الإسكوريال والزيتونة (الغربية) وهو تحريف والمقصود (بالإيالة المغربية) هنا المملكة المغربية أو مملكة بنى مرين .

(٤) قصر كتامة أو القصر الصغير ، هو ميناء مغربى صغير يقع على مضيق جبل طارق فى منتصف المسافة بين سبتة وطنجة، قبالة ثغر طريف الإسبانى . وقد كان فى مناسبات عديدة ، منزل الجيوش الذاهبة إلى الأندلس والآتية منها .

وفـــاته

دخلتُ قصر كِتامة يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من ذى قعْدة عام خمسة وخمسين وسبعماية فى غرض الرسالة ، وزُرْتُ مقبرة الرؤساء بنى إشقيلولة بظاهرها ، وفى قُبَّةٍ ضخمة البناءِ رَحيبة الفِناء ، نسيجة وحدها بذلك البلد ، بين منازل البِلى ، ودِيار الفَناء ، وبها قبر الرئيس أبى محمد هذا ، عن يسار الداخل ، بينه وبين جدار القِبلة قبر ، وسَنامه رخام مكتوب عليه :

قبر عزيز علينـا   لو انَّ من فيه يُفْدا
أسكنتُ قرَّة عينى   وقطعة القلب لَحْدا
مازال حُكْماً عليه   وما القضاءُ تَعدًّا
فللصبر أحسن ثوب   به العزيزُ تـردًّا

وعند رأس السَّنام الرخامى ، مَهْدٌ مائلٌ من الرخام فيه :

« أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد وآله ، وسلَّم تسليما . هذا قبرُ الرييس الجليل ، الأعْلى الهمام ، الأَوْحَد ، الأَسْعد ، المبارك ، الأَسْنَى ، الأَسْمَى ، الأَحْفَل ، الأَكمل ، المجاهد ، المقدس ، المرحوم ، أبى محمد عبد الله ، ابن الرئيس الجليل ، الهمام ، الأَوحد ، الأَسعد ، المبارك ، الأَمْضَى ، الأَسْنَى ، الأَسمى ، المعظم ، المرفَّع ، المجاهد ، الأَرْضَى ، المقدس ، المرحوم أبى إسحق إبراهيم بن إشقيلولة ، رحمه الله وعفا عنه ، وأَسكنه جنَّته . ظهر عفا الله عنه ، بوادى آش ، أَمَّنها الله ، قاعدة من قواعد الأَندلس ، وتَسَلْطن ، ونُشرت علامات سلطنته ، وضُربت الطبول . وجاهد منها العدو ، قَصَمه الله ، وظهر على خاله سلطان الأَندلس . وأَقام فى سلطنته ، نحواً من ثلاث

وعشرين سنة . ثم قام بدعوة الملك الأعلى ، السلطان المؤيد المنصور ، أمير المسلمين ، المؤيد بالله أبى يعقوب أيَّده الله بنصره ، وأمدَّه بمعونته ويُسْره ، وأمَرَه أيَّده الله : أن يتخلَّى عن وادى آش المذكورة ، ويَصِل للمغرب ، فتنحَّى عن الأندلس للمغرب[1] ، آنسهُ الله، فى جمادى الأُولى من عام ستة وثمانين وستماية ، فأعطاه أيده الله : قصر عبد الكريم[2] أمَّنه الله ، وأنعم عليه ؛ فأقام به مدة من ثمانية أعوام ، وجاز منه إلى الأندلس ، أمَّنها الله، وجاهد بها مرَّتين ، ثم رجع إلى قصر عبد الكريم المذكور ، وتوفى ، شرَّف الله روحه الطَّيبة المجاهدة ، عشيًّ يوم السبت العاشر من شهر محرم سنة خمس وتسعين وستماية » .

عبد الله بن بلقِّين بن باديس بن حبُّوس بن ماكْسَن بن زيرى بن مَناد الصَّنهاجى

أمير غرناطة .

أوليته : قد مرًّ من ذلك فى اسم جدِّه ما فيه كفاية .

حـــــاله

لقبه المُظَفَّر بالله ، الناصر لدين الله . وَلى بعد جدِّه باديس فى شوال سنة خمس وستين وأربعمائة ، وصَحِبه سِماجه الصَّنهاجى تسع سنين . قال الغافقى ، وكان قد حاز حظًّا وافرا من البلاغة والمعرفة ، شاعرا ، جيِّد

(١) وردت فى الإسكوريال (للغرب) فاقتضى التصويب .

(٢) ما جاء فى هذا النقش الذى على القبر ، يخالف ما تقدم من أن السلطان أبا يوسف بعث بالرئيس عبد الله إلى قصر كتامة أو القصر الصغير ، معوضا إياه به عن وادى آش . أما قصر عبد الكريم أو القصر الكبير فهى بلدة تقع داخل المغرب على مقربة من ثغر العرايش .

الشعر ، مَطْبُوعَه ، حسن الخطِّ . كانت بغرناطة رَبْعَة مُصحف بخطِّه فى نهاية الصَّنعة والإتقان . ووصفه ابن الصَّيرفى فقال ، كان جباناً مُغمْد السيف ، قلقا، لا يَثْبتُ على الظَّهر ، عزهاة لا أَرَبَ له فى النساءِ ، هيَّابَة ، مُفرط الجزَعَ ، يَخْلَدُ إلى الرّاحات ، ويَسْتَوزِر الأَغْمار .

خلعه

قال ، وفى عام ثلاثة وثمانين وأربعمائة ، تحرَّك أمير المسلمين ، يوسف ابن تاشفِين ، لخلع روسَاءِ الأَندلس ، فأَجاز البحر ، ويمم قرطبة ، وتواتَرت الأَنباء عن حفيد باديس صا حب غرناطة ، بما يُغيظُه ويُحقده ، حسبما تقدم فى اسم مؤمَّل ، مولى باديس . وقدَّم إلى غرناطة أربع محلاَّت ، فنزلت بمقربة منها ، ولم تمتَدَّ يدٌ إلى شيء يوجد ، فسُرَّ الناس واستَبْشَروا ، وأَمِنت البادية ، وتمايل أهل الحاضرة إلى القَوِى . وأسرع حفيد باديس فى المال ، وأَلْحَق السُّوقة والحاكَّة [(١)] ، واستكثر من اللَّفيف ، وأَلحَّ بالكَتْبِ على أَذفونش بما يُطْمِعُه . وتحقَّق يوسف بن تاشفين استِشْرَاف الحضرة إلى مَقْدَمَه ، فتحرَّك . وفى ليلة الأَحد لثلاث عشرة خلت من رجب ، اجتمع إلى حفيد باديس صنائعُه ،فخوَّفوه من عاقبة التربُّص ، وحَمَلوُه على الخروج إليه ، فركب وركبت أُمهوتركا القصر على حاله ، ولقى أَمير المسلمين على فرسخين من المدينة ، فترجَّل ، وسأَله العَفْو ، فعفا عنه ، ووقف عليه ، وأَمره بالرُّكوب ، فرَكِب ، وأقبل حتى نَزَل « بالمشايخ [(٢)] » من خارج الحضرة . واضَّطربت المحَلاَّت ، وأَمر مُؤَمِّلاً بثِقافه فى القصر ،فتولَّى ذلك ، وخرج الجمُّ من أَهل المدينة ، فبايعوا أَمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فَلقيَهم ، وأَنَسهم ، وسكَّن جأْشهم ، فاطمأَنوا . وسهَّل مؤمِّل إليه دخول

(١) الحاكة أعنى السفلة وأهل الشر ، ومفردها (الحاك) .

(٢) هو ، كما يبدو ، مكان من ضواحى غرناطة الإسلامية ، يصعب اليوم تحديد موقعه .

الأعيان ، فأمر بكَتْب الصُّكوك ، ورَفْع أنواع القَبالات والخراج ، إلا زكاة العَيْن ، وصَدَقة الماشية ، وعُشْر الزَّرع. واستُقصى ما كان بالقصر ، فظهر على ما يحول الناظر ، ويرُوع الخاطر ، من الأَعْلاق والذَّخيرة ، والحُلى ، ونفيس الجَوْهر ، وأحجار الياقوت ، وقَصَب الزُّمرد ، وآنية الذَّهب والفضة ، وأطباق البلَّور المُحكم ، والجرداذنات[1] ، والعراقيّات، والثِّياب الرَّفيعة ، والأَنماط ، والكِلَل ، والسَّتاير ، وأَوْطِية الدِّيباج ، مما كان فى ادِّخار باديس واكتِسابه . وأَقبلت دوابُّ الظَّهر من المُنَكَّب بأَحمال السَّبيك والمَسْبُوك ، واختلفت أم عبد الله لاستخراج ما أَودِع بَطْن الأَرض ، حتى لم يبق إلا الخَرْثى والثّقل والسَّقْط . ووزَّع ذلك الأَمير على قُوّاده ، ولم يستَأْثر منه بشيء . قال ، ورَغَب إليه مؤمِّل فى دخول القصر ، فرِكَب إليه ، وكثر استحسانه إياه ، وأمر بحِفْظِه . وتفَقَّد أَوضاعه وأَفْنِيَته . ونُقل عبد الله إلى مَرّاكش ، وسنُّه يوم خُلع ، خمس وثلاثون سنة وسبعة أَشهر ، فاستقرَّ بها هو وأَخوه تميم ، وحُلَّ اعتقالهما ، ورُفِّه عنهما، وأُجْرى المرتَّب والمُساهمة عليهما . وأَحْسن عبد الله أداءَ الطاعة ، مع لِين الكلمة ، فقُضِيت مآربُه ، وأُسْعِفت رَغَباته ، وخَفَّ على الدولة ، واستراح واسْتُرِيح منه ، ورُزِق الولد فى الخُمول ، فعاش له ابنان وبِنْتٌ ، جَمَع لهم المال . فلما تُوفى ترك مالا جَمّا[2] .

---

(١) هكذا وردت فى المخطوط . وربما كانت (الجرجانيات) .

(٢) كان الأمير عبد الله بن بلقين ، حسبما وصفه لنا الغافقى ، أديباً شاعراً . وقد ترك لنا كتاباً عنوانه « التبيان » وهو عبارة عن مذكرات فى ترجمة حياته وحوادث عصره ، وهو عصر ملوك الطوائف ، ويتناول فيها مقدم بنى زيرى إلى الأندلس ، وإمارة والد جده حبوس بن ماكسن ، ثم إمارة جده باديس بن حبوس ، وحوادث عصره ، وحروبه وسير ملوك الطوائف المعاصرين . ومقدم المرابطين وتدخلهم فى شئون الأندلس،ثم يتناول حوادث حياته الشخصية ، حتى انتهاء ملكه واستسلامه لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين . وقد كتب هذا السفر عبد الله بن بلقين أثناء حياته فى المنفى ؛ وأخرجه لنا العلامة الأستاذ ليفى بروفنسال بعنوان « مذكرات الأمير عبد الله » (القاهرة — دار المعارف — ١٩٥٥) .

مـولده

ولد عبدالله سنة سبع وأربعين وأربعماية .

عبد الله بن على بن محمد التُّجيبى ، الرئيس أبو محمد بن إشْقَيلولة[1]

حـــاله

كان رئيساً شجاعاً ، بُهْمَةً ، حازماً ، أَيِّداً ، جَلِداً . تولى مدينة مالَقة ، عقب وفاة الرئيس واليها أَبى الوليد بن أَبى الحجاج بن نصر ، صِنْو أَمير المسلمين ، الغالب بالله ، فى أَوايل عام خمسة وخمسين وستماية . وكان صِهر السلطان على إحدى بناته ، وله منه محَلٌّ كبير ، ومكان قريب ، وله من مُلكه حظٌّ رَغِيب . واستمرت حاله إلى عام أَربعة وستين وستماية ، وفسد ما بينه وبين ولىِّ العهد ، الأَمير أَبى عبد الله محمد بن أمير المسلمين أَبى عبد الله الغالب بالله ، إذ وَغَر له صدرُه ، ولابنى أَخيه الرئيسين أبى محمد وأَبى الحسن إبنى الرئيس أَبى إسحق بن إشقيلولة المتأَمِّرَين بوادى آش ، فضايقهم وأخافهم ، بما أَدّاهم إلى الامتناع ، والدُّعاءِ لأَنفسهم ، والاستِمْساك بما بأَيديهم ، وعَمَّت المسلمين الفتنة المنسوبة إليهم . فانْتَزَى هذا الرئيس بمدينة مالَقة ، وكان أَمْلَكَ لما بيده ، واستعان بالنَّصرى ، وشَمَّر عن ساعد الجدِّ ، فأَباد الكثير من أَعيان البلدة ، فى باب تَوَسُّم التهم ، وتَطَرُّق السعايات ، واستولى على أَموالهم . واستمرت الحال بين حرب أَجْلت فيها غَلَبَةُ الأَمير مخيفه ، ولى العهد ، بجيش النَّصرى ، ونازل مالقة أَربعين يوما ، وشعَّث الكثير بظاهرها ، وتسمَّى بعَلَم الأَمير عند أَهل مالقة ،

---

(١) هذه الترجمة ساقطة فى الزيتونة .

وما بين سَلْم ومُهادنة . وفى عام ستين وسبعماية ، نازله السلطان الغالب بالله صِهْرَه ، وأعيا عليه أمرُ مالقة ، لاضطلاع هذا الرئيس بأمره ، وضَبْط مَنْ لِنظره ، واستِمْساكه بعُرْوَة حَزْمه .

وفى بعض الأيام ، ركب السلطان فى ثلاثة من مماليكه ، متخفياً[1] ، كاتماً غرضه ، وقعد بباب المدينة . فلما بَصُر به الرجال القايمون به ، هالهم الأمر ، وأدْهَشَتْهُم الهيبة ، فأفرجوا له ، مُوَقِّرين لجلاله ، آنِسين لقلّة أتباعه ، فدخل ، وقصد القَصَبة ، وقد نُذِر به الرئيس أبو محمد ، فبادر إليه راجِلاً ، مُتَبَذِّلاً ، مُهَرْولا[2] ، حافيا . ولما دنا منه ، ترامى على رِجْليه يُقَبِّلهما ، إظهاراً لحقِّ أُبُوَّته ، وتعظيماً لقَدْره ، ودخل معه إلى بِنْتِه وحَفَدَتِه ، فترامى الجميع على أطرافه يَلْثِمونها ، ويتَعَلَّقون بأذياله وأدْرانه ، وهو يبكى إظهاراً للشَّفَقَة والمودَّة ، وتكَلُّم الجميل . وأقام معهم بَياض يومه ، ثم انصرف إلى محلَّته ، وأتبعه الرئيس ، فأمَرَه بالاستمساك بقَصَبته وملازمة محلِّ إمْرَته ، وما لبث أن شرع فى الارتحال عن ألطافٍ ومُهادات ، وتقدير جِرايات ، وإحْكام هَدِيَّة ، وتقرير إمارة ؛ إلى أن توفى السلطان رحمه الله ، فعادت الفتنة جَزِعةً ، ووالى ولدهُ أمير المسلمين بعده ، الضرب على مالَقة ، إلى أن هلك الرئيس أبو محمد ، واستقر بالأُمور ولدُه المذكور فى المحمَّدين ، وكان من الأمر ما يَنْظُرِد فى مكانه من أَراد استيفاءه بحول الله.

عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد العَزَفى

يكنى أبا طالب ، الرئيس الفقيه ، الكبير الشَّهير ، صاحب الأمر

(١) وردت فى الإسكوريال (مختفيا) والتصويب أنسب للسياق .

(٢) وردت فى الإسكوريال (مهزولا) . والتصويب أنسب للسياق .

والرِّياسة والإمارة بسَبْتَة ، نيابة عن أخيه الرئيس الصَّالح أبي حاتم ، بحُكْم الاستقلال فى ذلك ، والاسْتِبداد التَّام ، من غير مُطالعة لأخيه ولا رُجوع إليه فى شيءٍ من الأُمور ، ولا تَشَوُّفٍ من أخيه إلى ذلك ، لخروجه البتَّة عنه ، وإيثاره العُزْلة . واشتغاله بنفسه .

حـــاله

قد تقدم من ذكر أوَّليته ما فيه كفاية . وكان من أهل الجلالة والصِّيانة ، وطهارة النَّشْأَة ، حافظاً للحديث ، ملازما لتِلاوة كتاب الله ، عارفا بالتاريخ ، عظيم الهيْبَة ، كبير القَدْر والصِّيت ، عالى الهمَّة ، شديد البَأْو ، معظما عند الملوك ، جميل الشَّارة ، مُمْتَثَل الإشارة لديهم ، عجيب السَّكينة والوقار ، بعيد المرْمَى ، شديد الانقباض ، مُطاع السُّلطان بموضعه ، مَرْهُوب الجانب ، من غير إيقاع بأَحد ، ولا هَتْك حُرمة ، محافظا على إقامة الرُّسوم الحِسْبِيَّة والدِّينية .

مشـــيخته

قرأ على الأُستاذ أَبي الحسين بن أَبي الربيع وغيره .

نكبتـــه

تَغلَّب على بلده أَيام إمارته ، وثار أَهْلُه إليه فى السِّلاح والعُدَّة ، ليُحِيطوا بمنْ فى القَصَبَة . فخرج إليهم ، وشكر مساعيهم ، وقال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كُنْ عبدَ الله المقتول ، ولا تكُنْ عبدَ الله القاتل ، فانصرفوا ، ودخل منزله ، مُلقِياً بيده ، ومُسَلِّماً لقضاء الله [سبحانه] (١) فى كِسْره ، إلى أَن قُبِض عليه ، وعلى ساير بَنيه وقَوْمه ، عند ارتفاع (٢) النهار

(١) هذه الزيادة من الزيتونة .

(٢) وردت فى الإسكوريال (امتاع) والتصويب من الزيتونة .

وانتشار المُتَغلِّبين على القصبة ، فنَقَفُوا متحرِّجين من دماء المسلمين ، وصُرفوا إلى الأَندلس،فى ضحو يوم الخميس الثانى عشر من ذى قعدة عام خمسة وسبعماية ، بعد انقضاء خمسة عشر يوماً من تملُّك بلدهم . فاستقر بغرناطة ، تحت سِتْر واحترام ، وجِراية فيها كَفاف . ثم لما خرجت سَبْتَة عن طاعة أَمير المسلمين،انصرف القَوْمُ إلى فاس ، فتُوفى بها .

وفاته : فى شعبان المكرم من عام ثلاثة عشر وسبعماية .

عبد الله بن الجبير بن عثمن بن عيسى بن الجبير اليحصبي

من أَهل لَوْشة ، وهو محْسُوب من الغرناطيين . قال الأُستاذ ، من أَعيانها ذوى الشرف والجَلالة ، قلت يُنْسب إليه بها معاهد تدل على قِدَمٍ وأَصالة .

حـــاله

قال أَبو القاسم الملاَّحى ، كان أَديبا بارع الأَدب ، كاتبا ، بليغا ، شاعراً مَطْبُوعا ، لَسِناً مُفَوَّها ، عارفا بالنحو والأَدب واللغات . وقد مال فى عُنفوان شبيبته إلى الجُنْدِية لشَهامته ، وعزَّة نفسه ، فكان فى عَسْكر المأْمون ابن عبَّاد ، واشْتَمل عليه المأْمون ، وكان من أَظرف الناس ، وأَمْلَحهم شِيبةً ، وأَحسنهم شارةً ، وأَتمهم معرفة .

مشـــيخته

أَخذ عن أَشياخ بلده غرناطة ، وأَخذ بمالقة عن غانم الأَديب ، وبقرطبة عن ابن سِراج

شعره

وله فى إنشاده لدى المأمون مجال رَحْبٌ ، فمن ذلك قوله :

يا هاجرين أَضلَّ الله سعيكم كم تهجرون محبِّيكم بلا سبب
ويا مُسِرِّين للإخوان غائلةً ومُظْهِرين وجوه البرِّ والرَّحب
ماكان ضرَّكم الإخلاص لو طُبِعت تلك النفوس على عَلياء أَو أَدب
أَشْبَهْتُم الدهر لما كان والدُكم فأَنتم شرُّ أَبنـاءٍ لشـرِّ أَبِ

عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن أحمد بن على السلمانى

والد المؤلف ، رضى الله عنه ، يُكنى أَبا محمد ، غرناطى الولادة والاستيطان ، لَوْشى الأَصل ، ثم طُلَيْطِليه ، ثم قُرْطبيه .

أَوَّليتـه

كان سَلَفُه يعرفون بقرطبة ، ببنى وزير ، وهم بها أَهلُ نباهة ، وبيتُهم بيت فقهٍ وخَيْرِيَّة وماليَّة ، ونجارهم نِجارُ فرسان يمانِيَّة . ولما حَدَث على الحَكَم بن هشام الوَقِيعة الرَّبَضِيَّة ، وكان له الفَلْج ،وبأَهل الرَّبَض الدَّبرة ، كان أَعلامُ هذا البيت من الجالِية أَمام الحكم ، حسبما امتُحن به الكثير من أَعلام المشيخة بها ، كالفقيه طالوت ، ويحيى بن يحيى ، وغيرهم ، ولحِقُوا بطُلَيْطُلة ، فاستقرُّوا بها ، ونَبا بهم وطنُهم ، ثم حَوَّموا على سُكنى المُوَسَّطة ، وآب إلى قرطبة قَبْلهم بعد عهد مُتقادم ، ومنهم خَلَف وعبد الرحمن ، وقد مرَّ له ذكرٌ فى هذا الكتاب . ووُلِّى القضاءَ بالكُورة . ومنهم قوم من قَرابتهم تملَّكوا مُنْتِفْريد[1] ، الحصن المعروف الآن بالمَنَعة

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة .

والخِصْب ، وتمدَّن فيهم ، وبُنيت به القلعة السَّامية ، ونُسب إليه ذلك المجد ، فهم يُعرفون ببلدنا ببَنى المُنْتفريدين . واستقرَّ منهم جَدُّنا الأعلى بلَوْشة خطيباً وقاضياً بالصُّقع ومُشاوراً[1] وهو المُضاف إلى اسمه التَّسْويد بلَوْشة عُرْفاً كأنه اسمٌ مُرَكَّب ، فلا يقول أحد منهم فى القديم إلا سَيِّدى سعيد . كذا تعرَّفنا من المشيخة ، وإليه النِّسبة اليوم ، وبه يُعْرف خَلَفُه ببنى الخطيب ، وكان صالحا فاضلا ، من أهل العلم و العمل . حدثنى الشيخ المُسنُّ أبو الحكم المنتفريدى ، وقد وقَفَنى على جِدار بُرج ببعض أملاكنا بها ، على الطَّريق الآتية من غرناطة إلى لَوْشة ، ثم إلى غيرها ، كإشْبِيليَة وسواها ، فقال كان جَدُّك يسكن بهذا البُرج كذا من فصول العام ، ويتلو القرآن ليلا ، فلا يتمالك المارُّون على الطَّريق ، أن يقربوا إصْغاءً لحُسْن تِلاوته وخُشُوعاً . وكان ولدُه عبد الله بعده ،على وَتِيرة حسنة من الخير والنَّباهة وطيب الطُّعمة ، ثم جدَّه الأقرب سعيد على سُننه ، مُربٍ عليه بمزيد المعرفة ، وحُسن الخَطِّ . ولما وقع بلوشة بلدِه ، ما هو معروف من ثورة أصهارهم من بنى الطَّنجالى ، وكان بينهم ما يكون بين الفحول فى الهجَمات من التَّشاجر ، فرَّ عنهم خيفةً على نفسه ، وعلى ذلك فنالَه[2] اعتقال طويل ، عَدا به عليه عن تلك الثورة.ثم بان عُذره ،وبُرِّئت ساحتُه ، واستَظْهر به السلطان ، وأقام بغرناطة ، مُكَرَّماً ، مُؤْثَراً ، مُؤْتَمَناً ، وصاهر فى أشراف بيُوتاتها ، فكانت عنده بنتُ الوزير أبى العُلى أَضْحى بن أَضحى الهمْدانى ، وتُوفيت تحته ، فأُنْجِز له بسببها الحظُّ فى الحمّام الأَعْظم المنسوب إلى جدّها اليوم. ثم تزوج بنت القايد أبى جعفر أحمد بن محمد الجَعْدالة السَّلمى ، أم

---

(١) كانت « الشورى » من الخطط الفرعية الملحقة بالقضاء فى العصور الأخيرة بالأندلس ، ويطلق على من يتقلدها « المشاور » ، واختصاصها يدور حول الإفتاء وإبداء الرأى فى المسائل الشرعية . (٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ناله) .

الأَب المُترجم به ، ولِما إلى السلطان ثانى ملوك بنى نصر وعظيمهم[١] ، مَتاتٌ ببُنُوَّة الخُؤولة من جهة القوّاد الأُصَلاءِ القرطبيين بنى دحون ،فوَضَح القصد ، وتـأكدت الحُظْوة . وقدوقَعَتْ الإشارة إلى ذلك كله فى محلِّه. ثـم رَسَخت لولده أَبى ' القِدَمُ فى الخِدمة والعناية ، حسبما يتقرّر فى موضعه .

حــــاله

كان رحمه الله فذًّا فى حُسن الشكل والأُبَّهة ، وطلاقة اللسان ، ونصاعة الظَّرف ، وحضور الجواب ، وطِيب المجالسة ، وثُقُوب الفهم ، مُشاراً إليه فى الحَلاوة وعُذُوبة الفُكاهة ،واسترسال الانْبِساط ، مُغْيِياً فى ميدان الدُّعابة ، جَزْلا ، مَهيبا ، صارما ، مُتَجَنِّدا ، رايق الخَصْل رَكْضاً وثقافةً ، وعَدْواً وسِباحةً وشَطَرَنْجا ، حافظا للمُثُل واللُّغة ، إخْباريا ، مضطلعاً بالتاريخ ، ناظما ناثرا ، جميل البِزَّة ، فارِه المَرْكَب ، مليح الشَّيْبَة . نشأَ بغرناطة تحت تَرَفٍ ونِعمة ، من جهة أُمِّه وأبيه ، وقرأَ على أَبى إسحق بن زُرقال ، وأَبِى الحسن البَلُّوطى ، ثم على أَستاذ الجماعة أَبى جعفر بن الزُّبير ، ظاهرةً عليه مُخَيَّلة النَّجابة والإدراك . ثم أَقْصَر لعدم الحامل على الدُّؤوب ، وانتقل إلى بَلَد سَلَفِه ، متحيِّفاً الكثير من الأُصول فى باب البَذْل وقِرَى الضُّيوف ، ومُداومة الصَّيد ، وإيثار الراحة ، مُعْتَمداً بالتَّجِلَّة ، مَقْصُود الحِلَّة ،مخطوب المُداخلة ، من أَبناءِ أَشراف الدولة ، مُنْتَجعاً لأُولى الكُدية. ولما قام بالأَمر السلطان ، أَمير المسلمين أَبو الوليد ، وأُمُّه بنت السلطان ثانى الملوك من بنى نصر ،جَزم ما تقدَّم من المَتَات والوسيلة ، استَنْهَضه

(١) ثانى ملوك بنى نصر ، هو السلطان محمد بن محمد بن يوسف بن الأحمر الملقب بالفقيه لعلمه وتقواه . حكم مملكة غرناطة عقب وفاة أبيه فى سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٢ م) حتى وفاته فى سنة ٧٠١ هـ (١٣٠٢ م) .

للإعانة على أمْرِه ، وجعل طريقه على بلده ، فَخَطَب[1] فى حَبْله ، وتمسَّك بدعوته ، واعْتمده بنزَله وضِيافته ، وكان أعظَم الأَسباب فى حُصول الأَمْر بيده ، ودخوله فى حُكمه ، وانتقل إلى حضرة المُلْك بانتقاله ، فنال ما شاءَ من اصطناعه ، وحُظْوته ، وجرى له هذا الرَّسم فى أيام من خَلِفَه من ولده إلى يوم الوقِيعة الكبرى بطَرِيف تاريخ فَقْده .

وجرى ذكره فى كتاب « الإكليل » بما نصه : إن طال الكلام ، وجمحت الأَقلام ، كنت كما قيل ، مَادحُ نفسه يُقْرئُك السلام ، وإن أحجَمتُ ، فما أَسْدَيتُ فى الثَّناءِ ولا أَلْحَمْتُ ، وأَضعْتُ الحقوق ، وخِفْتُ ومعاذ الله العُقُوق . هذا ، ولو أنِّى زَجَرْتُ طَيْر البَيان من أَوْكاره ، وجيته[2] بعيون[3] الإحسان وأبكاره ، لما قضيت حقَّه بعد، ولا قلتُ إلا التى علمت سعد . فقد كان رحمه الله ذَمْرَ عزم ، ورجل رخاء وأزم ، تروق أنوار خِلاله الباهرة ، وتُضىءُ مجالس الملوك من صُورتَيْه الباطنة والظاهرة ، ذكاءٌ يتوقَّد ، وطَلاقةٌ يحسد نورها الفرْقد ، فَقَدْتُه بكاينة طريف[4] ، جَبَر الله عِثارها ، وعجَّل ثارها .

حدَّث خطيب المسجد الأَعظم ، وهو ما هو ، من وفُور العقل ، وصحة النَّقل ، قال ، مررت بأَبيك بعد ما تمت الكَسْرة ، وخُذلت تلك الأُسرة ، وقد كبا بأَخيك الطَّرف ، وعُرض عليه الحِمام للصَّرف ، والشيخ رحمه الله

---

(١) وردت فى الإسكوريال والزيتونة (فخطب) والتصويب أنسب للمعنى والسياق .

(٢) وردت فى الإسكوريال (وجهته) والتصويب من الزيتونة .

(٣) وردت فى الإسكوريال (بعون) ونعتقد أن التصويب أرجح .

(٤) هى المعركة التى نشبت فى سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) بين القشتاليين وجيش المسلمين المتحد من المغاربة والأندلسيين . على ضفاف نهر سالادو ، على مقربة من ثغر طريف وهزم فيها المسلمون هزيمة فادحة . وقد سبق التعريف بها تفصيلا .

لم تَزِلُّ قدمُه ، ولا راعه الموقف وعِظَمُه . ولما آيس من الخلاص وطُلاَّبه ، صَرفَنى وقال أنا أولى به ، فقضى سعيداً شهيداً ، لم يَسْتَنْفِره الهوْل ، ولم يُثْنه ولا رضى عار الفرار عن ابنه .

شـعره

قال فى « الإكليل » ، وكان له فى الأدب فريضة ؛ وفى النَّادرة العَذْبة منادح[١] عريضة . تكلمت يوما بين يديه ، فى مسائل من الطب ، وأنشدته أبياتاً من شعرى ، وقرأتُ عليه رُقاعاً من إنشائى ، فسُرَّ وتهلَّل ، وعبَّر عما أمل ، وما برح أن ارتجل قوله رحمة الله عليه :

الطبُّ والشِّعر والكتابة ... سِماتُنا فى بنى النَّجابة

هنَّ ثلاث مُبَلِّغـــاتٌ ... مراتباً بعضها الحجابة

ووقَّع لى يوما بخطِّه على ظهر أبيات ، بعثتُها إليه ، أعرض عليه نمطَها :

ورَدْتَ كما ورَد النسيم بسحره ... عن رَوْضة جاد الغمام رُباها

فكأنما هاروت أوْدَع سِحْرَه ... فيها وآثرها به وحَباها

مصقولة الألفاظ يبهر حسنها ... بمثلها افتخر البليغ وباهى

فقررت عيناً عند رؤية حسنها ... إنى أبوك وكنت أنت أباها

ومن شعره قوله :

وقالوا قد نأَوا فاصبُر ستُشْفى ... فترياق الهوى بُعد الدِّيـــار

فقلت هِبوا بأنَّ الحق هـذا ... فقلبى[٢] بموا فِيم اصطِبـار

ومن قوله مما يجرى مجرى الحكم والأمثال :

عليك بالصمت فكم ناطق ... كلامُه أدَّى إلى كَلْمـــه

إن لسان المرء أهـدى إلى ... غُرَّته والله من خصمـــه

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (منادج) . وفى النفح (منادم) . والأولى أرجح .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة والنفح (بقلبى) .

يُرى صغير الجِرْم مُسْتَضْعفا | وجُرمه أكبر من جِـــرمه

وقال وهو من المستحسن فى التَّجنيس :

أنا بالدهر يا بنىَّ خبيـــر | فإذا شئت عِلْمه فتعـــالى
كم مَليك قد ارْتغى منه روضا | لم يدافع عنه الرحمن ما ارتغى لا
كل شىء تراه يَفْنى ويَبْقى | ربُّنا الله ذو الجلال تعـالى

أنشدنى هاتين المقطوعتين .

مـــولده

ولد بحضرة غرناطة فى جمادى الأُولى من عام اثنين وسبعين وستماية .

وفـــاته

بعد يوم الوقيعة الكبرى على المسلمين بظاهر طريف يوم الاثنين السابع لجمادى الأُولى عام واحد وأربعين وسبعماية .

من رثـــاه

قلت فى رثايه من قصيدة أولها :

سهام المنـــا يا لاتطيش ولا تُخطى | وللدهر كفٌّ تستردُّ الذى تعطى (١)
وإنَّا وإن كنا على ثَبَج الدُّنـــــا | فلا بدَّ يوما أن نحـلَّ على الشَّط
وسِيَّان ذلُّ الفقر أو عِـزَّةُ الغِـنى | ومن أَسْرَع السَّير الحثيث ومن يُبْطِ
تساوى على ورْدِ الرَّدى كل وارد | فلم يُغن ربُّ السَّيف عن ربَّة القِرط

وقال شيخنا أبو زكريا بن هُذيل من قصيدة يَرثيه بها :

إذا أنا لم أَرْثِ الصديق فما عُذْرى | إذا قلتُ أبياتا حِساناً من الشـعر

---

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال والنفح . وفى الزيتونة كالآتى (والدهر كف يسترد اللذى يعطى) .

ولو كان شعرى لم يكن غير نَدْبة ... وأجريت دمعى لليراع عن الحِبْر
لَما كنت أَقْضِى حقَّ صُحبته التى ... توخَّيْتُها عوناً على نُوب الدهـر
رمانى عبد الله يوم وَداعه ... بداهيةٍ دَهْياء قاصِمَةِ الظهـر
قطعتُ رجائى حين صح حديثُه ... فإن لم يوفِ دمعى فقد خاننى صَبْرى[1]
وهل مؤنسٌ كابن الخطيب لوحْشَتى ... أَبثُّ له همِّى وأُودعُه سِرِّى

عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد بن جُزَىّ

من أهل غرناطة ، يكنى أَبا محمد ، وقد مرَّ ذكر أَبيه شيخنا وأَخويه ، وتقرَّرت نباهة بَيْتهم .

حـــاله

هذا الفاضل قَرِيعُ بيت نَبِيه ، وسَلَفٍ شهير ، وأُبوَّة خيِّرة ، وأُخوَّة بليغة ، وخؤولة تميَّزت من السلطان بحُظْوة . أَديب حافظ ، قام على فنِّ العربيَّة ، مشاركٌ فى فنون لِسانِيَّة سواه ، طِرْفٌ فى الإدراك ، جيد النظم ، مِطْواع القريحة ، باطنُه نُبْل ، وظاهره غَفْلة . قعد للإقراءِ ببلده غرناطة ، مُعيدا ومُسْتقلا ، ثم تقدَّم للقضاءِ بجهات نبيهة ، على زمن الحداثة ، وهو لهذا العهد مَخْطوب رُتبة ، وجارٍ إلى غاية ، وعينٌ من أَعيان البلدة .

مشـــيخته

أَخذ عن والده الأُستاذ الشهير أَبى القاسم حديث الرَّحمة بشَرْطِه وسمع عليه على صِغر السِّن ، أَبعاضا من كتب عدة فى فنون مختلفة كبعض صحيح مسلم ، وبعض صحيح البخارى ، وبعض الجامع للتِّرمذى

(١) هكذا وردت فى الزيتونة والنفح . وفى الإسكوريال (صبر) .

وبعض السُّنَن للنَّسائى ، وبعض سُنَن أَبى داود ، وبعض مُوَطَّإ مالك بن أَنس وبعض الشِّفاءِ لِعياض ، وبعض الشَّمايل للتِّرمذى . وبعض الأَعلام للنَّميرى ، وبعض المَشْرع السَّلس فى الحديث المَسَلسل لابن أَبى الأَحوص ، وبعض كتاب التَّيسير لأَبى عمرو الدَّانى ، وبعض كتاب التَّبْصرة للمكىِّ ، وبعض الكافى لابن شُريح ، وبعض الهِداية للمَهْدى ، وبعض التَّلخيص للطَّبرى ، وبعض كتاب الدَّلالة فى إثبات النبوَّة والرسالة لأَبى عامر بن ربيع ، وبعض كتاب حَلْبة الأَسانيد وبُغية التلاميذ لابن الكَمَّاد . وبعض كتاب وسيلة المُسْلم فى تهذيب صحيح مسلم من تواليف والده ، وبعض القوانين الفقهية ، وبعض كتاب الدَّعوات والأَذْكار . وبعض كتاب النُّور المبين فى قواعد عقايد الدين من تأْليفه ، وبعض تقريب الوصول إلى عِلْم الأُصول ، وبعض كتاب الصلاة، وبعض كتاب الأَنوار السَّنية فى الكلمات السُّنية ، وبعض كتاب برنامجه . كل ذلك من تاليف والده ، رحمه الله. وأَجاز له روايةً الكتب المذكورة عنه ، مع رواية جميع مَرْوِيَّاته وتواليفه وتقْيِيداته ، إجازة عامة . ولقَّنه فى صغره جملة من الأَحاديث النبوية والمسائل الفقهية ، والمقطوعات الشعرية .

ومنهم قاضى الجماعة أَبو البركات بن الحاج ، حدَّثه بألمرية حديث الرحمة بشَرْطه ، وسمع عليه بها وبغرناطة عدَّة من أَبعاض كتب ، وأَجازه عامة ،وأَنشده من شعره، وشعرغيره . ومنهم قاضى الجماعة الشريف أَبو القاسم لازمه مدة القراءَة عليه ، واستفاد منه ؛ وتفقَّه عليه بقراءة غيره فى كثير من النِّصف الثانى من كتاب سيبويه ، وفى كثير من النصف الثانى من كتاب الإيضاح لأَبى على الفارسى ،وفى كثير من كتاب التَّسهيل لابن مالك ، وفى القصيدة الخَزْرَجية فى العَرُوض ، وسمع من لفظه الرُّبع الواحد أَو

نحوه من تـأليفـه شرح مَقْصُورة حازم ، وتفقه عليه فيه ، وأنشده كثيراً من شعره وشعر غيره . ومنهم الأُستاذ أبو عبد الله البيَّانى ، لازمه مدة القراءة عليه ، وتفقَّه عليه بقراءته فى كتاب التَّسهيل البديع فى اختصار التَّفْريع إلاَّ يسيراً منه ، وتفقه عليه بقراءة غيره فى أبعاض من كتب فقهية وغيرها،ككتاب التهذيب ، وكتاب الجواهر الثمينة ، وكتاب التفريع ، وكتاب الرسالة لابن أبى زيد . وكتاب الأَحكام لابن العربى ، وكتاب شرح العُمدة لابن دَقيق العيد ، وغير ذلك مما يطول ذكره . ومنهم الأُستاذ الأَعرف الشهير أبو سعيد بن لب ، تفقه عليه بقراءته فى جميع النصف الثانى من كتاب الإيضاح للفارسى ، وفى كثير من النصف الأَول من كتاب سيبويه ، وتفقه عليه بقراءة غيره فى أبعاض مى كتب عدة ، فى فنون مختلفة ، كالمُدَوَّنة والجواهر ، وكتاب ابن الحاجب ، وكتاب التَّلقين ، وكتاب الجُمل ، وكتاب التَّسهيل والتنقيح ، والشَّاطبيَّة ، وكتاب العُمدة فى الحديث وغير ذلك . ومنهم الشيخ المُقرى المحدِّث أبو عبد الله محمد بن بيبَش ، سمع عليه بقراءة أخيه الكاتب أبى عبد الله محمد ، جميع كتاب الموطَّأ ، وكتاب الشِّفا إلا يسيرا منه ، وأجازه روايتهما عنه ، ورواية جميع مَرْوِيَّاته ، إجازة عامة ، وأنشده جملة من شعره وشعر غيره . وممن أجازه عامة ، رئيس الكتاب أبو الحسن بن الجيَّاب ، وقاضى الجماعة أبو عبد الله بن يحيى بن بكر الأَشعرى ، والخطيب أبو على القرشى ، والأُستاذ أبو محمد بن سَلْمُون ، والحاج الراوية أبو جعفر ابن جابر ، والشيخ القاضى أبو جعفر أحمد بن عَتيق الشَّاطِبِي الأَزْدِى ، والقاضى الكاتب البارع أبو بكر بن شِبْرين ، والقاضى الخطيب الأَستاذ الراوية أبو بكر بن الشيخ الخطيب الصالح أبى جعفر بن الزيات ،

والقاضي الخطيب أبو محمد بن محمد بن الصّايع . وممن كتب له بالإجازة من المشايخ ، شيخ المشايخ أثير الدين أبو حيّان محمد بن يوسف بن حيان ، وقاضي الجماعة بفاس محمد بن محمد بن أحمد المقّرى ، ورئيس الكتاب أبو محمد الحَضْرمى ، وجماعة سوى من ذُكر من أهل المشرق والمغرب .

شعره

وشعره نبيل الأغراض ، حسن المقاصد . فمن ذلك قوله :

سَنَى[1] الليلةِ الغرَّا وافَتْك بالبُشرى ... وأبْدى منها وجهُ القبول لك البِشرا
تهلَّل وجه الكون من طَربٍ بها ... وأشرقت للدُّنا بغرَّتها الغَرَّا
لها المِنَّة العظمى بميلاد أحمد ... لها الرُّتبة العُليا لها العِزَّة الكُبْرا
طوى سِرَّه فى صدره الدهر مُدَّةً ... فوافى ربيعاً ناشراً ذلك السِّرَّا
حَوى شهرة الفضل الشهير وفضله ... فأَحْسِن به فضلاً وأَعْظِم به شَهْرا
لقد كان ليلُ الكفر فى اللَّيل قد جَفا ... فأَطْلَع منه فى سِمَة الهدى فَجْرا
وفى ليلة الميلاد لاحَتْ شواهد قضت ... أَنَّ دين الكُفر قد أَبْطَل الكُفْرا
لقد أَخْمَدت أنوارها نارُ فارس ... وأَرْجَف كما ارْتَجَّ إيوانه كِسْرى
له معجزات يُعجِز القلبَ كنهُها ... ويُحْصَر إن رام اللسان لها حَصْرا
معالٍ يكلُّ الشِّعر عن نَيْل وَصْفها ... وتَقْصُر عن إدراك مصعده[2] الشِّعرا
به بشَّر الرُّسُل الكرام ولم تزل ... شمايله تُتْلى وآياته تَتْرا
ففى الصُّحف الأُولى مناقِبُه العُلى ... وفى الذكر آيات رَخَّص له قدرا
لقد خصَّه مولاه بالقُرْب والرضى ... وحَسْبُك ماقد نص فى النَّجم والإسْرا
وردَّ عليه الشمس بعد غروبها ... وشقَّ على رغم العُداة له البَدْرا

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (هنى) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة .

وكان لــه فى مايــه وطعـــامه لطايف ربَّانية تَبْهَــر الفِكــرا
غدا المـاءُ من بين الأَصـابع نابعاً وعاد قليل الزَّاد من يُمنه كَثْــرا
وكم نايل أَوْلَى وكم سائل حَبَـا وكم مُشْتَكٍ أَشفى وكم مُذْنِف أبرا
كفى شاهدا أن رَدَّ عَيْن قتـــادة فكان لها الفضل المبين على الأُخرا
وحنَّ إليــه الجِذْع عند فِـراقه ولا حَنَّت الخَنْساءُ إذ فارقت صَخْرا
وحقَّ له إذ بان عنــه حبيبُـــه ومن [ذاق طعم](١) الوَصْل لم يحْمل الهجْرا
خليلَّى والدنيا تُجَدِّد للفقر ضروبا من الأَشواق لو تنفع الذِّكــرا
بعَيْشِكُما هل لى إلى أَرض طيبَـة سبيل فأَمَّا الصبر عنها فلا صبرا
مُنًّا للنفس من تلك المعاهد زَوْرَةٌ أَبثُّ بها شكْوى وأَشكو بها وِزْرا
وتعفير خدِّى فى عروق تُــرابها ليَمْحُوَ لى ذنبا ويُثْبِت لى أَجـرا
تُعَلِّلنى نفسى بإدراكهــا المُنــا وما أَجهدتُ عَيْشاً ولاَ مُلِّكت قفرا
ومن كانت الآمال أَقْصَى اجتهــاده غَدَتْ كفُّه مما تـأَمَّله صِفْــرا
وكم زَجَرَتهــا واعظــات زمانهــا فما سمعت وعظاً ولا قَبِلت زجـرا
وكنت لها عَصْر الشبيبة عــاذِراً سقاه الحيا ما كان أَقْصَره عصرا
وأَما وقد ولَّت ثلاثــون حجَّــةً فلست أَرى للنفس من بعدها عُذرا
إذا أَنت لم تَتْرُك سوى النفس طايعا فلابدَّ بعد الشَّيب من تركه قسرا
ولـم أَدَّخـر إلاَّ شـفاعة أَحمـد لتخفيف وِزْرٍ شدَّ ما أَوْثَق الظهرا
لقد عاقَتْ كفُّ الرجــاءِ بحملـه لعل كَسِير القلب يَقْلِبـه بِـرًّا
هو المرتَضى الداعى إلى مَنْهج الرضا هو المصطفى الهادى المُيَسِّر لليُسْـرا
هو الحاسر الماحى الضَّلالة بالهدى هو الشَّافع الواقى إذا شُهر الحَشْرا
بأَى كلام يَبْلُغ المرءُ وَصْفَ مَنْ مكارمه تستغرق النَّظم والنشـرا

---

(١) وردت فى الإسكوريال (ذا – وبعدها بياض) . والتصويب من الزيتونة .

خِلالٌ إذا الأَفكار جاسَتْ خِلالهـا　　تكرُّ على الأَعقـاب خاسِئة خَسرا
لقد غضَّ طرف النَّجم باهِرُها سنًى　　وأرغم أَنْفَ الرَّوض عاطِرُها نَشْرا
سقى ليلة حَيَتْ به واكف الحيـا　　فَنَعْماؤها ما إن يحيط بها شكرا
لقد خصَّها سندُ الإِلَـه برحمـة　　فعمَّت بها الدنيا وسكَّانَها طُـرّا
أَقمتَ أَمير المسلمين حقوقهـا　　بـأَفعـال برٍّ أَضحكت للهُدى ثَغْرا
لقد سِرت فيها إذ أَتَتْك بسـرِّه　　أَقرَّت لهـا عينـا وسُرَّت لها صدرا
عرفتَ بها حقَّ الذى عرفت بـه　　فأَحسنتَها شـكرا وأَوليتَها بِـرّا
وأَصْحَبْتها الإِخلاص لله والتُّقـا　　وأَعقَبها الإِحسان والنَّايل الغَمْـرا
لدى مَصْنع ملأَ العيـون محاسناً　　تجسَّم فيه السِّحْر حتى بدا قَصْرا

منها بعد أَبيات فى المدح للسلطان :

روى عن أَبى الحجاج غُرَّ شمايل　　أَعاد لنا دَهْمَ الليالى بهـا غُرّا
ومن كَبَنِى نصر جلالة مَنْصب　　بهم نَصَر الرحمن دين الهدى نصرا
هم ما هم إن تَلْقَهم فى مهمَّة　　لقيت الجناب السَّهل والمَعْقِل الوَعْرا
سلالة أَنصار النبى محمد فسَلْ　　أَحدا يُنْبيك عنهم وسَلْ بَدْرا

ومن شعره فى المقطوعات . قال فى التورية العَرُوضية :

لقد قطعتَ قلبى يا خليلى　　بهجرٍ طال منك على العليل
ولكن ما عجيبٌ منك هذا إنه　　التَّقـطيع من شـأن الخليل

وقال فى التَّورية النَّحوية :

لقد كنتُ موصولاً فأُبدِل وصْلكم　　بهجر وما مثلى على الهجر يَصْبِر
فما بالكم غيَّرتُم حال عَبْدكم　　وعهدى بالمحبوب ليس يُغَيَّر

وقال فى التَّورية مداعباً بعض المقرئين للعدد وهو بديع :

يا ناصباً علم الحساب حِبـاله　　لقناص ظَبى ساحر الأَلبـاب
إن كنت ترجو بالحساب وِصَاله　　فالبدر يَرْزُقنا بغير حسـاب

وقال فى التَّورية العَرُوضية :

لقــد كَمُـل الـوُدُّ بيننــا ودمنــا على فَرَح شــامل
فإن دخل القَطْعُ فى وَصْلنــا فقد يدخل القَطْعُ فى الكامل

وقال فى تضمين مَثَل :

ألا اكْتُمْ حبّاً من أَحْبَبْتَ واصبر فإنَّ الهجر يُحدثه الكلام
وإن أبداه دمعٌ أو نحــولٌ فمن بَعْد اجتهادى لا تُــلام

وقال :

وأَشْنَبُ الثَّغر له وجْنَــةٌ تعدَّت النَّحل على وَرْدهــا
ما ذاك إلاَّ حسدٌ إذ رأت رُضابه أَعْذَب من شَهْدهــا

وقال فى التَّورية بأَسماءِ كُتُب فقهية جوابا غير مُعَمّى :

لك الله من خلٍّ حبانى برُقعة حبتنى من أبياتها بالنوادر
رسالة رُمز فى الجمال نهاية وخيرة نظم أُتحفت بالجواهر

وقال فى التَّورية أيضاً :

إلى الله أَشكو عُــذراً تــردَّدا إلىَّ فلما لاح سِــرِّى لهم حالوا[1]
لقد خدعونى إذ أَرُونى مــودَّة ولكنَّه لا غَرْو أن يُخْدع الآل

وقال يخاطب رجلا من أَصحابه :

أَيا حَسَنُ إن شتَّت الدهرشَملنا فليس لوُدٍّ فى الفؤاد شَتات
وإن حُلْت عن عهد الإخاء فلم يزل لِقلبى على حفظ العُهود ثبات
وهَبْنى سَرَتْ منى إليك إساءة ألم تتقدَّم قبلها حَسنات

وقال فى النَّسيب :

إن كان باب القُرب قد سُدَّ بيننا ولم يبق لى فى نَيْل وَصْلِك مطمع

---

(١) وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال كالآتى (والى فلما لاح سرى لهم حال وا) . وو ردت فى الزيتونة كالآتى (الى فلما لاح سراهم خال) .

وأَخْفَرْتَ عهدى دون ذنب جَنَيْتُه ... وأصبح وُدِّى فيك وهو مُضَيَّع
ولم تَرْثِ لى عما أُلاقى من الأَسى ... وصِرْتُ أُنادى منك من ليس يسمع
وضاقَتْ بِىَ الأَحوال عن كل وُجهة ... فما أَرْتَجى من رحمة الله أَوْسَعُ

ومما نظمه فى التَّضمين مخاطبا بعض المُنْتَحلين للشِّعر قوله :

لقد صِرْتَ فى غَصْب القصايد ماهرا ... فما اسم جميع [الشعر][1] عندك غيزل
ولم تُبق شعرا لامرىءٍ متقدِّم ... ولم تبق شعرا يابن بشت[2] لأَول
فشِعْرُ جَرير قد غَصَبْتَ ورويُّه ... وشعر ابن مَرْج الكُحل وابن المرحَّل
وإن دام هذا الأَمر أَصبحتَ تَدَّعى ... قِفا نَبْك من ذِكرى حَبيبٍ ومنزل

ومن المقرئين والعلماء

عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن مجاهد العبدرى الكوّاب

من أَهل غرناطة ، يكنى أَبا محمد الخطيب ، المقرىء

حــــاله

من « الصِّلة » : كان رحمه الله أَتْقَن أَهل زمانه فى تجويد كتاب الله العزيز ، وأَبْرَعهم فى ذلك ، وأَنْفَعهم للمتعلم ، نفع الله به كل من قرأَ عليه ، وترك بعده جُملةً يُرجع إليهم فى ذلك ، ويُعمل على ما عندهم . وكان مع ذلك نَبيه الأَغراض ، فى جميع ما يحتاج إليه فى عِلْمه [ذا كرا للإختيارات التى تنسب للمقرئين][3] ، من يُرجِّح ويُعَلِّل، ويختار ويَرُد ، موفقا فى

---

(١) الزيادة من الزيتونة .

(٢) كذا فى الإسكوريال والزيتونة .

(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى الزيتونة . ووردت محرفة فى الإسكوريال كالآتى (زاكرا لاختيات المقريين) .

ذلك ، صابرا على التعليم : دايباً عليه نهاره وليله ، ذاكرا لخلاف السَّبعة . رحل الناس إليه من كل مكان ،خاصَّتهم وعامَّهم ، وملأ بَلَده تجويدا وإتقانا ، وكان مع هذا فاضلا ورعا جليلا . خَطَب بجامع غرناطة وأَمَّ به مدة طويلة ،إلى حين وفاته .

مشيخته

أخذ القراءات عن الحاج أبي الحسين بن كوثر ،وأبي خالد بن رَفاعة ، وأبي عبد الله بن عَرُوس . ورحل إلى بيَّاسة ، فأخذ بها القراءات عن أبي بكر ابن حسُّون : وأخذ مع هؤلاء عن جعفر بن حَكَم ، وأبي جعفربن عبد الرحيم ، وأبي الحسن الصِّدفى الفاسى ، وسمع عليه كثيرا من كتاب سيبويه تفقُّها ، وأجاز له كتابةً القاضى أبو بكر بن أبي جَمْرة مع آخرين ممن أخذوا عنه .

من أخذ عنه

روى عنه الناس أهل بلده وغيرهم : منهم ابن أبي الأحْوص ، وأبو عبد الله بن إبراهيم المُقرى .

وفـــاته

توفى فى سنة ثلاث وثلاثين وستماية ، ودفن بمقبرة باب إلبيرة .

عبد الله بن على بن عبد الله بن على بن سَلْمون الـكنانى

من أهل غرناطة ، يكنى أبا محمد ، ويعرف بابن سلمون

حـــاله

كان رحمه الله ، نسيجَ وَحْده ، دِيناً وفضْلا ، وتَخلُّقاً ودماثة ، ولين

جَانب ، حسن اللِّقاء . سليم[١] الباطن ، مُغْرقا فى الخير ، عظيم الهشَّة[٢] والقَبُول ، كريم الطَّوية ، عظيم الانقِياد ، [طيِّب اللهجة][٣] ، مُتهالكا فى التِماس الصَّالحين ، يتقلَّب فى ذلك بين الخطإ والإصابة ، صَدْراً فى أهل الشُّورى . قرأ ببلده وسمع وأَسْمَع وأَقْرأ ، وكتب الشروط مدة ، مأثورَ العدالة ، معروف النَّزاهة ، مثلا فى ذلك ، ويقوم على العربية والفقه ، خصوصا باب البُيوع ، ويتقدَّم السِّباق فى معرفة القراءات ، منقطعُ القَرِين فى ذلك ، أَشدُّ الناس خُفوفا فى الحوايج ، وأَسرعُهم إلى المشاركة .

مشيخته

قرأ على الأُستاذ الكبير أَبى جعفر بن الزبير بغرناطة ، ولازمه ، فانتفع به ، درايةً وروايةً . وقرأ على الخطيب أَبى الحسن بن فَضِيلة ، والمُكَتِّب أَبى الحسن البلُّوطى ، وأَبى محمد النِّفْزِى ، والخطيب أَبى جعفر الكُحيلى . وبمالَقة على الأَستاذ أَبى محمد الباهلى . وبسَبْتَة على الأُستاذ المقرى رُحْلَةِ وقته أَبى القاسم بن الطيب ، وسمع عليه الكثير . وعلى الأُستاذ أَبى عبد الله الدَّراج ، ولازم مجلس إقرايه ، وعلى الشيخ المعَمَّر أَبى عبد الله ابن الخطَّار الكامى ، وهو أَعْلى من لقيه من تلك الحَلْبة . وأَخذ بالإجازة عن العَدْل أَبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن النُّولى ، وروايته عاليه . لقى أَبا الربيع بن سالم ، ولقى بسبتة الشَّريف الرَّاوية أَبا على الحسن بن أَبى الشرف ربيع ، والأَديب الكاتب أَبا على الحسين بن عَتيق بن الحسين ابن رَشيق . وبفاس الفقيه أَبا غالب محمد بن محمد بن عبد الرحمن

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (سالم) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الهيبة) .
(٣) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الزيتونة .

المَغِيلى . وقرأ على الخطيب المحدث أبى عبد الله بن رُشيد . وسمع على ذى الوزارتين أبى عبد الله بن الحكيم . ولقى الأديب المعمَّر مالك بن المرحَّل . وأجازه أبو عمران موسى بن الخطيب أبى الحسن الدَّارى برُندة . وأجازه من أهل المشرق كثير ، منهم عز الدين أحمد بن محمد الحسنى بقيَّة الأشراف بالدِّيار المصرية ، وجمال الدين أحمد بن محمد بن عبد الله الظاهرى ، ونجم الدين أحمد بن حمدان الحرَّانى ، وجمال الدين أحمد ابن أبى الفتح الشَّيبانى ، وأحمد بن عبد المنعم الصُّوفى ، ومولده عام أحد وستماية ، وأحمد بن سَلْمان بن أحمد المَقْدسى ، وأحمد بن عبد الحميد ابن عبد الهادى ، وشمس الدين ابراهيم بن سرور المقدسى ، والخطيب بالمسجد الأعظم ببِجاية أبو عبد الله بن صالح الكِنانى ، وأبو عبد الله محمد أبى خمسة[1] محمد بن البكرى بن أبى بكر ، وأبو عبد الله محمد بن على ابن وَهَب بن مُطيع بن أبى الطاعة القُشَيرى ، وابن دقيق العيد تقى الدين ، وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد بن جماعة ، والشيخة الصالحة أم محمد عائشة بنت أبى الخطاب محمد بن أحمد بن خليل السُّكونى . وأجازه نحو من المايتين من أهل المشرق والمغرب . ولقى بفاس الشِّيخة الأديبة الطيبة الشاعرة ، سارة بنت أحمد بن عثمان بن الصلاح الحلبيَّة وأجازته ، وألْبَسَتْهُ خرقة التصوُّف .

قال ، وأنْشَدَتْنى قصيدة أجابت بها الخطيب المحدث ، أبا عبد الله ابن رُشيد ، أولها يعنى قصيدة ابن رُشيد :

سَرى نَسيم من حِمى سـارَّة ... عاد به كلُّ نَسيم عـاطرا
وجال أفكار الدُّنـا ذكـرها ... فسـار فيها مثلا سـايرا

(١) هكذا وردت فى المخطوطين .

دايــرةٌ والمجدُ قطبٌ لهــا   دارت عليــه فَلَكًا دايـرا

فقالت :

واف قريضٌ منكم مذ غــدا   لبعض أوصــافكم ذاكـرا
أطْلَع من أنفــاسه الحجـا   ومن شَـذاه نفسـاً عـاطرا
أعاد مَيْتَ الفـكر من خاطرى   من بَعْد دَفْنٍ فى الثَّرى ناشرا
يَبْهر طَرْفى حسنُ مَنْظَــره   أَخْبِبْ بــه نظما غدا باهرا
فقلتُ لهــا هــالنى حُسْنُه   أشاعراً أصبح أم ســاحرا
أم روضة هذى التى قد نوى[1]   أم بدرُ تِم قد بدا زاهــرا
أم ضربٌ من فمـه ســايل   أم جوهر أضْحى لنا ناثـرا
لله مــا أعْــذَبَ ألفـــاظه   وأنْورَ الباطن والظَّــاهرا
يا ابن رُشيد بل أبا الرُّشــد   يا من لم يزل لطىِّ العُلَى ناشرا
خذ ما فَدَتْك النفس يا سيدى   وكن لمن نَظَمَها عــاذِرا
ما تصل الأُنْثى بتَقْصِيـرها   لأَن تُبــارى ذَكَراً ماهــرا
لازلت تُحيِى من رُسوم العُلا   ما كان منها دارســاً داثـرا

تصــانيفه

الكتاب المسمى « بالشافى فى تجربة ما وقع من الخلاف بين التَّيْسير والتَّبصرة والكافى » لا نظير له .

مــولده

ولد بغرناطة بلده فى الثانى والعشرين لذى قعدة من عام تسعة وستين وست ماية .

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (قرا) .

وفاته

فُقد فى الوقيعة العظمى بطريف يوم الإثنين السابع لجمادى الأُولى من عام أحد وأربعين وسبعماية . حدث بعض الجند أنه رآه يتحامل ، وجُرْحٌ بصدره يَثْعَب دماً ، وهو رابط الجأش ، فكان آخر العهد به . تقبَّل الله شهادته .

عبد الله بن سهل الغرناطى

يكنى أبا محمد ، ويُنْبز[١] بالوجه نافخ[٢]

حـــاله

من كتاب ابن حمامة ، قال عُنى بعِلْم القرآن والنحو والحديث ، عناية تامة ، وبهذا كنت أسمع الثَّناءَ عليه من الأَشياخ ، فى حال طفولتى[٣] بغرناطة ، ثم شُهر بعد ذلك بعِلم المَنْطق ، والعلوم الرياضية ، وساير العلوم القديمة ، وعَظُم بسببها ، وامتدَّ صيتُه من أَجلها ، وأَجمع المسلمون واليهود والنصارى ، أن ليس فى زمانه مثله ، ولا فى كثير ممن تقدَّمه ، وبين هذه المِلل الثلاثة من التَّحاسد ما عُرف . وكانت النصارى تقصِده من طُليطلة ، تتعلَّم منه أيام كان ببيَّاسة[٤] ، وله مع قَسِّيسهم مجالسُ فى التَّناظر ، حاز فيها قَصَب السَّبق . قال ، ثم خرج عن بيَّاسة ، وسار إلى نظر ابن هَمُشْك[٥] عند خروج النصارى عن بيَّاسة . وله تواليف . وهو الآن بحاله .

(١) ينبز معناها يلقب .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (النافخ) .

(٣) وردت فى الإسكوريال (تفولتى) والتصويب من الزيتونة .

(٤) بياسة ، وبالإسبانية Baeza ، بلدة أندلسية قديمة تقع شمال شرقى جيان بينها وبين أبدة ، وقد سبق التعريف بها .

(٥) ترجم له ابن الخطيب فى المجلد الأول من الإحاطة (ص ٢٩٦ – ٣٠٣).

قلت ، تاريخ هذا القول ، عام ثلاثة وخمسين وخمسماية .

عبد الله بن أيوب الأنصارى

يكنى أبا محمد ، ويعرف بابن خرُوج ، من أهل قلعة أيوب[١] .

حاله

فقيه حافظٌ لمذهب مالك . استوطن غرناطة وسكنها .

تواليفه

ألَّف فى الفقه كتابا مفيدا سماه « المنوطة » على مذهب مالك ، فى ثمانية أسفار أتْقَن فيها كل الإتقان :

وفاته : توفى بها سنة اثنتين وستين وخمسماية ، وقد قارب المائة .

عبد الله بن الحسن بن أحمد بن يحيى بن عبد الله الأنصارى

مالَقى ، قرطبي الأصل ، يكنى أبا محمد ، ويعرف بالقرطبي ، وقرأ بغرناطة .

حـــاله

كان فى وقته ببلده ، كامل المعارف ، صدرا فى المقرئين والمجَوِّدين ، رئيس[٢] المحدِّثين وإمامهم ، واسع المعرفة ، مُكْثِرا ، ثقةً ، عدلا ، أمينا ، مَكِين الرِّواية[٣] ، رايق الخطِّ ، نبيل التَّقييد والضَّبط ، ناقدا ، ذاكرا

(١) قلعة أيوب ، وبالإسبانية Calatayud ، بلدة حصينة من أعمال الثغر الأعلى تقع جنوب غربى سرقسطة على نهر خالون أحد أفرع نهر إيبرو (إبره) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (رأس) .

(٣) وردت فى الإسكوريال (يكر الدراية) . والتصويب من الزيتونة .

أسماء رجال الحديث وطبقاتهم وتواريخهم ، وما حُلوا به من جَرْحٍ وتَعْديل ، لا يدانيه أحد فى ذلك : عزيز النَّظر ، متيقِّظاً ، متوقد الذهن ، كريم الخلال ، حميد العشرة ، دَمِثاً ، متواضعاً ، حسن الخلق ، مُحَبَّباً إلى الناس ، نزيه النفس ، جميل الهيئة ، وقورا ، مُعَظَّماً عند الخاصة والعامة ، ديِّناً ، زاهِدًا ، ورعا ، فاضلا ، نحْوياً ماهراً ، ريَّان من الأَدب ، قائِلاً الجيِّد من الشعر ، مَقْصِدا ومَقْطعاً ، وكان له بجامع مالَقة الأَعظم ، مجلس عام : سِوى مجلس تدريسه ، يتكلم [فيه][1] على الحديث ، إسْناداً ومَتْناً ، بطريقة عجز عنها الكثير من أكابر أهل زمانه . وتصدَّر للإقراء ابن عشرين سنة .

« من أخباره فى العلم والذكاء » : قالوا قُرِئ عليه يوما باب الابْتِداء بالكَلِم التى يُلفظ بها فى إيضاح الفارسى ، وكان أحسن الناس قياما عليه فتكلم على المسأَلة الواقعة فى ذلك الباب ، المتعلقة بعلم العَرُوض ، وكان فى الحاضرين من أحسن صناعته ، فجاذبه الكلام ، وضايقه المباحثه ، حتى أحسَّ الأُستاذ من نفسه التَّقْصير ، إذ لم يكن له قَبْل كَبِيرُ نَظَرٍ فى العروض ، فكفَّ عن الخَوْض فى المسأَلة ، وانصرف إلى منزله ، وعكف ساير اليوم على تَصَفُّح عِلْم العَروض ، حتى فهم أغراضه ، وحصَّل تواليفه وصنَّف[2] فيه مختصراً نبيلا ، لخص فى صدره ضُروبه[3] ، وأبدع فيه بنظم مثله ، وجاء به من الغَدِ ، مُعجزاً من رآه أو سمع به ، فبُهِت الحاضرون وقضوا العجب من اقتداره وذكائه ، ونفوذ فهمه ، وسموِّ همَّته .

ومن أخباره فى الدِّين : قال أبو أحمد جعفر بن زعرور العاملى المالقى تلميذه الأَخصّ به ، بتُّ معه ليلة فى دُوَيْرته التى كانت له بجبل

(١) الزيادة من الذيل والتكلة .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة والذيل والتكلة . وفى الإسكوريال (وضبط) .

(٣) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (فرشه) .

فاره[1] للإقراء والمطالعة ، فقام ساعة كنت فيها يمطانا ، وهو ضاحك مسرور ، يَشِدُّ يده كأنّه ظفر بشيء نفيس ، فسألته فقال ، رأيت كأن الناس قد حُشروا فى العَرْض على الله ، وأتى بالمحدِّثين ، وكنت أرى أبا عبد الله النَّميرى يؤتى به ، فيوقف بين يدى الله تعالى ، فيعطى براءته ، من النَّار ، ثم يُؤْتى بى ، فأُوقِفت بين يدى ربى ، فأعطانى براءتى من النَّار ، فاستيقظت ، وأنا أشدُّ عليها يدى اغتباطا بها وفرحا ، والحمد لله.

مشيخته

تلا بمالقة على أبيه ، وأبى زيد السُّهيلى ، والقاسم بن دَحْمان ، وروى عنهم ، وعن أبى الحجاج بن الشيخ ، وأبوى عبد الله بن الفخَّار ، وابن نوح ، وابن اليَتيم ، وابن كامل ، وابن جابر ، وابن بُونة . وبالمنكّب عن عبد الوهاب الصِّدفى . وحضر بمالقة مجلس أبى إسحق بن قرقول . وبإشبيلية عن أبى بكر بن الجد ، وابن صاف ، وأبى جعفر بن مَضاء ، وأبوى الحسن عبد الرحمن بن مسلمة ، وأبى عبد الله بن زَرْقون ، وأبى القاسم بن عبد الرازق ، وأبى محمد بن جُمْهور . وبغرناطة عن أبوى جعفر بن حَكَم الحصَّار ، وابن شُراحيل ، وأبى عبد الله بن عروس ، وأبوى محمد عبد الحق النَّوالشى ، وعبد المنعم بن الفَرَس . وبمُرْسية عن أبى عبد الله بن حُميد ، وأبى القاسم بن حُبيش ، وبسبتة عن أبى محمد الحِجْرى . وأجاز له من الأندلس ابن مُحرز وابن حسُّون وابن خِيَرة ، والأُرْكُشى ، وابن حفص وابن سعادة ، ويحيى المَجْريطى ، وابن بَشْكُوال ، وابن قُزْمان . ومن أهل المشرق جماعة كبيرة .

---

(١) جبل فاره وبالإسبانية Gibralfaro ، مكان مرتفع بشرق مالقة . وقد سبق التعريف به (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ٥٠٦ حاشية) .

شعره وتصانيفه

أَلَّف فى العروض مجموعات نبيلة ، وفى قراءة نافع . ولخَّص أسانيد المُوَطَّأ . وله المُبْدى لخطإ الرُّندى . ودخل يوما بمجلس[1] أقرأ به أبو الفضل عِياض ، وكان أفتى منه ، غير أن الشَّيب جار عليه ، وتأخر شَيْبُ الأُستاذ ، فقال يا أُستاذ شِبْنا وما شِبْتُم ، قال فأنشده ارتجالا :

وهل نافعٌ أن أخطأ الشَّيْب مَفْرِقى ... وقد شاب أَتْرابى وشاب لِدَّاتى
لئن كان خطْب الشَّيب يوجد حِسّه[2] ... بِتِرْبى فمعناه يقوم بذاتى

ومن شعره فى التَّجْنِيس :

لعمرك ما الدُّنيا بسرعة سَيْرها ... بسُكَّانها إلا طريقٌ مَجاز
حقيقتُها أَنَّ المُقام بغيرها ... ولكنهم قد أُولِعوا بمجاز

ومما يؤثر أيضا من شعره قوله :

سَهِرتْ أَعْيُنٌ ونامت عيون ... لأُمور تكُون أَولا تكُون
فاطْرُد الهمَّ ما استطعت عن[3] ... النَّفس فحِملانك الهموم جنون
إنَّ رباً كفاك بالأَمس ما كان ... فسَيكْفِيك فى غد ما يكون

مولده

ولد أَبو محمد قُريب ظهر يوم الإثنين لثمان بقين من ذى القعدة عام ستة وخمسين وخمساية . «وفاته » سَحر ليلة السبت أَو سَحر يومها ، ودفن إِثْر صلاة العصر من اليوم السابع لربيع الآخر سنة أَحد عشر وستماية

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بمسجد).
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة . وفى الذيل والتكلة (عينه) .
(٣) وردت هذه الشطرة فى الزيتونة كالآتى (فاطرد الهم عن النفس ما استطعت) .

من رثـاه

رثاه الأديب أبو محمد عبد الله بن حسُّون البُرْجِى من قصيدة حسنة طويلة :

خليليّ هُبَّا ساعدانى بعبَـرة وقولا لمن بالرِّى ويحكم هبُّوا
نبكى العلى والمجد والعلم والتُّقى فمأتمُ أحزانى نوائحُه[1] الصحب
فقد سُلب الدِّين الحنيفى رُوحَه ففى كل سِرْبٍ من نباهته نَهب
وقد طُمِست أنوار سنَّة أَحمد وقد خَلَت الدنيا وقد ظَعن الرَّكب
مضى الكوكب الوقَّاد والمرْهَف الذى يُصَحِّح فى نصِّ الحديث فما يَنبُ
تمنَّى علاه النيران ونــوره وقالا بزعم أنَّه لهما تِــرْب
أأسْلُو وبحر العِلم غِيضَتْ مِياهُه ومُحيي رسوم العِلم يَحْجُبه التُّرب
عزيزٌ على الإسلام أن يُودَع الثرى مُسَدِّده الأَسْرَى[2] وعالمه النَّدبُ
بكى العالـم العُلْوى والسَّبع حسرةً أُولئكم حِزْبُ الله ما فوقهم حِزب
على القرطبى الحَبْرِ أُستاذِنا الذى على أهل هذا العصر فضَّله الرَّب
فقد كان فيما مَضى من زمانه به تَحْسنُ الدُّنيا ويَلْتَئِم الشّعب
ويجمع سِرب الأُنْس روض حياته فقد جَفَّ ذاك الرَّوضُ وافترق السِّرب
فسُحْقاً لدُنْيا خادَعَتْنا بمكرها إذا عاقَدت سلما فمقصدُها حَرْبُ
رَكِبنا السَّهل الذَّلُول فقادنا إلى كل ما فى طيِّه مركبٌ صعب
ونغفل عنها والرَّدى يَسْتَفِزُّنا كفى واعظاً بالموت لو كان لى لبُّ

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (يوايحه) وهو تحريف .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة . وفى الذيل والتكملة (الأهدى) .

عبد الله بن أحمد بن إسماعيل بن عيسى بن أحمد بن إسماعيل بن سِماك العاملى (١)

يكنى أبا محمد ، مالقى الأصل .

حـــاله

كان فقيهاً أديباً ، بارع الأدب ، شاعراً مطبوعاً ، كثير النادر ، حُلو الشمايل ، أدرك شيوخاً جِلَّة ، ووُلِّى قضاء غرناطة مدَّة .

مشـــيخته

روى عن جده لأُمه وابن عم أبيه أبى عُمر أحمد بن إسماعيل ، وأبى على الغسّانى ، وأبى الحسن على بن عبيد الرحمن بن سَمْحون والمرسانى (٢) الأديب ،

شـــعره

الروض مُخْضَرُّ الرُّبى مُتَجَمِّل ... للناظرين بأجمل الألوان
وكأنما بَسَطت هناك سِوارها ... خُودٌ زَهَتْ بقلائد العِقيان
وكأنَّما فَتَقت هناك نوافِحٌ ... من مِسْكة عُجنت بِعَرْف البان
والطَّير يَسْجَع فى الغُصُون كأنما ... تقرأ القِيان فِيه على العيدان
والماءُ مُطَّرد يسيل عُبابه ... كسلاسل من فِضَّة وجُمان
بهجات حُسْن أُكْمِلت فكأنها ... حُسْنُ اليقين وبهجةُ الإيمان

وكتب إلى الكاتب أبى نصر الفتح بن عبيد الله (٣) فى أثناءِ رسالة :

تفتَّحت الكتابة عن نَسيم ... نسيمُ المِسْك فى خُلُق الكريم
أبا نصر رسَمْتَ لها رسوما ... تَخال رسومُها وضحَ النُّجوم

(١) وردت هذه الترجمة فى هامش لوحة 223 من مخطوط الإسكوريال . ولم ترد فى الزيتونة
(٢) هكذا فى الإسكوريال .
(٣) هو الفتح بن خاقان من أشهر كتاب عصر الطوائف ، ومؤلف كتاب « قلائد العقيان » .

وقد كانت عَفَّت فأَثْرتَ منها — سراجاً لاح فى الَّليل البَهيم
فَتَحْت من الصِّناعة كل باب — فسارَّةُ فى طريق مستقيم
فكُتَّاب الزمان ولستَ منهم — إذا راموا مَرَامَك فى هُموم
فما قِسٌّ بأَبدع منك لفظاً — ولا سَحْبان مثلُك فى العلوم

« وفاته » : فى السابع والعشرين من رمضان المعظم سنة أَربعين وخمسمائة وهو ابن أَربع وثمانين سنة .

ومن ترجمة القضاة

عبد الله بن أحمد(١) بن محمد بن سعيد بن أيوب بن الحسن بن مُنخل بن زيد الغافق

من أهل غرناطة وأعيانها ، يُكنى أبا محمد ، ويُنسب إلى غافق بن الشَّاهد(٢) بن علك بن عدنان ، لا إلى حِصْن غافق .

حـــاله

من « العايد » كان رجلا صحيح المذْهَب ، سليم الصَّدر ، قليل المُصانعة ، كثير الحركة والهشَّة ، والجِدَة ، ملازم الاجتهاد والعُكوف ، لا يفتر عن النَّسخ والتَّقييد والمطالعة ، على حال الكَبْرة ، قديم التَّعيُّن والأَصالة ، وُلِّى القضاء عُمْره بمواضع كثيرة ، منها بيرة ورُندة ثم مالَقة ، مضافا إلى الخطابة بها .

(١) هكذا وردت فى الزيتونة .وفى الإسكوريال (أبى أحمد) .
(٢) وردت فى الإسكوريال (الشاهك) . والتصويب من الزيتونة .

مشـيخته

حجّ فى حدود سبعة وثمانين وسمّاية ، وروى عن جِلّة من أهل المشرق ، كالإمام تقى الدين بن دقيق العيد ، والحافظ أبى محمد عبد المؤمن الدُّمياطى ، وشمس الدين المصَنِّف(1) أبى عبد الله بن عبد السلام . وأجازه من أهل المغرب شيخ الجماعة بالأندلس أبو جعفر بن الزبير ، والقاضى ابن أبى الأحوص ، والخطيب أبو الحسن بن فضيلة ، والأُستاذ أبو الحسن ابن الصّايغ الإشبيلى ، وأبو جعفر الطَّباع ، وغيرهم .

تواليــفه

ألّف كتابا سماه« بالمنهاج فى ترتيب مسائل الفقيه المُشاور أبى عبدالله ابن الحاج » .

مــولده

ولد بغرناطة فى حدود ستين وسمّاية .

« وفاته » : توفى بغرناطة يوم عاشوراءَ من عام أحد وثلاثين وسبعماية .

عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن أبى زَمَنين المرّى

يكنى أبا خالد.

حــاله

كان فقيها جليلا ، ووُلِّى القضاءِ ببعض جهات غرناطة .

---

(٣) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (المصف) .

(٤) وردت هذه الترجمة فى لوحة 224 من مخطوط الإسكوريال . ولم ترد فى الزيتونة .

مشــيخته

أَخذ الفقه عن أَبى جعفر بن هلال ، وأَبى محمد بن سِماك القاضى . والعربية عن الخَضْر بن رضوان العَبْدرى . والحديث عن الحافظ أَبى بكر ابن غالب ين عبد الرحمن بن عطية ، والإمام أَبى الحسن على بن أَحمد ، والقاضى أَبى الفضل عِياض بن موسى بن عِياض أَيام قضائه بغرناطة .

مولــده

ولد سنة سبع وتسعين وأَربعماية .

« وفاته » : توفى فى ذى قعدة سنة أَربع وأَربعين وخمس ماية .

عبد الله بن يحيى بن محمد[(١)] بن أحمد بن زكريا بن عيسى بن محمد بن يحيى بن زكريا الأنصارى

يكنى أَبا محمد ، من أَهل غرناطة ، شَرْقى الأَصل ، مُرْسِيه ، من بُيوتاته النَّبيهة . وقد مرَّ ذكر أَخيه .

حــاله

كان على طريقة حسنة من دماثة الأَخلاق ، وسلامة السَّجِيَّة ، والتزام الحِشْمة ، والاشتغال بما يَعنى . وُلِّى القضاء دون العشرين سنة ، وتصرف فيه عُمْرُه بالجهات الأَندلسية ، فأَظهر فيه عدلا ونزاهة ، ولم يختلف عليه اثنان مدة حياته ، من أَهل المعرفة بالأَحكام ، والتَّقدُّم فى عَقْد الشُّروط ، وصناعة الفَرايض ، عِلْماً وعملا ، ثاقب الذهن ، نافذاً فى صنعة العَدَد .

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (عمر) .

مشيخته

قرأ على أبيه القاضى أبى بكر بن زكريا ، وله رواية عالية عن أعلامٍ من أهل المشرق والمغرب . وقرأ على أبى الحسن بن فضِيلة الولىِّ الصالح ، والقاضى أبى عبد الله بن هشام الألْشِى ، والأُستاذ أبى جعفر بن الزبير ، والحاج أبى محمد[1] بن جابر ، وأبى بكر القَلَلَوْسى . وقرأ العَدَد وما أشبهه على الأُستاذ التَّعاليمى أبى عبد الله الرقَّام ، ولازمه ؛ [وأجازه][2] طايفة كبيرة . أخبرنى ولده الفاضل أبو بكر ، قال : وَرَد سؤالٌ من تونس مع تاجر وصل فى مَرْكِب إلى مدينة المُنَكَّب أيام قضائه بها ، فى رَجُل فَرَّط فى إخراج زَكاة مالِه سنين مُتَعَدِّدة ، سُمِّيت فى السؤال مع نِسْبة قدر المال ، وطُلب فى السؤال ؛ أن يكون عَمَلَها بالأربعة الأعداد المُتَنَاسبة ، إذ عُمَلُها بذلك ، أصعبُ من عملها بالجَبْر والمُقابلة ، فعَمِلها وأخرجها بالعَمَلَين ، وعبَّر عنها بعبارة حسنة ، وكتبها فى بطاقة بخطٍّ جميل ، فذكر التاجر أنه لم يبق بتونس فقيه ، إلا ونسخ منها نُسخة ؛ واستحسنها .

مولده

ولد يوم الخميس السابع عشر لجمادى الآخرة عام خمسة وسبعين وستماية .

« وفاته » : توفى قاضيا بِبَسْطة فى التاسع عشر من رمضان عام خمسة وأربعين وسبعماية .

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (العلوى) .

(٢) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة . وساقطة فى الإسكوريال .

عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الملك بن أبي جمرة الأزدى

من أهل مُرْسِيه ، نَزيل غرناطة ، يُكْنى أبا محمد ، وبيته بمُرْسِية من أعلام بيوتاتها ، شهير التَّعيُّن والأَصالة ، ينكح[1] فيه الأُمراء .

حـــاله

كان من أعلام وقته فضلا وعدالة وصلاحا ووقارا ، طاهر النشأة ، عفَّ الطُّعمة ، كثير الحياء ، مليح التَّخَلُّق . نشأ بمرسيه ، ثم انتقل إلى غرناطة فتولَّى القضاء ببيرة وجهاتها ، ثم جاز إلى سَبْتَة ، وانعقدت بينه وبين رؤسايها المُصاهرة فى بعض بَناته . ثم آب إلى غرناطة عند رجوع إيالة سبتة إلى أميرها ، فتقدَّم خطيبا بها .

مشيخته

روى بالإجازة عن الخطيب الحافظ أبي الرَّبيع بن سالم وأمثاله .

وفـــاته

الغريبة المُسْتَحسنة . قال بعض شيوخنا ، كنت أسْمعه عند سجوده ، وتَبَتُّله وضَراعته إلى الله . يقول اللهم أَمِتنِى مَيْتةً حَسَنة ، ويكرِّر ذلك . فأجاب الله دعاءه ، وتوفاه على أتم وجوه التَّأْنيب طهارةً وخشوعاً وخضوعاً وتأَهُّباً ، وزمانا ومكاناً ، عندما صعد أوّل دَرَجٍ من أدراج المِنْبر ، يوم الجمعة الثالث والعشرين لشوال من عام أحد عشر وسبع مايه ، فكان يوما مشهودا لا عهد بمثله ، مارُئى أكثر باكياً منه ، وأكثر الناس من الثناء عليه

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة ، ومعناها هنا (يتزوج من بناته الأمراء).

عبد الله بن سليمن بن داود بن عبد الرحمن بن سليمن بن عمر بن حَوْط الله الأنصارى الحارثى الأزدى

يكنى أبا محمد .

حـــاله

من « الصِّلة » : قال، القاضى المحدِّث الجليل العالم ، كان فقيهاً جليلاً أصوليا ، نحوياً ، كاتباً ، أديباً ، شاعراً ، مُتَفَنِّناً فى العلوم ، ورعاً ، دِيِّناً ، حافظاً ، ثَبْتاً ، فاضلا . وكان يُدرِّس كتاب سيبويه ، ومُسْتَصْفَى أبى حامد ، ويميل إلى الاجتهاد فى نظره ، ويُغَلِّب طريقة الظَّاهرية[(١)] ، مشهورا بالعقل والفضل ، معظَّماً عند الملوك ، معلوم القدر لديهم ، يخطب فى مجالس الأُمراءِ والمحافل الجمهورية ، مُقَدَّما فى ذلك ، بلاغةً وفصاحة إلى أبعد مِضمار . وللملوك الموحِّدين به اعتناءٌ كبير . وهو كان أُستاذ الناصر[(٢)] وإخوته ، وكان له عند المنصور والدهم ، بذلك أَكْرَم أَثَرة ، مع ما كان مشهورا به من العلم والدِّين والفضل . وُلِّى القضاءَ بإشْبِيلية وقُرْطبة ومُرْسية وسَبْتَة وسَلا ومَيُورقة ، فتظاهر بالعدل ، وعُرف بما أَبْطن من الدين والفضل ، وكان من العلماءِ العاملين ، سُنِّيا ، مُجانبا لأَهل البِدع والأَهواءِ ، بارع الخَطِّ ، حسن التَّقييد .

مشـيـخته

تردَّد فى طلب العلم ، فسمع ببلنسية وشاطِبة ومرسية وأَلمرية وقرطبة

(١) طريقة الظاهرية أى المذهب الظاهرى ، وقد سبق التعريف به (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ٢٠٩ حاشية) .

(٢) الناصر هو الخليفة الموحدى محمد الناصر لدين الله ولد الخليفة يعقوب المنصور ، وقد حكم من سنة ٥٩٥ – ٦١٠ ﻫ (١١٩٩ – ١٢١٣ م) ، وهو المهزوم فى موقعة العقاب الشهيرة بالأندلس فى سنة ٦٠٩ ﻫ (١٢١٢ م) .

وإشبيلية ومالَقة ، وغيرها من البلاد الأندلسية ، وتحصّل له سماعٌ جمٌّ لم يشاركه فيه أحد من أهل المغرب . قرأ القرآن على أبيه ، وعلى أبى محمد عبد الصمد الغسّانى ، وأخذ عن ابن حُميد كتاب سيبويه تفقُّهاً ، وعن غيره ، وسمع عن ابن بَشْكُوال ، وقرأ أكثر من ستِّين تأْليفاً بين كبار وصغار ، وكَمَل له على أبى محمد بن عبد الله ، بين قراءة وسماع نحوٌ من ستة وثلاثين تأْليفاً ، منها الصَّحيحان . وأكثر عن ابن حُبيش ، والسُّهيلى ، وابن الفخَّار وغيرهم . واستيفاءُ مشيخته يَشُق .

شــعره

قال الأُستاذ ، أنشدنيه ابنه أبو القاسم ، ونقلت من خطه :

أتدرى أَنَّك الخطَّاءُ حقــاً ... وأَنَّك بالذى تَدْرِى رَهين
وتَغْتِب[1] الأُلى فعلوا وقالوا ... وذاك الظَّن والإِفكُ المُبين

مولده

فى محرم سنة ثمان وأربعين وخمسماية .

« وفاته » : كان آخر عمره قد أُعِيد إلى مُرْسية ، قَصَدها من الحضْرة ، فمات بغرناطة سَحَر يوم الخميس الثانى لربيع الأَول اثنتى عشرة وستماية ، ونُقل منها فى تابوته الذى أُلْحِد فيه ، يوم السبت التاسع عشر لشعبان من السنة إلى مالَقة ، فدفن بها .

عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعرى

من أهل قرطبة ، يكنى أبا القاسم ويعرف بابن ربيع .

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (وتغتابوا) .

حـــاله

كان رحمه الله أديبا، كاتبا شاعرا، نحويا، فقيها أُصوليًّا، مُشاركا فى علوم، مُحبّا فى القراءة، وطيًّا[١] عند المناظرة، مُتَناصفا، سنيا، أَشْعَرِى المذهب والنَّسب، مُصَمِّماً على طريقة الأَشْعَريَّة، مُلْتَزماً لمذهب أهل السُّنَّة المالكى، من بَقايا الناس وعِلْيَتِهم، ومن آخر طَلَبة الأَندلس المشاركين الجِلَّة، المُصَمِّمين على مذهب أهل السُّنة، المُنافرين للمذاهب الفلسفية، والمُبْتَدِعة، والزَّيغ. وُلِّى قضاء مواضع من الأَندلس، منها مدينة شَرِيش ورُنْدة ومالَقة، وأَمَّ وخَطَبَ بجامعها. ثم وُلِّى قضاء الجماعة[٢] بحضرة غرناطة، وعَقَد بها مجلسا للإقراء. فانْتَفع به طلبَتُها، واستمر على ذلك، وكانت ولايته غرناطة نحواً من سبعة أَعوام.

مشـــيخته

أَخذ عن أَبيه أَبى عامر وتفقه به؛ وعن الخطيب أَبى جعفر بن يحيى الحِمْيرى، وتلا عليه، وتأَدَّب به؛ وعن الأُستاذ أَبى الحسن بن خروف، وروى مع هؤلاءِ عن القاضى أَبى القاسم بن بَقِى، وأَبى محمد بن حَوْطِ الله، وأَبى عبد الله بن أَصْبَغ وغيرهم، وأَجاز له الشيخ المُسِنّ أَبو الحسن على ابن أَحمد بن على الغافقى الشَّقُورى، وله به عُلُوٌّ، وبالأُستاذ الخطيب المُسن أَبى جعفر بن يحيى المتقدم.

وفـــاته

توفى فى السابع عشر لشوال سنة ست وستين وستماية، ولم يَخْلِف بعْده مثله، ولا مَنْ يُقاربه.

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال. وفى الزيتونة (مرضيا).

(٢) منصب قاضى الجماعة فى النظام القضائى الأندلسى هو منصب قاضى القضاة، أو رياسة القضاء العليا.

عبد الله بن إبراهيم بن الزبير بن الحسن بن الحسين الثقفى العاصمى

من ولد عاصم بن مُسْلم الداخل فى طلعة بَلْج الملقَّب بالعِريان ، أخو الأُستاذ أبى جعفر بن الزبير ، شقيقه ، يكنى أبا محمد .

حـــاله

كان طبيباً ماهراً ، كاتباً شاعراً ، ذاكراً للُّغة ، صَنِع[1] اليدين ، متقدِّما فى أقرانه نباهة وفصاحة[2] ، معدوم النظير فى الشجاعة والإقدام ، يحضر الغزوات ، فارساً وراجلا ، ولقى بفَحْص غرناطة[3] ليلا ، نَصْرانياً يتجسَّس ، فأَسَرَه وجرَّه ، وأدخله البلد ، ولم يلتفت إلى ثمَنِه ، استِكْثاما لتلك الفِعلة .

مشيخته

أخذ القرآن عن الأُستاذ أبى عبد الله بن مَسْتَقور[4] ، وروى عن أبى يحيى بن عبد الرحيم ، وأبى الوليد العطار ، وأبى القاسم بن ربيع [وأبى الخطار بن خليل ، وأخذ عن أبى عُمر بن حَوْطِ الله بمالقة ، وابن أبى ريحانه . وبِسَبْتَة على أبى بكر بن][5] مشليون . وأجاز له أبو بكر بن مُحرز ، وأبو الحسن الشّارى . وأخذ عن الأُستاذ الناقد أبى الحسن على بن محمد الكِنانى .

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (كأصابع) والأولى أرجح . وصنع اليدين أى ماهر فى الأعمال اليدوية .

(٢) وردت فى الإسكوريال (فصا) فقط . وهى ساقطة فى الزيتونة .

(٣) فحص غرناطة أو مرج غرناطة La vega de Granada ، هو البسيط الأخضر الذى يقع جنوب شرقى غرناطة . وقد سبق التعريف به (أنظر المجلد الأول من الإحاطة ص ٩٩ حاشية) .

(٤) وردت فى الإسكوريال (مسمفور) . وفى الزيتونة (مسفور) وهو تحريف .

(٥) ما بين الحاصرتين وارد فى الزيتونة ، وساقط فى الإسكوريال .

مـولده

وُلد بغرناطة لسبع عشرة ليلة خلت من ذى قعدة سنة ثلاث وأربعين وستماية .

وفاته : توفى بها سحر أول يوم من ذى قعدة سنة ثلاث وثمانين وستماية .

عبد الله بن موسى بن عبد الرحمن بن حمّاد الصَّنْهاجى

يكنى أبا يحيي .

حـــاله

طالبٌ نبيلٌ فاضل ، ورع زاهد ، مُؤْثِر فى الدنيا بما تملَّكه ، تال لكتاب الله فى جميع الأوقات .

أخباره [فى الإيثار] (١)

وجَّه له السيد [أبو اسحاق] (٢) ابن الخليفة أبى يعقوب خمسماية دُنَير (٣) ليُصْلح بها من شأنه . فصرَفَ جميعها على أهل السِّتر فى أقل من شهر . ومرَّ بفتًى فى إشبيلية ، وأعوان القاضى يحملونه إلى السِّجن ، وهو يبكى فسأله ، فقال : أنا غريبٌ ، وطُولِبت بخمسين دُنَيْرا . وبيدى عقود ، وطولبت بضامن فلم أجده ، فقال ، له الله ، قال نعم ، قال ، فدفع له خمسين دُنيرا ، قال أشْهَد لك بها ، فضَجِر وقال إن الله إذا أعطى عبده شيئا لم يُشْهد به عليه ، وتركه وانصرف لشأنه ، وكانت عنده معرفة وأدب .

« مولده » بغرناطة فى سنة إحدى وعشرين وخمسماية (٤) .

---

(١) هذه العبارة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال . (٢) الزيادة من الزيتونة .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (دينار) .

(٤) وردت هذه الترجمة فى هامش لوحة 226 من مخطوط الإسكوريال . والظاهر أن الناسخ كان قد نسيها فأثبتها فى هذا الموضع .

ومن ترجمة الكتاب والشعراء بين أصلي وطارىء

عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الأزدى

من أهل بَلِّش يكنى أبا محمد ، ويعرف بابن المُرابع[١]

حـــاله

من نُبهاءِ أدباءِ البادية ، خَشِن الظاهر ، مُنطَوٍ على لَوْذَعيَّة ، مُتَوارية فى مظهر جَفْوة ، كثير الانطِباع عند الخُبْرة ، قادر على النظم والنثر ، متوسِّط الطَّبقة فيهما ، مُستَرْفِدٌ بالشعر ، سيَّال القريحة ، مَرْهُوب الهِجاء ، مشهور المكان ببلده ، يعيش من الخِدم[٢] المخْزَنيَّة ، بين خارِص[٣] وشاهد وجدَّ بذلك وقته ، يوسِّط[٤] رَقاعَته ، فتنجح الوسيلة ، [ويتمشَّى له بين الرِّضا والسُّخط الغرض][٥] .

وجرى ذكره فى « التاج » بما نصه : « طويل القَوادم والخَوافى ، كَلِفٌ على كبر سنه بعَقايل القوافى ، شابَ فى الأَدب وشبَّ ، ونَشِق ريح البيان لمَّا هبَّ ، فحاول[٦] رفيعَه ، وجَزْله ، وأَجاد جَدَّه وأَحْكم هَزْله . فإن مَدَح صَدَح ، وإن وصَف أَنْصَف ،وإن عَصَف قَصَف . وإن أنشأَ ودوَّن، وتَقَلَّب فى أفانين البلاغة وتلوَّن ، أَفسد ما شاءَ الله وكَوَّن ، فهو شيخُ الطريقة الأَدبيَّة وفَتاها ، وخطيب حَفْلها[٧] كلما أَتاها : لا يتوقَّف عليه

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (ابن الربيع) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (الخدمة) .
(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (خارج) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (يوسع) .
(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال ، وفىالزيتونة (وينز له بين السخط والرضى)
(٦) وردت فى الإسكوريال (فحاور) . والتصويب من النفح .
(٧) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح ، وفى الزيتونة (حلفه) وهو تحريف .

من أغراضها غرض ، ولا يَضيع لديه منها مُفترض . ولم تزل برُوقُه تتألَّق ، ومعانيه بأذيال الإحسان تتعلَّق ، حتى بَرَزَ فى أبْطال الكلام وفُرْسانه ، وذَعِرت القلوب لسَطْوة لسانه ، وألْقت إليه الصِّناعة زِمامها ، ووَقَفت عليه أحكامها . وعبَرَ البحر ، مُنْتَجِعاً بسَعْره ، ومُنْفِقاً فى سوق الكَساد من شعْرِه ، فأَبْرَق وأرْعَد ، وحذَّر وتوعَّد[1] ، وبلغ جَهْد إمكانه ، فى التَّعريف بمكانه ، فما حرَّك ولا هزَّ ، وذَلَّ فى طلب الرِّفد وقد عزَّ ، وما بَرِح أن رجع إلى وطنه الذى اعتاده ، رجوع الحديث إلى قَتاده .

شعره

قال فى « التاج » ، وقد أَثْبتَ من نَزَعاته ، وبعض مُخْترعاته ، ما يدل على سِعة باعه ، ونهضة ذِراعه . فمن النسيب قوله:

ما للمُحبِّ دواء يُذهِب الألما   عنه سوى لِمم فيه ارتشاف لِما
ولا يَردُّ عليه نَوْمَ مُقْلته   إلاَّ الدُّنوُّ إلى من شفَّه سَقَما
ياحاكماً والهوى فينا يُؤَيِّدُه   هواك فىَّ بما تَرْضاه قد حَكَما
أَشْغَلْتَنى بك شُغْلاً شاغلا   فلما تناسى فديتك عنى بعد ذاك لما
ملكتَ روحى فأَرْفِق قد عَلمت بما   يلقى ولا حجَّة تبقى لمن عَلِما
ما غِبْتَ عنى إلا غاب عن بَصَرى   بدراً إذا لاح يُجلى نورُه الظُّلَما
ما لُحْتَ لى فدَنا طَرْفى لغيرك ياموليَّ   لحا فيه جَفْنى النوم قد حُرِما
طَوْعاً لطيْعك لا أَعْصيك فاقضِ بما   ترضاه أَرْضَى بما ترضى ولاجَرَما
إنَّ الهوى يقتضى ذُلاًّ لغيرك لو   أفادنى فيك قرْباً يُبرِّد الألما
سَلِمْتَ من كل عَيْب يا محمد لا   كن قَلْب صبِّك من عَيْنيك ما سَلما

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى النفح (وأوعد) .

ومن مخاطباته الأدبية، ما كتب به إلى شيخ الصُّوفية ببلده مع طالعٍ من ولده:

مُماليكم قد زاد فيكم مُرابــعُ ... من الأُفق الكَوْنى باليُمن طالع
بأنواركم يهدى إلى سُبُل الهدى ... ويَسْمو لما تَسْمو إليه المَطالع
فواسوه منكم بالدُّعــاء فإنــه ... مُجاب بفضل الله للخَلْق نافع
أفاض عليه الله من بَرَكاتكم ... وأبقاكم ذو العرش ماجنَّ ساجع (١)

فوقَّع له الشيخ المخاطب بها، أبو جعفر بن الزيات رحمه الله، بما نصه:

عسى الله يؤْتيه من العِلم حِصَّة ... تُصَوَّب على الألباب منها يَنابع
ويجعله طَرْفاً لكل سجيَّة ... مُطهَّرة للناس فيها منافع
ويُلْحِقه فى الصالحات بجدِّه ... فيثنى عليه الكلُّ دانٍ وشاسع
وذو العرش جلَّ إسما عميمٌ نواله ... وخير الورى فى نصٍّ ما قلت شافع
فما أنت دونى يا أباه مُهنأً بــه ... فالسرور الكلُّ بابنك جـامع

وله يستدعى إلى الباكور:

بَدار بَدار قد آن البِــدار ... إلى أكواس باكورٍ تُــدار
تبدَّت رافلاتٍ فى مُســوح ... له لون الدَّياجى مُستعــار
وقد رَقَمت بياضاً فى ســواد ... كأنَّ الليل خالَطَه النَّهــار
وقد نَضِجت وما طُبخت بنار ... وهل يُحتاج للبــاكور نــار
ولا تحتاج مَضْغاً لا وليس (٢) ... عجيبٌ لا يُشَقُّ له غُبــار
فقُل للخلق قُل للضِّرس دَعْنى ... ففى البَلْع اكتفاءٌ واقتصار

---

(١) هكذا فى الإسكوريال. وفى الزيتونة (شافع).
(٢) هكذا وردت فى الزيتونة. وفى الإسكوريال (لا لسر).

ومما وقع له أثناء مقامات تشهد باقتداره ، مقطوعة سهلة وهى :

رَعىَ الله عهداً حوى ما حوى   لأهل الوِداد وأهل الهوى
أراهم أموراً حَلا وِرْدُها   وأعطاهم السؤل [كيف نَوا] (١)
ولما حَلا الوصل صالوا له   وراموه ملْوًا وما رَوا
وأوردهم سرًّا سِرارهم   ورُودًا إلى الكل ذا دوا
وما أملٌ طال إلا وها   ولا أملٌ صال إلا هَوا

وقال يَرْثى ديكاً فقده ، ويصف الوجد الذى وَجَده ، ويبكى من عدم أذانه ، إلى غير ذلك من مُستَطْرف شأْنه :

أوودى به الحَتْف لما جاءه الأَجل   ديكاً فلا عِوض منه ولا بدل
قد كان لى أملٌ فى أن يعيش فلم   يَثْبُت مع الحتْف فى بُغْيالها أَمل
فقدته فلعَمْرى إنها عِظَة   وبالمواعظ تَذرى دمعها المُقل
كأَنّ مِطْرَفَ وَشْى فوق ملبسه   عليه من كل حُسن باهر حُلل
كأن إكليل كِسْرى فوق مَفْرِقه   وتاجَه فهو عالى الشَّكل مُحْتَفل
مؤقتٌ لم يكن بطريق له خطأٌ   فيما يُرتَّب من وِرْد ولا خَطل
كأَنَّ زَرْقيل فيما مرَّ عِلمه   عِلم المواقيت فيما رتَّب الأُول
يَرْحل الليل يُحيِي بالصِّراخ فما   يصدُّه كَلَلٌ عنه ولا مَلَل
رأيتُه قد وَهنَت منه القُوى فهوى للأَرض فعلا يُريه الشَّارب الثَّمل
لو يُفْتَدى بديوك الأَرض قلَّ له   ذاك الفِدا ولكن فاجأَ الأَجل
قالوا الدَّواءَ فلم يُغْن الدَّوا ولم   ينفعه من ذاك ماقالوا وَمافعلوا

(١) هكذا وردت فى الزيتونة ووردت محرفة فى الإسكوريال (كلا بهوما) .

أمَلْتُ فيه ثواباً أجْرَ مُحْتَسب   إن قلتُ ذاك صحَّ القول والعمل

وأمره السلطان أبو عبد الله سادس الملوك النَّصريين فى بعض أسفاره ، وقد نظر إلى شُلَّير[1] ، وتردَّى بالثلج وتعمَّم ، وكَمَل ما أراد من بِزَّته[2] وتمَّم ، أن ينظم أبياتاً فى وصفه ، فقال بديهة :

وشيخٌ جليلِ القدر قد طال عمره   وما عنده عِلم بطول ولا قِصر
عليه لباسٌ أبيضٌ باهر السَّنا   وليس بثوبٍ أحْكَمته يدُ البشر
وطوراً تراه كُلَّه كاسِياً به   وكُسْوته فيها لأَهل النُّهى عِبر
وطوراً تراه عارياً ليس يشتكى   لحرٍّ ولا برد من الشمس والقمر
وكم مرَّت الأَيام وهو كما ترى   على حاله لم يَشْكُ ضعفاً ولا كِبَر
فذاك شُلَيَّر شيخ غرناطة التى   لبهجتها فى الأَرض ذكرٌ قد انتشر
بها ملكٌ [سامى المراقى أطاعه][3]   كبار ملوك الأَرض فى حالة الصغر
تولاه ربُّ العرش منه بعِصْمة   تَقِيه مدى الأَيام من كلِّ ما ضَرر

نثره

ونثره كثير ما بين مخاطبات وخُطب [ومُقَطَّعات][4] ولعب ، وزَرَديَّات شأنها عجب . فمن ذلك ما خاطب به الرئيس أبا سعيد بن نصر يستجدى أضحية :

يقول شاكر الأَيادى ، وذاكر فخر كل نادى ، وناشر غُرر الغُرَر للعاكف والبادى ، والرايح والغادى : إسمعوا منى حديثاً تَلَذَّه الأَسماع ،

---

(١) شلير هو الجبل الشهير المشرف على غرناطة ، ويسمى كذلك جبل الثلج ، وبالإسبانية Sierra Nevada ، وقد سبق التعريف به (أنظر المجلد الأول من الإحاطة ص ٩٦ حاشية) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (حرته) ومعناها الأديم الملين أو السحاب الماطر . والأولى أرجح .

(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ساس البرابر طاعة) .

(٤) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة ، وساقطة فى الإسكوريال .

ويَسْتَطرفه الاستماع ، ويشهد بحسنه الإجماع ، ويجب عليه الاجتماع ، وهو من الأَحاديث التي لم تتفق إلا لمثلي ولا ذكرت عن أحد قَبْلي ، وذلك يا معشر الأَلِبَّا ، والخُلَصاءِ الأَحِبَّا ، أنى دخلتُ فى هذه الأَيام دارى ، فى بعض أَدْوارى ، لأَقضى من أخذ الغِذاءِ أَوْطارى ، على حسَب أَطوارى ، فقالت لى ربّة البيت ، لم جئت ، وبما أَتَيْت ، قلت جيتُ لكذا وكذا فهات الغَذَا ، فقالت لا غَذا لك عندى اليوم ، ولو أَوْدَى بك الصَّوم ، حتى تَسَل الاستِخارة ، وتفعل كما فعل زوجُ الجارة ، طيَّب الله نِجارَه ، وملأ بالأَرزاق وِجارَه . قلت وما فعل قَرِينى ، وأَرنى من العَلامة ما أَحببتِ [أَن] ترينى . قالت إنه فكَّر فى العيد ، ونظر فى أَسباب التَّعييد ، وفعل فى ذلك ما يستحسنه القريب والبعيد ، وأَنت قد نسيتَ ذكرَه ، ومَحَوْته من بالك ، ولم تنظر إليه نَظْرة بعين اهتِبالك ، وعيد الأَضحى فى اليد ، والنَّظر فى شراءِ الأُضْحية اليوم أوفق من الغَد . قلت صدقْتِ ، وبالحقِّ نطقتِ ، بارك الله فيك ، وشكر جميل تحفّيك ، فلقد نَبَّهتِ بَعْلِك لإقامة السُّنة ، ورفعت عنه من الغَفْلة منّة ، والآن أَسير لأَبحث عما ذكرت ، وأَنظر فى إحضار ما إليه أَشرتِ ، ويتَأَتّى ذلك إن شاءَ الله بسَعْدك ، وتنالين فيه من بلوغ الأَمرغاية قصدك ، والجدُّ ليس من الهزل ، والأُضْحية للمرأة وللرجل الغَزِل . قالت دَعْنى من الخرافات ، وأَخبار الزَّرافات ، فإنَّك حُلو اللسان ، قليل الإحسان ، تَخِذْت الغُربة صُحبتك إلى ساسان ، فتهاونت بالنِّسا ، وأَسأْت فيمن أَسا ، وعُوِّدت أَكل خُبْزك فى غير مَنديل ، وإيقاد الفَتيل دون قَنْديل ، وسُكْنى الخان ، وعدم ارتفاع الدُّخان ، فما تقيم مَوْسِما ، ولا تعرف له مَيْسِما ، وأَخَذْت معى فى ذلك بطويل وعريض ، وكلانا فى طَرَفى نَقيض ، إلى أن قلت لها إزارُك وردائى ، فقد تَفاقم بكِ أَمرُ دائى ،

وما أَظنُّك إلاَّ بَعْض[١] أعدائى ، قالت مالك والإزار ، شطَّ بك المَزار ، لعلك تريد إرْهانه فى الأُضْحِية والأَبزار، أُخرج عنى يا مَقِيت ، لا عَمِرتُ معك ولا بقيت ، أوَعَدِمت الدِّين ، وأخذ الورق بالعين . يلزمنى صوم سَنة ، لا أغْفَيتُ معك سِنة ، إلا إن رَجَعت بمثل ما رجع به زوج جارتى ، وأرى لك الرِّبح فى تجارتى . فقمت عنها وقد لَوَتْ رأسها ووَلْوَلت[٢] ، وابْتَدَرت وهَرْولت ، وجالت فى العِتاب وصَوَّلت ، وضمَّت بِنْتَها وولدها ، وقامت باللَّجج ، والانتصار بالحُجَج أَوُدَها ، فلم يسعنى إلا أن عدوت أَطوف السِّكك والشوارع ، وأُبادر لما غدوتُ بسبيله وأُسارع ، وأَجُوب الآفاق ، وأَسِلِ الرِّفاق ، وأَخترق الأَسواق ، وأَقتحم زَريبة بعد زريبة ، وأَخْتَبِر منها البعيدة والقريبة ، فما استَرْخَصْته استَنْقَصْته ، وما استَغْليته استعليته ، وما وافق غرضى ، اعْتَرَضنى دُونه عَدَمُ عَرْضى ، حتى انقضى ثُلثا يومى ،وقد عَيِيت بدَوَرانى وهَوَى ، وأنا لم أَتحصل من الابتِياع على فايدة ، ولا عادت علىَّ فيه من قضاءِ الأَرب عايِدة ، فأَوْمأْت الإياب ، وأَنا أَجد من خَوْفها ، ما يجد صغار الغَنَم من الذِّئاب ، إلى أَن مررت بقصَّاب [يقصب][٣] فى مَجْزَرِه ، قد شدَّ فى وسطه مِئزره ، وقَصَّر[٤] أثوابه حتى كشف عن ساقيه ، وشمَّر عن ساعديه حتى أَبدى مِرْفَقيه ، وبين يديه عَنْزٌ قد شدَّ يديه فى رقَبَته[٥] ، وهو يجذبه فيَبْرُك ، ويجرُّه فما يتحرَّك ، ويروم سَيْره فيرجع القهقرى ، ويعود إلى وَرا ، والقصاب يشدُّ على إزاره ، خِيفَةً

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (من جملة) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (وولت) .

(٣) هذه الزيادة من الزيتونة .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (وربط) .

(٥) وردت فى الإسكوريال (رو قيه) . والتصحيح من الزيتونة .

من فِراره ، وهو يقول : اقتُله من جانٍ باغٍ ، وشيطان طاغٍ ، ما أشدَّه وما ألذَّه ، وما أصدَّه ، وما أجدَّه ، وما أكثره بشَحْم ، وما أطيَبه بلحم ، الطَّلاق يلزمه ، إن كان عاين تَيْساً مثله أو أُضْحِية تشبهه قبله ، أُضْحية حَفِيلة ، ومِنحة جليلة . هنَّأ الله من رُزِقها ، وأخْلف عليه رِزْقها . فاقتحمت المُزْدَحم ، أنظر مع من نظر ، وأختبر فيمن اختبر . وأنا والله لا أعرف فى التقليب والتَّخمين . ولا أفرِّق بين العجف والسَّمين ، غير أنى رأيت صورة دون البَغْل وفوق الحمار ، وهيكلا يُخبرك عن صورة العُمَّار ، فقلت للقصَّاب كم طَلبك فيه ، على أن تُمهل الثَّمن حتى أوفِيه ، فقال ابغِنِى فيه أجيرا ، وكن له الآن من الذَّبح مُجيرا ، وخُذْه بما يُرضى ، لأول التقضِّى . قلت استَمع الصوت ، ولا تَخَف الفَوْت . قال ابْتَغْه منى نَسِيَّة وخُذه هديَّة ، قلت نعم ، فشقَّ لى[١] الضمير ، وعاكسنى فيه بالنَّقير والقَطْمير . قال تضمن لى فيه عشرين دينارا[٢] أقبضها منك لانقضاء الحول دُنيِّرا دُنَيِّرا[٣] . قلت إنَّ هذا لكثير ، فاسمح منه بإحاطة اليسير . قال والذى فَلَقَ الحبَّة ، وبرَّأ النَّسمة ، لا أنقصك من هذا ، وما قلت لك سِمْسِمة ، اللهم إن شئت السَّعة فى الأجل ، فأقضى لك ذلك دون أجل ، فجلبنى للابْتِياع منه ، الإنساءُ فى الأَمَد[٤] ، وغلبنى بذلك فلم أفْتَقر منه لرأى والد ولا وَلَد ، ولا أحوجت نفسى فى ذلك لمشْورة أَحد ، وقلت قد اشتريته منك ، فضَع البركة ، ليصحَّ النُّجح فى الحركة ، فقال فقيهٌ ، بارك الله فيه ، قد بعتُه لك ، فاقبِض متاعك ، وثَبِّت ابتياعك ، وها هو فى

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (فشقنى) .

(٢) وردت فى الإسكوريال (كبارا) والتصويب من الزيتونة .

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (دينارا دينارا) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (الأجل) والمؤدى واحد .

قَبْضِك ، فاشدُدْ وثاقه ، وهلمَّ لنعتمد عليك الوَثاقة . فانْحَدَرت معه لدكان التَّوثيق،وابتدرت من السَّعة إلى الضِّيق ، وأَوْثَقَنى بالشادّة تحت عَمْدِ وثيق ، وحَمَلَنى مِن ركوب الدَّين ولحاق الشَّين فى أَوْعر طريق . ثم قال لى هذا تَيْسُك فشأْنك وإياه ، وما أظنك إلا تَعْصِياه[1] ، وأتِ بحمَّالين أربعة ، فإنك لا تقدر أن تَرْفَعه ، ولا يتأتى لك أن يُتْبَعك ولا أن تَتْبَعه ، ولم يبق لك من الكُلْفَة إلا أن يَحْصُل فى محلِّك ، فيكْمُل سرورُ أَهْلك . وانطلقت للحمَّال ، وقلت هلم إلىَّ ، وقم الآن بين يدىَّ ، حتى انتهينا إلى مَجْزَرة القصَّاب ، والعَنزُ يُطلب فلا يُصاب ، فقلت أين التَّيس يا أبا أُوَيْس . قال إنه قد فرَّ ، ولا أعلم حيث استَقَرَّ . قلت أَتُضِيع علىَّ مالى ، لتَخيب آمالى ، والله لا يُحْزنك بالعَصا كمن عَصا ، ولا رَفَعْتُك إلى الحُكَّام ، تُجْرى عليك منهم الأحكام . قال مالى علم به ، ولا بمنقَلَبِه ، لعلَّه فرَّ لأُمِّه وأَبيه ، وصاحِبَته وبَنِيه ، فعليك بالبَريح . فاتجهت أُنادى بالأَسْوَاق ، وجيران الزُّقاق ، من ثَقِف لى تَيْساً فله البِشارة ، بعد ما أَتى بالأَمارة ، وإذا بِرَجُلٍ قد خرج من دَهْليز ، وله هَدِير وهَزِيز ، وهو يقول من صاحبُ العَنْزِ المشُوم ، لا عَدِم به الشُّوم ، إن وَقَعَتْ عليه عينى ، يرتفع الكلام بينه وبينى . قلت أَنا صاحبه فما الذى دَهاك منِّى أَو بلغك عنِّى . قال إن عَنْزَك حين شَرَد، خرج مثل الأَسد ، وأَوقع الرَّهَج[2] فى البَلَد ، وأَضرَّ بكل أَحَد، ودخل فى دهليز الفخَّارة ، فقام فيه وقَعَد ، وكان العمل فيه مطْبُوخاً ونيا، فلم يترك منه شيا ، ومنه كانت مَعِيشتى ، وبه استقامت عِيشَتى ، وأَنت ضامن مالى ، فارتَفِع معى إلى الوالى ، والعَنْزُ مع هذا يَدُور وسَط الجمهور ،

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (إلا أنك تنعاه) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الرهجة) .

ويكُرّ كرّة العِفْريت المزْجور ، ويأْتى بالكَسْر على ما بقى فى الدّهليز من الطّواجِن والقُدور ، والخَلْق قد انحسَروا للضجيج ، وكثُر العِياط والعَجيج وأَنت تعرف عَفْرطة الباعة ، وما يحوون من الوضاعة ، وأنا أحاول من أخذَه ما أستطيع ، وأرُوم الإطاعة من غير مُطيع ، والباعَة قد أكْسَبتْه من الحماقة ، ما لم يكُنْ لى به طاقة . ورجل يقول المُحْتسب، واعرف ما تكْتَسب ، وإلى من تَنْتَسب ، فقد كثر عنده بك التّشكّى ، وصاحب الدهليز قُبالته يبكى ، وقد وجَدَ [عنده][1] عليك وَجْد الشكوى ، وأَيقن أنك كَسَرْت الدّعوى ، وأمر بإحضارك ، وهو فى انتظارك ، فشدّ وَسْطك ، واحفظ إبْطَك ، وإنك تقوم على من فتح باعه للحُكم على الباعة ، ونُصب لأَرباب البراهين على أرباب الشّواهين ، ورفع على طبقة ، ليملأ طبقة ، ثم أَمسكنى باليمين ، حتى أَوْصَلنى للأَمين ، فقال لى أرسلت التّيس للفساد كأَنك فى نِعم الله من الحُسّاد . قلت إنه شَرَد ، ولم أدر حيث وَرَد ، قال ولم لا أَخذت ميثاقه ، ولم تشدّد وِثاقه ، يا شرطى طَرِّده ، واطرح يدك فيه وجرِّده . قلت أتجرِّدنى الساعة ، ولست من الباعة ، قال لابدّ من ذاك أَو تضمن ما أفسده هناك . قلت الضّمان الضّمان ، الأَمان الأَمان . قال قد أُمِّنْت إنضَمِنْت ، وعليك الثِّقاف ، حتى يقع الإنصاف ، أَو ضامنٌ كاف، فابتدر أَحد إخوانى ، وبعض جيرانى ، فأَدّى عنى ما ظهر بالتَّقْدير ، وآلت الحال للتّكْدير . ثم أردت الانصراف بالتّيْس ، لا كان كَيانه ، ولا كوّن مكانه ، وإذا بالشُّرطى قد دار حولى ، وقال لى كُلْف فِعلى بأَداءِ جُعْلى ، فقد عطّلت من أَجلك شُغْلى ، فلم يك عندى بما تُكسر سورته ، ولا بما تُطفى جَمْرته ، فاسْتَرْهن مِئْزرى فى بيته ليأْخذ مايته[2] .وتوجّهت لدارى، وقد

---

(١) زائدة فى الزيتونة . (٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (هافته) .

تقدّمت أَخبارى ، وقدِمت بغُبارى ، وتغيّر صِغارى وكِبارى ، والتّيْس على كاهل الحمّال، يَرْغو كالبعير ، ويزأر كالأسد إذا فُصلت العِير ، فلقت للحمال إنزله على مَهَل ، فهلال[1] التّعييد قد اسْتَهَلّ ، فحين طَرحه فى الأُسْطوان ، كرّ إلى العُدْوان ، وصرخ كالشيطان ، وهمّ أن يقْفِز الحِيطان ، وعلا فوق الجدار ، وأقام الرّهْجة فى الدار ، ولم تبق فى الزقاق عجوزٌ إلا وَصلَت لتراه ، وتَسَل عما اعْتَراه ، وتقول بكم اشتراه ، والأولاد قد [دارت به][2] ، وأرهقهم لَهَفُه ، ودخل قلوبهم خَوْفه ، فابتدَرَتْ ربّة البيت ، وقالت كيت وكيت ، لا خَلٌّ ولا زَيت ، ولا حىٌّ ولا مَيْت ، ولا موسم ولا عِيد ، ولا قريب ولا بعيد ، سُقْتَ العِفْريت إلى المنزل ، ورَجَعت بمَعْزِل ، ومن قال لك اشْتَرِه ، ما لم تَرَه ، ومن قال لك سُقْه حتى توثّقه ، ومتى تَفرح زوجتُك ، والعَنْزُ أُضْحِيَتك ، ومتى تُطبخ القُدور وولَدُك منه مَعْذور ، وبأىّ قلب تأْكل الشّوِيّة ، ولم تَخْلُص لك فيه النيّة واقِلّة سَعْدِها ، وأَخْلُف وعدِها ، والله لو كان العَنْز يُخرج الكَنْز ، ما عَمَر لى داراً ، ولا قَرُب لى جِواراً ، أُخْرُج عنى يا لَكِيع ، فَعل الله بك وصَنع ، وما حَبَسَك عن الكِباش السِّمان ، والضّأْن الرّفيعة الأَثْمان ، يا قليلَ التّحصيل ، يا من لا يعرف الخِياطة ولا التّفْصيل ، أَدُلُّك على كَبْشٍ سَمين ، واسع الصدر والجَبين ، أَكْحَل عَجِيب ، أَقْرَن مثل كبش الخَطِيب ، يَعْبَق من أَوْداكه كلُّ طِيب ، يَغْلِب شَحْمه على لَحْمه ، ويَسِيل الوَدَك من عَظْمه ، قد عُلِف بالشّعير ، ودُبّر عليه أَحسن تدبير ، لا بالصّغير ولا بالكبير ، تَصْلُح منه الألوان ، ويُسْتَطرف شِواه فى كل أوان ، ويُسْتَحسن ثَريده

---

(١) وردت فى الإسكوريال (نهل) ، والتصويب من الزيتونة .

(٢) الزيادة من الزيتونة .

وقديده فى سائر الأحيان ، قلت بيِّنى لى قولك ، لأتعرَّف فِعْلك ، وأين تُوجد هذه الصِّفة ، يا قليلة المَعْرفة . قالت عند مولانا ، وكَهْفِنا ومأْوانا الرييس الأعلى ، الشِّهاب الأَجْلَى ، القمر الزَّاهر ، الملك الظَّاهر ، الذى أعزَّ المسلمين بنِعْمَته ، وأذلَّ المشركين بنِقْمَته . واسْترْسل فى المدح فأطال وفيما ثبَت كِفاية .

وفاته

فى كاينة الطاعون ببلده بلِّش فى أواخر عام خمسين وسبعماية ودفن بها .

عبد الله بن إبراهيم بن وَزْمر الحِجارى (١) الصَّنهاجى

الأديب المصنف ، يكنى أبا محمد .

حاله وأوَّليته

أبوه أديب مدينة الفرج بوادى الحجارة (٢) ، المصَنِّف للمأْمون بن ذى النون (٣) كتاب « مغنيطاس الأفكار فيما تحتوى عليه مدينة الفرج من النظم والنثر والأخبار » ، وكان أبو محمد هذا ماهراً ، كاتباً ، شاعراً ، رحَّالا . سكن مدينة شِلْب (٤) ، بعد استيلاء العدو على بلاده « بالثَّغر » .

(١) نسبة إلى مدينة « وادى الحجارة » .

(٢) مدينة الفرج هو اسم يطلق على مدينة وادى الحجارة وبالإسبانية Guadaljara وهى مدينة أندلسية حصينة ، تقع على أحد أفرع نهر التاجه على مقربة من منابعه جنوبى الثغر الأعلى . وكانت أيام المسلمين من المواقع الأندلسية الأمامية ، ونشبت حولها خلال العصور المتوالية ، وقائع عديدة بين المسلمين والنصارى .

(٣) المأمون بن ذى النون ، هو من ملوك الطوائف ، وقد حكم طليطلة من سنة ٤٣٥ إلى سنة ٤٦٧ هـ وكان من أعظم ملوك بنى ذى النون ، وأعظم ملوك الطوائف .

(٤) شلب Silves هى مدينة صغيرة بولاية الغرب الأندلسى تقع جنوبى البرتغال ، وإليها ينتمى الشاعر الكبير ابن عمار ، وقد كانت أيام بنى عباد قاعدة منطقة الغرب القصوى ، وما زالت بها بعض أطلال قصر الشراجيت الشهير .

وله فى التَّحوُّل أشعار وأخبار . قَدم غرناطة ، وقصد عبد الملك بن سعيد صاحب القلْعَة[1] من بُنَيَّاتها ، واستأْذن عليه فى زىٍّ موحِش ، واستَخَفَّ به القاعدون ببابه ، إلى أن لاطف بعضهم ، وسأله أن يُعَرِّف به القايد ، فلما بُلِّغَ عنه ، أَمر بإدخاله . فأَنشده قصيدة مطلعها :

عليكَ أحالنى الذِّكر الجميل فجيتُ ومن ثَنايِك لى دَليل
أَتيتُ ولم أُقَدِّم من رسـول لأَن القلب كان هو الرَّسول

منها فى وصف زِيِّه البدوى المُسْتقل وما فى طيِّه :

ومَثِّلى بدَنٌّ فيه خمـر يخف بها ومَنْظَره ثَقِيل

فأَكرم نَزْله ، وأَحْسَن إليه ، وأَقام عنده سنة ، حتى أَلَّف بالقلعة كتاب « المُسْهب فى غرايب المَغْرب » ، وفيه التَّنْبيه على الحُلى البلادية والعبَّادية . وانصرف إلى قصد ابن هود برُوطة ، بعد أن عذَله عن التَّحوُّل عنه ؛ فقال النَّفس توَّاقة ، ومالى بالتَّغرُّب طاقة ، ثم أَفْكَر وقال :

يقولون لى ماذا الملال تقيم فى محلٍّ فعِند الأُنْس تذهب راحلا
فقلت لهم مثل الحَمام إذا شدا على غُصْن أَمْسَى بآخر نازلا

نكبته

قال على بن موسى بن سعيد[2] : ولما قصد الحِجارى رُوطة ، وحلَّ

---

(١) القلعة أو قلعة بنى سعيد أو قلعة يحصب ، وهى الآن Alcala la Real (القلعة الملكية) بلدة حصينة تقع شمال غرناطة . وقد سبق التعريف بها (أنظر المجلد الأول من الإحاطة ص ١١١ حاشية) .

(٢) على بن موسى بن سعيد الأندلسى المعروف بابن سعيد المغربى من سادة قلعة بنى سعيد التى سبقت الإشارة إليها ، وهو أديب ورحالة ، وسليل أسرة من الأدباء والمؤرخين ، وهو آخر من صنف من أسرته كتاب « المغرب فى حلى المغرب » الشهير ، والذى توالى على تصنيفه عدة من أسلاف اسرته . وقد توفى بدمشق سنة ٦٧٣ هـ . وسوف يترجم له ابن الخطيب فيما بعد .

لدى أميرها المستنصر بن عماد الدولة بن هود[(١)] ، وتحرَّك لغَزْو مَنْ قَصَده من البَشْكُنس[(٢)] ، فَهَزم جيشه ، وكان الحِجارى أحدُ من أُسر فى تلك الوقيعة ، فاستقر ببِسْقايَة[(٣)] ، وبقى بها مدَّة ، يُحرِّك ابن هود بالأَشعار ويحثُّه على خلاصه من الإِسار ، فلم يجد عنده ذِمامة ، ولا تحرَّك له اهتمامه ، فخاطب عبد الملك بن سعيد بقوله :

أصبحت فى بِسْقاية مُسْلَماً ... إلى الأَعادى لا أرى مُسْلِماً
مُكَلَّفاً ما ليس فى طاقتى ... مُصَفَّدا مُنْتَهَرا مُرْغَما
أُطَّلب بالخِدمة واحسرتى ... وحالتى تقضى بأَن أُخْدَما
[فهل كريمٌ يُرْتجى للأَسِير ... يفكُّه أَكْرِم به مُنْتَما][(٤)]

وقوله :

أَرَئِيس الزمان أَغْفَلت أَمْرى ... وتلذَّذْت تاركاً لى بأَسْرِ
ماكذا يعمل[(٥)] الكرام ولكن ... قد جَرَى على المُعَوَّد دهرى

فاجتهد فى فدايه ، [ولم يمر شهر][(٦)] إلا وقد تخلص من أسره ،

---

(١) المستنصر بن هود ولد عماد الدولة عبد الملك بن المستعين بن هود ، وهو آخر بنى هود ملوك سرقسطة . وكان بعد سقوط سرقسطة فى أيدى المرابطين (سنة ٥٠٣ هـ) قد لجأ إلى بلدة روطة الحصينة الواقعة على نهر خالون جنوبى سرقسطة واستقر بها . ولما توفى خلفه فى الإمارة ولده أبو جعفر أحمد الملقب بسيف الدولة المستنصر بالله ، واستمر فى حكم روطة وما حولها تحت حماية ملك أراجون حتى خلع عنها سنة ٥٣٤ هـ (١١٣٩ م) .

(٢) البشكنس Vascones هم سكان مملكة ولاية نافار (نبرة) الواقعة شمال غربى الثغر الأعلى بين سفوح البرنيه وخليج غسقونية .

(٣) بسقاية وبالإسبانية Vizcaya ، هى إحدى ولايات مملكة نافار أو نبرة ، السالفة الذكر .

(٤) هكذا ورد هذا البيت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال كالآتى (فهل كريم يرتجى له فكاك يا أكرمهم منتما) وهو نص محرف .

(٥) هكذا فى الإسكوريال وفى الزيتونة (ويفعل) .

(٦) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة كالآتى (ولم تمر به أشهر)

واستقرَّ لديه ، فكان طَليق آل سعيد ، وفيهم يقول :

وجَدْنا سعيداً مُنْجِباً خير عُصْبة ... هم فى بنى أَغْصارهم[1] كالمواسم
مُشَنَّفَةُ أَسماعُهم بممدايح[2] ... مُسَوَّرة أيمانُهم بالصَّـــورام
[فكم لهم فى الحرب من فضل ناثرٍ ... وكم لهم فى السِّلم من فضل ناظم][3]

تواليفه

وتواليف الحِجارى بديعة ، منها « الحديقة » فى البديع ، وهو كتاب مشهور ؛ ومنها « المسهب فى غرايب[4] المغرب » ، وافتتح خطبته بقوله : « الحمد لله الذى جعل العِباد من البلاد بمَنْزِلة الأَرواح من الأَجساد ، والأَسياف من الأَغماد » . وهو فى ستة مجلدات[5] .

عبد الله بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد ابن الخطيب السَّلمانى

يكنى أَبا محمد .

« أَوَّليَّته » ، تُنظر فى اسم جَدِّه .

حاله

حسن الشَّكل ، جيِّد الفهم ، يُغَطِّى منه [رمادُ][6] السُّكون جَمْرة حركة ، مُنْقَبِضٌ عن الناس ، قليل البَشاشة ، حسن الخَطِّ ، وسَطُ النَّظم . كتَبَ

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى كتاب المغرب (أزمانهم) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى كتاب المغرب (بفضايل) .
(٣) هذا البيت وارد فى كتاب المغرب ، وساقط فى الإسكوريال والزيتونة .
(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى المغرب « فضايل » .
(٥) لم يذكر لنا ابن الخطيب تاريخ وفاة الحجارى . وقد توفى فى سنة ٥٢٠ هـ (١١٥٥ م)
(٦) الزيادة من نفح الطيب .

عن الأُمراء بالمغرب ، وأنشدهم ، واقتضى خِلَعَهم وصكُوكهم بالإقطاع والإحسان . ثم لما كانت الفِتنة ، كتب عن سلطان وطنه ، مُعزَّز الخُطَّة بالقيادة ، وأنشدهم .

مشيختة

قرأ على قاضى الجماعة ، الشيخ الأُستاذ الخطيب أبي القاسم الحسنى ، والأُستاذ الخطيب أبي سعيد فرج بن لُب التَّغلبي ، واستظهر بعض المبادى فى العربية ، واستُجيز له من أدركه ميلادُه من أهل المشرق والمغرب .

شعره

وشعره مُتَرفِّع عن الوَسَط إلى الإجادة ، بما يكفله[1] عُذْر الحَداثة ، وقد ثَبت فى اسم السلطان لهذا العهد ، أبي عبد الله بن نصر ، أيَّده الله ، ما يدل على جودة قَريحته ، وذكاء طَبْعه . ومما دوَّن الذى نَبَت له حيث ذكر قوله :

لِمَنْ طَلَلٌ بالرَّقْمتين مُحيل عَفَتْ دِمْنَتَيْه شمأَلٌ وقبول
يلوح كباقى الوَشْم غيَّره البلى وجادت عليه السُّحب وهى هَمُول
فيا سعدُ مَهْلاً بالرِّكاب لَعَلَّنا نُسايل رَبْعاً فالمحِبُّ سَئُول
قِف العِيسَ نَنْظُر نظرة تُذهب الأَسى ويُشْفَى بها بين الضُّلوع غليل
وعرِّج على الوادى المقدس بالحِمى فطاب لديه مَرْبَعٌ ومَقِيل
فيا حبَّذا تلك الديار وحبذا حديث بها للعاشقين طويل
دعوت لها سُقْيا الحِمى [عندما سَرى][2] وَميضٌ وعَرْفٌ للنسيم عليل
وأرسلت دمعى للغمام مُساجلاً فسال على الخدَّين منه مَسيل

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (يكلفه) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والزيتونة . وفى النفح مكانها كلمة (وربوعه) والأولى أرجح .

فأصبح ذاك الرَّبْعُ من بعد مَحْله ... رياضاً بها الغُصْن المرُوح[1] يميل

لَين حال رَسْم الدار عما عَهدته ... فعَهْدُ الهوى فى القلب ليس يَحُول

ومما شَجانى بعد ماسَكن الهوى ... بـكاءُ حمـامات لهنَّ هَديـل

توسَّدن فَرْع البان والنَّجم مايل ... وقد آن من جيش الظلام رَحيل

فيا صاحبى دَعْ عنك لومى فإنَّه ... كلامٌ على سمع المُحِبِّ ثَقيـل

تقول اصطباراً عن مَعاهِدك الأُلى ... وهيهات صَبْرى[2] ما إليه سبيل

فلله عيناً من رآنى وللأسـا ... غَداة استَقَلَّت بالخَليط[3] حُمول

يُطاول ليل التِّم منى مُسْهد[4] ... وقد بان عنى منزلٌ وخليـلُ

فياليت شعرى هل يَعُودَنَّ ما مضى ... وهل يَسْمَحَنَّ الدهر وهو بخيل[5]

نثره

أجابنى لما خاطبتُ الجُملة من الكُتَّاب ، والسلطان رضى الله عنه ، بالمُنكَّب ، فى رحلة أَعْمَلها بما نصه :

« لله من فَذَّة المعانى ، حيث مَشُوق الفؤاد عانى ، لما أنارت بها المَغانى ، غَنِين عن مُطَرِب الأَغانى ، يا صاحب[6] الإذْعانى ، أَجِب بالله من دَعانى ، إذا صِرت من كثرة الأَمانى ، بالشوق والوجد مثل مانى . ورَدَت سحّات سيدى التى أنشأت لغَمام الرحمة ، عند اشتداد الأَزمة رِياحاً ، وملأت

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الزيتونة (الرطيب) .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة والنفح . وفى الإسكوريال (بكى) . والأول أرجح .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال وفى النفح ، ووردت فى الزيتونة (بالمحيط) .

(٤) وردت فى الإسكوريال والزيتونة (مسعدا) والتصحيح من النفح .

(٥) نشرت القصيدة بأكلها فى نفح الطيب (ج ٤ ص ٣٦٨-٣٦٩) وهى فى خمسين بيتا .

(٦) هكذا وردت فى الزيتونة ، وفى الإسكوريال (يا صاحبى) .

العيون محاسناً ، والصُّدور انشراحاً ؛ وأَصبح رحيب قِرطاسها ، وعَميم فضلها [ونوالها][1] ، وأَيناسُها لفرسان البلاغة ، مَغْدًى ومَراحاً . فلم أَدْر أَصَحِيفة نُسخت مسطورة ، أَم رَوْضة نُفحت مَمْطورة ؛ أَطيبُ من المِسك مُنْتَشَقا ، وأَحْسَنُ من السلك متَّسَقا ، فمَلَّكْتُها مَقادة خاطرى ، وأَودعتُها سَواد قلبى وناظرى ؛ وطَلَعت علىَّ طلوع الصُّبح ، على عقب السُّرى ، وخَلَصت خلوص الخيال مع سِنَة الكَرى . فلله ما جَلَبَتْ من أُنْس ، وأَذْهَبت لطايفة الشيطان من مَسٍّ ، وهاجت من الشوق ، الذى شبَّ عمرُه عن الطَّوق ، والوَجْدُ الذى أَصبح وارِى الزَّنْد . فأُقسم بِبارى النَّسم ، وواهب الحظوظ والقَسم ، لو أَعْطَيتُ للنَّفس مَقادتها ، وسوَّغتُها إرادتها ، ما قَنِعت[2] بِنيابة القِرطاس والمِداد ، عن مُباشرة الأَرواح والأَجساد ، وإن أَعرضت عَقَبة للشُّعير ، ورأْس المزاد [وشَمَخ بأَنفه وزاد][3] ، وما بين ذلك من عَلَمٍ باذخ ، وطودٍ شامخ ، قد أَذكرت العِقاب عُقابه ، وصافحت النجوم هِضابه ، قد طَمَح بطَرْفه ، وشَمَخ بأَنفه ، وسال الوقار على عَطْفه :

مَلَكَت عِنان الرِّيح[4] راحتُه ... فجيادُها من تحتــه تَجْرى

وأَما الحَمَل[5] الهايج ، والبحر المُتَمايج ، والظِّلل المايل ، والذَّنَب الشَّايل ، فمُساجلة مولاى فى ذلك المجال ، من المحال ، إذ العبد قُصاراه أَلفاظ مركَّبة ، غير مرتَّبة :

هو جَهد المُقِلِّ وافاك منِّى ... إنَّ جُهد المقِلِّ غير قليل

---

(١) الزيادة من الزيتونة .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ؛ وفى الزيتونة (تمتعت) .

(٣) هذه العبارة واردة فى الزيتونة ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (الرمح).

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الجمال) .

وأقرأ على مولاى ، أبقاه الله ، سلاما عميما ، تنسّم روضه نسيما ، ورَفَّ نظره ، وعَبق شَميماً ، والأوفر الأذكى منه عليه مُعادا ، ما سَفَحَّ السَّحاب إرعادا ، وأبرق الغمام رعدا والحُسام أبعادا ، ورحمة الله وبركاته . من عَبْده الشِّيق لوجهه . عبد الله بن الخطيب ، فى الخامس عشر لجمادى الأُولى عام تسعة وستين وسبعماية .

مولده : بحضرة غرناطة ، يوم السبت سابع عشر صفر عام ثلاثة وأربعين وسبعماية .

عبد الله بن محمد بن سارَّه البكرى

شَنْتَرينى[١] ، سكن ألمرية وغرناطة ، وتردَّد مادحاً ومنتجعاً [شرقاً ومغرباً][٢] ويضرب فى كثير من البلاد .

حاله

كان ذا حظٍّ صالح من النحو واللغة ، وحفظ الأشعار ، أديباً ماهراً ، شاعراً مُجيداً ، مطبوع الاختراع والتَّوليد . تجوَّل فى شرق الأندلس وغربها ، مُعَلِّماً للنحو ، ومادحاً وُلاتها ، وكَتَبَ عن بعضهم ، وتعيَّش بالوِراقة زمانا ، وكان حسن الخَطِّ ، جيِّد النقل والضَّبط .

مشيخته

روى عن أبى الحسن بن الأخضر .

---

(١) نسبة إلى شنترين ، وبالبرتغالية Santarem ، وهى بلدة أندلسية قديمة من بلاد الغرب الأندلسى وتقع على نهر التاجه ، شمال شرق أشبونة .

(٢) الزيادة من الزيتونة .

من روى عنه : روى عنه أبو بكر بن مسعود ، وأبو جعفر بن الباذِش ، وأبو عثمن بن هرون ، وأبو الطاهر التَّميمى ، وأبو العباس بن على اللص ، وأبو العلاء بن الجنَّان ، وأبو محمد بن يوسف القضاعى ، وإبراهيم بن محمد السَّبْتى .

شعره

وشعره كثير [جيد][1] شهير . منه فى حِرْفة الوِراقة قوله :

أما الوِراقة فهى أيْكَة حِرْفة　　أغصانُها وثِمارُها الحِرمان
شَبَّهت صاحِبَها بإبرة خايطٍ　　يكسو العُراة وظَهْرُه عِريان

وقال فى نَجْم الرَّجيم ، وهو من التَّشبيه العَقيم :

وكوكبٌ أبصر العِفريت مُسْترقاً　　فانقضى يُذكى سريعا خَلْفه لَهبه
كفارسٍ حلَّ إخصاراً عمامته　　تجُرُّها كلها من خلفه عَذَبَه

وقال منه فى المواعظ :

يا من يُصيخُ إلى داعى السَّفاه وقد　　نادى به النَّاعِيان الشَّيبُ والكِبر
إن كنت لا تسمع الذِّكر ففيم ترى　　فى رأسك الواعِيان السَّمع والبصَر
ليس الأَصَّم ولا الأعمى سِوى رجلٍ　　لم يُهده الهادِيان العَيْنُ والأَثَرُ
لا الدهرُ يبقِى على حال ولا الفَلَكُ　　الأَعلى ولا النَّيران الشمس والقمر
لأَرْحَلَنَّ عن الدنيا ولو كَرْهاً　　فراقها الثاويان البَدْوُ والحَضَر

وقال فى موت ابْنَة له :

ألا يا موتُ كُنت بنا رؤوفا　　فجدَّدت السُّرور لنا بزَوْرة
حَمِدنا سعيك المشكور لمَّا　　كفَيْتَ مؤنة وستَرْت عَوْرة
فأَنْكَحنا الضَّريح بلا صِداقٍ　　وجهَّزنا العرُوس بغير شَوْرة

---

(١) الزيادة من الزيتونة .

وفاته

توفى عبد الله بن ساره سنة تسع عشرة وخمسمائة .

عبد الله بن محمد الشرّاط

يكنى أبا محمد ، من أهل مالَقة .

حاله

طالبٌ جليل ، ذكى ، مدرك ، ظريف . كثير الصَّلَف والخَتْرُوانة[١] والإزْراء بمن دونَه ، حادُّ النَّادرة ، مرسلٌ عِنان الدُّعابة . شاعر مُكثر ، يقوم على الأَدب والعربية ، وله تقدُّم فى الحساب ، والبُرهان على مسايله . استُدعى إلى الكتابة بالباب السلطانى ، واختصَّ بولى العهد ، ونِيط به من العمل ، وظيفٌ نَبيه[٢] ، وكاد ينمو عُشبه ، ويتأَشَّب[٣] جاهُه ، لو أن الليالى أَمْهَلَتْه ، فاعتُبِط لأَمد قريب من ظهوره ، وكانت بينه وبين الوزير أبى عبد الله بن الحكيم ، إحْنَةٌ . تخلَّصه الحِمام لأَجلها ، من كفٍّ انتقامه .

شعره

وشعره كثير ، لكنى لم أظفر منه إلا باليسير . نقلت من خطِّ صاحبنا القاضى المؤرخ أبى الحسن بن الحسن ، من نظم أبى محمد الشراط ، فى معنىً ، كان أدباءُ عصره ، قد كَلِفوا بالنظم فيه ، يظهر من هذه الأَبيات فى شَمْعة :

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (الخدعونة) والختر هو الغث والإفساد ، والغدر أحيانًا .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (نبيل) .

(٣) من تأشب أى تجمع .

وكنت أَلِفْتُ قبل اليوم إلْفاً ... أنــادى مـرة فيجيب أَلْفـاً
وكنَّا مثل وَصْل العَهْد وصْلا ... وكنَّا مثل وصْف الشَّهد وصْفـا
ففرَّق بيننا صرفُ الليــالى ... وسوَّغنا كؤس البَيْن صِرفا
فصِرت غداة يومِ البَين شَمْعا ... وصار فصار كالعَسَل المُصَفَّا
فدمعى لا يتم أسًى وجسـمى ... يُغص (١) بنار وَجْدى ليس يُطفا

ثم فى المعنى أيضا :

حالى وحالك أَضحت آية عجبا ... إن كنت مُغرَّبا أَو كنت مُغْتربـا
إذا دنوتُ فإنى مُشعر طـرباً ... وإن نـأَيتُ فإنى مُشعل لهبـــا
كذاك الشَّمع لا تنفكُّ حالته ... إلاَّ إلى الناس مهما فارق الضَّـربا

ومن ذلك أيضا :

رحلتم وخلَّفتم مَشُوقكم نِســـيا ... رهينَ هيـامٍ لا يموت ولا يَحْيا
فضاقت علىَّ الارض واعْتاص مذهبى ... وما زلت فى قومى (٢) ولاضاقت الدنيا
وما باختيارٍ شتَّت الدهــر بيننـا ... وهل يَمْلِك الإنسان من أَمره شيًّا
فذا أَضلعى لم تَخْبُ من أَجلكم جوًى ... وذا أَدمعى لم تـأْل من بَعدكم جَرْيا
كأَنَّنى شَمْعٌ فى فــؤادٍ وأدمـع ... وقد فارقتُ من وصلــكم ريًّا

وذكر لى : أن هذا صدر عنه فى مجلس أُنْس مع الوزير أبى عبد الله ابن عيسى بمالقة ، بحضرة طايفةٍ من ظرفاء الأُدباء .

وفاته

كان حيا سنة سبعمائة ، وتوفى بغرناطة ، وهو على حاله من الكتابة ، رحمه الله .

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة ، وفى الإسكوريال (يغط) والأولى أرجح .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (نومى) .

عبد الله بن يوسف بن رضوان بن يوسف بن رضوان النَّجارى[١]

يكنى أبا القاسم ، ويعرف باسم جدِّه ، من أهل مالقة ، وصاحب القَلم الأعلى لهذا العهد بالمغرب .

حـــاله

هذا الفاضل نسيجُ وحده : فهماً وانطباعاً ، ولوذعيَّة ، مع الدِّين والصَّون ، مُعِمٌّ ، مخول فى الخير : مُشْتولِ على خصال حميدة : من خطٍّ وأَدب وحِفظ ، مشاركٌ فى معارف جملة . كتب ببلده عَدْلاً رضًى ، وأنشد السلطان عند حلوله ببلده . ورحل عن بلده إلى المغرب ، فارتسم فى كتابة الإنشاء بالباب السلطانى ، ثم بان فضله ، ونَبُه قدره ، ولَطُف محلُّه ، وعاد إلى الأَندلس ، لما جَرَت على سلطانه الهزيمة بالقَيْرُوان[٢] ، ولم يَنْتَشله الدهر بعدها مع جملة من خواصِّه . فلما استأْثر الله بالسلطان المذكور ، موْسُوم التَّمحيص ، وصيَّر أمره إلى ولده بعده ، جَنَح إليه ، ولحق ببابه ، مُقترن الوفادة ، بيُمن الطَّاير : وسعادة النَّصَبة ، مظنَّة الاصطناع ، فحَصَل على الحُظوة ، وأَصبح فى الأَمد القريب ، محلا للبَثِّ وجليساً فى الخَلْوة ، ومؤتَمنا على خُطَّة العلامة ، من رجل ناهض بالكَلِّ ، جَلِد على العمل ، حذِر من الذِّكر ، متقلِّص ذيْل الجاه : مُتَهيِّب[٣] ، غزير المشاركة ،

---

(١) هكذا وردت واضحة فى الإسكوريال والزيتونة وجذوة الاقتباس . ووردت فى الكتيبة الكامنة (بيروت ص ٢٥٤) البخارى وهو تحريف .

(٢) من الواقع أن ابن الخطيب يشير هنا أولا إلى السلطان أبى الحسن المرينى ، ثم يشير ثانيا إلى ولده السلطان فارس أبى عنان ، وهو الذى خرج عليه عقب هزائمه فى حملته إلى تونس ، وانتزع الملك لنفسه (٧٥٢ هـ) واستمر فى الحكم حتى وفاته فى سنة ٧٥٩ هـ . وقد أشار ابن خلدون فى التعريف إلى ذلك صراحة عند ذكره لابن رضوان ، حيث قال إنه كان ممن ورد فى جملة السلطان أبى الحسن . (راجع التعريف - القاهرة ١٩٥٢ - ص ٢٢ و ٢٣) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (متصيب) .

مطفِّفٍ فى حقوق الدُّول ، عند انخفاض الأَسعار ، جالبٍ لسوق المُلْك ما يُنفق فيها ، حارٍّ النَّادرة ، مليح التَّنديرِ ، حُلو الفكاهة ، غَزِلٍ مع العفة ، حافظ للعيون ، مُقَدَّم فى باب التَّحسين والتنقيح ، لم ينْشِب المَلكُ أن أَنِس منه بهذه الحال ، فشدَّ عليه يدَ الغِبطة ، وأنْشَب فيه فيه براثِن الأَثَرَة ، ورمى إليه بمقاليد الخِدمة ، فَسَما مكانُه ، وعلا كعبُه ، ونما عُشُّه . وهو الآن بحاله الموصوفة ، من مفاخر قُطْره ، ومناقب وطنه ، كثَّر الله مثله .

مشيخته

قرأ ببلده على المُقرى أَبى محمد بن أَيوب ، والمُقرى الصالح أَبى عبد الله المهندس[1] ، والأُستاذ أَبى عبد الله بن أَبى الجيش ، والقاضى أَبى جعفر بن عبد الحق ، وروى عن الخطيب المحدِّث أَبى جعفر الطَّنجالى ، والقاضى أَبى بكر بن منظور . وبغرناطة عن جِلَّة ، منهم شيخنا رئيس الكتاب أَبو الحسن بن الجيَّاب ، وقاضى الجماعة أَبو القاسم بن أَحمد الحسنى ، ولازم بالمغرب الرئيس أَبا محمد عبد المُهَيْمن الحَضْرمى ، والقاضى أَبا إسحق إبراهيم بن أَبى يحيى ، وأَبا العباس بن يَرْبوع السَّبتى . وبتِلمسان عن أَبى عبد الله الآبِلى ، وأَبى عبد الله بن النَّجار وغيرهما . وبتونس عن قاضى الجماعة أَبى عبد الله بن عبد السلام ، وعن جماعة غيرهم .

شعره

ونظمه ونثره متجاريان لهذا العهد فى ميدان الإجادة . أَما شعره فمُتَناسب الوضع ، سهل المأْخذ ، ظاهر الرُّواء ، مُحْكَم الإمرة للتَّنقيح . وأَما نثره

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (العبدرسى) .

فطَريف السَّجع ، كثير الدَّالة ، مُطيع لدعوة البَديهة ، وربما استعمل الكلام المُرْسل ، فجرى يراعُه فى ميدانه ملءَ عِنانه .

وجرى ذكره فى « التاج » أيام لم يَفْهق حوضُه ، ولا أزهر روضُه ، ولا تبايَنَت سماؤه ولا أرضُه . بما نصه : أديب أحسن ما شا ، وفتح قُليبه[١] فملأ الدَّلو وبلَّ الرَّشا . وعانى على حداثته الشعر والإنشا ، وله ببلده بيتٌ معمور بفضل وأمانة ، ومَجْدٍ وديانة . ونشأ هذا الفاضل على أتم العَفاف والصَّون . فما مال إلى فسادٍ بعد الكَوْن . وله خطٌّ بارع . وفهم إلى الغَوامض مُسارع . وقد أثبتُّ من كلامه ، ونَفَثات أقلامه ، كلَّ مُحكم العقود ، زارياً بِنْت العَنْقُود . فمن ذلك قصيدة أنشدها للسلطان أمير المسلمين[٢] ، مهنِّيا بهلاك الأُسطول الحربى بالزُّقاق الغربى[٣] ، أجاد أغراضها وسبَك المعانى وراضَها ، وهى قوله :

لعلَّكما أن ترعيا[٤] لى وسايلا ... فبالله عُوجا بالرِّكاب وسايلا
بأوطانِ أَوْطار قِفا ومآربى[٥] ... وبالحُبِّ خُصَّا بالسَّلام المَنازلا
ألا فانشدا بين القِباب من الحِما ... فؤادَ شَجٍ[٦] أضحى عن الجسم راحلا

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (قليله) .

(٢) أمير المسلمين المشار إليه هنا ، هو السلطان يوسف أبو الحجاج ملك الأندلس الذى حكم من سنة ٧٣٣ إلى سنة ٧٥٥ هـ (١٣٣٣ - ١٣٥٤ م) .

(٣) الزقاق الغربى يقصد بها هنا مضيق جبل طارق أو جبل الفتح كما كان يسمى عندئذ ، وكان النصارى (القشتاليون) قد ضربوا حوله الحصار فى سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩م) بقصد الإستيلاء عليه . ولكنهم منوا بالفشل ، ودب الوباء إلى قواتهم . وهلك فيه ملكهم ألفونسو الحادى عشر ، وهلكت معظم سفنهم المحاصرة ، واضطروا إلى ترك الحصار والانسحاب ، وذلك فى سنة ٧٥١ هـ (١٣٥٠ م) .

(٤) هكذا ورد فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (تعوجا) .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ومآرب) .

(٦) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (شجى) .

وبثًّا صَبًّا بات هنالك واشـرحا ... لهم من أحاديثى عَرِيضاً وطـايلا
رعى الله مثواكم على القُرْب والنَّوى ... ولا زال هامى السُّحب فى الرَّبع هاملا
وهل لزمانٍ باللِّوى سقى اللِّوى ... مآربَ فما ألقى مدَى الدهر حايلا
فحَظِى بعيدُ الدَّار منه بقُـرْبه ... ويوردُ فيه من مُنـساه مَنـاهلا
لقد جار دهرِى أن نـأى بمطـالبى ... وظلَّ بما أبقى من القُرب مـاطلا
وحمَّلنى من صَرْفه ما يَؤُدنى[1] ... ومكَّن منِّى الخطوبَ شـواغلا
عَتَبْتُ عليه فاغْتَدى لى عـاتبا ... وقال اصْخُ لى لا تكن لى عـاذِلا
أتَعْتَبنى إذ قد أفَدْتك موقفـا ... لدى أعظم الأملاك حِلماً ونايلا[2]
مَلِيك حَبـاه الله بالخُلُق الرِّضـا ... وأعْلى له فى المَكْرَمات المنازلا
مَليك علا فوق السِّماك فَطَـرْفه ... غدا كهلال[3] الأفق يُبصرنا علا
إذا ما دجا ليلُ الخطوب فبِشْرُه ... صباحٌ وبدرٌ لا يُرى الدهر آفلا
نماه من الأنصـار غر أكابـر ... لهم شيم ملءُ الفضـاء فَضـائِلا
تلوا سُورَ النَّعمـاء فى حِزبهم كما ... جَلوا صُور الأيام غُـراً جلايلا
تَسامَتْ لهم فى المَعْلُوات مراتب ... يُرى زُحلٌ دون المراتب زاحـلا
عِصابة نصر الله طابَتْ أواخـرا ... كما قد زَكت أصلا وطابت أوايلا
لقد كان رَبْعُ المجد من قبل خالياً ... ومن آل نصرٍ عاد يُبصـر آهـلا
إذا يُوسف منهم تلـوح يمينه ... تقول سحابُ الجود والبأس هاطلا
كتائبُه فى الفتح تكتب أسطرا ... تبينُ من الأنفـال فيها المَسايلا
عوامِلُه بالحذف تحكم فى العِـدا ... كما حكموا فى حذفِ جَزْمٍ عواملا
يبدِّد جَمْعَ الكفر رُعبـا وهيبـةً ... كما بدَّدت منه اليمين النَّوافلا

---

(١) هكذا ورت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (يؤده) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (ودايلا) .
(٣) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (بهلال) ، والأولى أرجح .

ومنها فى وصفه الأُسطول واللقاء :

ولما استقامت بالزُّقاق أساطل ... واستقلَّت للسُّعود محافلا
رآها عدوُّ الله فانفضَّ جمعه ... وأبْصر أمواج البحار أساطِلا
ومن دَهْش ظنَّ السَّواحل أبحُرا ... ومن رُعب خال البحار سواحلا
ومِن جُندكم هبَّت عليه عواصفٌ ... تدمِّر أدناها الصِّلاب الجَنادلا
تُفَرِّقهم أيدى سَبا وتبيدهم ... فقد خلَّفت فيهم حُساما وذابلا
وعهدى بمرِّ الريح للنار موقدا ... فقد أَطْفَأَت تلك الحروب المشاعلا
وكان لهم بردٌ العذاب ولم يكن ... سلاماً وما كادُوه قد عاد باطلا
حَداهم هواهم للإسار ولِلْفَنا ... فما أَفْلَتوا من ذا وذاك حَبايلا
فهم بين عانٍ فى القُيود مُصَفَّد ... وفانٍ عليه السَّيف أصبح صايلا
ستُهلك ما بالبِّر منهم جنودُكم(١) ... كما أَهْلَكَت من كان بالبَحْر عاجلا

وقال أيضا يمدحه :

نَشَرْتَ لواءَ النَّصر واليُمن والسَّعد ... وأطْلعت وجه اليُسر والأَمن والرِّفد
أَعَدْتَ لنا الدُّنيا نعيماً ولذَّةً ... ألا للمعالى ما تُعيد وما تُبد
بنوركم والله يَكْلأُ نُوركم ... تبدَّت لنا سُبل السعادة والرُّشد
تحلَّى لكم بالملك نَحرٌ ولَبَّةٌ ... فراق كذاك الجيد يَزْدان بالعِقد
مآثركم قد سطَّرتها يَدُ العُلا ... على صفحات الفخر أو مَفْرِق الحَمْد
بمَدْحكم للقرآن أثْنى منزلا ... وقد حُزتم مجدا بجدِّكم سعد
كفاكم فخَارا أنه لكم أبٌ ... ومن فخرد إن أنت تدعوه بالجَدِّ
ثناؤكم هذا أم المِسك نافحٌ ... وذكركم أم عاطر العنْبر الوَرْد

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (جنودهم) والأولى أنسب للمعنى والسياق .

أَجَلْ ذكركم أزكى وأذكى لناشِقٍ كما أَنكم أَجلى وأَعلا لمَشْهد
طلعتَ على الآفاق نورا وبهجة فما أَنت إلا البَدْرُ فى طالع السَّعد
وفى جملة الأَملاك عزّ ورفعة ودُم فى خلود المُلك والنصر والسعد
ولو أننى فُقْت سَحبان وايسل وأَرْبَيْتُ فى شعرى على الشاعر الكِند
لما قمتُ بالمِعشارِ من بعض ما لكم من الجود والأَفضال والبذل والرِّفد(١)

وقال فى شيخه أَبى بكر بن منظور رحمه الله :

جلالُك أَوْلى بالعُلا المخلَّد وذكرك أَعلى الذِّكر فى كل مَشْهد
لمجدك كان العزُّ يذْخَر والعُلى وأَنَّك للأُولى بأَرْفع سُؤدد
أَبى الله إلاَّ أَن تكون مُشَرِّفاً بمقعد خير العالمين محمد
فهنيتَ بالفخر السَّنى محله وهَنَيت بالمجد الرَّفيع المُجدَّد
شَهِدْتُ بما أَوْلَيْتَنى من عَوارف وخَوَّلت من نُعمى وأَسْدَيت من يَد
وما حُزْتَ من مجد كريم نِجاره وما لَك من مجد ورِفعة مَحْتِد
لقد نبَّأَتْنى بالرَّواح(٢) لعزكم مخايُل إسْعاد تروح وتَغْتدى
تُحدثنى نفسى وإنّى لصادق بأَن سوف تَلْقى كاملا كلَّ مَقْصِد
دَليلى بهذا أَنَّك الماجد الذى تَسامى عُلُوا فوق كل ممجَّد
ليفخر أُولو الفخر المنيف بأَنَّكم لهم عَلَم أَعْلى به الكل مُقْتَدى
إمام علوم مُعْتَلى القَدْر لم يزل رداء المعالى والعوارف يرْتَد
وقاضٍ إذا الأَحكام أُشكِل أَمرها جلا لها برأى الحقيقة مُرشد
إذا الحق أَبدى نوره عند حُكْمه رأيت له حدَّ الحُسام المهنَّد
وإنَّ جميع الخلق فى الحقِّ عنده سَواسِية ما بين دانٍ وسَيِّد

(١) وردت هذه القصيدة فى هامش اللوحة 234 من مخطوط الإسكوريال . ولم ترد فى مخطوط الزيتونة .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (باللعام) .

هنياً لنا بَلْ للقضاءِ وفضله ... بقاضٍ حليمٍ فى القضاءِ مُسَدَّد
أَمات به الرحمن كل ضلالة ... وأَحيا بما أَولاه شِرْعة أَحمد
وكاينْ تراه لا يزال ملازما ... لأَمر بعُرْف أَو لِزام بمسجد
وما زال قِدْماً للحقيقة حاميا ... وللشِّرعة البيضاءِ يُهدى ويَهتدى
ويمنح أَفضالا ويولى أَياديـاً ... وإِحسانه للمُعْتَفين بمرصد
يُقَيِّد أَحراراً بمنطق جوده ... فما إِن ينى عن مُطْلَق أَو مُقَيَّد
نعم إِن يكن للفضل شخص فإِنما ... بشِيمته الغرَّاء فى الفضل يُبْتَدى
أَيا ناثراً أَسْنى المعارف والغنا ... ويا طارقا يَطْوى السُّرى كلَّ فَدْفَد
أَلا الق عصا التِّسيار واعشِ لناره ... تجد خَيرَ نار عندها خَيْر مَوْقد

ومن مقطوعاته قوله :

تبرَّأْتُ من حولى إِليك وأَيْقَنْتُ ... برحماك آمالى فصحَّ يقينى
فلا أَرْهَبُ الأَيام إِذ كنتَ ملجأى ... وحَسْبى يقينى باليقين يقينى

ومن شعره لهذا العهد منقولا من خطِّه ، قال مما نظمه فلان ، يعنى نفسه فى كتاب الشِّفا ، نفع الله به :

سل بالعُلى وسَنَى المعارف يَبْهر ... هل زانها إِلا الأَيمَّة مَعْشر
وهل للمفاخر غير ما شَهِدت به ... آىُ الكتاب وخارَتْها الأَعصر
هم ما هم شرفاً ونيل مراتب ... يوم القيام إِذا يَهُول المَحْشر
ورِثوا الهدى عن خير مبعوث به ... فخراً هَدْيُهم للنعيم الأَكبر (١)
وعياض (٢) الأَعلى قِداحاً فى العُلى ... منهم وحوله الفَخار الأَظهر

---

(١) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة كالآتى : (ففخارهم حول العظيم الأكبر) .

(٢) هو الفقيه الحافظ عياض بن موسى اليحصبى السبتى (٤٧٦-٥٤٤هـ) . وسوف يترجم له ابن الخطيب فيما بعد فى الإحاطة .

بشفايه[١] تشفى الصدور وإنه ... لرشاد نارٍ به الشهّاب النَّير
هو للتّوالف روح صورتها وقل ... هو تاجُ مَفْرِقها البهىُّ الأَنور
أفْنَتْ محاسنه المدايح مثل ما ... لمعيده بعد الثنــاء الأَعْطــر
وله اليَدُ البيضاءُ فى تأْليفه ... عند الجميع ففضلها لا يُنكر
هو مورد الهِيم العِطاش هَفَتْ ... بهم أَشواقهم فاعتاض منه المصدر
فبه ننال من الرضى ما نَبْتَغى ... وبكَوْنه فينا نُغاث ونُمطــر
أنظر إليه تميمةً من كل مـا ... تخشى من الخَطْب المهول وتحذر
لكأَنّنى بك يا عيــاض مهنأً ... بالفوز والملأُ العَلِىُّ مُبشــر
لكأَنّنى بك يا عيـاض مُنعّما ... بجوار أَحمد يَعْتَلى بك مظهر
لكأَنّنى بك يا عيـاض مُتوَّجاً ... تاج الكرامة عند ربِّك تُخبر
لكأَنّنى بك راوِياً من حَوْضه ... إذ لا صدىً ترويه إلاَّ الكوثر
فعلى محبّته طَوَيْتَ ضمايرا ... وَضَحت شواهدها بكُتْبك تُؤثر
ها إنّهن لشِرعة الهـادى الرِّضا ... صَدفٌ يُصان بهن منها جَوْهر
نجزاك ربٌّ العالمين تحيةً ... يَهب النعيم سريرها والمنبر
وسقى هَزِيم الوَدْق مضجَعك الذى ... مازال بالرَّحمى يُؤم ويُعمــر

وقال فى مَحمل الكتب :

أنا الحَبْر فى حمل العلوم وإن تقل ... بأَنى حُلًى عن حُلاهن تَعْــدل
أُقيّد ضروب العلم ما دمتُ قايما ... وإن لم أَقُمْ فالعِلم عنّى بمعْزِل
خدمتُ بتقوى الله خير خليفه ... فبوَّأنى من قُربه خير منــزل
أبا سالم لا زال فى الدهر سالما ... يُسَوِّغ من شُرب المنا[٢] كلَّ مَنهل

(١) الإشارة هنا إلى كتاب القاضى عياض « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » وهو أشهر كتبه . وظاهر أن القصيدة كلها تقريظ ومديح للقاضى عياض وكتابه المذكور .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (العلا) .

وكان قد رأى ليلة الإثنين الثانية لجمادى الأُولى عام ستين وسبعماية في النوم ، كأن الوزير أبا على بن عمر بن يخلف بن عمران الفُدودى ، يأمره أن يجيب عن كلام من كَتَب إليه . فأجاب عنه بأبيات نظمها فى النوم ، ولم يحفظ منها غير هذين البيتين :

وإنى لأجزى[1] بما قد أتاه ... صديقى احتمالا لفعل الحرفاء
بتمكين وُدٍّ وإثبات عهد ... وإجزال حَمْد وبَذْل حياء

ومن نظمه فى التورية :

وبخيلٌ لما دعوه لسُكنى ... منزل بالجِنان ضنَّ بذاك
قال لى مَخْزن بدارى فيه ... جلٌّ ما لى فلست للدار شاك
لا تعرِّج على الجِنان بسُكْنى ... ولتكن ساكناً بمخزن مالِك

ومن ذلك أيضا :

يا رُبَّ مُنشأة عجبت لشأنها ... وقد احتوت فى البحر أعجب شان
سكَنت بجنْبِها عصابة شدّة ... حلّت محلَّ الروح فى الجُثمان
فتحرَّكت بإرادةٍ مع أنها ... فى حُسنها ليست من الحيوان
وجرَت كما قد شاءَ سُكانها ... فعلمتُ أن السِّر فى السُّكان

ومن ذلك أيضا قوله :

وذى خِدَعٍ دعُوه لاشتغال ... وما عرفوه غثاً من سمين
فأظهر زُهْده وغنًى بمال ... وجيشُ الحِرْص منه فى كَمين
وأقسم لا فَعَلْتُ بمن خَبٍّ ... فيا عجباً لخلاف مُهين
يقدُّ بسيره ويمين حِلْفٍ ... ليأْكلَ باليسار وباليمين

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (لأنجز) .

شئ من نثره

خاطبتُه من مدينة سَلا بما نصه ، حسبما يظهر من غرضه :

مرضتُ فأَيَّامى لذاك مريضــة ... وبرؤك مقرون ببُرىء اعتلالها
فما راع ذاك الذّات للضُّر رائع ... ولا وُسِمت بالسَّقَم [1] غُرُّ خلالها

وينظر باقى الرسالة فى خبر التَّعْريف بمؤلِّف الكتاب [2]

فراجعنى عن ذلك بما نصه :

متى شِيت أَلْق من علايك كل ما ... يُنيل من الآمال خير منــالها
كبر اعتلال من دعايك زارنى ... وعادات برٍّ لم تَرُم عن وصالها

أَبقى الله ذلك الجلال الأَعلى متطوِّلاً بتأْكيد البرِّ ، متفضِّلا بموجبات الحمد والشكر . ورَدَتْنى سِماة سيدى المشتملة على مَعْهُود تشريفه ، وفضله الغَنِى عن تعريفه ، متحفِّياً فى السؤال عن شرح الحال ، ومُعلناً ما تحلَّى به من كرم الخِلال ، والشَّرف العال ، والمعظَّم على ما يسُرُّ ذلك الجلال ، الوزارى ، الرياسى ، أَجراه الله على أَفضل ما عوَّده ، كما أَعلى فى كل مَكْرَمة يدَه ، ذلك ببركة دُعايه الصالح ، وحبِّه المُخَيِّم بين الجوانح . والله سبحانه المحمود على نِعمه ، ومواهب لطفه وكرمه ، وهو سبحانه المسئول أَن يسنى لسيدى قرارَ الخاطر ، على ما يسُرُّه فى الباطن والظاهر . بِمَنٍّ الله وفضله ، والسلام على جلاله الأَعلى ورحمة الله وبركاته . كتبه المعظِّم الشاكر ، الداعى المحب ، ابن رضوان وفقه الله .

ومما خاطبنى به ، وقد جرَت بينى وبين المتغلب على دولتهم ، رُقاعٌ ، فيها سَلْم وإيقاع ما نصه :

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بالضر) .

(٢) تشغل ترجمة ابن الخطيب لنفسه السفر الثانى عشر من كتاب « الإحاطة » الذى يبدأ بلوحة ٤٢٥ من مخطوط الإسكوريال (١٦٧٣ ديرنبور) ، وهو خاتمة أسفار الكتاب .

يا سيدى الذى علا مجده قَدْرا وخَطَرا ، وسما ذكره فى الأَندية الحافلة ثناءً وشكرا ، وسما فخرُه فى المراتب الدينيَّة والدنيوية حمداً وأجرا ، أبقاك الله جميل السَّعى ، أَصيل الرأى ، سديد الرمى ، رشيد الأَمر والنَّهى ، ممدوحاً من بُلَغاءِ زمانك ، بما يقصر بالنَّوابغ[1] والعَشِى ، مفتوحاً لك باب القَبُول ، عند الواحد الحقِّ . وصلنى كتابك الذى هو للإعجاز آية ، وللإحسان غاية ، ولِشاهد الحسن تَبْريز ، ولثوب الأَدب تَطْريز ، وفى النِّقد إبْريز ، وقفت منه على ما لا تفى العبارة بعجايبه ، ولا يحيد الفضل كله عن مذاهبه ، من كل أُسلوب طار فى الجو إغْراباً وإغْراباً ، ومَلَك من سحر البيان خِطابا ، وحُمِد ثناه مُطالا وحديثاً مُطابا ، شأْن من قَصَر عن شأْو البلغاء ، بعد الإغياء ، ووقف دون سباق البديع بعد الإعْياء ، فلم يُشَقَّ غُباره ، ولا اقتُفِيت إلا بالوَهْم آثاره ، فلله من سيدى إتحافٌ سَرَّ ما شاء ، وأَحْكَم الإنشاء ، وبرَّ الأَكابر والأنشاء ، فما شئت من إفصاح وكتابة ، وبرٍّ ورعاية ، وفهم وإفهام ، وتَخْصيص وإبهام ، وكبْح لطَرْف النَّفس وقمع ، وخَفْضٍ فى الجواب ورَفع ، وتحرُّج وتورُّع ، وترقُّص وتوسُّع ، وجَماع وأَصحاب ، وعَتَبٍ وإعْتاب ، وإدلال على أَحْباب ، إلى غير ذلك من أَنواع الأَغراض ، والمقاصد السَّالمة جواهرها من الأَعراض ، جملةٌ جمعت المحاسن ، وأَمتعت السامع والمُعاين ، وحلَّت من امْتِناعها مع السهولة الحَرَم ، إلا من زاد الله تلك المعارف ظهوراً ، وجعلها فى شرع المكارم هُدًى ونوراً . وأَما شكر الجناب الوزارى ، أَسْماه الله ، بحكم النِّيابة عن جلالكم ، فقد أَبلغت فيه حمدى ، وبذلت ما عندى ، ووُدِّى لكم وُدى ، وورْدِى لكم

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بالتوابع).

من المُخالصة لكم ورِدْى ، وكل حالات ذلك الكمال ، مُجْمع على تفضيله ، مُعتمد من الثناء العاطر بإجماله وتفصيله . وأما مُؤَدِّيه إليكم أخي وسيدى الفقيه المعظم ، قاضى الحضرة وخطيبها ، أبو الحسن ، أدام الله عزَّته ، وحَفِظ أخُوَّته ، فقد قرر من أوصاف كمالاتكم ، ما لا تَفي بتقريره الأَمثِلة من أولى العلم بتلك السَّجايا الغُرِّ ، والشِّيم الزُّهر ، وما تحلَّيتم به من التقوى والبِرِّ ، والعدل والفضل ، والصبر والشكر ، ولحَمْل المتاعب فى أمور الجهاد ، وترك الملاذ والدَّعة فى مرضاة ربِّ العباد ، والإعراض عن الفانية ، والإقبال على الباقية ، فيالها من صفات خَلَعت السعادة عليكم مَطارفها ، وأجْزَلت عَوارفها ، وجمعت لكم تالِدها وطارفها ، زكَّى الله ثوابها وجدَّد أثوابها ، ووصل بالقبول أسبابها . وذُكر لى أيضا من حسناتكم ، المَنْقَبة الكبيرة ، والقُرْبة الأَثيرة ، فى إقامة المارستان بالحضرة(١) ، والتَّسبُّب فى إنشاء تلك المَكْرَمة المبْتكرة ، التى هى من مُهمَّات المسلمين بالمحلِّ الأَعلى ، ومن ضروريات الدين بالمزيَّة الفضلى ، وما ذَخَره القَدَر لكم من الأَجر ، فى ذلك السعى المشكور ، والعمل المبرور ، فسرَّنى لتلك المجادَة ، إحراز ذلك الفضل العظيم ، والفوز بثوابه الكريم ، وفخره العميم . ومعلومٌ ، أبقاكم الله ، ما تقدَّم من ضياع الغُرَبا والضعفا ، من المُضِى فيما سلف هنالك ، وقَبْل ما قُدِّر لهم من المُرْتفق العظيم وبذلك ، حتى أن من حَفِظ قول عمر رضى الله عنه ، والله لو ضاعت نخلةٌ بشاطىء الفرات ، لخِفت أن يُسأَل الله عنها عمر . لا شك فى أن من تقدَّم من أهل

---

(١) يشير الكاتب هنا إلى المارستان الكبير الذى أنشاه ابن الخطيب بحضرة غرناطة أيام وزارته الثانية . وذكر لنا أنه كان يفوق بسعته وروعة تنظيمه مارستان القاهرة الشهير (راجع المجلد الثانى من الإحاطة ص ٥٠) .

الأمر هُنالِكم ، لابدَّ من سؤاله عمَّن ضاع لعدم القيام بهذا الواجب المغْفل.
والحمد لله على **ما خصَّكم به من مزية** قوله صلى الله عليه وسلم ، إذا أَراد الله بخليفة خيراً ، **جعل** له وزيرا **صالحاً** ، إن نَسى ذكَّره ، وإن ذَكَر أعانه .

وأَما « كتاب المحبة »[1] فقد وقف المُعَظِّم على **ما وجَّهتهم** منه ، وقوفاً ظهر **بمزيَّة التَّأَمل** ، وعَلِم منه **ما** تَرك للآخر **للأَول** : ولم يشك فى أنَّ الفضل للحاكى ، وشتَّان بين الباكى والمُتَباكى. حقا لقد فاق التأْليف جَمْعاً وترتيباً ، وذهب فى الطُّرق الصوفية مذهباً عجيباً . **ولقد** بهرَت معانيه كالعرائس المجْلُوَّة حسناً ونضارة ، وبَرَعت[2] بدايعُه وروايعُه سنًى وإنارة ، وأَلفاظا مُختارة ، وكؤوسا مُدارة ، وغيوثا من البَرَكات مِدْرارة ، أَحْسِن بما أدته **تلك** الغُرر السَّافرة ، والأَمثال السايرة ، والخمايل النَّاظرة ، واللآلىء المُفَاخرة ، والنجوم الزَّاهرة . **أما إنه لكِتاب** تضمَّن زُبدة العلوم ، وثمرة الفُهوم ، وإن موضوعه لُلباب اللُّباب ، وخُلاصة الأَلْباب ، وفَذْلكة الحساب ، وفَتْح **الملك** الوهّاب ، سَنَى الله لكم ولنا كماله ، وبلَّغ الجميع منَّا آماله ، وجعل السَّعى فيه خالصا لوجهه ، وكفيلا بمعرفته بمنَّه وكرمه ، وهو سبحانه يُبقى بركتكم ، ويكلأُ ذاتكم الكريمة وحوْزَتكم ، بفضله [وطوله وقوته][3] والسلام الكريم[4] يخصكم به كثيرا أثيرا ، مُعَظِّم مقداركم ، ومُلتزم إجلالكم وإكباركم ، **ابن** رضوان ، وفقه الله ، **وكُتب** فى **الثامن والعشرين** لرجب من عام سبعة وستين وسبعمائة .

---

(١) «كتاب المحبة» أو «روضة التعريف بالحب الشريف» هو من أهم كتب ابن الخطيب . ويراجع فى التعريف به وأسباب تأليفه ، المجلد الأول من الإحاطة (ص ٦٢) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (وبهرت) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (وقوته وحوله) .

(٤) وردت فى الإسكوريال (الكثير) . والتصويب من الزيتونة .

وهو الآن بحاله الموصوفة ؛ أعانه الله . وله تردُّدٌ إلى حضرة غرناطة ، واجْتِياز وإلْمام[١] .

عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسن بن عثمان بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن عمار بن ياسر

غرناطى ، قَلْعى[٢] الأَصل ؛ سكن مالقة .

حـــاله

قال صاحب « الطالع »[٣] هو المشهور باليربطول[٤] . زاد على أخيه بخفَّة الروح ، وطيب النوادر ، واختار سكنى مالَقة ، فما زال بها ، يمشى على كواهل ما تعاقب فيها من الدول ؛ ويتقلَّب طَرْفه ، مما نال من ولاياتها[٥] ، بين الخَيْل والخَوْل ، حتى أَنَّ ابن عسكر ، قاضى مالقة وعالمها ، كان من جملة مَنْ مَدَحه ، وتوسَّل به إلى بلوغ أَغراضه عند القوم ، وصنَّف له شجرة الأَنساب السَّعيدية . وكان قبيح المنظر ، مع كونه من رياحين الفضل والأَدب . فمن الحكايات المتعلقة بذلك ، أَنه دخل يوما على الوالى بغرناطة ، السَّيد أَبى إبراهيم ؛ وجَعل يَساره ، وكان مُختصا به ، واقتضى

---

(١) توفى ابن رضوان النجارى بأنفا سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة (جذوة الأقباس – القسم الثانى – ص ٤٣٧) .

(٢) قلعى الأصل نسبة إلى قلعة يحصب أو قلعة بنى سعيد . وقد سبق التعريف بها .

(٣) هو كتاب « الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد » لأبى الحسن على بن موسى المعروف بابن سعيد الأندلسى وقد سبقت الإشارة إليه .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (اليرطول) .

(٥) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ولايتها) .

ذلك أن ردَّ ظهره للشيخ الفقيه الجليل ، عميد البلدة ، أَبى الحسن سهل بن مالك ، ثم التفت فردَّ وجهه إليه ، وقال اعْتَذِرُ لكم بأَمر ضرورى فقال أَبو الحسن ، إنما تعتذر لسيِّدنا ، فانقلب المجلس ضَحِكاً . ومنها أَنه خرج إلى سوق الدواب مع ابن يحيى الحضرمى المشهور أَيضا بخفَّة الروح ، وكان مَسَلَّطا على بنى سعيد ، فبينما هو واقف ، إذ النخَّاس ينادى على فَرَس ، فمٌ يشرب من القادوس ، وعَيْنٌ تحصد بالمِنْجل ، فقال له يا قايد أَبا محمد ، سِرْ بنا من هنا لئلا تؤخذ من يدى ، ولا أَقدر لك بحيلة ، فعلم مقصده ، ولم يخف عليه أَنَّ تلك صورته ، فقال سل جارتك عنها ، فمضى لأُمه ، وأَوْقَع بينها وبينه ، فحَلِف أَن لا يدخل عليها الدار . قال أَبو عمران بن سعيد ، واتفق أَن جُزْت بدار أَم الحضرمى ، فرأَيته إلى ناحية ، وهو كئِيب مُنْكسر ، فقلت له ما خبرك يا أَبا يحيى ، فقال لى عن أُمِّه وعن نفسه ، النساءُ يرمين أَبناءَ الزِّنا صغارا ، وهذه العجوز الفاعلة الصَّانعة ، ترمينى ابن خمسين سنة ، فقلت له وما سبب ذلك ، فقال ابن عَمِّك يوسف الجمال ، لا أَخذ الله له بِيَد ، فمازلتُ حتى أَصْلَحْتُ بينها وبينه .

ومن نوادر أَجوبته المُسْكتة ، أَنَّه كان كثير الخِلْطَة بمرَّاكش لأَحد السَّادة ، لا يفارقه ، إلى أَن وُلى ذلك السَّيد ، وتموَّل ، واشتغل بدُنياه عنه ، فقيل له ، نرى السيد فلانا أَضرب عن صُحْبتك ومُنادمتك ، فقال : كان يحتاج إلىَّ وقتاً كان يَتَبَخَّر بى ، وأَما اليوم فإنه يتبخَّر بالعُود والنَّد والعَنْبَر . وقال له شخص كان يُلَقَّب « بفُسَيْوات » فى مجلس خاص ، أَى فائدة فى « اليربطول » ، وفيم ذا يُحتاج إليه ، فقال له لا تَقُل هذا ، فإنه يقطع رايحة الفسا ، فودَّ أَنه لم ينطق . وتكلم شخص من المُتْرفين

فقال ، أمس بِعْنا الباذنجان التى بدار خالتى ، بعشرين مثقالا ، فقال لو بعتَم الكريز التى فيها لساوى أكثر من مايَة .

وأخباره شهيرة ، قال أبو الحسن على بن موسى ، وقَعْتُ فى رسايل الكاتب الجليل ، شيخ الكتاب أبى زيد النمازازى ، على رسايل فى حق أبى محمد البربطول ، ومنه إليه ، فمنها فى رسالة عن السَّيد أبى العلاء صاحب قرطبة ، إلى أخيه أبى موسى صاحب مالَقة ، ويصلكم به إن شاء الله ، القايد الأَجل الأَكْرَم ، الحَسِيب الأَمجد الأَنجد ، أبو محمد أدام الله كرامته ، وكتب سلامته : وهو الأَكيد الحرُمة ، القديم الخِدمة ، المرْعى [الماتَّة والذِّمّة](١) المُسْتَحق البِرِّ فى وجوه كثيرة ، ولِمعان أثيرة ، منها أنه من عَقِب عمَّار بن ياسر رِضوان الله عليه ، وحَسْبُكم هذا مجداً مؤثَّلا ، وشرفاً موصلا ، ومنها تَعيُّن بيته وسَلَفِه ، واختصاصهم من النَّجابة والظهور ، بأَنْوَه الإِسم وأَشْرَفه ، وكونهم بين مُعْتَكف على مضجعه ، أو مُجاهد بمُرْهَفِه ومُثَقَّفه ، ومنها سَبْقُهم إلى هذا الأَمر العزيز ، وتميُّزهم بأَثرة الشُّفوف والتَّمْييز ، ومنها الانقطاع إلى أخيكم ، مُمِدِّ مَوْرده ومَصْدَرِه ، وكَرَم مَغِيبه ومَحْضَره ، وهذه وسايل شتى ، وأَذمَّة قلَّ ما تتأَتَّى لغيره .

وفاته

كانت وفاته بمالقة بعد عشرين وستماية ، قال الرييس ، أبو عمر بن حَكَم ، شاهدته قد وصل إلى السيد أبى محمد البيَّاسى أيام ثورته(٢) ، وهو بشنتلية(٣) مع وفد مالقة بالبيعة سنة ثنتين وعشرين وستماية .

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الأمانة والحرمة) .

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ، وكان حينما اضطرب أمر الخلافة الموحدية فى أوائل القرن السابع الهجرى واليا على جيان ، فلما نهض السيد عبد الله بن يعقوب المنصور بالأندلس، داعيا لنفسه بالخلافة ، وتسمى بالعادل ، خرج عليه ، ونهض بدوره يدعو لنفسه بالخلافة فى منطقة جيان ، واستولى إلى جانب جيان على أبدة وبياسة ثم قرطبة، وعرف عندئذ بالبياسى واستمرت ثورته زهاء ثلاثة أعوام ، ثم ثار به أهل قرطبة لإفراطه فى محالفة النصارى. وقاتلوه حتى قتل (٦٢١ - ٦٢٣ هـ).

(٣) شنتيلة أو شنتيالة بلدة أندلسية تقع على مقربة من نهر شنيل جنوبى قرطبة وشرقى إستجة .

ومن الصوفية والفقراء

عبد الله بن عبد البر بن سُليمن بن محمد بن محمد بن أشمث الرُّعينى

من أهل أَرْجِلونه(١) من كورة رَيُّه ، يكنى أبا محمد ، ويعرف بابن أبي المجد .

حـــاله

كان من أعلام الكُور سَلفاً ، وترتُّباً ، وصلاحا ، وإنابَةً ، ونيَّة فى الصالحين ، مُتَّسع الذَّرع للوارد ، كثير الإيثار بما تيسَّر ، مليح التخلُّق ، حسن السَّمت ، طيب النفس ، حسن الظن ، له حظ من الطَّلب ، من فقه وقِراءات وفريضة ، وخَوْضٍ فى طريقة الصوفية ، وأدب لا بأْس به ، قطع عُمْرَه خطيبا وقاضيا ببلده ، ووزيراً ، وكتب بالدار السلطانية ، فى كل ذلك لم يفارق السَّداد .

مشيخته

قرأ على الأُستاذ الجليل أبي جعفر بن الزُّبير . رَحَل إليه من وطنه عام اثنين وتسعين وستماية ، ولازمه وانتفع به ، أخذ عنه الكتاب العزيز والعربية ، وسمع عليه الكثير من الحديث ، وعلى الخطيب الصوفى المحقِّق أبي الحسن فضل بن محمد بن فضيلة المعافرى ، وعلى الخطيب المحدث أبي عبد الله محمد بن عمر بن رُشَيْد ، وسمع على الشيخ القاضى الرَّاوية أبي محمد النَّبعدى ، والوزير المُعَمر المحدث الحَسِيب أبي محمد عبد المنعم بن سِماك العاملى ، والعَدْل الرَّاوية أبي الحسن بن مَسْتَقور . وقرأ بمالقة على الأُستاذ أبي بكر بن الفخَّار ، وأجازه من أهل المشرق طائفة.

---

(١) أرجدونه أو أرشدونه وبالإسبانية Archidona هى بلدة أندلسية قديمة تقع شمال مالقة فى منطقة وعرة تحيط بها الجبال .

شعره

مما حدثني ابن أُخته صاحبُنا أبو عثمن بن سعيد . قال نظم الفقيه القاضي الكاتب أبو بكر بن شِبْرين ببيت الكُتَّاب مألِّف الجملة ، رحمهم الله ، هذين البيتين :

أَلا يا مُحِبَّ المصطفى زِدْ صَبابةً وضَمِّخ لسان الذِّكر منه بطِيبه
ولا تَعْبَأَنْ بالمُبْطلين فإنما علامة حبِّ الله حبُّ حَبِيبه

فأَخذ الأَصحاب فى تذييل ذلك . فقال الشيخ أَبو الحسن بن الجيّاب رحمه الله :

فمن يَعْمُر الأَوقات طُرًّا بذكره فليس نصيبٌ فى الهدى كنَصيبه
ومن كان عنه مُعْرِضاً طول دهره فكيف يُرجيه شَفِيع ذنوبه

وقال أَبو القاسم بن أَبى القاسم بن أَبى العافية :

أَليس الذى جَلى دُجا الجهل هَدْيُه بنور أَقَمْنا بعده نهتدى بـه
ومن لم يكن من دَأْبه شكر مُنعم فمشهَدُه فى الناس مثل مَغِيبه

وقال أَبو بكر بن أَرقم :

نبيٌّ هدانا من ضلال وحيرة إلى مُرْتقى سامى المحلِّ خصيبه
فهل يَذْكُر الملهوف فضل مُجيره ويَغْمط شاكى الداء شُكْرَ طَبيبه

وانتهى القول إلى الخطيب أَبى محمد بن أَبى المجد فقال رحمه الله مذيِّلا كذلك :

ومن قال مَغْرورا حِجابُك ذكره فذلك مغمورٌ طريدُ عيوبه
وذِكْرُ رسول الله فرضٌ مؤكد وكل مُحِقٍّ قـايل بوجوبه

وقال يوما شيخنا أَبو الحسن بن الجيَّاب هذين البيتين على عادة الأُدباء فى اختيار الأَذهان :

جاهد النَّفْس جاهدا فإِذا ما فَنِيت عنك فهى عين الوجود
وليكن حكمك المسدَّد فيها حكم سَعْد فى قَتْلـه لليهود

قال ، فأجابه أبو محمد بن أبى المجد :

أيها العارف المُعَبِّر ذوقا　　عن معانٍ غزيرة فى الوجود
إن حال الفَنا عن كل غير　　لمقام المُراد غير المُريد
كيف لى بالجهاد(١) غير معان　　وعدوُّه مُظاهرٌ بجنود
ولو أنى حكمت فيمن ذكرتم　　حُكم سَعد لكنت جدَّ سعيد
فأراها صَبابة(٢) بى فَتوناً　　وأرانى فى حبِّها كيمزيد
سوف أسلو بحبكم عن سواها(٣)　　ولو أبْدَت فعل المحبِّ الودود
ليس شيءٌ سوى إلآهك يبقى　　واعتبر صِدق ذا بقَوْل لَبيد

وفاته

توفى رحمه الله، ليلة النصف من شعبان المكرم عام تسعة وثلاثين وسبعماية . وكان يجمع الفقراء ويحضر طائفتهم ، وتظهر عليه حالٌ ، لا يتمالك معها ، وربما أوْحَشت من لا يعرفه بها .

عبد الله بن فارس بن زيان

من بنى عبد الوادى ، تلِمْسانى يكنى أبا محمد ، وينتمى إلى بنى زيَّان من بيت أمرائهم .

كذا نقلت من خط صاحبنا الفقيه القاضى أبى الطاهر ... قاضى الجماعة أبى جعفر بن فركون ، وله بأحواله عناية ، وله إليه تردُّد كثير وزيارة . قال ورد الأندلس مع أبيه ، وهو طفل صغير ، واستقرَّ بقَتُّورية

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (بالجماد) والأولى أرجح .
(٢) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (حبابة) .
(٣) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (هداها) والأولى أرجح .

فى ديوان غَزانها . ولما توفى أبوه ، سلك مسلكه برهة ، ورفض ذلك ، وجعل يتردَّد بين الولد ، وانقطع لشأْنه .

حاله

هذا الرجل غريب النَّزعة فى الانقطاع عن الخَلْق ، ينقطع ببعض جبال بنى مشرف ، واتخذ فيها كهوفا وبيوتا من الشَّعر أزيد من أربعين عاما ، وهلم جرًّا ، منفردا ، لا يُداخل أحدا ، ولا يُلابسه من العرب ، ويجعل الحَلْفاءِ فى عنقه ....[1] أُختلف فيه ، فمن ناسبٍ ذلك إلى التَّلْبِيس وإلى لَوْثَةٍ تأْتيه ، وربما أثاب بشيء ، ويطلبون دُعاه ومُكالمته ، فربما أَفْهَم ، وربما أَبْهَم .

محنته

ذكروا أنه ورث عن أَخ له مالا غنيًّا ، وقدم مالقة ، وقد سُرق تاجر بها ذَهَباً عينا ، فاتُّهم بها ، فَجَرت عليه محنة كبيرة من الضَّرب الوجيع ، ثم ظهرت براءته ، وطلب الحاكم الجايِر منه العَفْو ، فعفا عنه ، وقال لله عندى حقوق وذنوب ، لعل بهذا أكفِّرها ، وصرف عليه المال فأَباه ، وقال لا حاجة لى به فهو مال سُوءٍ ، وتركه وانصرف ، وكان من أمر انقطاعه ما ذُكر .

شيءُ من أَخباره : استفاض عنه بالجهة المذكورة شِفاءُ المرضى ، وتفريج الكُرْبات . . . .[2] إلى غير ذلك من أَخبار لا تحصى كثيرة . وهو إلى هذا العهد بحاله الموصوفة ، وهو عام سبعين وسبعماية .

مولده : بتلمسان عام تسعين وستّماية . ودخل غرناطة غير ما مرة .

(١) هنا كلمات ممحاة استحالت قراءتها .

(٢) هنا بقية قائمة يتخللها المحو ، فرأينا الإغضاد عنها .

قال الفقيه أبو الطاهر منها فى عام عشرة وسبعماية][1] .

عبد الله بن فرج بن غَزْلون اليحصبى

يعرف بابن العسّال ، ويكنى أبا محمد ، طُليطُلى الأصل . سكن غرناطة واستوطنها ، الصالحُ المتصودُ التُّربة ، المبرورُ البُقْعة ، المُفزِع لأهل المدينة عند الشِّدة.

حـــاله

قال ابن الصِّيرفى ، كان رحمه الله : فذًّا فى وقته ، غريب الجود ، طِرْفاً فى الخير والزهد والورع ، له فى كل جو مُتَنَفَّس ، يضرب فى كل عِلْم بسَهم ، وله فى الوعظ تواليف كبيرة : وأشعاره فى الزهد مشهورة ، جارية على ألْسنة الناس ، أكثرها كالأمثال جيِّدة الرَّضْعة ، صحيحة المبانى والمعانى . وكان يُحلِّق فى الفقه . ويجلس للوعظ . وقال الغافقى ، كان فقيها جليلا ، زاهدا ، مُتَفَنِّناً ، فصيحا لَسِنا ، الأَغْلَبُ عليه حفظ الحديث والآداب ، والنحو ، حافظاً ، عارفاً بالتفسير ، شاعرا مطبوعا . كان له مجلس ، يُقْرأ عليه فيه الحِفْظ والتفسير ، ويتكلم عليه ، ويقصُّ من حِفْظه أحاديث . وألَّف فى أنواعٍ من العلوم ، وكان يعظ الناس بجامع غرناطة ، غريبا فى وقته ، فذا فى دهره ، عزيزَ الوجود .

مشيخته

روى عن أبى محمد مكّى بن أبى طالب ، وأبى عمرو ، المقرى الدّانى ، وأبى عمر بن عبد البرِّ ، وأبى إسحق إبراهيم بن مسعود الإلبيرى الزاهد ،

---

(١) وردت هذه الترجمة ،فى بضعة أسطر قاتمة وممحاة فى آخرها ،فى هامش اللوحة 239 إسكوريال . ولم ترد فى الزيتونة . وقد رأينا أن نثبتها هنا بالرغم مما تخللها من المحو والسقط الكثير .

وعن أبيه فَرَج ، وعن أبي زيد الحشا[١] القاضى ، وعن القاضى أبي الوليد الباجى .

شعره

وشعره كثير ، ومن أَمْثَل ما رُوى منه قوله :

لست وَجِيها [لدى إلَهى][٢]   فى مبدإ الأَمر والمعـاد
لو كنت وجيها لما بَرانى   فى عالَم الكَوْن والفساد

وفـاته

توفى رحمه الله يوم الاثنين لعشر خلون من رمضان عام سبعة وثمانين وأربعمائة [وألحد ضحى يوم الثلاثاء بعده بمقبرة باب إلبيرة بين الجبانتين . ويعرف المكان إلى الآن بمقبرة العسَّال . وكان له يوم مشهود ، وقد نيف على الثمانين رحمه الله ، ونفع به][٣] .

ومن الملوك والأمراء والأعيان والوزراء

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معوية ، أمير المؤمنين الناصر لدين الله

الخليفة المُمَتَّع ، المجْدُود ، المظَفَّر ، البعيد الذكر ، الشهير الصيت .

حـاله

كان أَبْيَض ، أَشْهَل ، حسن الوجه ، عظيم الجسم ، قصير الساقين .

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (النشا) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة (بذا الأمر) .

(٣) ما بين الحاصرتين وارد فى هامش الإسكوريال ، استكمال واستدراك . ووارد فى مكانه بالزيتونة .

أَول من تسمى أَمير المؤمنين ، ولى الخلافة ، فعلا جدُّه ، وبَعُد صيته ، وتوطَّأَ ملكه ، وكأَن خلافته كانت شمسا نافية للظلمات ، فبايعه أَجداده وأَعمامه وأَهل بيته ، على حداثة السِّن ، وجِدَة العمر ، فجدَّد الخلافة ، وأَحيا الدعوة ، وزيَّن الملك ، ووطَّد الدولة ، وأَجرى الله له من السَّعد ، ما يَعْظُم عنه الوصف ، ويُجِلُّ عن الذكر ، وهيأَ له اسْتِنزال الثوار والمنافقين ، واجْتِثاث جراثيمهم .

بنوه : أَحد عشر، منهم الحَكَم الخليفة بعده ، والمنذر ، وعبد الله، وعبد الجبار .

حُجَّابه : بدر مولاه ، وموسى بن حُدَير .

قضاته : جملة منهم أَسْلَم بن عبد العزيز ، وأَحمد بن بقّ ، ومنذر ابن سعيد البلوطى .

نقش خاتمه : عبد الرحمن بقضاء الله راض .

أُمه : أُم ولد تسمى مُزْنة . وبويع له فى ربيع الأَول من سنة تسع وتسعين ومائتين (١) .

دخوله إلبيره

قال المؤرخ ، أَول غزوة غزاها بعد أَن استَحْجَب بدرا مولاه ، وخرج إِليها يوم الخميس رابع عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ثلاثمائة مُفَوِّضاً إِليه ، ومُسْتدعيا نصره ، واستِيلاف الشَّاردين ، وتأْمين الخايفين إِلى ناحية كُورة جيَّان ، وحصن المُنْتلون ، فاستَنْزل منه سعيد بن هُذيل ،

(١) هكذا ورد هذا التاريخ فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (تسع وسبعين ومائتين) وكلاهما خطأ . والصواب أن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله (الناصر) بويع له فى مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ .

وأناب إليه من كان نافراً عن الطاعة ، مثل ابن اللبَّانة وابن مَسَرَّة ودحون الأعمى[١] ، وانصرف إلى قرطبة ، وقد تجول ، وأنزل كل من بحصن من حصون كورة جيان . وبَسْطَة وناجِرة[٢] وإلبيرة وبجَّانة والبُشُرَّة وغيرها بعد أن عرض نفسه عليها . وعلى عهده توفى ابن حَفْصُون . وجرت عليه هزيمة الخَنْدق فى سنة سبع وعشرين وثلاثماية ، وطال عمره، فملك نيفا وخمسين سنة ، ووجد بخطِّه ، أيام السُّرور التى صَفَتْ لى دون كدر يوم كذا ويوم كذا ، فعُدَّت ، فوجدت أربعة عشر يوما .

وفاته

فى أول رمضان من سنة خمسين وثلاثمائة[٣] .

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله بن محمد ابن عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية

يكنى أبا المُطرِّف ، ويلقب بالمُرْتَضى .

حاله وصفته

---

(١) هكذا وردت هذه الأسماء فى المخطوطين . وليس فيها ما يطابق الاسم الصحيح سوى ابن مسرة . وهو الفقيه الفيلسوف أبوعبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة الجبلى (٢٦٩ – ٣١٩ هـ) . وقد اتهم أيام الناصر بالكفر والزيغ ، وأصدر الناصر فى حقه خطابه المشهور بدحض بعض آرائه وتكفيرها (راجع كتابى دولة الإسلام فى الأندلس – الطبعة الرابعة – ص ٤٣٠ – ٤٣٤ وص ٦٩٨ – ٦٩٩)

(٢) وردت فى المخطوطين (وتاجلة) . وهو تحريف ونعتقد أن الصواب ما أثبتناه .

(٣) هذه الترجمة التى اختصرها الناسخ من الترجمة الأصلية لعبد الرحمن الناصر ، هى مع الأسف ترجمة ضئيلة مضطربة ، مليئة بالأخطاء التاريخية ، وهى بهذه الصورة لا يمكن نسبتها كما هى إلى ابن الخطيب ، وقد كتب ابن الخطيب عن عبد الرحمن الناصر فصلا قويا جزلا قيما فى كتابه « إعمال الأعلام » (طبع بيروت) ص ٢٨ – ٤١ . وراجع ما ورد عن عبد الرحمن الناصر من فصول متعاقبة فى كتابى دولة الاسلام فى الأندلس (الطبعة الرابعة) ص ٣٧٢ – ٤٦٣ .

كان أبيض أشْقر أقْنَى ، مخفَّف البَدَن ، مُدوَّر اللحية ، خيِّراً ، فاضلا ، من أهل الصلاح والتُّقى ، قام بدولته خيْران العامرى ، بعد أن كثُر السؤال عن بنى أُمية ، فلم يَجِد فيهم أسْدَا للخلافة منه ، بورعه وعفافه ، ووقاره ، وخاطب فى شأنه ملوك الطوائف على عهده ، فاستجاب الكلُّ إلى الطاعة ، بعد أن أجمع[(١)] الفقهاءُ والشيوخ ، وجعلوها شورى ، وانصرفوا يريدون قرطبة ، وبدأُوا[(٢)] بصَنْهاجة بالقتال ، فكان نُزوله بجبل شقشتر على محجة واط .

وفاته

يوم لثلاث خلون من جمادى الأُولى سنة تسع وأربعمائة . وكانت الهزيمة على عساكر المُرْتَضى ، فتركوا المحلات وهربوا : وفَشى[(٣)] فيهم القتل ، وظَفِرت صَنْهاجة من المتاع والأَموال ، بما يأْخذه الوصف ، وقُتل المُرْتضى فى تلك الهزيمة ، فلم يوقع له على أثر ، وقد بلغ سنه نحو أربعين][(٤)]

عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاصى بن أمية بن عبد شمس

يكنى أبا المُطَرِّف ، وقيل أبا زيد ، وقيل أبا سليمن ، وهو الداخل إلى الأندلس ، والمُجَدِّد الخلافة بها لذريته ، والملقَّب بصَقْر بنى أمية[(٥)] .

---

(١) وردت فى الزيتونة (أجمعوا) وهو تحريف اقتضى التصويب .

(٢) وردت فى الزيتونة (أبدوا) والتصويب أنسب للسياق .

(٣) وردت فى الزيتونة (وفشوا) وهو تحريف اقتضى التصويب .

(٤) وردت هذه الترجمة فى الزيتونة فقط . ولم ترد فى الإسكوريال .

(٥) المعروف المتداول أن عبد الرحمن بن معاوية الداخل يلقب « بصقر قريش » وليس « بصقر بنى أمية » .

حـــاله

قال ابن مفرِّج ، كان الأَمير عبد الرحمن بن معاوية ، راجِح العقل ، راسخ العلم ، ثابت الفهم ، كثير الحزم ، فذَّ العزم ، بريئا من العَجْز ، مستخفا للثِّقل ، سريع النهضة ، متَّصل الحركة ، لا يَخْلد إلى راحة ، ولا يسكن إلى دَعَة ، ولا يَكِل الأُمور إلى غيره ، ثم لا ينفرد بإبْرامها برأْيه . وعلى ذلك فكان شجاعا ، مقْداما ، بعيد الغُور ، شديد الحَذَر ، قليل الطُّمأْنينة ، بليغا ، مُفَوَّهاً ، شاعراً مُحْسِنا ، سَمْحا ، سَخيا ، طَلق[1] اللسان ، فاضل البنان ، يلبس البياض ، ويَعْتَمّ به ويؤثره . وكان أُعْطِى هَيْبةً من وليِّه وعدوِّه لم يُعْطَها واحد من الملوك فى زمانه . وقال غيره ، وأَلْفى الأَمير عبد الرحمن الأَندلس ثغرا من أَنْأَى الثغور القاصية ، غُفْلا من سمَة المُلْك ، عاطلا من حِلْيه الإِمامة ، فأَرْهَب أهله بالطاعة السلطانية ، وحرَّكهم بالسِّيرة الملوكية ، ورفعهم بالآداب الوسطية[2] ، فأَلبسهم عما قريب المودَّة ، وأَقامهم على الطريقة . وبدأَ يدوِّن الدواوين ، وأَقام القوانين ، ورفع الأَواوين . وفَرَض الأَعطية ، وأَنْفَذ الأَقْضِية ، وعقد الأَلوية ، وجنَّد الأَجناد ، ورفع العِماد ، وأَوْثَق الأَوتاد ، فأَقام للمُلْك آلته ، وأَخذ للسلطان عُدَّته .

نبذة من أَوَّليته

لما ظهر بنو العباس بالمشرق ، ونجا فيمن نجا من بنى أُمية ، معروفا بصفته عندهم ، وخرج يَؤُم المغرب لأَمرٍ كان فى نفسه ، من مُلْك الأَندلس ، اقتضاه حِدْثان . فسار حتى نزل القَيْرُوان ، ومعة بَدْرٌ مولاه ، ثم سار حتى

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (حلو) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (الواسطية) .

لحق بأخواله من نِفْزَة ، ثم سار بساحل العُدْوة ، فى كنف قوم من زَناتة ، وبعث إلى الأندلس بدراً ، فداخل له بها من يُوثق به ، وأجاز البحر إلى المُنَكَّب ، وسأل عنها ، فقال نَكَبُوا عنها ، ونزل بشاط من أحوازها ، وقدم إليه أولو دعوته ، وعقد اللِّوا ، وقصد قرطبة فى خبر يَطُول ، وحروب مُبيرة ، وهزم يوسف الفِهرى ، واستولى على قرطبة ، فبُويع له بها يوم عيد الأضحى من سنة ثمان وثلاثين ومائة ، وهو ابن خمس وعشرين سنة .

دخوله إلبيرة

قالوا : ولما انهزم الأمير يوسف بن عبد الرحمن الفهرى . لحق بإلبيرة فامتنع بحصن غرناطة ، وحاصره الأمير عبد الرحمن بن معوية ، وأحاط به ، فنزل على صُلح ، وانْعَقد بينهما عقد ، ورَهَنه يوسف ابْنَيْه أبا زيد وأبا الأسود ، وشهد فى الأمان وجُوه العسكر ، منهم أُمية بن حمزة الفِهرى ، وحبيب بن عبد الملك المروانى ، ومالك بن عبد الله القرشى ، ويحيى بن يحيى اليحصبى ، ورزق بن النُّعمان الغسّانى ، وجدار بن سلامة المَذْحجى . وعمر بن عبد الحميد العبدرى ، وثعلبة بن عبيد الجذامى ، والحُريش ابن حوار السلمى ، وعتّاب بن علقمة اللخمى ، وطالوت بن عمر اليحصبى ، والجرّاح بن حبيب الأسدى ، وموسى بن خالد ، والحُصَين بن العقيلى ، وعبد الرحمن بن منعم الكلبى ، إلى آخرين سواهم ، بتاريخ يوم الأربعاء لليلتين خلتا من ربيع الأول سنة تسع وثلاثين ومائة . نقلت أسماء من شهد ، لكونهم ممن دخل البلدة ، ووجب ذكره ، فاجْتَزَأت بذلك ، فرارا من الإطالة ، إذ هذا الأمر بعيد الأمد ، والإحاطة لله.

بلاغته ونثره وشعره

قال الرّازى ، قام بين يديه رجل من جند قِنّسرين ، يستنجد به ، وقال له ، يا ابن الخلايف الراشدين والسّادات الأكرمين ، إليك فَرَرْنا ، وبك عُذْت من زَمنٍ ظلوم ، ودهرٍ غشوم ، قلّل المال ، وذهب الحال ، وصيّر إلىّ بذاك المنال ، فأنت ولىُّ الحمد ، ورُبى المجد ، والمَرْجو للرِّفد . فقال له ابن معاوية مسرعا ، قد سمعنا مقالتك ، فلا تعودنّ ولا سواك لمثله ، من إراقة وجهك ، بتصريح المَسْلة ، والإلحاف فى الطَّلْبة ، وإذا ألمّ بك خَطْبٌ [أو دهاك أمر ، أو أحرقتك حاجة](١) فارفعه إلينا فى رُقعة لا تعدو ذكيا ، تَسْتُر عليك خِلّتك ، وتكُفُّ شماتة العدوّ بك ، بعد رَفْعها إلى مالِكنا ومالِكها ، عن وجهه ، بإخلاص الدُّعاء ، وحسن النية . وأمر له بجائزة حسنة . وخرج الناس يعجبون من حسن منطقه ، وبراعة أدبه .

ومن شعره قوله ، وقد نظر إلى نخلة بمُنْية الرُّصافة ، مُفْرَدةٍ ، هاجت شَجَنه إلى تذكر بلاد المشرق :

تبدّت لنا وسط الرّصافة نخلة ... تناءت بأرض الغَرْب عن بلد النخل
فقلت شَبيهى فى التغرُّب والنَّوى ... وطول التّنائى عن بنيّى وعن أهلى
نشأْتِ بأَرض أَنت فيها غريبةٌ ... فمثلك فى الإقْصاء والمنتأى مثلى
سقَتْك غوادى المزْن من صوبها الذى ... يسحُّ ويستمرئُ السّماكين بالوبل

وفاته

توفى بقرطبة يوم الثلاثاء الرابع والعشرين لربيع الآخر سنة اثنتين

---

(١) هكذا وردت هذه الجملة فى الزيتونة . ووردت مكانها فى الإسكوريال عبارة (وأحرقك أمر) .

وسبعين ومائة ، وهو ابن تسعة وخمسين عاما ، وأربعة أشهر ، وكانت مُدَّة مُلكه ثلاثا وثلاثين سنة وأربعة أشهر ، وأخباره شهيرة .

وجرى ذكره فى الرَّجز المسمى بقطع السلوك ، فى ذكر هذين من بنى أمية ، قولى فى ذكر الداخل :

وغمر الهوْل كَقَطْع الليل   بفِتنة الفِهرى والصُّمَيل
وجَلَّت الفِتنة فى أندلس   فأصبحت فريسة المُفترس
فأسرع السَّير إليها وابْتَدَر   وكلُّ شيء بقضاء وقَدَر
صَقْرُ قريش عابِد الرحمن   بانى المعالى لبنى مروان
جدَّد عهد الخلفاء فيها   وأسَّس الملك لمُتْرَفِيها
ثم أجاب داعِى الحِمام   وخلَّف الأَمر إلى هشام
وقام بالأَمر الحفيد الناصر   والناس مَحْصُور بها وحاصر
فأقبل السَّعد وجاءَ النَّصر   وأشْرق الأَمن وضاءَ القصر
وعادت الأَيام فى شبابِ   وأصبح العدو فى تِبابِ
سطى وأَعطى وتغاضى وَوَفا   وكلما أقدره الله عَفا
فعاد من خالَف فيها وانْتَزا   وحارب الكفار دأبا وغزا
وأوقع الرُّوم به فى الخَنْدق   فانقلب الملك بسَعْى مُخفق
واتصلت من بعد ذا فتوحُ   تَغْدُو على مَثْواه أو تروُح
فاغتنموا السَّلم لهذا الحين   ووصلت إرسال قُسْطَنطين
وساعد السَّعد فنال واقْتَنا   ثم بنى الزَّهرا فيما قد بَنا
حتى اذا ما كَمُلت أيامُه   سبحان من لا ينقضى دوامُه

عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن سعيد بن محمد اللخمى

من أهل رُنْدَة وأعيانها ، يكنى أبا القاسم ، ويعرف بابن الحكيم ؛ وجدُّه يحيى ، هو المعروف بابن الحكيم ، وقد تقدم ذكر جُملة من هذا البيت .

حـــاله

كان رحمه الله عين بلده المشار إليه ، كثير الانقباض والعُزلة ، مجانبا لأَهل الدنيا ، نشأَ على طهارة وعِفَّة ، مَرْضى الحال ، معدودا فى أَهل النَّزاهة والعَدالة ، وأفرط فى باب الصَّدقة ، بما انقطع عنه أهل الإثراء من المُتَصَدِّقين ، ووقفوا دون شَأْوه . ومن شهير ما يُروى من مناقبه فى هذا الباب . أنه أعتق بكل عضو من أعضائه رَقَبةً ، وفى ذلك يقول بعض أُدباء عصره :

أَعْتَقَ بكلِ عُضْو منه رَقَبـــة واعتدَّ ذلك ذخراً ليوم العَقَبة
لا أَجدُ مَنْقَبة مثل هذه المنْقَبة

مشيخته

روى عن القاضى الجليل أَبى الحسن بن قَطْرال ، وعن أَبى محمد بن ابن‌عبد الله بن عبد العظيم الزهرى ، وأبى البركات بن مَوْدود الفارسى ؛ وأَبى الحسن الدَّباج ، سمع من هؤلاءِ وأَجازوا له . وأجاز له أبو أُمية ابن سعدالسُّعود بن عُفير ، وأَبو العباس بن مكنون الزاهد ، قال الأُستاذ أَبو جعفر بن الزبير ، وكان شيخنا القاضى العالم الجليل أَبو الخطَّاب ابن خليل ، يَطْنب فى الثناءِ عليه ، ووقفت على ما خاطبه به معربا عن ذلك.

شعره

منقولا من « طُرْفة العصر » من قصيدة يردِّدُها المؤذنون منها :

كم ذا أُعلل بالتَّسْويف والأَمل قلبا تغلَّب بين الوَجْد والوَجَل
وكم أُجَرِّد أَذيال الصِّبا مَرحًا فى مَسْرح اللهو وفى مَلْعب الغَزَل
وكم أُماطل [نَفسى بالمتاب](١) ولاعزم فيوضح لى عن واضح السُّبل
ضَلَلْتُ والحق لا تخفى معالمه شتَّان بين طريق الجدِّ والهَزْل

وفاته

يوم الاثنين التاسع والعشرين لجمادى الأُولى عام ثلاثة وسبعين وستماية

عبد الرحيم بن إبراهيم بن عبد الرحيم الخزرجى

يكنى أَبا القاسم ، ويعرف بابن الفَرَس ، ويُلَقَّب بالمُهْر ، من أَعيان غرناطة .

حاله(٢)

كان فقيها جليلَ القدر ، رفيع الذكر ، عارفاً بالنحو واللغة والأَدب ، ماهر الكتابة ، رايق الشعر ، بديع التَّوشيح ، سريع البديهة ، جاريا على أخلاق الملوك فى مَرْكَبه وملبسه وزِيِّه . قال ابن مسعدة(٣) : وطِئَ من درجات [العزِّ](٤) والمجد أعلاها ، وفرع من الأَصالة(٥) مُنْتَهاها . ثم علت

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة كالآتى (نفسا بالعتاب) .

(٢) أغفلت فى المخطوطين . وقد رأينا إثباتها جريا على أسلوب ابن الخطيب فى ترتيب مادة تراجمه .

(٣) هكذا فى الزيتونة ، وفى الإسكوريال (أبو مسعدة) .

(٤) هذه الزيادة من الزيتونة .

(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (البطالة) وهو تحريف .

همّتُه إلى طلب الرِّياسة والمُلْك ، فارتحل إلى بلاد العُدْوة ، ودعا إلى نفسه، فأجابه إلى ذلك الخَلْقُ الكثير ، والجمُّ الغفير ، ودَعُوه باسم الخليفة ، وحُيّوه بتحية الملك . ثم خانَتْه الأَقدار ، والدهر بالإنسان غدَّار ، فأَحاطت به جيوش الناصر بن المنصور ، وهو فى جيش عظيم من البربر ، فقُطع رأسه ، وهُزم جيشه ، وسيق إلى باب الخليفة ، فعلق على باب مَرَّاكُش ، فى شبكة حديد ، وبقى به مدة من عشرين سنة[1] .

قال أبو جعفر بن الزبير ، كان أحد نبهاء وقته : لولا حدَّة كانت فيه ، أدت به إلى ما حدَّثنى به بعض شيوخى من صحبه . قال : خرجنا معه يوما على باب من أبواب مراكش برسم الفُرْجة ، فلما كان عند الرجوع نظرنا إلى رؤوس مُعلَّقة ، وتعوَّذنا بالله من الشَّر وأهله ، وسأَلْناه سبحانه العافية . قال : فأخذ يتعجب منا ، وقال : هذا خَوَرُ طريقة وخَساسةُ همَّه ، والله ما الشرف والهمَّة إلا فى تلك ، يعنى فى طَلَبِ الملك ، وإن أَدَّى الاجتهاد فيه إلى الموت دونه على تلك الصِّفة . قال ، فما برحت الليالى والأَيام ، حتى شرع فى ذلك ، ورام الثورة ، وسِيق رأسه إلى مراكش ، فعلق فى جملة تلك الرؤوس ، وكتب عليه ، أوقيل فيه :

---

(١) إن عبد الرحيم بن إبراهيم بن الفرس المذكور هو فى الأصل أندلسى ينتمى إلى قبيلة «جزولة» البربرية ، ويعرف بظهر وبأبى قصبة . وكان على جانب كبير من العلم والمعرفة . نزح إلى المغرب ، وحضر ذات يوم مجلس الخليفة الموحدى يعقوب المنصور ، وبدرت منه بعض آراء خشى عاقبتها فاختفى حينا ، ثم ظهر بعد وفاة المنصور فى السوس فى منازل قبيلته جزولة ، وانتحل الإمامة ، وادعى أنه « القحطانى » الذى ورد ذكره فى الحديث بأنه لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان ، يقود الناس ، ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا . وذاعت دعوته فى بلاد السوس والتفت حوله جموع كثيرة ، وجردت عليه حكومة مراكش عدة حملات صغيرة متوالية ، كان يهزمها تباعا . ثم جهز الخليفة الناصر الموحدى حملة كبيرة لمحاربته وسحقه ، فانفض عنه معظم جموعه ، وقتل منهم من وقف إلى جانبه ، وقبض على الدعى . وقتل واحتز رأسه ، وعلق على باب مراكش ، وكان مصرع ابن الفرس وانهيار ثورته على هذا النحو فى سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠٢ م) .

لقد طَمَّح المُهر الجُمُوح لغاية فقطَّع أعناق الجِياد السَّوابق
جَرى وجرَتْ رجلاه لكنّ رأسه أتى سابقاً والجسم ليس بسابق

وكانت ثورته ببعض جهات دَرْعة من بلاد السُّوس .

مشيخته

أخذ عن صِهرد القاضى أبى محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم . وعن غيره من أهل بلده ، وتفقه بهم ، وبهر فى العَقْليّات والعلوم القديمة ، وقرأ على القاضى المحدِّث أبى بكر بن أبى زَمَنِين ، وتلا على الأستاذ الخطيب أبى عبد الله بن عروس ، والأدب والنحو على الأُستاذ الوزير أبى يحيى بن مَسْعدة . وأجازه الأُستاذ الخطيب أبو جعفر العطَّار . ومن شعره فى الثورة :

قولوا لأولاد[1] عبد المؤمن بن على تأهبوا لوقوع الحادث الجلل
قدجاء فارسُ قحطان وسيدها[2] ووارث الملك والغلاّب للدول[3]

ومن شعره القصيدة الشهيرة وهى :

الله حسْبى لا أُريـــد ســـواه هل فى الوجود الحق إلاّ الله
ذات الإلَه بها تقوم دولتنا هل كان يوجد غيـــره لولاه
يامن يَلوذ بذاته أنت الذى لا تطمع الأبصــار فى مَرآه
لا غرو أنّا قـد رأينـــاه بهـا فالحق يظهر ذاته وتراه[4]
يامن له وجَبَ الكمال بذاته فالكل غاية فوْزهم[5] لقياه

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى نص آخر (لأبناء) .
(٢) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال . وفى نص آخر (قد جاء سيد قحطان وعالمها) .
(٣) هكذا وردت هذه الشطرة فى الإسكوريال . وفى نص آخر (ومنتهى القول والغلاب للدول)
(٤) هكذا ورد هذا البيت فى الإسكوريال وفى الزيتونة كالآتى : (لأغرو أنا قد رأيناه : بالحق يظهر ذاته وتراه) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (قدرهم) .

أنت الذى لما تعالى جدُّه ... قصرت خطا الألباب دون حماه(١)

أنت الذى امتلأ الوجود بحَمْده ... لما غدا ملآن من نُعْماه

أنت الذى اخترع الوجود بأسره ما بين أعلاه إلى أدناه

أنت الذى خصَّصتنا بوجودنا ... أنت الذى عرَّفتنا معناه(١)

أنت الذى لو لم تَلُح أنواره ... لم تُعرف الأضداد والأشباه

لم أفْشِ ما أوْدَعتنيه إنّه ... ما صان سرَّ الحق مَنْ أفشاه

عجز الأنام عن امتداحك إنه ... تتضاءل الأفكار دون مداه

من كان يعلم أنك الحقُّ الذى ... بَهَر العقول فحَسْبُه وكفاه

لم ينقطع أحد إليك محبَّةً ... إلا وأصبح حامدا عُقْباه

وهى طويلة ..

. . . .

من أهل غرناطة يكنى أبا ورد ويعرف بابن القصجة

عديم رواء الحس ، قريب العهد بالنجعة ، فارق وطنه وعيصه ، واستقبل المغرب ... الوفادة ، وقدم على الأندلس فى أُخريات دولة الثانى من الملوك النصريين ، فمهد جانب البر له ، وقرب مجلسه ، ورعى وسيلته ، وكان على عمل بر ، من صوم واعتكاف وجهاد .

نباهته

ووقف بى ولده الشريف أبو زيد عبد الرحيم ، على رسالة كتب بها أمير مكة على عهده إلى سلطان الأندلس ثانى الملوك النصريين رحمهم الله ، وعبر فيها عن نفسه ، من عبد الله المؤيد بالله محمد بن سعد الحرسنى ، فى غرض المواصلة والمودة والمراجعة عن بر صدر عن السلطان رحمه الله من فصولها :

(١) هذا البيت وارد فى الإسكوريال ، وساقط فى الزيتونة .

«ثم أنكم رضى الله عنكم ، بالغنم فى الإحسان للسيد الشريف أبى القاسم الذى انتسب إلينا ، وأويتموه من أجلنا ، وأكرمتموه ، ورفعتموه احتراما لبيته الشريف، جعل الله عملكم معه وسيلة بين يدى جدِّنا عليه السلام » وهى طويلة وتحميدها ظريف ، من شنشنة أحوال تلك البال بمكة المباركة .

وفاته : توفى شهيدا فى الوقيعة بين المسلمين والنصارى بظاهر ألمرية عندما وقع الصريخ لإنجادها ، ورفع العدو البرجلونى عنها فى السادس والعشرين من شهر ربيع الأول عام عشرة وسبعمائة [١] .

ومن ترجمة المقريين والعلماء والطلبة النجباء من ترجمة الطارئين منهم

عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبى الحسن أصبَغ بن حسن بن سعدون بن رضوان بن فتّوح الخثعمى

مالقى [يكنى] [٢] أبا زيد ، وأبا القاسم ، وأبا الحسين ، وهى قليلة ، شُهر بالسُّهيلى .

حـــاله

كان مُقْرِياً مجوِّداً ، متحققاً بمعرفة التفسير ، غواصا على المعانى البديعة، ظريف التَّهدِّى إلى المقاصد الغريبة [٣] ، محدِّثاً واسع الرِّواية ، ضابطا لما يحدِّث به ، حافظاً متقدما ، ذاكرا للأدب والتواريخ والأشعار والأنساب ، مبرِّزا فى الفهم ، ذكيا ، أديبا كاتبا بليغا ، شاعرا مجيدا ، نحويا عارفا

---

(١) وردت هذه الترجمة بهامش اللوحة 242 إسكوريال ، مطموس أولها ، وغير واضح اسم صاحبها (الذى ذكر فيما بعد أنه الشريف أبو القاسم)، فرأينا أن ننقلها كما هى ، وأن تتخذ مكانها بعد ترجمة ابن الفرس .

(٢) ساقطة فى الإسكوريال وواردة فى الزيتونة .

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (الطريفة) .

بارعا ، يَقِظاً ، يَغْلب عليه عِلْمُ العربية والأدب . استُدعى آخراً إلى التدريس بمرَّاكش ، فانتقل إليها من مالقة ، محل إقرائه ، ومُتَبوَّأ إفادته ، فأخذ بها الناس عنه ، إلى حين وفاته .

مشيخته

تلا بالحَرَمين على خال أبيه الخطيب أبى الحسن بن عباس ، وبالسَّبْع على أبى داود بن يحيى ، وعلى أبى على منصور بن عَلاء ، وأبى العباس بن خلف بن رَضِى ، وروى عن أبى بكر بن طاهر ، وابن العربى ، وابن قَنْدَلة ، وأبى الحسن شُريح ، وابن عيسى ، ويونس بن مُغيث ، وأبى الحسن بن الطَّراوة ، وأكثر عنه فى علوم اللسان ، وأبى عبد الله حفيد[1] مكِّى ، وابن أخت غانم ، وابن مُعَمَّر ، وابن نجاح ، وأبى العباس بن يوسف ابن يُمْن الله ، وأبوى القاسم ابن الأَبْرش ، وابن الرَّماك ، وأبوى محمد ابن رشد ، والقاسم بن دَحْمان ، وأبوى مروان بن بُونة ، وأبى عبد الله بن بَحْر . وناظر فى « المدوَّنة » على ابن هشام . وأجاز له ولم يَلْقه ، أبو العباس عبَّاد بن سرحان ، وأبو القاسم بن وَرْد .

من روى عنه

روى عنه أبو إسحق الزَّوالى ، وأبو إسحق الجانى ، وأبو أُمية بن عُفير ، وأبو بكر بن دَحْمان ، وابن قَنْتوال ، والمحمدون ابن طلحة ، وابن عبد العزيز ، وابن على جو يحمات ، وأبو جعفر بن عبد المجيد ، والحفَّار وسهل بن مالك ، وابن العفَّاص ، وابن أبى العافية ، وأبو الحسن السَّراج ، وأبو سليمن بن حَوْط الله ، والسماتى ، وابن عياش الأَنْدرشى ، وابن عطية ،

(١) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الزيتونة .

وابن يربوع ، وابن رُشَيد ، وابن ناجح ، وابن جَمْهُور ، وأبو عبد الله بن عيَّاش الكاتب ، وابن الجِذع ، وأبو على الشُّلُوبين ، وسالم بن صالح ، وأبو القاسم بن بَقِى ، وأبو القاسم بن الطَّيْلَسان ، وعبد الرحيم بن الفَرَس ، وابن المَلْجُوم ، وأبو الكرم جُودِى ، وأبو محمد بن حَوْط الله ، إلى جملة لا يحصرها الحدُّ .

دخل غرناطة . وكان كثير التأميل والمدح لأبى الحسن بن أَضْحَى قاضيها ورئيسها[1] . وله فى مدحه أشعار كثيرة ، وذكر لى من أرَّخ فى الغَرْناطيين ، وأخبرنى بذلك صاحبنا القاضى أبو الحسن بن الحسن كتابة عمَّن يثق به .

تواليفه

منها كتاب « الشَّريف والإعلام بما أُبْهِم فى القرآن من أسماء الأعلام » . ومنها شرح آية الوصية ، ومنها « الرَّوض الآنِفْ والمَشْرع الرَّوا فيما اشتمل عليه كتاب السيرة واحْتَوى » . وابتدأ إملاءه فى محرم سنة تسع وستين وخمسماية ، وفرغ منه فى جمادى منها . ومنها "حِلْية النَّبيل فى معارضة ما فى السَّبيل" . إلى غير ذلك .

شعره

قال أبو عبد الله بن عبد الملك ، أنشدنى أبو محمد القطَّان ، قال أنشدنى أبو على الرُّندى ، قال أنشدنى أبو القاسم السُّهيلى لنفسه :

أُسايل عن جيرانه من لَقِيته   وأعرض عن ذكراه والحال تنطق

---

(١) هو من ثوار الأندلس فى أواخر عهد المرابطين . وقد سبق التعريف به (راجع المجلد الثانى من الإحاطة ص ٥٠٤ حاشية) .

ومالى إلى جيرانه من صَبابــة ولكنَّ قلبى عن صَبُوح[١] يوفَّق

ونقلت من خطِّ الفقيه القاضى أبى الحسن بن الحسن ، من شعر أبى القاسم السُّهيلى ، مذيِّلا بيت أبى العافية فى قطعة لزُوميَّة :

ولما رأيْتُ الدَّهر تسطو خطوبه بكل جَليد فى الورى وُهدان
ولم أر من حِرْزٍ ألوذ بظلِّــه ولا مَنْ له بالحادثات يُـدان
فَزَعت إلى من تملَّك الدهر كفَّه ومن ليس ذو مُلْك له بمِدان
وأعْرَضت عن ذكر الورى متبرِّماً إلى الرَّب من قاص هناك ودان
وناديتُه سـرا ليرحم عَبْــرتى وقلت رجائى قادنى وهَـدانِ
ولم أدعه حتّى تطاول مغضلا علىّ بالهام الدُّعاءِ وعـان[٢]
وقلت أرْجِى عطفــه متمثِّلا ببيت لعَبْـد صـايل بَرْدان
تغطيت من دهرى بظلِّ جَناحه فعسى تَرى دهرى وليس بَرانى

قلت ، وما ضَرَّه ، غفر الله له ، لو سَلِمت أبياته من بَرْدان ، ولكن أبَتْ صناعة النحو إلا أن تخرج أعناقها .

ومن شعره قوله :

تواضع إذا كنتَ تَبْغى العــلا وكنت راسيا عند صَفْو الغَضَب
فخَفْضُ الفتى نفسه رِفْعَـةٌ له واعتبر برُسُوب الذَّهب

وشعره كثير ، وكتابته كذلك ، وكلا هما من نمط يقصر عن الإجادة .

وقال ملغِّزا فى محمل الكُتُب ، وهو مما استُحسن من مقاصده :

حامل للعلــوم غير فقيــه ليس يرجو أمرا ولا يتَّقيه

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (هواه) .
(٢) هكذا وردت فى الزيتونة . ووردت فى الإسكوريال مرة أخرى (وهدان) .

يحمل العِلم فاتحا قدميه   فإذا التَقَتا[١] فلا علم فيه

ومن ذلك قوله فى المجنبات :

شَغَفَ الفؤاد نواعمٌ أبكار   برّدت فؤاد الصّب وهى حِرار
أذكى من المِسْك العتيق لنا   نَشْقاً وألذُّ من صباً حين تُدار
وكأنَّ من صافى اللُّجين بطونها   وكأنّما ألوانهن نُضار
صَفَتْ البواطن والظواهر كلها   لكن حَكَتْ ألوانها الأزهار
عجباً لها وهى النعيم يصوغها   نارٌ وأين من النَّعيم النار

ومن شعره وثَبَت فى الصِّلة :

إذا قلتُ يوما سلام عليك   ففيها شِفاءٌ وفيها سِقام
شِفاً إذ قلتُها مُقبِلا   وإن قلتُها مُدْبرا فالحِمام
فاعْجَب لحال اختلافيهما   وهذا سلامٌ وهذا سلامُ

مولده : عام سبعة أو ثمانية وخمسماية .

وتوفى فى مراكش سَحَر ليلة الخامس والعشرين من شعبان أحد وثمانين وخمسماية ، ودفن لظُهره بجبّانة الشيوخ خارج مراكش ، وكان قد عَمِى سبعة [عشرة][٢] عاما من عمره

[عبد الرحمن بن هانىء اللخمى]

يكنى أبا المطرف ، من أهل فرقد من قرى إقليم غرناطة .

حاله

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (انفصمتا) .
(٢) واردة فى الزيتونة ، وساقطة فى الإسكوريال .

كان فقيها فاضلا ، وتجوّل فى بلاد المشرق . قال أنشدنى إمام الجامع[١] بالبصرة :

بلاءٌ ليس يشبهه بلاءُ ... عداوة غير ذى حَسَب ودين
يُنيلك منه عِرْضاً لم يَصُنْه ... ويَرْتَعُ منك فى عِرْضٍ مَصُون][٢]

[عبد الرحمن بن أحمد بن أحمد بن محمد الأزدى]

من أهل غرناطة ، يكنى أبا جعفر ، ويعرف بابن القصير

حاله

كان فقيها . . . .[٣] جليلا ، بارع الأدب ، عارفا بالوَثيقة . نقّادا لها ، صاحب رواية ودِراية . تقلّب ببلاد الاندلس ، وأخذ الناس عنه بمرسية وغيرها . ورَحل إلى مدينة فاس ، وإفريقية ، وأخذ بها ، ووُلّى القضاء بتقرش من بلاد الجريد .

مشيخته

روى عن أبيه القاضى أبى الحسن بن أحمد ، وعن عمه أبى مروان ، وعن أبوى الحسن ابن دُرّى ، وابن الباذِش ، وأبى الوليد بن رشد ، وأبى إسحق بن رشيق الطليطلى نزيل وادى آش ، وأبى بكر بن العربى ، وأبى الحسن ابن وَهَب ، وأبى محمد عبد الحق بن عطيّة ، وأبى عبد الله بن أبى الخِصال ،

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (الصلاة) .

(٢) وردت هذه الترجمة الموجزة فى موضعها المعتاد بالزيتونة . وأشار إليها الناسخ بالإسكوريال فى هامش اللوحة 244 بقوله (قلت سقط هنا فى جملة من اختصرتهم عبد الرحمن بن هانى اللخمى) وأورد البيتين .

(٣) مكانها كلمات غير مقروءة .

وأبي الحسن يونس بن مغيث ، وأبي القاسم بن وَرْد ، وأبي بكر بن مسعود الخُشنى ، وأبي القاسم بن بَقِى ، وأبي الفضل عِياض بن موسى بن عياض ، وغيرهم .

تواليفه

له تواليف وخطب ورسائل ومقامات ، وجَمع مناقب مَنْ أدركه من أهل عصره ، واختصر كتاب الجُمل لابن خاقان الإصبهانى ، وغير ذلك ، وألف برنامجاً يضم رواياته .

من روى عنه

روى عنه ابن الملجوم ، واستوفى خَبَرَه

وفاته

رَكِب البحر قاصدا الحج ، فتوفى شهيداً فى البحر ، قتله الرُّوم بمرسى تونس مع جماعة من المسلمين ، صبح يوم الأَحد ، فى العشر الوسط من شهر وبيع الآخر سنة ست وسبعين وخمسماية][(١)] .

عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد الأنصارى

يكنى أبا بكر ، ويعرف بابن الفصَّال .

حاله

هذا الرجل فاضل عريقٌ فى العدالة ، ذكى ، نبيل ، مُخْتَصر الجِرْم ، شعلة من شُعل الإدراك ، مليح المحاورة ، عظيم الكفاية ، طالب مُتْقِن .

(١) وردت هذه الترجمة فى هامش اللوحة 244 من مخطوط الإسكوريال ولم ترد فى الزيتونة .

قرأ على مشيخة بلده ، واختصَّ منهم بمولى النعمة على أبناءِ جنسه ، أبى سعيد ابن لُب ، واستَظْهر من حفظه كُتبا كثيرة ، منها كتاب التفريع فى الفروع ، وارتسم فى العُدول ، وتعاطى لهذا العهد الأدب ، فبرَّز فى فنِّه .

أَدبه

مما جمع فيه بين نظمه ونثره ، قوله يخاطب الكتَّاب ، ويُسْحر ببراعته الألباب :

لعل نسيم الريح يسرى عَليلُه فأهدى صحيح الوُدّ طيٌّ سقيم
لتحملها عنِّى وأزكى تحيـة لقيتـه كهف مـانِع ورَقِيم
ويذكر ما بين الجوانح من جوىً وشوقٍ إليهم مُقعِد ومُقيم[(١)]

ياكُتَّاب المحلِّ السامى، والإمام المُتَسامى، ووَاكف الأدب البسَّامى، أُناشدكم بانتظامى فى محبَّتكم وارتسامى ، وأُقسم بحقِّكم علىّ وحبَّذا إقْسامى ، ألا ما أَمْدَدتم بأَذهانكم الثاقبة ، وأَسْعَدتم بأَفكاركم النَّيرة الواقبة ، على إخراج هذا المُسَمَّى ، وشرح ما أَبهمَه المُعَمَّى[(٢)] ، فلعَمْرى لقد أَحْرَق مزاجى ، وفرَّق امتزاجى ، وأَظلم به وِهاجى ، وغطَّى على مرآة ابتهاجى ، فأعِينونى بقوة ما استطعتم ، وأَقْطِعونى من مَدَدِكم ما قطعتم ، وآتونى بذلك كله إعانةً وسدًا . وإلا فها هُو بين يديكم ، ففِكُّوا غَلْقه ، واسرُدوا خَلْقه ، واجمعوا مُضَغه المتباينة وعَلْقه ، حتى يستقيم جسدًا قايماً بذاته ، متَّصفاً بصفاته المذكورة ولذَّاته ، قايلا بتسلِّيه أسلوباً مُصحفاً كان أو مقلوباً . وإن تـأبَّ عليكم وتمنَّع ، وأدركه الحياء [فتستَّر][(٢)] وتقنَّع ، وضرب على آذان

(١) هذا البيت وارد فى الإسكوريال وساقط فى الزيتونة .
(٢) زائدة فى الزيتونة .

الشُّهدا ، وربط على قلوبهم من الإرشاد له والاهتِدا ، فابْعَثوا أحدكم إلى المدينة ليسأَل عنه خَدينه :

أُحاجى ذوى العِلم والحلم ممن ... ترى شُعْلة الفهم من زَنْده
عن اسم ٍ هو الموت مهما دنا ... وإن بات يُبْكَى على فقده
لذيذٌ وليس بذى طعم ... ويُومر بالغُسْل من بعده
وأَطيبُ ما يَجْتنيه الفتى ... لدى ربّة الحسن أَو عَبده
مضجعه عُشْر الثلث فى حساب ... المُصْحف من خـــدِّه
وإِن شِيت قُل مَطْعَمٌ ذمَّـه ... الرسول وحضَّ على بُعده
وقد جاءَ فى الذِّكر إخراجه ... لقوم نَبِى على عهـده
وتصحيف ضِدٌّ له آخر ... يُبارك للنَّحل فى شَهْده
وتصحيف مَقْلُوبه ربّـه ... تردَّد من قبل فى رِدِّه
فهاكم معانيه قد بدَتْ ... كنارُ الكريم على نَجْده

وكتب للولد أَسعده الله ، يتوسل إليه ، ويروم قضاءَ حاجته :

أَيها السيد العزيز تصدَّق ... فى المقام العلىِّ لى بالوسيلة
عند ربِّ الوَزارتين أَطال الله ... أَيـامه حسـاناً جميـلة
علَّه أَن يجيرنى من زمـان ... مسَّنى الضُّر من خُطاه الثَّقيلة
واستطالت علىَّ بالنَّهب جوراً ... من يديه الخفيفة المُسْتَطيلة
لم تَدَعْ لى بضاعة غير مُزْجاة ... ونَزْرٍ أَهْـوَن بـه من قليله
وإذا ما وفَّى لى الكَيْل يوما ... حَشَفًا ما يُكيله سوء كيلـه
فشفى بى غَليله لا شفى بى ... دون ابنايه الجميع غَليلـه
من هٰذا الزمان مُذْ نال منِّى ... ليس لى بالزمان والله حِيلة
غير أَن يَشْفع الوزير ويَدْعى ... عبده أَو خَدِيـه أَو خليله

دُمْتَ يا بن الوزير في عِزِّك السامى ودامت به الليالى[1] كفيلة

سيدى الذى بعزّة جاهه أَصُول[2]، وبتوسُّلى بعنايته أَبلُغُ المأْمول والسُّول، وأروم لما أنا أَحُوم عليه الوصول، ببركة المَشْفُوع إليه والرسول، المرغوب من مجدك السَّامى الصريح، والمؤمَّل من ذلك الوجه السَّنِى الصبيح، أَن تقوم بين يدى نَجْوى الشَّفاعة، هذه الرُّقاعة، وتُعين بذاتك الفاضلة النفَّاعة، من لسانك مِصْقاعة، حتى يَنْجلى حالى عن بَلْج، وأتنسَّم من مهبَّات القبول طيب الأَرَج، وتتطلع مُسْتَبْشِرات فَرْحَتى من ثَنيَّات الفَرَج، فإن سيِّد الجماعة الأَعلى، وملاذ هذه البَسِيطة وفحْلَها الأَجْلى، فَسَح الله تعالى فى ميدان هذا الوجود بوجُوده، وأَضفى على هذا القُطْر ملابس السَّتر برأيه السديد وسُعوده، وبلَّغه فى جميعكم غاية أمله ومقصوده، قلما تَضيع عنده شفاعة الأَكبر من ولده، أو يَخيب لديه من توسَّل إليه بأَزكى قِطَع كَبِده، وبحقك أَلا ما أَمرت هذه الرُّقعة بالمثول بين يدى ذلك الزَّكى الذَّات الطاهر البُقْعة، وقل لها قبل الحلول بين يدى هذا المولى الكريم، والمَوْئِل الرحيم، بعظيم التوقير والتَّبجيل، واعلمى يا أَيتها السايل، أن هذا الرجل هو المؤمَّل، بعد الله تعالى فى هذا الجيل، والحجَّة البالغة فى تبليغ راجيه أَقصى ما يؤملونه بالتعجيل، وخاتمة كلام البلاغة، وتمام الفصاحة، المُوقَف عليه ذلك كله بالتَّسجيل، وغُرَّة صفح دين الإسلام المؤيدة بالتَّحْجيل. وهذا هو مَدُبِّر فلك الخلافة العالية بإيالته، وحافظ بَدْر سمايها السامية بهالته، فقِرِّى بالمثول بين يديه عيناً، ولقد قضيتُ على الأَيام بذلك دَيْناً، وإذا قيل ما وسيلة

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال. وفى الزيتونة (الأيام).

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال. وفى الزيتونة (أطول).

مُؤَمِّلك ، وحاجة مُتوسِّلك ، فوسيلته تشيُّعه فى أهل ذلك المعنى ، وحاجته يتكفَّل بها مجدكم الصميم ويُغْنى ، وليست تكون بحُرْمَة جاهكم من العرَض الأدنى ، وتَمَنَّ فإنَّ للإنسان هنالك ماتَمَنَّى ، وتولَّى تكليف مرسلى بحسب ما وَسِعكم ، وأنتم الأَعْلون ، والله معكم . ثم اثْن العِنان ، والله المستعان ، وأَعِيدى السلام ، ثم عودِى بسلام .

وخاطب قاضى الحضرة ، وقد أنكر عليه لباس ثوب أصْفَر :

أَبقى الله المثابَة العليَّة ، ومَثَلُها أَعْلى ، وقِدْحُها فى المَعْلُوَّات المُعَلَّى ، مالها أَمَرَت ، لا زالت بركاتُها تَنْثال ، ولأَمرٍ ما يجب الامتِثال ، بتَغْيير ثوبى الفاقِع اللون . وإحالته عن مُعتاده فى الكُون ، وإلحاقه بالأَسود الجُون أَصْبُغه حِداداً ، وأيام سيدى أيام سُرور ، وبنو الزمان بِعدْله ضاحكٌ ومَسْرور ، ما هكذا شِيمَةُ البَرُور ، بل لو استطعنا أَن نَزْهو له كالميلاد ، ونتزيا فى أيامه بزِى الأَعْياد ، ونرفُل من المشروع فى مُحْبر ومَوْرُوس ، ونتجلَّى فى حُلل العَرُوس ، حتى تَقرَّ عينُ سيدى بكتيبة دِفاعه ، وقيمة[1] نوافله وإشْفاعه ، ففى عِلم سيدى الذى به الاهتداء ، وبفضله[2] الاقتداء ، تفضيل الأَصْفَر الفاقع ، حيثما وَقَع من المواقع ، فهو مهما حَضَر نزهة الحاضرين ، وكفاه فاقعٌ لونها تسرُّ الناظرين . ولقد اعْتَمَّه جبريل عليه السلام ، وبه تطرَّز المُحْبرات والأَعلام ، وإنه لزِىُّ الظُّرفاء ، وشارة أهل الرِّفاء ، اللهم إلا إن كان سيدى ، دام له[3] البقاء ، وساعده الارتقاء ، يُنهى أَهل التَّبريز ، عن مقاربة لون الذهب الإبريز ، خيفة أَن تَميل له منهم ضريبة . فيزنُّوا بريبة ، فَنعْم إذاً ونُعمى عين ، وسمعاً وطاعة لهذا الأَمر الهيِّن اللَّين ، أَتْبَعْك لا زيداً وعمراً ، ولا أعصى لك أمراً ، ثم

---

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (قيم) .

(٢) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (بعلمه) مرة أخرى والأولى أرجح .

(٣) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (أدام الله له) .

لا أَلبس بعدها إلا طَمْراً ، وأَتجرَّد لطاعتك تَجْريداً ، وأَسلك إِليك فقيراً ومزيداً ، ولا أَتعرَّض للسُّخط بلِبْس شَفيف ، استنشق هَباه ، وأَلبس عَباه ، وأَبرأ من لِباس زِى يُنشئ عِتابا ، يلقى على لسانٍ مثل هذا كِتابا ، وأَتُوب منه مَتابا ، ولولا أَنى الليلة صِفر اليدين ، ومُعْتَقل الدَّيْن ، لباكَرْت به من حانوت صَبَّاغ رأْس خابِية ، وقاع مظلمة جابية ، فأُصيِّره حالكاً ، ولا أَلبسه حتى استَفْتى فيه مالِكاً ، ولعلى أَجِدُ فأُرضى سيدى بالتَّزيِّ بشارته ، والعمل بمقتضى إشارته ، والله تعالى يُبقيه للحسنات ، يُنَبِّه عليها ، ويومى بعمله(١) وحظِّه إليها ، والسلام .

وخاطبنى وقد قَدِم فى شهادة المواريث بحضرة غرناطة :

يا منتهى الغايات دامت لنا غايتك القُصْوى بلا فَوْت
طلبتُ إحيائى بكم فانتهى من قَبْله حالى إلى الموت
وحقِّ ذلك الجاهِ جاه العُلا لامِتُّ إلا أن أَتى وقت

مولاى الذى أَتأَذَّى(٢) من جَوْر الزمان بذِمام جلاله ، وأَتعوَّذ من نَقْص شهادة المواريث بتمام كماله ، شهادةً يأْباها المُعْسر والحيُّ ، ويوَدُّ أَن لا يوافيه أَجله عليها الحىُّ ، مُناقِضة لما العَبْدُ بِسَبيله ، غير مُربح قَطْمِيرُها من قليله ، فإن ظهر لمولاى إعفاء عَبْده ، فمن عِنده . والله تعالى يُمتِّع الجميع بدوام سَعْده ، والسلام الكريم ، يختص بالطاهر من ذاته ومجده ، ورحمة الله وبركاته ، من عبد إنعامكم ابن الفصَّال لطف الله به :

قد كنت أَسترزق الأَحياءمارزقوا شيئا ولا وفَّونى بعض أَقوات
فكيف حالى لمَّا أَن شكوتهم رجعت أَطلب قُوتى عند أَموات

والسلام يعود على جَناب مولاى ورحمة الله وبركاته :

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بعلمه) .
(٢) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (اتلذذ) والأولى أرجح .

وخاطب أحد أصحابه ، وقد استَخفى لأمر قُرف به ، برسالة افتتحها بأبيات على حرف الصاد ، أجابه المذكور عن ذلك بما نصُّه ، وفيه إشارة لغَلَط وقع فى الإعراب :

يا شُعلةً من ذكاءٍ أرسَلَت شررا | إلى قريبٍ من الأرجاءِ بعد قَصِ
وشبهةً حملت دعوى السِّفاح على | فحلٍ يليق به مضمونها وَخِص
رحماك بى فلقد جرَّعتنى غُصصا | أثار تعريضُها المكتوم من غَصِ
بلَيْتَنى بنكْأَة القَرْح فى كبدى | كمِثْل مرتجف المجذوم بالبَرَصِ

أيها الأَخ الذى رَقى ومسح ، ثم فَصَح . وغشَّ ونَصح ، ومَزّق ثم نَصح ، وتلاعب بأطراف الكلام المشقَّق فما أفْصَح . ما لسحَّاتك ذات الجيد المنصوص ، توهم سِمَة الوُدِّ المرصوص ، ثم تعدل إلى التأْويلات عن النُّصوص ، وتُونس على العموم ، وتُوحش على الخصوص ، لا درّ درُّه من باب برٍّ ضاع مفتاحه ، وتأْنيس حرٍّ سبق بالسجن استفتاحه ، ومن الذى أنهى إلى أخى خبر ثِقافى ، ووثيقة تحبيسى وإيقافى . وقد أَبى ذلك سَعْدٌ فرعُه باسق ، وعزٌّ عِقده متناسق . ويا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق [بنبأٍ][(1)] ، بل المثوى والحمد الله جنَّات وغُرف . والمُنْتهى مجد وشرف ، فإن كان وليِّى مكترثاً فيحق له السُّرور ، أو شامِتاً ، فلى الظِّل وله الحَرور . أنا لا أَزِنُّ والحمد لله بها من هناه ، ولما أَدين بها من عزِّى ومُناه ، ولا تمرُّ لى ببال فلست بذى سيف . ولست بنكال نفسى أرقَّ شيمة . وأكرم مَشِيمة ، وعينى أَغْزَرُ دِيمَة ، لو كان يُسئل لِسان عن إنسان . أو مُجاولته بملعبه خِوان ، أَوقفنى إخوان لا بمأزق عُدوان ، لارتسمتُ منه بديوان . لا يُغنى

---

(١) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة . وساقطة فى الإسكوريال .

فى حربٍ عَوان . عين هذا الشكل والحمد لله قُراره ، وعنوان هذا الحدّ غراره . وأما كونى من جملة الصُّفرة . ومُن أجهز سيدى الفَقار على ذى الفقرة ، فأُقسم لو ضُرب القتيل ببعض البَقرة ، لتعين مقدار تلك الغَمْرة . اللهم لو كنتُ مثل سيدى ممن تتضاءل النخلة السَّحوق لقامته ، ويعترف[١] عوجُ لديه بتَماءته ودَمامَته . مُقبل الظَّعن كالبُدور فى سحاب الخُدور ، وخليفة السَّيد الذى بلغت سراويله تندُوة العدوِّ الأَيِّد . لطُلْت بباع مديد ، وساعدنى الخَلْق بساعد شديد . وأنا لى جسم شحت ، يحف به بخت ، وحَسْبُ مثلى أن يعلم فى ميدان هوى ، تُسَلُّ فيه سيوف اللِّحاظ على ذوى الحِفاظ ، وتشرع سيوف القُدُود . إلى شَكاة الصُّدود[٢] ، وتسطو أُولو الجُفون السُّود بالأُسُود ، فكيف أخشى تَبِعَةً تَزِلُّ عن صفاتى ، وتنافى صفاتى ، ولا تطمع أسبابها فى التلاقى ، ولا تستعمل فى حربها قَنا أَلفاتى . والله يشكر سيدى على اهْتِباله . ويحل كريم سِباله ، على ما ظهر لأَجلى من شَغَف باله ، إذ رَفَع ما يُنصب ، وغيَّر ما لو غيَّره الحجاج ، لكان مع الهيبة يُحصب[٣] ، ونكَّت بأن نَفَقت بالحظ سوقى . وظهر لأَجله فُسوقى[٤] ويا حبَّذا هو من شَفيع رَفيع ، ووسيلة لا يخالفها الرَّغْىُ ، ولا يخيب لها السَّعى . ولله دَرُّ التمايل .

لله بالإنســان فى تعليمـه ... بوساطة القلم الكريم عناية
فالخطُّ خطٌّ والكتابة لم تزل ... فى الدهر عن معنى الكمال كِناية

وما أقرب يا سيدى هذه الدعوى لشهامتك ، وكِبرَ هامَتِك :

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (يفترف) والأولى أرجح .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (الصعود) .
(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بصب) وهو تحريف .
(٤) هكذا فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (بسوق) .

لو كنت حاضرهم بخندق بَلْج ... ولحمل ما قد أبرموه فصال
لخُصِصْتَ بالدعوى التى عُمُّوا بها ... ولقيل[1] فصلٌ جَلاه الفصال
وتركت فرعون بن موسى عِبْرةً ... تتقدَّمَنْه بسيفه الأوصال

فاحْمَد الله الذى نجَّاك من حضور ولِيمتها ، ولم تشهد يوم حَليمتها .

وأما اعتذارك عمَّا يقِلُّ من تفقُّد الكَنْز ، ومُنْتَطح العَنْز ، فورعٌ فى سيدى أَتمُّ من أن يُتَّهم بغَيْبة ، ولسانُه أَعفُّ من أن يُنسب إلى ريبة ، لما اتَّصل به من فَضْل ضريبة ، ومقاصدٍ فى الخير غريبة ، إنما يستخفُّ سيدى أفْرط التُّهم ، رَمىْ العوامل بالتُّهم ، فيجرى أصحَّ مَجْرى أُختها ، ويُلبسها ثياب تَحْتها ، بحيث لا إِثْم يتَرَتَّب ، ولا هو ممن تَغْتِبه ، وعلى الرجال فجِنايَتُه عذبة الجِناء ، ومقاصده مُسْتَطْرفة[2] لفَصْح أَو كِنى . أبقاه الله رب نُفاضة وجَرادة ، ولا أَخلى مِبْرَدَه القاطع من بِرادة ، وعوَّده الخير عادة ، ولا أعْدَمه بركة وسعادة ، بفضل الله . والسلام عليه من وليِّه المستزيد من وَرْش[3] وَلْيه ، لا بل من قَلايد حَلْيه . محمدبن فركون القرشي . ورحمة الله وبركاته

فراجعه المترجم بما نصه ، وقد اتُّهم أن ذلك من إملائى :

يا مُلْبِس النُّصح ثوب الغِشِّ مُتَّهما ... يلوى النَّصيحة عنه غير مُنْتَكِص
وجاهلا باتخاذ الهزْل مأْدُبة ... أَشدَّ مايُتَوقى محمل الرَّخص
نصحتُه فَقَصانى فانقلبتُ إلى ... حال يُغَصُّ بها من جُملة الغُصَص
بالأَمس أنكرتُ آيات القِصاص له ... واليوم يُسْمع فيه سورة القَصَص

ممَّن استَعرت يابابليَّ هذا السِّحر ، ولم تسكن بناصِية السحر ، ولا

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (ولقلت) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (مستظرفة) .
(٣) وردت فى الإسكوريال (رش) . وفى الزيتونة هكذا (لورش) . والتصويب يحمل معنى مناسبا .

أعملت إلى بابل هاروت امتِطاءَ ظَهر ، ومن أين جيت بقلايد ذلك النَّحر ، أَمِنَ البحر ، أو مما وراءَ النهر . ما لمثل هذه الأَرْيَحِيَّة الفائقة ، اسْتَنْشَقْنا مهبَّك ، ولا قَبْل هذه البارقة الفايقة ، استكثرنا غيَّك . يا أيها الساحر ادعُ لنا ربَّك . أأضغاث أحلام ماتُريه الأَقلام ، أم فى لحظة تَلِدُ الأَيام ، فرايِد الأَعلام . لقد عَهِدت برَبْعك مُحسن دُعابة ، ما فَرَعت شعابه ، أو مُصيباً فى صُبابة ، ما قرعتُ بابه ، ولا استرجعت قبل أن أغْبُر عُبابه . اللهم إلاَّ أن تكون تلك الآيات البيِّنات ، من بنات يراعتك ، لا بَراعتك ومُغْتَرِسُ تلك الزُّهر ، الطالعة كالكواكب الزُّهر ، مختلَسُ يدِ استطاعتك ، لا زراعتك ، وإلا فنطَّرح مصايد التعليم والإنشاء ، وننتظر معنى قوله عزَّ وجلَّ ، يؤتى الحكمة من يشاء ، أو نتوسَّل فى مقام الإلحاح والإلحاف . أن ننقل من غايلَة الحَسَد إلى الإنصاف ، وحَسْبى أن أطلعتُ بالحديقة الأَنيقة ، ووقفتُ من مُثلى تلك الطَّريقة على حقيقة ، فأَلفيتُ بها بيانا قد وضَح تِبياناً أو أطلق عنانا ؛ ومحاسنَ وجَدَتْ إحسانا ، فتمثَّلت إنسانا ، سرَّح لسانا ، وأجهد بنانا ، إلاَّ أنَّ صادِح أَيْكتها يتململ فى قَيْظ ، ويكاد يتميَّز من الغيظ ، فيفيض ويغيض ؛ ويهيض وينهض ، ثم يهيض ، ويأْخذ فى طويل وعريض ، بتَشْبيب وتعْريض ، ويتناهض فى ذلك بغير مَهيض ، وفاتن كمايمها[١] تَسَلُ عن الصَّادح ، ويتلقَّف عُصا استعجاله ما يُفكِّه المادح ، ويحرق بناره زَند القادح ، ويتعاطى من نفسه بالإعجاب ، ويكاد ينادى من وراء حِجاب ، إن هذا لشيىءٌ عُجاب . إيه بغير تَمْويه ، رجع الحديث الأَول ، إلى [ما عليه المُعَوَّل][٢] ، لا درَّ درُّها من نصيحة غير

---

(١) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (كمايمها) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة كالآتى (ما اليه أمل)

صحيحة ، ووصيَّة مودَّة صريحة ، تعلقت بغير ذى قريحة ، فهى استعجلتنى بداهِية كاتب ، واستِطالة ظالم عاتِب [قدسلَّ مُرْهَفه واستنجد مُتْرَفه][(١)] ، وجهَّزها نحو كتيبَتِه تُسفر عن تَحجيل ، بغير تَبْجيل [وسحابةسِجلٌ ترْمى بسِجِّيل][(٢)] ما كان إلاَّ أن استَقَلَّت ، وَرَمَتْنِى بدائها وانسلَّت ، وألقت ما فيها وتخلَّت ، فحَسْبِى الله ، تُغلِّب على فَهْمى ، ورُمِيت بسَهْمى ، وقُتِلت بسلاحى ، وأُسْكِرت براحى ، بُريت برُيت ، مما به دُهيت ، أَنت أبقاك الله لم تَدْن[(٣)] بها منى منالاً وعِزّا ، فكيف بها تنسب إلىَّ بَعْدك وتُعزا ، نفسى التى هى أَرقُّ وأَجدَرُ بالمعالى وأَحقُّ ، وشكلى أَخفُّ على القلوب وأَدقُّ ، وشمايلى أَملك فلا تُسْتَرق ، ولسانى هو الذى يُسْئل فلا يُمَل ، وقَدْرى يُعزَّه ويُجل ، عما فَخَرْت أَنت به من مَلْعب مايدة ، ومجال رِقاب مُمَايدة ، فحاشَى سيدىأَن يقع منه بذلك مَفْخر ، إلا أَن يكون يَلْهُوويَسْخَر ، ومَوْجُ بَحْرِه بالطَّيِّب والخبيث[(٤)] تَزْخر ، وعَيْنُ شكلىَ هى بحمد الله ، عينُ الظَّرف[(٥)] المُشار إليه بالبَنان والطَّرف . وأَما تعريض سيدى بصِغر القامة ، وتكْبِيره لغير إقامة ، فمُطَّرد قول ، ومُدامة غَوْل ، وفريضةٌ[(٦)] نشأَ فيها عَوْل ، إذ لا مبالاة تجسم كاينا ما كان ، أَو ما سمعت أَن السِّر فى السُّكان ، وإنما الجَسَد للرُّوح مكان [ولم يبق إليه فقد يروح][(٧)] ، وقد قال ، ويسئلونك

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة كالآتى (قد فلى مذهبه واستنجد مضربه) .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال . ووردت فى الزيتونة كالآتى (وسحابة بسجيل ترمى بتعجيل) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (تدر) .

(٤) هذه الكلمة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الزيتونة .

(٥) واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الزيتونة .

(٦) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (فراضة) .

(٧) هكذا وردت هذه العبارة فى الزيتونة ، وفى الإسكوريال (ولم ين اليه بعد مروح) .

عن الرُّوح ، والمرءُ بقلبه ولسانه ، لا بمُسْتَظْهر عِيانه ، ولله درُّ القايل :

لم يُرضنى أنى بجسم هايل ... والرُّوح ما وفَّت له أغراضه

ولقد رَضِيت بأنَّ جسمى ناحل ... والروح سابغة به فِضْفاضة

ولما وقَّع سيدى بمكتوبى على المرفوع والمنصوب ، وظَفِرت يده بالمغْصُوب ، والباحث المغْصُوب ، لم يُقلها[1] زلَّة عالم . وإنى وقد وجدتها مُنْيَة حالم ، فعدَّد وأعاد ، وشدَّد وأشاد ، هلاَّ عَقِل ما قال ، وعلم أن المَقِيل سيكون مقال ، [وزلة العالم لا تُقال][2] وأن الحرب سجال . وقبضة غيره هو المُتَلاعب فى الحجال[3] ، وبالجملة فلك الفضل يا سيدى ، ما اعتُنى بمعناك ، وارتفع بين مغانى الكرام مَغْناك ، فمدة ركوبك الحُمْران[4] لا تُجارى : ولا يشقُّ أحد لك غُبارا . أبقاك الله تحفظ عُرى هذا الوِداد ، ويشمل الجميع بركة ذلك النَّاد ، والسلام عليك من ابن الفصَّال ، ورحمة الله وبركاته .

وجَعَلا إلىَّ التَّحكيم ، وفوَّضا لنظرى التَّفضيل فكتبتُ :

بارِك عليها بذكر الله من قَصَص ... واذكر ما أتى فى سورة القَصَص

حيث اغْتَدى السِّحر يلهو بالعقول ... وقد أحال بين حال كَيْده وعَصِ

عقايل العقل والسحر الحلال قوتٌ ... من كافل الصَّون بعد الكون جحروَص

وأقْبَلت تتهادى كالبُدور إذا ... بسِحْرٍ من فَلَكِ النُّذور فى حِصص

من للبدور وربَّات الخدور بها ... المِثْل غير مضيع والمِثْلان عص

ما قُرصة البدر والشمس المنيرة أن ... قِيسَت بمن سوى من جُملة القُرص

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (يلقها).

(٢) هذه العبارة واردة فى الزيتونة وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (المجال).

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين .

تالله ماحُكْمُها يوما بمُنْتَقَض كلاَّ ولا بدرها يوما بمُنْتَقَص
إن قال حُكْمى فيها بالسَّواد فقد أَمِنْتُ مايَحْذَر القاضى من الغُصَص
أو كنت أرْخَصْتُ فى التَّرجيح[1] مجتهداً لم يقبل الورع الفُتْيا مع الرُّخَص

يا مُدْلج ليل التَّرجيح قِف ، فقد خَفِيت الكواكب . ويا قاضى طَرْف التَّحسين والتَّقبيح . تسامَت والحمد لله المناكب ، ويا مُسْتَوكف خَبر الوقيعة من وراء أقتام القِيعة[2] ، تَصالحت المواكب . حَصْحَص الحقُّ فارتفع اللُّجاج ، وتعارضت الأَدلَّة فسقط الاحْتِجاج ، ووضعت الحرب أوزارها فسكن العَجاج ، وطاب نَحْل الأَقلام بأَزهار الأَحلام ، فطاب المُجاج ، وقلَّ لفرعون البيان وإن تألَّه ، وبلَّد العقول وبلَّه ، وولَّى بالغرور ودلَّه . أوسع الكَنايِن[3] نَثْلا ، ودونك أَيِّدا شَثْلا ، وشَحْرا حثلا ، لا خَطْما ولا أثلا . إن هذان لساحران إلى قوله . ويذهبا بطريقتكم المثلى . وإن أثرت أَدَب الحليم مع قصَّة الكَلِيم[4] . فقل لمُجْمِل جياد التَّعاليم ، وواضع جغرافيا الأقاليم ، انْدَلُسا ما عَلِمت بلد الأَجَم ، لا سُود العَجم ، ومداحض السُّقوط ، على شوك قَتاد القُوط ، ولم يَدْر إن محل ذات العجايب والأَسرار ، التى تُضرب إليها أباط النُّجاب فى غير الإقليم الأَول . وهذا الوطن بشهادة القَلْب الحُوَّل . إنما هو رسمٌ دارس ، ليس عليه من مُعوَّل. فهنالك يتكلم الحق فيُفصح ويُعجم ، ويرد المَدَد على النفوس الجريئَة ، من مطالع الأَضواء[5] فيحدِّث ويُلهم ، ويجود خازن الأَمداد ، على

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (التخريج) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الوقيعة) مرة أخرى .
(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الكنى) .
(٤) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الحكيم) .
(٥) كذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الأصول) .

المُتَوسِّل بوسيلة الاستعداد ، فيقطع ويُسهم . وأما إقليمنا الرابع والخامس ، بعد أن تكافأت المناظر والمَلامِس ، وتَناصف الليل الدَّامس واليوم الشَّامس ، باعتدال ربيعي ، ومجرًى طبيعي ، وذكيٌّ بليد ، ومعاش وتَوْليد ، وطَرِيف فى البداوة وتَليد ، ليس به بِرباه ولا هَرَم ، يخدم بها دربٌ مُحترم ، ويشبُّ لقرياته حُرم ، فيفيد روحانيا يتصرف ، وريبساً يتعرَّض ويتعرَّف ، كلما استنزل صاب[١] ، وأعمل الانتصاب ، وجَلب المآرب ، وأذهب الأَوصاب ، وعلم الجواب ، وفهم الصواب . ولو فرضنا هذه المدارك ذوات أمثال ، أو مَسْبُوقة بمثال ، لتلقينا منشور القضاء بامتثال ، لاكِنَّا نخاف أن نميل بعض الميل . فنَجْنِى بذلك أبخس الجرى وإرضا الذَّميل ، ونجرَّ تنازُع الفِهْرى مع الصُّميل . فمن خيَّر ميَّز ، ومن حَكَم أُزرى به وتُهكِّم ، وما سلَّ سيوف الخوارج فى الزمن الدَّارج ، إلا التَّحكيم ، حتى جَهِل[٢] الحكيم ، وخلع الخِطام[٣] ، ونزع الشَّكيم ، وأضرَّ بالخلق نافع ، وذهب الطفل لجراه واليافع ، وذم النِّمام ورُدَّ الشَّافع ، وقَطَر سيف قَطْرى بكل نجيع طرى ، وزار الشَّيب الأَسد الهصور ، وصلَّت الغزالة بمسجد الثَّقفى وهو محصور ، وانتُهبت المقاصير والقُصور ، إلا أن مُستأْهل الوظيفة الشَّرعية ، عند الضرورة يُجبر ، والمُنْتَدب للبرِّ مُحيي عند الله ويُجبر ، واجعلنى[٤] على خزائن الأَرض ، وهو الأَوْضح والأَشهر ، فيها به يُسْتَظهر . وأنا فإن حكمتُ على التَّعجيل ، فغير مُشْهِد على نفسى بالتَّسْجيل ، إنما هو تَلْفيق يرضى وتَطْفيل ، يُعْتَب عليه من تصدَّع بالحق ويمضى إلا أن

---

(١) كذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الصاب) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (سجل) .

(٣) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الحصام) .

(٤) هكذا فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (وجعلنى) .

يُغْضى ، ورأْيِي فيها المراضاة والاستِصْلاح ، وإلا فالسِّلاح والرُّكاب الطلاَّح ، والصلح خير ، وما استُدفع بمثل التَّسامح ضَير . ومن وقف عليه ، واعْتَبر مالديه ، فليعلم أَنى صَدَعْتُ وقطعتُ ، والحقُّ أَطعتُ ، وإن أُريد إلاَّ الإصلاح ما استطعتُ ، والسلام .

عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر ابن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمى

من ذرِّية عثمن أَخى كُرَيب المذكور فى نُبهاء ، ثوار الأَندلس .وينتسب سلفُهم إلى وائل بن حُجْر ، وحاله عند القُدُوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم معروف .

أَوليته

قد ذُكر بعضٌ منها . وانتقل سلفه من مدينة إشبيلية عن نَباهة وتَعيُّن وشهرة عند الحادثة بها ، أَو قبل ذلك ، واستقرَّ بتونس منهم ثالث المحمدين ، محمد بن الحسن ، وتناسلوا على سَراوة وحِشمة ورسوم حسنة ، وتصرَّف جدُّ المترجم به لملوكها فى القيادة

حاله

هذا الرجل الفاضل حسن الخلق ، جم الفضائل[1] باهر الخَصْل ، رفيع القَدْر ، ظاهر الحياء ، أَصيل المجد ، وقور المجلس ، خاصِّى الزِّى ، عالى الهمة ، عَزُوف[2] عن الضَّيْم ، صعب المَقادة ، قوى الجأْش ، طامحُ

(١) وردت فى الإسكوريال (الفضل) والتصويب من النفح .

(٢) وردت فى الإسكوريال (عزوب) وهو تحريف .

لِقُنَن الرياسة ، خاطبٌ للحظٍّ ، متقدم في فنون عَقْلية ونَقْلية ، متعدِّد المزايا ، سديد البحث ، كثير الحفظ ، صحيح التَّصوُّر ، بارع الخط ، مُغْرىً بالتجلَّة ، جَواد الكفِّ ، حسن العشرة ، مَبْذول[1] المشاركة ، مقيم لرسوم التَّعين ، عاكف على رَعْي خِلال[2] الأَصالة ، مَفْخرة من مفاخر التُّخوم المغْرِبية .

مشيخته

قرأ القرآن ببلده على المُكَتِّب ابن برال . والعربية على المقْرى الزواوى وابن العربى ، وتأَدَّب بأَبيه ، وأَخذ عن المحدث أَبي عبد الله بن جابر الوادى آشى ، وحضر مجلس القاضى أَبي عبد الله بن عبد السلام ، وروى عن الحافظ عبد الله السَّطى ، والرئيس أَبي محمد عبد المهيمن الحَضْرمى ، ولازم العالم الشهير أَبا عبد الله الآبلى ، وانتفع به .

توجهه إلى المغرب

انصرف عن إفريقية مَنْشئه ، بعد أَن تعلَّق بالخدمة السلطانية على الحَداثة وإقامته لرسم العَلامة بحكم الاستِنابة عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة . وعُرِف فضله ، وخَطَبه السلطان مُنْفِق سوق العلم والأَدب أَبو عِنان فارس بن على ابن عثمن ، واستَقْدَمه ، واستَحْضَره بمجلس المذاكرة ، فعَرَف حقه ، وأَوْجَب فضله ، واستعمله فى الكتابة أَوائل عام ستة وخمسين ، ثم عظُم عليه حَمْلُ الخاصَّة من طَلَبة الحَضْرة لبعده عن حسن التأَنِّى ، وشفُوفه بثُقوب الفهم ، وجودة الإدراك ، فأَغروا به السلطان إغراءً عضده ما جُبِل عليه عندئذ من إغفال التَّحفُّظ ، مما يريب لديه ، فأَصابته شدَّة تخلَّصه

(١) وردت فى الإسكوريال (بذول) . والتصويب من النفح .

(٢) وردت فى الإسكوريال (طلل) وهو تحريف .

منها أجله ، كانت مُغَربة فى جماء ذلك الملك ، وهَناة جواره ، وإحدى العواذل لأولى الهوى فى القول بفضله ، [واستأثر به الاعتقال باقى أيام دولته على سُنَن الأشراف من الصَّبر][(١)] وعدم الخُشوع ، وإهمال التوسُّل ، وإبادة المكسُوب فى سبيل النَّفقة ، والإرضاخ على زمن المحنة ، وجارِ المنزل الخشن ، إلى أن أفضى الأمر إلى السَّعيد ولده ، فأَعْتَبَه قيِّم الملك لحينه ، وأعاده إلى رسمه . ودالت الدولة إلى السلطان أبى سالم ، وكان له به الاتصال . قبل تسوُّغ المحنة[(٢)] ، بما أكد حُظْوته ، فقلَّده ديوان الإنشاء مُطْلَق الجرايات ، محرَّر السِّهام ، نَبيه الرُّتبة ، إلى آخر أيامه . ولما ألقت الدولة مَقادها بعده إلى الوزير عمر بن عبد الله ، مُدَبِّر الأَمر وله إليه [قَبْل ذلك][(٣)] وسيلة ، وفى حَليه[(٤)] شركة ، وعنده حق رابَه تقصيرُه ، عما ارتمى إليه أمَلَه ، فساءَ مابينهما إلى أن آل إلى انفصاله عن الباب المرينى .

دخوله غرناطة

ورد على الأندلس فى أوائل شهر ربيع الأَول من عام أَربعة وستين وسبعماية ، واهتَزَّ له السلطان . وأَرْكَب خاصَّته لتلقِّيه ، وأكرم وفادته ، وخلع عليه ، وأَجْلَسَه بمجلسه الخاص . ولم يدَّخر عنه برا ومؤاكله ومُطايبة وفكاهة .

وخاطبنى لما حل بظاهر الحضرة مخاطبة لم تحضرنى الآن

فأجبته عنها بقولى :

حلَلْت حلول الغيث فى البلد المحْل … على الطائر الميمون والرَّحب والسَّهل

(١) هذه العبارة واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى النفح .
(٢) وردت فى الإسكوريال (المتيحة) . والتصويب من النفح .
(٣) هذه الزيادة واردة فى الإسكوريال ، وساقطة فى النفح .
(٤) هكذا وردت فى النفح ، وفى الإسكوريال (جلبه) .

يميناً بمن تَعْنُوُ الوجوه لوجهــه من الشيخ والطفل المهدَّإ[1] والكهل
لقد نَشَأَتْ عندى للُقْياك غبطـة تُنْسى اغتباطى بالشَّبِيبة والأَهل

أَقسمت بمن حجّت قريش لبيته ، وقبرٍ صرفت أَزمة الأَحياءِ لميته ، الذى زيارته الأُمنية السَّنيَّة ، والعارفة الوارفة ، واللطِيفة المُطِيفة ، بين رَجْع الشَّباب يَقْطُر ماءً ، ويرِفُّ نماءً ، ويُغازل عُيون الكواكب ، فضلا عن الكواعب ، إشارةً وإيماءً ، بحيث لا الوَخْط يَلم بسِياج لِمَّته ، أَو يقدح ذُبالة فى ظُلمته ، أَو يقوم حواريُّه فى ملَّته ، من الأَحابش وأُمته ، وزمانُه روح وراح ، ومَغْدى فى النَّعيم ومَراح ، وقصفٌ صراح ، ورُقًى وجراح ، وانتخاب واقتراح ، وصدورٌ ما بها إلا انشراح ، ومسرَّات تردفها أفراح . وبين قُدومك خليعَ الرَّسن ، ممتَّعاً والحمد لله ، باليقظة والوَسَن ، مُحْكما فى نُسْك الجنيد ، أَو فتك الحَسن ، ممتعا بظَرْف المعارف ، مالئاً أَكُفّ الصَّيارف ، ما حياً بأَنوار البراهين شُبَه الزَّخارف ــ لما اخترت الشَّباب ، وإن شاقنى زمنُه ، وأَعيانى ثَمنُه ، وأَجْرَتْ سحاب دمعى دِمَنُه . فالحمد لله الذى رقَى جنون اغترابى ، وملَّكنى أَزمَّة آرابى ، وغبَّطنى بمائى وترابى ، ومأْلَفِ أَتْرابى ؛ وقد أَغصَّنى بلذيذ شرابى ، ووقع على سطوره المعتبرة إضْرابى ؛ وعَجَّلت هذه مغُبَّطة بمناخ المطِيَّة ، ومنتهى الطِّية ، ومُلْتَقىً للسُّعود غير البطيَّة ، وتَهنِّى الآمال الوثيرة الوطيَّة ، فما شِئت من نفوس عاطشة إلى ريِّك ؛ متجمِّلةً بزِيِّك ، عاقلة خطى مُهْرِيِّك ، ومولى مكارمه نشيدةُ أَمثالك ، ومظانُّ مثالك ، وسيصدق الخبر ما هنالك ، ويسع فضل مجدك فى التخلُّف عن الأَصْحار ، لا بل اللقاءِ من وراءِ البحار ، والسَّلام .

ولما استقرَّ بالحضرة ، جَرَتْ بينى وبينه مكاتبات ،أَقطعها الظَّرف

---

[1] (١) هكذا وردت فى النفح ، وفى التعريف بابن خلدون ، ووردت فى الإسكوريال (المعصب) .

جانبه ، وأوضح الأدب فيها مذاهبه . فمن ذلك ما خاطبته به ، وقد تسرى جارية رومية إسمها هند [صبيحة الابتناء بها][(١)]

أوصيك بالشيخ أبي بكره لا تأمَنَنْ فى حالة مَكْره

واجتنب الشك إذا جئته جَنَّبك الرحمن ما تكره

سيدى ، لازلت تتَّصف بالوالج ، بين الخلاخل والدَّمالج ، وتركض فوقها ركض المهالج . اخبِرْنى كيف كانت الحال ، وهل حطَّت بالقاع من خير البِقاع الرِّحال ، وأحكم بمروَد المُراودة الاكْتِحال ، وارتفع بالسُّقيا الإمحال ، وصحَّ الانتحال ، وحصحص الحقُّ وذهب المُحال ، وقد طُولِعت بكل بُشرى وبِشر ، وزُفَّت هندٌ منك إلى بِشر ، فلَّله من عَشِيَّة تمَّت من الربيع بفرش مَوْشِيَّة ، [وابتُذِلت منها أى وساد وَحْشية][(٢)] وقد أقبل ظبى الكِناس من الدِّيماس ، ومطوق الحمَّام من الحمام ، وقد حسَّنت الوجه الجميل النَّظرية ، وأُزيلت عن الفرع الأثيث الأبرِية ، وصُقلت الخدود فهى كأنها الأمْرية ، وسُلِّط الدَّلك على الجلود ، وأغريت النَّورة بالشَّعر المولود ، وعادت الأعضاءُ يزلق[(٣)] عنها اللَّمس ، ولا تنالها البَنان الخمس ، والسِّحنة يجول فى صفحتها الفِضِّية ماءُ النعيم ، والمسواك يلبِّى من ثنِيَّة التَّنعيم ، والقلب يرى من الكفِّ الرّقيم بالمقعد المُقِيم ، وينظر إلى نجوم الوُشوم ، فيقول إنى سقيم . وقد تفتَّح ورد الخَفَر ، وحكم لزنجى الظَّفيرة بالظَّفَر ، واتصف أمير الحُسْن بالصُّدود المُغْتَفر ، ورُشَّ بماء الطيِّب ، ثم أغْلَق بباله دُخان العُود الرَّطيب . وأقْبَلَتْ الغادة

(١) هذه العبارة واردة فى النفح وساقطة فى الإسكوريال .

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الإسكوريال والزيتونة . ووردت فى النفح كالآتى (وابدلت منها أى آساد وحشيته) .

(٣) هكذا وردت فى النفح . وفى المخطوطين (يزل) والأولى أرجح .

يهديها اليُمن ، وتزفُّها السعادة ، فهي تمشي على استحياء ، وقد ذاع طيب الريَّا ، وراق حُسْن المُحيَّا ، حتى إذا نُزِع الخُفُّ ، وقُبِّلت الأَكُفُّ ، [وصَحِب المزمار][1] وتجاوب الدُّف ، وذاع الأَرَج ، وارتفع الحرَج ، وتجوَّز اللِّوا والمنعرج ، ونزل على بِشر بزيارة هند الفَرَج ، اهتزَّت الأَرض وربَت ، وعُوصيت الطِّباع البشرية فأَبَتْ . ولله در القائل :

ومرت فقالت متى نلتقى فهشَّ اشتياقاً إليها الخبيث
وكاد بمـزِّق سِربالـه فقلت إليكِ بُسـاق الحديث

فلما انسدل جَنح الظلام ، وانتَصَفت من غريم العِشاءِ الأَخيرة فريضة الإسلام ، وخاطت خيوط المنامِ ، عُيون الأَنام ، تأتى دُنوُّ الجلسة ، ومُسارقة الخِلسة ، ثم عضَّة[2] النهد ، وقُبله الفم والخد ، وإرسال اليد من النَّجد إلى الوَهْد ، وكانت الإمالة القليلة قبل المد ، ثم الإفاضة فيما يُغبط ويُرغب ، ثم الإماطة لما يُشوِّش ويُشْغب ، ثم إعمال المسير إلى السَّرير .

وصِرنا إلى الحُسنى ورقَّ كلامُنا ورَضتْ فذات صَعْبةٌ أيَّ إذلال

هذا بعد منازعة للأَطواق يسيرة ، يراها الغيد من حسن السيرة ، ثم شُرع فى حل التِّكة ، ونزع الشكة ، وتهيئة الأَرض الغرار[3] عمل السِّكة ، ثم كان الوحى والاستعجال . وحَمِى الوَطيس والمجال ، وعلا الجزءُ الخفيف ، وتضافرت الخُصور الهِيف ، وتشاطر الطَّبع العَفِيف ، وتواتر التقبيل ، وكان الأَخْذُ الوَبيل ، وامتاز الأَنْوَك من النَّبيل ، ومنها جائر وعلى الله قَصْدُ السَّبيل ، فيالها من نِعَمٍ مُتداركة ، ونفوس فى سبيل القِحة مُتهالكة ،

(١) وردت فى الإسكوريال (وصحب المزهر) وفى الزيتونة (وصحب المزمر) . والتصويب من النفح .

(٢) هكذا وردت فى النفخ . وفى الإسكوريال و الزيتونة (عضس) .

(٣) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (العرار) . وفى النفح (العزاز) .

ونَفَسٍ يقطع حروف الحلق ، وسبحان الذى يُزيد فى الخلق . وعظمت الممانعة ، وكثرت باليد المُصانعة ، وطال التَّراوغ والتَّزاور ، وشكى التجاور[1] وهنالك تختلف الأحوال . وتعظم الأهوال . وتُخسر أو تُربح الأموال ، فمن عَصا تنقلب ثعبانا مُبينا ، ونُونه تصير تَنينا ، وبطل لم يَهُله المعترك الهائل ، والوهم الزائل . ولا حال بينه وبين قُرِّنِه الحائل ، فتعدَّى فتكة السُّليك إلى فتكة البرَّاض ، وتقلَّد مذهب الأزارقة من الخوارج فى الاعتراض ، ثم شقَّ الصف ، وقد خضَّب الكف ، بعد أن كاد يصيب البرىَّ[2] بطَعْنَه ، ويبوءُ بمَقْت الله ولَعْنته :

طَعَنْتَ ابن عبد الله[3] طعنة ثائر ... لها نَفَذٌ لولا الشعاع أضاءها

وهناك هدأ القِتال ، وسكن الخَبال ، ووقع المتَوَقَّع فاستراح البال ، وتشوَّف إلى مذهب الثنوية ، من لم يكن للتَّوحيد بمُبال ، وكثر السؤال عن البال بما بال ، وجعل الجريح يقول . وقد نظر إلى دَمِه يسيل على قدمه :

أَنَّى له عن دَمِى المسفوك مُعْتَذر ... أقول حمَّلتُه فى سَفْكه تعَبا

ومن سِنان عاد عِنانا . وشجاع صار هِدانا[4] جبانا ، كلما شَابَتْه شائبةُ رِيبة ، أدخل يده فى جيبه ، فانجحرت الحيَّة ، وماتت الغَرِيزة الحيَّة ، وهناك يَزيغ البصر ، ويُخْذل المُنْتَصِر ، ويَسْلم الأسر ، ويَغْلب الحَصْر ، ويجِفُّ اللُّباب ، ويظهر العاب ، ويخفق الفؤاد ، ويكبو الجواد ، ويسيل العرق ، ويَشْتَدُّ الكرب والأرق ، وينشأُ فى محل الأمن الفَرَق ،

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى النفح (التحاور) .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى النفح (البؤسى) والأولى أرجح .

(٣) هكذا فى الزيتونة والنفح . وفى الإسكوريال (ابن عبد القيس) .

(٤) واردة فى المخطوطين . وساقطة فى النفح .

ويُدرك فرعونَ الغَرق . ويَقْوى اللُّجاج ويعظم الخَرْق . فلا تزيد الحال إلا شِدَّة ، ولا تعرف تلك الجارحة[1] المؤمنة إلا رِدّة :

إذا لم يكن عَوْنٌ من الله للفتى فأكثرُ[2] ما يجنى عليه اجتهاده

فكم مُغْرًى بطول اللَّبث ، وهو من الخَبْث ، يؤمل الكرَّة ، ليزيل المعرَّة ، ويسْتَنْصر الخيال ، ويعمل باليد الاحتِيال :

إنك لا تشكو إلى مُصْمت فاصبر على الحِمْل الثَّقيل أو مُتْ

ومُعْتذر بمرض أَصابه ، جَرَّعه أوصابه . ووجعٍ طَرَقه : جَلَب أرَقه ، وخطيبٍ أُرْتِج عليه أَحياناً ، فقال سيُحدث الله بعد عُسْرٍ يُسْرا ، وبعد عِيٍّ بيانا ، اللهم إنَّا نعوذ بك من فضائح الفرُوج إذا اسْتَغْلَقت أَقفالها ، ولم تُسَم[3] بالنَّجيع أعفالها[4] ، ومن معَرَّات الأَقدار ، والنكول عن الأَبكار، ومن النُّزول عن البطون والسُّرر ، والجوارح الحسنة الغُرر ، قبل نَقْبِ الدُّرر ، ولا تجعلنا ممن يستحيي من البُكَر بالغَداة ، وتُعلم منه كلال الأَداة ، وهو مجال فُضِحَت فيه رجال ، وفِراش شُكيت فيه أَوْجال ، وأُعْمِلت روِيَّةٌ وارتجال . فمن قائل :

أَرفعه طورا على إصْبَــعى ورأسُه مضطربة[5] أسْفَله
كالحنَش المقتول يُلقى على عود لكى يطرح فى مَزْبَله

أو قايل :

عدِمت من أَيرى قوى حسِّه يا حَسْرة المرءُ على نفسه

---

(١) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (المجارحة) . وفى النفح (الجائحة) .
(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (فأول) .
(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (تتسم) .
(٤) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال والنفح (اغفالها) . والأولى أرجح .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة والنفح (مضطرب) .

تراه قد مال على أَصْلـه　　　كحائط خرَّ عـلى أُسه

وقايل :

أَيحْسِدُنى إبليس دَاءَيْن أصبحا　　　برجلى ورأْسى دُمَّلا وزُكاما

فليتهما كانا بـه وأزيـده　　　رَخاوة أَير لا يريد قِياما

وقائل :

أَقول لأَيرى وهو يرقب فتكة　　　به خِبْت من أَير وغالتك داهية

إذا لم يكن للأَير بَخْتٌ تعذرت　　　عليه وجوه .... من كل ناحية

وقايل :

تعقَّفَ فوق الخصيتين كأَنه　　　رشاء إلى جنب الركية ملتف

كفرخ ابن ذى يَوْمين يرفع رأسه　　　إلى أَبويه ثم يُدركه الضَّعف

وقايل :

تكرش أيرى بعدما كان أملسا　　　وكان غنياً من قواه فأَفلسا

وصار جوابى للمَها أن مرَرْنَ بى　　　مضى الوصل إلاَّ مُنْية تبعث الأَسى

وقايل :

بنفسى من حَيَّيْتُه فاستخفَّ بى　　　ولم يخطر الهجران منه (١) على بال

وقابلنى [بالمزء والنَّجة] (٢) بعدما　　　حططت به رِجلى وجرَّدت سِربالى

وما ارتجى من موسر فوق دكَّة (٣)　　　عرضت له شيئاً من الحَشَف البالى

عِلَلٌ (٤) لا تزال تُبكى ، وعلل على الدهر تشكى ، وأَحاديث تُقص وتحكى . فإن كنت أعزك الله من النَّمط الأَول ، ولم تَقِل . وهل عند

---

(١) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (يوما) .

(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (بالنفور والنجد) . والبيت ساقط فى الزيتونة .

(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (تكة) .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (هموم) .

رسم دارس من مُعَوَّل ، فقد جَنَيْتَ الثَّمَر ، واسْتَطَبْتَ السَّمر ، فاستدع الأَبواق من أقصى المدينة ، واخرج على قومك فى ثياب الزِّينة ، واستبشر بالوفود ، وعرِّف السمع عارفة الجود ، وتبجَّح بصلابة العود ، وإنجاز الوعود ، واجنِ رمَّان النُّهود ، من أغصان التَّمُدود ، واقطف ببنان[١] اللَّثم أقاح الثُّغور وورد الخُدود . وإن كانت الأُخرى ، فاخفِ الكَمد ، وأَرْضِ الثمد ، وانتظر الأَمد ، واكذب التوسَّم ، واستعمل التَّبَسم ، واستكْتِم النِّسوة ، وأَفِضْ فيهن الرِّشوة ، وتقلَّد المغالطة وارتكب ، وجيء على قميصك[٢] بدمٍ كذبٍ ، واستنجد الرحمن ، واسْتَعن على أُمورك[٣] بالكتمان

لا تظهرن لعاذلٍ أَو عـــاذرٍ   حاليْك فى [السرَّاء والضرَّاء][٤]

فلرحمة المتفجِّعين حـــرارة   فى القلب مثل شَماتة الأَعداء

وانْتَشِقِ الأَرَج ، وارتقب الفَرَج . فكم غمامٌ [طبَّق وما هَمَى][٥] ، وما رميتَ إذ رميتَ ، ولكن الله رَمَى ، وأملك بعدها عِنان نفسك ، حتى تُمَكِّنك الفرصة ، وتُرفع اليك القِصَّة ، ولا تَشْتَره[٦] إلى عمل لا تَنْبِيءُ منه بتمام ، وخُذ عن إمام ، ولله درُّ [عُرْوة بن حزام][٧] .

الله يعلم ما تركتُ قتالهم   حتى رَمَوا مُهرى بأَشْقَر مُزْبِد

وعلمتُ أَنى إن أُقاتِلْ دونَهم   أُقتَل ولم يَضْرُر عدوِّى مشهدى

(١) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى الزيتونة (بنار) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى النفح (قميصه) . والعبارة ساقطة فى الزيتونة .
(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (أمرك) .
(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطين . ووردت فى النفح (الضراء والسراء) .
(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطين . وورد مكانها فى النفح (طما) .
(٦) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (تسرع) .
(٧) هكذا ورد هذا الاسم فى الإسكوريال . ولم يرد فى الزيتونة سوى كلمة (عروة) . وورد فى النفح (الحرث بن هشام) .

ففررتُ منهم والأَحِبَّة فيهمِ طمعا لهم بعقاب يوم مُفْسِد

واللُّبانات تَلين وتَجْمح ، والمآرب تَدنو وتَنْزَح ، وتَحْرن ثم تَسْمَح ، وكم من شُجاعٍ خام ، ويقظٍ نام ، ودليل أخطأ الطريق ، وأضلَّ الفريق ، والله عز وجل يجعلها خلَّة موصولة ، وشَمْلاً أكنافُه بالخير مَشْمُولة ، وبِنْيَة أركانها لركاب[1] اليُمن مأمولة ، حتى يكثر خَدَم سيدى وجواريه ، وأسرَته وسَراريه ، وتَضْفو عليه نعمةُ[2] باريه ، ما طُورد قَنِيص ، واقْتُحم عِيص ، وأُدْرِك مرامٌ عويص ، وأعطى زاهد وحُرِم حريص . والسَّلام .

تواليفه

شرح القصيدة المسماة بالبُرْدة شرحاً بديعا ، دلَّ فيه على انفساح ذَرْعه ، وتفنُّن إدراكه ، وغزارة حِفظه . ولخَّص كثيراً من كُتُب ابن رشد . وعلَّق للسلطان أيام نظره فى العلوم العقلية ، تقييداً مفيدا فى المنطق ، ولخَّص مُحَصَّل الإمام فخر الدين ابن الخطيب [الرازى][3] . وبذلك داعبته أول لُقية لقَيْتُه ببعض منازل الأشراف ، فى سبيل المبرَّة بمدينة فاس ، فقلت له لى عليك مُطالبة ، فإنك لخَّصت « مُحَصَّلى » . وألف كتاباً فى الحساب . وشرع فى هذه الأيام فى شرح الرَّجَز الصادر عنى فى أصول الفقه ، بشيء لا غاية وراءه فى الكمال[4] . وأما نثره وسُلْطانيَّاته ،

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى النفح (لركائب) .

(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح (نعم) .

(٣) يعرف الإمام فخر الدين الرازى (وهو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين المتوفى سنة ٦٠٦ هـ) يعرف بابن الخطيب .

(٤) ورد فى آخر اللوحة 252 إسكوريال ، بعد هذه الكلمة ، ما يأتى مدونا بقلم الناسخ : « قلت هذا المقدار هو الذى ذكره الشيخ ابن الخطيب عن تواليف هذا الفاضل المترجم به لمكان وفاة الشيخ قبل المترجم . ولو علم الشيخ رحمه الله بكتابه المشهور ، الذى سحر به الخاص والجمهور المسمى « بكتاب العبر وديوان المبتدا والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » لحلاه بما يجب فى حقه ، وان انتهى إلى غاية فلا يتمادى فى صدقه . ولقد=

مُرْسَلُها ومُسْجَّعها ، فخُلج بلاغة ، ورياض فنون ، ومعادِن إبداع ، يُفرغ عنها يراعه الجرىءُ ، شبيهة البَدَاءات بالخواتم ، فى نداوة الحروف ، وقُرْب العهد بجَرْيَة المِداد ، ونفوذ أَمر القريحة ، واسْتِرسال الطبع .

وأَما نظمه[1] ، فنهض لهذا العهد قُدُماً فى ميدان الشِّعر . وأُغرى نقدُه باعتبار أَساليبه ، فانثال عليه جوُّه ، وهان عليه صعبه ، فأَتى منه بكل غريبة . من ذلك قوله يخاطب السلطان ملك المغرب لليلة الميلاد الكريم عام اثنين وستين وسبعمائة بقصيدة طويلة :

[أَسْرَفْنَ فى هَجرى وفى تعذيبى ... وأَطَلْن موقف عَبْرتى ونَحيبى

وأَبَيْنَ يوم البَين موقف ساعة ... لوداع مَشْغُوف الفؤاد كئيب

لله عهد الظَّاعنين وغادروا ... قلبى رَهين صَبابة ووجيب

غَرَبَت ركائبُهم ودمعى سافح ... فشَرِقت بعدهم بماء غُروبى

يا ناقعاً بالعَتْب غُلَّة شوقهم ... رحماك فى عَذْلى وفى تأْنيبى

يستعذبُ الصَّب الملام وإننى ... ماء الملام لدَىَّ غيرُ شَريب

ما هاجنى طربٌ ولا اعتادالجوى ... لولا تذكُّر مَنْـزِلٍ وحَبِيب

أَهفو إلى الأَطلال كانت مَطْلعاً ... للبدر منهم أو كِناس رَبيب

عَبَثَتْ بها أَيدى البِلى وتردَّدت ... فى عِطفها للدهر آى خُطوب

تبلى معاهدها وإن عهودها ... ليجدُّها وصفى وحُسن نَسيبى

وإذا الديار تعرَّضت لمُتَيَّم ... هزَّته ذكراها إلى التَّشْبيب

إيهٍ على الصبر الجميل فإنه ... أَلْوى بدَيْن فؤادى المَنْهوب

= اخترع فيه ، من بين المناحى مذهبا عجيبا ، وطريقة مبتدعة وأسلوبا ، وسلك فيه من الحديث على العلوم ، وتنقيح الفهوم ، وما يعرض فى الاجتماع الإنسانى من الأعراض الذاتية والخيالات والحلوم، مسلكا غريبا . رحم الله مبدعه ، ومتع فى أعلى عليين مخترعه » .

(١) هكذا وردت فى النفح . وفى المخطوطين (شعره) . وقد آثرنا الأول تجنبا للتكرار

لم أنْسَها والدهر يَثنى صَرْفه ويغض طَرْف حاسِدٍ ورقيبِ
والدَّار مُونقة محاسنُها بما لبِسَت من الأيام كلَّ قَشِيب
يا سائق الأظعان تَعْتَسِف الفلا وتُواصل الآساد بالتّأْويب
مُتهافتاً عن رَحْل كل مُذَلَّل نَشوان من أينٍ ومسِّ لُغوب
تتجاذب النَّفحات فَضْل ردائه فى مُلتقاها من صَباً وجَنوب
إن هام من ظما الصَّبابة صَحْبُه نَهَلوا بمَوْرد دمعه المَسْكوب
فى كل شُعَبٍ مُنْية من دونها هَجْر الأمانى أو لقاءُ شُعوب
هلاَّ عطَفْتَ صدورهنَّ إلى التى فيها لُبانة أعْيُن وقلوب
فتؤمَّ من أكناف يَثْرب مأْمنا يَكفيك ما تخشاه من تَثْريب
حيث النبوة آيُها مَجْلُوَّة تتلو من الآثار كلَّ غريب
سرٌّ غريب لم تحجبه الثَّرى ما كان سرُّ الله بالمحجوب
يا سيِّد الرسل الكرام ضراعةً تقضى من نفسى وتذهب حُوبى
عاقت ذنوبى عن جَنابك والمنى فيها تُعَلِّلنى بكل كَذُوب
لا كالألى صَرَفوا العزائم للتقى فاستأثروا منها بخير نَصيب
لم يُخلصوا لله حتى فرَّقوا فى الله بين مضاجع وجُنوب
هَبْ لى شَفَاعتك التى أرجو بها صفحاً جميلا عن قبيح ذُنوبى
إنَّ النجاة وإن أُتيحت لامرىءٍ فبِفَضْل جاهك ليس بالتَّسْبِيب
إنى دعوتك واثقاً بإجابتى يا خيرَ مَدْعُوٍّ وخير مُجيب
قَصَّرت فى مدحى فإن يَكُ طيِّباً فبما لذِكرك من أرِيج الطِّيب
ماذا عسى يَبْغِى المطيل وقد حَوى فى مدحك القرآن كلَّ مَطيب
يا هل تُبَلِّغِنى الليالى زَورةً تُدنى إلىَّ الفوْز بالمرغوب
أَمْحُو خطيئاتى بإخلاصى بها وأحط أوزارى وإصْرَ ذُنوبى

في فتية هجروا المنى وتعوّدوا ... إنضاء كل نَجِيبة ونَجِيب
يطوى صحائف لَيْلهم فوق الفلا ... ما شئتَ من خَبَبٍ ومن تَقْرِيب
إن رنّم الحادى بذكرك ردّدوا ... أنفاس مُشتاق إليك طَرُوب
أو غرّد الرّكب الخَلى بطيبة ... حنّوا لمَغْناها حَنين النِّيب
ورِثوا اعْتِساف البيد عن آبائهم ... إرْثَ الخلافة فى بَنِى يعقوب
الطاعِنون الخيل وهى عَوابِسٌ ... يغشى مَثار النَّقْع كل سَبِيب
والواهبون المُقْرَبات هواتناً ... من كل خَوّار العنان لَعُوب
والمانعون الجارَ حتّى عِرْضهم ... فى مُنتدى الأعداء غير مَعِيب
تُخشى بَوادِرُهم ويُرْجى حِلمهم ... والعز شيمة مرتجىً ومَهِيب

ومنها بعد كثير :

سائل به طامى العُباب وقد سرى ... [تُزجى بريح] [1] العزم ذات هُبوب
تهديه شُهْب أسنّة وعزائم ... يَصْدَعْن ليل الحادث المرْهوب
حتى انجلت ظُلَم الضّلال بسعيه ... وسطا الهدى بفَريقها المغلوب
يا ابن الأُلى شادوا الخلافة بالتقى ... واسْتَأْثروك بتاجها المعصوب
جمعوا بحفظ الدين آى مناقب ... كرمُوا بها فى مشْهد ومَغِيب
لله مجدُك طارفاً أو تالداً ... فلقد شَهِدْنا منه كل عجيب
كم رهبةٍ أو رغبةٍ لك والعُلا ... تُقْتاد بالتّرغيب والتّرهيب
لا زلت مسرورا بأشْرَف دولة ... يبدو الهدى من أُفقها المرقوب
تُحيي المعالى غادياً أو رائحاً ... وجديدُ سَعْدك ضامنُ المطلوب

وقال من قصيدة خاطبه بها عند وصول هديّة ملك السودان ، وفيها الحيوان الغريب المسمى بالزّرافة :

(١) وردت هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى التعريف (تزجيه ريح) .

قَدَحَتْ يد الأشواق من زندى ... وهَفَتْ بقلبى زفرة الوَجْد
ونبذت سُلوانى على ثقة ... بالقرب فاستبدلتُ بالبُعد
ولرُبَّ وصلٌ كنت آمله ... فاعتَضْتُ منه مؤلم الصَّدِّ
لا عَهْدَ عند الصبر أطلبه ... إن الغرام أضاع من عَهْدِى
يَلْحى العذُول فما أعنِّفُه ... وأقول ضلَّ فأبتغى رُشدى
وأُعارض النَّفحات أسألها ... بَرْد الجَوَى فتزيد فى الوَقْد
يَهْدى الغرام إلى مسالكها ... لتعلُّلى بضعيف ما تُهدى
يا سائق الوَجْناء[(١)] مُعْتَسِفًا ... طيَّ الفلاة لطيَّة الوَجْـــد
أرِح الرِّكاب ففى الصَّبا نبأٌ ... يُغْنى عن المُسْتَنَّة الجُرد
وسل الرُّبوع برامةٍ خبراً ... عن ساكِنى نَجْد وعن نَجْد
مالى تُلام على الهوى خُلُقى ... وهى التى تأْبَى سوى الحَمْد
لأَبَيْتُ إلا الرُّشد مذ وضحت ... بالمُستعين معالم الرُّشْد
نعم الخليقة فى هُدًى وتقىً ... وبناء عزٍّ شامخ الطُّود
نَجْلُ السُّراة الغُرِّ شأْنُهم ... كسب العُلا بمواهب الوَجد

ومنها فى ذكر خلوصه إليه ، وما ارتكبه فيه :

لله منى إذ تأوَّبنى ... ذكراه وهو بشاهق فرد
شهمٌ يفلُّ بواتر قُضبا ... وجموع أقيال أولى أَيْدِ
أَوْرَيْت زَنْد العزم فى طلبى ... وقضيت حقَّ المجد من قصدى
ووردتُ عن ظمأ مناهله ... فرويتُ من عزٍّ ومن رِفْد
هى جنَّة المأوى لمن كَلِفت ... آماله بمطالب المجد
لو لم أُعَلَّ بوِرْد كوثرها ... ما قلت هذى جنة الخُلْد

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والنفح . وفى التعريف (الأظعان) .

من مُبلِّغٌ قومى ودونهم ... قُذُف النَّوى وتنُوفَة البْعد
إنى أنَفْتُ على رجائهم ... وملكت عزّ جميعهم وحدى

ومنها

ورقيمة الأَعطاف حالية ... موشِيَّة بوشائج البُرْد
وحشيَّة الأَنساب ما أَنِست ... فى موحش البيداءِ بالقوْد(١)
تسمو بجيد بالغ صَعَداً ... شَرَف الصُّروح بغير ما جَهْد
طالت رؤوس الشامخات به ... ولربما قَصُرت عن الوَهْد
قطعت إليك تَنائفا وصلت ... آسادها بالنَّص والوَخْد
نَحْدى على استصعابها ذُلُلاً ... وتَبِيت طوع القِنِّ والقِدِّ
بسعودك اللائى ضمنَّ لنا ... طول الحياة بعيشةٍ رَغْد
جاءَتك فى وفْد الأَحابش لا ... يَرجون غيرك مُكْرِم الوفد
وافُوك أَنْضاءَ تُقَلِّبُهم ... أَيْدى السُّرى بالغَوْر والنَّجد
كالطَّيف يَسْتَقْرى مضاجعه ... أَو كالحُسام يُسَلُّ من غِمد
يُثنون بالحُسْنى التى سبقت ... من غير إنكار ولا جَحْد
ويرون لَحْظَك من وِفادتهم ... فخراً على الأَتراك والهند
يا مُسْتَعيناً جلَّ فى شَرَف ... عن رُتبة المنصور والمَهْدى
جازاك ربُّك عن خَليقته ... خير الجزاءِ فنِعم ما يُسدى
وبقيت للدنيا وساكنها ... فى عزَّة أبدا وفى سَعْد](٢)

وقال يخاطب صدر الدولة فيما يظهر من غرض المنظوم(٣) :

---

(١) هكذا فى الإسكوريال والتعريف . وفى النفح (بالقرد) وهو تحريف .

(٢) كل ما تقدم من شعر ابن خلدون المحصور بين الحاصرتين ، وارد فى الإسكوريال وساقط فى الزيتونة .

(٣) المقصود بصدر الدولة هنا هو الوزير عمر بن عبد الله مدبر ملك المغرب يومئذ .

يا سيِّد الفضلاءِ دعوة مُشْفِق — نادى لشكوى البَثِّ خَيْر سَميع
مالى وللإقصاءِ بعد تَعِلَّة — بالقرب كنت لها أجلَّ شَفيع
وأرى الليالى رَنَقَتْ لى صافيا — منها فأصبح فى الأجاج شروعى
ولقد خَلَصْتُ إليك بالقرب التى — ليس الزمان لشمْلها بصَدُوع
ووثقْتُ منك بأىِّ وعد صادق — إنى المصون وأنت غير مُضِيع
وسما بنفسى للخليفة طاعةٌ — دون الأنام هَواك قبل نُزوع
حتى انْتَحانى الكاشِحون بسعيهم — فصَدَدْتهم عنى وكنتَ مَنيعى
رغمت نفوسهم[1] بنُجْحِ وسائلى — وتقطَّعت أنفاسهم بصَنِيعى
وبغَوا بما نَقِموا علىَّ خلائقى — حسداً فرامُونى بكلِّ شنيع
لا تُطْمِعَنْهم ببَذْلٍ فى التى — قد صُنْتُها عنهم بفضل قُنوعى
أنىِّ أُضام وفى يدى القَلَمُ الذى — ما كان طيِّعُه لهم بمُطيع
ولِى الخصائص ليس تأْبى رُتْبة — حسبى بعلمك[2] ذاك من تفريعى
قسماً بمجدك وهو خير أليَّة — اعتدُّها لفؤادىَ المَصْدوع
إنى لتَصْطَحِب الهموم بمضجعى[3] — فتحول ما بينى وبين هُجوعى
عطفاً علىَّ بوحْدَتى عن معشرٍ — نَفَث الإباءُ صُدُودَهم فى رُوعى
أغدو إذا باكَرْتهم مُتَجَلِّداً — وأروح أعْثُر فى فضول دموعى
حيرانُ أوجس عند نفسى خيفة — فتُسِرُّ فى الأوهام كل مروع
أطوى على الزَّفَرات قلباً إدُّه — حملُ الهموم تَجُول بين ضلوعى
ولقد أقول لصَرْف دهر رابنى — بحوادث جاءَت على تنويع

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة ، وفى الاسكوريال والنفح (أنوفهم) .
(٢) هكذا وردت فى الاسكوريال والزيتونة . وفى النفح (بعلمى) .
(٣) هكذا وردت هذه الشطرة فى الاسكوريال والنفح . ووردت فى الزيتونة كالآتى (انى ليضطجع الهموم بمضجعى) .

مَهْلاً عليك فليس خَطْبُك ضائرى فلقد لبِست له أجنٌّ دروع
إنى ظَفِرْتُ بعصمة من أوحد بَذَّ الجميع بفضله المجموع

وأنشد السلطان أمير المسلمين أبا عبد الله بن أمير المسلمين أبا الحجاج، لأول قدومه ليلة الميلاد الكريم، من عام أربعة وستين وسبعمائة :

[حيِّ المعاهد كانت قبلُ تُحْيينى بواكِف الدمع يُرويها ويُظميني
إن الأُلى نَزَحت دارى ودارُهم تحمَّلوا القلب فى آثارهم دُونى
وقفت أنشُد صبراً ضاع بعدهم فيهم وأسأل رسَماً لا يُناجِينى
أُمثِّل الرَّبْع من شوقٍ وألثُمه وكيف والفكر يُدنيه ويُقصينى
وينهب الوَجْدُ منِّى كل لؤلؤة ما زال جفنى[1] عليها غير مأمون
سَقَتْ جفونى مَغانى الرَّبع بعدهم فالدمع وقفٌ على أطْلاله الجُون
قد كان للقلب عن داعى الهوى شُغُلٌ لو ان قلبى إلى السُّلْوان يدعونى
أَحبابُنا هل لعهد الوَصْل[2] مُدَّكر منكم وهل نَسْمة منكم تُحيِّينى
مالى وللطَّيْف لا يُعتاد[3] زائره وللنسيم عليلاً[4] لا يُداوينى
يا أهل نَجْد وما نجدٌ وساكنُها حُسْناً سوى جنَّة الفِردوس والعين
أَعندكم أنَّنى ما مر ذِكْرُكم إلا انْثَنيت كأنَّ الرَّاح تَثْنينى
أَصبُوا إلى البَرْق من أنحاءِ أرضكم شوقاً ولولاكم ما كان يُصْبِينى
يا نازحاً والمُنَى تُدْنيه من خَلَدى حتى لأَحْسِبُه قُرباً يُناجينى
أَسْلَى هواك فؤادى عن سِواك وما سِواك يوماً بحال عنك يُسْليني
ترى الليالى أنْسَتْك ادِّكارى يا مَنْ لم يكن ذِكره الأيام تُنْسيني

---

(١) هكذا وردت فى الزيتونة والنفح . وفى التعريف (قلبى) .
(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال والنفح والتعريف . وفى الزيتونة (الود) .
(٣) هكذا فى الاسكوريال والنفح والتعريف . وفى الزيتونة (يعود) .
(٤) هكذا فى الاسكوريال والنفح والتعريف . وفى الزيتونة (عليل) .

ومنها فى ذكر التفريط :

أبعد مرِّ الثلاثين التى ذهبت أَولى الشَّباب بإحسانى وتَحْسينى
أَضَعْتُ فيها نفيساً ما وَرَدْتُ به إلاَّ سَراب غرور ليس يَرْوينى
واحْسَرتا من أَمانىّ كلِّها خِدَعٌ تريش غيِّى ومرُّ الدهر يُبرينى

ومنها فى وصف المِشْور المُبْتَنى لهذا العهد :

يا مصْنعاً شيِّدت منه السُّعودحمى لا يطرُق الدهر مَبْناه بِتَوْهين
صرحٌ يحار لديه الطَّرْفُ مُفْتَتَنا فما يروقك من شكل وتَلْوين
بُعْداً لإِيوان كسرى إنَّ مِشْوَرَكَ السَّامى لأَعظم من تلك الأَواوين
ودَعْ دمشق ومَغْناها فقصرك ذا أَشْهى إلى القلب من أَبواب جَيرون][1]

ومنها فى التعريض بالوزير الذى كان انصرافه من المغرب لأَجله :

من مُبلغٌ عنى الصَّحْب الأُلى جهلوا وُدِّى وضاع حماهم إذْ أَضاعونى
إنى أَويت من العَلْيا إلى حَرَمٍ كادت مَغانيه بالبُشرى تحيينى
وإننى ظاعن لم أَلْقَ بعدهم دهرا أُشاكى ولا خصما يُشاكينى
لا كالتى أَخْفَرَت عهدى ليالى إذ أُقلِّب الطَّرف بين الخوف والهون
سُقْيًا ورَعْياً لأَيامى التى ظَفِرت يداى منها بحظٍّ غير مَغْبُون
ارتاد منها مليّا لا يماطلنى وعداً وأَرجو كريماً لا يُعنِّينى
وهاك منها قَوافٍ طيُّها حِكَمٌ مثل الأَزاهر فى طىِّ الرياحين
تَلُوح إن جُليت دُرّا وإن تُليت تُثْنى عليك بأَنفاس البساتين
عانيتُ منها بجهدى كلَّ شارِدَة لولا سُعودك ما كانت تُواتينى
يمانع الفِكْر عنها ما تقسَّمه من حُزْنٍ بطىِّ الصَّدر مكنون

(١) ما بين الحاصرتين من بداية هذه القصيدة ساقط فى « الزيتونة » . ولم يرد منها فيه سوى قسمها الأخير فى التعريض بالوزير عمر بن عبد الله .

لكن بسعدك ذَلَّت لى شوارِدُها   فُرِضْتُ منها بتحبير وتزيين
بقيت دهرك فى أَمْنٍ وفى دَعَةٍ   ودام مُلْكُكَ فى نَصْرٍ وتَمْكين

وهو الآن قد بدا له فى التَّحول ، طوع أَمل ثاب له فى الأَمير أَبى عبد الله ابن الأَمير أَبى زكريا بن أَبى حفص ، لما عاد إليه مُلْك بجاية ، وطار إليه بجناح شِراع ، تفيَّأَ ظله ، وصلٌ من لدنه رآه مستقرا عنده ، يُدعِّم ذلك بدعوى تقصير خفى أَحسَّ به ، وجعله علَّة مُنْقَلبه ، وتجنٍّ سار منه فى مَذْهبه وذلك فى ......(١) من عام ثمانية وستين وسبعمائة . ولما بلغ بجاية صَدَق رأْيه ، ونجحت مُخَيِّلته ، فاشتمل عليه أميرها ، وولَّاه الحجابة بها. ولم يَنْشِب أَن ظهر عليه ابن عمه الأَمير أَبو العباس صاحب قسنطينة ، وبملَّك البلدة بعد مَهْلَكه ، وأَجرى المترجم به على رَسْمه بما طرق إليه الظِّنَّة بمداخلته فى الواقع . ثم ساءَ ما بينه وبين الأَمير أَبى العباس ، وانصرف عنه ، واستوطن بِسْكِرة ، متحوِّلاً إلى جوار رييسها أَبى العباس بن مَزْنَىَ ، متعلِّلاً برِفْده إلى هذا العهد .

وخاطبته برسالة فى هذه الأَيام ، تنظر فى اسم المؤلِّف فى آخر الديوان .

مولده

بمدينة تونس بلده ، حرسها الله ، فى شهر رمضان من عام اثنين وثلاثين وسبعمائة(٢) .

(١) هنا بياض فى المخطوط . ونقول تكلة للسياق إن استيلاء الأمير أبى عبد الله محمد الحفصى على بجاية كان فى رمضان سنة ٧٦٥ هـ ، وأن ابن خلدون غادر الأندلس ، تلبية لدعوة الأمير ، حسبما يحدثنا فى « التعريف » ، فى منتصف عام ٧٦٦ هـ ، وأقلع من ثغر المرية ، فوصل إلى بجاية لخمسة أيام من سفره (رجب سنة ٧٦٦ هـ) (راجع التعريف بابن خلدون ص ٩٧ و ٩٨ – وراجع كتابى « ابن خلدون » (الطبعة الثالثة – ص ٥٠ و ٥١) .

(٢) توفى ابن خلدون بمدينة القاهرة المعزية فى السادس والعشرين من شهر رمضان سنة ٨٠٨ هـ الموافق ١٦ مارس سنة ١٤٠٦ م ، ودفن ، حسبما يذكر لنا السخاوى فى ترجمته ، « بمقابر الصوفية » خارج باب النصر .

[عبد الرحمن بن الحاج بن القميى الإلبيرى

حاله : كان شاعراً مجيداً، هجا القاضى أبا الحسن بن توبة قاضى غرناطة ، ومن نصره من الفقهاء ، فضربه القاضى ضرباً وجيعاً ، وطِيف به على الأسواق بغرناطة ، فقال فيه الكاتب أبو إسحاق الإلبيرى الزاهد ، وكان يومئذ كاتباً للقاضى المذكور ، الأبيات الشهيرة :

السَّوْطُ أبلغُ من قولٍ ومن قيل ‏ ‏ ‏ ومن نِباح سفيهٍ بالأباطيل
من الدَّار كحر النار أبسراه ‏ ‏ ‏ يَعْقِل التقاضى أى تَعْقِيل] [١]

عبد الرحمن بن يخلفتن بن أحمد بن تفليت الفازازى

يكنى أبا زيد .

حـــاله

كان حافظاً نظَّارا [ذكيا] [١] ذا حظٍّ وافر من معرفة أُصول الفقه وعلم الكلام ، وعناية بشأن الرِّواية ، مُتَبَذِّلاً فى هيئته ولِباسه ، قلَّما يرى راكبا فى حَضر إلا لضرورة ، فاضلا ، سَنِيًا ، شديد [الإنكار] [٢] والإنحاء على أهل البدع ، مُبالغاً فى التحذير منهم ، عامر الإتاء [٣] ، يطلب العلم شَغفًا به ، وانطباعاً إليه ، وحبًا فيه ، وحرصا عليه ، آية من آيات الله فى سرعة البديهة ، وارتجال النَّظم والنَّثر وفُور مادَّه ، وموالاة استعمال ، لا يكاد يُقيد ، ولا يصرفه عنه ، إلاَّ نسخ أو مطالعة علم . أو مذاكرة

---

(١) وردت هذه الترجمة الموجزة فى مخطوط الزيتونة (لوحة ١٨١ من الجزء الثانى) ولم ترد فى مخطوط الإسكوريال فرأينا إثباتها .

(٢) واردة فى الزيتونة . وساقطة فى الإسكوريال .

(٣) وردت فى الإسكوريال (أتاه) . وفى الزيتونة (لأتاه) ، ونعتقد أن التصويب أنسب للسياق .

فيه ، حتى صار له مَلَكَةَ ، لا يتكلف معها الإنشاء ، مع الإجادة ، وتمكُّن البراعة . وكان متلبساً بالكتابة عن الولاة والأُمراء ، ملتزماً بذلك ، كارها له ، حريصاً على الانقطاع عنه ، واختصّ بالسيد أبي إسحق بن المنصور ، وبأَخيه أَبي العلاء ، وبملازمتهما استحق الذِّكر فيمن دخل غرناطة ، إذ عُدَّ ممَّن دخلها من الأُمراءِ .

مشيخته

روى عن أَبيه أَبي سعيد ، وأَبي الحسن جابر بن أَحمد ، وابن عتيق بن مون ، وأَبي الحسن بن الصايغ ، وأَبي زيد السُّهيلي ، وأَبي عبد الله التُّجيبي ، وأَبي عبد الله بن الفخَّار ، وأَبي محمد بن عبيد الله ، وأَبي المعالى محمود الخراساني ، وأَبي الوليد بن يزيد بن بَقِي وغيرهم . وروى عنه ابنه أَبو عبد الله ، وأَبو بكر بن سيِّد الناس ، وابن مهدى ، وأَبو جعفر بن على ابن غالب ، وأَبو العباس بن على بن مروان ، وأَبو عمرو بن سالم ، وأَبو القاسم عبد الرحيم بن سالم ، وابنه عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن سالم ، وأَبو القاسم عبد الكريم بن عُمْران ، وأَبو يحيي بن سليمن ابن حَوْطِ الله ، وأَبو محمد بن قاسم الحرار ، وأَبو الحسن الرُّعيني ، وأَبو على الماقرى.

تواليفه ومنظوماته

له المُعشَّرات الزُّهدية ، التى ترجمها بقوله :«المعشرات الزهدية ، والمذكرات الحقيقية الجدِّية ، ناطقة بأَلسِنة الوَجِلين المُشْفِقين ، شايقَةٌ إلى مناهج السَّالكين المُسْتَبْقين. نظمها متبرِّكاً بعباداتهم[1] متيمناً بأَغراضهم وإشاراتهم ، قابضاً عنان الدَّعوى عن مُداناتهم ومُجاراتهم ، مهتدياً إهداء

(١) هكذا وردت فى الزيتونة ، وفى الإسكوريال (بعبداتهم) .

السُّنن الخمس ، بالأشعَّة الواضحة من إشاراتهم ، مُخَلِّدًا دون أفقهم العالى ، إلى حضيضه ، جامعاً لحسن أقواله . وقبح أفعاله ، بين الشَّيء ونقيضه . عبد الرحمن » . وله « المُعَشَّرات الحُبِّية ، وترجمتها النَّفحات القَلْبيَّة ، واللَّفحات الشَّوْقية : منظومة على ألسنة الذاهبين وَجْداً ، الذَّايبين كَمَداً وجَهْداً ، الذين غَرَبوا ، وبقيت أنوارُهم ، واحتَجبوا وظهرت آثارهم ، ونطقوا وصَمَتَتْ أخبارهم ، ووفَّوا العُبُودية حقها ، ومَحُضوا المحبَّة مُسْتحقَّها ، نَظْمُ من نَسَج على مِنوالهم ، ولم يشاركهم إلا فى أقوالهم فلان» . والقصايد ، فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم ، التى كل قصيدة منها عشرون بيتاً ، وترجمتها الوسايل المُتَقَبَّلة ، والآثار المسلمة المُقْبِلة ، مُودَعَةً فى العشرنية[1] النبوية ، والحقايق اللَّفظية والمعنوية . نَظْمُ من اعتقدها من أزكى الأعمال ، وأعدَّها لما يستقبله من مُدْهِش الأهوال ، وفَرَّغ خاطره لها ، على تَوالى القواطع ، وتَتَابُع الأشغال ، ورجا بَرَكة خاتَم الرِّسالة ، وغاية السُّودد والجلالة ، مَحْوَ ما لسَلِفه من خطإٍ فى الفعل ، وزَلَلٍ فى المقال ، والله سبحانه ولىُّ القبول للتَّوبة ، والمنَّان بتسويغ هذه المِنَّة المطلوبة ، فذلك يسير فى جَنْب[2] قدرته ، ومَعْهُود رحمته الواسعة ومَغْفرته .

شعره

وشعره كثير جداً ، ونثره مشهور وموجود . فمن شعره فى غرض الشكر لله عز وجل ، على غَيْثٍ جاء بعد قَحْط :

نعم الإلــه بشكره تتقيَّـد — فالله يُشكر فى النَّوال ويُحمد
مُدَّت إليه أكفُّنــا محتـاجةً — فأنالها من جُوده ما نعهد

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (الشعرية) .
(٢) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (جانب) .

وأغاثنـــا بغمـــايمَ وكَّافـــةٍ ... بالبِشر تَشْرُق والبشاير تَرْعُد
حَمَلت إلى ظمإ البَسِيطة ريَّه ... فلها عليـه منَّة لا تُجْحـد
فالجوُّ برَّاق والشُّعاع مُنَضَّض ... والماءُ فيَّاض الأثير مُعَسْجَد
والأَرض فى حلى الأَنَّ كأَنما ... نُطَف الغمام لؤلؤٌ وزَبَرْجـد
والرَّوض مَطْلُول الخمايل باسم ... والقُضُب لَيِّنة الحمايل مُيَّد
تاهت عقول الناس فى حركاتها ... أَلِشُكْرِها أم سُكْرِها تتأَوَّد
فيقول أرباب البِطالة تَنْثَنى ... ويقول أَرباب الحقيقة تَسْجُد
وإذا اهتديتَ إلى الصواب فإنها ... فى شكر خالقها تقُوم وتَقْعُد
هذا هو الفضل الذى لا يَنْقَضى ... هذا هو الجُود الذى لا يَنْفد
إحضر فؤادك للقيام بشكره ... إن كنت تعلم قَدْرَ ما تتقلَّد
وانفُضْ يديك من العِباد فكلُّهم ... عجز الحلِّ وأَنت جهلا تَعْقِد
وإذا افْتَقَرت إلى سواه فإنما ... الذى بخاطرك المجال الأَبْعَد
نِعم الإلَـه كما تشاهد حُجَّةٌ ... والغائبات أجلُّ مما يُشهد
فانظر إلى آثار رحمته التى ... لا يُمترى فيها ولا يُتـــردد
يا ليت شِعرى والدليل مُبَلِّغ ... من أى وجه يَسْتَريب المُلْحد(١)
من ذا الذى يرتاب انَّ إلَـهة ... أحدٌ وألْسِنة الجمـاد تُوَحِّـد
كل يصـرح حالـه ومقـاله ... أن ليس إلا الله ربٌّ يُعبـد

ومن شعره أيضاً قوله :

عجباً لمن ترك الحقيقة جانباً ... وغدا لأَرْباب الصواب مُجانبا
وابتاع بالحق المُصَحَّح حاضرا ... ما شاء للزُّور المُعَلَّل غـايبـا

(١) وردت فى الإسكوريال (الحلد) . والتصويب من الزيتونة .

من بعد ما قد صار أَنْفَذَ أَسهما وأشدَّ عادية[1] وأمضى قاضبا
لا تَخْدَعَنْك سوابقٌ من سابق حتى ترى الإحضار منه عواقبا
فلربما اشْتَدَّ الخيال وعاقَه دون الصَّواب هوىً وأصبح غالبا
ولِكَم إمامٌ قد أضرَّ بفهمه كتبٌ تعبٌ من الضَّلال كتايبا
فانحرف بأفلاطون وأرسطا طاليس ودونهما تَسْلُك طريقاً لاحبا[2]
ودع الفلاسفة الذَّميم جميعُهم ومقالهم تأتى الأحقَّ الواجبا
ياطالب البرهان فى أوضاعهم أعزِز علىَّ بأن تعمر جانبا
أعْرَضْت عن شطِّ النَّجاه ملجَّجاً فى بحْر هَلْك ليس يُنجى عاطبا
وصَفا الدَّليل فما نفعت بصَفْوه حتى جعلت له الحِبر[3] شايبا
فانظر بعقلك هل ترى مُتَفَلْسِفا فيمن ترى إلا دَعيًّا كاذبا
أغْيَتْه أعباءُ الشَّريعة شِدَّةً فارتد مَسْلُوبا ويُحْسَب سالبا
والله أسَلْ عصمةً وكفايةً من أن أكون عن المَحَجَّة ناكِبا

ومن شعره :

إليك مددتُ الكفَّ فى كل شدَّة ومنك وجدتُ اللُّطف فى كل نايب
وأنت ملاذٌ والأنام بمَعْزِل[4] وهل مستحيل فى الرَّجاء كرُّ آيب
فحقِّقْ رجائى فيك يا ربِّ واكفنى شَماتة عدوٌّ أو إساءة صاحب
ومن أين أخشى من عدوٌّ إساءة وستِرك ضافٍ من جميع الجوانب
وكم كُرْبة نَجَّيْتنى من غِمارها وكانت شجاً بين الحَشا والتَّرايب
[فلا قوة عندى ولا لىَ حِيلة][5] سوى حسن ظنِّى بالجميل المواهب

---

(١) وردت فى الإسكوريال (عاليه) وفى الزيتونة (عليه) . ونعتقد أن التصويب أنسب للسياق . (٢) الطريق اللاحب أى الطريق الواضح .

(٣) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (اللبى) . والأولى أرجح .

(٤) هذه الكلمة واردة فى الزيتونة ، وساقطة فى الإسكوريال .

(٥) هكذا وردت هذه الشطرة فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (فلا قوة عندى إلى حيلة) .

فيا مُنجى المُضطَرّ عند دُعايه ... أغِثْنى فقد سُدَّت على مذاهب
رجاؤك رأس المال عندى ورِبْحُه ... وزُهْدٌ فى المخلوق أسْنَى المواهب
إذا عجزوا عن نَفْعهم فى نفوسهم ... فتأْميلُهم بعض الظُّنون الكواذب
فيا محسناً فيما مضى أنت قادرٌ ... على اللُّطْف فى حالى وحُسن العواقب
وإنى لأَرجو منك ما أنت أهْلُه ... وإن كنت حطا [فى] [1] كثير المعايب
[فصلِّ على المختار من آل هاشم ... إمام الوَرى عند اشتِداد النوايب] [2]

وقال فى مُدَّعى قراءة الخطِّ دون نظر :

[وأدور ميَّاس العواطف أصبحت ... محاسِنه فى الناس كالنَّوع فى الجِنس] [3]
يُدير على القرطاس أُنْمُل كفِّه ... فيُدرك أخفى الخَطِّ فى أيسر اللَّمس
فقال فريقٌ سِحْرُ بابل عنده ... وقال فريقٌ ليس هذا من الإِنْس
فقلت لهم لم تفهموا [4] سرَّ دَرْكِه ... على أنه للْعَقل أجْلَى من الشمس
ستكفه [5] حبُّ القلوب فأصبحت ... مداركها أجفان أُنْمُلِه الخمس

وفاته : استَقْدمه المأمون [6] على حال وحْشة ، كانت بينه وبينه ، فورد وُرود الرِّضا على مرَّاكُش فى شعبان سنة سبع وعشرين وستماية . وتوفى فى ذى قَعْدة بعده ، ودفن بجبانة الشيوخ مع أخيه عبد الله وقرنايهما ، رحم الله جميعهم .

انتهى السفر التاسع بحمد الله

---

(١) زائدة فى الزيتونة .
(٢) هذا البيت وارد فى الزيتونة وساقط فى الإسكوريال .
(٣) هذا البيت وارد فى الزيتونة وساقط فى الإسكوريال .
(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (تدركوا) .
(٥) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (فتكفه) .
(٦) هو الخليفة الموحدى أبو العلاء ولد الخليفة يعقوب المنصور ، وقد تولى الخلافة فى ربيع الأول سنة ٦٢٧ هـ ، وتوفى فى أواخر سنة ٦٢٩ هـ .

ومن السفـــر العاشر
العمال الأمرا فى هذا الحرف

عبد الرحمن بن أسبـــاط

الكاتب المُنْجِب ، كاتب أمير المسلمين ، يو سف بن تاشُفِين .

حـــاله

لحق به بالعُدْوة ، فاتَّصل بخدمته ، وأغْراه بالأندلس ، إذ ألقى إليه أمورها على صُورتها ، حتى كان ما فَرغ الله عزَّ وجل ، من استيلائه على ممالكها ، وخَلْعه لرؤسائها . وكان عبد الرحمن قبل اتصاله به ، مَقْدُورا عليه فى رِزقه ، يتحرَّف بالنَّسْخ ، ولم يكن حَسِن الخطِّ ، ولا مُعَرَّب اللفظ ، إلى أن تَسَيَّر للكتابة فى باب الدِّيوان بألمريَّة ، ورأى خلال ذلك ، فى نوْمه ، شخصا يوقظه ، ويقول له قم يا صاحب رُبْع الدُّنيا ، وقصَّ رؤياه على صاحبٍ له بمَثْواه ، فبَشَّره ، فطلب من ذلك الحين السُّمُوَّ بنفسه ، فأجاز البحر ، وتعلَّق بحاشية الحُرَّة العَلْيا زينب [1] ، فاسْتَكْتَبته . فلما تُوفِّيت الحُرَّة ، أقرَّه أمير المسلمين كاتِباً ، فنال ما شاء ، مما تَرْتَمى إليه الهِمَمُ ، جاهاً ومالاً وشهرةً . وكان رجلا حَصِيفا ، سَكُونا ، عاقلا ، مُجدى الجاه ، حَسِن الوساطة ، شهير المكانة .

توفى فجأة بمدينة سَبْتة . فى عام سبعة وثمانين وأربعمائة . وتقلد

---

(١) هى زينب بنت إسحاق النفزاوية ، زوجة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين . وكانت من قبل زوجة لابن عمه أبي بكر اللمتونى ، فطلقها ونزل له عنها ، حينما اعتزم السير إلى الغزو فى الصحراء ، حتى لا تشاطره حياة القفر الخشنة ، وكانت زينب من أجمل وأذكى نساء عصرها .

الكتابة بعده ، أبو بكر بن القَصِيرة . ذكره ابن الصَّيرفى[1] .

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن مالك المعافرى

وتكرر مالك فى نسبه

أَوَّليته

قالوا من ولد عُقْبة بن نعيم الداخل الى الأَندلس ، من جند دمشق ، نزيل قرية شكنب من إقليم تاجرة الجمل من عمل بَلَدِنا لَوْشَة ، غرناطى يكنى أبا محمد .

حاله

كان أبو محمد هذا أحد وزراء الأَندلس ، كثير الصَّنايع ، جزْل المواهب ، عظيم المكارم ، على سُنَن عظماء الملوك ، وأخلاق السادة الكرام . لم يُر بعده مثله فى حال الأَندلس ، ذاكرا للفقه والحديث ، بارعا فى الأَدب ، شاعراً مجيداً وكاتباً بليغا ، حُلْو الكتابة والشعر ، هَشًّا مع وقار ، ليِّناً على مَضاء ، عالى الهمَّة . كثير الخادم والأَمل .

من آثاره الماثلة إلى اليوم الحمَّام ، بجوفى الجامع الأَعظم من غرناطة . بدأ بناه أول يوم من جمادى الأُولى سنة تسع وخمسماية . وشرع فى الزِّيادة فى سَقْف الجامع من صَحْنه سنة ست عشرة ، وعوض أرجل قسيه ، أعمدة الرخام ، وجلب الرُّوس والموايد من قرطبة ، وفرش صحنه بكُذَّان الصُّخيرة . ومن مكارمه أنه لما وُلِّى مُسْتَخْلص غرناطة وإشبيلية ، وجَّهه أميره على بن يوسف بن تاشُفين إلى طُرْطُوشة برسم بنايها ، وإصلاح خللها ، فلما استوفى

---

(١) هذه الترجمة واردة فى الإسكوريال وساقطة فى الزيتونة .

الغاية فيها ، قلّده ، واستصحب جملة من ماله لمؤنته المختصّة به ، فلما احتلّها سال قاضيها ، فكتب إليه جملة من أهلها ممن ضَعُف حاله وقلّ تصرفه ، من ذوى البيوتات ، فاسْتَعْملهم أمناءَ فى كل وجه جميل ، ووسّع أرزاقهم ، حتى كَمَل له ما أراد من عمله . ومن عَجَزَ أن يستعمله ، وصَله من ماله ، وصَدَر عنها وقد أنْعَش خلقا كثيرا .

شعره

من قوله فى مجلس أطربه سماعه ، وبَسَطه احتشاد الأُنس فيه واجتماعه :

لا تَلُمْنى إذا طَرِبتُ لشَجو   يبعث الأُنْس فالكريم طَرُوب
ليس شَقُّ الجيوب حقا علينا   إنما الحقُّ أن تُشَقَّ القلوب

وقال ، وقد قَطَف غلام من غلمانه نَوّارة ، ومدَّ بها يده إلى أبى نصر الفتح بن عبيد الله[1] . فقال أبو نصر :

وبَدْرٌ بدا والطَّرفُ مطلعُ حسنه   وفى كفّه من رايق النَّور كوكب
يروح لتعذيب النفوس ويَغْتَدى   ويَطْلع فى أُفق الجمال ويَغْرُب

فقال أبو محمد بن مالك :

ويَحْسِد منه الغُصْن أىَّ مُهفْهف   يجىءُ على مثل الكَثيب ويذهب

نثره

قال أبو نصر ، كتبتُ إليه مودّعا ، فكتب إلى مُسْتَدْعيا ، وأخبرنى رسوله أنه لما قرأ الكتاب وضعه ، وما سوّى ولا فكّر ولا رَوَى :

يا سيدى ، جرت الأيام بجمع افْتِراقك ، وكان الله جارَك فى انْطِلاقك ، فَغَيْرُك رُوِّع بالظَّعْن ، وأَوْقَد للوداع جامح الشَّجَن ، فأنت من أبناء هذا

(١) هو أبو نصر الفتح بن خاقان مؤلف « قلائد العقيان » ، المتوفى سنة ٥٣٥ هـ ، وقد سبقت الإشارة إليه غير مرة .

الزمن ، خليفةُ الخَضْر ، لا يستقرُّ على وطن ، كأنَّك والله يختار لك ما تأْتيه وما تَدَعه ، مُوَكَّل بفضاءِ الأَرض تَذْرعه ، فحسْبُ من نَوى بعِشرتك الاستِمتاع ، أَن يعدَّك من العَوارى السَّريعة الارْتِجاع ، فلا يأْسَفُ على قِلَّة الثَّوى ويَنْشد : وفارقتُ حتى ما أُبالى من النَّوى .

وفاته

اعتَلَّ بإشبيلية فانتقل إلى غرناطة ، فزادت عِلَّته بها ، وتوفى رحمه الله بها فى غرَّة شعبان سنة ثمان عشرة وخمسمائة ، ودفن إثر صلاة الظهر من يوم الجمعة المذكورة بمقبرة باب إلبيرة ، وحضر جنازته الخاصة والعامة .

« من رثاه » : رثاه ذو الوزارتين أبو عبد الله بن أَبى الخصال رحمه الله ، فقال :

إن كنتَ تشفق من نزوح نواه ... فهناك مقبرةٌ وذا مَثْواه
قسِّم زمانك عِبرةً أَو عَبرةً ... وأَحِل تشَوُّقه على ذكراه
وأَعْدِدْه ما امتدَّت حياتك غايباً ... أَو عاتباً إن لم تَزُرْ زُرْناه
أَو نائما غَلَبت عليه رَقْدةٌ ... لمُسْهِد لم تَغْتَمض عيناه
أَو كوكبا سَرَتْ الرِّكاب بنوره ... فمضى وبلَّغنا المحلَّ سَناه
فمتى تَبْعُد والنفوس تَزُوره ... ومتى تَغِيب والقلوب تراه
ياواحداً عَدَل الجميع وأَصلحت ... دُنْيا الجميع ودِينهم دُنياه
طالت أَذاتُك بالحياءِ كرامةً ... والله يَكْرِم عَبْده بأَذاه
لِشهادة التَّوحيد بين لسانه ... وجَنانُه نور يُرى مَسْراه
ويوجِّهه سيمى أَغرَّ مُحَجَّل ... مهما بدا لم تَلْتَبس سيماه
وكأَنما هو فى الحياة سكينة ... لولا اهْتِزازٌ فى النَّدى يغشاه
وكأَنَّه لحَظَ العُفاة توجُّعا ... فتلازَمَتْ فوق الفؤاد يداه

أَبْدَى رِضى الرحمن عنك ثناؤُهم — إن الثَّناءَ علامة لِـرضـاه
يا ذا الذى شَغَف القلوب به — وذا لا تَرْتَجيه وذاك لاتخشاه
ما ذاك إلا أنه فَرْعٌ زكـا — وَسِع الجميع بظلِّه وحَنـاه
فاليوم أَوْدَى كل مَن أحببته — ونَعى إلى النفس من ينْعَـاه
ماذا يُؤمل فى دمشق مُسْهِدٌ — قد كُنتَ ناظرَه وكنتَ تراه
يَعتاد قبرك للبكا أسِفاً بما — قد كان أضْحكَه الذى أبكاه
يا تُربةً حلَّ الوزير ضريحَها — سَقاك بل صلَّى عليك الله
وسَرَى إليك ومنك ذكرٌ ساطع — كالمسْك عاطرةً به الأفواه (١)

عبد الرحمن بن عبد الملك اليَنِشْتى

يكنى أبا بكر . أصله من مدينة باغة (٢) ، ونشأ بلَوْشة ، وهو محسوب من الغرناطيين .

حاله

كان شيخاً يبدو على مخيَّلته النُّبل والدَّهاء ، مع قُصُور أدواته . يَنْتَحل النَّظم والنثر ، فى أراجِيز يتوصَّل بها إلى غرضه ، من التصرُّف فى العمل .

وجرى ذكره « فى التَّاج المُحلَّى » وغيره بما نصه : قارضٌ هاجٍ ، مُداهنٌ مُداج ، أخْبَثُ من نظر من طَرْف خَفِى ، وأغدرُ من تلبَّس بسعار وَفِى ، إلى مَكيدة مبثُوثَة الحبايل ، وإغراء يَقطع بين الشعوب والقبايل ، من شيوخ طريقة العمل ، المُتَقَلِّبين من أحوالها ، بين الصَّحْو والثَّمل ، المتعلِّلين برسومها ، حين اخْتَلط المرْعى والهَمَل . وهو ناظم أرْجاز ، ومستعمل

(١) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال . ولم ترد فى الزيتونة .

(٢) باغة وبالإسبانية Priego بلدة أندلسية من إقليم غرناطة تقع شمالى لوشة ، وعلى مقربة من قلعة يحصب .

حقيقةٍ ومجاز . نظم مُخْتَصر السِّيرة ، فى الألفاظ اليسيرة ، ونظم رَجَزاً فى الزَّجْر والفال ، نبَّه به تلك الطريقة بعد الإغفال ، فمن نظمه ما خاطبنى به مستدعياً إلى إعذار ولده :

أُريد من سيدى الأَعلى تَكَلُّفه ... على الوصول إلى دارى صباح غَد
يُزيدنى شرفاً منه ويُبصر لى ... صناعة القاطع الحجَّام فى ولدى

فأَجبته :

يا سيدى الأَوحد الأَسمى ومُعْتَمدى ... وذا الوسيلة من أَهْل ومن بَلد
دعَوْت فى يوم الاثنين الصِّحاب ضُحىً ... وفيه ما ليس فى بَيْت ولا أَحد
يوم السَّلام على المَوْلى وخدمته ... فاصفح وإن عَثَرت رِجْلى فخُذْ بيدى
والعُذْر أَوضح من نارٍ على عَلَم ... فعدِّ إن غبتُ عن لوْم وعن فَنَد
يمَيت فى ظل عيش لا نفاد له ... مُصاحبا غير محصور إلى أَمَد

ومنه أَيضاً :

قل لابن سيِّد والديه لقد عَلا ... وتجاوز المقدار فيما يَفْخَر
ما ساد والده فيُحمد أمرُه ... إلاَّ صغير العَنْز حتى يَكْبَر

وصدرت عنه مقطوعات فى غير هذا المعنى مما عَذُب به المجْنى ، منها قوله :

إنَّ الولاية رفعةٌ لسكنها ... أبدا إذا حقَّقتها تنتقل
فانظُر فضايل من مضى من أَهلها ... تجد الفضايل كلَّها لا تُعْزل

وقال :

هنيا أَبا إسحق دُمت موفَّقاً ... سعيدا قرير العين بالعُرْس والعِرس
فأَنت كمثل البدر فى الحسن والتى ... تملكتها فى الحسن أَسنى من الشمس
وقالوا عجيبٌ نور بَدْرَين ظاهر ... فقلت نعم إنَّ أَلِفَ الجِنس للجنس

وكتب إلىَّ :

إذا ضاق ذَرْعى بالزَّمان شكوته ... لمولاى من آل الخطيب فيَنْفَرج

هو العُدَّة العظمى هو السيِّد الذى ... بأوصافه الحُسْنى المكارم تَبْتَهج
وزيرٌ علا ذاتاً وقدرا ومَنْصِبا ... فمن دونه أعْلا الكواكب يَنْدَرِج
وفى بابه نِلْتُ الأمانى وقادنى ... دليلُ رشادى حيث رافقَنى الفَرَج
فلا زال فى سَعْدٍ وعزٍّ ونعمةٍ ... تُصان به الأموال والأهل والمُهَج

توفى فى الطاعون عام خمسين وسبعماية بغرناطة[١]

وفى سائر الأسماء التى بمعنى عبد الله وعبد الرحمن ، وأولاد الأمراء

عبد الأعلى بن موسى بن نُصير مولى لخم

أوليته

أبوه المنسُوب إليه فتح الأندلس ، ومحلُّه من الدِّين والشهرة وعِظَم الصِّيت معروف .

حاله

كان عبد الأعلى أميرا على سُنَن أبيه فى الفضل والدين ، وهو الذى باشر فتح غَرْناطة ومالَقة ، واستحق الذكر لذلك . قال الرَّازى ، وكان موسى بن نصير ، قد أخرج ابنه عبد الأعلى فيمن رتَّبه من الرجال إلى إلبيرة وتُدمير ، لفتحها ، ومضى إلى إلبيرة ففتحها ، وضمّ بها إلى غرناطة اليهود ، مستظهراً بهم على النَّصر ، ثم مضى إلى كورة رَيُّه ، ففتحها[٢]

عبد الحليم بن عمر بن عثمن بن يعقوب بن عبد الحق بن مَحْيُو

يكنى أبا محمد ، أوَّليته معروفة .

---

(١) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال ، ولم ترد فى الزيتونة .

(٢) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال ولم ترد فى الزيتونة .

وفَسَد ما بين أَبيه وبين جدِّه . أمير المسلمين ، بما أَوْجب انْتِباذَه إلى سكنى مدينة سِجلْماسة ، مُعَزَّزَةً له أَلقابُ السلطان بها . مَدُوِّخاً ما بأَحوازها من أَماكن الرياسة ، منسوبة إليه بها الآثار ، كالسَّد الكبير الشهير ، وقُصور الملك . فلما نزل عنها على حكم أَخيه أَمير المسلمين أَبى الحسن ، وأمضى قِتْلَتَه بالفِصاد ، نشأَ ولده ، وهم عدَّة بباب عمِّهم ، يَسَعُهم رِفْدُه ، ويقودهم وِلده ، ثم جلاهم إلى الأَندلس إبْنه السلطان أَبو عِنان ، عندما تصيَّر الأَمر إليه ، فاستقرُّوا بغرناطة . تحت برٍّ وجراية . قَلِقاً بمكانهم من جَلاهم ومِن بعده ، لإشارة عيون التَّرشيح إليهم . مغازلة من كثب ، وقعودهم بحيث تَعْثُر فيهم المظَنَّة . إلى أن كان من أمرهم ما هو معروف .

حـــاله

هذا الرجل من أَهل الخير والعفاف والصِّيانة . ودَمَث الخُلُق ، وحسن المداراة : يأْلف أَهل الفضل ، خاطبٌ للرُّتبة بكل جهد وحيلة ، وسُدَّ عنه باب الأَطماع . خُذِّر من كان له الأَمر بالأَندلس من لَدُن وصوله ، كى لا تختلف أَحوال هذا الوطن فى صَرْف وجوه أهله إلى غزو عدو المِلَّة ، ومُحَوِّلى القِبلة ، وإعراضهم عن الإغماض فى الفِتنة المُسْلمة ، وربما نميت عنهم الحركات والهموم . فثَقَّفوا من فيها عليهم ، إلى أن تبرأَ ساحتهم ويُظن به السكون . فلما دالت الدولة ، وكانت للأَخابث الكرَّة ، واستقرَّت بيد الرئيس الغادر الكرَّة ، وكان ما تقدَّم الإلماع به من عمل السلطان أَبى سالم ملك المغرب ، على إجازة السلطان ولىِّ مُلْك الأَندلس ، المُزْعج عنها بعلَّة البَغْى ، ذهب الدّايل الأَخرق إلى المقارضة ، فعندما استقرَّ السلطان أَبو عبد الله بجبل الفتح ، حاول إجازة الأَمير عبد الحليم إلى تِلمسان بعد مفاوضة . فكان ذلك فى أُخريات ذى قعدة ، وقد قُضى الأَمر

فى السلطان أبى سالم ، وانحلَّت العُقْدة ، وانْتَكَثت المريرة ، وولّى الناس الرجلَ المعتود . وفَد إلى تِلمسان من لم يَرْض محله من الإدالة ،ولا قويت نفسه على العِوض ، ولا صابَرَت غضَّ المخافة ، وحرَّك ذلك من عزمه ، وقد أنجده السلطان مُسْتدعيه بما فى طَوْقة . ولما اتصل خبره بالقايم بالأمر بفاس ، ومُعْوِل التدبير على سلطانه . أعمل النظر فيهم ، زعموا بتسليم الأمر . ثم حذَّر من لحق به من أضداده ، فصمَّم على الحصار ، واسْتَراب بالقَبيل المَرينى . وأكْثَف الحجاب دونهم بما يحرِّك أنَفتهم . فَنَفَروا عنه بواحدة أول عام ثلاثة وستين وسبعماية ، واتفق رأيهم على الأمير عبد الحليم ، فتوجَّهت إليه وجوهم اتِّفاقا . وانثالوا عليه اضِّطرارا ، ونازل البَلَد الجديد ، دار الملك من مدينة فاس ، يوم السبت السادس لشهر المحرم من العام . واضَّطربت المحلات بظاهره ، وخرج إليه أهل المدينة القُدْمى ، فأخذ بيعتهم ، وخاطب الجهات ، فألقت إليه قواعدها باليد ، ووصلت إليه مخاطباتها .

ومن ذلك ما خوطب به من مدينة سَلا ، وأنا يومئذ بها :

يا إمام الهدى وأىّ إمـام أَوْضِح الحق بعد إخفاء رسمه
أنت عبد الحليم حِلمُك نَرْ جو فالمسَمَّى له نصيبٌ من اسمه

وسَلك مَسْلكا حسنا فى الناس ، وفَسح الآمال ، وأجمل اللقاء ، وتَحمّل الجفاء ، واستفزَّ الخاصة بجميل التأتِّى وأخْذِ العفو . والتَّظاهر بإقامة رسوم الدِّيانة ، وحارب البلد المحصور فى يوم السبت الثالث عشر لشهر الله المحرم المذكور ، كانت الملاقاة التى برز فيها وزير المُلك ومُدير رحاه بمن اشتملت عليه البلدة من الرُّوم والجند الرُّحل ، واستُكْثِر من آلات الظهور وعُدد التَّهويل ، فكانت بين الفريقين حربٌ مرَّة تولى كبرها النَّاشِبة ،

فأرسلت على القوم حَواصب النِّبل ، غارت لها الخَيْلُ ، واقشعرَّت الوجوه ، وتقهقرت المواكب . وعندها بَرَز السلطان المعْتُوه ، مصاحبةً له نَسَمة الإقدام ، وتهوِّر الشجاعة عند مفارقة الخلال الصِّحيِّة ، وتوالت الشِّدات ، وتكالَبت الطَّايفة المحصورة ، فتمرَّست بأُختها . ووقعت الهزيمة ضَحْوة اليوم المذكور على قَبِيل بنى مرين ومن لَفَّ لفَّهم ، فصَرَفوا الوجوه إلى مدينة تازِى ، واستقرَّ بها سلطانهم ، ودخلت مِكناسة فى أمرهم ، وضاق ذَرْع فاس للمُلْك بهم ، إلى أن وصل الأَمير المُسْتَدعى ، طِيَّة الصبر ، وأجدى دَفع الدَّين ، ودخل البلد فى يوم الاثنتن الثانى والعشرين لصفر من العام.
وكان اللقاءُ بين جيش السلطان ، لنظر الوزير ، مُطْعَم الإمهال ومُعَوَّد الصُّنع . وبين جيش بنى مرين ، لنظر الأَخ عبد المؤمن ابن السلطان أبى على . فرحل القوم من مِكناسة ، وفرَّ عنهم الكثير من الأَولياءِ ، وأَخْلُوا العَرْصَة ، واستقروا أخيراً ببلد أبيهم سِجِلْماسة ، فكانت بين القوم مُهادنة . وعلى أثرها تَعَصَّب للأَخ عبد المؤمن معظم عرب الجهة ، وقد برز إليهم فى شأْن استخلاص الجبابة ، فرجعوا به إلى سِجلماسة . وخرج لمدافعتهم الأَمير عبد الحليم ، بمن معه من أشياخ قبِيله والعرب أولى مظاهر ، فكانت بينهم حرب أَجْلَت عن هزيمة الأَمير عبد الحليم ، واسْتَلْحم للسَّيف جملة من المشاهير . كالشيخ الخاطب فى حَبْله ، خِدْن النُّكْر وقادح زَنْد الفِتنة ، الدَّاين بالحَمْل على الدول على التفصيل والجُمْلة ، المُعْتمد بالمغرب بالرأى والمشورة ، يحيى بن رحّو بن مَسْطى وغيره . وأذعن عبد الحليم بعدها للخَلْع ، وخرج عن الأَمر لأَخيه ، وأُبقى عليه ، وتحرِّج من قتله . وتُعُرِّف لهذا الوقت صَرْفُه عنه إلى الأَرض الحجازية على صحراءِ القِبلة ، فانتهى أمره إلى هذه الغاية .

دخوله غرناطة

قدم على الحَضْرة مع الجملة من إخوته وبنى عمّه فى .... (١) جَلاهم السلطان أبو عنان ، عندما تصيّر له الأمر ، فاستقرّوا بها ، يناهز عبد الحليم منهم بلوغ أَشُدّه .

وتوفى .... (١) وستين وسبعماية (٢)

عبد المؤمن بن عمر بن عثمن بن يعقوب بن عبد الحق بن مَحْيُو

أخو الأمير عبد الحليم يكنى أبامحمد

حـــاله

كان رجلا وقوراً ، سكونا ، نحيفا ، آية الله فى جمود الكفّ ، وإيثار المَسْك ، قليل المُداخلة للناس ، مشتغلا بما يُغنيه من خُويصة نفسه ، موصوفاً ببسالة وإقدام ، حسن الهيئة . دخل الأندلس مع أخيه ، وعلى رسمه ، وتحرّك معه ، وابن أخ لهما ، فتولى كثيرا من أمره ، ولقى الهوْل دونه . ولما استقرّوا بسِجِلماسة ، كان ما تقرّر من تَوْبته على أمره ، والعمل على خَلْعه ، مُعْتذرا زعموا إليه ، موفّيا حقّه ، موجبا تَجِلّته إلى حين انصرافه ، ووصل الأندلس خطابه ، يُعَرِّف بذلك بما نصّه فى المَدْرَجة .

ولم يَنْشِب أن أحسّ بحركة جيش السلطان بفاس إليه ، فخاطب عميد الهساكره (٣) ، عامر بن محمد الهِنتاتى ، وعرض نفسه عليه ، فاستدعاه ،

---

(١) بياض بالمخطوط .

(٢) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال ولم ترد فى الزيتونة .

(٣) نسبة إلى هسكورة وهى إحدى القبائل البربرية المغربية ، الضاربة فى بلاد السوس جنوب شرق مراكش ، وغربى سلجلماسة .

وبَذَل له أماناً . ولما تحصَّل عنده ، قبض عليه ، وثقَّفه . وشدَّ عليه يده ، وحَصَل على طلبه دهِيّة ، من التَّوعُّد بمكانه ، واتخاذ اليد عند السلطان بكفِّ عادِيته إلى هذا التاريخ[1]

ومن الأفراد أيضاً فى هذا الحرف وهم طارؤون

عبد الحق بن على بن عثمن بن أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق

الأمير المُخاف بعد أبيه أمير المسلمين أبى الحسن بمدينة الجزائر ، بعد ما توجَّه إلى المغرب . وجرت عليه الهزيمة من بنى زيَّان .

حـــاله

كان صبيا ظاهر السكون والأدب ، فى سِنِّ المراهقة ، لم يَنْشِب أن نازله جيْشُ عدوِّه ، ومالأه أهل البلد ، وأخذ من معه لأنفسهم وله الأمان ، فنزل عنها ولحق بالأندلس . قال فى كتاب « طُرْفة العصر » . وفى ليلة العاشر من شهر ربيع الأول اثنين وخمسين وسبعمائة ، اتَّصل الخبر من جهة الساحل ، بنزول الأمير عبد الحق ابن أمير المسلمين أبى الحسن ومن معه ، بساحل شُلوبانية[2] ، مُفْلِتين من دَهْق الشِّدة ، بما كان من منازلة جيش بنى زيَّان مدينة الجزائر ، وقيام أهلها بدعوتهم ، لما سِيمَوْه من المطاولة ، ونَهكهم من الفِتنة ، وامتنع الأمير ومن معه بقَصَبَتِها ، وأخذوا لأنفسهم عهدا ، فنزلوا وركبوا البحر ، فرافقتهم السَّلامة ، وشملهم سِتْر العِصمة . ولحين اتصل بالسلطان خبره ، بادر إليه بمركبين ثَقِيلى الحِلية ، وما يناسب ذلك من بِزَّة ، وعجَّل من خدامه بمن يقوم ببرِّه ، وأصحبه

---

(١) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال ولم ترد فى الزيتونة .

(٢) شلوبانية وبالإسبانية Salobrena ثغر أندلسى صغير يقع على البحر المتوسط جنوبى غرناطة وقد سبق التعريف بها (أنظر ص ١١٢ من المجلد الأول حاشية) .

إلى منزل كَرامته ، ولرابع يوم من وصوله ، كان قُدومه ، وبرز له السلطان بروزاً فخما ، ونزل له ، قارضاً إياه أَحْسَنَ القَرْض ، بما أسلفه من يَد ، وأَسْداه من طَوْل . وأقام ضيفا فى جواره ، إلى أن اسْتَدْعاه أخوه ملك المغرب ، فانصرف عن رِضىً منه . ولم يَنْشِب أن هلك مُغْتالا فى جُمْلة أَرْداهم الترشيح(١)

عبد الواحد بن زكريا بن أحمد اللحيانى

يكنى أبا ملك . وبيتُه فى الموحِّدين الملوك بتونس . وأبوه سلطان إفريقية المُتَرقِّى إليها من رُتبة الشِّياخة الموحدية .

حـــاله

كان رجلا طُوالا نحيفا ، فاضلا حَسِيبا ، مقيما للرُّسوم الحَسَبِيَّة ، حسن العشرة ، معتدل الطَّريقة . نشأ بالبلاد المشرقية ، ثم اتصل بوطنه إفريقية ، وتقلَّد الإمارة بها برهة يسيرة ، ثم فرَّ عنها ولحق بالمغرب ، وجاز إلى الأندلس ، وقدم على سلطانها ، فرحَّب به . وقابله بالبِرِّ ، ونوَّه محلَّه ، وأَطْلَق جرايته ، ثم ارتحل أدراجه إلى العُدْوة ، ووقعت بينى وبينه صُحبة ، أنشدته عند وَداعه :

أبا ملكٍ أنت نجلُ الملوك ... غيوثُ النَّدى وليوثُ النزال
ومثلك يرتاح للمَكْرُمات ... ومالَك بين الورى من مثال
عزيزٌ بأنفسنا أن نرى ... رِكابك مؤذنة بارتحال
وقد خَبَرْتُ منك خُلُقاً كريماً ... أناف على درجات الكمال

(١) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال . ولم ترد فى الزيتونة .

وفازَتْ لديك بساعات أُنْس   كما زار فى النَّوم طيف الخيال
فلولا تعلُّلنا أننا   نَزُورك فوق بِساط الجلال
ونبلغ فيك الذى نَشْتَهى   وذاك على السَّهل المَنال
لما فَتَرت أنفسٌ من أسىً   ولا بَرِحت أدمعٌ فى انْهِمال
تلقَّتك حيث احْتَلَلْت السُّعود   وكان لك الله على كل حال[(١)]

ومن ترجمة الأعيان والوزراء والأماثل والكبرا

عبد الحق بن عثمن بن محمد بن عبد الحق بن مَحْيُو

يكنى أبا إدريس ، شيخ الغزاة بالأندلس .

حاله

كان شجاعا عفيفاً تقيا ، وقوراً جَلِداً ، معروف الحقّ ، بعيد الصِّيت . نازَع الأمرَ قومَه بالمغرب ، وانتزى بمدينة تازى ، على السلطان أبى الرَّبيع ، وأخذ بها البيعة لنفسه . ثم ضاق ذَرْعُه ، فعبر فيمن معه إلى تِلمسان . ولما هَلَك أبو الربيع ، ووَلِى السلطان أبو سعيد ، قدَّم للكَتْبِ فى شأنه إلى سلطان الأندلس ، وقد تعرَّف عزمَه على اللحاق ، ولم ينشِب أن لحق بألمرية من تلمسان ، فثُقِّف بها ، قَضاءً لِحَقٍّ من خاطب فى شأنه . ثم بدا للسلطان فى أمره ، فأَوْعَز لرُقبايه فى الغَفْلة عنه ، وفرَّ فلحق ببلاد النصرى[(٢)] فأقام بها ، إلى أن كانت الوَقيعة بالسلطان بغرناطة ، بأحواز قرية العَطْشا على يد طالبِ المُلْك أمير المسلمين أبى الوليد ، وأُمِر يومئذ شيخ الغزاة حَمُّو بن عبد الحق ، وترجَّح الرأى فى إطلاقه وصَرْفِه ، إعلانا للتَّهديد .

(١) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال . ولم ترد فى الزيتونة .
(٢) ومعنها هنا النصارى أى بلاد ملك النصارى أو ملك قشتالة .

فنجحت الحيلة ، وعُزل عن الخُطة ، واستُدعى عبد الحق هذا إليها ، فوصل غرناطة ، وقُدِّم شيخا على الغزاة . ولما تغلّب السلطان أبو الوليد على الأمر ، واستُوسق له ، وكان ممن شمله أمانه ، فأقرَّه مرؤوساً بالشيخ أبي سعيد عثمن بن أبي العلاء برهة . ثم لَحِق بأميره المخلوع نَصْر ، المستقرِّ مُوادَعاً بوادى آش ، وأوقع بجيش المسلمين مُظاهر الطاغية ، الوقيعة الشَّنيعة بقَرْمونة ، وأقام لديه مُدَّة . ثم لحق بأرض النَّصرى ، وأجاز البحر إلى سَبْتة . مظاهراً لأميرها أبي عمرو يحيى بن أبي طالب العَزَفى ، وقد كشف القِناع فى مُنابذة طاعة السلطان ، ملك المغرب ، وكان أمْلَك لما بيده . وأُتيح له ظَفَرٌ عظيم على الجيش المُضَيِّق على سبتة ، فبيَّته وهزمه . وتخلَّص له ولده ، الكائن بمضرب أمير الجيش فى بيت من الخَشَب رهينةً ، فصُرف عليه ، فما شِئت من ذِياع شهرة ، وبُعد صيت ، وكَرَم أُحْدُوثة . ثم بدا له فى التَّحول إلى تِلمسان ، فانتقل إليها ، وأقام فى إيالة ملكها عبد الرحمن بن موسى بن تاشُفِين إلى آخر عمره .

وفاته

توفى يوم دخول مدينة تلمسان عَنْوة . وهو يوم عبد الفطر من عام ثمانية وثلثين وسبعماية ؛ قُتل على باب منزله . يُدافع عن نفسه ، وعلى ذلك فلم يُشْهر عنه يومئذ كبير غِناء ، وكُوِّر واسْتَلْحم . وحُزَّ رأسه . وكان أُسوة أميرها فى المَحْيا والمَمات ؛ رحم الله جميعهم . فانتقل بانتقاله وقُتل بمَقْتله . وكان أيضاً عَلَماً من أعلام الحروب ، ومثلا فى الأبطال . ولَيْثًا من لُيوث النِّزال[1] .

---

(١) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال . ولم ترد فى الزيتونة .

عبد الملك بن على بن هُذيل الفَزارى وعبد الله أخوه

حالهما

قال ابن مَسْعدة : أبو محمد وأبو مروان تولَّيا خُطَّة الوزارة فى الدولة الحَبُّوسِيِة[١] . ثم تولَّيا القيادة بثغور الأَندلس ، وقهرا ما جاورهما من العدُوِّ . وغلباه . وسَقَياه كأْس المنايا ، وجرَّعاه . ولم يزالا قائمين على ذلك ، ظاهرين عَلَمَين ، إلى أن اسْتَشْهدا رحمهما الله[٢] .

عبد القهار بن مفرج بن عبد القهار بن هذيل الفزارى

حاله

قال ابن مسعدة ، كان بارع الأَدب ، شاعرا . نحويا . لُغَويا . كاتبا متوقِّد الذهن ، عنده معرفة بالطِّب ، ثم اعْتَزل الناس ، وانْقَبَض ، وقصد سُكنى البِشارات[٣] ، لينفرد بها ، ويُخفى نفسه ، فرارا من الخدمة ، فتهيَّأ له المُراد .

شعره

وكان شاعرا جيِّد القريحة سريع الخاطر ، ومن شعره :

يا صاح لا تعرض لزَوْجيَّة ... كلُّ البَلا من أَجلها يَعْتَرى
الفقر والذُّل وطول الأَسى ... لستُ بما أَذكره مُفْتَرى

---

(١) نسبة إلى حبوس بن ماكسن ، أمير غرناطة ، وأول أمرائها من البربر أيام الطوائف وقد حكم من سنة ٤١١ إلى سنة ٤٢٨ هـ .

(٢) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال ولم ترد فى الزيتونة .

(٣) هى المنطقة الجبلية الواقعة بين جبال سيرا نفادا (جبل شلير) وبين البحر جنوبى غرناطة ، وقد سبق التعريف بها . (أنظر ص ١٦٨ من هذا المجلد من الإحاطة) .

ما فى فم المرأة شئ سوى   اشْتَرلِى واشْتَرلِى واشتَرِ (١)

القضاة الفضلاء وأولا الأصليون

عبد الحق بن غالب [بن عطية] (٢) بن عبد الرحمن بن غالب بن عبدالرؤوف بن تمام بن عبد الله بن تمام بن عطية بن خالد بن عطية بن خالد بن خفاف بن أسلم بن مكتوم المحاربى

أوليّتـــه

من ولد زيد بن مُحارب بن عطيَّة ، نزل جدُّه عطية بن خِفاف بقرية قِسلة من زاوية غرناطة ، فأنسل كثيراً ممن له خطرٌ ، وفيه فضل .

حـــاله

كان عبد الحق فقيها ، عالما بالتفسير والأحكام والحديث والفقه ، والنحو والأدب واللغة ، مُقَيِّدا حسن التَّقييد ، له نظم ونثر ، وُلِّى القضاء بمدينة أَلمريَّة فى المحرم سنة تسع وعشرين وخمسماية ، وكان غاية فى الدَّهاء والذكاء ، والتَّهمُّم بالعِلْم ، سَرِيَّ الهمَّة فى اقتناء الكتب . توخَّى الحق ، وعَدَل فى الحكم ، وأعزَّ الخُطَّة .

مشيخته

روى عن الحافظ أبيه ، وأبوى على الغسَّانى والصَّدفى ، وأبى عبد الله محمد بن فرج مولى الطلاع ، وأبى المُطَرِّف الشعبى ، وأبى الحسين بن البيّان ، وأبى القاسم بن الحصّار المُقْرى ، وغيرهم .

---

(١) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال . ولم ترد فى الزيتونة .

(٢) الزيادة من الزيتونة .

تواليفه

أَلَّف كتابه المسمى « بالوجيز فى التفسير » فأَحسن فيه وأَبْدَع ، وطار بحسن نِيَّته كل مطار . وأَلف برنامجاً ضمنه مَرْوِيَّاته ، وأَسماءَ شيوخه ، وجَرَز وأَجاد .

شعره

قال الملاَّحى ، ماحدَّثنى به غير واحد من أَشياخه عنه ، قوله :

وليلة جِيتُ(١) فيها الجذع مُرْتديا ... بالسَّيف أَسحب أَذيالا من الظُّلَم
والنَّجم حَيْران فى بحر الدُّجا غَرِق ... والبَدْر فى طَيْلَسان اللَّيل كالعَلَم
كأَنما اللَّيل زَنْجى بكاهلــه ... جُرْحٌ فيَثْغَب أَحيانا له بــدَم

وقال يَنْدب عهد شبابه :

سُقياً لعهد شباب ظِلْت أَمـرح ... فى رَيْعانه وليالى العَيْش أَسحار
أَيام رَوْض الصِّبا لم تَذو أَغْصُنهُ ... ورَوْنَق العمر غضٌ والهوى حمار
والنَّفس تركُض فى تضْمين ثرَّتها ... طَرْفاً له فى زمان اللهو إحضـار
عهداً كريماً لبِسْنا منــه أَرديةً ... كانت عُيوناً ومُحيت فهى آثار
مضى وأَبْقَى بقلبى منه نار أَسىً ... كُونى سلاماً أَو بَرداً فيه يا نار
أَبَعْدَ أَن نَعِمَت نفسى وأَصبح فى ... ليل الشباب لصُبح الشَّيب أَسفار
ونازَعَتنى الليالى وانْثَنت كِسْراً ... عن ضَيْغَم ماله نابٌ وأَظفـار
أَلا سلاحُ خِلال أَخْلَصَت فلها ... فى مَنْهل المجد إيرادٌ وإصـدار
أَصْبُو إلى روض عَيْش رُوْضُه خَضِل ... أَو يَنْثَنى بى عن اللُّقيا إقصـار
إذا تعطَّلت كفِّى من شَبا قـلم ... آثاره فى رِياض العِلْم أَزهـار

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (بات) .

من روى عنه

روى عنه أبو بكر بن أبي جَمْرة ، وأبو محمد بن عبد الله ، وأبو القاسم ابن حُبَيْش ، وأبو جعفر بن مَضاء ، وأبو محمد عبد المنعم ، وأبو جعفر ابن حَكم ، وغيرهم .

مولده : ولد سنة إحدى وثمانين وأربعماية .

وفاته : توفى فى الخامس والعشرين لشهر رمضان سنة ست وأربعين وخمس ماية بمدينة لُورَقَة[1] . قَصَد مرسية يتولى قضاءها ، فصُدَّ عنها ، وصُرف منها إلى لُورَقَة ، اعتداءً عليه .

عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم بن فرج الخزرجى

من أهل غرناطة ، يكنى أبا محمد ، ويعرف بابن الفَرَس ، وقد تقدم ذكر طايفة من أهل بيته .

حاله

كان حافظاً جليلا ، فقيها ، عارفا بالنحو واللغة ، كاتبا بارعا ، شاعراً مَطْبوعا ، شهير الذكر ، عالى الصِّيت . وُلِّى القضاء بمدينة شُقْر ، ثم بمدينة وادى آش ، ثم بجيَّان ، ثم بغرناطة ، ثم عُزل عنها ، ثم وَلِيها الولاية التى كان من مُضمَن ظَهِيره بها ، قول المنصور له ، أقول لك ما قاله موسى عليه السلام لأخيه هٰرون ، إخْلِفْنى فى قَوْمى ، واصْلِحْ ولا تتَّبع سبيل المُفْسدين ، وجعل إليه النظر فى الحِسْبة ، والشُّرطة ، وغير ذلك ،

---

(١) سبق التعريف بها (أنظر المجلد الأول من الإحاطة ص ٤١٢ حاشيته) .

فكان إليه النظر فى الدِّماء فما دُونها ، ولم يكن يُقطع أمرٌ دُونه ببلده وما يرجع إليه .

وقال ابن عبد الملك ، كان من بيت عِلْم وجلالة ، مُسْتَبْحراً فى فنون المعارف ، على تفاريقها ، متحقِّقاً بها ، نافذا فيها ، ذكيَّ القلب . حافظاً للفقه . اسْتَظْهر أوان طَلَبِه للكِتابين ، المُدَوَّنة ، وكتاب سيبويه وغيرهما ، وعُنِى به أَبوه وجدُّه عناية تامة . وقال أبو الربيع بن سالم ، سمعت أَبا بكر ابن الجدِّ ، وحَسْبُك شاهدا ، يقول غيرما مرة : ما أَعْلَمُ بالأَندلس ، أَحْفَظَ لمذهب مالك من عبد المنعم بن الفَرَس ، بعد أَبى عبد الله بن زَرْقون .

مشيخته

روى عن أَبيه الحافظ أَبى عبد الله ، وعن جده أَبى القاسم ، سمع عليهما وقرأَ ، وعن أَبى بكر بن النَّفِيس ، وأَبى الحسن بن هُذَيل ، وأَبى عبد الله ابن سعادة ، وأَبى محمد عبد الجبار بن موسى الجذامى ، وأَبى عامر محمد ابن أحمد الشِّلْبى ، وأَبى العباس أحمد وأَخيه أَبى الحسن ابنى زيادة الله . هذه جملة من لقى من الشيوخ وشافهه وسمع منه · وأجاز له من غير لقاء وبعضهم باللِّقاء من غير قراءة ، ابن ورد ، وابن بَقِى ، وأبو عبد الله ابن سليمن التونسى ، وأبو جعفر بن قبلال ، وأبو الحسن بن الباذش ، ويونس بن مغيث ، وابن مُعَمَّر ، وشُريح ، وابن الوحيدى ، وأبو عبد الله ابن صاف ، والرُّشاطى ، والحِمْيرى ، وابن وضَّاح ، وابن موهب ، وأَبو مروان الباجى ، وأَبو العباس بن خلف بن عيشون ، وأبو بكر بن

طاهر ، وجعفر بن مكّي ، وابن العربي ، ومساعد بن أحمد بن مساعد ، وعبدالحق بن عطية ، وأبو مروان بن قُزْمان ، وابن أبي الخِصال ، وعياض ابن موسى ، والمَازَرِى ، وغيرهم .

تواليفه

ألف عدة تواليف : منها كتاب الأحكام . ألفه وهو ابن خمسة وعشرين عاماً ، فاستوفى ووفّى ، واختصر الأحكام السلطانية ، وكتاب النَّسب لأبي عبيد بن سلام . وناسخ القرآن ومنسوخه لابن شاهين ، وكتاب المُحْتَسب لابن جِنّي . وألّف كتابا فى المسايل التى اختلف فيها النحويون من أهل البصرة والكوفة ، وكتابا فى صناعة الجدَل . ورد على ابن غَرْسِيَّة فى رسالته فى تفضيل العجم على العرب . وكتب بخطه من كتب العربية واللغة والأدب والطب وغير ذلك .

من روى عنه

حدَّث عنه الحافظ أبو محمد القرطبي ، وأبو على الرُّندى ، وإبنا حَوْطِ الله ، وأبو الربيع بن سالم ، والجمُّ الغفير .

شعره

[أبَى ما بقلبي اليوم أن يتكَتَّما — وحَسْبُك بالدمع السَّفوح مُتَرْجِما
وأعجِبْ به من أخرسَ بات مُفْصِحا — يُبَيِّنُ للواشين ما كان مُبْهما
فكم عَبْرة فى نهر شُقْرٍ بعثتها — سباقا فأمسى النهر مُخْتَضبا دما
يرجع ترجيع الأنين اضطراره — كشكوى الجَريح للجريح تألُّما
كَمَلْن بصحبى فى قَوفة الدمع ناثرٌ — شَقايق نُعمان على مَتْن أرقما
ولله ليلٌ قد لَبست ظلامه — راداً بأنوار النجومِ مُنَمْنِما

أناوح فيه الوِرق فوق غصونها فكم أَوْرَقَ منهنَّ قد بات مُعْجما
ومالى إلا للفَرقَدين مُصاحب ويا بُعْد حالى فى الصَّبابة منهما
أبيتُ شَتِيت الشَّمل والشَّمل فيهما جَميعٌ كما أبصرتُ عِقدا مُنَظَّما
فياقاصداً تُدْمِير عَرِّج مُصافحا نسأَلك رَسْها بالعَقيق ومَعْلَما
وأَعْلِم بأبواب السلام صَبابتى كما كان عَرف المِسْك بالمسك علَّما
وإن طُفْت فى تلك الأَجارع لاتُضِع بحقٍّ هواها إن لم تُلِمَّ مُسَلِّما
وما ضرَّها لو جاذَبت ظَبْية النَّقا فضول رداء قد تَغَشَّته مُعلما
فيُثْنى قضيباً أثمر البدر مايساً بحَقْف مَسيل لفَّه السَّيْل مُظلما
وما كنتَ إلاَّ البدر وافى غمامةً فما لاح حتى غاب فيها مُغَيَّما
وما ذاك من هَجر ولكن لشَقْوة أَبَتْ أن يكون الوَصْل منها مُتَمَّما
فياليتنى أَصبحتُ فى الشعْر لَفْظة تردِّدُنى مهما أَردت تَفَهُّما
ولله ما أذكى نَسيمك نَفْحةً أأنت أعَرْت للرَّوضِ طيباً تَنَسما
ولله ما أَشْفَى لِقاك للجَوى كأنَّك قد أصبحت عيسى بن مَرْيما
وما الرَّاح بالماءِ القَراح مشوبةً بأَطْيَبَ من ذِكراك إن خامَرَتْ فَما
فمالى وللأَيام قد كان شَمْلنا جَميعاً فأَضحى فى يَدَيْها مُقسَّما
وما جَنَيتُ الطِّيب من شَهْد وَصْلها جَنَيتُ من التَّبديد للوصل عَلْقما
وقد ذُقت طعم البَيْن حتى كأَننى لأُلفة من أهواه ما ذقت مَطْعما
فمن لفؤاد شَطره حازه الهوى وشَطرٌ لإِحراز الثَّواب مُسَلما
وياليت أَنَّ الدّار حان مزارُها فلو صحّ قربُ الدار أدركت مَغْنما
ولو صح قرب الدار لى لجعلتُه إلى مُرتَقى السُّلوان والصبر سُلَّما
فقد طال ما ناديت سِرّاً وجَهْرة عسى وطن يَدْنو بهم ولَعَلَّما ؟

ومن شعره :

سلامٌ على من شفَّنى بعدُ داره   وأَصبحتُ مشغوفاً بقرب مزاره
ومن هو فى عَينى أَلذُّ من الكَرى   وفى النفس أَشْهَى من أَمان المكاره
سلام عليه كلما ذرَّ شارق   يَنُم كعَرْف الزهر غبّ فطاره
لعَمْرك ما أَخشى غداة وداعنا   وقد سَعَرت فى القلب شعلة ناره
وسال على الخدَّين دمعٌ كأَنه   بقيةُ ظلٍّ للروض فى جِلْناره
وعانقتُ منه غُصْنَ بانٍ منعَّماً   ولا حظت منه الصُّبح عند اشتهاره
وأَصبحتُ فى أَرض وقلبى بغيرها   وما حال مَسْلوب الفؤاد مُكاره
نأَى وجهُ من أَهوى فأَظلم أفقُه   وقد غاب عن عينيه شمس نهاره
سَلِ البرق عن شَوْقى يُخْبِرك بالذى   أُلاقيه من بَرْح الهوى وأُواره
وهل هو إلاّ نار وَجْدى وكلما   تنفَّست عمَّ الجوّ ضوءُ شراره][1]

ومن شعره أَيضا رحمة الله عليه :

أَقرأ على شِنْجلٍ[2] سلاما   أَطْيَب من عَرْفه نَسيما
من مُغرم القلب ليس ينسى   منْظَره الرايق الوَسيما
إذا رأى مَنْظَرا سواه   عاف الجَنَى منه والشَّميما
وإن أتى مَشْربا حميدا   كان وإن راقه ذَميما
وقَف بنَجْد وقوف صبٍّ   يستذكر الخِدْن والحَميما
وأندب أَراكاً بشُعب رَضْوى   قد رَجَعت بعدنا مَشِيما
وأذكر شباباً مضى سريعا   أَصبحتُ من بعده سقيما

(١) هذا الشعر المحصور بين الحاصرتين وارد فى الاسكوريال وساقط فى الزيتونة .
(٢) شنجل يقصد بها هنا نهر شنيل ، وهو فرع الوادى الكبير الذى تقع عليه غرناطة ، ويعرف عند الأندلسيين أيضا بنهر سنجيل أو شنجيل محرفا عن اسمه اللاتينى Singilis . وقد سبق التعريف به (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ١٦٨) .

هيهات ولّى وجاء شَيْبٌ وكيف للقلب أن يَهيما
ما يُصلح الشَّيب غير تقوى تَحْجُب عن وجهه الجَحيما
فى كل يوم له ارتِحال أعْجِب به ظاعناً مقيما
ما العُمْر إلاّ لديه دَيْن قد آن أن يقضى الغريما
فعد إلى توبة نَصوح وارج إلَهاً بنا رَحيما
قد سبق الوعد منه حتى أَطْمعَ ذا الشِّقْوة النَّعيما

مولده فى سنة أربع وعشرين وخمسماية

« وفاته » : عصر يوم الأَحد الرابع من جمادى الآخرة سنة سبع وتسعين وخمسماية . وشهد دفنه بباب إلبيرة الجم الغفير ؛ وازدحم الناس على نعشه حتّى حملوه على أكفّهم ومزّقوه . وأمر أن يكْتب على قبره :

عليك سلام الله يا من يُسلم ورحمته مازُرْتَنى تترحَّم
أتحسَبُنى وحدى نُقلت إلى هنا ستَلْحق بى عما قريب فتَعْلم
فيا لمن يُمسى لدنياه مؤْثرا ويُهمل أُخراه ستَشْقى وتَنْدم
فلا تَفْرحنَّ إلا بتقديم طاعة فذاك الذى يُنجى غدا ويُسَلِّم

ومن غير الأصليين

عبد الحكيم بن الحسين بن عبد الملك بن يحيى بن ياسيو بن تاذْرَرْت التِّمالى اليدرازتينى ثم الواغدينى

أَصله من تينملل[1] من نظر مَرّاكُش ، وانتقل جدُّه عبد الملك مع

(١) تينملل بلدة من بلاد السوس بالمغرب الأقصى ، تقع فوق سفح جبال الأطلس جنوب غربى مراكش . وقد اتخذها المهدى ابن تومرت فى أواخر حياته مركزا لدعوته ورياسته ، وأقام بها مسجده الذى ما زال باقيا إلى اليوم ، ثم دفن فيه عقب وفاته .

الخليفة عبد المؤمن بن على إلى إقليم بجاية . ونشأ عبد الملك ببجاية ، وانتقل إلى تونس فى حدود خمسة وثمانين . وورد أبو محمد الأندلس فى حدود سبعمائة .

حـــاله

من تعريف شيخنا أبي البركات : كان من أهل المعرفة : بالفقه وأصوله ، على طريقة المتأخرين .وكان مع ذلك رجلا كريم النفس ، صادق اللّهجة ، سليم الصدر ، مُنصفا فى المذاكرة . قلتُ يجمع هذا الرجل إلى ما وصفه به ، الأَصالة ببلده إفريقية . وثبتٌ اسمه فى "عايد الصلة" بما نصه : الشيخ الأستاذ القاضى ، يكنى أبا محمد . كان رحمه الله من أهل العلم بالفقه ، والقيام على الأَصلين ، صحيح الباطن ، سليم الصدر ، من أهل الدين والعدالة والأَصالة . بَثَّ فى الأَندلس علم أصول الفقه : وانتفع [به][1] وتصرَّف فى القضاء فى جِهات .

مشيخته

منقولا من خطٍّ ولده الفقيه أبي عبد الله صاحبنا ، الكاتب بالدار السلطانية . قرأ ببلده على الفقيه الصَّدر أبي على بن عَنوان ، والشيخ أبي الطاهر بن سرور ، والإمام أبي على ناصر الدين المِشْدالى ، والشيخ أبي الشَّمل جماعة الحلبى ، والشيخ أبي الحجاج بن قَسُوم وغيرهم . [ومن خط المحدِّث أبي بكر بن الزيات ، يحمل عن أبي الطاهر بن سرور ، وعن أبي إسحق بن عبد الرفيع][2] .

(١) أضفناه الكلمة ليستقيم السياق .

(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى نهاية الفقرة الخاصة « بتواليفه » ولكنا رأينا أنها أولى بأن توضع مع « المشيخة » .

تواليفه

من تواليفه : «المعانى المُبْتكرة الفكرية فى ترتيب المعالم الفِقهية» ، «والإيجاز فى دَلالة المجاز» ، ونُصرة الحق، وردٌ الباغى فى مسألة الصَّدَقة ببعض الأُضحية ، والكُرّاس المرسوم «بالمباحث البديعة فى مقتضى الامر من الشريعة» .

مولده

ببجاية فى أحد لجمادى الأُولى من عام ثلاثة وستين وستمائة .

وتوفى قاضيا بشالش [1] يوم الجمعة ، وهو الرابع عشر لجمادى الأُولى من عام ثلاثة وعشرين وسبعماية . ودفن بجبانة باب إلبيرة بمقربة من قبر ولى الله أبى عبد الله التونسى . وكانت جنازته مشهورة [2] .

ومن المقريين والعلماء

عبد الملك بن حبيب بن سليمن بن هرون بن جلهمة [3] بن العباس بن مرداس السلمى

أَصله من قرية قورت ، وقيل حصن واط من خارج غرناطة ، وبها نشأَ وقرأَ .

حـــاله

قال ابن عبد البَر . كان جَمّاعا للعلم ، كثير الكَتْب، طويل اللسان ،

(١) لم نجد فى القرى الغرناطية المعاصرة ، أية بلدة يتفق إسمها أو يقترب من اسم هذه البلدة والظاهر أنها من الأماكن التى دثرت .

(٢) هذه الترجمة واردة فى الإسكوريال . وساقطة فى الزيتونة .

(٣) كذا فى الإسكوريال والزيتونة ، وفى ترتيب المدارك (الرباط ج ٤ ص ١٢٢) .

فقيها ، نحويا ، عَروضيا ، شاعرا ، نّسابة ، إخبارياً . وكان أكثر من يختلف إليه ، الملوك وأَبناؤهم . قال ابن مخلوف ، كان يأتى إلى معالى الأُمور . وقال غيره ، رأيته يخرج من الجامع ، وخلفه نحو من ثلاثمائة ، بين طالبِ حديثٍ ، وفرايض ، وفقه ، وإعراب ، وقد رتَّب الدُّول عليه ، كل يوم ثلاثين دولة ، لا يُقرأُ عليه فيها شيءٌ الا تواليفه ، وموطَّأُ مالك . وكان يلبس الخزَّ والسَّعيد [1] . قال ابن نمير ، وإنما كان يفعله إجلالا للعلم ، وتَوْقيرا له . وكان يلبس إلى جسمه ثوب شَعْر ، وكان صوّاما قوّاما . وقال المغامى ، لو رأيتَ ما كان على باب ابن حبيب ، لازْدَرَيتَ غيره . وزعم الزَّبيدى ، أنه نُعى إلى سُحنون [2] فاسترجع ، وقال مات عالم الأَندلس . قال ابن الفَرَضى ، جمع إلى إمامته فى الفقه ، التبحبُّح فى الأَدب ، والتفنُّن فى ضروب العلوم ، وكان فقيها مُفْتيا . قال ابن خَلَف أبو القاسم الغافقى ، كان له أَرضٌ وزيتون بقرية بِيرة من طوق غرناطة ، حَبَس جميع ذلك على مسجد قرطبة . وله ببيرة مسجد ينسب إليه . وكان يهبط من قرية قورت يوم الإثنين والخميس إلى مسجده ببيرة ، فيُقْرأ عليه ، وينصرف إلى قريته .

مشيخته

روى عن صَعْصَعة بن سلاّم ، والغازى بن قيس ، وزياد بن عبد الرحمن . ورحل إلى المشرق سنة ثمان ومائتين . وهو ابن ثلاث وثلاثين

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (السعيرى) .

(٢) سحنون بن سعيد من أعظم أقطاب الفقه المالكى، وازدهرت مدرسته الفقهية بالقيروان فى أوائل القرن الثالث ، وتوفى بها سنة ٢٤٠ هـ .

سنة ، وكانت رحلته من قريته بفحص غرناطة[١] ، وسمع فيها من عبد الملك بن الماجشون ، ومطرِّف بن عبد الله ، وأَصْبَغ بن الفَرَج ، وابنه موسى ، وجماعة سواهم ، وأقام فى رحلته ثلاثة أعوام وشهورا . وعاد إلى إلبيرة ، إلى أن رحّله عبد الرحمن بن الحكم إلى قرطبة ، فى رمضان سنة ثمان عشرة ومائتين .

« من روى عنه » : سمع منه إبناه محمد وعبد الله ، وسعيد بن نمر ، وأحمد بن راشد ، وإبراهيم بن خالد ، وإبراهيم بن شُعيب ، ومحمد بن فُطيس . وروى عنه من عظماءِ القرطبيين ، مطرِّف بن عيسى ، وبَقِى بن مَخْلد ، ومحمد بن وضّاح ، والمقامى فى جماعة .

تواليفه

قال أبو الفضل عِياض بن موسى ، فى كتابه فى أصحاب مالك[٢] قال بعضهم ، قلت لعبد الملك بن حبيب . كم كُتُبك التى ألفت ، قال أَلْفُ كتاب وخمسون كتابا . قال عبد الأعلى ، منها كتب المواعظ سبعة ، وكتب الفضايل سبعة ، وكتب أَجْواد قريش وأخبارها وأنسابها خمسة عشر كتابا ، وكتب السلطان وسيرة الإمام ثمانية كتب ، وكتب الباه والنساء ثمانية ، وغير ذلك . ومن كتب سماعاته فى الحديث والفقه ، وتواليفه فى الطب ، وتفسير القرآن ، ستُّون كتابا . وكتاب المغازى ، والنّاسخ والمَنْسوخ ، ورغايب القرآن ، وكتاب الرُّهون والحِدثان[٣] ، خمسة وتسعون كتابا . وكتاب مقام رسول الله صلى عليه وسلم ، اثنان وعشرون

---

(١) فحص غرناطة La Vega de Granada ، هو البسيط الأخضر الواقع جنوب شرق غرناطة . وقد سبق التعريف به (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ٩٩) .

(٢) هو كتاب « ترتيب المدارك ، وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك » .

(٣) وردت فى الإسكوريال (المغازى) مرة أخرى ، والتصويب من الزيتونة .

كتابا ، وكتاب فى النَّسب ، وفى النجوم ؛ وكتاب الجامع ، وهى كتب فيها مناسِك النَّبى ، وكتاب الرَّغايب ، وكتاب الوَرَع فى المال ، وكتاب الرِّبا . وكتاب الحُكْم والعَدْل بالجوارح . ومن المشهورات الكتاب المسمى بالواضِحة . ومن تواليفه كتاب إعراب القرآن ، وكتاب الحِسْبة فى الأَمراض ؛ وكتاب الفرايض ؛ وكتاب السَّخاء واصْطِناع المعروف ، وكتاب كراهية الغِناء .

شعره

أنشد ابن الفرضى مما كتب بها إلى أهله من المشرق سنة عشر ومايتين :

أحبُّ بلاد الغرب والغربُ موطنى ... ألا كلُّ غربىٍّ إلىَّ حبيب
فيا جَسَداً أضناه شوقٌ كأنَّه ... إذا انتُضِيت عنه الثِّياب قَضِيب
ويا كبِداً عادت زمانا[1] كأنما ... يلذَغُها بالكاويات طَبيب
بُليت وأبلانى اغترابى ونأيه ... وطولُ مُقامى بالحجاز أجُوب
وأهلى بأقْصَى مغرب الشمس دارُهم ... ومن دونهم بحرٌ أجشُّ مَهيب
وهَول كَريه ليلُه كنهاره ... وسيرٌ حَثيث للرِّكاب دؤوب
فما الداء إلا أن تكون بغُربْةٍ ... وحَسْبُك داءٌ أن يُقال غريب
فيا ليت شِعرى هل أبيتنَّ ليلةً ... بأكْناف نهر الثَّلج حين يصوب
وحولى أصحابى[2] وبِنتى وأمها ... ومعشرُ أهلى والرؤوف مُجيب

وكتب إلى الأمير عبد الرحمن فى ليلة عاشوراء :

---

(١) وردت فى الإسكوريال (أزمانا) والتصويب من المدارك (ج ٤ ص ١٣٩) .
(٢) وردت فى الإسكوريال (وأصحابى) ، والتصويب من المدارك .

لا تَنْس لا يُنْسِكَ الرحمن عاشوراء　　واذكره لازلت فى الأَحياء مذكورا
قال الرسول صلاة الله تَشْمَله　　قولا وجدنا عليه الحقَّ والنورا
من بات فى ليل عاشوراءِ ذا سَعَة　　يكُنْ بعَيْشه فى الحَوْل محبورا
فارغب فدَيْتُك فيما فيه رغبتنا　　خير الورى كلِّهم حيّاً ومقبورا

وفـــاته

توفى فى ذى الحجة سنة ثمانى وثلاثين ، وقيل تسع وثلاثين ومايتين . قال ابن خَلَف ، كان يقول فى دعائه ، إن كنت يارب راضيا عنى ، فاقبضنى إليك قبل انقضاء سنة ثمان وثلاثين ، فقبضه الله فى أَحبِّ الشهور إليه ، رمضان من عام ثمانية وثلاثين ، وهو ابن أَربع وستين سنة ، وصلى عليه ولده محمد ، ودفن بمقبرة أُم سَلْمة بقِبلى محراب مسجد الضِّيافة من قرطبة . قالوا ، والخبر متصل ، إنه وُجد جسده وكفَنَه وافرين لم يتغيرا بعد وفاته ، بتسع وأَربعين سنة ، وقُطعت من كفنه قطعة ، رُفعت إلى الأَمير عبد الله ، وذلك عندما دُفن محمد بن وضّاح إلى جنبه ، رحمهم الله. ورثاه أَبو عبد الله الرشّاش وغيره ، فقال :

لئن أَخَذَتْ منا المنايا مُهَذَّبا　　وقد قل[1] فيها من يُقال المهذَّب
لقد طاب فيه الموت والموت غِبْطة　　لمن هو مغمُوم الفـؤاد مُعَذب

ولأحمد بن ساهى فيه :

ماذا تضمَّن قبرٌ أَنت ساكنُه　　من التُّقى والنَّدى ياخير مفقود
عجبتُ للأَرض فى أن غيَّبتك　　وقد ملأْتَها حِكَماً فى البيض والسُّود

(١) هكذا فى الإسكوريال . وفى الزيتونة (قيل) .

قلت[1] : فلو لم يكن من المفاخر الغرناطية إلا هذا الحَبْر لكفى .

ومن الطارئين عليها

عبد الواحد بن محمد بن على بن أبى السَّداد الأموى المالقى ، الشهير بالباهِلى

حــــاله

كان رحمه الله بعيدَ المدى ، منقطع القَرين فى الدِّين المتين والصلاح ، وسكون النفس ، ولين الجانب ، والتواضع ، وحُسْن الخُلُق . إلى وسامة الصُّورة ، وملاحة الشَّيْبة ، وطيب القراءة . مولى النِّعمة على الطَّلَبة من أهل بلده . أستاذا حافلا ، متفنِّنا ، مضطَّلعا ، إماما فى القراءات ، حايزا خَصْل السباق إتقانا ، وأداءً ، ومعرفة ، ورواية ، وتحقيقا . ماهرا فى صناعة النحو ، فقيها ، أُصوليّاً ، حسن التعليم ، مستمر القراءة ، فسيح التَّخْليق ، نافعا ، متحبِّبا ، مقسُوم الأَزمنة على العِلم وأهله ، كثير الخضوع والخشوع ، قريب الدِّمعة . أقرأ عمره . وخطب بالمسجد الأعظم من مالقة وأخذ عنه الكثير من أهل الأندلس

مشيخته

قرأ على الأستاذ الإمام أبى جعفر بن الزبير ، وكان من مفاخره ، وعلى القاضى أبى على بن أبى الأحوص . وعلى المقرئ الضَّرير أبى عبد الله محمد بن على بن الحسن بن سالم بن خلف السُّهيلى ، والرَّاوية أبى الحجاج ابن أبى ريحانة المربلىّ . وكتب له بالإجازة العامة ، الرّاوية أبو الوليد العطّار ، والإمام أبو عبد الله بن سمعون الطّائى . وسمع على الراوية أبى عمر عبد الرحمن بن حَوْط الله الأنصارى . وقرأ على القاضى أبى القاسم ، قاسم

(١) هكذا فى الإسكوريال . فى الزيتونة (قال ابن الخطيب) .

ابن أحمد بن حسن الحِجْرى الشهير بالسَّكُوت المالقى ، وأخذ عن الشيخ الصالح أبى جعفر أحمد بن يوسف الهاشمى الطَّنجالى ، وغيرهم ممن يطول ذكرهم . ويحمل عن خاله ولى الله أبى محمد عبد العظيم ابن ولى الله محمد بن أبى الحجاج ابن الشيخ رحمه الله .

«تواليفه» : شرح التَّيسير فى القراءات . وله تواليف غيره فى القرآن والفقه .

شعره

حدَّث الشيخ الفقيه القاضى أبو الحجاج المُنْتَشافرى . قال . رأيت فى النَّوم أبا محمد الباهلى أيام قراءتى عليه بمالقة فى المسجد الجامع بها ، وهو قائم يذكِّر الناس ويعظهم . فعقِلت من قوله . أتحسبوننى غنيًّا فقيرا ، أنا فقير ، أنا . فاستيقظت وقصصتها عليه : فاستغفر الله . وقال ، يا بنىَّ حقا ما رأيتَ . ثم رفع إلىّ ثانى يوم تَعْرِيفه : رُقعة فيها مكتوب :

لئن ظن قوم من أهل الدُّنـا بأَن لهم قـوَّة أَو غِنـا

لقد غَلِطوا ويْحُهم بجمع مالِهم فتاهـوا عقولا وعُمُوا أَعْيُنا

فلا تَحْسَبونى أَرى رأيهـم فإنىِّ ضعيف فقـير أَنـا

وليس افتِقارى وفقـرى معـا إلى الخالقِ[1] فما عند خَلْقٍ غِنا

ولكن إلى خالـقى وحـده وفى ذاك عزٌّ ونيـل المُنـا

فمن ذَلَّ للحق يَرْقَ العُـلا ومن ذلَّ للخالق يَذُق العَنـا

وفاته

ببلده مالقة رضى الله عنه ، ونَفَع به ، فى خامس ذى القعدة من عام خمسة وسبعماية . وكان الحفل فى جِنازته عظيما ، وحف الناس بنعشه ، وحمله الطَّلبة وأهل العلم على رؤوسهم سكن غرناطة وأقرأ بها .

(١) هكذا وردت فى الزيتونة . وفى الإسكوريال (لخلق) .

ومن الـكتاب والشعراء فى هذا الحرف

عبد الحق بن محمد بن عطية بن يحيى بن عبد الله بن طلحة بن أحمد بن عبد الرحمن بن غالب بن عطية المحاربى

صاحبنا الكاتب للدولة الغادرة .

حـــاله

كان هذا الرجل فى حال الدَّعة التى استَصْحبها ، وقبل أن تَبعته أيدى الفضول . بعفاف وطهارة ، إلى خَصْل خطٍّ ، نشط البَنان ، جَلِد على العمل . ونظمه وسَط ، ونثره جَمهورى[١] عامى ، مُبين عن الأغراض . ووُلِّى ببلده الخطابة والقضاء . . . [٢] فى الحداثة . ثم انتقل إلى غرناطة . فجَاجأَت به الكتابة السلطانية باختيارى ، مُستَظهرة منه ببَطَل كفاية ، وباذِل حِمْل كُلْفَة ، فانتقل رئيسا فى غرض إعانتى ، وانتشالى من الكُلْفة ، على الضَّعف وإلمام المرض ، والتَّرفُّع عن الابتِذال ، والأَنَفة من الاستخدام ، فرفع الكَلّ ، ولطُف من الدولة محلُّه . ثم لما حال الأَمر ، وحَتُم التَّمحيص ، وتُسُوِّرت القلعة ، وانتشر النَّظم ، واستأْثر به الاصْطِناع ، كشَفَت الخِبْرة منه عن سَوْءةٍ لا تُوارى ، وعَوْرَةٍ لا يُرتاب فى أُشْنوعَتها ولا يُتَمارى ، فسبحان من عَلَّم النفس فجورَها وتقواها ، إذ لَصِق بالدّايل الفاسق ، فكان آلة انتقامه ، وجارِحَة صيده ، وأُحْبُولة

---

(١) وردت فى الإسكوريال (جهوزى) ، والتصويب أرجح .

(٢) بياض بالإسكوريال .

كَيْده ، فسفَكَ الدِّما ، وهَتَكَ الأَسْتار ، ومزّق الأَسباب ، وبدَّل الأَرض غير الأَرض ، وهو يزقُّه فى أُذنه ، فيؤم النَّصيحة ، ويَنْحله لقب الهداية ، ويبلُغ فى شدِّ أَزره إلى الغاية : « عُنوان عقل الفتى اختياره . يجرى فى جميل دَعوته » . طُوالاً ، أَخرَق ، بُسيِءُ السمع ، ويَنْسى الإجابة ، بدويّاً ، قُحًّا ، جَهْوَريا ، ذاهلا عن عواقب الدنيا والآخرة : طِرْفاً فى سوءِ العهد ، وقلَّة الوفا ، مردُوداً فى الحافِرَة ، مُنسَلخا من آية السَّعادة ، تشهد عليه بالحمل يدُه ، ويقيم عليه الحُجج شرهُه ، وتبُوه هفوات الندم جهالته . ثم أَسْلَمَ المحروم مُصْطَنعه ، أَحوجُ ما كان إليه ، وتبرَّأَ منه ، ولَحِقته بعده مُطالبة ماليَّة . لَقِى لأَجلها ضَغْطا . وهو الآن بحال خِزْيٍ ، واحِتقاب تَبِعات ، خلَّصنا الله من وَرْطات الدُّنيا والآخرة .

أَوليته وشيوخه

وبَسْطُ كثير من مُجْمل حاله حسبما نقلت من خطه.

قال يخاطبنى بما نصه :

يا سيِّداً فاق فى مجد وفى شرف ... وفات سَبْقاً بفضل الذات والسَّلف
وفاضلا عن سبيل الذَّم مُنْحرفاً ... وعن سبيل المعالى غير مُنْحَرف
وتحفةَ الزَمن الآتى فلقد ... أَرْبَى بما حازه منها على التُّحف
ومعدناً لنفيس الدُّر فهو لما ... حواه منه لدى التَّشْبيه كالصَّدَف
وبحرُ بعِلْم جميع الناس مُغْتَرفٌ ... منه ونَيْل المعالى حظّ مُغْترف
وسابقاً بَذَّ أَهل العصر قاطبةً ... فالكُلُّ فى ذاك منهم غير مختلف
من ذا يُخالف فى نارٍ على علم ... أَويجحَدالشمس نوراً وهو غيرخَفِ
ما أَنت إلا وحِيدُ العصر فى شِيمٍ ... وفى ذكاءٍ وفى علم وفى ظَرْف
لله من مُنتَمٍ للمجد مُنْتَسبٍ ... بالفضل مُتَّسم بالعِلم مُتَّصف

لله من حَسَبٍ عُدَّ ومن كـرم　　قد شاده السَّلفُ الأَخْيار لِلخلَف
أَيهِ أيامن به تَبْأَى الوزارة إذ　　كنتَ الأَحقَّ بها فى الذَّات والشرف
يا صاحب القلم الأَعلى الذى جُمعت　　فيه المعالى ببعضِ البعضِ لم أَصِف
يا من يَقْصُر وصْفِى فى عُلاه ولو　　أَنْسَى مديح حبيبِ فى أَبى دُلف
شرَّفتنى عندما استَدْعيت من قِبَلى　　نظما تدوِّنه فى أَبدع الصَّحف
وربما راق ثَغْرٌ فى مَباسمه حتى　　إذا نـالَـهُ إلمـام مُرْتِشف
أَجلٌّ قَدْرك أن ترضى لمُنْتَجع　　بسَوءِ كَيْلته حظًّـا مع الحَشَف
هذا ولو أَننى فيما أَتيتُ به　　نافحتُ فى الطِّيب زَهْر الرَّوضة الأُنِف
لكنت أُفْضى إلى التَّقصير من خجل　　أَخْلَيْتُ بالبعض مما تستحق أَف
فحَسْبى العَجْزُ عما قد أَشرت به　　والعجز حَتْماً قُصارى كلِّ مُعترف
لكن أَجبتُ إلى المطلوب مُمْتثِلا　　وإن غدوتُ بمَرْمَى القَوْم كالهَدَف
فانظر إليها بعين الصَّفح عن زَلل　　واجعل تصَفُّحها من جُملة الكُلَف
بقِيتَ للدهـر تَطْويـه وتَنْشره　　تسمو من العزِّ باسمٍ غير مُنْصَرف

جيتك ، أعزك الله ، ببضاعة مُزْجاة ، وأَعْلَقْت رَجاى من قبولك بأُمْنِية مُرْتجاة ، وما مثلك يُعامل بسَقْط المتاع ، ولا يُرضى له بالحَشَف مع بخَسْ المدِّ والصّاع . لكن فضلك يُغْضى عن التَّقصير ويسمح ، ويَتجَاوز عن الخطإِ ويَصْفح ، وأنت فى كل حال إلى الأَدْنَى من الله أَجْنَح . ولولا أَنَّ إشارَتَك واجبة الامتثال ، والمُسَارعة إليها مُقَدَّمة على ساير الأَعمال ، لما أَتيتُ بها تَمشْى على استِحياءِ ، ولا عرَّضتُ نفسى أن أقف مَوْقف حِشْمة وحياء ؛ فما مَثَلى فيما أَعْرضه عليك ، أَو أَقدِّمه من هذا الهَذَر بين يديك ، إلا مَثَلُ من أَهدى الخَرز لجالب الدُّر ، أَو عارض لِلْوَشَل موج البحر ، أَو كاثر بالحَصى عدَدَ الأَنْجُم الزُّهر . على أَنى لو نظمتُ الشِّعرى

شِعراً ، وجِيتُك بالسِّحر الحلال نظماً ونثراً ، ونافَحْتُك بمثل تلك الرَّوضة الأَدبية ، التي تَعْبَق أزاهرها نشرا ؛ لما وَصَفْتُك ببعض البعض من نَفايس خُلاك ، ولا وفَّيْتُ ما يجب من نشر مآثر عُلاك . فما عسى أن أقول فى تلك المآثر العِلْمية ، والذَّات الموسومة باسم التعريف والعَلَميَّة ، أَو أُعبِّر عنه فى وصف تلك المحاسن الأَدبية ، والمفاخر الحَسَبيَّة . إن وصفت مالَك من شرف الذات ، مِلْتُ إلى الاختِصار ، وقلت آية من الآيات . وإن ذهبت إلى ذكر مفاخرك الباهرة الآيات ؛ بلغتُ فى مدى الفَخْر والحَسَب إلى أَبعد الغايات ، وإن حَلَّيْتُك ببعض الحُلا والصِّفات ؛ سَلَبتُ محاسن الرَّوض الأَريج النَّفَحات . فكم لك من التَّصانيف الرايقة ، والبدائع الفائقة ، والآداب البارعة ، والمحاسن الجامعة . فما شِيت من حدايقَ ذات بهجة ، كأَنما جادَتْها سُحُب نيسان ، وجنّات ثمراتها صِنْوان وغيرُ صِنوان ؛ تُزْرى ببَدايع بديع الزَّمان ، وتُخْجل الروض كما يُخْجل الوردُ ابتسام الأُقْحوان . نظمٌ كما انتثر الدُّر ، ونثر تَتَمنَّى الجَوزاء ، أن تتقلَّده والأُنجم الزُّهر ، ومعانٍ أرقُّ منْ نسيم الأَسحار ؛ تهبُّ على صفحات الأَزهار . فأَهلاً بك يا رَوْضة الآداب ، وربَّ البلاغة ، التى شمس آياتها لا تتوارى بالحجاب ، فما أَنت إلا حَسَنَةُ الزَّمان ، ومالِكُ أَزِمَّة البيان ، وسبّاق غايات الحسن والإحسان . وقد وجدتُ مكان القول ذا سَعة فى إوصافك ، وما فى تَحلِّيك بالفضائل واتِّصافك . لكنِّى رأَيت أَنى لو مدَدْتُ فى ذلك باع الإطْناب ، وأتيتُ فيه بالعَجب العجاب ؛ فليس لى إلا تقصير عن المُطاولة وإمساك ، والعجز عن دَرْك الإدراك إدراك . إيه أَيها السيِّد الأَعْلى ، والفاضل الذى له فى قِداح الفخر ، القِدْحُ المُعلَّى ؛ فإنك أَمَرْت أَن أعرض عليك لتَّعريف بنفسى ومَوْلدى ، وذكر أَشياخى الذين بأَنوارهم أَقْتَدى ،

فعلمتُ أن هذا إنما هو تهمُّمٌ منك بشأنى ، وجَرْىٌ على مُعتاد الفضل الذى يَقْصُر عنه لسانى ، وفضل جميل لا أزال أجْرى فى الثناء عليه مِلْءَ عِنانى . وإلاّ فمن أنا فى الناس حتى أُنْسَب .أو من يذهب إلاّ أنت هذا المذهب .

اما التَّعريف بنفسى ، فأبدأ فيه باسم أبى . هو أبو القاسم محمد بن عطيه بن يحيي بن عبد الله بن طلحة بن أحمد بن عبد الرحمن بن غالب ابن عطية المحاربى . وجدِّى عطية هو الدّاخل إلى الأندلس عام الفتح ، نزل بإلبيرة ، وبها تفرَّع من تفرَّع من عَقِبه . إلى أن انتقلوا إلى غرناطة ، فتأثَّل بها حالُهم ، واستمر بها استيطانهم ، إلى حدود المائه السابعة ، فتَسَبَّب فى الانتقال من بقى منهم ، وهو جدِّى الأقرب الأنساب ، وقضى ارتحاله إلى مدينة وادى آش ، ولكل أجلٍ كتاب . وذلك أنه استُقْضى بنظر ما فى دولة أمير المسلمين الغالب بالله ، أول ملوك هذه الدولة النصرية ، نصر الله خَلَفها ، ورحم سَلَفها ، فاتخذ فيها صِهراً ونَسبا ، وكان ذلك لاسْتيطانه بها سببا ، واستمر مُقامه بها إلى أن ارتحل إلى المشرق لأداء الفريضة ، فكان إلى أشْرف الحالات مُرْتَحله ، وقضى فى إيابه من الحج أمله . واستمرت به الاستيطان . وتعذَّرت بعوده إلى غرناطة بعدما نَبَتْ فيها الأوطان . على أنه لم يَعْدَم من الله السِّتر الجميل ، ولا حظٌ من عنايته بإيصال النِّعمة كَفيل ، فإنه سبحانه حَفِظ مَنْ سَلَف فيمن خَلَف ، وجعلهم فى حال الاغتراب ، فيمن اشتهر بنباهة الحال واتَّصف ، وقَيَّض لمصاهرتهم من خِيار المجد والشرف ، وبذلك حَفِظ الله بيتهم ، وشَمَل باتصال النِّعمة حيَّهم ومَيْتَهم . فالحمد لله ، بجميع محامِده ، على جميل عوايده . وتخلَّف بوادى آش أبى وأعمامى ، تغمدهم الله وإياى برحمته ، وجمع شملنا فى جَنَّته .

واما التعريف بهم ، فأنت أبقاك الله ، بمن سَلَف قديما منهم أعْلم ، وسبيلك فى معرفتهم أَجْدى وأَقْوم ، بما وهبكم الله من عَوارف المعارف ، وجعل لكم من الإحاطة بالتّالد منها والطّارف . وأما مَنْ لم يقع به تعريف ، ممن بَعْدهم . فمن اقْتَنى رَسْمهم فى الطريقة العلمية ، ولم يتجاوز جدهم وهو جدّى أبو بكر عبد الله بن طلحة ورابع أجدادى . كان رحمه الله ممن جرى على سُنن آبايه . وقام بالعلم أحسن قيام ، ونهض بأَعْبايه . أَلّف كتابا فى « الرقايق » ، ففات فى شَأْوه سَبْق السابق ، وتصدّر ببلده للفُتْيا ، وانتفع به الناس ؛ وكان شيخهم المُقدم . ولم أَقِف على تاريخ مولده ولا وفاته ؛ غير أنه توفى فى حدود المائة الخامسة رحمه الله ، وأما مَنْ بينى وبينه من الآباء ؛ كجدّى الأَقرب وأَبيه ومن خَلَفه من بنيه . فما منهم من بلغ رُتْبة السّابق ، ولا قَصُر أَيضا عن درجة اللاّحق ، وإنما أَخذ فى الطلب بنَصِيب ؛ ورمى فيه بَسَهْم مُصيب .

وأَما مولدى فبوادى آش فى أواخر عام تسعة وسبع ماية . وفى عام ثلاثة وعشرين ، ابتدأت القراءة على الأُستاذ أبى عبد الله الطُّرسونى وغيره ممن يأتى ذكره . ثم كتبت بعد ستة أعوام على من وَلِيها من القضاة أولى العدالة والسِّيَر المرتضاة ، ولم يطل العهد حتى تقدّمت فى جامعها الأَعظم خطيبا وإماما ، وارتسمت فى هذه الخُطّة التى مازالت على من أَحسن تماما ، وذلك فى أَواخر عام ثمانية وثلاثين . ثم وُلّيت القضاء بها ، وبما يرجع إليها من النَّظر، فى شهر ربيع الأَول من عام ثلاثة وأَربعين ، واستمرّت الولاية إلى حين انتقالى للحضرة ، آخر رجب من عام ستة وخمسين ، أَسأَل الله الإقالة والصَّفح عما اقترفت من خطإ أَو زَلَل ، أَو ارتكبته من عَمْد وسَهْو ، فى قول أو عمل بمَنّه .

واما أشياخى ، فإنى قرأت بالحضرة على الأستاذ الخطيب أبى الحسن القيجاطى ، والأستاذ الخطيب أبى القاسم بن جُزى . وبمالقة على الأستاذ القاضى أبى عمرو بن مَنْظور . وبألمريَّة على الأستاذ القاضى أبى الحسن بن أبى العَيْش ، وسيِّدى القاضى أبى البركات بن الحاج ، والأستاذ أبى عثمن بن ليون ، وبوادى آش على الأستاذ القاضى أبى عبد الله بن غالب ، والأستاذ أبى عامر بن عبد العظيم . كل هؤلاء قرأت قراءة تفقُّه ، وعَرضتُ على أكثرهم جملة كتب فى النحو والفقه والأدب ، أكبرها كتاب المقامات للحريرى . وأما من لقِيته من المشايخ واستفدت ، منهم أبو الحسن بن الجيّاب بالحضرة ، وبمالقة القاضى أبو عبد الله بن بكر ، والقاضى أبو عبد الله بن عيّاش ، والأستاذ أبو عبد الله بن حفيد الأمين . ومن لقِيته لقاءَ بترك ، سيدى أبو جعفر بن الزيات ببلِّش ، وبمالقة الخطيب أبو عبدالله السّاحلى ، والصُّوفى أبو الطاهر بن صفوان ، والمُقْرى أبو القاسم بن درهم . وبألمرية الخطيب أبو القاسم بن شُعيب ، والخطيب ابن فرحون . ولقِيت إيضا القاضى أبا جعفر بن فَرْكون القرشى ، والقاصى الخطيب أبا محمد بن الصابغ . وممن رأيته بوادى آش ، وأنا إذ ذاك فى المكتب ، وأخذت بحظٍّ من التبرك به ، سيدى أبو عبد الله الطَّنجالى نفع الله به . والحمد لله رب العالمين .

شــعره

من مطولاته قوله . ومن خطِّه نقلت :

أَلا أيها اللَّيل البطئُ الكواكب ... متى يَنْجلى صبحٌ بنَيْل المـآرب
وحتّى متى أرعى النجـوم مُراقبا ... فمن طالع منها على إثر غارب
أحدِّث نفسى أن أرى الرَّكب سايرا ... وذنبى يُقْصِينى بأَقْصَى المغـارب

فلا فزْتُ من نَيْل الأَمانى بطايل ولا قُمْتُ من حق الحبيب بواجب
وكم حَدَّثتنى النفس أن أَبلُغ المُنا وكم علَّلتنى بالأَمانى الكَواذب
وما قصُرت بِى عن زيارة قبْره معاهد أُنْس من وِصال الكواعب
ولاحبٌّ أوطان نبَتْ بى ربُوعها ولا ذِكر خِلٍّ فيهما وصاحب
ولكن ذنوبٌ أَثْقَلتنى فهأنا من الـوَجْد قد ضاقت علىّ مذاهب
إليك رسول الله شوقى مُجَدَّدٌ فياليتنى يمَّمت صَدْر الركايب
وأَعملت فى تلك الأَباطِح والرُّبى سُراى مُجداً بين تلك السَباسِب
وقضيتُ من لثْم البَقِيع لُبانتى وجُبت الفلى ما بين ماش وراكب
ورويتُ من ماءِ زمزم غُلَّتى فللّه ما أَشهاه يوماً لشارب
حبيبى شَفيعى مُنتهى غايتى التى أُرَجى ومن يرجوه ليس بخايب
محمد المختار والحاشِر الذى بأَحْمَد حاز الحَمْد من كل جانب
رؤوفٌ رحيمٌ خصَّه الله باسمه وأَعظم لاجٍ فى الثَّناءِ وعاقب
رسول كريم رفع الله قَدْره وأَعْلَى له قدرا رفيعَ الجوانب
وشرَّفه أَصلاً وفرعاً ومَحْتِداً يزاحم آفاق السُّهى بالمناكب
سراجُ الهُدى ذو الجاه والمجد والعلا وخير الوَرى الهادى الكريم المناسب
هو المصطفى المختار من آل هاشم وذو الحَسَب العَدْل الرفيع المناصب
هو الأَمَدُ الأَقصى هو الملجأُ الذى ينال به مرغوبَه كلُّ راغب
إمام النبيِّين الكرام وإنه لَكا لَبَدْر فيهم بين تلك المواكب
بشير (١) نذير مفضل متطَوِّل سراجٌ منير بذَّ نور الكواكب
شريف مُنيف باهر الفضل كاملٌ نفيس المعالى والحُلا والمناقب
عظيم المزايا ماله من تماثُل كريم السَّجايا ماله من مُناسب

(١) وردت فى الإسكوريال محرفة (نشير).

ملاذٌ منيـع ملجأٌ عـاصم لمـن ... يلـوذ به من بيـن آتٍ وذاهب
حليمٍ[١] جميل الخَلْق والخُلُق ماله ... نظيرٌ ووصف الله حجّةُ غالب
وناهيك من فرع نمته أصوله ... إلى خير مجد من لؤى بن غالب
أولى الحسب العدّ الرفيع جنابه ... بدور الدّياجى أو بدور الركايب
له معجزات مالها من مُعارض ... وآيات صدقٍ مالها من مُغالب
تهدّى بهنّ الخلق شَرْقا ومغربا ... وماذاك عمّن حاد عنها بعايب
فدونكَها كالأنجم الزُّهر عدّةً ... ونور سَنى لا تختفى للمُراقب
فإحصارُها مهما تُتُبّعت مُعوز ... وهل بعد نور الشمس نورٌ لطالب
لقد شرّف الله الوجود بمُرْسل ... له فى مقام الرُّسْل أعلى المراتب
وشرّف شَهْراً فيه مولده الذى ... جلا نوره الأسْنَى دَياجى الغَياهب
فشهر ربيع فى الشُّهور مقدَّم ... فلا غرو أن للفَخْر ضَرْبةُ لازب
فلله منه ليلةٌ قد تلألأت ... بنور شهابٍ نيِّر الأفق ثاقب
ليَهْنَ أمير المسلمين بها المُنا ... وإن نال من مولاه أسنى الرَّغايب
على حين أحياها بذكر حبيبه ... وذكر الكرام الطاهرين الأطايب
وألّف شَمْلاً للمحبّين فيهم ... فسار على نَهَجٍ من الرشد لاحِب
فسوف يُجازى عن كريم صنيعه ... بتخليد سُلطان وحُسن عواقب
وسوف يُريه الله فى لَهم دينه ... غرايب صُنع فوق كلّ الغرايب
فيحمى حِمى الإسلام عمن يَرُومه ... بسُمْر العوالى أو ببيض القواضب
ويعتزّ دين الله شرقا ومغربا ... بما سوف يبقى ذكره فى العجايب
إلآهى مالى بعد رحماك مطلبٌ ... أراه بعين الرُّشد أسنى المطالب
سوى زَوْرة القَبر الشريف وإنها ... لموهبةٌ فاتت جميع المواهب

---

(٢) وردت فى الإسكوريال (حلميل) .

عليـه سلام الله مالاح كوكـب ‏ ‏ ‏ ‏ وما فارق الإظعـان حادى الرَّكايب

وقال فى غرض المدح والتَّهنئة بعَرْض الجيش ، وتضمَّن ذلك وصف حاله فى انتقاله إلى الحضرة :

يا قاطع البيد يَطْوى السَّهل والجَبَلا ‏ ‏ ‏ ‏ ومُنْضيا فى الفَيافى الخَيْل والإبِلا
يبْكى فى آفاق أَرض لا يُونسه ‏ ‏ ‏ ‏ إلاّ تذكرٌ عهد للحبيب خَـلا
أَو ظَبْيةٌ أذْكَرت عهدالتَواصل تحكى ‏ ‏ ‏ ‏ اللِّحـاظ التى عاهَـدت والمُقَلا
أَستغفر الله فى تلك اللِّحـاظ فقد ‏ ‏ ‏ ‏ أَرْبَى بها الحُسْن عن ضَرْب المَها مثلا
أَو هادِلٍ فوق غُصن البان تَحْسَبه ‏ ‏ ‏ ‏ صبًّا لَفقد حبيب بان قد ثَكلا
أَو لامع البرق إذ تَحكى إنارته ‏ ‏ ‏ ‏ كفًّا خَضِيباً مُشيرا بالـذى عَذَلا
ماذا عسى أَن تقضى من زمانك فى ‏ ‏ ‏ ‏ قَطْع المَهامه تَرْجُو أَن تنال عُلا
وكم مَعالمَ أَرضٍ أَو مجاهِلَهـــا ‏ ‏ ‏ ‏ قطعتَها لا تملُّ الـريْث والعَجـلا
إن كنتَ تأْمُل عـزّاً لا نظير له ‏ ‏ ‏ ‏ وتَبْتَغى السُّول فما شِيتَ والأَمَلا
فالعزُّ مرسىً بعيدٌ لا يُنال سوى ‏ ‏ ‏ ‏ بعزم مَنْ شدَّ عَزْم البَيْن وارتحلا
والدُّر فى صَدَفٍ قلَّت نفاستـه ‏ ‏ ‏ ‏ ولم يَبِن فخـره إلاّ إذا انتقـلا
فاربأْ بنفسك عن أَهـل وعن وطن ‏ ‏ ‏ ‏ . . . . (١)
وانْسَ الدِّيار التى منها نأَى وطنى ‏ ‏ ‏ ‏ وعهـد أُنْس به قَلْبُ المحب سَلا
وعَدِّ عن ذكر مَحْبوبٍ شُغِفْت به ‏ ‏ ‏ ‏ ولا تَلُمْ به مدحـا ولا غَـزَلا
واقصد إلى الحَضْرة العُليا وحُطَّ بها ‏ ‏ ‏ ‏ رَحْلاً ولا تَبْغ عن أَرجائها حِوَلا
غرناطة لا عفَا رَسْمٌ بها أَبـداً ‏ ‏ ‏ ‏ ولا سَلا قلب من يَبْغى بها بَدَلا
فهى التى شرَّف الله الأَنام بمـــن ‏ ‏ ‏ ‏ فى مَقْعد المُلْك من حَمْرائها نَزَلا
خليفـــة الله مولانـــا وموئِلُنـــا ‏ ‏ ‏ ‏ وخيـر من أَمَّنَ الأَرجـاء والسُّبلا

(١) فى المخطوط بياض مكان هذه الشطرة .

محمد بن أَبي الحجاج أفضل من ... قَدْ قام فينا بحقِّ الله إذ عدلا
من آل نَصْر أولى المُلك الذى ... بَهرت عُلاه كالشمس لما حلَّت الحَمَلا
هو الذى شرَّف الله البلاد ومن ... فيها بدولته إذ فاقت الدُّوَلا
أقام عدلا ورفقا فى رعيَّته ... وكان أرحم من آوَى ومن كَفَلا
فهو المُجار به من لا مُجير له ... لم يخش إحن الليالى فادحا جللا
إن المدائح طُرّا لا تنى أبدا ببعض ... ما قد تحلّاً من نفيسِ عُلا
بالحزم والفهم والإقدام شيمتُه ... والجود مما على أوصافه اشْتَملا
إن قال أجمل فى قول وأبدعه ... والفعل أجملُ منه كلما فَعَلا
يولِى الجميل ويُعطى عزَّ نايِله ... من قد رَجاه ولا اسْتَجدى ولا سأَلا
مَنْ سائلى عن بنى نصر فما أحد ... منهم بأَبْلَغ منهم كلما سُئلا
هم الذين إذا ما استُمنحوا منَحوا ... أَسنى العطا وأبدوا بعده الخجلا
هم الألى مهَّدوا أَرْجاءِ أندلس ... إذ حكَّموا فى الأَعادى البيض والأَسلا
فإن تَسَلْ عنهم يوم الرِّهان فلم ... يعدل بأَحْدَثهم فى سنِّه بَطَلا
من ذا يجاريهم فى كل مَكْرَمة ... أَيُشْبِه البحر فى تمثيله الوَشَلا
مولاى يا خير من للنَّصر قد رُفعت ... راياته ولواءُ الفخر قد حملا
لله عينى لمَا أَبْصَرتْكَ وقد أعددتَ بين يديك الخيل والخَوَلا
وأنت فى قُبَّة يسمو بها عُمدٌ ... أَقام منّا دَامر الدِّين فاعتدلا
والجيش يَغْشى عيون الخلق منظره ... لما اكتسى منك نورَ الحق مكتملا
لا غرو أنَّ شُعاع الشمس يشمل ما ... أَضحَى عليه إذا ما لاح مُنْسَدلا
وراية النصر والتأْييد خافقةٌ ... قد أَسْبَل الله منها النصر فانْسَدلا
والخيلُ قد كُسِيت أثواب زينتها ... فمن براقِعها قد أُلْبِست حُللا
ترى الحُماة عليها يوم عرضهم ... يَمْشُون من فرط زَهو مِشْية الخُيَلا

فمن رُماةٍ قِسِيُّ العُرْب عُدَّتهـا   تَحْـكى الأَهلَّة مهما نورها اكْتَملا
ومن كُماةٍ شِداد البـأْس شأْنهم   أن يعملوا البيض والخطِّية الذُّبلا
بسعدك انتظمت تلك الجيوش لأَن   أَسْهَمت فى نَظْمها أسلافُك الأُولا
وخلَّد الله مُلْـكا أنت ناصـره   ما عاقبت بُكَرٌ من دهرنا الأُصَلا
لازلت تزداد بها نُعْمى مضاعفة   لتملأَ الارض منها السَّهل والجَبَلا

ومن ذلك قوله :

يا عاذلى فى الهوى أقصر عن العَذَل   وعن حديثى مع المحبوب لا تَسل
فكيف أُصْغى إلى عَذَل العذول وقد   تقلَّص القلب منى صايد المُقَل
تملَّكته كما شاءت بنظرتها   فتَّانة الطَّرف والأَلحاظ تنهدل
مُعبرِّة عن نفيس الدُّر فاضحة   بقدِّها الغضِّ الميَّاس فى الوِيَل
من نور غُرَّتها شمسٌ تروق سَنًى   تحتلُّ منها محلَّ الشمس فى الحَمَل
يا حبذَّا عهدُنا والشمل مُنتظم   بجانب الغوُر فى أيَّامنا الأُول
أَيام أَعْيُن هذا الدهر نائمة   عنَّا وأحداثُه منا على وجَل
وحبذَّا أَرْبُعٌ قد طال ما نَظَمت   عِقْد التَّواصل فى عَيْشٍ بها خَضِل
قضيتُ منها أمانى النَّفس فى دَعة   من الزمان مُوَفَّى الأُنْس والجَذل
سَطى الغمام رُباها كلَّ مُنْهَمِرٍ   وكم سَطَتْها دموعى كلَّ مُنْهمِل
وجادها من سماء الجُود صوبُ حياً   بالعارض المَطِل ابن العارض المَطِل
خليفة الله والماحِى بسيرته   رَسْم الضَّلال ومُحيى واضح السُّبل
محمد بن أَبى الحجاج أَفضل من   سارت أَحاديث عَلْياه سُرى المَثَل
والباعث الجيش فى سَهْل وفى جَبَل   حتى تُغَصُّ نواحى السَّهل والجَبَل
من آل نصر أُولى الفخر الذين لهم   مزيَّة أُورِثت من خَاتم الرسل
مهما أَردت غَنَاءً فى الأُمور به   شاهدت منه جميع الخَلْق فى رَجُل

لن يستظلَّ بعليــاه أخو أَمل ... إلا غدا تحت ظلٍّ منه مُنسدل
ولا استجار به مَنْ لا مُجـير له ... إلا كَفاه انتياب الحادث الجَلَل
يُنْمىَ إلى معشر شاد الآله لهـم ... مُلْكاً على سالف الأَعْصار لم يزل
بمُلكهم قد تحلَّى الدهر فهو به ... والله واليه لا يخشى من العَطَل
هم الأُلى نصروا أَرجاء أندلس ... بالمشْرَفيّات والخطِّيــة الذُّبُل
هم الأُلى مهَّدوا دين الهدى فسَمَت ... فى الخلق مِلَّته العَليا على المِلل
من أَمّهم صادِىَ الآمال نال بهم ... جودا كفيلا له بالمَعْل والنَّهل
أَو أَمّهم ضَاحِياً أَضحى يُجرِّر من ... فضل النَّوال ذيول الوَشْى والحُلل
إن الفضايل أضحت لاسْمِه تَبَعاً ... كالنَّعت والتأْكيــد والبدل
مولاى خذها تروق السّامعين لها ... بما أَجادته من مدح ومن غزَل
لكننى باعتبار عِظَم ملكك لم أَجِد ... لعَمْرى فى مدْحى ولم أُطل
فإن خُبِّرت كذاك الخَلْق أَجْمَعِهم ... سِيّان مُحتَفــل أو غير مُحْتفل
لازلت فخر ملوك الأَرض كلِّهم ... تسمو بك الدولة العَلْيا على الدول
ودُمْتَ للدهر تَطْويــه وتنشُرُه ... مُبَلَّغــا كلمّا تَبْغى من الأَمــل

ومن ذلك ما نظمه ليُنقش فى بعض المبانى التى أَنشأْتُها :

أنا مَصْنعٌ قد فاق كل المصانع ... فما منزلٌ زهى بمثل بــدائع
فرسمى إذا حَقَّقْتــه واعْتَبرتـه ... لـكل المعانى جامعٌ أَىَّ جامـع
فقــد جمع الله المحاسن كلَّها ... لدىَّ فيا لِلّه إبــداع صانـع
ظلَّ كما جُمعت كلُّ الفضائل فى الذى ... بسُكناى قد وافاه أَيْمَنُ طالع
وزير أَمـير المسلمين وحَسْبُـه ... مزيّـة فخـرٍ مالها من مُدافـع
وذو القلم الأَعْـلى الذى فِعْـلُه ... لمـن يؤمله مثلُ السّيـوف القواطع
ومُطلــع آيـات البيـان لمُبصر ... كشمس الضُّحى حلّت بأَسنى المطالع

وإنسان عَيْن الدهر قرَّت لنابه ... عيونٌ وطابت منه ذِكرى المسامع
هو ابن الخطيب السيِّد المُنتمى ... إلى كِرامٍ سَمُوا ما بين كَهْل ويافع
لقد كنت لولا عَطْفة من حَنانه ... أُعَدُّ زمانا فى الرُّسوم البلاقع
فصيرَّنى مَغْنىً كريما ومَرْبعا ... لشمل بأُنْس من حَبيبى جامع
فها أنا روضٌ يروق نسيمُه ... كما رقَّ طبعاً ماله من مُنازِع
وقد جَمَعَتْنا نسبة الطَّبع عندما ... وقَعْتُ لمرآه بأسنى المواقع
فأَشبه إزهارى بطيب ثنايه ... وفضلُ هواى باعتدال الطبايع
فلا زلتُ معموراً به فى مسرة ... معدّاً لأَفراح وسعد مطالع
ولا زال من قد حلَّنى أَو يَحلُّنى ... مُوَفَّى الأَمانى من جميل الصَّنايع
ودام لمولانا المؤيد سعدُه ... فمن نوره لنا كل ساطع

وفى التهنئة بإبلال من مرض :

الآن قد قامت الدُّنيا على قدم ... لما استقلَّ رئيس السيف والقلم
والآن قد عادت الدنيا لبهجتها ... مذ أَنِسَت بُرْءه من طارق الأَلم
والآن قد عمت البُشرى براحته ... فلم تزل للوَرى من أَعظم النعم
لا سيما عند مثلى ممن اتَّضحت ... منه دلايل صدق غير متهم
فكيف لى وأَيادى فضله مَلكَت ... رقِّى بما أَجْزَلت من وافر القسم
وصيرَّتنى فى أَهلى وفى وطنى ... وبين أَهل النُّهى ناراً على علم
وأَحْسَبت أَملى الأَقْصَى لغايته ... إذ صرتُ من جاهه المأْمول فى حَرَم
وماذا عسى أن أُوفِّى من ثناى أَو ... أُنهى إلى مجده من فاضل الشِّيم
ولو ملكتُ زمام الفضل طَوْع يدى ... قصَّرتُ فى ضمن منثور ومنتظم
يُهنيك بُشرى قد استَبشرت مذ وردت ... بها لعمرك وهو البرُّ فى الضِّيم
ومذ دَعَتْ هذ البشرى بتَهْنِية ... فنحن أَوْلى ومحض العهد والكرم

لازلتَ للعزَّة القعْساءِ مُمتطيـــا مُستصحبا لعلاءٍ غير مُنْصرِم
ودمتَ بَدْر سَنًى تَهدى إنارته فى حيث يَغْضُل خَطْب أو بحار عَم
ولا عدِمت بفضل الله عافيةً تستصحب النِّعم المُنْهَلَّة الديم

وليس لهذا العهد للرجل انتحالُ لغير الشِّعر والكتابة . وغير هذا للشعر فِراره ، فقلَّ أن ينتهى الشِّعر فى الضَّعة والاسْتِرذال إلى ما دون هذا النَّمط ، فهو بعيرٌ [1] ثان : شِعراً وشكلاً وبلداً ، لَطَف الله به . وهو لهذا العهد ، على ما تقدم من النكبة ، واتِّصال السُّخط من الدولة . تَغمَّدنا الله وإياه بلطفه ، ولا نَكَص عنا ظلَّ عنايته وسَتره .

« مولده » : حسبما تقدم من بَسْط حاله مما قيَّده بخطِّه فى عام تسعة وسبعماية .

عبد الرزّاق بن يوسف بن عبد الرزّاق الأشعرى

من أهل قرية الأنجرون من إقليم غرناطة ، أبو محمد .

حـــاله

فقيه أديب كاتب سَرِى . موصوف بكرم نَفْس ، وحُسْن خُلُق . لَقِى أشياخا وأخذ عنهم

شعره

يا مُنَعَّما مــازال من أُمِّـــه يَــرْفل فى السّابغ من أمْيَّتِه
ويــا حُسامًا جــرَّدَتـــهُ العُــلا فــريع صرفُ الدهـر من سُكوته
عَبْدك قــد ساءت هنـا حاله شَوْقا لمن خَلَف مــن إخـــوته

---

(١) ورد فى هامش المخطوط تعليقه على هذه الكلمة من يأتى . « يريد والله أعلم أنه كان يشبه للشيخ عبد العظيم الوادى آشى الملقب بالبعير » .

شوقـاً يبث الجمر في قلبه ... ويخلع للسهد على مُقْلتـه
فسكّن المؤلم من شوقه ... وانس المُقلق من وَحشته
وامنن عليه ببلوغ المنى ... في علمكم من مقتفى بُغيته
وهاكها نمنمة ذى خجلة ... تفهم ما يلقيه من نفثته
إذا شدا مدّاحكم ساجعاً ... يحسده الطيّار في نغمته

« وفاته » : سنة إحدى وسبعين وخمسماية عن سن عالية [١] .

عبد الملك بن سعيد بن خلف العنسى

من أهل قلعة يحصب [٢] من عمل إلبيرة .

حاله ونسبه

هو عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد ابن الحسن بن عثمن بن محمد بن عبد الله بن سعد بن عمّار بن ياسر ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان عينا من أعيان الأندلس ، مُشاراً إليه في البيت والرأى . والجزالة والفضل . عَلقت به الآمال ، ورُفعت إليه المدائح . وحُطّت لديه الرِّحال . وكان من أولى الجلالة والنّباهة . والطّلب والكِتابة الحسنة . والخطّ البارع . واشتمل على حُظوة الأمير يحيى بن غانية اللّمتونى . وكتب عنه . بلده قلعة بنى سعيد . فثقفها ، وجعل بها أكبر بنيه عبد الرحمن ضابطا لها وحارسا . فحصّنها أبو مروان ومهدها بالعمارة . فكانت في الفتنة مَثابةً

(١) وردت هذه الترجمة في الإسكوريال ولم ترد في الزيتونة .

(٢) قلعة يحصب أو قلعة بنى سعيد، سبق التعريف بها (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ١١١ حاشية) .

وأَمْنا ، وحِرْزا له ولبنيه ؛ فانْجَلت الناس إليها من كل مكان . ولما قَبض ابن غانية [١] على القُمط مَرين وأصحابه النصارى عندما وصلوا لاستنجاز الوعد فى الخروج عن جيّان ؛ وتحصّلوا بيده بإشارة عبد الملك ابن سعيد ، حسبما ثبت فى اسم الأمير يحيى ؛ ثَقَّفهم بالقلعة بيد ثِقَته المذكور وأمينه أَبى مروان ، فتحصلوا فى مَعْقل حَريز ؛ عند أمير وافر العقل ، سديد الرأى . ومات ابن غانية بغرناطة لأَيام قلائل ، واختلف قومه ؛ فنظر أَبو مروان لنفسه ، وعاهد القُمط مرين ومن معه من الزعماء على عُهود ، أَخذها عليهم وعلى سلطانهم ، أن يكون تحت أَمْنٍ وحفظ طول مدَّته ، فأُجْريت القلعة فى الأَمن والحماية ، وكفٌّ أيدى التَّعدى مجرى ما لمُلك النَّصرى [٢] من البلاد ، فشَمِل أهلها الأَمن ، واتسعت فيها العمارة ، وتنكبتها النَّكَبات ، وتحاشَتْها الغارات . ولم يزل أَبو مروان بها إلى أَن دخل فى أَمر الموحدين . ووصل هو وابنه إلى السيد أَبى سعيد بغرناطة ، وحضر معه غَزْوة أَلمريَّة ، ثم دخل بجملته ، فكمل له الأَمن ، وأُقِر على القلعة ، وأُمِر بسُكنى غرناطة بولده . ثم وصل ثانية إلى مراكُش صحبة السيد أَبى سعيد ، ولقِى من البرِّ ولُطْف المكانة عادته ، واستَكْتب ابنه أحمد بن أَبى مروان الخليفة فى هذه الوجهة ، وانتظم فى جملة الكُتّاب والأَصحاب .

محنته

وعاد أَبو مروان وبنُوه إلى غرناطة صُحبة واليها السّيد أَبى سعيد ،

---

(١) هو يحيى بن غانيه كبير قواد المرابطين فى الأندلس . وقد سبق التعريف به (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ٩٧ حاشية) .

(٢) هكذا وردت فى الإسكوريال . ومعناها هنا النصرانى . وأن تنعم القلعة بالسلام أسوة بأملاك ملك النصارى .

فبقى فى جملة العسكر عند دخول ابن مَرْدَنيش وصِهره غرناطة ، وقد اضطربت الفتنة ، وفَسَد ما بين السيد وبين أَبى جعفر بن أَبى مروان منهم ، بما تقدَّم فى اسمه من حديث حفصة[1] . ولما ظهرت دلايل التغير ، وخافوا على أنفسهم ، أَداروا الرأى فى الانحياز إلى خدمة ابن مردنيش ، ونهاهم والدهم أبو مروان ، وأشار عليهم بمصابرة الأَمر ، فلحق عبد الرحمن بالقلعة ، وفرَّ أَحمد لما انكشف الأَمر ، وعُثِر عليه بجهة مالقة ، فقُتِل ، وانجرَّت بسبب ذلك النكبة على عبدالملك وابنه محمد . فبقيا بغرناطة ، ومن يُشار إليه من أهل بيتهما ، واسْتُصْفِيت أَموالهما ، واستخلصت[2] ضياعهما ، إلى أن ورد كتاب الخليفة أَبى يوسف يعقوب بن عبد المؤمن بن على بإطلاقهم ورد أَموالهم،بما اقتضته السياسة من استمالة من نزع منهم عن الطاعة . وأَمر عبد الملك باستِيلاف نافِرهم . ولما هلك ابن مرد نيش ، ورُدَّ من اتصل به صحبة المُستأْمنين من أَولاد الأَمير الهالك ، فقدموا على رحب وسَعة . وثاب جاه أَبى مروان ، واتصل عزُّه ، واتسعت حُظْوته ، إلى أنهلك بعد أن وُلى بمراكش النَّظر فى العُدَّة والأَسلحة ، والقيام على دار الصَّنعة .

« وفاته » : بغرناطة سنة ستين وخمسماية[3] .

عبد العزيز بن على بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد العزيز بن يسمت[4]

من أهل غرناطة ، يكنى أبا سلطان .

---

(١) راجع المجلد الأول من الإحاطة (ص ٢١٧ – ٢١٩) .

(٢) إستخلصت ضياعهما ، أى وضعت فى المستخلص أو الأملاك السلطانية .

(٣) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال ولم ترد فى الزيتونة .

(٤) هكذا وردت فى الإسكوريال ، وفى الزيتونة (كثت) .

حـــاله

فاضل ، حَيِىّ ، حسن الصورة ، بادى الحشمة ، فاضل البيت ، سريُّه . كتب فى ديوان الأعمال ، وترقَّى إلى الكَتْب مع الجملة بالدار السلطانية ، وسَفَر فى بعض الأغراض الغَرْبية ، ولازم الشيخ أبا بكر بن عتيق بن مُقَدِّم ، من شيوخ الصُّوفية بالحَضْرة ، فظهرت عليه آثار ذلك فى نظمه ومقاصده الأدبية .

شعره

وشعره لا بأس به ، ومن أمْثَله قوله ما أُنْشد له فى ليلة الميلاد الأعظم :

القلب يعشق والمدامع تنطـق   بَـرح الخفـاء فـكل عُضو منطق

[قلت ، قد ذكرها ابن الخطيب فى جملة ما أُنْشد فى الميلاد الأعظم فى السفر الخامس ، فلا فائدة فى تكرارها هنا][1] .

ومما خاطبنى به :

أطلتُ عَتْبَ زمان فلَّ من أملى   وسِمَته الـذَّم فى حِلٍّ ومُرْتحل
عاتبتـه ليُلـين للعَتْب جانبـه   فما تراجع عن مَطْل ولا بُخْل
فعدت أمنحه العُتْبى ليشفق بى   [فقال لى إنَّ سمعى عنك فى شَغل
فالعَتْب عندى والعُتْبى فلست أرى   أصْغى لمدحك إذ لم أُصْغ للعَذَل
فقلت للنِّفس كُفِّى عن مُعاتبةٍ لا   تنقضى وجواب صِيغ من وَجَل
من يَعْتَلق بالدُّنا بابن الخطيب فقد   سَما عن الذُّل واستوى على الجَذَل
فقلت من لى بتَقْريبى لخدمتـه   فقد أُجاب قريبـا من جوابك لِ
قد اشتغلتُ عن الدُّنيا بآخرتى   وكان ما كان فى أيّامى الأُول

---

(١) واضح أن ما بين الحاصرتين ، هو من إنشاء ناسخ المخطوط ، وقد وردت هذه القصيدة فى نفح الطيب ج ٣ ص ٤٦٦

وقد رَعيتُ وما أهملتَ من مِنح — فكيف يختلط المرعيُّ بالهَمَل
ولست أرْجع للدُّنيـا وزُخْرفها — بعد شيْب غدا فى الرأس مُشْتعل
أَلَسْتَ تبصر أطْمارى وبُعدى عن — نَيْل الحظوظ وإعدادٍ إلى أجَل
فقال ذلك قولٌ صَحّ مُجمله — لكنَّ من شأْنه التَّفصيل للجُمَل
ما أنت طالب أمر تَسْتَعين به — على المظالم فى حالٍ ومُقْتبل
ولا تُحِلُّ حراماً أو تُحرِّم ما — أحلَّ ربُّك فى قول ولا عمل
ولا تَبغ آجل الدُّنيا بعاجلها — كما الوُلاة تبيع السَّمَّ بالوَشَل
وأين عنك الرَّشا إن كنت تطلبها — هذا لعمرى أمرٌ غير مُنْفَعل
هل أنت تطلب إلاَّ أن تعود إلى — كَثْب المقام الرَّفيع القَدْر فى الدول
فما لأَوْحَدِ أهل الكَوْن قاطبة — وأَسْمَح الخَلْق من حافٍ ومُنْتَعل
لم يلتفت نحو ما تَبْغيه من وَطَرٍ — ولم يَشِدَّ الذى قد بان من خلل
إن لم تَقَعْ نظرةٌ منه عليك فما — يَصْبُو لديك للَّذى أَملْت من أمل
فدونك السِّيد الأَعلى فمطلبكم — قد نِيط منه بفضلٍ غير مُنفصل
فقد خَبرْتُ بنى الدنيا بأَجمعهم — من عالم وحكيم عارفٍ دول
فما رأيتُ له فى الناس من شبهٍ — قلّ النَّظير له عندى فلا تسل
فقد قصدتك يا أَسْمى الورى نَسباً — وليس لى عن عَلْياك من حِوَل
فما سواك لما أَمَلْتُ من أمل — وليس لى عنك من زَيْغ ولا مَيْل
فانظر لحالى فقد رقَّ الحسود لها — واحْسِم زمانةً ما قد ساء من عِلل
قدِّم لنا ولدِين الله تَرْفَعُه — ما أَعْقَبت بُكَر الإِصباح بالأُصُل
لازلت مُعْتليا عن كل حادثة — كما عَلَتْ ملَّةُ الإِسلام فى الملَل

عبد البر بن فرسان بن إبراهيم بن عبد الله بن عبد الرحمن الغسانى

وادى آشى الأصل ، يكنى أبامحمد .

حـــاله

كان من جلَّة الأُدباء . وفحول الشعراء ، وبَرعة الكُتَّاب . كتب عن الأَمير أَبى زكريا يحيى بن إسحق بن محمد بن على المسُّوفى الميُورقى[1] . الثائر على منصور بنى عبد المؤمن[2] . ثم على من بعده من ذريته إلى أيام الرَّشيد منهم ، وانقطع إليه وصَحِبه فى حركاته ، وكان آية فى بُعْد الهمَّة ، والذهاب بنفسه ، والعنا ، ومواقف الحرب ، فإنه دَهِم فى المثل ، أَشبَه امرءاً يعضُ بَزِّه ، فقد كان أَليقَ الناس بصُحْبة الميُورقى ، وأنسَبهم إلى خدمته .

« مشيخته » : روى عن أَبى زيد بن السُّهيلى .

بعض أخباره

فى البأْو والصَّرامة . حدَّثنا شيخنا أَبو الحسن بن الجيَّاب عمن حدثه من أَشياخه ، قال ، وجَّهه الميورقى فى عشِيَّة يوم من أَيام حروبه إلى المأزق ، وقد طال العِراك ، وكاد يكلُّ الناس عن الحرب . إلى أن يباكروها من الغد ، فنَفَذ لما أُمر به.ولما بلغ الصَّدر ، اشتد على الناس ، وذَعِر أَرباب الحفيظة ، وأَنهى إليهم العزم من أَميرهم فى الحَمْلة ، فانهزم عدوهم شرَّ هزيمة ، ولم يَعُد أَبو محمد إلا فى آخر الليل بالأَسلاب والغنيمة .

(١) سبق التعريف بأبى زكريا يحيى بن إسحاق المسوفى الميورقى المعروف بابن غانية (راجع المجلد الأول من الإحاطة ص ٣١١ — حاشية) .

(٢) الإشارة هنا إلى الخليفة الموحدى أبى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الملقب بيعقوب المنصور الذى حكم من سنة ٥٨٠ هـ إلى سنة ٥٩٥ هـ (١١٨٤ — ١١٩٩ م) .

وقال له ما حملك على ما صنعت . فقال له . الذى عَمِلت هو شأنى ، وإذا أردتَ من يَصْرف الناس عن الحرب ويُذْهب ريحهَم ، فانظر غيرى .

وحدثنى كذلك أنَّ وَلَدا له صغيرا : تشاجر مع تِرْب له من أولاد أميره أبى زكريا : فنال منه ولد الأمير : وقال وما قَدْر أَبيك . ولما بلغ ذلك أباه ، خرج مُغْضَبا لحينه . ولَقِى ولد الأمير المخاطِب لولده ، فقال حَفِظك الله : لست أشك فى أنى خديم أبيك . ولكنى أحبُّ أن أعرِّفك بمقدارى ومقداره : إعلم أن أباك وجَّهنى رسولا إلى الخليفة ببغداد بكتاب عن نفسه : فلما بَلَغتُ بغداد نَزلت فى دار اكتُريت لى بسبعة دراهم فى الشهر : وأُجْرى على سبعة دراهم فى اليوم : وطُولع بكتابى ، وقيل مَنْ الميورقى الذى وجَّهه : فقال بعض الحاضرين ، هو رجل مَغْرِبى ثائر على أستاذه . وأقمت شهرا . ثم استُدعيت إلى الانصراف ، ولما دخلت دار الخلافة : وتكلمت مع من بها من الفضلاء : أَرباب المعارف والآداب ، اعتَذروا لى .وقالوا للخليفة : هذا رجل جُهل مقداره : فأُعِدْتُ إلى محل ، اكتُريت بسبعين درهما : وأجرى على مثلها فى اليوم . ثم استُدْعيت ، فودعت الخليفة[1] : واقتضيت ما تيسَّر من جوابه : وصدر لى شىء له خَطَرٌ من صِلته . وانصرفت إلى أبيك . والمعاملة الأولى كانت على قدر أَبيك عند مَنْ يعرف الأَقدار ، والثانية كانت على قدْرى والمنَّة لله . وأخبار ابن فُرسان كثيرة .

شعره

وقد تعمم الأَمير بعمامة بيضاء ، ولبس غِفارة حمراء على جبَّة خضراء ، فقال :

(١) وردت فى الإسكوريال (الخلافة) . والتصويب أنسب للسياق .

فديتُك بالنَّفْس التى قد ملكتُها   بما أنت موليها من الكرم الغضِّ
تسوَدَّدت للحُسْن الحقيقى بهجةً   فصار بها الكُلِّى فى ذاك البعض
ولما تلألأ نور غُرَّتك التى   تقسم فى طول البلاد وفى العَرْض
تلقَّفْتها خضراء أحسن ناظر   نَبَت عنك إجلالا وذاك من الفَرض
وأسدلتَ حُمْر الملابس فوقها   بمفْرِق تاج المجد والشَّرف المَحْض
وأصبحتَ بدرا طالعا فى غمامة   على شَفق دان إلى خُضْرة الأَرض

ومن شعره ، ولا خفاءَ ببراعته :

ندّى مُخضلا ذاك الجناح المُنَمْنَما   وسُقْياً وإن لم تشْكُ يأْسا جعاضما
أَعِدْهُنَّ أَلحانا على سَمْع مُعرب   يُطارح مُرتاحا على القُضُب مُعْجما
وطِر غير مقصوص الجناح مرفَّها   مسوَّغ أشتات الحبُوب منعَّما

وقال أيضا رحمه الله :

كفى حَزَنا أنَّ الرماح صقيلةٌ   وأن الشَّبا رَهْنُ الصَّدا بدِمايه
وأَنَّ بياذِيق الجوانب فَرْزنت   ولم يَعِدْ رخُّ الدَّست بيت بنايه[1]

عبد العظيم بن عمر بن عبد الله بن حسّان الغسّانى

جليانى[2] من أهل وادى آش ، وتردد إلى غرناطة ، يكنى أبا محمد ، وأبا الفضل .

حاله

---

(١) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال ولم ترد فى الزيتونة .

(٢) نسبة إلى جليانة وهى محلة قديمة من أعمال وادى آش كانت تسمى جليانة التفاح لاشتهار هذه المنطقة بإنتاج التفاح الجيد الفاخر (ياقوت) . ولكنها دثرت اليوم ، ولا نجد لها أثراً فى خرائط أعمال غرناطة أو وادى آش الحديثة .

تجول ببلاد المشرق سائحا ، وحجّ ونزل القاهرة ، وكان أديبا ، بارعا حكيما ، ناظما ناثرا .

تواليفه

وله مصنفات منها « جامع أنماط السايل فى العروض والخطب والرسايل » ، أكثر كلامه فيه نظما ونثرا .

« مشيخته ومن روى عنه » . روى عنه أَبو الحسن على بن عبد الله ابن عبد الرحيم الخطيب بضريح الخليل ، وأَبو عبد الله بن يحيى المُرْسى .

شـــعره

قال من شعره :

ألا إنما الدُّنيا بحارٌ تــــلاطمت ... فما أكثر الغَرْق على الجَنَبات

وأكثر من لاقيت يُغرِق إلفَه ... وقلَّ فتىً ينجـو من الغَمَـرات

« وفاته » : سنة ثلاث وستماية[1].

تم المجلد الثالث

من كتاب الإحاطة

---

(١) وردت هذه الترجمة فى الإسكوريال ولم ترد فى الزيتونة .

فهارس المجلد الثالث

من كتاب « الإحاطة »

استــــدراك

ذكرنا فى مقدمة هذا المجلد من « الإحاطة » أننا سوف نمضى فى تراجمه حتى ترجمة عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين العكى ، وأنه سوف يشمل من مخطوط الإسكوريال مائة وثمان وتسعين لوحة ، من اللوحة ٨٥ إلى اللوحة ٢٨٣ . بيد أننا رأينا بعد ذلك ، لأسباب فنية ، أن ينتهى هذا المجلد بترجمة عبد العظيم بن عمر بن عبد الله بن حسان الغسانى ، مشتملا على مائة واحد وتسعين لوحة ، من اللوحة ٨٥ إلى اللوحة ٢٧٦ إسكوريال .

فهرست التراجم

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

فهرست الرسائل والقطع النثرية

صفحة

صفحة

فهرست الشعر والشعراء (١)

(١) نورد هنا أسماء الشعراء مرتبة على حروف المعجم ، ونشير إلى شعرهم بايراد الشطرة الأولى من البيت الأول من كل قصيدة أو مقطوعة من المنظوم .

فهرست الكتب والرسائل
التي ورد ذكرها خلال الكتاب

ل — ى

فهرست القبائل والطوائف والدول

فهرست البلدان والأماكن

أ

ب — ث

ف ــ ك

ل ــ م

هـ — ى

فهرست الأعلام

أ

ف — ك

م — ى